

الدكتورة
نادية ياسين عبد

الاتحاديون

دراسة تأريخية في جذورهم الاجتماعية وطروحاتهم الفكرية
(أواخر القرن التاسع عشر - ١٩٠٨)

تقديم الأستاذ الدكتور: هاشم صالح التكريتي

عدنان ADNAN

الاتحاديون

دراسة تأريخية في
جذورهم الاجتماعية وطروحاتهم الفكرية

(أواخر القرن التاسع عشر - 1908)

الدكتورة
نادية ياسين عبد

2014

الاتحاديون

دراسة تاريخية في
جذورهم الاجتماعية وطروحاتهم الفكرية

الدكتورة
نادية ياسين عبد

الطبعة الأولى 2014 م
عدد النسخ:1000
القياس : 17 × 24
عدد الصفحات: 496
الترقيم الدولي :
978-9933-495-42-8



بناية المكتبة البغدادية
07707900655 - 07901785386
07813515055 - 07901312029
Email: yaserbook@yahoo.com



سـوريـة ـ دمشـق ـ ص.ب 3397 -
هـاتـف: 095 13 22 11 00963 -
تلفاكس: 013 33 22 11 00963 -
موبايل: 818 411 991 00963 -
info@darsafahat.com

الإمارات العربية المتحدة - دبي -
ص.ب: 231422 -
جوال 942 442 528 00971 -
Darsafahat.pages@gmail.com

الكتاب في الاصل اطروحة دكتوراه باشراف الاستاذ الدكتور كمال مظهر احمد قدمت الى كلية الاداب جامعة بغداد في كانون الاول 2006 واجزيت بتقدير امتياز

المحتويات

الفصل الرابع:

الفصل الخامس:

المقــدمــة

مثلت «جمعية الاتحاد والترقي» القوة الرئيسة التي حكمت الدولة العثمانية لنحو عقد من الزمان، امتد من العام 1908 إلى العام 1918، التي وضعت أسسا، بل رفعت أعمدة المرحلة التي تلته. فكان مؤسسو دولة تركيا الحديثة، بضمنهم الرؤساء الثلاثة الأوائل للجمهورية التركية، الذين تزعموا الحكومة التركية منذ العام 1923 إلى العام 1960، أعضاء سابقين في جمعية الاتحاد والترقي. الأهم من هذا إن الفكر السياسي الحديث، لا لتركيا فقط وإنما لكل المنطقة الخاضعة للدولة العثمانية، حُددت ملامحه خلال المرحلة 1889-1908، واضطلع الاتحاديون بدور كبير في تلك العملية. كما كان لثورتهم دور متميز في إعادة تنظيم الشرق الأوسط والبلقان، وتعريف المنطقة بقيم وأفكار جديدة شكلا ومضمونا.

كل ذلك وغيره يعطي أهمية كبيرة لدراسة خلفية الاتحاديين ومنهجهم الفكري والسياسي، ويجعل منها أمرا ضروريا لأي محاولة لفهم التغيرات والتطورات التي حصلت في السنين الأخيرة من عمر الدولة العثمانية، والسنين الأولى للجمهورية التركية.

لم يكن تأسيس «جمعية الاتحاد والترقي» وليد المصادفة، بل كان نتيجة طبيعية لتغيرات كثيرة شهدتها الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، يأتي في مقدمتها انفتاح الدولة العثمانية على السوق الرأسمالية العالمية واندماجها بها، وتغير الهيكل الاقتصادي العثماني، تبعا لذلك، جملة وتفصيلا، وهو ما انعكس على واقع المجتمع العثماني، كما ونوعا، وظهور فئات اجتماعية وضمور أخرى وازدياد ثقل فئات كانت موجودة أصلا. وبالضرورة امتدت رياح التغيير شاملة الوضع السياسي في الدولة العثمانية

بما يتلاءم مع الواقع الاقتصادي والاجتماعي الجديدين، وفي ظل تأثيرهما. كل ذلك تم تناوله في الفصل الأول من الدراسة. ولعدم وجود دراسات شاملة تغطي المرحلة وتغني عن الدخول في تفاصيلها، حاولنا، قدر المستطاع، الإحاطة بالموضوع بمختلف جوانبه، لأهمية ذلك لموضوع الأطروحة وحيويته في تقديم تصور أوضح عن جذور الاتحاديين الاجتماعية.

لفهم الخلفية الثقافية للاتحاديين، وطبيعة وأسباب توجهاتهم الفكرية كان لزاما معرفة الجو الفكري العام الذي ترعرع الاتحاديون في كنفه، ونوع الأفكار التي تأثروا بها، الموضوع الذي خُصص الفصل الثاني من الدراسة للتصدي له مستهلا بالتعرف، بصورة مركزة، على بوادر التحديث في الدولة العثمانية وبدايات التوجه نحو الغرب والتعرف على قيمه وأفكاره، وهي مرحلة استغرقت مدة طويلة، نسبيا، لكنها كانت ضرورية لعزق تربة الدولة العثمانية وتهيئتها لاستقبال كم من الأفكار الجديدة على الفكر العثماني واقعا وديناميكية، استلهم كله من الفكر الغربي، وإن كان بعضها قد أُلبس ثوبا إسلاميا، وهو ما تم بحثه بشيء من التفصيل، كما تطرق الفصل أيضا إلى المروحة الأيديولوجية في الدولة العثمانية خلال مرحلة البحث، التي تنوعت أطرافها بين دعاة التغريب، وأنصار التيار الإسلامي، وتوجه ظهر متأخرا، لكنه فرض وجوده بسرعة، تمثل بالنزعة القومية.

كانت ولادة «جمعية الاتحاد والترقي» صعبة، في ظل نظام استبدادي شكلت الجاسوسية النشطة أحد أبرز أدواته، وعلى الرغم من ذلك نجحت الجمعية في مد نشاطها إلى أكثر من مكان في الدولة العثمانية، لكنها اضطرت، اثر محاولة انقلابية فاشلة جرت في العام 1896، إلى نقل نشاطها خارج الدولة العثمانية، لاسيما باريس وجنيف، حيث تحددت أطر الجمعية وارتفع بنيانها الفكري والتنظيمي، هذه الموضوعات شكلت محاور الفصل الثالث الذي عالج أيضا الأصول الاجتماعية لمؤسسي «جمعية الاتحاد والترقي»، والخصائص العامة لبنية الاتحاديين الاجتماعية خلال المرحلة التأسيسية.

جانب كبير من الخصائص الاجتماعية ظل مستمرا طوال تاريخ الجمعية، وتبلور قسم آخر بصورة أكثر وضوحا خلال السنوات التي سبقت ثورة 1908. سلط الفصل الرابع الضوء

على هذا الموضوع، وبحث أيضا في مقدمات وأحداث المؤتمر الأول للاتحاديين في العام 1902، والنتائج العكسية التي تمخض عنها باتساع حجم الخلاف بينهم، لأسباب فكرية بالدرجة الأولى، وما أورثه من انشقاق خطير داخل صفوف الجمعية، كما اهتم الفصل بتغطية الجهود المبذولة لإعادة تنظيم الجمعية داخل وخارج الدولة العثمانية، وانعقاد المؤتمر الثاني لأحزاب المعارضة العثمانية في العام 1907 في باريس، واستعدادات الاتحاديين للانتقال إلى مرحلة التحرك للسيطرة على الحكم، وما رافقها من تطور الأوضاع في الدولة العثمانية ونضوجها باتجاه الثورة التي اندلعت بالفعل في تموز 1908.

أما الفصل الخامس فقد كُرس لدراسة أفكار الاتحاديين السياسية، بدءا بموقفهم من تغريب الدولة العثمانية والجهود الرامية إلى تحديثها، واستخدامهم الدين أداة تحديث جوهرية، انتقالا إلى تأثير العلوم والنظريات الفلسفية على تفكير الاتحاديين وأثرها في صياغة أفكارهم، وموقف الاتحاديين المعادي للاستعمار، وقناعاتهم تجاه العثمنة والإسلمة والأتركة، وصولا إلى دراسة الطابع البراكماتي للاتحاديين الذي طفح، بشدة، على أفكارهم في غضون الأشهر القليلة التي سبقت الثورة.

اختتمت الدراسة بخلاصة حاولنا خلالها تجنب الخوض في تفاصيل كثيرة سبق لدراسات عديدة أن أشبعتها بحثا، والتركيز على الملامح العريضة لسياسة الاتحاديين مقارنة بأفكارهم.

اعتمدت الدراسة على مجموعة من المصادر ، استخدم بعض منها لأول مرة في دراسة أكاديمية داخل القطر، يأتي في مقدمتها تقارير الشرطة السويسرية عن نشاط «جمعية الاتحاد والترقي» في جنيف، التي يسر لنا الحصول عليها الزميلان ادريـان سترب (Adrian Sturb) و يان سكدل (Jun Schudel)، طالبا الدكتوراه في قسم التاريخ- جامعة بازل بسويسرا، بتكرمهم، بناء على طلب مني وبعد عدة مراسلات، باستنساخ الأفلام الخاصة بتلك الوثائق، وتفضل الأستاذ علي الشلاه بإحضارها إلى بغداد، جزاهم الله عني كل خير. وعن طريق الأيادي الكريمة نفسها أمكن الحصول على مجموعة قيمة من صحف الاتحاديين الصادرة في سويسرا، بالدرجة الأساس، وفي فرنسا وبريطانيا والقاهرة وجنوة أيضا، التي

أغنت صفحات البحث بمعلومات أصيلة وفريدة عن المنهاج السياسي والفكري لجمعية الاتحاد والترقي.

ألفت كتب المذكرات مصدرا أصيلا وهاما للدراسة، ولاسيما مذكرات عدد من أعضاء «جمعية الاتحاد والترقي» لعل أهمها تلك العائدة لمؤسس الجمعية إبراهيم تيمو التي اشتملت على تفاصيل كثيرة حول تأسيس الجمعية، انفرد بها عن من سواه، وهناك أيضا مذكرات إسماعيل كمال قدم خلالها معلومات هامة عن مؤتمر العام 1902، ومشروع الانقلاب في العام 1903، ومع أنه حاول تضخيم دوره في الأحداث، وتبرئة ساحته من أي خطأ، فإن هذا لا يقلل من أهمية المعلومات الواردة بين دفتي مذكراته. كما وفرت مذكرات كل من كاظم نامي دورو وكاظم قرةبكر مادة مثيرة عن «جمعية الاتحاد والترقي» والأوضاع في الدولة العثمانية قبيل ثورة 1908.

معظم المذكرات سالفة الذكر كانت جزءا من مصادر تركية كونت، إجمالا، بمعلوماتها الدقيقة والثرية نسبيا، رافدا هاما للدرسة، لا سيما أن قسما منها خُصص بالكامل لدراسة تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي»، يبرز بينها كتابي أحمد بدوي كوران المعنونين: «İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki» و «İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkler»، وعلى الرغم من المنهجية الضعيفة لكلا الكتابين وخلوهما من أي تحليل، فهما يحملان قيمة عالية نابعة أصلا عن احتوائهما على عدد كبير من المراسلات الخاصة بالاتحاديين. وإلى جانبهما يبرز كتاب يوسف حكمت بايار: «Türk İnkılâbı Tarihi»، والمؤَلف الضخم لشوكت ثريا ايدمير المكون من ثلاثة أجزاء، معظم الجزء الأول كان لمتابعة تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي» قبل العام 1908، وكتاب جمال كوتاي بما قدمه من معلومات مفيدة عن الأمير صباح الدين ودوره في نشاط الجمعية، وبين الكتب التركية يتألق أيضا كتاب شريف ماردين: «Jön Türklerın Siyasi Fikirleri (1895-1908)» ، الكتاب الوحيد المخصص بالكامل لدراسة الفكر السياسي للاتحاديين، استند الكاتب فيه على ما نشرته صحفهم الرئيسة، مقدما دراسة عميقة في هذا المجال.

احتلت الكتب الإنكليزية مكانة مرموقة بين مصادر الأطروحة، يتقدمها كتاب المؤرخ التركي محمد شكر هاني اوغلو، المختص بتاريخ «جمعية الاتحاد والترقي»، والذي غطى تاريخها من التأسيس إلى الثورة من خلال كتابين متميزين، تمم الثاني ما بدأه الأول، وهو ما يظهر واضحا من خلال عنوانيهما:

«The Young Turks in Opposition» المنشور في العام 1995، و«Preparation for a Revolution. The Young Turks 1902-1908» المطبوع في العام 2001. استخدم المؤرخ في الكتابين كما هائلا من الوثائق عن «جمعية الاتحاد والترقي» ومن الأوراق والوثائق الخاصة بأعضائها، وتمتع بامكانات بحثية واسعة أتاحت له التنقل بين مختلف بلدان العالم وجمع صحف وكتابات الاتحاديين من منابعها، فجاءت كتاباته غزيرة بمعلوماتها، غنية بتحليلاتها، واسعة بتفاصيلها حد المبالغة في بعض الأحيان. رفدت مباحث الأطروحة بمعلومات دقيقة ومستفيضة وكان لها الفضل في سد ثغرات كثيرة فيها.

كان من الكتب المهمة، أيضا، للموضوع كتاب المؤرخ الأمريكي ارنست رامزور:

«The Young Turks Prelude to the Revolution of 1908»

الذي قدم الدكتور أحمد صالح العلي ترجمة رائعة له، وللكاتب موقعا رياديا في اختيار الموضوع، وان اعتمد في معالجته، بالدرجة الأولى، على المصادر الأوربية، هاملا الرجوع إلى صحف الاتحاديين وأوراقهم الخاصة، على الرغم من الامكانات المتاحة أمامه، فكان كتابه تعبيرا جيدا عن وجهة النظر الأوربية حيال تلك المرحلة التاريخية. وتتألق، أيضا، مؤلفات المؤرخ كمال كاربات بما يقدمه من معلومات وتحليلات عن التغيرات التي شهدتها الدولة العثمانية خلال مدة الدراسة.

ضمن الكتب باللغة الإنكليزية أيضا، تجدر الإشارة إلى نتاج الكاتب الإنكليزي E.F.Knight المعنون:

«The Awakening of Turkey. A History of the Turkish Revolution»

الذي يكتسب أهميته من اقترابه، زمانا ومكانا، من الأحداث، علاوة على كتب وبحوث كثيرة أخرى باللغة نفسها.

استفادت الباحثة ايضا من مجموعة من المراجع العربية والمعربة، كان بينها كتابات ثمينة لموضوع الدراسة، مثل الكتاب القيم للمؤرخ الألباني الدكتور حسن كلشي: «الوجه الآخر للاتحاد والترقي»، وكتاب «القومية الكردية ود.عبدالله جودت» لماليمسانز، علاوة على أطروحة الدكتوراه لمحمد ناصر النفزاوي «التيارات الفكرية والسياسية في السلطنة العثمانية 1839-1918». وبينها أيضا مصادر أصيلة، أهمها كتاب القيادي البارز في «جمعية الاتحاد والترقي» أحمد رضا المعنون «الخيبة الأدبية للسياسة الغربية في الشرق»، ومع أن كتابته كانت بعد الحرب العالمية الأولى، فقد اشتمل على بعض من أفكار الاتحاديين حاول أحمد رضا عرضها ومناقشتها ضمن رؤية فلسفية جمعت بين الماضي والحاضر والمستقبل.

وبين المصادر العربية تكتسب الدوريات المعاصرة أهمية خاصة، لا سيما مجلات «الهلال» و«المقتطف» و«المنار» لمتابعتها الحثيثة لكل التطورات في الدولة العثمانية بعد العام 1908، وجهودها الجادة في معرفة خلفيات وأفكار القادة الجدد الذين ارتفعت نجومهم فجأة، مقدمة معلومات مفيدة لكل من يهتم بدراسة المرحلة.

استكملت الدراسة معلوماتها من خلال الاستعانة بعدد من المصادر الفرنسية والروسية والألمانية والكردية، كان أهمها كتاب القس الفرنسي بول فيش الذي كانت له علاقة حميمة بالأمير صباح الدين، وصلة قريبة بالأحداث، ومعلومات غزيرة عن الاتحاديين، بحكم تلك العلاقة، أوردها في كتابه:

«Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid».

وفي عالمنا الصغير الكبير، المتطور المتخلف، باختلاف زاوية الرؤية، قدمت شبكة المعلومات العالمية (الانترنيت) موردا حيويا لمعلومات الدراسة، أمكن من خلالها الحصول على ثلة من البحوث والدراسات أفادت هذا الجانب أو ذاك من البحث،

كما يسرت الحصول على عدة مصادر أصيــلة، في مقدمتها مقال يوسف اقجورا: "Üş Tarz- ı Siyaset" الذي نشر لأول مرة في العام **1903**.

تبقى هناك مصادر عديدة تمنت الباحثة الحصول عليها لاستكمال الصورة وإثراء البحث، وبذلت لاجل ذلك كل ما امتلكت من جهد ووقت، و«لا يكلف الله نفسا إلا وسعها».

والحمد لله رب العالمين

الفصل الأول:

الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للدولة العثمانية

أولا: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر - 1908.

ظهرت بوادر التغيير واضحة في أوضاع الدولة العثمانية الاجتماعية والاقتصادية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وارتبط ذلك، بدرجة أساس، بتطور الرأسمالية الغربية. فمع ظهور الانقلاب الصناعي في أوربا الغربية في ستينيات القرن الثامن عشر، وكل التطورات التي رافقته وساهمت في نضوجه وتكامله خلال نيف وقرن من الزمان، برزت نتائج كبيرة، كما ونوعا، إمتدت لتمس كل أصقاع العالم، القريب منها والبعيد. لعل من أبرز تلك النتائج الزيادة المذهلة في الإنتاج. فخلال العقود القليلة الأولى من القرن التاسع عشر تضاعف إنتاج الفحم، عصب الصناعة الرئيس في تلك المرحلة، بما يزيد على عشر مرات[1]، وفي ظل ما عرف بـ«الثورة الصناعية الثانية» في الأقطار الرأسمالية، ازدادت عجلة الإنتاج سرعة، فتضاعف الإنتاج الصناعي من العام 1870 وحتى العام 1913 بمعدل ٪500[2].

أمام التوسع في الإنتاج الصناعي ظهرت الحاجة ليس إلى أسواق لتصريف الفائض فحسب، بل كذلك للحصول على المواد الأولية. فمثلا تضاعف إستهلاك مصانع بريطانيا للقطن، من 1781 حتى 1845، بمقدار أربع وخمسين مرة[3]، وإزدادت كمية الصوف المستورد لبريطانيا، نفسها، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بما يزيد على عشر مرات[4].

1- M.A.Dobb, Studies in the Development of Capitalism, London, 1959, P.295.

2- الدكتور هاشم صالح التكريتي، الإستعمار. أشكاله تطوراته أساليبه، بغداد، 1989، ص35.

3- M.M.Knight, Economic History of Europe in Modern Times, U.S.A, 1928, P.502.

4- Ibid., P.503.

كما إزدادت الحاجة إلى المواد الغذائية، لاسيما مع الزيادة الكبيرة في عدد السكان[1]. وتبقى بريطانيا هي الأنموذج لكونها الدولة السباقة في الانقلاب الصناعي، وفي التطلع إلى الأسواق الخارجية. فخلال العقود الثلاث الأخيرة من القرن التاسع عشر (1865-1895) إرتفع إستيراد بريطانيا للحنطة والدقيق بمعدل 320٪ [2]. وبالمقابل تضاعفت صادرات بريطانيا من المنسوجات القطنية خلال العقدين الأخيرين من القرن الثامن عشر بمقدار خمس عشرة مرة، وارتفع مجمل صادراتها في العام 1870 بمعدل 700٪ قياسا بأربع عقود خلت[3].

مع التوسع في تجارتي الاستيراد والتصدير إزدادت الأرباح بمعدلات عالية، وهو أمر قد يمكن تصوره إذا ما أخذنا في الحسبان الارتفاع الكبير لقيم المواد الخام بعد التصنيع، فخلال العقود القليلة الأولى من الانقلاب الصناعي، على الرغم من بساطة العمليات الصناعية، إرتفعت قيم بعض المواد الخام بعد التصنيع بمقدار 5000٪ [4]. ونتيجة للأرباح المتحققة حدث تراكم كبير في الرأسمال، فتضاعف الرأسمال البريطاني، من العام 1750 حتى العام 1865، بمقدار اثنتي عشرة مرة[5]، وهو ما لم تتوفر أمامه فرصة للاستثمار والربح الكبير داخل إطار البلد نفسه.

1- إرتفع عدد سكان أوربا من 130 مليون نسمة عام 1760 إلى 380 مليون نسمة عام 1890، وإزداد سكان المملكة المتحدة، خلال المدة ذاتها، من 10.8 مليون إلى 41.5 مليون نسمة.

G.D.H.Cole, Introduction to Economic History 1750-1950, London, 1950, PP.192,193; A.Briggs, The Age of Improvement 1783-1867, Twelfth Impression, New York, 1996, PP.33-34.

2- G.D.H.Cole, Op.Cit., P.443.

3- الدكتور كمال مظهر أحمد، الإطار الزمني لتأريخ العراق الحديث والمعاصر، «الحكمة» (مجلة)، بغداد، العدد5، تشرين الأول- كانون الثاني1998، ص19.

4- رولان موسنييه وأرنست لابروس، تاريخ الحضارات العام القرن الثامن عشر. عهد الأنوار، ترجمة يوسف أسعد داغر، الطبعة الثانية، بيروت، 1987، ص141.

5- كارلتون ج.هـ.هيز، الثورة الصناعية ونتائجها السياسية والاجتماعية، ترجمة أحمد عبد الباقي، الطبعة الثانية، بغداد، 1962، ص95؛ دايفد س. لاندز، بنوك وبشوات، ترجمة عبدالعظيم أنيس، مصر، 1966، ص55.

إزاء الحاجة المتزايدة لتصريف الإنتاج السلعي المتراكم، والحصول على المواد الأولية والغذائية، وفرص جديدة لاستثمار رؤوس الأموال المتراكمة، إندفعت الدول الرأسمالية بكل ثقلها إلى خارج أوربا بحثا عن الأسواق، ولم تتردد في إتباع كل السبل لتحقيق السيطرة على الأسواق الجديدة، وفتح الطريق أمام الرأسمال الذي إتخذ أشكالا عديدة، منها الاستثمارات المباشرة، والديون الحكومية، والقروض المصرفية[1]. ضمن هذا التوجه برزت أهمية الدولة العثمانية بموقعها الستراتيجي وبإمكانياتها ومواردها الضخمة. فمنذ بداية القرن الثامن عشر كتب أحد الأوربيين «**إن جغرافية الإمبراطورية العثمانية ملائمة للحصول على ربح متزايد من التجارة... تقع الإمبراطورية وسط القارات الثلاث، وهي في وضع يمكنها من بيع المواد الخام والمصنعة المختلفة... لاتوجد دولة أوربية واحدة لا تتعرض لمشاكل كبيرة في حالة قطع تجارتها مع [الدولة] العثمانية. إنهم مضطرون لاستيراد بعض المواد من [الدولة] العثمانية بصورة حتمية، [إذ] لايمكن تصور مدى غنى الإمبراطورية في موادها الخام**»[2]. وخلال القرن التاسع عشر صارت تلك الإمكانات والموارد، على نحو متزايد، موضع غزل للكتاب والرحالة الغربيين[3].وفي مرحلة مبكرة عمد العديد منهم إلى القيام بمسح شامل لموارد الدولة العثمانية، من ذلك ما قام به ديفيد اوركوهارت (David Urquhart) في بداية ثلاثينيات القرن التاسع عشر، الذي قدم توصية للعالم الغربي بالقيام بتزويد «**الضروريات والكماليات، على حد سواء، لكل سكان الشرق، الذين ينبغي أن يوجه اهتمامهم، حصرا، نحو الزراعة، وتجهيز المنتجات الأولية... [وأن] نأخذ منتجاتهم مقابل سلعنا**»[4]، لا بل إن القيام بدراسات مفصلة وبمسوحات شاملة لكل أجزاء الدولة

1- الدكتور عبدالكريم كامل عبدالكاظم، النظم الاقتصادية المقارنة، الموصل، 1988، ص47.

2- نقلا عن: يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة الدكتور محمود الانصاري، المجلد الثاني، اسطنبول، 1990، ص593.

3- S.S.Cox, Diversions of Diplomat in Turkey, New York, 1887, P.609.

4- Quoted in: Kemal H. Karpat, The Transformation of the Ottoman State 1789-1908, "International Journal of Middle East Studies", Vol.3, Great Britain, 1972, P.270.

العثمانية، تحول إلى جزء أساس من إهتمام الدبلوماسيين الغربيين. فقد أكد السفير البريطاني في اسطنبول ستراتفورد كانتك[1] (Stratford Canning) في رسالة بعث بها إلى فنويك وليامس[2] (Fenwick Williams)، أواخر عام 1848، على ضرورة «**معرفة أي مدى من التوسع تستطيع تجارة البضائع المصنوعة أن تحققه... بتأسيس القنصلية البريطانية في سيواس. [وأن] موضوع البحث الأساسي يجب أن يكون أنظمة الصادرات المفضلة بالنسبة لسوقنا، وحجم السوق المحلية، وسهولة المواصلات مع أقرب الموانئ إلى الأسواق الخارجية، ووسائل خلق المشاريع التجارية**»[3].

بدأ إندماج الدولة العثمانية بالاقتصاد الرأسمالي في مرحلة مبكرة من القرن التاسع عشر. كانت البداية بطيئة، إزدادت سرعة مع تعاظم إفرازات الانقلاب الصناعي، وهو ما يظهر واضحاً من خلال ملاحظة إتساع حجم تجارة الدولة العثمانية مع الدول الأوربية، فبعد أن كان مجمل تلك التجارة لا يزيد عن 2.9 مليون دولار عام 1829، إرتفعت إلى 12.2 مليون عام 1845، ثم 54 مليون عام 1876، وإلى 69.4 مليون عام 1911. أي أن حجم تجارة الدولة العثمانية مع الدول الأوربية تضاعف خلال أقل من قرن بمقدار أربع وعشرين مرة تقريبا[4].

1- السير ستراتفورد كاننك دبلوماسي بريطاني، ولد في لندن في الرابع من تشرين الثاني 1786، درس في كمبردج، عمل سفيرا في الولايات المتحدة 1820-1824، صار عضوا في البرلمان 1828-1841، مثل بلاده في الدولة العثمانية ثلاث مرات (1810-1812، 1825-1829، 1841-1858)، توفي في الرابع عشر من آب 1880. يراجع:

"The Encyclopedia Americana", Vol. 5, NewYork, 1946, P.505.

2- العقيد فنويك وليامس ممثل بريطانيا في لجنة تحديد الحدود بين الدولة العثمانية وبلاد فارس التي تألفت، علاوة على المندوب البريطاني، من المندوبين العثماني والفارسي والروسي، انتهت أعمالها بعقد معاهدة ارضروم الثانية في 31 آذار 1847. الدكتور مهدي جواد حبيب، الصراع العثماني- الفارسي وأثره في العراق حتى أواخر القرن التاسع عشر، «الحدود الشرقية للوطن العربي. دراسة تاريخية»، بغداد، 1983، ص136-143؛ مصطفى عبدالقادر النجار، التطورات التاريخية لقضية شط العرب، «تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر»، بغداد، 1984، ص255.

3- نقلا عن: الدكتور ن.أ.خالفين، الصراع على كردستان. المسألة الكردية في العلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر، ترجمة الدكتور أحمد عثمان أبوبكر، بغداد، 1969، ص66.

4- **Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.246.**

احتلت بريطانيا موقع الصدارة بين الدول الأوربية في علاقاتها التجارية مع الدولة العثمانية، وهو ما عززته بعقد معاهدة بلطة ليمان (Balta Liman) التجارية في 16آب 1838، التي نصت[1] على تحديد الرسوم الجمركية بـ12٪ عن التصدير، و5٪عن الاستيراد، وإلغاء كل أنواع الاحتكارات الحكومية في الدولة العثمانية، ومنح التجار الأجانب حق إقامة علاقات مباشرة مع التجار المحليين[2]. انفتح ،بذلك، باب الأسواق المحلية واسعا لدخول البضائع البريطانية، فبعد أن كانت صادرات بريطانيا للدولة العثمانية عام 1827 نحو 500 ألف جنيه إسترليني، إرتفع الرقم 4،2 مليون جنيه إسترليني عام 1849، وإزداد معدل السرعة ليصل الرقم بعد عقدين فقط (1869) إلى ثمانية ملايين جنيه إسترليني، أي أن حجم صادرات بريطانيا إلى الدولة العثمانية تضاعف خلال المدة 1827-1869 بمقدار ست عشرة مرة[3].

لم تنفرد بريطانيا وحدها في إحتكار أسواق الدولة العثمانية، بل نافستها في ذلك بقية الدول الرأسمالية بدرجات متفاوتة. فمثلا إزدادت صادرات فرنسا إلى تركيا، مركز الدولة العثمانية، خلال الأعوام 1854-1873 بمقدار سبع مرات، وإزدادت وارداتها منها، خلال المدة نفسها بمقدار أربع مرات[4]. كما إتسعت تجارة ألمانيا مع الدولة العثمانية بعد

1- للإطلاع على النص ينظر:
"Diplomacy in the Near and Middle East. A Documentary Record 1535-1914", Ed. J.C.Hurewitz, Vol.I, New York, 1972, PP.110-111.

2- طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عقدت الدولة العثمانية معاهدات مشابهة مع معظم الدول الغربية مثل فرنسا وإيطاليا وروسيا والولايات المتحدة وإسبانيا والدنمارك. ينظر: ز.ي.هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ترجمة مصطفى الحسني، بيروت، 1973، ص62-64.

3- S.N.Fisher, The Middle East. A history, New York, 1959, P.209; Charles Issawai, The Ottoman Empire in the European Economy 1600-1914. Some observations and many questions, "The Ottoman State and its Place in World History", Ed. Kemal H. Karpat, Leiden, 1974, P.115;

ن.أ.خالفين، المصدر السابق، ص87.

4- M.Raccagni, The French Economic Interests in the Ottoman Empire, "International Journal of Middle East Studies", Vol.11, Great Britain, May 1980,P.363.

عام 1880 بشكل كبير، فتضاعفت الصادرات الألمانية إلى الدولة العثمانية حتى عام 1910 أربع عشرة مرة تقريبا (7.6 مليون مارك- 104.9 مليون مارك)، وتضاعفت الواردات، خلال المدة نفسها، بمعدل سبع وستين مرة (مليون مارك فقط- 67.5 مليون مارك)[1]. أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد تضاعف معدل تجارتها مع تركيا أكثر من ثماني عشرة مرة منذ بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر وحتى العام 1910 [2].

تجاوز التغيير في تجارة الدولة العثمانية الخارجية الكم إلى النوع، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال تفحص المواد المتاجر بها. فقد اختفت تقريبا السلع المصنعة من صادرات الدولة العثمانية التي تكونت، بشكل أساس، من مواد أولية وسلع غذائية، برز بينها القطن والحرير والتبغ والحبوب. ففي العام 1855 بلغت صادرات الدولة العثمانية من القطن إلى فرنسا وحدها 413000 كيلوغرام، وارتفعت الكمية عام 1875 إلى 5569000 كيلوغرام. وإزدادت صادرات الحرير، خلال المدة نفسها، وإلى البلد ذاته، من 309000كيلوغرام إلى 1265000كيلوغرام[3]، وأستمرت المادتان بالارتفاع ضمن صادرات الدولة العثمانية بوتائر سريعة، فازدادت كميتهما بين عامي 1878-1913 بمعدل

1- الدكتور هاشم صالح التكريتي، التغلغل الألماني في المشرق العربي، «المؤرخ العربي» (مجلة)، بغداد، العدد27، 1986، ص47؛ الدكتور إبراهيم شريف، الشرق الأوسط. دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة 14 تموز 1958 في العراق، بغداد، 1965، ص81؛

Yakthan Sadoun Al-Amir, British Reaction to Germany's Ottoman Policy 1870-1885. A Study of the Ottoman policies pursued by British and Germany Governments and their political and commercial consequences during the period 1870-1885, Doctor Thesis, School of Social Sciences- University of Bradford, 1976, PP.629-630.

2- R.R.Trask, The United States Response to Turkish Nationalism and Reform 1914-1939, U.S.A, 1971, P.10; H.N.Horard, Turkey the Straits and U.S. Policy, Baltimore, 1974, PP.7-8; J.C.Hurewitz, Middle East Dilemmas the background of United States Policy, New York, 1953, P.165.

3- بول دومون، فترة التنظيمات 1839-1878، «تاريخ الدولة العثمانية»، إشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، الجزء الثاني، القاهرة، 1993، ص108-109.

350٪ للقطن، و360٪ للحرير[1]. وارتفعت صادرات الفواكه المجففة إلى بريطانيا في المدة 1855-1875 ثلاثة أضعاف، والحبوب عشرة أضعاف[2]، وشهدت صادرات الدولة العثمانية من الأفيون إرتفاعا سريعا، بلغ خلال ثلاث سنوات فقط (1836-1839) أكثر من 300٪[3]. وعموما إحتلت تسع سلع، هي التبغ والقطن والحرير والصوف والقمح والشعير والزبيب والتين والأفيون نحو 60٪ من صادرات الدولة العثمانية في المدة 1850-1870[4]. وتألفت النسبة المتبقية، بشكل أساس، من منتجات زراعية، أيضا، مثل الحبوب، والنباتات المستخدمة في إستخراج الزيوت والأصباغ والجلود والإسفنج...[5]. وتحولت الدولة العثمانية، تبعا لذلك، إلى إحتياطي زراعي لاقتصاديات الدول الرأسمالية، وظلت المواد الأولية تؤلف الأنموذج المسيطر على صادرات الدولة العثمانية، فألفت في عام 1914 أكثر من 85٪ من الصادرات[6]

بالصورة نفسها تغير هيكل الواردات بشكل بين، فقد حصل توسع كبير في استيراد السلع الصناعية، لاسيما المنسوجات، ومنتجات المستعمرات مثل السكر والقهوة. فارتفع استيراد المنسوجات القطنية خلال عقدين فقط (1835-1855) بنسبة 765٪، وتضاعف استيراد المنسوجات الصوفية، في المدة نفسها، سبع عشرة مرة[7]. وإرتفع إستيراد الدولة

1- وليد العريض، تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وآثارها، «دراسات» (مجلة)، الأردن، المجلد 24، العدد1، شباط1997، ص159.

2- بول دومون، المصدر السابق، ص109.

3- I.I.Poroy, Expansion of Opium Production in Turkey and the State Monopoly of 1828-1839, "International Journal of Middle East Studies", Vol.13, Great Britain, May 1981, P.194.

4- بول دومون، المصدر السابق، ص115.

5- المصدر نفسه؛ S.N.Fisher, Op.Cit., P.299.

6- ز.ي.هرشلاغ، المصدر السابق، ص103.

7- بيرج بيربيروكلو، تركيا في أزمة من رأسمالية الدولة إلى الاستعمار الجديد، ترجمة مركز البحوث والمعلومات، عدد21، 1983، ص5؛ الدكتور سيار كوكب علي الجميل، تحديث الاقتصاديات العثمانية. دراسة في فهم طبيعة المشاكل الاقتصادية التركية خلال القرن التاسع عشر، «دراسات تركية» (نشرة علمية)، الموصل، عدد 2، 1991، ص91.

العثمانية للمادتين من بريطانيا، فقط، عام 1855 بمقدار سبعين مرة للمنسوجات القطنية، وسبع عشرة مرة للمنسوجات الصوفية، قياسا بعام 1825 [1]. وبلغت نسبة المنسوجات ضمن الواردات العثمانية ٪25 خلال المدة 1878-1915 [2]، بعد أن كانت المنسوجات المحلية تغطي حاجة الدولة العثمانية، ويفيض عنها للتصدير إلى الخارج، بما في ذلك إلى بريطانيا نفسها[3]. وتمثلت الواردات الأخرى، بشكل رئيس، بالشاي والقهوة والسكر، التي شكلت ٪10 من واردات الدولة العثمانية خلال الأعوام 1878-1913 [4].

نتيجة لهذه التغيرات، وسببا لها أيضا، حدث تحول سريع في العلاقات التجارية للدولة العثمانية لصالح العالم الرأسمالي، بعد أن كانت، في معظمها، تقتصر على أقطار المنطقة، وضمن إطار الدولة العثمانية. مثالا على ذلك خلال الأعوام 1840-1845 لم تتجاوز حصة فرنسا من صادرات حرير جبل لبنان ٪19.5، في حين بلغت حصة مصر ٪51.6، وسوريا ٪18.45. في العام 1911 ارتفع نصيب فرنسا إلى ٪93.9، لتحتكر بذلك معظم صادرات حرير جبل لبنان[5].

فرض التحول في العلاقات التجارية للدولة العثمانية مع العالم الرأسمالي، تحولا مماثلا في وسائل النقل، فاستخدمت السفن التي تعمل بقوة البخار بعد مدة وجيزة من إختراعها. كانت المحاولات الأولى أواخر عشرينيات القرن التاسع عشر، وخلال العقدين

1- F.E.Bailey, British Policy and the Turkish Reform Movement. A Study in Anglo-Turkish Relations 1826-1853, London, 1942, P.86.

2- Charles Issawi, The Economic History of Turkey 1800-1853, Chicago, 1980, P.77.

3- O.C.Sarç, Ottoman Industrial Policy 1840-1853, "The Economic History of the Middle East 1800-1914", Ed.Charles Issawi, U.S.A, 1966, P.49.

4- Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.77.

5- زهير غزال، بعض الملاحظات حول مؤتمر ستراسبورغ عن إقتصاد ومجتمعات الإمبراطورية العثمانية من نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين، «دراسات تاريخية» (مجلة)، دمشق، العددان 15و16، 1984، ص216.

التاليين استخدمت في نقل المسافرين والبريد والبضائع الثمينة، فكانت هناك في العام 1844 أربعة خطوط لبواخر نقل الركاب والبريد من اسطنبول إلى لندن، إلى جانب خط أخر عبر البحر الأسود والدانوب[1].

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ونتيجة للتطور السريع في صناعة السفن من حيث الحجم والسرعة، إتسع التبادل، وأخذت الملاحة البخارية تحل بسرعة محل الملاحة الشراعية في نقل البضائع التجارية من وإلى الدولة العثمانية، فقد إزداد كم البضائع التجارية الداخلة إلى ميناء طرابزون، مثلا، من 22 ألف طن في العام 1837 إلى 548 ألف طن عام 1900، أي أنه تضاعف بمقدار خمس وعشرين مرة تقريبا، أكثر من 95٪ من تلك البضائع كانت تنقل بالسفن البخارية[2]. ومع بدايات القرن العشرين فقدت السفن الشراعية دورها، تقريبا، في عملية النقل من وإلى الدولة العثمانية لصالح السفن البخارية[3].

إقتضى هذا التطور إهتماما بإنشاء الموانئ وتطويرها، وتولت شركات أجنبية الجانب الأكبر من هذه المهمة. كان ميناء أزمير أول ميناء شهد عمليات تحسين في الدولة العثمانية، إذ حصلت شركة بريطانية على الامتياز عام 1867، ثم حلت محلها شركة فرنسية، وفي عام 1875 تم إفتتاح الميناء بسرعة تفريغ زادت خمس مرات عما كانت عليه في السابق[4]. كما حظي ميناء بيروت بعمليات تطويرية مهمة إستمرت من 1889 حتى 1894، وتواصل العمل

1- الدكتور شارل عيساوي، التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال أفريقيا، ترجمة سعد رحمي، بيروت، 1985، ص89-90.

2- Charles Issawi, The Tabriz- Trabzon Trade 1830- 1900 :Rise and Decline of a Route, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.1, January 1970, P.21.

3- Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.146;
دونالد كواترت، الدولة العثمانية1700-1922، ترجمة أيمن أرمنازي، الرياض، 2004، ص221.

4- Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.146;
شارل عيساوي، المصدر السابق، ص92.

في ميناء اسطنبول طوال العقد الأخير من القرن التاسع عشر[1]. وحتى العام 1914 تم إنشاء وتطوير العديد من الموانئ في الدولة العثمانية، منها موانئ سالونيك وطرابزون وحيدر باشا ودربنجة وزويخلداك[2].

إزدادت الحاجة، أيضا، إلى شق طرق تربط الموانئ بالمناطق الداخلية، وعلى الرغم من محدودية الموارد المالية تم إنشاء عدة طرق، بلغ طولها مع مطلع الربع الأخير من القرن التاسع عشر خمسة آلاف كيلو متر[3]، واستمرت شبكة الطرق بالاتساع لتصل إلى عشرين ألف كيلو متر عام 1914، وهو رقم، على أهميته، يبقى متواضعا وبعيدا عن الإيفاء بالحاجة المطلوبة[4].

نالت سكك الحديد إهتماما أوفر، ومع إن البدايات كانت متواضعة إلا أنها واعدة. ففي العام 1856 بدأ العمل برأسمال بريطاني لتشييد خط كوستنجه- جرنافودا، وخط إزمير- آيدن، دشن الخط الأول عام 1860، في حين إستمر العمل بالخط الثاني إلى عام 1866 [5]. وقبل الانتهاء من خط إزمير- آيدن حصلت شركة بريطانية أيضا على إمتياز إنشاء خط روسنجق- فارنا عام 1861، وخط إزمير- قصبة عام 1863، اللذين انتهى العمل منهما عام 1866 [6]. وتواصل العمل في إنشاء العديد من الخطوط الحديدية الأخرى منها خط سالونيك- اسطنبول وخط سالونيك- موناستير برأسمال فرنسي وطول 510كيلو متر للأول،

1- الدكتور مباهات كوتوك اوغلي، البنية الاقتصادية في الدولة العثمانية، «الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة»، إشراف أكمل الدين احسان اوغلي، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الأول، استانبول، 1999، ص712-713.

2- المصدر نفسه؛

P.E.Schoenberg, The Evolution of Transport in Turkey (Eastern Thrace and Asia Minor) Under Ottoman Rule 1856-1918, “Middle Eastern Studies”, Vol.30, No.3, London, 1977, P.361.

3- الدكتور مباهات كوتوك اوغلي، المصدر السابق، ص705.

4- P.E.Schoenberg, Op.Cit., P.362.

5- http:// www. Turkishtrains. Com/ his1. htm, Turkish Railway History;

الدكتور محمد كمال الدسوقي، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة، 1976، ص270.

6- Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.148;

أكمل الدين إحسان أوغلي، الدولة العثمانية، ص706.

و219 كيلو متر للثاني[1]. ويبقى خط سكة حديد بغداد- برلين المشروع الأكثر شهرة بحكم كل الصدام والمنافسة بين الدول الرأسمالية حوله[2]، الذي نجحت ألمانيا في الحصول على امتياز بنائه، وتم التوقيع على الامتياز بشكله النهائي في 5آذار 1903 [3]، وأنجزت خطوات مهمة من المشروع الذي حالت الحرب العالمية الأولى دون إتمامه بشكله النهائي.

وعموما تم إنجاز سلسلة من مشاريع سكك الحديد منذ تدشين أول خط في 1860، وصل طولها عام 1878 إلى 1800كيلومتر. واستمرت شبكة سكك الحديد بالاتساع، وبخطى أسرع مع زيادة عمق التحولات في الاقتصاد العثماني، ليصل طولها عام 1908 إلى 5800كيلومتر[4]. وفي العام 1913 كانت سكك الحديد تستخدم في نقل أكثر من نصف التجارة الداخلية للدولة العثمانية[5].

1- Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.148; W.V.Pressel, Railway Projects in Turkey 1872- 1900, "The Economic History of the Middle East 1800-1914", Ed.Charles Issawi, U.S.A., 1966, P.92.

2- للتفاصيل يراجع:لؤي بحري، سكة حديد بغداد. دراسة في تطور ودبلوماسية قضية سكة حديد برلين بغداد حتى عام 1914، بغداد، 1967؛ بوريس توبوليف، سكة حديد بغداد برلين وصراع النفوذ في الشرق الأوسط، ترجمة سعيد نفطجي، «آفاق عربية»(مجلة)، بغداد،العدد11، تشرين الثاني1992،ص70- 77؛ E.M.Earle, Turkey. The Great Powers and The Baghdad Railway. A Study in Imperialism, NewYork, 1924; O. Hammann, The World Policy 1840- 1912, Translated by M. H. Huttman, London, 1926, PP.239-234.

3- للإطلاع على نص الامتياز ينظر:
"The Great Powers and the Near Esst 1774-1923", Ed. M. S. Anderson, Great Britian, 1970, PP.142-146; "The Middle East and North Africa in World Politics. A Documentary Record, Compiled", Translated and Edite J.C.Hurewitz, Vol.I, Second Edition, London, 1975, PP.495-506.

4- P.E.Schoenberg, Op. Cit., P.364;
فرانسوا جورجو، النزع الأخير 1878-1908، «تاريخ الدولة العثمانية»، اشراف روبير مانتران، الجزء الثاني، القاهرة، 1993، ص184.

5- Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.150;
الدكتور شارل عيساوي، المصدر السابق، ص108، 110.

فـرض التطـور الاقتصـادي، أيضا، الاهتمـام بوسـائط الاتصال، فظهـرت الخدمات البريديـة الحديثـة لأول مـرة عـام 1834 فـي اسـطنبول، واتسـعت بسـرعة إلـى باقـي مدن الدولـة العثمانيـة، وفـي العـام 1868 كان يوجـد فـي الدولـة العثمانيـة 258 مركـزا بريديا، تجـاوزت خدماتهـا منـذ العـام 1871 نقـل الرسـائل والنقـود إلـى نقـل عينـات البضائـع التجاريـة[1]. وتضاعـف عـدد المراكـز البريديـة ليصـل عـام 1908 إلـى 1297 مركـزا[2]. ووصـولا إلـى العـام 1914 كان هنـاك مـا نسـبته سـتة مراكـز بريـد لـكل ألف شـخص[3]، عـلاوة علـى دوائـر بريـد أجنبيـة، لاسـيما بريطانيـة وفرنسـية ونمسـاوية وروسـية، يعـود تاريخها إلى بدايات القرن التاسع عشر[4].

أما خطوط التلغراف فقد شهدت أول إنشاء لها في أثناء حرب القرم (1853-1856). وفي العام 1882 كان في الدولة العثمانية ثلاثة وعشرون ألف كيلومتر من خطوط التلغراف، اتسعت إلى خمسين ألف كيلومتر عام 1900 [5].

نُفذت معظم هذه المشاريع بروؤس أموال أجنبية، موفرة بذلك فرص استثمار كبيرة للدول الرأسمالية، فتضاعف حجم الرأسمال الفرنسي المستثمر في الدولة العثمانية من 85مليون فرنك عام 1881 إلى 292مليون فرنك عام 1895، و 511 مليون فرنك عام 1909، أي أنه تضاعف بمعدل ست مرات في غضون ثلاثين سنة[6]. أما مجموع الرساميل الأجنبية

1- الدكتور مباهات كوتوك اوغلى، المصدر السابق، ص714-715.

2- W.S.Monroe, Turkey and the Turks an account of the Lands the, Peoples and the Institutions of the Ottoman Empire, New Impression, London, 1985, P.159.

3- قياسا بست في الهند البريطانية، وأربعين في الولايات المتحدة الأمريكية.
Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.151.

4- Please look at: Ibid; http// www. Linns. Com/ howto/ refersher/ officesabaroad_ 20030811/ refreshercourse. asp, R.Miller, Ottoman decay led to offices abroad stamps.

5- Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.151.

6- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص183.

المستثمرة في الدولة العثمانية في هذا المضمار فقد بلغ عام 1895 ما يعادل 741مليون فرنك[1]، وارتفع المبلغ عام 1914 إلى 1.144مليون فرنك، ٪45 منه لفرنسا، و٪25 لألمانيا، و٪16 لبريطانيا[2].

أمنت هذه الاستثمارات أرباحا طائلة للدول المستثمرة، لتصور ذلك يمكن الإشارة، مثلا، إلى ان الإيراد الصافي لشركة سكك حديد الأناضول[3] تضاعف أكثر من ثماني عشرة مرة خلال نيف وعقدين من الزمان (1890-1912)[4].

أغرت ضخامة الأرباح المتحققة الدول الرأسمالية لمزيد من الاستثمار، وكان هاجس الربح للمستثمرين الأجانب هو الأساس في تحديد مجال الاستثمار. فلم ترى النور إلا المشاريع التي بدت مربحة، برزت بينها البنوك، إذ إحتلت المرتبة الثانية بالاستثمارات الأجنبية، بعد سكك الحديد[5]، وفي ذلك مغزى خاص يرتبط بواقع أن كل البنوك الكبيرة في الدولة العثمانية، باستثناء البنك الزراعي المؤسس عام[6]1889، كانت برؤوس أموال أجنبية[7].

1- لا تشمل الارقام القروض الحكومية.

2- الدكتور شارل عيساوي، المصدر السابق، ص-132 133؛ بان غانم أحمد حياوي، العلاقات العثمانية- الألمانية 1882-1918. دراسة تاريخية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة الموصل، 2001، ص198.

3- شركة ألمانية تأسست في 23آذار 1889، تولت تنفيذ العديد من مشاريع سكك الحديد في الدولة العثمانية، أبرزها سكة حديد بغداد. للتفاصيل ينظر: بان غانم أحمد حياوي، المصدر السابق، ص76-80.؛ O.Hammann, Op.Cit., PP.240-241.

4- الدكتور هاشم صالح التكريتي، التغلغل الألماني، ص48.

5- الدكتور شارل عيساوي، السابق، ص133-134.

6- Please look at: D.Quatart, Dilemma of Development: The Agricultural Bank and Agricultural Reform in Ottoman Turkey 1888-1908, "International Journal of Middle East Studies", Vol.6, Great Britain, April 1975, PP.210-226.

7- ز.ي. هرشلاغ، المصدر السابق، ص65.

جاء تأسيس البنوك، علاوة على كونها مشاريع مربحة، تلبية لمتطلبات حقيقية فرضها الواقع الاقتصادي الجديد للدولة العثمانية. وتعود أول محاولة ناجحة[1] في هذا المجال إلى العام 1856، ففي 24آيار من ذلك العام افتتح «البنك العثماني» برأسمال بريطاني أضيف إليه رأسمال فرنسي، ليتحول البنك خلال سنوات قليلة، وتحديدا عام 1863، إلى أهم مؤسسة مصرفية في الدولة العثمانية، بعد أن صار البنك الرسمي للدولة وحمل أسم «البنك العثماني الإمبراطوري»(The Imperial Ottoman Bank) [2]. ومع نمو واتساع دائرة نشاطه افتتحت له فروع كثيرة في مختلف أنحاء الدولة العثمانية، وصل عددها عام 1911 إلى أربعة وخمسين فرعا[3].

إلى جانب هذا البنك كانت هناك بنوك كبيرة أخرى، أبرزها البنك الفرنسي «كريدي ليونيه» (Credit Lyonnais) (مصرف الاعتماد والائتمان) الذي إفتتح أول فرع له في الدولة

1- سبقت هذه التجربة محاولتان، الأولى عام 1842 قام بها تجار بريطانيون، وساهم معهم تجار من دول مختلفة مثل فرنسا والنمسا وروسيا والولايات المتحدة، على أية حال فان هذا البنك سرعان ما أغلق من الحكومة العثمانية. المحاولة الثانية عام 1845، قام بها إثنان من صرافي حي غلطة، لكن مصرفهما لم يلبث أن أعلن إفلاسه بعد مضي أقل من عشر سنوات على تأسيسه.
Şevket Pamuk, A Monetary History of the Ottoman Empire, United Kingdam, 2000, PP.200-204; http:// www. ata.boun. edu.tr/ Department% webpages/ AtA_ 517/from%20 Imprial%20to %20 Global%20 Offerings.doc, Zafer Toprak, From Debt to Global Offering, Istanbul, 1995, P.8; www. banking history story.ed/ html/ Stockholm WS Paperes/ Tanatar Baruh.pdf, L.T.Baruh, The Ottoman Bank Archives Research Centre during and after the Merger of 2001, PP.1-3.

2- الكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، الجزء الأول، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، البصرة، 1982، ص92-95؛ آلاء حمزة الفتلاوي، السياسة البريطانية تجاه تركيا 1919-1923، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 2000، ص6.

3- http:// www. Obarchive. Com/ english/ history. Html, Ottoman Bank Archives and Research Centere, History of the Bank;
الدكتور بدر الدين السباعي، أضواء على الرأسمال الأجنبي في سوريا 1850-1958، دمشق، 1968، ص22؛ دافيدس لاندز، المصدر السابق، ص61-62.

العثمانية عام1875 [1]، والبنك الألماني الذي أسس مع قيام الوحدة الألمانية برأسمال قدره خمسة عشر مليون مارك إرتفع بسرعة ليصل عام 1897 إلى مائة وخمسين مليون مارك[2]، فضلا عن مجموعة من البنوك الصغيرة، أغلق بعضها بعد وقت قصير، وإندمج البعض الأخر مع البنك الإمبراطوري العثماني[3].

قدمت هذه البنوك قروضا كبيرة وكثيرة للدولة العثمانية مثلت فرصا جديدة لاستثمار الرساميل الأجنبية. وكان أول قرض تحصل عليه الدولة العثمانية عام 1854 بمبلغ 3.3مليون ليرة عثمانية[4]، وبفائدة ٪6، بلغ مقدار ما حصلت عليه، فعلا، من المبلغ 2514913 ليرة[5]. وفي السنة التالية تم عقد قرض آخر، وتوالت القروض في تتابع سريع، وبشروط إزدادت إجحافا مع زيادة تدهور الوضع المالي للدولة العثمانية[6]. وإلى العام 1875 بلغ إجمالي القروض المتعاقد عليها 278.8مليون ليرة عثمانية، أما المبلغ الفعلي الذي حصلت عليه الدولة العثمانية فزاد قليلا عن 195مليون ليرة[7].

1- **M.Raccagni, Op.Cit., P.357;**
الدكتور خليل علي مراد، تغلغل الرأسمال الأجنبي في الدولة العثمانية 1854-1914، «دراسات تركية» (نشرة علمية)، الموصل، العدد2، كانون الأول1991، ص155.

2- **Roger Owen, The Middle East in the World Economy 1800-1914, London, 1981,P.195;**
بان غانم أحمد حياوي، المصدر السابق، ص192.

3- ز.ي.هرشلاغ، المصدر السابق، ص79.

4- وهو ما يعادل 3815800 جنيه إسترليني.

5- **Rafii- Sukru Suvla, The Ottoman Debt 1850-1939, "The Economic History of the Middle East 1800-1914", Ed.Charles Issawi, U.S.A., 1966, P.100;**
طاهر يوسف الوائلي، إدارة الدين العام العثماني 1881-1928. دراسة في التاريخ الاقتصادي الحديث، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الأداب- جامعة الكوفة، 1999، ص14.

6- **Rafii- Sukru Suvla, Op. Cit., PP.100-101;**
الدكتور قيس جواد العزاوي، الدولة العثمانية. قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الطبعة الثانية، بيروت، 2003، ص70-71.

7- الدكتور شارل عيساوي، المصدر السابق، ص125؛ زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، الطبعة الثانية، بيروت، 1977، ص48، طاهر يوسف الوائلي، المصدر السابق، ص26-29.

إزاء هذه الأرقام المخيفة، ومع تردي الأوضاع الاقتصادية، أعلنت الدولة العثمانية، في تشرين الثاني 1875، توقفها عن دفع الفوائد والأقساط[1]. وبعد مفاوضات طويلة مع ممثلي حملة سندات القروض[2] تم، في كانون الأول 1881، إنشاء «إدارة الدين العام» لتولي الإجراءات اللازمة للإيفاء بتعهدات الدولة العثمانية تجاه حملة سندات القروض العثمانية[3]. وتمكنت الإدارة من تخفيض الدين العام بعد تسوية خاصة بين الدولة العثمانية وحملة سندات الدين، كما نجحت في زيادة الإيرادات المخصصة لها، وعملت على إدخال أساليب الإدارة الحديثة في الاقتصاد العثماني، وتطوير وسائل الزراعة وأساليبها، والاهتمام بطرق النقل، والاهم من هذا وذاك تشجيع المؤسسات المالية الأوربية على تنفيذ المزيد من المشاريع الاستثمارية في الدولة العثمانية[4]. فأسهمت بذلك في تسريع وتعميق إندماج الدولة العثمانية بالاقتصاد الرأسمالي العالمي.

من شأن كل هذه التحولات والتغيرات أن تنعكس، وبشدة، على واقع الحياة العثمانية. إذ أحدثت، حسب وصف المؤرخ التركي كمال كاربات «ثورة مصغرة» في الزراعة العثمانية[5]،

1- ز.ي.هرشلاغ، المصدر السابق، ص84-85.

2- كونت فرنسا وبريطانيا أبرز مصدرين لقروض الدولة العثمانية، إذ بلغ نصيبهما من إجمالي القروض حتى عام 1881 ٪34.3 و٪33.2 على التوالي، في حين كان نصيب ألمانيا 7.5، بلجيكا٪5، النمسا٪6، هولندا ٪5.3، إيطاليا ٪4.1، وما تبقى، والبالغ ٪5.6، كان لدائنين عثمانيين. الدكتور خليل علي مراد، تغلغل الرأسمال الأجنبي، ص147.

3- للتفاصيل عن كل ما يخص إدارة الدين العام من تشكيلات وصلاحيات وإيرادات ينظر: طاهر يوسف الوائلي، المصدر السابق، ص78-121؛ الكسندر أدموف، المصدر السابق، ص101-103؛
D.C.Blaisdell, European Financial Control in the Ottoman Empire A Study of the Establishment Activities and Significance of the Administration of the Ottoman Public Debt, New York, 1929, PP.81-108.

4- للتفاصيل يراجع: طاهر يوسف الوائلي، المصدر السابق، ص98-112، 122-158؛ ز.ي.هرشلاغ، المصدر السابق، ص87-90؛

D.C.Blaisdell, Op.Cit., PP.108-147.

5- **Kemal H. Karpat, The Ottoman Emigration to America 1860-1914, "International Journal of Middle East Studies", U.S.A, Vol. 17, May1985, P.177.**

النشاط الاقتصادي الرئيس في الدولة العثمانية[1]، فبدأ الإنتاج الطبيعي بالاختفاء ليحل محله إنتاج سلعي من اجل السوق، ومقابل النقد. رافق «تتجير» الزراعة إرتفاع سريع في قيمة الأرض، فخلال سنوات معدودة توسطت القرن التاسع عشر (1844-1859) إرتفعت قيمة الأرض بنسبة ٪75 [2]، وإزداد إرتفاع أسعار الأرض تسارعا مع إزدياد الطلب على المنتجات الزراعية للدولة العثمانية[3]، فتحولت الأرض إلى سلعة مرغوبة تهافت الأقوياء للحصول عليها، ولاسيما المتنفذين والقادة العسكريين الذين لم يترددوا عن اللجوء إلى أسوأ الأساليب للحصول على أكبر مساحة من الأرض، بما في ذلك رشوة الموظفين، بل حتى تهديدهم[4]. ووصلت الرغبة الجامحة في إمتلاك الأرض إلى سلاطين الدولة العثمانية أنفسهم، فامتلك السلطان الأشهر عبدالحميد الثاني(1876-1909) في سوريا الداخلية، وحدها، خمسة عشر مليون دونم من الأراضي الخصبة، شملت 1114 قرية[5]. وإنجرف كبار التجار مع التيار الجديد، بمن فيهم المسيحيون من اليونانيين والأرمن الذين عُرفوا، عموما، بتوجههم نحو أعمال التجارة والنشاط الحرفي[6]. كل ذلك أدى إلى نمو فئة ملاك الأراضي وتعاظم الملكيات الكبيرة على حساب الملكيات الصغيرة[7]، ساعد على ذلك

1- في نهاية القرن التاسع عشر شكل السكان الزراعيون في الدولة العثمانية ما بين 75-٪80 من إجمالي السكان. ينظر: فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص196.

2- Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.202.

3- A.D.Novichev, The Development Agriculture in Anatolia, “The Economic History of the Middle East 1800-1914”, Ed.Charles Issawi, U.S.A., 1966, PP.68-69.

4- H.Gerber, The Social Origins of the Modern Middle East, London, 1982, P.112; Kemal H. Karpat, The Land Regime Social Structure and Modernization in the Ottoman Empire, “Beginnings of Modernization in the Middle East the Nineteenth Century”, Ed. W.R.Polk and R.L.Chamber, U.S.A, 1968, P.87.

5- عبدالله حنا، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان(1820-1920)، القسم الأول، بيروت، 1975، ص99.

6- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص200.

7- في 1913 إمتلك ٪1 من العوائل الفلاحية ثلاثة ملايين هكتار من الأراضي الزراعية، في الوقت الذي كان فيه ٪87 من العوائل الفلاحية تمتلك أقل من 2.7 مليون هكتار. بيرج بير بيروكلو، المصدر السابق، ص14.

وفرة الأراضي المتاحة، وسياسة الدولة الرامية إلى تشجيع زراعة المنتجات القابلة للتسويق لاعتبارات ضريبية وإقتصادية[1]، كما اسهمت في ذلك، أيضا، قوانين الأراضي العثمانية الصادرة في 1858، فمع إنها لم تتضمن أي تجديدات قانونية أو إقتصادية بارزة، لكنها وضعت أسسا للتطورات اللاحقة ببلورتها قواعد الملكية وفئات حيازة الأرض التي حددتها بالأراضي المملوكة أو الخاصة، والأراضي الأميرية، والأراضي الموقوفة[2]، والأراضي المشاعة[3]. خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، تلاشت أراضي المشاع، تقريبا، وإنحسرت الأراضي الأميرية لصالح الأراضي الخاصة[4]، ونجح عدد من «الرجال الأذكياء»، حسب وصف مصدر معاصر، بتحويل جانب كبير من أراضي الوقف إلى ملك خاص[5]. ووصولا إلى العام 1913 كان أكثر من 65٪ من الأراضي الزراعية يتركز بيد 5٪ من ملاك الأراضي[6].

1- Kemal H.Karpat, Land Regime, P.86;

فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص199.

2- كان لاراضي الوقف دور هام في إقتصاد الدولة العثمانية بحكم حجم الأرض التي تأثرت بها، والظروف التي أحاطت إدارتها. حول هذا الموضوع ينظر:

http:// www. History. Hacettepe. Edu. Tr/ archive/ waqfkultur. Html, Bahaeddin Yediyıldız, Place of the Waqf in Turkish Cultural System, translated by R.Acun and M.Oz.

3- D.Wavriner, Land- Tenure Problems in the Fertile Crescent in the Nineteenth and Twentieth Centuries, "Economic History of Middle East 1800-1914", Ed.Charles Issawi, U.S.A., 1966, PP.72-73;

عبدالله حنا، الفلاحون وملاك الأرض في سوريا القرن العشرين. دراسة تجمع بين التاريخ الشفهي والتاريخ المكتوب، بيروت، 2003، ص12.

4- Kemal H. Karpat, Recent Political Developments in Turkey and Their Social Background, "International Affairs", London, Vol.38, No.1, January 1962, P.307.

5- نقلا عن: عبدالله حنا، القضية الزراعية، ص101.

6- Halil Inlcik, Land Problems in Turkish History, "The Muslim World", New York, Vol.XLV, 1955, P.227; A. F. Miller, Kratkaya Istoria Turtsii, Moskva, 1948, Str.114

أ. ف. ميلر، موجز تأريخ تركيا، موسكو، 1948، ص114 (باللغة الروسية)؛ بيرج بير بيروكلو، المصدر السابق، ص11.

إمتد إغراء الملكيات الكبيرة إلى المستثمرين الأجانب، لاسيما البريطانيين، فسعيا للاستفادة من قانون 1867 [1]، الذي سمح للأجانب بحيازة ملكيات عقارية في الدولة العثمانية، توجه بعض التجار الأجانب إلى استثمارات كبيرة ذات نمط رأسمالي، استخدموا فيها الآلات والعمل الزراعي الأجير[2]. إتسعت هذه الاستثمارات بسرعة، ففي نهاية ستينيات القرن التاسع عشر إمتلك التجار الأوربيون، فقط في ازمير، ثلث الأراضي الزراعية، وفي عام 1878كان نصف الأراضي الزراعية، في المنطقة ذاتها، تعود ملكيته لواحد وأربعين تاجرا بريطانيا حصرا[3]. كل هؤلاء التجار كانت لهم مصالح تجارية في ازمير حتمت بقاءهم في المدينة بعيدا عن أراضيهم، شاركهم في ذلك أغلب ملاك الأراضي الزراعية، سواء كانوا تجارا أو رؤساء عشائر فتنتهم حياة المدينة، مكونين نواة لفئة جديدة عرفت بالملاكين الغائبين، سلموا إدارة الأرض إلى وكلاء عمدوا، مع أسيادهم، إلى إستغلال الفلاحين بكل السبل والوسائل، بما في ذلك فرض أعمال السخرة، أو العمل لساعات طويلة لقاء أجور واطئة جدا[4]، فزادوا من تردي وضع الفلاح السيء أصلا بحكم الافتقار إلى أي شكل من أشكال الحماية القانونية، وفداحة الضرائب المفروضة عليه من الدولة وملاك الأراضي على السواء، والتي تنوعت أشكالها، وتعددت مضامينها لتشمل ضرائب ما أنزل الله بها من سلطان، تجاوز عددها المئة[5].

1- للإطلاع على نص القانون ينظر: «الضياء» (مجلة)، مصر، الجزء الثالث، السنة الثامنة، نوفمبر 1905، ص70-73؛ سليم فارس (جمع)، كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، الجزء الخامس، الاستانة، 1294هـ ص147-149. يذكر المصدر الأخير إن القانون صدر عام 1869.

2- Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.202.

3- Roger Owen, The Middle East in the World Economy 1800-1914, New York, 1981, P.114.

4- A.D.Novichev, The Development of Agriculture in Anatolia, “Economic History of the Middle East 1800-1914”, Ed.Charles Issawi, U.S.A., 1966, P.68;
أ.سميليانسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة عدنان جاموس، مراجعة سالم يوسف، دمشق، 1972، ص55.

5- للتفاصيل عن الضرائب وأنواعها ينظر: الدكتور وجيه كوثراني، الاتجاهات الاجتماعية في جبل لبنان والمشرق العربي 1860-1920. مساهمة في دراسة أصول تكونها التاريخي، الطبعة الثانية،بيروت، 1978، ص28؛
Reşat Aktan, The Burden of Taxation on the Peasants, “The Economic History of the Middle East 1800-1914”, Ed.Charles Issawi, U.S.A., 1966, PP.107-113.

فـي مثـل هـذا الوضـع لم يعـد بإمـكان الفـلاح، ضمـن إقتصـاد القريـة، تلبيـة حتى حاجاتـه المعيشـية الضرورية، واضطـر للجوء إلـى المرابين، وهو ما وصفـه مصدر معاصر للأحـداث بقولـه: «**فـي فتـرة جبايـة الضرائـب مـن كل عـام، كان يتوجـه جيش مـن التجار الوسـطاء إلـى الريـف...، فيسـتغلون حاجـة الفلاحيـن إلـى المـال ويقدمـون لهـم قروضا مقابـل رهـن المحصول القـادم بفائدة تتـراوح بين ثلاث وخمـس بالمئة في الشـهر، أو إنهم كانـوا يشـترون المحصـول سـلفا بثلثي السـعر أو نصفـه**»[1]. وشـكل رؤسـاء العشـائر، والمتنفـذون حلقـة ربط بيـن الفلاحين والمرابين، فاسـتخدم المرابي سـلطة ونفوذ رؤسـاء العشـائر للضغـط علـى الفلاحين فـي تحصيل الديـون[2]، بل إن بعـض المتنفذيـن من أبناء العشـائر مارسـوا، بأنفسـهم، أسـلوب الإقـراض بفوائـد عاليـة، ووجـدوا فيه طريقة سـهلة لانتـزاع الملكيـات الصغيـرة مـن الفلاحيـن بعـد إغراقهـم بالديـن[3]، وهـو حالـة لـم تعد غريبـة مـع كل التحـولات التـي شـهدها الواقـع الريفـي، وفـي مقدمتهـا زوال العلاقـات الأبوية التي كانت تربط أفراد مجتمعه قمة وقاعدة.

تحت وطأة هذه الظروف كان من الطبيعي أن ينخرط الفلاح العثماني في جملة من التمردات العفوية، والحركات المنظمة تعبيرا عن استيائه وأملا في تغيير واقعه إلى الأفضل[4]. لكن هذه الحركات ظلت محدودة فكرا، وحجما، وتنظيما بحكم سيطرة الإقطاع، واحتكار كبار الملاكين، من خلال إرتباطهم مع رجال الدين، القوة السياسية المحلية، وفرض سيطرتهم الاجتماعية والثقافية على الفلاحين[5].

1- نقلا عن: أ. سميليانسكايا، المصدر السابق، ص22.
2- الدكتور وجيه كوثراني، المصدر السابق، ص49-50.
3- عبدالله حنا، القضية الزراعية، ص107؛ أ. سميليا نسكايا، المصدر السابق، ص43.
4- للتفاصيل عن التمردات والحركات الفلاحية ينظر: أ.سميليانسكايا،المصدر السابق، ص63-229؛ عبدالله حنا، المصدر السابق، ص159-185؛ فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص200.
5- بيرج بير بيروكلو، المصدر السابق، ص11؛ ل.ن.كتلوف، خصائص وأهمية الحركات الجماهيرية في المشرق العربي قبيل ثورة الاتحاديين، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، «المؤرخ العربي» (مجلة)، بغداد، العدد8، ص154.

تعدى تغير واقع الريف العثماني النوع إلى الكم، إذ إزدادت القرى حجما وعددا نتيجة لميل البدو الرحل لحياة الاستقرار وممارسة النشاط الزراعي من جهة[1]، ومن جهة أخرى فانها شكلت جزءا من زيادة سكان الدولة العثمانية، عموما، بأريافها ومدنها. فبموجب أول إحصاء سكاني أجري في الدولة العثمانية في 1831، بلغ عدد سكانها من الذكور 3.7مليون نسمة[2]. لكن في العام 1884 كان عدد سكان الدولة العثمانية نحو 17.2مليون نسمة، وإرتفع العدد إلى 18.4مليون عام 1890، وإلى 20.9 مليون عام 1906[3].

جاءت زيادة السكان نتيجة طبيعية لتحسن ظروف الحياة وتطور الوضع الصحي، كما كان لعامل الهجرة دور كبير في ذلك أيضا، إذ شهدت الدولة العثمانية موجات متلاحقة من الهجرة السكانية تعود بدايتها إلى القرن الثامن عشر، وتألفت من المسلمين المنسحبين أمام التوسع الروسي باتجاه البحر الأسود والقوقاز ووسط أسيا[4]، وإتسعت تلك الهجرات في

1- Wolf-Dieter Hütteroth, The Influence of Social Structure on Land Division and Settlement in Inner Anatolia, "Turkey Geographic and Social Perspectives", Ed.P.Benedict and Others, Leiden, 1974, P.23.

2- Kemal H. Karpat, Ottoman Population Records and the Census of 1881/82-1893, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.9, August 1978, P.244

إذا ما أضفنا رقما تقريبيا لعدد الإناث، وسكان المناطق النائية ممن لم يشملهم التعداد، قد يصل العدد الإجمالي إلى ثمانية ملايين نسمة.

3- S.J.Shaw, The Ottoman Census System and Population 1831-1914, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.9, November 1978, P.334; W.Hale, The Political and Economic Development of Modern Turkey, London, 1924, P.18;

«أحوال الدول المعاصرة. الدولة العثمانية»، «الهلال» (مجلة)، القاهرة، السنة السادسة عشر، الجزء الأول، أكتوبر 1907، ص41.

4- حول التوسع الروسي في الدولة العثمانية ضمن هذه المرحلة ينظر: الدكتور هاشم صالح التكريتي، المسألة الشرقية. المرحلة الأولى 1774-1856، بغداد، 1990، ص27-55؛

Ferıdun Cemal Erkin, Türk- Sovyet İlişkileri ve Boğazlar Meselesi, Ankara, 1968, PP.10-39

فريدون جمال اركين، العلاقات التركية- السوفيتية وقضية المضائق، انقرة، 1968، ص10-39.

النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو ما شجعته السلطات العثمانية ويسرت سبله بهدف توفير أيدي عاملة تغطي الحاجة المتنامية للتطور الاقتصادي، فوصلت أعداد المهاجرين بين عامي 1854 و1876 قرابة 800 ألف شخص[1]، كما كان للازمة الشرقية 1875-1876 والحرب الروسية التركية[2]، دورها في نزوح جديد للمسلمين، فتدفق المهاجرون من كل مكان في البلقان تقريبا[3]، ورغم ظروف الهجرة الصعبة[4]بلغ عدد الذين وصلوا داخل الأراضي العثمانية حوالي مليون ونصف المليون نسمة[5].

مثلت المناطق الحضرية مراكز جذب للمهاجرين أكثر من المناطق الريفية، بل إن سكان الأخيرة تحولوا، بدورهم، لمصدر آخر لتوسع المدن، وكانت المدن الأكثر جاذبية

1- بول دومون، المصدر السابق، ص106-107؛ الدكتور بهاء الدين يدي يلدز، المجتمع العثماني، «الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة»، اشراف اكمل الدين احسان اوغلى، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الأول، استانبول، 1999، ص613.

2- بدأت الأزمة الشرقية في العام 1875 باندلاع الانتفاضة في الهرسك، وإتساع الأمور بسرعة؛ ذبح للمسلمين ومذابح مضادة، وتدفق الأسلحة من الجبل الأسود والنمسا، وفي العام 1876 امتدت الأحداث= إلى بلغاريا وصربيا والجبل الأسود، وأمام عجز الدولة العثمانية عن تسوية الأزمة بالسبل السلمية، إتجهت الدول الأجنبية إلى التدخل، وتطور الوضع إلى إعلان روسيا الحرب على الدولة العثمانية (24 نيسان 1877- 3 آذار 1878)، تكبدت الدولة العثمانية خلالها خسائر إقليمية ومادية جسيمة. للتفاصيل يراجع: محمد كمال الدسوقي، المصدر السابق، ص248-258.

3- غطى الدبلوماسيون الفرنسيون والبريطانيون، وممثلو الحكومة العثمانية بسيل من التقارير كل تفاصيل تلك التحركات من أعداد، واتجاهات، ومستقرات. ينظر:

"Rumelı"Den Türk Göçlerı Belgeler Doksanüç Muhacereti 1877-1878", Hazırlayan Bilâl N. Şimşır, Ankara, 1968

«وثائق الهجرات التركية من البلقان 1877-1878»، إعداد بلال ن. شمشر، انقرة، 1968.

4- عانى المهاجرون من ظروف بالغة الصعوبة تمثل جانبا منها بسوء الأوضاع الصحية، والافتقار إلى أبسط مقومات الحياة من مأكل ومشرب، الأمر الذي أودى بحياة أعداد ضخمة منهم، وتشير إحدى الوثائق البريطانية إلى أن معدل الوفيات كان بين 40و50٪ ! ينظر:

Bilâl N. Şimşir (Ed.), "Turkish Emigrations from the Balkans Documents", Ed. Bilâl N. Şimşır, Vol..1, Ankara, 1968, P.742.

5- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص192.

هي تلك التي تشكل بؤرا للنشاط الاقتصادي، التي من شأنها أن تتيح عملا لكل من يبحث عنه، مثل العاصمة والموانئ ومراكز الولايات، وكذلك بؤر التصنيع الجديدة، لتشهد خلال القرن التاسع عشر نموا مثيرا. فبعد أن كان عدد سكان اسطنبول أكثر من مائتي ألف بقليل عام 1844 تجاوز عددهم المليون نسمة عام1896، أي أن عدد سكانها تضاعف خمس مرات تقريبا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر[1]. وبسرعة مماثلة تنامى عدد سكان بيروت من 27.5 ألف في العام 1847 إلى 120 ألفا عام 1900 و200 ألف عام1915 [2]، وخلال القرن التاسع عشر تضاعف سكان سالونيك بمعدل مرتين[3]، كما إزداد عدد سكان ازمير في المدة 1840-1890 مرتين تقريبا[4]، وإزداد عدد سكان طرابزون خلال ثلاثة عقود (1876-1907) من 729596 إلى 1071988 نسمة[5].

إنعكست زيادة السكان على واقع المدينة العثمانية، فتعاظم حجمها، وإتسعت أحياؤها خارج حدود المدن القديمة، وبدأت العمارات المعروضة للإيجار تتكاثر في قلب المدن، وأخذت المدينة تفقد طابعها التقليدي مع تداخل أحيائها، وإختلاط طوائفها بعضها ببعض[6]، كما توجهت الأسر الثرية، بمختلف انتماءاتها الدينية والعرقية، إلى أحياء جديدة بنيت دورها على النمط الأوربي، وحلت بها الشوارع المنسقة، المستعارة من الهندسة المدنية الغربية، محل الشبكة المعقدة من الأزقة والحارات الملتوية الضيقة، وغلبت وحدة الأنموذج والعقلانية محل ما بدا لأعين المخططين في ذلك العصر فوضى تدل على إرتباك

1- Kemal H. Karpat, Ottoman Population Records, P.254.

2- Philip K. Hitti, Lebanon in History from the Earliest Time to the Present, NewYork, 1967, P.472

أ. سميليانسكايا، المصدر السابق، ص17.

3- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص201.

4- بول دومون، المصدر السابق، ص104.

5- Justin McCarthy, Muslims and Minorities. The Population of Ottoman Anatolia and the end of the Empire, NewYork, 1983, P.20.

6- الدكتور بهاء الدين يدي يلدز، المصدر السابق، ص616.

وتقلب الأهواء[1]. وفي العام 1848 صدر أول قانون للإنشاءات في تاريخ الدولة العثمانية، ومع إن تطبيقه كان محدودا، فأن مجرد إصداره له دلالاته الكبيرة[2].

شهدت المدن العثمانية، لاسيما الرئيسية، في القرن التاسع عشر تغيرات أخرى في ملامحها. فنمت مختلف البنى الأساسية المرتبطة بوسائل المواصلات والاتصالات، وإتسعت الأسواق وإزدادت المحلات والدور التجارية ومراكز الأعمال، كما أخذت بنايات جديدة بالظهور مثل محطات سكك الحديد، ومكاتب البريد، والأرصفة، ومستودعات السلع، ومحال فاخرة، ومسارح، وفنادق[3].

كما بدأت التقنيات الغربية تترك أثارها على الحياة اليومية في المدن العثمانية الكبرى، فمثلا دخلت السيارة اسطنبول لأول مرة عام 1895 [4]، وتحول إستخدامها مع بداية القرن العشرين إلى أمر شائع، فذكر تقرير يعود إلى حزيران 1908 أن «السيارات تجد طريقها ببطء في شوارع اسطنبول، والآن تشاهد يوميا سيارة أو سيارتان في القرى أعالي البسفور... إن الحكومة الإمبراطورية تُهنأ على قرارها بحظر إستيراد السيارات إلى تركيا»[5]. كما دخل الترام الكهربائي، مع السيارة، في خدمة النقل، وصار البرق والهاتف، في العقد الأول من القرن العشرين، عنصرين من عناصر الحياة اليومية[6].

مع هذا التطور صارت المدن بحاجة إلى خدمات عامة، لاسيما في المدن الساحلية شرق البحر المتوسط التي كانت في سبيلها نحو علاقات إقتصادية متنامية مع أوربا، وكانت مضطرة للاتجاه نحو تنظيم جديد يساعدها على حيازة جهاز متكامل للاتصال والخدمات

1- بول دومون، المصدر السابق، ص110؛ الدكتور محمد عبدالعزيز مرزوق، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، مصر، ص58.

2- بول دومون، المصدر السابق، ص113.

3- S.J.Shaw and E.K.Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol.II, NewYork, 1977, P.91.

4- الدكتور بهاء الدين يدي يلدز، المصدر السابق ، ص616.

5- Quoted in: Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.150.

6- الدكتور بهاء الدين يدي يلدز، المصدر السابق، ص617.

يناسب الفعاليات التجارية في القرن التاسع عشر، وتمثلت الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، في العام 1858، بإنشاء بلدية في اسطنبول، يرأسها أمين عاصمة (Şehir Emini)، يساعده مجلس مكون من أثني عشر عضوا. من أهم مهام الجهاز الجديد تحديد الضرائب المحلية، وحفظ النظام في الأسواق والشوارع، والاهتمام بتدابير النظافة والرقابة على إمدادات المياه والمؤن الغذائية[1]. وبعد ذلك بثلاث سنوات قُسمت اسطنبول، على غرار الأنموذج الباريسي، إلى عدة دوائر برزت بينها الدائرة السادسة المتكونة من حي بيرا، وحي غلطة المعروف بضخامة نشاطه التجاري وكثرة السفارات ووجود عدد كبير من الأجانب. تميزت الدائرة بطابع تجريبي فخصصت لها موارد إستثنائية مكنت القائمين عليها من أن يجعلوا منها قطاعا حضريا أنموذجيا مزودا بشوارع وأرصفة، وشبكة إضاءة للمدينة بالغاز، وشبكة توصيل للمياه، وخطوط منتظمة للبنايات[2]. وفي العام 1864 عممت التجربة على الأحياء الأخرى في اسطنبول. وفي العام 1877 صدر قانون بلدية الولايات (Vilayet Belediye Kanunu) نشرت بموجبه مجالس البلدية في كل مدن الدولة العثمانية[3].

إمتد تغير المدينة العثمانية ليزلزل واقع المجتمع المدني برمته، فظهرت فئات اجتماعية جديدة، وضمرت أخرى، وإزداد الثقل الكمي والنوعي لفئات موجودة أصلا. إذ وفر تعاظم العلاقات التجارية مع الأسواق الرأسمالية السياق الرئيس لنمو البرجوازية العثمانية وتطورها، وبشكل خاص البرجوازية التجارية التي نمت وتطورت بسرعة كبيرة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. لكن إزدياد التغلغل الرأسمالي في الدولة العثمانية، وتحولها، تبعا لذلك، في أواخر القرن التاسع عشر إلى شبه مستعمرة، خلق معوقات كبيرة أمام عملية التطور تمثلت بشكل أساس بالامتيازات الكبيرة

1- S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit., P.92.

2- بول دومون، المصدر السابق، ص112؛ الدكتور إيلبر اورطايلي، النظم الإدارية في عهد التنظيمات الخيرية وما تلاه، «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، الجزء الأول، ص325.

3- A.Bonné, State and Economics in the Middle East. A Society in transition, London, 1955, PP.42-43; S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit., P.95.

التي تمتع بها الأجانب[1]، في الوقت الذي حُرم فيه التاجر العثماني منها، لاسيما فيما يتعلق بالرسوم الكمركية، إذ كان التاجر العثماني يدفع ثلاثة أضعاف، وفي أحسن الأحوال ضعف ما يدفعه نظيره الأجنبي، كما أن الرسوم الكمركية التي يدفعها التاجر الأجنبي في مرفأ واحد للدولة العثمانية تحرر تجارته من أي رسوم كمركية عند انتقالها إلى مرفأ آخر، أما التاجر العثماني فكان يكلف بدفع رسوم جديدة في كل مرفأ[2]، علاوة على إعفاء التاجر الأجنبي من أي ضرائب محلية[3].

أعطى مثل هذا الوضع تميزا زائدا وأفضلية كبيرة للتاجر الأجنبي على حساب التاجر العثماني الذي تضررت مصالحه بدرجة كبيرة، غير أن فئة أخرى ظهرت في صفوف التجار العثمانيين استفادت بشدة من هذه الامتيازات تمثلت بالكومبرادور[4] أو التجار الوكلاء الذين شكلوا حلقة وصل بين الأسواق المحلية وأسواق العالم الرأسمالي. تألفت هذه الفئة، بشكل أساس، من المسيح واليهود، من دون المسلمين،

1- الأصل في الامتيازات الأجنبية إنها كانت منحا تمنح للأجانب من لدن السلطان القوي دلالة على كرمه، أو على الأكثر إتفاقا بين أنداد يعترف فيها بتفوق السلطان. ويعود تاريخ الامتيازات الأجنبية في الدولة العثمانية إلى العام 1387 بتوقيع معاهدة بين العثمانيين والجنويين، حصل فيها الجنويون على امتيازات تجارية، لكن المعاهدة صاحبة الحظ الأوفر من الشهرة في هذا المجال كانت عام 1535، منح فيها السلطان العثماني سليمان القانوني(1520-1566) الملك الفرنسي فرانسوا الأول(1515-1547) امتيازات تعدت المجال التجاري لتشمل المجالين القانوني والديني. ومع ضعف الدولة العثمانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حصلت كل الدول الرأسمالية على امتيازات مشابهة اتخذت شكل اتفاقات تُفرض على السلطان، وعلى كل حاكم عثماني جديد الاعتراف بها وتجديدها فور إرتقائه العرش. للتفاصيل ينظر: ز.ي.هرشلاغ، المصدر السابق، ص58-71؛ وليد العريض، المصدر السابق، ص145-173؛ سليم أحمد سعيد، الامتيازات الأجنبية في الإمبراطورية العثمانية وأثرها على البلدان العربية، بحث دبلوم غير منشور، معهد الدراسات القومية والاشتراكية- الجامعة المستنصرية،2000، ص4-18؛ الدكتور قيس جواد العزاوي، المصدر السابق، ص17-29.

2- الدكتور بدرالدين السباعي، المصدر السابق، ص13.

3- S.N.Fisher, Op.Cit., P.300.

4- المصطلح أسباني الأصل يعني التاجر، ظهر استخدامه بمعناه الاصطلاحي الجديد مع الاستكشافات الجغرافية الكبرى، وتطور التجارة مع العالم الجديد الذي كان الأسبان رواد استكشافه.

وذلـك بحكـم عوامل عديـدة يأتي فـي مقدمتها إجادتهـم للغـات أجنبية، وهو ما يشـير إليه الأسـتاذان جـب وبـون بقولهمـا «**كانـت كل التجـارة الأوربيـة فـي أيـدي المسـيحيين (الأوربييـن والمشـارقة) واليهـود... إذ كان التجـار الفرنجـة بحاجـة إلـى وكلاء وتراجمـة ومقاوليـن، فلـم يكـن لهـم من خيار سـوى الإفـادة من هـذه الطائفة مـن الناس الذيـن كانوا على إستعداد للانضمام إليهم**»[1].

تمكنت هذه الفئة من تطوير نفسها بسرعة، وتوسيع مصالحها التجارية من خلال تصعيد الاتصال بالغرب، وتعميق العلاقات التجارية مع العالم الرأسمالي، ساعد أفرادها على ذلك تمتعهم بذات الحماية والامتيازات التي تمتع بها التجار الأجانب من خلال ما عرف بالبراءة[2] (Berat) التي كانت تمنح من لدن السفراء والقناصل في الدولة العثمانية للعاملين معهم «ولما كانت تحت تصرف كل سفير خمسون براءة، وتتجدد المنحة عند كل تعيين جديد، لا يدعو للعجب أن يزداد بسرعة أعداد أولئك الذين ينعمون بالرعاية الفرنسية والنمساوية والسويدية والبريطانية وغيرها من الجنسيات الأوربية ممن كانوا يندمجون في هذه الجنسيات، ويشاركون في القضاء القنصلي نفسه»[3]. فمنذ بدايات القرن الثامن عشر بلغ عدد الحاصلين على براءات من النمسا، فقط، في كل من ملدافيا (Moldavia)

1- **H.A.R.Gibb and H.Bowen, Islamic Society and the West A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East, Volume One, Part I, London, 1951, PP.308-310.**

2- وثيقة يمنحها الدبلوماسيون لوكلائهم وأتباعهم تضمن لهم من خلالها حماية الدولة التي تمثلها السفارة، أو القنصلية المانحة للبراءة، وتتيح لحامل الوثيقة التمتع بكل الامتيازات التي يتمتع بها رعايا تلك الدولة. ينظر:

S.N.Fisher, Op.Cit., P.300; F.A.Neale, Islamism its Rise and its Progress or the Present and Past Conition of the Turks, Vol.I, London, PP.307-315; Midhat Sertoğıu, Resimli Osmanlı Tarihi Ansiklopedisi, İstanbul, 1958, S.31

مدحت سرت اوغلو، موسوعة التاريخ العثماني المصورة، اسطنبول، 1958، ص31.

3- **H.A.R.Gibb and H.Bowen, Op.Cit., P.310.**

وولاشـيـا (Wallachia)، مائتي ألف وستون ألف على التوالي[1]، وفي أواخر القرن (عام1793) شكا باشا حلب إلى الباب العالي من أن عدد تراجمة القناصل في حلب ازداد حتى بلغ نحو ألف وخمسمائة شخص «كلهم معفون من الضرائب ويعملون بالتجارة»[2]. لكن الدلالة ازدادت خطورة إبان القرن التاسع عشر مع تعمق العلاقات الاقتصادية بالعالم الرأسمالي، فخلال عقدين تبعا توقيع معاهدة بلطة ليماني إرتفع عدد المنضوين تحت الحماية البريطانية في طرابزون، مثلا، أكثر من خمس عشرة مرة[3]، بل أن تزايد الطلب على وثيقة البراءة جعل منها سلعة تباع علنا، تناسب سعرها طرديا مع تزايد الطلب عليها[4].

في ظل تلك الأوضاع إقتصر دور التجار المسلمين تقريبا على النشاط التجاري الداخلي، وصار الجانب الأكبر من التجارة الخارجية للدولة العثمانية، ومعظم ما يتعلق بتنسيق العلاقات مع الأسواق الرأسمالية بيد الطوائف غير المسلمة. فوفقا لوثيقة بريطانية تعود إلى 1884، سيطر التجار اليونان والأرمن على التجارة الخارجية لطرابزون، إذ شكلت نسبتهم أكثر من ٪71 ضمن كبار وكلاء الشركات الأجنبية، وأكثر من ٪90 ضمن كبار المصدرين والمستوردين، بالمقابل انحسرت نسبة الأتراك إلى أقل من العشر[5]، كما جرى الجزء الأعظم من تجارة بريطانيا مع اسطنبول عبر تجار ووكلاء يونان وأرمن[6]. ومن الواضح إن هذه الفئة لم تكتفِ بدور الوسيط والوكيل للشركات التجارية الأجنبية، بل

1- P.F.Sugar, Economic and Political Modernization, "Political Modernization in Japan and Turkey", Ed. R.E.Ward and D.A.Rustow, New Jersey, 1964, P.154.

2- H.A.R.Gibb and H.Bowen, Op.Cit., P.310.

3- A.Üner Turgay, Trade and Merchants in Nineteenth- Century Trabzon: Elements of Ethnic Conflict, "Christians and Jews in the Ottoman Empire The Functioning of A Plural Society", Ed. B.Braude and B.Lewis, Vol.I, London, 1982, P.269.

4- S.N.Fisher, Op.Cit., P.300; H.A.R.Gibb and H.Bowen, Op.Cit., P.310.

5- Quoted in: A.Üner Turgar, Op.Cit., P.249.

6- Ibid.

أخذت بالانخراط بعمليات الاستيراد والتصدير، وتأسيس بيوت تجارية خاصة بها. ففي العام 1893 كان هناك سبع وتسعون شركة تجارية في أزمير، وأربع وثلاثون أخرى في ايدين تعود ملكيتها لتجار يونان وأرمن[1].

نتيجة لذلك نمت البرجوازية المسيحية وتطورت بخطى أسرع من البرجوازية المسلمة، وكان لهذا النمو اللامتكافئ أثره في تحويل الطوائف إلى مجاميع مختلفة، إمتلكت من خلال مصلحة الفئة الاجتماعية السائدة في كل مجموعة، قناعات مختلفة في تعيين موقعها ودورها السياسي في خضم الأحداث المصيرية التي عصفت بالدولة العثمانية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين[2]، دعك عن ردود الفعل الواسعة التي أثارها في صفوف مختلف الأوساط المسلمة داخل الدولة العثمانية، الدينية منها كما العلمانية.

هناك ظروف أخرى أثرت في سمات التحرك السياسي للبرجوازية العثمانية. فقد ارتبط أغلب التجار، بتأثير ظروف التطور الاقتصادي والاجتماعي، بالإقطاعية الزراعية التي كانت، بدورها، على اتصال وثيق بالرأسمال التجاري من خلال إنتاج الريف، علاوة على أن العديد من الإقطاعيين حولوا جزءا من رساميلهم من الزراعة إلى التجارة، من دون فقدان صفتهم الإقطاعية الأساسية، وتحول قسم من التجار إلى ملاك للأرض من دون ترك نشاطهم التجاري. أدت هذه العملية إلى تشابك الفئة التجارية في المدينة بالطبقة الإقطاعية، وإلى تداخل مصالحهم في الحفاظ على الأسلوب التقليدي لاستغلال ونهب الفلاح[3]، ومن ثم فأن تناقض البرجوازية مع الإقطاع كان مجرد تناقض مع البنية الفوقية للنظام الإقطاعي، لتجتمع مصلحة الفئتين في إطار واحد يقضي بالسعي لإجراء تغيير جزئي بالقدر الذي يخدم مصالحهما معا.

1- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص203.

2- الدكتور وجيه كوثراني، المصدر السابق، ص100، 107.

3- عبدالله حنا، القضية الزراعية، ص107؛ أ.سميليانسكايا، المصدر السابق، ص41.

من الواضح ان المدينة العثمانية في حقبة ما بعد الاندماج بالأسواق الرأسمالية شهدت تغيرات لم يكن كلها إيجابيا. فمع أن تعاظم العلاقات التجارية بأوربا وفر ظروفا موضوعية لتطورها في مجالات كثيرة، إلا أنه في أحيان غير قليلة ولد معضلات كان من الصعب تخطيها، إذ أدى تدفق البضاعة الأجنبية الأرخص سعرا بمراحل، إلى تعرض الإنتاج الحرفي لأزمة خانقة حالت دون تطوره الطبيعي والانتقال من الإنتاج المانيفاكتوري إلى إنتاج المعامل. فنتيجة لارتفاع سعر الكلفة والعمل تحت أنظمة سعرية صارمة فشلت الأصناف الحرفية[1] في تقديم بضائعها بأسعار واطئة بما يؤهلها للتنافس مع السلع الأجنبية التي لم تكن، ضمن المرحلة الأولى، أجود صنعا. حيث كتب رحالة أوربي في أثناء زيارته لدمشق في 1850 «**إن السبب الوحيد لتدهور صناعة المنسوجات الحريرية في دمشق، التي كانت مزدهرة يوما، هو إطلاق حرية استيراد المنتجات البريطانية والسويسرية. إن هذه المنتجات أقل سعرا بنحو الربع من المنسوجات الحريرية الدمشقية، ولكنها أقصر عمرا بكثير. إن الطبقات الفقيرة هي التي تشتري المنسوجات الأوربية، إذ دفعهم تزايد فقرهم إلى الانصراف عن المنسوجات المحلية الأكثر جودة والأعلى سعرا**»[2]. لكن زيادة فارق السعر، وتحول كفة الجودة لصالح المنتجات الأجنبية سحب البساط من تحت المنتجات الحرفية

1- انتشر نظام النقابات أو الأصناف Guild System خلال العصر الوسيط. وكانت هذه الأصناف طوائف مهنية أساسا، تولت مهمة وضع وتطبيق النظم المهنية والحرفية، إقرار أسعار عادلة، المحافظة على أسرار الحرفة، وضمان مستويات مهنية والتجانس المحكم لأنماط الإنتاج. بالإضافة إلى وظائفها الاقتصادية، كان لها وظائف اجتماعية، وسياسية، ودينية، بل وحتى إدارية خصت جباية الضرائب. في القرن التاسع عشر ، نتيجة لكل التطورات التي شهدتها المدينة العثمانية، تفككت الأصناف، وتآكلت بسرعة، واختفت في النهاية من الوجود. للتفاصيل ينظر: ز.ي.هرشلاغ، المصدر السابق، ص27-33؛ دونالد كواترت، المصدر السابق، ص251؛

G.Baer, The Administrative Economic and Social Functions of Turkish Guilds in Memory of Uriel Heyd, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.1, January 1970, PP.28-50.

2- نقلا عن: الدكتور جلال أحمد أمين، المشرق العربي والغرب. بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الرابعة، بيروت، 1983، ص29.

التي تلقت ضربة قاتلة، طالت حتى بعض الصناعات التي تحمل طابعا محليا خاصا كصناعة الطرابيش[1].

من شأن بعض الإحصاءات أن تعطي تصورا عن مدى الدمار الذي لحق بالإنتاج الحرفي العثماني. فمنذ بدايات القرن التاسع عشر، وخلال أقل من عقد من الزمان(1812-1821) انخفض عدد أنوال نسج الحرير في ألبانيا من ستمائة نول إلى أربعين نولا لاغير[2]، وفي تيرنوفا (Tirnova) من ألفين في العام 1812إلى مائتين عام1841 [3]، أما بورصا فقد انخفض عدد أنوال نسج الحرير فيها خلال سنوات معدودة سبقت عام 1847 من ألف نول إلى خمسة وسبعين فقط[4]، وانخفض إنتاج المنسوجات القطنية والحريرية في بورصا نفسها خلال عقدين تبعا هذا التاريخ من عشرين ألف قطعة إلى ثلاثة آلاف قطعة[5]. تتكرر الحالة نفسها في اسطنبول واسكودار (Uskudar)، إذ أنهار عدد الأنوال المنتجة للملابس فيهما، على وفق تقرير رسمي بتاريخ 1868، خلال الثلاثين أو الأربعين سنة التي سبقت إعداد التقرير من ألفين وسبعمائة وخمسين نول إلى خمسة وعشرين لا أكثر، وعدد أنوال الأقمشة المطرزة من ثلاثمائة وخمسين إلى أربعة، وعدد أنوال حرير الستائر من ستين إلى ثمانية[6]، كما اختفت تقريبا ورش نسج الصوف في انقرة، وحدث الشئ نفسه في توكات(Tokat) فيما يتعلق بإنتاج الأواني النحاسية الذي شكل مصدرا هاما للدخل في أوائل القرن التاسع عشر[7]. وكان الوضع مشابها حتى في الأجزاء البعيدة عن مركز الدولة

1- W.S.Monroe, Op.Cit., P.153.

2- O.C.Sarç, Op.Cit., P.49.

3- M.A.Ubicini, Letters on Turkey: An Account of the Religious Political Social and Commercial Condition of the Ottoman Empire, Part I, New Impression, NewYork, 1973, P.339.

4- O.C.Sarç, Op.Cit., P.50.

5- بول دومون، المصدر السابق، ص116.

6- Quoted in: O.C.Sarç, Op.Cit., P.51.

7- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص201.

العثمانية[1]. ومع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وصل الإنتاج الحرفي في كل أنحاء الدولة العثمانية إلى حافة الانهيار[2]، النتيجة الطبيعية لمثل ذلك الوضع بالتأكيد.

رافق هذا التدهور إفلاس آلاف مؤلفة من الحرفيين. فخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر إنخفض عدد الحرفيين الصناعيين في اسطنبول، مثلا، إلى العشر تقريبا (3000 إلى 350)، وفي بورصا إلى الربع، أما كورنوفا فقد بقي فيها، مع بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مائتان من أصل ألفين[3]. في ضوء هذه الأرقام بالإمكان تصور الكم الكبير للحرفيين المفلسين، الذين ضاقت أسوار المدينة ببعضهم فتوجهوا إلى الريف بحثا عن مورد للرزق، وانخرط القسم الأكبر منهم في صفوف الطبقة العاملة الحديثة، في حين نجح آخرون في التحول إلى حرف حديثة قادرة على تحسس الحاجات الجديدة، أو الانتقال بحرفهم إلى مرحلة أعلى من خلال الأخذ ببعض وسائل الإنتاج الحديث ليتحولوا بذلك إلى جزء من الشريحة الاجتماعية التي توجهت باهتمامها نحو الإنتاج الصناعي الحديث.

كان نشوء المانيفاكتورة المتطورة والمصانع الصغيرة، على نحو الخصوص، بالفرع الصناعي المتصل بمعالجة الخامات المخصصة للتصدير، أو المتصل بحياة الفرد المعاشية، فوجدت المكائن الحديثة المخصصة لهذه الصناعات طريقها إلى الدولة العثمانية[4]، ومنذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر بدأت تظهر مصانع غزل خيوط الحرير تعمل بالآلات البخارية[5]، وفي الثمانينيات منه كان هناك ستون مصنعا لغزل الحرير ضمن نطاق لبنان فقط، قياسا بخمسة مصانع قبل عقدين من ذلك التاريخ[6].

1- بيرج بير بيروكلو، المصدر السابق، ص6.

2- المصدر نفسه.

3- وليد العريض، المصدر السابق، ص158.

4- **Justin McCarthy, The Ottoman Peoples and The End of Empire, London, 2001, P.33; Charles Issawi, Economic History of Turkey, P.77.**

5- **http: // www. Lib. msu. edu/ sowards/ balkan/ lect09. htm, Economic and Social Changes in Balkan Life, "Twenty- Five Lectures on Modern Balkan History".**

6- أ.سميليانسكايا، المصدر السابق، ص30.

كما جاء في تقرير للقنصل البروسي في اسطنبول، بتاريخ 1863، واصفا نشاط مطاحن الحبوب بأنه «تخطى بمعنى الكلمة مرحلة الإنتاج اليدوي... فهناك الآن ستة مطاحن تعمل بالبخار»[1]. وبموجب المجموعة الإحصائية العثمانية للعام 1900 وصل عدد المعامل 1587 معملا، بينها 600 تستحق أسم المنشأة الصناعية، حسب تعليق هرشلاغ، أما البقية فهي دكاكين صغيرة تلبي الطلب المحلي، قاربت القيمة الإجمالية لإنتاجها ثلاثين مليون دولار[2]، وتركز ضمن مواد محددة أهمها المواد الغذائية، مواد البناء، دباغة الجلود، الأخشاب، الغزل والنسيج، القرطاسية، الكيمياويات، الزجاج، السجاد[3]. وتجدر الإشارة إلى أن النشاط الصناعي، مثله مثل النشاط التجاري، كان تحت سيطرة اليونان والأرمن بالدرجة الأساس، فقد أظهر المسح الصناعي الأول للدولة العثمانية، الذي تم الاضطلاع به في 1913-1915، إن ٪50 من الرساميل المستثمرة في المنشآت الصناعية المشمولة بالمسح تخص اليونان، و٪20 تخص الأرمن، في الوقت الذي لم تتجاوز فيه نسبة الأتراك ٪15 [4].

على الرغم من محدودية النشاط والإنتاج، عانت البرجوازية الصناعية العثمانية من منافسة المنتجات المستوردة، ومن مزاحمة الاستثمارات الأجنبية في عقر دارهم. فقد كرس بعض الأجانب إهتماما متزايدا لإنشاء عدد من الصناعات في الدولة العثمانية، بدأها مواطن سويسري في العام 1845 بإنشاء مصنع لغزل خيوط الحرير يعمل بقوة البخار في بورصا[5]، تبعه مواطن فرنسي قام بإنشاء مصنع للمناديل الحريرية في العام 1850 [6]، وتوالى إنشاء المصانع برؤوس أموال أجنبية وجهت إهتمامها، فضلا عن الصناعات التعدينية، نحو صناعة

1- نقلا عن: شارل عيساوي، المصدر السابق، ص291.

2- ز.ي.هرشلاغ، المصدر السابق، ص97-98.

3- المصدر نفسه، ص98؛ وليد العريض، المصدر السابق، ص159.

4- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص204.

5- O.C.Sarç, Op.Cit., P.57.

6- بول دومون، المصدر السابق، ص117.

النسيج والزيوت الغذائية والورق والأخشاب والخزف والزجاج والسجاد[1]، التي تميزت، عموما، بأنها ذات طابع أقوى وأكثر تطورا من الصناعات المحلية.

عند الحديث عن الصناعة العثمانية لابد من الإشارة، أيضا، إلى جهود الدولة التي قامت بإنشاء مصانع عديدة خصص إنتاجها لسد حاجة الجيش من بزات عسكرية، وأسلحة، وطرابيش[2]، كما أقامت مصنعا لإنتاج المواد الكمالية لتلبية متطلبات القصر والفئات المحظوظة[3]، علاوة على معامل صغيرة لإنتاج الزجاج والورق والنحاسيات[4].

وفـرت هـذه الصناعـات، مـع العديـد من فـرص العمـل الجديـدة لاسـيما المرتبطة بمشـاريع البنـى التحتيـة، بيئـة ملائمـة، نسـبيا، لنمـو الطبقـة العاملـة التـي شـكلت إضافـة نوعيـة جديـدة لمجتمـع المدينـة العثمانيـة مـا بعـد منتصـف القـرن التاسـع عشـر، وكان المهاجـرون مـن الريـف المـورد الرئيـس والمسـتمر لاتسـاعها وتطورهـا. فأمـام تزايـد صعوبـات الحياة فـي الريف العثمانـي، وتفاقم الاسـتغلال الإقطاعي توجهت أعـداد كبيرة مـن الفلاحيـن إلـى المدينـة بحثـا عن وسـيلة يحسـنون مـن خلالهـا وضعهـم الاقتصادي المتدهـور فـي الريـف، مع حفاظهم علـى إرتباطهم بقراهـم، إذ «بقي القـروي يفضل القرية بشـحها، بأرضها المسـتنزفة المزدحمة، ببؤسـها وجوعهـا»[5]، فهي، علـى الرغم من ذلك، مـلاذه الآمـن متـى مـا ضاقت بـه المدينـة أو جـارت عليـه، وهو مـا كان لـه أثره فـي تعزيز العلاقـات بيـن الريـف والمدينـة، ولاسـيما أنـه غالبا ما تسـبق الهجـرة إلى المدينـة مرحلة إنتقاليـة تتمثـل بالرحيـل بحثـا عـن عمل موسـمي، ومع تسـارع عجلـة التطـور الاقتصادي

1- O.C.Sarç, Op.Cit., P.56;

شارل عيساوي، المصدر السابق، ص292.

2- O.C.Sarç,Op.Cit., P56.

3- بول دومون، المصدر السابق، ص117.

4- O.C.Sarç,Op.Cit.,P.56;

شارل عيساوي، المصدر السابق، ص290.

5- ز.ي.هرشلاغ، المصدر السابق، ص27.

في الدولـة العثمانيـة إعتبـارا مـن أواسـط القرن التاسـع عشـر، إتسـع المجـال أكثـر فأكثر لمثل هذا النوع من العمل حتى زادت أعدادهم على مئات الألوف[1].

كان المعروض من الأيدي العاملة، مع إستمرار الهجرة إلى المدينة وتواصل تحول الحرفيين المفلسين إلى صفوف العمال، في تزايد متنام، فشلت فرص العمل الجديدة، على الرغم من تزايدها في إستيعابه[2]. أدى هذا الواقع إلى وجود فائض في الأيدي العاملة، وهو ما ساعد على إنخفاض أجور العمال وتردي أوضاعهم، ودفع عددا ممن فشل في إيجاد فرصة عمل إلى إنتهاج أسلوب التسول إستسهالا، أو إضطرارا مع تزايد ضغوط المعيشة «بلغ من كثرتهم إن الانسان يتوهم انه يسير في معسكر يواكبه على الجانبين» حسب وصف شاهدة عيان[3]. في حين وجه القسم الأكبر منهم أنظاره إلى خارج الدولة العثمانية، ولاسيما العالم الجديد، يحدوهم أمل الحصول على فرص أفضل للحياة، حتى وصل عدد المهاجرين إلى أمريكا، فقط ما بين 1881 و1914، نحو 1200000 مهاجر[4]. وتجدر الإشارة إلى أن عددا كبيرا من العمال المهاجرين كانوا يعودون إلى بلادهم، فقد عاد، مثلا، ثلث العمال المهاجرين إلى أمريكا[5]، وليس بخاف تأثير ذلك على نمو الوعي في الدولة العثمانية، وعلى وجه الخصوص بين صفوف العمال الذين سعوا منذ مرحلة مبكرة إلى إيجاد هيئات ترعى شؤونهم، وتأسس لهذه الغاية العديد من الأندية الخيرية والجمعيات العمالية، مثل «جمعية العمال العثمانيين» التي تأسست في اسطنبول عام1894-1895، وصناديق تعاضد، أو صناديق للمحالين على المعاش أخذت في التطور إعتبارا من ثمانينيات القرن التاسع عشر[6]

1- Roger Owen, Op.Cit., PP.115-116.

2- Kemal H. Karpat, Ottoman Emigration to America, PP.177-178.

3- ماري ملز باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ترجمة حنا غصن وآخرون، بيروت، 1933، ص49.

4- Kemal H. Karpat, Ottoman Emigration to America, P.185; Kemal H. Karpat, The Syrian Emigration from the Ottoman State 1870-1914, "Revue D'Historiy Magnrebine", Tunis, Numerous 31-32, December 1983, P.294.

5- Kemal H. Karpat, Syrian Emigration, P.289.

6- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص202.

على الرغم من صعوبة الحديث عن طبقة عاملة في ذاتها أو لذاتها[1] في الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فهي لم تكن أكثر من كائن إجتماعي جديد في طور التكوين[2]، بوعي لايزال جنينيا. مع ذلك ظهر نوع من التحرك العمالي في الدولة العثمانية من خلال اللجوء إلى سلاح الإضراب، الذي لم يحل منعه دون حدوث خمسين توقف عن العمل بين عامي 1872 و1908، رجع منشأ غالبيتها إلى التأخر الزائد عن الحد في دفع الأجور[3]. وقوبلت الإضرابات بقسوة إزدادت شدتها مع تلك التي تقع في المشاريع الأجنبية، فطبعا، يجب أن لا يزعج الرأسمال الأجنبي. وفي هذه المشاريع، بالذات، غالبا ما يقترن الوعي بالمنافسات العرقية. ففي شركة سكك حديد الأناضول، مثلا، أظهر العمال الأتراك في عدة مناسبات عداوتهم للعمال المتخصصين وللملاحظين اليونان والأرمن[4]. هذا الانشقاق في صفوف الطبقة العاملة زاد من ضعفها وعزلتها عن المشهد الحضري، فلم تكن قادرة على إحداث أي تغيير أو تأثير فيه. لكن فئة أخرى تكونت في رحم هذه الطبقة

1- «طبقة في الذات» و «طبقة للذات» مصطلحان علميان يستخدمان عادة لتحديد مدى تطور الطبقة العاملة الفكري. فالطبقة العاملة، عموما، في مراحل التكوين تكون، رغم ثقلها الكمي، متفرقة في صفوفها، لا تربطها رابطة فكرية موحدة، ولا تدرك واجباتها السياسية والاجتماعية، ويتخذ نضالها عادة شكلا عفويا غير منظم، وهي بهذا تكون في هذه المرحلة مجرد «طبقة في ذاتها». بعد تحول كل هذه الأمور بالتدريج إلى نقيضها، وخاصة بعد أن يبدأ العمال بادراك المهمات الاجتماعية والسياسية الملقاة على عاتقهم، تتحول طبقتهم إلى «طبقة لذاتها». الدكتور كمال مظهر أحمد، صفحات من تاريخ العراق المعاصر. دراسات تحليلية، بغداد، 1987، ص134.

2- تختلف المصادر في تحديد عدد العمال في الدولة العثمانية، ففي الوقت الذي يشير فيه أحد المصادر إلى أن عددهم عام 1908 كان حوالي 250 ألف عامل، يشير مصدر آخر إلى أن عدد العمال في سوريا ولبنان فقط، عشية الحرب العالمية الأولى، كان يصل إلى 300 ألف. وبغض النظر عن صحة هذا المصدر أو ذاك، يبقى حجم الطبقة العاملة محدودا جدا قياسا بحجم الدولة العثمانية. يراجع: فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص200؛ الدكتور كمال مظهر أحمد(عرض وتحليل)، حول نشوء حركة التحرر الوطني العربي في دراسة سوفيتية جديدة للدكتور ل.ن. كاتلوف، «آفاق عربية» (مجلة)، بغداد، العدد2، تشرين الأول 1975، ص138.

3- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص202.

4- المصدر نفسه؛ بيرج بير بيروكلو، المصدر السابق، ص14.

وبقيـة طبقـات المجتمع العثمانـي، أرادت إحداث تغيير جـذري في كيان الدولـة العثمانية، وصارت محورا فيه، ومحركا له، هي الفئة المثقفة الحديثة (الانتلجينسيا).

لقد تطلبت كل تلك التحولات التي مرت بها الدولة العثمانية إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وجود مثقفين من نوع جديد تتجاوز معارفهم الحدود التقليدية، مثقفون يجيدون اللغات الأجنبية، ويعرفون إستخدام الآلة الحديثة والتعامل مع الاختراعات الجديدة، المدنية منها والعسكرية، ويبدعون في إيجاد حلول قانونية لمشاكل كثيرة استجدت في مجتمع متغير تخطى طابع البساطة نحو مجتمع أكثر تعقيدا. كل ذلك وغيره إستوجب إهتماما خاصا بالتعليم الحديث وظهور المدارس الحديثة في الدولة العثمانية. فمنذ العام 1838 نص تقرير أعدته لجنة حكومية خاصة لدراسة واقع التعليم في الدولة العثمانية، على أن

> **«جميع المهارات والحرف هي نتاج للعلم. المعرفة الدينية تنشد الخلاص في عالم لم يأتِ بعد، لكن العلوم تسعى لكمال الإنسان في هذا العالم... إن أي محاولة للنهوض بالزراعة، والتجارة، والصناعة لا يمكن تحقيقها بدون نيل العلوم، وإن السبيل إلى إحراز العلوم والارتقاء بالتعليم يتجسد في إقامة نظام جديد للمدارس»[1].**

مثل هذه الوثيقة اللاتقليدية وجدت لها صدى، وإن كان محدودا، داخل أروقة الحكومة. فبعيد إصدارها تم إنشاء مدرستين جديدتين استمدتا طلابهما من خريجي الكتاتيب الواعدين، هما مكتب المعارف(Mekteb-i Maarif) بغية تهيئة ملاك متقدم من الموظفين، ومكتب العلوم الأدبية(Mekteb-i Ulum-u Edebiye) ، لتدريب مترجمين حكوميين[2].

1- **Quoted in: Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, Montreal, 1964, P.105.**

2- **Ibid., P.106;**

الدكتور محمد عبداللطيف البحراوي، حركة الاصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني 1808-1839، مطابع المختار الإسلامي، دار السلام، 1978، ص218.

تواصلت عملية إنشاء المدارس الحديثة مع تنامي الحاجة إليها، وقرب منتصف القرن التاسع عشر صار للجهاز التعليمي العثماني ملمحا متماسكا هرمي الشكل، ففي القاعدة التعليم الابتدائي، أو مدارس الصبيان التي تستمر لمدة أربع سنوات، وتشكل الأساس للالتحاق بالمدارس الرشدية ومدتها ثلاث سنوات، تشمل الفتيان ممن تراوحت أعمارهم بين عشر وخمس عشرة سنة، ثم مدارس الإعدادية لمدة ثلاث سنوات أيضا وفي قمة الهرم هناك المدارس العليا[1]. إلا أن هذه المدارس، على أهميتها، كانت قليلة جدا، صممت أساسا لسد حاجة الدولة من الموظفين المتعلمين، ووفقا للكتاب السنوي الرسمي للباب العالي، لم يكن في الدولة العثمانية، غداة حرب القرم، أكثر من ستين مدرسة رشدية، لا يزيد العدد الإجمالي لتلاميذها عن **3371** تلميذا[2].

خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر إزداد عدد المدارس في الدولة العثمانية بسرعة تناسبت طرديا مع تعمق التغيرات التي شهدها المجتمع العثماني، وجاءت «القانون التنظيمي للمعارف العمومية»(Maarif-i Umumiye Nizamnamesi) في العام **1869** لتعطي دفعا قويا للمؤسسات التعليمية في الدولة العثمانية، فبموجب اللائحة تقرر فتح مدرسة ابتدائية في الأقل في كل حي وقرية، وتأسيس مدرسة رشدية في كل قصبة يقطنها خمسمائة أسرة كحد أدنى، وإقامة مدرسة إعدادية في كل قصبة تشتمل داخل ضواحيها على ألف أسرة[3]. فازداد عـدد المدارس الابتدائيـة إلى **28615** مدرسـة عام **1895**، قياسا

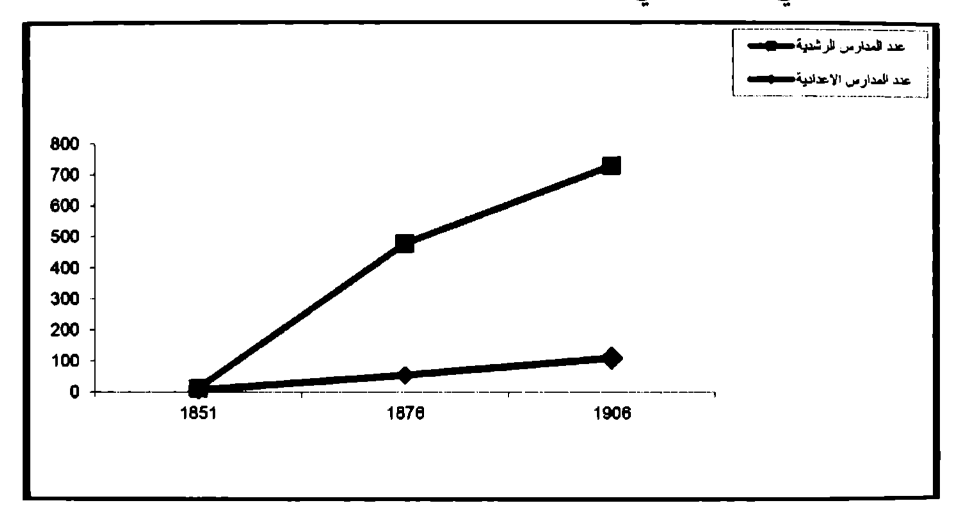
1- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلي، الحياة التعليمية والعلمية وأدبيات العلوم عند العثمانيين، «الدولة العثمانية. تاريخ وحضارة»، الجزء الثاني، ص532، 549؛ بول دومون، المصدر السابق، ص92.

2- **S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit., P.105.**

3- **F.W.Frey, Education, "Political Modernization in Japan and Turkey", Ed. R.E.Ward and D.A.Rustow, NewJersey, 1964, PP.214-215; Mustafa Yazıcı, Tanzimattan Buyana Millı Eğitim Bakanları Başbakanlar ve Atatürk 1839-1973, Ankara, S.44**

مصطفى يازيجي، وزراء التربيـة ورؤسـاء الوزارات مـن التنظيمات إلـى الآن واتاتـورك 1839-1973، انقرة، ص44.

بـ1008 مدرسة في العام 1867 [1]، وتضاعف عدد المدارس الرشدية والإعدادية، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بواقع ٪1000 للأولى، و٪1800 للثانية (ينظر الشكل رقم واحد). كما وجد تعليم البنات طريقه إلى الدولة العثمانية، وفي العام 1895 شكلت نسبتهن أكثر من ٪28 ضمن طلبة المدارس الابتدائية[2]، وبلغ عدد المدارس الرشدية المخصصة للبنات في العام 1906 أربعا وسبعين مدرسة[3]، في حين أفتتحت أول مدرسة إعدادية للبنات في اسطنبول في 13 آيار1880 [4].



شكل رقم (1)
الزيادة في عدد المدارس الرشدية والإعدادية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[5]

1- S.J.Shaw and E.K.Shaw, OP.Cit., P.112.

2- Ibid.

3- Bayram Kodaman, Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi, İstanbul, 1980, S.167
بايرام كودمان، نظام التعليم في عصر عبد الحميد، اسطنبول، 1980، ص167.

4- Hasan A. Koçer, Türkiye'De Modern Eğitim Doğuşu ve Gelişimi (1773-1923), İstanbul, S.131
حسن أ. كوجر، ولادة التعليم الحديث في تركيا وتطوره (1773-1923)، اسطنبول، ص131.

5- بيانات المخطط مأخوذة من المصادر التالية: اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص552؛ J.S.Szyliowicz, Education and Modernization in the Middle East, London, 1973, P.140; Bayram Kodaman, Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi, S.167.

بموجب قانون 1869 أضيفت درجة جديدة إلى الهرم التعليمي تمثلت بالمدرسة السلطانية (Mektebi Sultani)، النظير العثماني لليسيه الفرنسي، وأول وأشهر هذه المدارس هو ليسيه غلطة سراي (Galatasaray Lycée) التي تأسست في 1868 بمساعدة من الحكومة الفرنسية، وركزت على تزويد صفوة محدودة بتعليم يكاد يكون مستوردا بالكامل من فرنسا، يقدم معظمه بلغة فرنسية، ومن أساتذة فرنسيين[1]، ومن ثم فإنها خرجت نوعية كان الطريق مفتوحا أمامها للوصول إلى مناصب هامة، بل إلى أعلى الوظائف العامة، الأمر الذي إنعكس على طبيعة دورهم في الحياة السياسية للدولة العثمانية، وهو ما يصفه برنارد لويس بقوله «إن تأثير مدرسة غلطة سراي في النهوض بتركيا الحديثة كان ضخما جدا، فمع تصاعد الحاجة المتنامية لإداريين ودبلوماسيين وغيرهم من ذوي التعليم الغربي، والقادرين على التعامل مع أجهزة الإدارة الغربية، تعاظم دور خريجي غلطة سراي أكثر فأكثر في المجالين السياسي والإداري في الإمبراطورية العثمانية، وبعدها في الجمهورية التركية. ومع انه لم تكن هناك ميادين للنزال لالليسيه العثماني الإمبراطوري، فأن عددا غير قليل من إنتصارات تركيا الحديثة تم إنجازها في قاعات الليسيه الدراسية»[2].

على الرغم من أن ليسيه غلطة سراي تبقى المدرسة الأكثر شهرة ضمن المدارس السلطانية، فقد أُنشئت مدارس أخرى ضمن المستوى نفسه منها الوفاء، ودار الشفقة، وليسيه اسطنبول للبنين[3]، كما تم فتح مدارس سلطانية في العديد من الولايات العثمانية، وكانت أول مدرسة من هذا الطراز خارج اسطنبول في مركز ولاية كريت بأسم المدرسة الكبرى[4].

إزاء تطور التعليم صار من الضروري تغطية الحاجة المتزايدة للملاك التعليمي من خلال إيجاد مدارس خاصة لهذا الغرض، ويعود إفتتاح أول دار لاعداد المعلمين في اسطنبول

1- J.S.Szyliowicz, Op.Cit., P.143.

2- B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Second Edition, London, 1968, P.122.

3- F.W.Frey, The Turkish Political Elite, U.S.A, 1965, P.37;
الدكتور فاضل مهدي بيات،دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني. رؤية جديدة في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية،بيروت، 2003،ص266.

4- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلي، الحياة التعليمية، ص552.

إلى العام 1848 [1]. ومع إتساع التعليم إتخذت دور إعداد المعلمين شكلا تخصصيا، ففتح عام 1868 دار معملي الصبيان لمواجهة إحتياج المدارس الابتدائية من المعلمين، كما تقرر في العام 1869 إنشاء دار المعلمين الكبير لسد حاجة المدرسين في مدارس الرشدية والإعدادية والسلطانية[2]. وفي 26 نيسان 1870 افتتح أول دار للمعلمات في حي آيا صوفيا باسطنبول، وصل عدد الطالبات اللاتي إلتحقن به، ضمن أول دورة، إلى خمس وأربعين طالبة[3].

لم تلبث دور المعلمين، هي الأخرى، مثل بقية المدارس، أن خرجت عن كونها مدارس خاصة بمدينة اسطنبول وحدها، إذ أقامت الدولة مثيلات لها في العديد من مراكز الولايات الأخرى، وكانت المحاولة الأولى في هذا الصدد إفتتاح دار معلمين في ولاية قوصوه عام 1880، أعقبها إفتتاح دور أخرى في مختلف الولايات وصل عددها عام 1908 إلى واحد وثلاثين دارا[4].

تجاوز التغيير إحداث مدارس جديدة وزيادة أعدادها إلى تغيير المناهج الدراسية نفسها بما يتلاءم مع الأوضاع والاحتياجات الجديدة. فعلى سبيل المثال تنوعت المناهج الدراسية للمدارس الإعدادية لتشمل اللغة الفرنسية، الحساب، الهندسة، الجبر، المثلثات، علم الفلك، الجغرافية، التاريخ، علم الطبيعة والكيمياء، الميكانيك، حفظ الصحة والمواليد، أصول الدفاتر، علاوة على العلوم الدينية، واللغات التركية والعربية والفارسية، والخط، والرسم[5]. ومما له مغزى خاص ضمن إطار البحث إن اللغة الفرنسية كانت لها حصة الأسد بين المواد الدراسية، إذ إتسع نصيبها ليصل إلى ٪13 من مجموع الساعات الدراسية خلال سنوات الدراسة الإعدادية، كما خصص ٪10 من الساعات الدراسية للغة التركية، و٪7.7 لمادة الحساب، في حين لم تتجاوز حصة العلوم الدينية ٪8 [6].

1- J.S.Szyliowicz, Op.Cit., P.141.

2- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلي، الحياة التعليمية، ص540- 541.

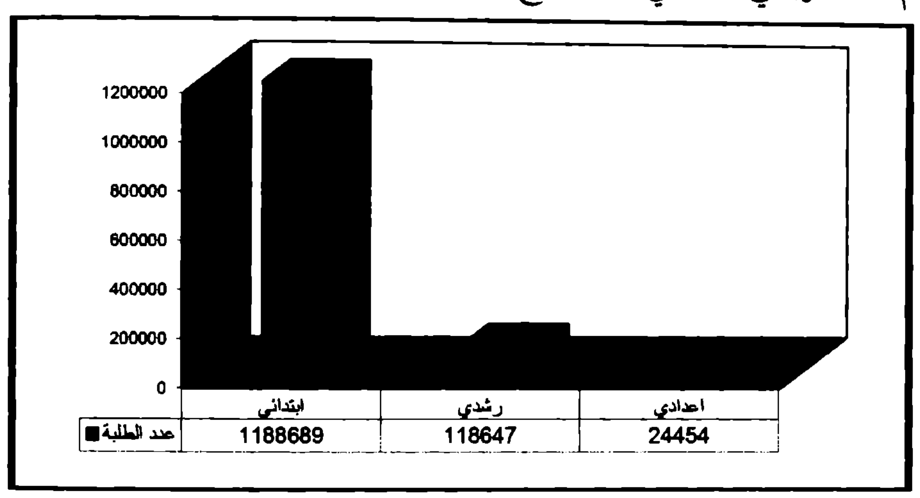
3- المصدر نفسه، ص543.

4- Hasan A. Koçer, Türkiye'De Modern Eğitim Doğuşu ve Gelişimi, S.206.

5- Bayram Kodaman, Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi, S.206; S.S.Cox, Op.Cit., PP.558-559.

6- للإطلاع على الجدول السنوي للساعات الدراسية للمدارس الإعدادية يراجع:
Bayram Kodaman, Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi, S.206.

حظيت المناهج الدراسية في المدارس الرشدية بتغير مقارب لذلك الذي شهدته المدارس الإعدادية[1]، في حين ظل الأسلوب التقليدي سائدا في مناهج وسبل تعليم المدارس الابتدائية[2]، لاسيما في ظروف وضعها تحت إشراف شيخ الإسلام[3]، فشكلت العلوم الدينية 35٪ من الساعات الدراسية للمرحلة الابتدائية، وتوزعت النسبة المتبقية، بدرجة أساس، بين القراءة والخط والإملاء[4]، وكانت مادة الحساب هي المادة الوحيدة ذات الطابع الحديث في مناهج الدراسة الابتدائية، والتي حددت ساعاتها بـ17٪[5]. مثل هذا الوضع إنعكس سلبا على نوعية المتعلمين في الدولة العثمانية، خاصة وأن الثقل الأكبر فيهم كان لخريجي الابتدائي، كما يتضح من الشكل أدناه.



شكل رقم (2)

عدد الطلبة العثمانيين في العام 1895 مصنفين حسب المدارس (إعدادي ، رشدي،ابتدائي)[6]

1- Ibid, S.208.
2- R.H. Davison, Westernized Education in Ottoman Turkey, "Middle East", Washington, Vol.15, Summer 1961, P.297.
3- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص531.
4- Bayram Kodaman, Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi, S.145.
5- Ibid; R.H.Davison, Op.Cit., P.297.
6- بيانات المخطط مأخوذة من:
S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit.,PP.112-113.

بموازاة التعليم الحديث ظل التعليم التقليدي، ممثلا بالمدارس الدينية ، بنفس مناهجه القديمة، مستمرا وفعالا[1]. هذه الازدواجية في التعليم لم تؤثر في نوعية الفئة المثقفة فحسب، بل على وحدتها أيضا، إذ نتج عنها شكل من أشكال الانقسام داخل صفوف الفئة المثقفة، ولم تكن هناك أي جهود لإقامة جسور تواصل بين القديم والحديث والعمل على إيجاد تآلف بينهما، أو للإقدام على إصلاح القديم والتوفيق بينه وبين الأوضاع الجديدة، الأمر الذي خلق تناقضات جذرية هزت بعمق الحياة الفكرية والسياسية أواخر عهد الدولة العثمانية[2].

على الرغم من ذلك شكلت المدارس الدينية رافدا إضافيا في زيادة عدد المتعلمين في الدولة العثمانية الذين إرتفعت نسبتهم في العام 1868 إلى [3]2٪، لتتضاعف النسبة، مع نهاية العقد الأول من القرن العشرين، بمقدار عشر مرات[4].

كان الكم الأغلب من المتعلمين من ذوي التعليم الأولي والثانوي، مع ذلك، شكل خريجوا التعليم المهني والعالي نسبة غير قليلة.

دُشنت الخطوات الأولى في مجال التعليم المهني مع إطلالة العقد الخامس من القرن التاسع عشر، لكن تلك الخطى لم تثبت وتترسخ إلا في الثلث الأخير من القرن المذكور حينما تحول التعليم المهني إلى ضرورة ماسة، وحاجة ملحة فرضتها ظروف التطور الاقتصادي. فتم في العام 1868 إفتتاح «مدرسة الحرف والصنايع» التي إهتمت بتدريب مختصين بالحدادة، والسباكة، والمكننة، والنجارة، واالخياطة، والحياكة، وصناعة الأحذية، والتجليد[5]. تبعها بعقد تأسيس مدرسة المالية، وتوالى تباعا إنشاء المدارس

1- Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, Lahore, 1963, PP.38-39.

2- ينظر: الدكتور اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص546؛
F.W.Frey, Education, P.297.

3- J.S.Szyliowicz, Op.Cit., P.142.

4- يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ص511.

5- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص568.

المهنية مثل مدرسة التجارة (1882)، مدرسة الصنايع النفيسة (1883)، مدرسة البيطرة (1889)، مدرسة الزراعة (1891) ومدرسة الكمارك (1892)[1].

يعود تاريخ التعليم العالي الحديث في الدولة العثمانية إلى نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وكانت الاهتمامات الأولى مركزة صوب الجانب العسكري، إلا أن الحاجة لم تلبث أن وجهتها نحو المجال المدني أيضا. ففي العام 1775 أُنشئت «غرفة الهندسة» لأغراض عسكرية بحتة، وبعد قرن من التطور والتطورات أُنشئت «مدرسة الهندسة المدنية»، أخذت على عاتقها برنامجا يراعي تغطية حاجة البلاد إلى توفير مهندسين قادرين على الاضطلاع بنشاط البناء الذي إتسع كثيرا أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، لاسيما في مجال المواصلات[2].

إقتضت الحاجة إهتماما مشابها بحقل الطب، فشهد العام 1827 إقامة أول مدرسة للطب الحديث في اسطنبول باسم «دار الطب العامرة»، أعقبها إفتتاح «دار الجراحة العامرة» في 1832، وفي العام 1838 دمجت المدرستان بمدرسة واحدة عرفت بـ»مدرسة الطب»، لم تلبث أن أضيفت إليها كلمة عسكري إثر تأسيس مدرسة الطب المدني عام1865 التي هدفت إلى توفير أطباء مدنيين لسد حاجة المدن العثمانية[3]. وتجدر الإشارة إلى أن التعليم في مدرسة الطب العسكري مهد «جمعية الاتحاد والترقي»، كان باللغة الفرنسية، بينما كان التعليم في مدرسة الطب المدني باللغة التركية، مشكلا أساسا لتتريك التعليم الطبي فيما بعد[4].

في ضوء كل التطورات والتغيرات الجذرية التي عاشتها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، لاسيما في النصف الثاني منه، لم يعد بالامكان الاستمرار على نفس النظام

1- للتفاصيل حول تلك المدارس ينظر: المصدر نفسه، ص562-568؛
Hasan A. Koçer, Türkiye'De Modern Eğitim Doğuşu ve Gelişimi, S.159-161; B. Lewis, Emergence of Modern Turkey, P.181.

2- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلي، الحياة التعليمية، ص513-514.

3- **Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.112.**
عبد الكريم محمود غرايبة، تاريخ العرب الحديث، بيروت، 1984، ص282.

4- يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ص507؛ الدكتور اكمل الدين احسان اوغلي، الحياة التعليمية، ص518.

القانوني القديم الذي غلب عليه طابع البساطة، وسادت فيه سيطرة رجال الدين[1]، وصار لزاما تزويد الدولة العثمانية بقوانين مستقرة وشاملة تتماشى مع حاجات بلد في معمعان التحول، وتوفر حلولا لكل المشكلات الجديدة التي نتجت عن ذاك التحول. وكانت الخطوة الأولى في هذا المجال عام 1840 باعتماد قانون العقوبات، لتفتح الطريق طويلا أمام خطوات أخرى أكثر ثباتا، برز بينها ما عرف بالمجلة، وهي المرادف العثماني للقانون المدني، التي تألفت من ستة عشر جزءا، إمتد نشرها من العام 1870 إلى العام 1877، برزت بوصفها نظيرا إسلاميا للقانون الفرنسي[2]. ومن اجل تفعيل القوانين الجديدة كان لابد من محاكم جديدة، ورجال قانون جدد، قضاة ومحامين، يفهمون القوانين الجديدة، ويجيدون التعامل معها. من اجل ذلك كان إفتتاح «دار تدريس القوانين والأنظمة» في الثاني من تموز 1870، حددت مدة الدراسة فيها بسنة واحدة[3]. لكن ذلك لم يكن كافيا لضمان النوع والعدد المطلوبين، ومن ثم كان لابد من تأسيس مدرسة للحقوق دشنت عامها الدراسي الأول في 1874/ 1875، لتشكل، بسرعة، مركز جذب للمثقفين العثمانيين، فبعد أن كان عدد طلابها في دورتها الأولى واحدا وعشرين طالبا، تضاعف العدد ثلاث مرات خلال سنتين فقط[4]. وشكل الحقوقيون، ضمن عدد الحاصلين على التعليم العالي المدني في الدولة العثمانية إلى العام 1908 ما نسبته 55.6٪[5].

1- يشير مصدر أوربي يعود تاريخه إلى 1717 أن «القضاء والدين على السواء صبا في قالب واحد في تركيا، والقاضي ورجل الدين كلمة واحدة في لغتها». نقلا عن برنارد لويس، استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة الدكتور سيد رضوان علي، الطبعة الثانية، السعودية، 1982، ص182.

2- عن التأثير الفرنسي في القوانين العثمانية ينظر:
Sir C.Eliot, Turkey in Europe, New impression, London, 1965, P.113; Jurist, Western Influences on Mohammedan Law, "The Moslem World", NewYork, Vol.III, 1913, PP.361-364.

3- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص574.

4- المصدر نفسه، ص575.

5- **J.S.Szyliowicz, Op.Cit., P.148.**

إثر إتساع التعليم بدأ التفكير بإنشاء جامعة تضم الكليات الموجودة، وتشرف عليها، وتتولى مهمة إنشاء كليات جديدة، وبعد عدة محاولات فاشلة[1]، تم إنشاء جامعة في اسطنبول أطلق عليها «دار الفنون الشاهانية» (Darül-Fünun-i Şahane)، ضمت علاوة على كليتي الحقوق والطب كليات العلوم الرياضية والطبيعية والعلوم الدينية والآداب والفلسفة[2]. وتجدر الإشارة إلى أن من بين أبرز فروع كلية الآداب فرع الألسن، درست فيه فضلا عن التركية والعربية والفارسية، الفرنسية والإنكليزية والألمانية والروسية[3].

وصولا إلى العام 1908 بلغ عدد الحاصلين على التعليم العالي المدني في الدولة العثمانية نحو 2500 شخص، غالبيتهم من الأطباء والمحامين[4]، وهو رقم، على أهميته، بعيد عن تلبية الحاجة المتصاعدة للكوادر المتخصصة في الدولة العثمانية، ومن ثم برز التوجه لإيفاد الطلاب للدراسة في الجامعات الأوربية، وكانت المرة الأولى في بداية العقد الرابع من القرن التاسع عشر، إذ تم إرسال أربعة طلاب عثمانيين للدراسة في فرنسا، ولم يلبث العدد أن إرتفع إلى ست وثلاثين مع نهاية العقد نفسه[5]. وإزدادت أرقام الطلبة المتوجهين للدراسة في أوربا إرتفاعا مع تنامي الحاجة، فخلال المدة الواقعة بين 1848

1- Please look at: E. Kuran, Küçük Saıd Paşa (1840-1914) asa Turkish Modernist, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol. 1, April 1970, P.128; : Yıldız Kuzgun, Üniversiteler Yülseköğretim Programları ve Meslekler Rehberi, Ankara, 2000, S.329

يلدز كوزكون، مناهج التعليم العالي في الجامعات ودليل المهن، انقرة، 2000، 329.

2- M.D.Rivkin, Area Development for Nation Growth the Turkish Precedent, U.S.A, 1965, P.33;

إسماعيل نوري حميدي الدوري، حركة التحديث في تركيا 1923-1938، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية ابن رشد- جامعة بغداد، 1989، ص16.

3- اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص560.

4- J.S.Szyliowicz, Op.Cit., P.148.

5- Niyazi Berkes, Historical Background of Turkish Secularism, "Islam and the West", Ed. R.N.Frye, U.S.A, 1957, P.63;

الدكتور اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص523.

و1856 بلغ عدد الطلبة الموفدين إلى باريس وحدها نحو خمسين طالبا[1]، بل إن العام 1857 شهد إقامة مدرسة عثمانية في فرنسا بأسم «مكتب عثماني» (Meketb-i Osmani)، تولت مهمة الأشراف على الأعداد الكبيرة من الطلاب في باريس وتنظيم عملية تعليمهم[2]. وخلال السنوات 1864-1876 تم إيفاد ثلاثة وتسعين طالبا إلى باريس، واحد وخمسون منهم للتدريب الحرفي[3]. وتوالى طلبة العلم في التوجه إلى أوربا ودراسة العلوم الحديثة سواء كان ذلك على نفقة الدولة، أو حتى على نفقتهم الخاصة[4]. شكل هؤلاء إضافة نوعية جديدة للانتليجينسيا العثمانية، وكان لهم الأثر الأكبر في حركة التحديث في الدولة العثمانية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، وفي نقل الأفكار المختلفة التي عجت بها أوربا في تلك المرحلة، إلى داخل الدولة العثمانية.

لايمكن بأي شكل من الأشكال عزل الفئة المثقفة العسكرية عن الانتليجينسيا العثمانية، بل إن بداية التعليم الحديث كانت ضمن العسكريين، ولأغراض عسكرية. خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر أنشئت مؤسسات قوية في مجال التعليم العسكري، منها مدرسة الهندسة العسكرية، والمدرسة البحرية، ومدرسة الطب العسكري، وبوجه خاص مدرسة العلوم الحربية التي تأسست عام 1834 بهدف تهيئة وإعداد نوعية جديدة من الضباط[5]. كما شهد العام 1849 تأسيس مدرسة الأركان الحربية لتشكل الخطوة الأكثر بروزا في طريق تجديد التعليم العسكري، لا سيما وأن التعليم فيها قدم من لدن خبراء

1- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص523.

2- Please look at: R.L.Chambers, Notes on the Mekteb-i Osmani in Paris 1857-1874, “Beginnings of Modernization in the Middle East the Nineteenth Century”, Ed. W.R.Polk and R.L.Chamber, U.S.A, 1968, PP.313-329; Kâmil SU, Türk Eğitiminde Teftişin Yeri ve Önemi, İstanbul, 1947, S.295

كمال صو، موقع وأهمية التفتيش في التعليم التركي، اسطنبول، 1974، ص295.

3- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص523.

4- C.E.Clement, Constantionople The City of the Sultans, U.S.A, 1895, P.295.

5- D.A.Rustow, The Military, “Political Modernization in Japan and Turkey”, Ed. R.E.Ward and D.A.Rustow, NewJersey, 1964, P.359.

أوربيين، فرنسيين وبروسيين، مما أثر كثيرا في نوعية خريجي المدرسة الذين اضطروا لتعلم اللغتين الفرنسية والألمانية، وبالنتيجة إنفتح المجال واسعا أمامهم للتعرف على الأفكار الأوربية الحديثة[1].

وبدءا من منتصف القرن التاسع عشر أنشئ عدد كبير من المؤسسات التعليمية العسكرية، ولاسيما على المستويين الرشدي والإعدادي التي لم تلبث أن إنتشرت خارج نطاق اسطنبول في بقية الولايات العثمانية[2]، وفي العام 1895 كان هناك تسع مدارس للإعداد العسكري في الدولة العثمانية، مجموع طلابها 5492، بينما وصل مجموع طلاب المدارس الرشدية العسكرية إلى 8247 طالبا[3].

إن هذه المؤسسات، شأنها شأن غيرها من المؤسسات التعليمية العثمانية، كانت مفتوحة، من حيث المبدأ، لجميع رعايا الدولة، بغض النظر عن إنتمائهم العرقي أو الديني. على الرغم من ذلك، فباستثناء مؤسسات التعليم العالي، فضل العثمانيون من غير المسلمين مدارسهم الخاصة، ولاسيما أنها غالبا ما كانت أفضل من المؤسسات التعليمية الرسمية. وقد شهدت هذه المدارس تطورا ملحوظا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من شأن بعض الأرقام أن تعطي فكرة عن ذلك التطور. ففي العام 1871 كان للطائفة الأرمنية، مثلا، 48 مدرسة في اسطنبول، و469 منشأة تعليمية منتشرة عبر الاناضول[4]. وفي العام 1911 إرتفع عدد المدارس إلى 2500 مدرسة ذات مستويات مختلفة[5]. كما كان

1- A.Perlmutter, The Arab Military Elite, "World Politics", U.S.A, Vol.XXII, January 1970, P.282;

أميرة محمد كامل الخربوطلي، الدور السياسي للعسكريين في تركيا، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية- جامعة القاهرة، 1972، ص33.

2- Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.277.

3- S.J.Shaw and E.K.Shaw, OP.Cit., P.112;

إسماعيل نوري حميدي الدوري، المصدر السابق، ص16.

4- بول دومون، الصدر السابق، ص95؛ «المنار»(مجلة)، القاهرة، الجزء الثالث، آذار 1900، ص71-72.

5- الدكتور اكمل الدين احسان اوغلى، الحياة التعليمية، ص597.

لليونان شبكة مدارس ذات أبعاد مماثلة لتلك التي إمتلكها الأرمن، بل وزادت عليها، ففي العام 1911 وصل عدد المدارس الخاصة باليونان إلى 3500 مدرسة[1]. أما فيما يتعلق باليهود، الأقل عددا، فقد إستفادوا من دعم الأليانس[2]، في توسيع مؤسساتهم التعليمية. وطبقا لإحصائية العام 1892-1893 كان لليهود في اسطنبول مدرستان خاصة برياض الأطفال، وتسع وأربعون مدرسة ابتدائية، وثلاث عشرة مدرسة إعدادية، ومدرسة واحدة ثانوية، كما أنشئت العديد من المدارس اليهودية في أنحاء مختلفة من الدولة العثمانية مثل سلانيك وازمير وادرنة والشام وبغداد[3]. وعموما، شكلت هذه المدارس رافدا مهما في إتساع حجم الفئة المثقفة الحديثة في الدولة العثمانية.

كان للبعثات التبشيرية، ولاسيما مدارسها، دور ملموس في نشر التعليم الحديث بين مختلف عناصر الدولة العثمانية، سيما وأنها ضمت في صفوفها نسبة غير قليلة من المسلمين، مع إن النسبة الغالبة ظلت لغير المسلمين[4].

1- المصدر نفسه؛

Hasan A. Koçer, Türkiye'De Modern Eğitim Doğuşu ve Gelişimi, S.158-159.

2- الأليانس كلمة فرنسية تعني التحالف، تستخدم اختصارا للاشارة إلى التحالف الإسرائيلي العالمي **Alliance Israelite Universelle** الذي أسسه، في باريس، مجموعة من اليهود الفرنسيين لدعم اليهود في كل مكان، والدفاع عنهم، وتنمية مجتمعاتهم متخذين من التعليم والتدريب وسيلة لذلك. ينظر: الدكتورة هدى درويش، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية منذ قيام دعوة يهود الدونمة 1648م إلى نهاية القرن العشرين، الجزء الثاني، دمشق، 2003، ص76.

3- المصدر نفسه؛

http:// coursesa. Matrix. Msu. Edu/ ~fisher/ hst373/ readings/ rodrigue. Html, A.Rodrigue, The Allance and the Emergence of Zionism in Turkey, "chapter 6 of his book French Jews, Turkish Jews: The Alliance Israelite Universelle and the Politics of Jewish Schooling in Turkey 1860-1925, Indiana University Press, 1990, PP.121-144.

4- ينظر: فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص185-186؛ الدكتور طلال عتريسي، البعثات اليسوعية. مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان. دراسة وثائقية، الوكالة العالمية للتوزيع، 1987، ص163.

احتلت البعثات البروتستانتية الأمريكية موقع الصدارة في هذا المضمار، ويعود تاريخ نشاطها في الدولة العثمانية إلى العام 1830، لكن عملها تطور بشكل كبير جدا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ففي العام 1870 كان هناك 205 مدرسة أمريكية في الدولة العثمانية تضم إجماليا 5500 تلميذا، ارتفع الرقمان عام 1885 إلى 390 و13800 على التوالي[1]، وعشية الحرب العالمية الأولى قفز عدد التلاميذ إلى 34317 تلميذا موزعين على 675 مدرسة[2]. كما أسست البعثات البروتستانتية الأمريكية العديد من الكليات، لعل من أشهرها كلية روبرت (Robert College) في اسطنبول[3]، التي فتحت أبوابها عام 1863 بأربعة طلاب، وإرتفع العدد عام 1871 إلى 170 طالبا[4]، وإلى 297 طالبا عام 1900 [5]. وبرزت أيضا الكلية السورية الإنجيلية[6] التي تأسست في بيروت عام 1866 بكلية واحدة وستة عشر طالبا، لتتسع عام 1905 إلى أربع كليات ضمت في صفوفها 750 طالبا[7]، علاوة على كلية القسطنطينية التي حصلت على رخصتها عام 1890 [8]، وعدد آخر من الكليات

1- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص185.

2- R.H.Davison, Westernized Education, P.291.

3- Please look at: http:// www. h-net. Msu. Edu/ ~fisher/ hst373/ readings/ kortepeter. html, C. M. Kortepeter, American Liberalism Establishes bases: Robert College and the American University of Beirut, "in his book The Ottoman Turks: Nomad Kingdom to World Empire, Istanbul, 1991, PP.229-246".

4- G.Landen, The Emergence of The Modern Middle East. Selected Readings, NewYork, 1970, P.179.

5- سحر عباس خضير، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه تركيا 1917- 1923 دراسة تاريخية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 2002، ص56.

6- في العام 1920 غير أسمها إلى الجامعة الأمريكية في بيروت. ينظر: الدكتور عبد الكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر 1840-1876، القاهرة، 1961، ص172.

7- المصدر نفسه، ص171-172؛ سحر عباس خضير، المصدر السابق، ص57.

8- C.E.Clement, OP.Cit, P.298;

ماري ملز باترك، المصدر السابق، ص101.

الأقل شهرة[1]، حيث وصل عدد الكليات التي أنشأتها البعثات البروتستانتية في الدولة العثمانية حتى العام 1908، إلى خمس وأربعين كلية، تجاوز عدد طلابها الثلاثة آلاف طالب[2].

على الرغم من تقدم المدارس الأمريكية، فان فرنسا هي التي أكدت، بشكل أكثر قوة، وجودها الثقافي في الدولة العثمانية، فاللغة الفرنسية كانت هي السائدة في العمل الدبلوماسي، وفي مجال الأعمال التجارية، والأهم من ذلك في الحياة الثقافية. وكان لفرنسا دور فاعل في نشر التعليم الحديث، لاسيما من خلال تعاونها مع البعثات التبشيرية اليسوعية[3] والعازارية[4]، فأسست كلية عينطورة عام 1834 في لبنان[5]، وجامعة القديس يوسف عام 1882 في لبنان أيضا[6]، ومدارس بمستويات مختلفة وصل عددها عشية الحرب العالمية الأولى حوالي خمسمائة مدرسة إرتادها نحو تسعين ألف تلميذ[7]. كما كان لبريطانيا نشاطها في البعثات التبشيرية أيضا[8]، ووصل عدد المدارس التي أنشأتها، إثر انتهاء العقد

1- حول هذه الكليات يراجع: سحر عباس خضير، المصدر السابق، ص56؛
W.S.Monroe, Op.Cit., PP.174-177.

2- W.S.Monroe, OP.Cit., P.173.

3- اليسوعية جماعة كاثوليكية متطرفة أسسها القديس الأسباني اجناس دي لويولا (Ignace de Loyola) عام 1540، واتسع نشاطها ليمتد إلى مختلف بقاع العالم، ودخلوا الدولة العثمانية منذ مطلع القرن السابع عشر، لكن نشاطهم فيها لم يزدهر إلا في القرن التاسع عشر، إثر تعاونهم مع الحكومة الفرنسية. للتفاصيل يراجع: الدكتور طلال عتريسي، المصدر السابق.

4- العازارية جماعة كاثوليكية أسسها القديس فنسنت دي بول (Vincent de Paul) عام 1624، وأخذت اسمها من قرية العازرية شرقي القدس، ويعود تاريخ نشاطها في الدولة العثمانية، وفي بلاد الشام بالتحديد، إلى أواخر العقد الثالث من القرن التاسع عشر. ينظر المصدر نفسه، ص161.

5- الدكتور عبدالكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر، ص173.

6- الدكتور طلال عتريسي، المصدر السابق، ص129؛ الدكتور عبدالعزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، القاهرة، 1980، ص100.

7- R.H.Davison, Westernized Education, P.291.

8- للتفاصيل ينظر: احمد حمدي، عالم اسلام وانكليز ميسيونه رى نصل يتشديريليور، استانبول، 1343، ص70-75.

الأول من القرن العشرين، إلى 178 مدرسة، إجمالي طلابها[1] 12800. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك نشاط تعليمي لألمانيا وروسيا وإيطاليا والنمسا، غلب عليه، لظروف كثيرة، طابع المحدودية[2].

كل تلك الروافد صبت في تكوين وبلورة الفئة المثقفة العثمانية، وساهم في بلورتها إحتكاك المثقفين العثمانيين بالمثقفين الغربيين بشكل مباشر وفعال بحكم وجود أعداد كبيرة من المدرسين والخبراء الأجانب في المؤسسات التعليمية العثمانية، علاوة على الأجنبية طبعا، كما كان هناك تماس بين الأجانب والمثقفين العثمانيين، أسوة بغيرهم من سكان المدن، بفعل وجود أعداد كبيرة من الأجانب في الدولة العثمانية، فوفقا للإحصاء السكاني الرسمي للعام 1893 وصل عددهم في الدولة العثمانية إلى 235983 شخصا، تركزوا، عموما، في المراكز الحضرية الكبيرة، لاسيما اسطنبول التي تركز فيها أكثر من نصف العدد (129242 شخصا أجنبيا)[3].

أثر هذا التفاعل، مع عوامل كثيرة أخرى، في أسلوب تفكير وحياة المثقفين العثمانيين، وهو ما إنعكس، شكليا، في تغيير اللباس وإرتداء الزي الغربي الذي أمسى رمزا للعلم والتقدم[4]. ومنذ مرحلة مبكرة، تعود إلى أواخر العقد الرابع من القرن التاسع عشر، كتب رحالة أمريكي زار اسطنبول بأنه «**قبيل سنوات قليلة كانت حياة الإنسان تتعرض للخطر إذا ما ظهر باللباس الأوربي في تركيا... [الآن] السلطان نفسه، الرأس الكبير في الدين والدولة، خليفة الله على الارض، قام بخلع عمامته وتبعه في ذلك كل موظفي الدولة**»[5].

1- R.H.Davison, Westernized Education, P.291.

2- للتفاصيل ينظر: الدكتور طلال عتريسي، المصدر السابق، ص161.

3- Kemal H. Karpat, Ottoman Population, P.274.

4- B.Lewis, The Middle East and the West, London, 1964, P.37

في الترجمة العربية برنارد لويس، الغرب والشرق الأوسط، ترجمة الدكتور نبيل صبحي، لاغوس، 1965، ص48-49.

5- Quoted in: C. M.Kortepeter, Op.Cit.

تجاوز تغير أسلوب حياة المثقفين الجوانب المظهرية إلى أمور جوهرية، وإزدادت وتنوعت احتياجاتهم لتبرز الصحافة مطلبا أساسيا وحاجة ملحة للانتليجينسيا العثمانية. ويعود تاريخ أول صحيفة تركية في الدولة العثمانية إلى 14 ايار 1832 بصدور صحيفة «تقويم الوقائع» (Taqvim-i Veqayi)[1]، وهي صحيفة رسمية تولت نشر القوانين والمراسيم الصادرة إلى جانب الأحداث الرئيسة داخل الدولة العثمانية وخارجها[2]. وبعد أكثر من عقد (1843) صدرت أول صحيفة مستقلة هي «جريدي حوادث» (Ceride-i Havadis)[3]. لكن انطلاقة الصحافة العثمانية لم تحدث إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الذي شهد صدور عدد كبير، نسبيا، من الصحف، منها صحيفة «ترجماني أحوال» (Tercüman-i Ahval) التي بدأت الصدور عام 1861، وكانت أول صحيفة تعدى محتواها نقل الأخبار إلى التعبير عن وجهات النظر المختلفة، تبعها صدور عدد آخر من الصحف وصل عددها في اسطنبول فقط، في العام 1876 إلى اثنين وسبعين صحيفة[4]، ناهيك عن الصحف الصادرة في مدن كثيرة أخرى مثل سالونيك وازمير وبيروت[5].

إلى جانب الصحافة ظهر المسرح أواخر العقد الرابع وأوائل العقد الخامس من القرن التاسع عشر، وكانت الأعمال المسرحية في البداية مأخوذة بالكامل عن أوربا مما أسهم في

1- **Ahmed Emin, The Turkish Press, "Modern Turkey A Politico- Economic interpretation 1908- 1923 inclusive with Selected chapters by Representative Authorities", E.G.Mears, U.S.A, 1924, PP.451-452.**
تذكر مصادر اخرى الأول من تشرين الثاني 1831 تاريخا لصدور أول عدد من تقويم الوقائع. ينظر: روبير مانتران، بدايات المسألة الشرقية 1774- 1839، «تاريخ الدولة العثمانية»، اشراف روبير مانتران، ترجمة بشير السباعي، الجزء الثاني، القاهرة، 1993، ص58.

2- **B.Lewis, Middle East and West, P.42.**

3- **Ahmed Emin, Turkish Press, P.452.**

4- **R.H.Davison, The Question of Âli Paşa's Political Testament, "International Journal of Middle East Studies", U.S.A, Vol.II, 1980, P.220.**

5- للتفاصيل ينظر: فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص209؛ جوزيف الياس، تطور الصحافة السورية في مائة عام، الجزء الأول 1865-1918، بيروت، 1982، ص29-79.

تعرف الفئة المثقفة العثمانية بموضوعات الدراما البرجوازية[1]، وتكونت الفرق المسرحية في المرحلة الأولى من غير المسلمين، لاسيما الأرمن، لكنها لم تلبث أن ضمت بين صفوفها عددا من المسلمين أيضا[2]. وشهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر إتساعا ملموسا في حركة المسارح[3].

من بين الوسائل التعبيرية الأخرى التي توجهت لها الانتليجينسيا العثمانية تبرز الرواية الحديثة التي ظهرت مع بداية العقد الثامن من القرن التاسع عشر[4].

لتلبية الحاجة المتنامية لمثل تلك النتاجات، ولكتب كثيرة غيرها في مختلف المواضيع الأدبية والعلمية، إزداد عدد المطابع ودور النشر لتشكل بواقعها الجديد إضافة نوعية لواقع الحياة العثمانية[5]، فقد إزداد عدد دور النشر من أربعة وخمسين في العام 1883 إلى تسعة وتسعين عام 1908 [6]، كما إزداد عدد الكتب المطبوعة بشكل ملحوظ،

1- روبير مانتران، المصدر السابق، ص72.

2- R.H.Davison, The Millets as Agents of Change in the Nineteenth Century Ottoman Empire, "Christians and Jews", P.323;

الدكتور هدايت كمال بدري، الأدب التركي في فترة التنظيمات 1860-1896، «آفاق عربية»، العدد 4، نيسان 1986، ص76.

3- Please look at: S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit, P.129; Metin And, Tanzımat ve İstibdat Döneminde Türk Tiyatrous 1839-1908, Ankra, 1972

متين اند، المسرح التركي في فترة التنظيمات والاستبداد 1839-1908، انقرة، 1972.

4- الدكتور اورخان أوقاي، الادب التركي في مرحلة التغريب، «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، اشراف اكمل الدين احسان اوغلى، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الثاني، استانبول، 1999، ص111.

5- يعود تاريخ افتتاح أول مطبعة تركية في الدولة العثمانية إلى العام 1827، لكن نشاطها بقي محدودا وضعيفا، فطوال القرن الثامن عشر وإلى العام 1830 لم يتجاوز عدد الكتب المطبوعة في الدولة العثمانية المائة كتاب. ينظر: «لغة العرب»، العدد6، كانون الأول 1912، ص227-231؛

J.K.Birge, The Printing of Book in Turkey in the Eighteenth Century, "The Moslem World", NewYork, Vol.XXXIII, October 1943, PP.292-294.

6- Turgut Özal, Op.Cit.;

فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص209.

فبعد أن كان المتوسط السنوي للكتب المنشورة خلال عهد السلطان عبدالمجيد الأول (1839-1861) حوالي 43 كتابا، إرتفع في عهد عبدالعزيز (1861-1876) إلى 116، وإلى 285 زمن عبدالحميد[1]. ولم يكن التغير كميا فحسب، بل ونوعيا أيضا، تمثل في تقلص الكتب الدينية لصالح الإصدارات الأدبية والعلمية، فبعد أن كانت نسبة الكتب الدينية، ضمن المطبوعات الصادرة إبان عهد عبدالمجيد نحو ٪38، انخفضت النسبة في عهد عبدالعزيز إلى ٪22، وإستمرت بالانخفاض لتصل إلى ٪14 فقط خلال عهد عبدالحميد الثاني[2]. كما تميز مستوى المطبوعات، عموما، من كتب وصحف ومجلات، بالانفتاح على العالم الغربي، ورغم الرقابة التي فرضت زمن السلطان عبدالعزيز، وإزدادت وطأتها زمن عبدالحميد الثاني لتنيخ بكلكلها على المطبوعات وعلى كل الحياة الفكرية والفنية في العهد الحميدي، إستمر التوجه نحو الغرب بل وإزداد قوة، ربما بسبب تلك الرقابة جزئيا، فالأدباء والكتاب الاجتماعيون والصحفيون الذين خشوا تناول موضوعات السياسة الداخلية، طوروا كما يحلو لهم الموضوعات البعيدة التي كانت مادتها على الأغلب في أوربا وأمريكا[3].

مثلما طبيعي أن تؤثر سياسة الدولة بالواقع الاجتماعي والاقتصادي والفكري للدولة، فإنها تتأثر بكل ذلك، ولئن كان تأثيرها أكثر وضوحا، فأن تأثرها أكثر قوة وفاعلية، وقد مرت الدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين بتغيرات جوهرية مست كل تفاصيل وتفرعات واقعها الاجتماعي والاقتصادي، وبالضرورة إنعكست كل تلك التحولات، وبقوة، على الحياة السياسية للدولة العثمانية.

1- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص209.

2- Turgut Özal, Op.Cit.

3- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص210.

ثانيا: إنعكاس الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية على الـواقع السياسي الـدولة العثمانية

شهدت الدولة العثمانية مع نهاية العقد الرابع من القرن التاسع عشر إنطلاقا لما عرف باسم حركة التنظيمات[1] (Tanzimat)، التي صورها عدد غير قليل من الباحثين على أنها إستجابة لضغوط الدول الأجنبية[2]. ومع انه لا يمكن إنكار أهمية هذا العامل في التنظيمات العثمانية، فانه يصعب القبول به عاملا جوهريا وحيدا وراءها، فأي فرض للإصلاح من قبل قوى خارجية لن يكون كافيا ما لم يكن الوضع الداخلي مهيئا لمثله، ومحتاجا له، بل ومطالبا به أيضا. وبحكم فورانات المجتمع العثماني ظهرت طبقات وفئات إجتماعية جديدة استندت في مجملها على أسس إقتصادية، كما سبق تناول الموضوع بالتفصيل، برزت منها ولاجلها قيادات حديثة سعت لإحداث تغيير في الحكومة والأنظمة يتناسب مع مصالحها وطموحاتها وتطلعاتها، بينما حاولت الحكومة، من جانبها، الحفاظ، قدر الإمكان، على

1- تميل بعض الدراسات في تسميتها إلى إستخدام مفردة الاصلاح (Reform)، إلا أن المصادر التركية، بشكل عام ، تفضل إستخدام كلمة تنظيمات مبررين ذلك بأن التنظيمات عَلَمٌ على عهد بعينه، فهو لا إنقلاب ولا إصلاح، بل إنه عهد تنظيم وتقنين واع يعتمد على «مبدأ التدرج» خارج هذين الحدين. ولا يجدر وضع مغزى إصطلاح «التنظيمات» بالنظر إلى المعاجم، وانما إلى الاستخدام الاصطلاحي له في عصره، فهو لم يكن إعادة تنظيم فقط (Reorganization)، ولكنه تنظيم لحياة وعهد بأكمله، والأهم من هذا انه يعني التشريع، فهو عصر وضع اللوائح والقوانين والتشريعات. الدكتور محمد إبشيرلي، نظم الدولة العثمانية، «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، اشراف اكمل الدين احسان اوغلي، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الأول، استانبول، 1999، ص321.

2- Please look at: H.Temperley, England and the Near East. The Crimea, 2nd Impression, U.S.A, 1964;

بيري أندرسون، دولة الشرق الاستبدادية، ترجمة بديع عمر نظمي، بيروت، 1983، ص39.

النظرية السياسية التقليدية وتطبيقاتها في الدولة العثمانية. نتيجة لهذا الصراع بين الحكام والمحكومين جاءت التنظيمات محاولة لإيجاد شيء من الانسجام والتآلف بينهما[1]، وبالتالي فإنها كانت أكثر قربا إلى الاهتمامات القانونية التي من شأنها تحقيق التوافق مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة. فجاءت أول خطوة في مجال التنظيمات، والمتمثلة بمرسوم كلخانة (Hatt-ı Şerıf of Gülhane) الصادر في الثالث من تشرين الثاني 1839 لضمان «**الأمن الكامل لرعايانا على حياتهم وشرفهم وممتلكاتهم**». وكان التبرير لهذا التجديد الجذري لواضعي الوثيقة هو:

> **«ليس هناك في الواقع شيء في هذا العالم أغلى من الحياة والشرف. فمن من الرجال، مهما كان خلقه مضادا للعنف، يستطيع منع نفسه من اللجوء إليه، ويؤذي بذلك حكومته وبلاده، إذا تعرضت حياته وشرفه للخطر؟ ولكنه، على العكس من هذا، إذا ما تمتع بالأمن الكامل، فمن الواضح أنه لن يخرج عن الولاء، وستسهم كل أعماله في صالح الحكومة والشعب. إذا غاب الأمان على الملكية فان كل فرد سيكون لا أباليا لدولته ومجتمعه، ولن يهتم أحد برفاهية بلده، إذ سيكون منهمكا بمشاكله وبما يقلقه. ولكن، على العكس من هذا، إذا ما أحس الفرد بالأمان الكامل على ممتلكاته، فانه سيكون مهتما بمصالحه التي سيسعى لتوسيعها، وسيزداد ولاؤه وحبه لدولته بشكل متنام، وسيدفعه هذا لأن يكون عضوا نافعا في مجتمعه»[2]**

وكما يظهر واضحا كان للقضايا الاقتصادية، والحقوقية المتعلقة بالاقتصاد، على وجه الخصوص، حصة كبيرة في هذه الوثيقة، ووجد هذا الجانب، بالذات، طريقه إلى التنفيذ

1- إن تحليلات الأستاذ كمال كاربات في هذا الصدد تستحق التوقف، وان كان يميل للعودة إلى مرحلة أسبق تعود إلى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. يراجع:
Kemal H. Karpat, Transformation of Ottoman State, PP.245-264; Kemal H. Karpat, Land Regime, P.84.

2- للإطلاع على نص المرسوم يراجع:
J.C.Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, PP.113-116; J.C.Hurewitz, The Middle East and North Africa, PP.269-271.

أكثر من غيره، فبطلت عادة مصادرة الأموال[1]، وأنشئت بعد سنة واحدة من صدور المرسوم محاكم التجارة لتشكل الخطوة الأولى باتجاه المحاكم المسماة بالمحاكم النظامية التي تولت النظر في كل القضايا الخارجة عن نطاق الأمور الشرعية[2]، كما صدر في العام 1850 قانون تجاري وفقا للنموذج الفرنسي أجاز التسليف مقابل فائدة، وأدخل أشكال مشاركة جديدة على القانون الإسلامي[3]، وأعطي إصدار هذا القانون الأولوية على مشاكل كثيرة وكبيرة تنتظر حلا في دولة تتجه بسرعة نحو الانهيار!

عدّ بعض الأوربيين خط شريف كلخانة بمثابة «العهد الأعظم» بالنسبة للعثمانيين[4]. فقد أكد للمرة الأولى بصيغة رسمية المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية وعدم التفريق بينهم على أساس الدين أو العرق. ومع التسليم بدور الضغوط الأجنبية في هذا الصدد، بالذات، فانه جاء، أيضا، نتيجة للتناقض الصارخ بين الوضع التشريعي والواقع الاقتصادي لغير المسلمين، لاسيما المسيحيين، فلم يعد ممكنا في ضوء تطورهم الاقتصادي، وكل التغيرات التي رافقته، إستمرار وضعهم مواطنين من الدرجة الثانية[5]. كما ان منح المساواة صب في سياق محاولات الحكومة العثمانية لوضع حد للميول الانفصالية التي ظهرت في المناطق ذات الأغلبية المسيحية في الجزء الأوربي من الدولة العثمانية، والتي سبقت بفعل تماسها المباشر مع العالم الغربي، بقية الأقاليم العثمانية في تطورها الاقتصادي والاجتماعي، ومن ثم في توجهاتها السياسية واختيارها الاتجاه القومي منهجا لها[6].

1- الدكتور عبدالعزيز محمد عوض، التنظيمات العثمانية في الولايات العربية، «الدارة» (مجلة)، الرياض، العدد 3، سبتمبر 1977، ص 87.

2- Y.Armajani, Middle East Past and Present, NewJersey, 1970, P.234 ;
بول دومون، المصدر السابق، ص 90-91.

3- H.Temperley, Op.Cit., P.232; Turgut Özal, Op.Cit.

4- نقلا عن: أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة، 1982، ص 201.

5- الدكتور محمد أنيس، الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914، القاهرة، 1984، ص 216.

6- Ehsin Onulduran, Political Development and Political Parties in Turkey, Ankara, 1974, P.33; Kemal H.Karpat, Transformation of the Ottoman State, PP.247-248.

أثار مبدأ المساواة ردود أفعال قوية، ومختلفة، في أنحاء الدولة العثمانية شتى. ففي الوقت الذي أيقظ أمال المسيحيين، وانتشرت حركات مختلفة أخذت في، معظمها شكل انتفاضات إجتماعية ضد ملاك الأراضي المسلمين[1]، أثار سخط الأخيرين خاصة، وعموم المسلمين الذين رأوا فيه تنازلا غير مبرر، وحسب وصف مصدر معاصر «ان الكثير من المسلمين بدأوا بالتذمر قائلين: اليوم خسرنا حقوقنا القومية المقدسة التي نالها أسلافنا بدمائهم. وبينما إعتادت الأمة الإسلامية أن تكون الأمة الحاكمة، أصبحت الآن محرومة من ذلك الحق المقدس. انه يوم للدموع والحداد على الأخوة الإسلامية»[2].

على الرغم من كل تلك المواقف جاء المرسوم الهمايوني[3] (Hatt-i Humayun) 1856 مشددا بدرجة أقوى على مبدأ المساواة، ومؤكدا كل ما ورد في مرسوم كلخانة، وزاد عليه إصلاحات جديدة في الميدان الاقتصادي من قبيل تأسيس البنوك، وتعديل القانون التجاري، وتقديم ميزانية سنوية، بالإضافة إلى العديد من الإصلاحات في المجالين القضائي والإداري.

رافق عملية التنظيمات تحول حقيقي في ذهنية ساسة الدولة العثمانية، وتغير محسوس لهياكل وسير عمل الدولة، تجاوز الأشخاص ليمس العادات والتقاليد، وفهم الدولة لطبيعة واقعها، ومهامها المفروضة. وهو ما يظهر واضحا من خلال تقرير رفعه فؤاد باشا[4] إلى السلطان عبدالعزيز جاء فيه

1- الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص203.

2- **Quoted in: Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought A Study in the Modernization of Turkish Political Ideas, NewJersey, 1962, P.18.**

3- للإطلاع على نص المرسوم ينظر:

J.C.Hurewitz, Middle East and North Africa, PP.315-318.

4- محمد فؤاد باشا هو من بين أبرز ساسة الإصلاح المؤسسي والاقتصادي والاجتماعي في الدولة العثمانية. ولد عام 1815 في أسرة دينية في اسطنبول، درس الطب والتحق بالجهاز الطبي إلا أنه سرعان ما غير وجهته، ويسرت له معرفته باللغة الفرنسية ذلك، فتعين عام 1837 في مكتب الترجمة، وفي العام 1840 عين مترجما للسفارة العثمانية في لندن، وبعد اثنتي عشرة سنة صعد إلى منصب وزير الخارجية الذي تولاه أربع مرات (1852، 1855-1856، 1858-1860، 1867-1869)، وصار صدرا أعظما عام 1861 إلى 1863، وتولى عين المنصب ثانية خلال السنوات 1863-1866، كما كان عضوا في المجلس الأعلى للتنظيمات الذي تولى رئاسته خلال السنوات 1856-1858. توفي عام 1869. للتفاصيل يراجع: بول دومون، المصدر السابق، ص69-70؛

S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit., PP.62-63.

«إن دولة آل عثمان في خطر... هناك حل واحد للخلاص من الهاوية، يا مولاي يجب أن تقطع علاقتك حالا مع الأسلوب القديم لإدارة الدولة، لقد آن الأوان لإعطاء قوة جديدة للدولة... إن الممالك التي يحكمها سيدي حائزة على جميع الشروط اللازمة للتفوق على أية دولة من دول أوربا، ولكن لكي نستطيع الاستفادة من هذه الشروط يجب تجديد جميع الأجهزة السياسية والإدارية وأجهزة العدالة، فهناك مجموعة من الأساليب والقوانين القديمة التي كانت ذات فائدة في الماضي، أما الآن فهي ليست فقط دون فائدة ولكنها اليوم ضارة بلا شك»[1].

كان الاتجاه نحو المركزية من أبرز التغيرات في الإدارة العثمانية، فصار استعادة وتعزيز السلطة المركزية أحد الأهداف الرئيسة للتنظيمات[2]. وفي هذا الصدد كان هناك تناغم مصلحي بين الحكومة والبرجوازية العثمانية الناشئة التي أيدت الحكومة العثمانية كل التأييد في كل إجراء يسير نحو التخلص من الأوضاع الإقطاعية المتخلفة السائدة في الدولة العثمانية، وساندت الحكومة المركزية في خلق هيكل إداري، ونظام قانوني جديدين يلائمان مصالحها ويدعمان تطورها، في حين رحبت السلطة المركزية، من جانبها، بتأييد الطبقة البرجوازية في حركتها الإصلاحية ما دام هدم الأوضاع البالية سيدعم مركزية السلطة[3].

بدأت الدولة إجراءاتها نحو المركزية بتحجيم مراكز النفوذ في الدولة العثمانية، فاستعاضت عن اغا (Ağa) الانكشارية، الذي كان قوة مستقلة بذاتها، بالسرعسكر (Serasker)، أي رئيس الجيش، الذي تولى مهام القائد العام ووزير الحربية. وفقد رجال الدين إستقلالهم المالي بتجريدهم من الأوقاف الدينية، وتحولوا إلى موظفين بمرتبات من

1- نقلا عن: أورخان محمد علي، السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده، الرمادي، 1987، ص49-50.

2- S.J.Shaw, Some Aspects of the Aims and Achievements of the Nineteenth Century Ottoman Reformers, "Beginnings of Modernization in the Middle East in the Nineteenth Century", Ed. W.R. Polk and R.L. Chambers, U.S.A, 1968, P.32.

3- الدكتور محمد أنيس، المصدر السـابق، ص214.

الدولة، وأعطي شيخ الإسلام مكتبا سمي «باب مشيخت» (Bab-ı Meşihat) وحددت وظائفه بالأمور الوعظية والاستشارية[1]. ولم تلبث الدولة أن إستحدثت مؤسسات كثيرة، جاء قسم كبير منها إستجابة للتغيرات التي شهدتها الدولة العثمانية مجتمعا وإقتصادا. فإزاء تطور صلات الدولة العثمانية بالعالم الغربي، أسس في العام 1833 مكتب الترجمة (Tercüme Odası)، عمل فيه الأتراك بشكل رئيس، مشكلا بيئة تحضيرية حقيقية لرجال الدولة، ولمثقفين جدد كان لهم دور كبير في التطور الفكري خلال القرن التاسع عشر، إذ كان المكتب عبارة عن ناد أدبي وسياسي تعلم فيه أولئك الذين أتيحت لهم فرصة الالتحاق به، فك طلاسم العالم الحديث[2]. ومع اتساع العلاقات الخارجية أنشئت عام 1836 وزارة الخارجية، تبعها بسنة إنشاء وزارة الداخلية، ووزارة المالية(1839)، ووزارة التجارة(1839)، ووزارة الزراعة(1846)، وفي العام 1856 أنشئت وزارة المعارف العمومية، كما شهد العام 1870 تأسيس وزارتي العدل والأشغال العامة. وعموما أنشئت وزارات متخصصة في مختلف قطاعات الشؤون العامة، وزودت كل وزارة بإدارات ومكاتب متخصصة عديدة، ومع سبعينيات القرن التاسع عشر أخذ التغيير شكلا مكتملا، تقريبا، فتمتع الباب العالي بسلسلة من الوزارات إعتلى قمتها رئيس للوزراء حمل لقب الصدر الأعظم (Sadrazm)، وفي بعض الأحيان الباش وكيل (Başvekil)[3].

1- فيروز أحمد، صنع تركيا الحديثة، ترجمة الدكتور سلمان داود الواسطي والدكتور حمدي حميد الدوري، بغداد، 2000، ص63-64.

2- **C.V.Findley, The Foundation of the Ottoman Foreign Ministry, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.3, October 1972, PP.403-404;**

بول دومون، المصدر السابق، ص85.

3- للتفاصيل حول التشكيلات الحكومية والجهاز الإداري للدولة العثمانية يراجع: الدكتور إيلبر اورطايلي، المصدر السابق، ص330-335؛

S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit, PP.71-76; R.L.Chambers, The Civil Bureaucracy, "Political Modernization in Japan and Turkey", Ed. R.E. Ward and D.A. Rustow, NewJersey, 1964, PP.319-321.

كان أبرز نتائج هذه التطورات ظهور طبقة بيروقراطية جديدة، إمتلكت إحساسا أسمى بالولاء للدولة عوضا عن خدمة العرش، ولم يعد ينظر للدولة بوصفها متجلية أو ممثلة بشخص السلطان[1]. إمتاز أغلب الموظفين الجدد بمظهرهم الغربي، وتعليمهم الحديث، ومعرفتهم للغة أجنبية واحدة في الأقل، وتشبعهم بالأفكار الغربية[2]، فكانوا على حد وصف المؤرخ ستاتفورد شو «أوربيون روحا، ولباسا، وفكرا... وأحسوا بأنهم وحدهم لديهم الثقافة والمعرفة الضروريتين لإصلاح الدولة العثمانية»[3]، وكانت أنظارهم ترنو إلى أوربا بوصفها الأنموذج والملهم[4].

تركزت في يد البيروقراطية العثمانية معظم السلطات، فسيطر الباب العالي على آلية إتخاذ القرار والتنفيذ، ممتلكا قوة تجاوزت تلك التي إمتلكها السلطان العثماني الذي تراجع إلى الدرجة الثانية إثر سحب الكثير من صلاحياته لصالح الباب العالي[5]. ومن خلال تلك الامكانات حاولت البيروقراطية تطوير وتنظيم المجتمع وفقا لتصورها، فسعت إلى خلق بنية إجتماعية جديدة بامكانها التعويض عن التمزق الحاصل في الاقتصاد العثماني، وهدفت من خلال هندستها الاجتماعية، كما يصفها فيروز أحمد، إلى التدخل لأجل المصالح التي تحتاج إلى دعم لإنشاء اقتصاد حديث، والوقوف ضد المصالح التي عُدت متخلفة عن

1- Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.255;

فيروز أحمد، المصدر السابق، ص64.

2- Ehsin Onulduran, Op.Cit., P.30

3- S.J.Shaw, Some Aspects of the Aims and Achievements of the Nineteenth-Century Ottoman Reformers, P.37.

4- مثل هذا التوجه له جذوره داخل أروقة الدولة العثمانية. فمنذ العام 1834 أُعلن أن «السلطان قرر تبني جميع الإجراءات الأوربية المفيدة للمجتمع العثماني ووضعها قيد التنفيذ». أورهان كولوغلو، أهمية الموروث التاريخي العربي_ العثماني وتأثيرها في العلاقات العربية التركية، «العلاقات العربية- التركية حوار مستقبلي: بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية»، بيروت، 1995، ص34.

5- S.J.Shaw, Nineteenth Century Ottoman Reformes, P.33;

الدكتور إيلبر اورطايلي، المصدر السابق، ص328.

زمنها، ومعيقة للتقدم[1]. فأسهمت في تطور النظام الاجتماعي- الاقتصادي للدولة العثمانية المستند على الملكية الخاصة وحرية التجارة[2]، كما كان موقف البيروقراطية المساند للنظام الرأسمالي وللطبقة الوسطى ينم عن فهم لواقع حال كشف عن إحتياج متبادل بين الطرفين. فالنظام الرأسمالي «بحاجة ملحة لإدارة مستقرة، صارمة، شديدة، ومعتمدة»، وبالمقابل شكلت الرأسمالية المورد الأمثل للأموال التي تحتاجها البيروقراطية في أعمالها[3]، وبالوقت الذي مارست فيه الطبقة الوسطى ضغوطها على البيروقراطية مطالبة بحياة إقتصادية مستقرة ومنظمة، عملت البيروقراطية، في ضوء حاجتها لموارد دخل، إلى إيجاد درجة من النظام والاستقرار في العلاقات الاجتماعية الاقتصادية القائمة[4]. فمثلا بدأت، منذ العقد الرابع من القرن التاسع عشر، عملية تعداد سكاني واسع، وتسجيل للأراضي والثروة الحيوانية بغية تأمين معلومات عن عدد السكان في الدولة، وأشكال الملكية، ومستويات الضرائب،وكان ذلك بمثابة خطوة مهمة على طريق الانتقال إلى نظام مالي مركزي حديث[5]، كما عملت البيروقراطية على تطوير أنظمة حديثة في تقنيات جمع الضرائب[6].

مع أن البيروقراطية نجحت، عموما، في إيجاد نظام إداري ومالي وقانوني مستقر، نسبيا، ينسجم مع مقتضايات ومتغيرات العصر، إلا أنها فشلت في إيجاد حلول جذرية لمشاكل كثيرة أعاقت تطور البرجوازية العثمانية، ولاسيما المسلمة، فمثلا فيما يخص موضوع البراءة، الذي كان موضع إستياء شديد للطبقة الوسطى، صدر في العام 1869 مرسوم اشترط على الرعايا العثمانيين الراغبين بتغيير هويتهم مغادرة البلاد وعدم السماح

1- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص66-67.

2- Kemal H. Karpat, Transformation of Ottoman State, P.257.

3- Kemal H. Karpat, Land Regime, P.83.

4- Ibid. .

5- Ibid;

الدكتور إيلبر اورطايلي، المصدر السابق، ص323.

6- الدكتور إيلبر اورطايلي، المصدر السابق، ص324.

لهم بالعودة[1]. ومع إن في هذا القيد ترضية للعثمانيين، نوعا ما، فأنه كان بعيدا عن إعطائهم القدرة على المنافسة مع حاملي البراءة[2].

نمت البيروقراطية بسرعة مع إتساع حجم مؤسسات الدولة، فبعد أن كان عدد الكتبة الذين يخدمون الحكومة السلطانية أواخر القرن الثامن عشر ما بين ألف وألف وخمسمائة، إستوعبت مكاتب الباب العالي خلال عهد عبدالحميد الثاني أكثر من مئة ألف[3]، جرى تعيينهم وتوزيعهم على وظائفهم ومراكزهم بشكل مركزي من خلال آلية تعيين تناوبية شملت كل الموظفين، مما أتاح لهم إمكانية التعرف على البلاد، وعلى بعضهم البعض[4]، لكنه، في الوقت نفسه، زاد من أعبائهم في ظل مرتبات محدودة لم تكن تغطي متطلبات معيشتهم[5]، وعلى وفق تقييم مصدر عاصر الأحداث فأن «أكثر الموظفين نزاهة اكتشفوا عدم إمكانية العيش على مرتباتهم»[6].

كان تدني مرتبات الموظفين أحد الأسباب الرئيسة وراء إنتشار مختلف صور إنعدام الأخلاق المهنية بين صفوف البيروقراطية العثمانية[7]، فكانت «لامعة من الخارج... لكنها

1- P.F.Sugar, Op.Cit., P.155.

2- Ibid..

3- بول دومون، المصدر السابق، ص84.

4- الدكتور محمد إبشيرلي، المصدر السابق، ص274.

5- للمقارنة بين دخل الموظفين ومعدلات انفاقهم يينظر:

F.Georgeon, Note Sur Le Budget D'une Famille Ottoman Au Debut du Xxéme Siecle, "Revue D'histoire Maghrebine", Tunis, Ioéme Année, December 1983, PP.211-218

ف جورجن، ملاحظة حول ميزانية عائلة عثمانية في القرن العشرين، «المجلة التاريخية المغربية»، تونس، السنة العاشرة، كانون الأول 1983، ص211-218.

6- Shr Charles Eliot, Op.Cit., P.145

7- ينظر : بول دومون، المصدر السابق، ص87؛

J. R. V. Millingen and S. I. Ali Shah, Peeps at Many Lands Turkey, London, 1932, P.7.

متعفنة وفاسدة حتى العظم» حسب الوصف المعبر لهرشلاغ[1]. واستشرت فيها الرشوة، بشكل خاص، فشملت كبار الموظفين، مثل صغارهم، على الرغم من ضخامة مرتبات الأولين التي كانت تتراوح بين خمسة آلاف إلى عشرين ألف جنيه استرليني في السنة، قياسا بستة إلى ستين ألف جنيه استرليني سنويا لجمهرة صغار الموظفين. وفي الوقت الذي اتجه فيه أصحاب الرواتب الكبيرة إلى الابتزاز والرشوة حفاظا على حياة ترف إعتادوها، لجأ مرؤوسيهم إلى الأساليب نفسها لتأمين لقمة عيش هم بحاجة لها[2]، بل إن أحد كبار الموظفين لم يتردد عن القول بأنه «ليس لدي دوافع لكي أكون أمينا، فإذا ما حاولت أن أحكم بالعدل تكاتف ضدي كل البشوات الآخرون، ولن ألبث أن أطرد من وظيفتي، إذا رفضت الرشوة سأصبح أفقر من أن أشتري وظيفة أخرى»[3]. مع ذلك ورغم كل المفاسد والمساوئ والنقائض التي عانت منها البيروقراطية فإنها، إجمالا، وضعت نفسها في خدمة الإصلاحات، ولمصلحة التنظيمات.

فضلا عن فساد البيروقراطية، وجهت انتقادات أخرى لدولة التنظيمات، لعل أبرزها الفشل في إنشاء نظام حكم نيابي تطلعت إليه الصفوة العثمانية من صميم فؤادها. فبعد صدور مرسوم كلخانة اتخذت على طريق المجالس التمثيلية خطوات مترددة، ومبهمة، وغير مجدية عموما[4]، كان أبرزها عام 1845 بصدور فرمان فرض على كل منطقة إرسال مندوبين أثنين إلى اسطنبول لاطلاع الحكومة على رغبات واحتياجات مناطقهم، وأهم

1- ز.ي.هرشلاغ، المصدر السابق، ص49.

2- المصدر نفسه، ص78.

3- نقلا عن: الدكتور عبدالعزيز سليمان نوار، الشعوب الإسلامية. الأتراك العثمانيون الفرس مسلمو الهند، بيروت، 1973، ص181.

4- Please look at: S.J.Shaw and E.K.Shaw, OP.Cit, PP.76-79; R.H.Davison, The Advent of the Principle of Representation in the Government of the Ottoman Empire, "Beginnings of Modernization in the Middle East in the Nineteenth Century", Ed. W.R. Polk and R.L. Chambers, U.S.A, 1968,, PP.97-99; H.Inalcik, Application of the Tanzimat and its Social Effects, Belgium, 1976, PP.13-21; الدكتور إيلبر اورطايلي، المصدر السابق، ص326-327.

مشاكلهم، والسبل الكفيلة بعلاجها[1]. وبالفعل حضر ممثلو الأقاليم، المسلمين وغير المسلمين، وكان كلهم من الوجهاء ذوي الإمكانية المادية العالية، عبروا، خلال مدة وجودهم في اسطنبول لأكثر من شهرين، عن أمانيهم وتطلعاتهم، كما تكلموا، بشيء من الوجل، عن صعوباتهم ومشاكلهم[2]. أما النتيجة فكانت تشكيل لجان باسم مجلس الأعمار (Medjlici İmarie) أرسلت لمراقبة عملية الإصلاح في الأقاليم من دون أن يثمر عملها بنتيجة تستحق الذكر[3].

إن تلك التطبيقات كانت أبعد ما تكون عن قناعة مبدئية بسيادة الشعب. فحتى أكثر الساسة العثمانيين إنفتاحا، في تلك المرحلة، رأوا ان الدولة العثمانية غير مؤهلة لمثل هذا التوجه[4]. وهو ما دفع بعض الباحثين لتحليل أسباب تلك الممارسات بالرغبة في تقوية الدولة العثمانية، وإظهارها أمام الدول الأوربية بانها أهل للتقدم[5]، في حين رأى آخرون ان الحافز لهذا التوجه هو دفع عملية الإصلاح، والاستفادة من نفوذ الوجهاء في الأقاليم، ومن خبرتهم بواقع مناطقهم وطبيعة مشكلاتها[6]. وهي أسباب تنطوي على جانب كبير من الصحة، مع إن السبب الرئيس قد يكمن في الرغبة بإعطاء نوع من التمثيل لمراكز القوة الجديدة في المجتمع العثماني، والمتمثلة أساسا بالتجار وملاك الأراضي، وفسح المجال

1- M.A.Ubicini, Op.Cit., PP.321-322; S.J.Shaw, The Central Legislative Councils in the Nineteenth Century Ottoman Reform Movement Before 1879, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.1, January 1970, P.62.

2- R.H.Davison, Representation in the Government of the Ottoman Empire, P.100

3- Ibid., M.A.Ubicini, Op.Cit., P.322

4- R.H.Davison, Representation in the Government of the Ottoman Empire, P.97

5- Piease iook at: Ibid.,P.99.

6- Albert Hourani, Ottoman Reform and the Politics of Notables, "Beginings of Modernization", P.62;

فريتس شتيبات، بدايات العصر الحديث في الشرق الأدنى آفاق جديدة أمام المؤرخين، «الأبحاث» (مجلة)، بيروت، السنة20، الجزء 1، أذار1967، ص28-29.

أمامهم للتعبير عن ذاتهم ومصالحهم ضمن صفوف السلطات القضائية والتشريعية والتنفيذية[1].

في العام 1864 أتخذ إجراء أكثر جسارة في حركة الإصلاح باتجاه النظام النيابي تجسدت بصدور نظام إدارة الولايات، تقرر بموجبها تشكيل مجلس إدارة (Meclis-i İdare) في كل ولاية، وسنجق، وقضاء من موظفين معينين وأعضاء منتخبين، حدد عددهم في مجالس الولاية والسنجق بأربعة، إثنان منهم مسلمين وإثنان غير مسلمين، ولا يزيد عددهم عن ستة في مجلس القضاء مناصفة بين المسلمين وغير المسلمين، ومع هذه المجالس هناك المجلس العمومي (Meclis-i Umumi) في كل ولاية، ويتألف من أربعة أعضاء منتخبين في كل سنجق، مع تأكيد أن يكون إثنان منهم من المسلمين وإثنان من غيرهم[2]. تعدت مهام المجالس، عموما، إلى صلاحيات إدارية وقضائية، لكنها لم تلبث أن صارت «بمثابة دمغة باردة تصدق فقط على قرارات وطلبات الإداريين هناك أكثر من كونها أدوات لتحقيق انتفاع الأهالي بالإدارة»[3].

لم تكن المجالس اللاحقة أحسن حالا، فمجلس الدولة (Şura-i Devlet) الذي دشن عمله في العاشر من أيار 1868، وتشكل من ثلاثة إلى أربعة نواب عن كل ولاية يجتمعون سنويا في اسطنبول لمناقشة التقارير المرفوعة من كل ولاية، والسبل الكفيلة

1- **Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.260;**
خالد زيادة، الثوابت والمتغيرات الأساسية في حركة الوعي الجماعي القومي العربي والتركي منذ إعلان الجمهورية التركية، «العلاقات العربية- التركية حوار مستقبلي»، ص100.

2- للتفاصيل ينظر: محمد عصفور سلمان الأموي، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية وأثرها في المشرق العربي 1839-1908، أطروحة دكتوراه غير منشورة،، كلية الآداب-جامعة بغداد، 2005، ص51-59؛ وليد عبود محمد ومحمود عبدالواحد محمود، محاولات الإصلاح في الدولة العثمانية والتدخل الأوربي (1808-1876)، «الأستاذ» (مجلة)، بغداد، العدد الحادي عشر، كانون الثاني1998، ص121؛
R. H. Davison, Representation in the Government of the Ottoman Empire, PP.102-103.

3- إيلبر اورطايلي، المصدر السابق، ص345.

بالسير قدما في عملية الإصلاح[1]، والذي وصف بأنه أكثر الأجهزة التشريعية أهمية، في مرحلته، وأول هيئة تربط بين المجالس المنتخبة في الولايات والحكومة المركزية[2]، هذا المجلس لم يلبث، بعد مرحلة من التميز في بداية نشاطه ولاسيما ضمن دورته الأولى التي ترأسها مدحت باشا[3]، أن تراجع عمله ودب الضعف في صفوفه[4]. وكانت هناك مسببات عديدة وراء ضعف هذا المجلس، والمجالس الأخرى، أهمها حالة التصادم المستمرة داخلها بين التيارات المختلفة من دينية وعرقية ومحافظة وليبرالية، كما إن تذبذب سياسة الدولة الإصلاحية بين المركزية واللامركزية عقد العملية وشوشها، وأفضى إلى تدمير قسم من الإصلاحات الأخرى[5].

كانت هذه الأسباب من بين العوامل المهمة التي حالت دون نجاح التنظيمات، عموما، في تحقيق النتائج المنتظرة منها. علاوة على عوامل أخرى من أهمها ضعف الجهاز الإداري وافتقاره إلى الكفاءة والنزاهة[6]، كما إن الحماس كان شديدا عند بعض المصلحين للأخذ بنظم الغرب وأساليبه. صحيح انهم عملوا على صياغتها بشكل يلائم بيئتهم، لكنهم

1- R.H.Davison, Representation in the Government of Ottoman Empire, PP.104; شفيق جحا، التنظيمات أو حركة الإصلاح في الإمبراطورية العثمانية 1856-1876، «الأبحاث» (مجلة)، بيروت، السنة 18، الجزء 2، حزيران 1965، ص115.

2- الدكتور إيلبر اورطايلي، المصدر السابق، ص367؛ بول دومون، المصدر السابق، ص86-87.

3- للتفاصيل عن مدحت باشا وطبيعة دوره السياسي في تاريخ الدولة العثمانية يراجع: قدري قلعجي، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، سلسلة أعلام الحرية عدد 3، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، 1951؛

Bir Yazar Grulou, Uluslararası Midhat Paşa Semineri. Bildiriler ve Tartışmalar, Ankara, 1986

مجموعة مؤلفين، ندوة عن مدحت باشا. تقارير ومناقشات، انقرة، 1986.

4- R.H.Davison, Representation in the Government of the Ottoman Empire, P.104; A.Bonné, Op.Cit., P.14.

5- فريتس شتيات، المصدر السابق، ص29-30.

6- الدكتور عبدالعزيز محمد عوض، التنظيمات العثمانية، ص87؛ أحمد عبدالرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص204.

لم يوفقوا دائما في ذلك، وهو ما دفع بالكثير ممن تضررت مصالحهم بسبب الإصلاح، بمن فيهم رجال الدين، إلى المعارضة، واصفين الإصلاح عن طريق تقليد الأوربيين وإقتباس نظمهم ومؤسساتهم بأنه مخالف للشرع الإسلامي[1]. في ظل تلك الأجواء لم يكن من المدهش أن عامة الناس وقفت حائرة أمام السياسة الإصلاحية، غير فاهمة جدواها، لاسيما وأنها لم تلمس تحسنا ملموسا في أوضاعها بسبب تلك السياسة، نجم عن ذلك أن أخذ عدد كبير منهم خندق المقاومين للإصلاح، خصوصا عندما كان يؤذي، أو يظهر كأنه يؤذي، مصالح الجماعات المحلية وشعورها[2]. وكانت المقاومة التلقائية تزداد ضراوة عندما تبدو الحركة الإصلاحية صادرة عن الأجانب في وقت إستمر به ضغط العالم الغربي على الدولة العثمانية، وإزداد تدخله في شؤونها[3]. يضاف إلى ذلك تواصل الثورات في مناطق كثيرة من الدولة العثمانية، كان أشدها في منطقة البلقان.

يبقى تدهور الوضع المالي للدولة العثمانية من بين أبرز العوامل التي أثرت سلبا في حركة الإصلاح، زاد من ضغطه إن رجال التنظيمات لم يكونوا ملمين بالاقتصاد أو الأمور المالية، وتجاهل الباب العالي تفاصيل التمويل العام، فتجاوزت نفقاته موارد الدخل رغم إصلاح النظام المالي والضريبي[4]. بحلول الستينيات وصل زخم الانحطاط الاقتصادي حدا دفع الحرفيين والتجار إلى رفع شكواهم إلى السلطان مطالبين بالتعويضات، وملقين اللوم على بيروقراطيي الباب العالي، وسائلين السلطان التدخل نيابة عنهم[5]. لكن السلطان

1- L. Ziring, Iran Turkey and Afghanistan A Political Chronology, NewYork, 1981, P.26;

الدكتور أحمد عزت عبدالكريم واخرون، تاريخ العالم العربي في العصر الحديث، القاهرة، ص96؛ زكريا فايد، العلمانية. النشأة والأثر في الشرق والغرب، 1988، ص107.

2- فريتش شتيبات، المصدر السابق، ص29-30.

3- المصدر نفسه؛

Şerif Mardin, Genesis of Young Ottoman Thought, PP.16-19.

4- Şerif Mardin, Genesis of Young Ottoman Thought, P.30;

أحمد عبدالرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص217.

5- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص217.

نفسه كان له دور كبير في تردي الوضع المالي وزيادة نسبة العجز في الميزانية بحكم ضخامة نفقاته، ورفضه فكرة الفصل بين أموال خزينة الدولة وأمواله الخاصة[1]. وبغض النظر عن أي من الطرفين كان صاحب الأثر الأكبر في تدهور الاقتصاد العثماني، وعن الاتهامات المتبادلة بينهما، ولوم كل منهما الآخر، تفاقم الوضع بحيث تأخرت الدولة عن دفع الفوائد المستحقة على ديونها عام 1865، ثم أعلنت إفلاسها عام 1875.

خلال مرحلة تأزم وضع الدولة الاقتصادي تشكلت معارضة سياسية في صيف 1865 عرفت باسم «العثمانيون الجدد» (Yeni Osmanlıır) أو «الشباب العثماني» (Young Ottoman) الذين وصفهم فيروز أحمد بأنهم «أول مثال لمجموعة ضغط شعبية إسلامية إستهدفت إرغام الدولة على أخذ مصالحهم بنظر الاعتبار»[2]. ومع التأييد بكونها مجموعة إسلامية، فهناك شيء من التحفظ على وصفها بالشعبية، فالعثمانيون الجدد، عموما، كانوا من موظفي الحكومة ومن أبناء الأسر البارزة في النخبة العثمانية، تلقوا تعليمهم في المدارس العثمانية الحديثة أو أرسلوا إلى الخارج، وكثير منهم سبق لهم العمل ضمن صفوف البيروقراطية، وكانوا على إلمام جيد بلغة أجنبية واحدة أو أكثر. وهو ما يظهر واضحا من خلال ملاحظة خلفية المجموعة المؤسسة المتكونة من ستة أشخاص، أولهم محمد بيك الذي تلقى تعليمه في المدرسة العثمانية في باريس، وعاد مشبعا بالأفكار الغربية التي أثر من خلالها، بقوة، على اثنين من أصدقائه هما نوري بيك ورشاد بيك، والثلاثة كانوا يعملون في مكتب الترجمة. وبرز بين أعضاء الجمعية الأديب والشاعر المعروف نامق كمال (1840-1888) الذي كان، في ذلك الوقت، رئيسا لتحرير جريدة «تصوير أفكار». والعضو الخامس هو آية الله بيك الذي ينتمي إلى أسرة معروفة، وحظي بتعليم إستثنائي في جميع جوانبه، جامعا بين الثقافتين الغربية والشرقية. أما العضو الأخير في المجموعة فهو رفيق بيك صاحب جريدة «المرآة»[3]. وحتى

1- Şerif Mardin, Genesis of Young Ottoman Thought, P.29.

2- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص71.

3- للتفاصيل عن خلفية مؤسسي جمعية العثمانيون الجدد يراجع: شفيق جحا، المصدر السابق، ص121؛ «المقتطف»، المجلد الثامن والعشرون، الجزء الثامن عشر، 1 كانون الأول 1903، ص1003-100؛ Şerif Mardin, Genesis of Young Ottoman Thought, PP.10-13.

عندما أعيد تنظيم الجمعية في العاشر من أيار 1867 في باريس، بعد قيام الحكومة العثمانية بتفريق صفوفها داخل اسطنبول، بقي الطابع العام نفسه لأعضائها. فكان من بين الشخصيات القيادية في التنظيم الجديد، فضلا عن نامق كمال ومحمد بيك ورشاد بيك ونوري بيك، الأديب البارز ضياء باشا (1825-1880) الذي كان موظفا كبيرا في الهرم البيروقراطي قبل خلافه مع الصدر الأعظم علي باشا، واغا افندي (1832-1885) مؤسس صحيفة «ترجمان أحوال» ووزير البريد بداية ستينيات القرن التاسع عشر، وعلي سعاوي (1838-1878) رئيس تحرير جريدة «المخبر»، والأمير مصطفى فاضل (1830-1875)، أخو الخديوي إسماعيل، الذي تولى مناصب إدارية مهمة في الدولة العثمانية[1]، وحظي بشهرة خاصة إثر الانتشار الواسع لرسالته الموجهة إلى السلطان عبدالعزيز، التي طبع منها خمسين ألف نسخة، وزعت في مختلف أنحاء الدولة العثمانية، شجب فيها الأمير المصري، بلا مواربة، مثالب السلطان، ودعا إلى برنامج إصلاحي كان أبرز بنوده التأكيد على إقامة نظام حكم دستوري[2].

نمت «جمعية الشباب العثماني» بخطى وئيدة، فلم يزد عدد أعضائها عن مئتين وخمس وأربعين عضوا[3]، ومع انها إنحلت عام 1872، فإنها نجحت في التأثير بالرأي العام

1- Şerif Mardin, Genesis of Young Ottoman Thought, PP.25-31; Nizamettin Nazif Tepedelenliağlu, Sultan İkinci Abdülhamid ve Osmanlı İmparatorıuğunda Komitacılar, İstanbul, 1964, S.288-300, 501-513

نظام الدين نظيف تبةدلتلي اوغلو، السلطان عبدالحميد الثاني والثوريون في الامبراطورية العثمانية، اسطنبول، 1964، ص288-300؛

Y. A. Petrosian, Mladoturetskoe Dvijenie (vtovaya polovina XIX- nachalo XXv.), Izdatelstvo Nauka, Academia Nauk SSSR, Institut Vostokovedenia, Moskva, 1971, Str.68-69

يوري اشوتوفيتش بيتروسيان، حركة تركيا الفتاة (النصف الثاني من القرن التاسع عشر - بداية القرن العشرين)، منشورات دار العلم، أكاديمية العلوم السوفيتية، معهد الاستشراق، موسكو، 1971، ص68-69.

2- للإطلاع على نص الرسالة يراجع: من أمير إلى سلطان. ترجمة الخطاب الذي رفعه المغفور له الأمير مصطفى فاضل باشا إلى صاحب الجلالة السلطان عبدالعزيز سنة 1866، ترجمة أحمد فتحي زغلول، تصحيح توفيق الرافعي، القاهرة، 1922.

3- G.Lewis, Turkey, Therd Edtion, London, 1965, P.39.

العثماني وتكوين قناعات وأفكار عامة، معبدة، بذلك، الطريق أمام التجربة الدستورية لعام 1876-1877.

أدى إتساع الأزمات السياسية والعسكرية والمالية، وتعثر الحركة الإصلاحية، إلى زيادة التذمر بين العديد من المصلحين والمثقفين العثمانيين، كان في مقدمتهم مدحت باشا وحسين عوني باشا ورشدي باشا وغيرهم ممن أخذوا يعدون العدة لإجراء تغيير يضع حدا لتدهور أوضاع الدولة العثمانية، ولاحت الفرصة لهم عند إشتداد الأزمة السياسية في آيار 1876 باندلاع مظاهرات ضخمة مطالبة بعزل الصدر الأعظم وشيخ الإسلام[1].

أمام تصاعد الهياج إضطر السلطان إلى تلبية طلبات المتظاهرين، وتشكيل وزارة جديدة ترأسها رشدي باشا، وكان ضمنها مدحت باشا، الذي بدأ وزيرا بلا وزارة، وحسين عوني باشا وزيرا للحربية[2].

سرعان ما توترت العلاقة بين أبطال اللحظة هؤلاء، الذين رأى الناس فيهم بأنهم وحدهم القادرين على حل الوضع المتأزم للدولة العثمانية، والسلطان عبدالعزيز الذي عبر بسرعة عن عدم إرتياحه للتغيير الجديد، فخاطب وزراءه الجدد في لقائه الأول بهم بقوله «إنكم تحتلون هذه المناصب لأن الشعب هو الذي طلب توليكم لها، فلنرى الآن ما الذي يمكنكم عمله بالفعل»[3]. وبدا واضحا منذ البداية إنعدام الثقة بين الوزراء والسلطان، وزاد من مخاوف الأخير المناخ الذي ساد العاصمة، والمنشورات التي وزعت رافضة الحكم المطلق، ومطالبة بالدستور[4]، حتى «صارت كلمة دستور في كل فم» على وفق وصف السفير البريطاني[5].

1- L.Kinross, The Ottoman Centuries. The Rise and Fall of the Turkish Empire, NewYork, 1977, P.511;

احمد مدحت، اسيس انقلاب، قسم اول، استانبول، 1294، ص209-210.

2- قدري قلعجي، المصدر السابق، ص32.

3- نقلا عن: بول دومون، المصدر السابق، ص146-147.

4- شفيق جحا، المصدر السابق، ص129-130.

5- Quoted in: L.Kinross, Op.Cit., P.511.

وجاء التحرك سريعا في 30 أيار 1876 من جانب مجموعة صغيرة من كبار موظفي الحكومة، يرأسهم مدحت باشا ويساندهم ضباط الجيش والأسطول، بخلع السلطان عبدالعزيز بانقلاب أبيض عززته فتوى شيخ الإسلام[1]، ونودي بمراد الخامس سلطانا جديدا، ليعزل بدوره بعد ثلاثة أشهر فقط (من 30 أيار إلى 31 آب 1876) إثر إصابته بمرض عصبي، وتولى أخوه عبدالحميد العرش باسم عبدالحميد الثاني، بعد موافقته على عدة شروط، أهمها إعلان الدستور[2].

جرت مناقشات إعداد الدستور في وقت كان فيه مندوبو كل من روسيا وبريطانيا وفرنسا والنمسا وألمانيا وإيطاليا يتهيئون لعقد مؤتمر دولي في اسطنبول لبحث الإصلاحات الواجب على الدولة العثمانية تنفيذها من اجل تحسين أحوال مسيحيي البلقان، وجاء إعلانه في 23 كانون الأول، وهو التاريخ نفسه المحدد لعقد المؤتمر، قاضيا بذلك على جانب كبير من مبررات إنعقاده[3].

على الرغم من أن الظرف الدولي كان له أثره في توقيت إعلان الدستور، فان مضمونه جاء تتويجا لعملية إصلاح طويلة إستمرت نحو أربعين سنة. بموجب الدستور[4] صارت الدولة العثمانية مزودة بنظام حكم مماثل لنظام حكم دول الغرب الحديثة. فهي تتمتع

1- توفي عبدالعزيز بعد أيام محدودة من خلعه، ولا يزال موته مثار جدل فيما إذا كان إنتحارا أم قتلا. للتفاصيل ينظر: آى خان، سلطان عبدالعزيز ناصل خلع ايدلرى، ناصل انتحار ابتدى؟، استانبول، 1927؛ أورخان محمد علي، المصدر السابق، ص73-74؛ «عصر السلطان عبدالحميد وأثره في الأقطار العربية»، الجزء الأول، دمشق، 1939، ص- 27 30.

2- E.S.Creasy, History of the Ottoman Turks, Beirut, 1961, P.548;
«عصر السلطان عبدالحميد الثاني وأثره في الأقطار العربية»، الجزء الثاني، ص59؛ محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، الطبعة الثانية، مصر، 1896، ص324-326.

3- بعد حوالي شهر (23 كانون الأول – 20 كانون الثاني) من المناقشات والمساومات، رفضت الدولة العثمانية مقررات المؤتمر متعللة بمخالفتها للدستور الذي نص على سلامة كل أجزاء الدولة العثمانية، وتكفل بتنفيذ الإصلاحات الضرورية. بول دومون، المصدر السابق، ص151-152.

4- للإطلاع على نص الدستور يراجع: سليم فارس، المصدر السابق، الجزء السادس، ص1-27؛ احمد مدحت، اسيس انقلاب، قسم ثاني، استانبول، 1295، ص355-383.

بمجلس أعيان يعين السلطان أعضاءه مدى الحياة، مما يشكل ضمانة ضد الاقصاءات التعسفية، ومجلس مبعوثان يتألف من نواب ينتخبهم السكان، وبجهاز تنفيذي قيادي شبيه جدا في بنيته بوزارة أوربية، وصحيح إن السلطان احتفظ بجانب كبير من سلطاته التقليدية، فهو غير مسؤول أمام أحد عن أعماله، وهو الذي يعين ويعزل الوزراء، وهو الذي يعقد البرلمان ويحله، وهو الذي يصدر القوانين، ويقود الجيش، ويعلن الحرب، ويعقد الصلح، ويوقع المعاهدات، فان النواب، بالمقابل، يصوتون على مشاريع القوانين، ويصوتون خاصة على الميزانية، وهي صلاحية تسمح لهم بالسيطرة على جميع العمليات الضريبية والمالية للدولة، كما جدد الدستور جميع الضمانات التي قدمها مرسوما 1839 و1856 بصدد احترام الحريات الفردية، المساواة في الحقوق والواجبات، وحرية تولي جميع الوظائف العامة، والقضاء على جميع أشكال التعسف.

وصف بعض الباحثين النظام الدستوري بأنه «وليد الطبقات المسحوقة التي تبحث عن أي شيء يغيثها من التجارة الحرة، وتدعو إلى تدخل الدولة بشكل قوي»[1]، في حين ألمح آخرون إلى أنه تتجلى فيه طموحات الطبقات الصاعدة أو البرجوازية العثمانية[2]، ورأى فيه قسم آخر محاولة من جانب البيروقراطية لتقييد صلاحيات السلطان[3]. وربما كان لكل هذا نصيب من الصحة بنسب متفاوتة، فالتحركات الشعبية هي التي مهدت للانقلاب، والبيروقراطية وحدها كانت تمتلك إمكانيات تؤهلها لحسم الموقف، وكانت، بقيادتها الجديدة المتمثلة بمدحت باشا، على معرفة بقوة وأهمية الطبقات الصاعدة، ولم تر في الدستور وسيلة لتحديد صلاحيات السلطان فحسب، بل سبيلا لإيجاد نظام من التوازن والتعاون بين أصحاب الإمكانات المادية والبيروقراطية[4].

1- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص71.

2- Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, PP.266-267.

3- R.Devereux, The First Ottoman Constitutional Period. A Study of the Midhat Constitution and Parliament, Baltimor, 1963, P.31.

4- Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, PP.267-268.

جرى إنتخاب مجلس المبعوثان من خلال المجالس الإدارية واللجان الانتخابية في الولايات والسناجق والأقضية، وحدد الباب العالي عدد مبعوثي كل ولاية بما يتناسب مع عدد سكانها، على أن تكون هناك نسبة ملائمة لغير المسلمين[1]، وبفعل شروط الملكية التي وضعت على المرشحين، فان الموسرين هم وحدهم من تمكن من دخول المجلس[2].

مع إن مناقشات البرلمان، عموما، كانت رتيبة، كثر فيها تداول صياغات الولاء الشائعة للسلطان والوطن والأمة والإسلام، فان النواب كانوا دقيقين وواقعيين في عرض طلباتهم. العديد من النواب، سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، بدوا على معرفة جيدة بالمصطلحات الليبرالية الغربية، رغم أن الكثير منهم لم يكن لهم صلة مباشرة بأوربا، بل ومعادين لسياستها وثقافتها، وركزوا في مطاليبهم على قضايا محددة برز بينها إيجاد نظام ضريبي عادل وفعال، وحرية الصحافة، إعطاء ضمانات قانونية للملكية الخاصة، فرض قوانين عملة ملائمة، وحرية العمل[3].

وجه النواب في مناقشاتهم هجوما قويا إلى موظفي الحكومة، وكان جانبا كبيرا من إنتقاداتهم إنعكاسا لمطالب ورغبات البرجوازية الناشئة، مثالا على ذلك إنتقد أحد النواب فساد المحاكم والموظفين، معلنا إن هذا من شأنه أن يقوض القانون الموجود، و«يتسبب في أثار مدمرة، مشابهة للحرب الأهلية، ويكون السبب الحقيقي في دمار البلاد»[4].

من بين القضايا المهمة التي أثارها النواب في مجلس المبعوثان المطالبة بخضوع السلطة التنفيذية للسلطة التشريعية، وللنواب المنتخبين من الشعب، ما دام «وجود الدولة

1- R. Devereux, Op. Cit., PP.123-148;

أحمد عبدالرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص235.

2- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص72.

3- Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.268; Üstün Ergüder and Others, Perspectives on Democracy in Turkey, Ed. Ergun Özbudun, Ankara, 1988, PP.7-8;

«عصر السلطان عبدالحميد وأثره على الأقطار العربية»، الجزء السابع، ص198.

4- Quoted in: Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P. 269.

يعتمد على قبول الشعب»[1]، وأثير ضمن مناقشات المجلس فيما إذا كان من حق مجلس الوزراء تعديل قانون أقره البرلمان، وأخذ الموضوع شكلا آخر عندما هاجم النواب عددا من الوزراء والقادة العسكريين، وحملوهم مسؤولية الهزيمة في الحرب أمام روسيا، وإستهجنوا الأسلوب الذي تعاملت به الحكومة مع الوضع[2].

بلغ الصدام الذروة في إجتماع حضره السلطان في 13 شباط 1878، ضم الوزراء وأعيان الدولة ونوابا من مجلس المبعوثان، للتباحث في الرد الذي يجب تقديمه على عرض بريطاني بإرسال أسطول إلى بحر مرمرة للإسهام في حماية اسطنبول من خطر إجتياح روسي محتمل[3]، ودارت المناقشات في البداية من دون مشاكل، لكن أحد النواب، وهو نائب ازمير أحمد ناجي افندي الذي كان رئيسا لإحدى النقابات الصناعية، انبرى قائلا:

> «إنكم لا تطلبون رأينا إلا بعد فوات الأوان، فقد كان عليكم الرجوع إلى رأينا بصورة جدية يوم كان درء هذه الأخطار مستطاعا. فالمجلس النيابي لا يتحمل قط تبعة حالة نشأت دون علمه، وفضلا عن هذا فأن المسائل التي تناقش فيها المجلس النيابي وأصدر قررات فيها لم يؤبه لها ، ولهذا أكرر إن المجلس النيابي لايتحمل مسؤولية الأحوال التي أدت إلى الأزمة الحالية... الآن وقد وصلت الأمور إلى ما وصلت إليه فما الجدوى من إستشارتنا»[4].

1- Quoted in: Ibid.

2- للتفاصيل يراجع: «عصر السلطان عبدالحميد وأثره على الأقطار العربية»، الجزء الثالث عشر، ص397-400؛ عصمت برهان الدين عبدالقادر، دور النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني 1908-1914، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة الموصل،1989،ص52-54؛
R.Devereuy, Op. Cit., PP.208-215.

3- يراجع: «عصر السلطان عبدالحميد وأثره على الأقطار العربية»، الجزء الثالث عشر، ص400-401؛
R.Devereux, Op. Cit., PP.238-240.

4- نقلا عن: قدري قلعجي، المصدر السابق، ص89؛ بول دومون، المصدر السابق، ص155.

وبلهجة حادة مهددة وجه السلطان أوامره إلى صدره الأعظم لتقديم الإيضاحات حول أسباب الحرب وإدارة العمليات، لكن مقدم السؤال قلما يقنع[1]، وفي اليوم التالي علم النواب إن السلطان، مستندا إلى حق إعترف به لـه الدستور، قرر حل البرلمان بعد نشاط دام أقل من سنة (19 آذار 1877 - 14شباط 1878).

لم يكن عبدالحميد مقتنعا بالنزعة الليبرالية والدستورية التي سادت بين الفئة المثقفة خلال تلك المرحلة، وكان يرى إن تلك السياسة جرت البلاد إلى شفير الهاوية، وإن الدولة العثمانية غير ناضجة كفاية لخوض التجربة البرلمانية، ولابد من قيادتها عن طريق أب أو مرشد إلى أن تؤتى الهياكل والإصلاحات التي تطبقها الدولة أوكلها، وهو ما عبر عنه مرارا، منها قوله «إن أوربا قد عزقت أرضها ومهدت تربتها أعواما وعصورا حتى جاءت بما نراه فيها من مصادر الحرية والمنشآت الحرة، والان تطلبون إليّ أن أقتلع فسيلة من منابت الحرية فيها وأغرسها في أراضي آسيا الوعرة البائرة القاحلة. دعوني أتعهد هذه الأراضي قبلا بما يحسنها فأقتلع أشواكها، وأرفع أحجارها وأفلح تربتها وأخد الأخاديد وأحفر الأقنية لارووائها ثم أنقل تلك الفسيلة إليها، وأكون أول من يطيب نفسا ويقر عينا بنمائها ونضارتها»[2]. ومن جهة أخرى فان النظام البرلماني بدا له خطيرا في السياق المتعدد الأعراق للدولة العثمانية، فهناك مجازفة بان يتحول المجلس النيابي إلى بؤرة لارتفاع صوت الخلافات والتباينات والنزعات الانفصالية[3].

ربما كان في رؤى عبدالحميد جانبا من الصحة. لكن عمله لم يكن ضمن الخط الذي يهيئ التربة العثمانية «لفسيلة الحرية»، بل العكس، فأن النظام السياسي الذي صاغه

1- R.Devereux, Op. Cit., P.244;

«عصر السلطان عبدالحميد وأثره على الأقطار العربية»، الجزء الثالث عشر، ص401.

2- نقلا عن : «المقتطف» (مجلة)، القاهرة، المجلد الرابع عشر، الجزء الحادي عشر، آب 1890، ص727.

3- "Abdülhamidin Hatıra Defteri (Belgeler ve resimlerle)", Yayına Hazırlayan ve Sadeleşiren İsmet Bozdağ, İstanbul, S.20-21.

في الترجمة العربية: «مذكرات السلطان عبدالحميد الثاني»، ترجمة إعداد الدكتور محمد حرب عبدالحميد، الطبعة الثانية، دار الهلال، 1985، ص44-45.

عبدالحميد، خلال سنوات حكمه، أعاق سير التطور التدريجي للحياة السياسية بما يتلاءم مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية في الدولة العثمانية، والذي كان قد وصل مرحلة جيدة، نسبيا، وأفسد جانبا كبيرا مما تحقق فعلا.

في غضـون بضـع سـنوات ركـز السـلطان بيـن يديـه سـلطة ضخمـة قلما تمتـع بها أحـد من أسـلافه، فشـهد الربـع الأخيـر من القرن التاسـع عشـر إنزلاقا للسـلطة مـن الباب العالـي باتجـاه القصـر السـلطاني، وضعفت سـلطة منصب الصـدر الأعظم بدرجـة كبيرة، لضعف شـخصية شـاغليه قياسـا بالمرحلـة 1839 - 1876 [1]، من جهة، وانعدام اسـتقرار المنصـب والإيقـاع السـريع لتغييـر الصدور العظـام من جهة ثانيـة. فخلال سـنوات حكمه الثـلاث والثلاثيـن اسـتخدم عبدالحميـد سـبعة عشـر صـدرا أعظـم، وغير الحكومة سـت وعشـرين مـرة[2]. بالنتيجـة عاش الصـدور العظام في خـوف متواصل من فقـدان مكانتهم، إن لـم يكـن مـن فقـدان حياتهم، ولـم يكـن ممكنا، في ظـل تلك الظـروف، إنتهاج سياسـة دائمـة واضحـة المعالـم مـن قبـل أي منهـم. وإنتفـى مـن الناحيـة الواقعيـة وجـود مجلس وزراء، فالـوزراء يعينهـم السـلطان، وهـم غير مسـؤولين إلا أمامـه[3]. وهكذا فـان الصدور العظـام جُـردوا من السـلطة التي كانوا قد إكتسـبوها فـي مرحلة التنظيمات، وصـاروا مجرد منفذين للمشيئة السلطانية[4].

أحاط السلطان نفسه بعدد كبير من المستشارين، تباينوا جدا من حيث أصولهم ووظائفهم، وإتسعت حاشية السلطان وتنوعت لتشمل أعيانا ووجهاء دينيين من مختلف

1- Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.271; Yılmar Örtuna, Resimler Türkiye Tarihi, İstanbul, 1970, S.250

يلمار اورتونا، تاريخ تركيا المصور، اسطنبول، 1970، ص250.

2- يراجع يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ص101، 103، 115-116، 126، 177.

3- المصدر نفسه، ص144؛

L.Kinross, Op. Cit., P.535.

4- Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.271.

الولايات العثمانية لضمان ولاء أتباعهم، أو التخلص من خطر محتمل من جانبهم[1]. وبوجه عام فأن أيا من أفراد حاشية عبدالحميد لم يملك حظوة حقيقية، ولا حتى الشيخ الرفاعي السوري أبو الهدى الصيادي الذي وصف، بكثير من المبالغة، بأنه الراسبوتين العثماني[2].

استمد عبد الحميد جانبا كبيرا من سياسته من شخصيته التي لا يزال تقييمها إلى الآن موضع جدل وخلاف. فهناك من وصفه مستبدا وحشيا ودمويا، كما يشير إلى ذلك نعوت «السلطان الأحمر» و«القاتل الكبير»و«الطاغية المستبد» وغيرها من الأوصاف التي ترددت في مؤلفات الغربيين أكثر من غيرهم، تأثرا بالمذابح الأرمنية إبان السنوات **1894-1896** [3] على نحو واضح[4]، في حين عمد عدد من المؤرخين، لاسيما خلال السنوات الأخيرة، سعيا لرد الاعتبار لذكرى السلطان عبدالحميد، إلى تأكيد الإصلاحات التي جرت في عهده،

1- إبراهيم المويليحي، ما هنالك من أسرار بلاط السلطان عبدالحميد، دراسة تاريخية أحمد حسين الطماوي، تقديم الدكتور علي شلش، القاهرة، بلا، ص-94 147؛ عثمان نوري، عبدالحميد ثاني ودور سلطنتي حيات خصوصيه وسياسيه سى، جلد ثاني، استانبول، 1327، ص495-32.

2- Please look at: B.Abu- Manneh, Sultan Abdulhamid II and Shaikh Abulhuda Al-Sayyadi, "Middle Eastern Studies", Vol.15, May 1979, PP.131-149.

3- بدأت هذه المذابح اثر اندلاع الانتفاضة الأرمنية عام 1894، راح ضحيتها الآلاف من الأرمن، واستؤنفت المذابح من جديد إثر محاولة فاشلة قامت بها جماعة من الأرمن للسيطرة على البنك العثماني. للتفاصيل ينظر: نجلاء عدنان حسين العكيلي، الدولة العثمانية والمشكلة الأرمنية -1894 1916، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية- الجامعة المستنصرية، 2003، ص34-45؛

http:// Coursesa. Matrix. Msu. Edu/~ fisher/ hst373/ readings/ melson. html, R.T.Melson, Armenians in the Ottoman Empire. The Massacres of 1894- 1896, "chapter 2 of his book Revolution and Genocide: on the Origins of the Armenian Genocide and the Holocaust, University of Chicago Press, 1992"; Kamuuran Gürün, The Armenian File. The Myth of Innocence Exposed, London, 1985, PP.156-159.

4- A.Wittlin, Abdul Hamid. The Shadow of God, translated by N.Denny, London, 1940

في الترجمة العربية: آلما وتلن، عبدالحميد ظل الله على الأرض، ترجمة راسم رشدي، القاهرة، 1950؛ جون هاسلب، السلطان الأحمر قصة حياة السلطان عبدالحميد، تعريب فيليب عطاالله، بيروت، بلا.

وعلى التحديث الذي اضطلع به بما يجعل منه مواصلا، لا حافر قبر، للتنظيمات، وهو وصف تركز بين الكتاب الأتراك على نحو الخصوص[1]. بينما حاول آخرون، مدفوعين بحس ديني ومتأثرين بتراجع الواقع السياسي للعالم الإسلامي، التركيز على جهوده الرامية إلى إضفاء حيوية جديدة على ذلك العالم بصورة تتيح له التصدي لخطط الغرب[2]. وربما كان لكل هذه الأوصاف ما يبررها في شخصية عبدالحميد الذي يمكن رصد مجموعة من الصفات المتناقضة فيه. فهناك الحاكم المطلق الذي لا يثق بأحد، ويعمل على التدخل في أدق وأبسط تفاصيل شؤون الدولة، المستبد الذي يجتهد في خنق صوت المثقفين، ويكبت بوحشية الطموحات القومية لسكان الدولة العثمانية. وهناك رجل عصره، المنفتح على المستجدات، المولع بالموسيقى الأجنبية والعمارة الحديثة، الراغب في تطوير التعليم وتنظيم القضاء وتحسين شبكة المواصلات، خاصة بما يمكن لذلك أن يساعد على تعزيز السلطة المركزية. هذا التناقض في شخصية عبدالحميد دفع العالم المجري أرمينيوس فامبيري (Arminius Vambery)، الذي احتك بالسلطان عبدالحميد عن قرب، ودافع عنه مرارا[3]، إلى أن يصفه بقوله «**لم أصادف قط كالسلطان عبدالحميد رجلا لصفات خُلقه البارزة مثل هذا التناقض والتطرف والاختلال. فالخير والشر، والسخاء والدناءة، والجبن والشجاعة، والدهاء والجهل، والاعتدال والتطرف، عدد كثير جدا من الصفات المتناقضة نجدها في أعماله وأقواله**»[4].

1- ينظر مثلا: الدكتور كمال بكديللي، الدولة العثمانية من معاهدة قينارجة الصغرى حتى الانهيار، «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، المجلد الثاني، ص114-117؛

Turgut Özal, Op.Cit.

2- ينظر مثلا: الدكتور علي محمد محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، القاهرة، 2004، ص469-513؛ موفق بن مرجة، صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد والخلافة الإسلامية، الكويت، بلا.

3- ينظر مثلا: «المقتطف»، المجلد الرابع عشر، الجزء الحادي عشر، آب1890، ص- 721 728.

4- Quoted in: Ernest E. Ramsaur, The Young Turks Prelude to the Revolution of 1908,U.S.A, 1957, P.12

في الترجمة العربية أرنست أ. رامزور، تركية الفتاة وثورة 1908، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، تقديم ومراجعة الدكتور نقولا زيادة، بيروت، 1960، ص47.

كان للظروف التي أحاطت باعتلاء عبدالحميد العرش أثرها في ظهور الخوف سمة بارزة في شخصيته، خوف دائم من مؤامرة تحاك ضده، أو محاولة تدبر لاغتياله، وهو هاجس إزدادت حدته مع محاولات الإطاحة به، وحتى إغتياله، خلال السنوات الأخيرة من عهده[1]. وبضغط من هواجسه من جهة، وعملا على تكريس سيطرته المباشرة على أجهزة الدولة ومعرفة صغائر الأمور مثل كبائرها من جهة أخرى، عمد عبدالحميد إلى تأسيس نظام بوليسي جديد في طابعه على الدولة العثمانية. ففي العام 1880 تم تأسيس وزارة للشرطة، على وفق الأنموذج الفرنسي، وضع السلطان على رأسها رجلا من أهل الثقة[2]، لكن الشيء الأكثر أهمية وخطورة هو إنشاء شبكة تجسس تدار من القصر، وإنهمك الجواسيس في جهد مكثف للمراقبة وجمع معلومات لا ينجو منها أحد[3]، حتى قيل إن نصف سكان اسطنبول في عهده كان يتجسس على نصفها الآخر[4].

تجاوزت جهود عبدالحميد للسيطرة على الأشخاص إلى الهيمنة على العقول من خلال فرض رقابة صارمة على المطبوعات، فألحقت لجان رقابة بوزارتي التعليم والشؤون الخارجية لمراقبة المطبوعات المحلية والقادمة من الخارج[5]، وخضع تأسيس دور النشر وإنشاء الصحف لتصريح مسبق لم يكن من السهل الحصول عليه[6]، وحُظر استخدام

1- للتفاصيل حول مثل تلك المحاولات يراجع: أبو الثريا سامي، وساوس السلطان عبدالحميد، ترجمة خلف شوقي أمين الداودي، بغداد، 1922، ص51-60.

2- C.E.Clement, Op.Cit., P.166;

فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص172.

3- ركزت مصادر كثيرة على موضوع الجواسيس في العهد الحميدي، وأوردت نماذج مظلمة حد الكلح عن تلك الممارسات. ينظر مثلا: إبراهيم المويلحي، المصدر السابق، ص188-196؛

Ahmed Emhn, Turkey in the World War, U.S.A, 1930, PP.32-33.

4- L.Kinross, Op.Cit., P.534.

5- Hasan Ali Koçer, Türkie'De Modern Eğitimin Doğuşu ve Gelişimi, S.125-127;

عثمان نوري، المصدر السابق، ص563-590.

6- سليمان البستاني، عبرة وذكرى الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق ودراسة خالد زيادة، بيروت، 1978، ص97--136، 101 142.

مصطلحات وأسماء علم معينة عرفها الجميع رغم عدم وجود «قائمة سوداء» رسمية بها، ومن بين تلك الكلمات «الحرية»، الإضـراب»، «الثورة»، «الدستور»، «الاستبداد»، «الفوضى»، «القتل»، «الجمهورية»، «البرلمان»، «الاشتراكية»، «الديناميت»، «مراد»...[1]. فتحول نشر الكثير من الأخبار إلى حيرة حقيقية للصحافة العثمانية، من ذلك، مثلا، كيفية نشر نبأ مقتل الرئيس الفرنسي كارنو عام 1894، فلم يكن ممكنا نشر نبأ اغتيال رئيس دولة، كما كانت الصحافة تخشى أن تعزي «الوفاة» إلى شيخوخة الرئيس الفرنسي لان السلطان بدوره قد دخل هذا الطور من عمره[2]. وطبيعي حُرم في مثل هذه السياسة نقد السلطان، في الوقت الذي أبيح فيه نقد الوزراء شرط أن لايكون عنيفا[3]. وحُظر نشر الكتب الطبية المتعلقة بالجنون، أو عرض المسرحيات التي تتعرض لقتل الملوك مثل مسرحيتي «هاملت» و «مكبث» لشكسبير، وكذلك الحال بالنسبة لكتابات بعض الكتاب المقلقين، بما في ذلك مؤلفات نامق كمال وضياء باشا، ونتاجات بعض الكتاب الأوربيين أمثال روسو وفولتير وفكتور هيكو[4]. وتحولت الرقابة من فرط شدتها إلى رقابة ذاتية امتدت حتى إلى قواميس اللغة، فالتعريف الذي قدمه قاموس عثماني، ظهر في العام 1905، لكلمة «Tyrant» (مستبد) هو طائر أمريكي!![5]. لابل أن عبدالحميد لم يتردد، في بعض الأوقات، من منع إستيراد الهواتف والآلات الكاتبة[6].

من بين أبرز سمات سياسة عبدالحميد تأكيد الجانب الديني، وتبني فكرة الجامعة الإسلامية سبيلا لتحقيق تضامن الدولة العثمانية ولم شعثها. فجرى في عهده بناء الكثير من

1- »مذكرات سليمان فيضي من رواد النهضة العربية في العراق»، تحقيق وتقديم باسل سليمان فيضي، الطبعة الرابعة، بغداد، 2000، ص64؛ محمد أسعد طلس، تاريخ الأمة العربية عصر الانبعاث يشتمل على تاريخ البلاد العربية منذ فجر القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) حتى العصر الحاضر، بيروت، 1963، ص40.

2- الدكتور كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا دولية في الشرق الوسط، بغداد، 1978، ص267-268.

3- أحمد عبدالرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص243.

4- المصدر نفسه.

5- نقلا عن: فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص173.

6- أحمد عبد الرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص243.

المساجد، وزيادة مخصصات ومرتبات رجال الدين، ومنح إعانات للصحف التي تدعم فكرة الجامعة الإسلامية، والتأكيد على المناسبات الدينية، وتشجيع الاحتفال بها علنا، وإنشاء معهد ديني لتخريج الدعاة ونشرهم في مختلف أنحاء العالم الإسلامي للترويج لهذه الفكرة، وغيرها من الإجراءات التي عكست في مجملها ثقلا أكبر للإسلام في شؤون الدولة[1].

كان هناك مجموعة عوامل ساعدت عبدالحميد الثاني على تبني هذه السياسة، يكمن جانب منها في تكوينه الشخصي، فقد كان ميالا في مظهره إلى البساطة والتقشف، عاش حياة غلب عليها الورع والتقوى والمراعاة لواجبات المسلم، محافظا على فروضه الدينية، مع الاهتمام بإعلان ذلك بأسلوب معتدل[2]. كما أن التحول السريع في نمط الحياة وفي العادات والتقاليد المحلية، وتغلغل العلمنة في تفاصيل كثيرة من الحياة العثمانية خلال مرحلة قصيرة، نسبيا، فُرض خلالها التغيير من الأعلى بشكل لم تكن كل طبقات المجتمع العثماني مهيأة لتقبله، أو التعامل معه، ولد ردود أفعال واسعة ضد كل تغيير وميل واضح للمحافظة الإسلامية، غذاه تزايد التدخل الأجنبي في شؤون الدولة العثمانية خلف شعارات دينية[3].

1- A.Wittln, Op. Cit., PP.224-232

وفي الترجمة العربية 171-175؛ صباح مجيد حميد العبدلي، العرب والجامعة الإسلامية في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (1876-1909). دراسة تأريخية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا،بغداد، 1999، ص63-68؛ موفق بن مرجة، المصدر السابق، ص113؛ جاسم محمد حسن، العراق في العهد الحميدي 1876-1909، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 1975، ص64-73.

2- L.Kinross, Op. Cit., P.534; Samih Nafiz Tansu, Madalyonun Tersi, İstanbul, 1970, S.16

سامح نظيف تانسو، الوجه الآخر للميدالية، اسطنبول، 1970، ص16؛ «الهلال»، المجلد السادس عشر، الجزء الأول، أكتوبر 1907، ص39؛ يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ص-186 188؛ جاسم محمد حسن، المصدر السابق، ص54.

3- Uriel Heyd, The Later Ottoman Empire in Rumelia and Anatolia, "The Combridge History of Islam", Vol.Ia, Ed. P.M.Holt and Others, Combridge University Press, 1979, P.369; Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.272.

وكان الواقع الديموغرافي الجديد للدولة العثمانية عاملا مهما في تيسير تبني فكرة الجامعة الإسلامية. ففي بداية ثمانينيات القرن التاسع عشر تميزت الدولة العثمانية بقوام جديد، وبعد كل الاستقطاعات التي تعرضت لها[1] لم تعد تملك في أوربا غير الممر المقدوني، وفي أفريقيا غير الساحل الليبي، وبدت منذ ذلك الحين بوصفها دولة آسيوية ومسلمة أساسا، فبحكم التغيرات الإقليمية، وتدفق اللاجئين إزدادت نسبة المسلمين ضمن إجمالي سكان الدولة العثمانية في غضون بضع سنوات، من ٪68 إلى ٪76 [2].

ضمن تلك الأوضاع وجد عبدالحميد في الجامعة الإسلامية منهاجا جيدا لتحقيق أهدافه في الهيمنة والنفوذ وضرب المعارضين لحكمه، وفيما عدا خدمة هذه الأهداف فان الدين الإسلامي، مع انه إحتل من الناحية الظاهرية مكانة أوسع بكثير خلال العهد الحميدي، لم يستعد المكانة التي كانت له قبل التنظيمات، بل على العكس من ذلك إن الاتجاه إلى العلمنة وجد تعزيزا له إبان الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ولم يستعد رجال الدين سلطتهم التقليدية، بل إن الإشراف عليهم إزداد قوة من جانب السلطة المدنية، وأختير شيوخ الإسلام خلال زمن عبدالحميد من أناس يسهل على السلطان تهميشهم بسهولة[3]، في الوقت الذي حارب فيه كبار المفكرين المسلمين، خصوصا أولئك

1- عانـت الدولـة العثمانيـة، مـع بداية عهـد عبـد الحميـد، مـن اسـتقطاعات عنيفـة. فخـلال السـنوات 1875-1878 حصلـت كل مـن رومانيـا وصربيـا والجبـل الأسـود علـى اسـتقلالها التـام، واحتلـت النمسـا البوسـنة والهرسـك، وأصبحـت بلغاريـا إمـارة تتمتـع بالحكـم الذاتـي، وخضعـت قبـرص لـلإدارة البريطانيـة، وضمـت روسـيا ولايتـي قـارص واردهـان، وفـي العـام 1881 جـرى التنـازل لليونـان عـن جـزء مـن ثيسـاليا وجـزء مـن ابيـروس، وانتقلـت تونـس إلـى الحمايـة الفرنسـية، وفـي السـنة التاليـة صـارت مصـر تحـت الحمايـة البريطانيـة. للتفاصيـل يراجـع: الدكتـور محمـد مصطفـى صفـوت، مؤتمـر برليـن 1878 وأثـره فـي البـلاد العربيـة، القاهـرة، 1957؛ فرانسـوا جورجـو، المصدر السابق، ص161-162.

2- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص163.

3- المصدر نفسه، ص179.

الذين حملوا فكرا إصلاحيا[1]، ولم تحظ المدارس الدينية بإصلاحات تذكر، لاسيما وأن السلطان لم يكن يثق في طلابها، بل رأى فيهم مثيرين للقلاقل في أغلب الأحيان[2]، كما شهد عهده، رغم سياسته الإسلامية، تراجعا كبيرا في نسبة المنشور من الكتب الدينية قياسا ببقية المؤلفات، وقياسا بما نشر منها خلال عهود من سبقه من السلاطين[3].

مع هذه الملامح السياسية شهد عهد عبدالحميد الثاني تعمقا في التحولات الاجتماعية والاقتصادية، وزيادة كبيرة في الثقل الكمي والنوعي للفئة المثقفة الحديثة التي سعت إلى إحداث تغيير في الواقع السياسي العثماني، وآمنت بأن هذا لن يكون إلا من خلال تبني قناعات وأفكار سياسية جديدة ترنو، وتخطط فعلا من أجل التغيير المنشود.

1- الدكتور كمال مظهر أحمد، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، ص267؛ عبد الرزاق أحمد النصيري، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق 1908-1932، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب-جامعة بغداد، 1990، ص105-106.

2- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص179.

3- تراجع ص49 من البحث.

الفصل الثاني:

ظهور الأفكار الجديدة في الدولة العثمانية

أولا- بدايات توجه الأنظار
نحو الغرب (التحديث)

شكلت «جمعية الاتحاد والترقي» حلقة في السلسلة التاريخية للتحديث أو التغريب العثماني[1]، بل قيم الاتحاديون على انهم الجناح الأكثر حداثة بين المفكرين العثمانيين[2]، ومثلما كان للاتحاديين دورهم في حركة التحديث العثمانية، فأن هذه الحركة، التي بدأت مبكرا إبان القرن الثامن عشر، كان لها دورها الفعال في صيرورة جمعية الاتحاد والترقي وصياغة أفكارها.

لعل أول محاولة للتعرف بشكل مباشر على مظاهر الحضارة الغربية تعود إلى عام 1720 الذي شهد إرسال محمد أفندي جلبي سفيرا إلى فرنسا وتكليفه، علاوة على مهامه الدبلوماسية، «بزيارة القلاع والمعامل ونشاطات الحضارة الفرنسية، عموما، وكتابة تقرير عن تلك التي يمكن تنفيذها [في الدولة العثمانية]»[3]. وبالفعل تعدت نتيجة زيارته

1- حمل المصطلحان المفهوم ذاته لدى ساسة ومفكري المرحلة في الدولة العثمانية. ينظر:
Hamiliton A.R.Gibb, Studies on the Civilization of Islam, Ed. Stanford J.Shaw and William R.Polk, London, 1962, P.331; D.A.Rustow and R.E.Ward, Introduction, "Political Modernization in Japan and Turkey", Ed. R.E.Ward and D.A.Rustow, NewJersey, 1964,PP.6-9; http:// academics – hamilton. Edu/ economics/ tkoker/ cr/cv. html, Tolga Koker, Creating a Secular Public Sphere in the Early Repiblican Turkey 1922- 1938, P.6.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, NewYork, 1995, P.7.

3- Niyazi Berkes, Historical Bakground of Turkish Secularism, "Islam and The West Proceedings of the Harvard Summer School Conference on the Middle East July 25-27 1955", Ed. R.N.Frye, Harvard University, 1957, P.50.

إصدار أول كتاب وصفي للعالم الغربي بعيون عثمانية[1]، إلى إنشاء أول مطبعة في الدولة العثمانية.

تبعت هذه المحاولة محاولات أخرى تغير نهجها بشكل تدريجي، فتخطت طابع الوصف إلى شكل المقارنة بين عالمين مختلفين، ويُعد كتاب إبراهيم متفرقة[2] «أصول الحكم في نظام الأمم» (Usul al-hikm fi nizâm al-Umam) أول محاولة للفت الأنظار إلى ظهور عالم جديد في أوربا، جديد في أفقه الجغرافي المتسع باستمرار، في تقنياته العسكرية، في أشكاله السياسية، وحتى في مناظراته الدينية[3]، وأشار إلى أن الأوربيين «منذ بضع سنين انتشروا في كافة أرجاء العالم، فلم يسيطروا على بعض المقاطعات فحسب، بل انتصروا مرات عدة على الجيش العثماني»[4]، معللا تلك الانتصارات بـ «تطوير المبادئ والقواعد المبتكرة منذ وقت قصير، والمستخدمة في جيوش الملوك والأمم المسيحية... والتي جهزت مؤخرا بمكتشفات جديدة، مختلفة تماما عن القديمة ومجهزة بآلات وأسلحة جديدة، مما يجعل القواعد والجهود القديمة عديمة الجدوى»[5].

1- صدر الكتاب باسم «سفارتنامة» (Sefaretname)، وطبع مرات عديدة زاد عددها على الخمس مرات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. ينظر:

Ibid.;

الدكتور أحمد بشار اوجاق، دراسة أولية عن الحياة الفكرية خلال عهد التغريب، «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، اشراف وتقديم اكمل الدين احسان اوغلى، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الثاني، استانبول، 1999، ص268.

2- ولد ابراهيم متفرقة في ترانسيلفانيا بين عامي 1670 و 1674، عمل في خدمة الحكومة العثمانية، وتحول تدريجيا إلى العمل في خدمة السلطان برتبة متفرقة. وترجع شهرته إلى تأسيسه وادارته أول مطبعة في العالم الاسلامي، والتي عمل فيها ناشرا ومصنفا ومترجما ومؤلفا، أهله لذلك معرفته لعدة لغات أوربية. ألف عدة كتب، منها «الرسالة الاسلامية» و «أصول الحكم في نظام الأمم». توفي عام 1745. الدكتور خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي. دراسة في المؤثرات الأوربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، بيروت، 1981، ص37-39.

3- **Niyazi Berkes, Historical Background of Turkish Secularism, P.51**

4- نقلا عن: الدكتور خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوربي، ص40.

5- نقلا عن: المصدر نفسه، ص42.

من الواضح إن في كلام إبراهيم متفرقة دعوة ضمنية للأخذ بالتقنية الغربية، لم تلبث أن ازدادت وضوحا واتساعا لتشمل عددا آخر من مفكري ورجال الدولة العثمانية[1] الذين استنتجوا ، بعد إطلاعهم المباشر على مظاهر التقدم الأوربي، بان العثمانيين اندحروا على يد «الكافرين» الذين امتلكوا «التقنية الجديدة»، ورأوا أن خيارهم الوحيد هو امتلاك تلك التقنية، على الرغم من أن طبيعة مرحلة التحول حتمت عدم التصريح بذلك بقوة، فكانت الكثير من المذكرات والتقارير التي تقدم للسلاطين العثمانيين، خلال نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، تستهل بعبارات من قبيل «على الرغم من أنه يمكن أن نطلق عليه غير ملائم للمسلمين تقليد الكفار»، وبعد هذه الكلمات تخفي المذكرات بين سطورها ضرورة هذا التقليد نظرا للظروف الخاصة[2]. ثم بدأوا بالثناء على النموذج الروسي في التغريب، وضرورة إتباعه، فأشار أحدهم إلى «أن دولة المسقوف البربرية قد وصلت خلال ثلاثين سنة إلى مرحلة شكلت فيها خطرا على دول يعود تاريخها إلى مئات أو آلاف السنين» و «لأنه ليس فقط العثمانيون المتحضرون، بل حتى الفلاحين المسلمين العاديين الذين يقطنون ضمن حدود الباب العالي [الدولة العثمانية]، هم أكثر كفاءة من أذكى الأوربيين» سيكون التغريب مهمة يسهل تحقيقها على العثمانيين[3].

بتأثير الاحتكاك المتزايد بأوربا بدأ النقد يوجه إلى الأوهام السائدة عن رعاية إلهية تحول دون زعزعة أو قهر القوة العثمانية[4]، وأخذت تظهر عبارات واقعية وسوداوية لم

1- ينظر مثلا: المصدر نفسه، ص72-78؛ أحمد جودت، تاريخ جودت، جلد سادس، ايكنجي طبعى، درسعادت، 1309، ص373-377؛

B. Lewis, Emergence of Modern Turkey, PP.130-131; http: // www. washington post . com/ wp-srv/ style/ longterm/ books/ chap 1/ what went wrong. htm, B. Lewis, What Went Wrong?: Western Impact and Middle Eastern Response.

2- **M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.7;**

الدكتور عمر عبدالعزيز عمر، تاريخ المشرق العربي 1516-1922، الاسكندرية، 1984،ص251.

3- **M.Ş.ükrü Hanıoğlu, The Young Turks in Opposition, P.8; B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.71.**

4- الدكتور خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوربي، ص93.

يسبق ذكرها من قبل، مثل «ليس لدى الباب العالي قوة كافية وطاقة وافية»[1]، والإشارة إلى وجود «مرض متأصل اتسع شيئا فشيئا» في جسد الدولة العثمانية[2].

لقد واجه المفكرون العثمانيون تحديا صعبا في دعواهم للتحديث، وحاول البعض منهم إيجاد تبريرات للأخذ عن الغرب، فأشاروا إلى أن أوربا صارت مركزا للحضارة والعلم الذي انتقل إليها من أماكن سبق لها أن أدت دورها في رفد الحضارة، فـ«أمم أوربا الشهيرة والفخورة بتملكها لعدد كبير من روائع الفن والعلوم، كانوا تلامذة للاتين، وهؤلاء كانوا تلامذة لليونان، وجميع هؤلاء لم يكن بإمكانهم المجادلة في الأسبقية التي كانت للفرس والمصريين والهنود... اليوم، وبفضل التجديد الدائم لكل أحوال الأشياء، فان المعلمين المندهشين من مهارة تلامذتهم، ليسوا للأسف إلا محتاجين لهم»[3].

مثل هذا الكلام ينطوي على إعجاب واضح بالحضارة الأوربية، وهو ما أخذ يحل رويدا رويدا محل الشعور بانعدام الأهلية الذي كانت النخبة العثمانية تشعر به إزاء التقاليد اللاعثمانية واللاإسلامية وقيم العالم الغربي، وطغت عبارات الإعجاب على لسان معظم من زار أوربا من العثمانيين. فقد اعترف أحد علماء الرياضيات العثمانيين، من منطلق الإعجاب والاحترام الذي أبداه حيال كتاب قرأه إبان زيارته لفينا، بأن التفوق الغربي وصل إلى مستويات خرافية، و «إن على العثمانيين توسيع معارفهم بقراءة الأعمال المكتوبة باللغات الأوربية»[4]. وضمن المعنى نفسه أقر آخرون بأن «كتب الأوربيين خزائن العالم، وإذا ما فهموا لغتها فمفاتيحها في أيديهم»[5]، وبصورة مماثلة صرح أحد رجال الدولة العثمانية، إثر زيارته جامعة كامبرج، بعد مقارنة الجامعة بالمدارس العثمانية، بأن أفضل شئ

1- M.Şükrü Hanıoğlu, The Young Turks in Opposition, P.9.

2- محمود رئيف أفندي، التنظِيمات الجديدة في الدولة العثمانية، تعريب وتحقيق وتقديم الدكتور خالد زيادة، لبنان، 1985، ص31.

3- نقلا عن: الدكتور خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوربي، ص93.

4- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.221.

5- نقلا عن: الدكتور خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوربي، ص95.

يمكن للعثمانيين أن يأتوا به هو إنشاء نظام تعليمي مماثل لهذه الجامعة في الدولة العثمانية[1]. كما أبدى أحد الضباط العثمانيين إعجابه بالتفوق العسكري الأوربي معلنا بأن «مهارة المسيحيين في إنتاج السلاح للحرب وخططهم العسكرية البارعة، فاق كل تصوراتي»[2]. وامتد الإعجاب إلى طبيعة النظام الاجتماعي والقانوني في أوربا، وتوقف عدد من المفكرين العثمانيين، ممن زاروا بلدانها، عند تراجع دور الدين في الحياة الأوربية، وتحرر تلك المجتمعات من سيطرة سلطته. فمثلا أشار راتب أفندي[3] إلى أن الأوربيين «ليس عندهم قوانين دينية، إذ لم يبق من القوانين المسيحية إلا ما يتعلق منها بالزواج، وحتى هذه الناحية من الممارسة الدينية لم تكن معتمدة دائما... فالعامل الديني لم يعد ملحوظا»[4].

مع تزايد تعرض المفكرين ورجال الدولة العثمانيين للحياة والحضارة الغربية، تعمق استيعابهم للفروقات الكبيرة والجوهرية بينها وبين حضارتهم، وتجاوز شعورهم الإعجاب إلى الاستغراب والإحساس بالدونية[5] لكل ما شاهدوه، أو وصل إليهم عن «أوربا الصغيرة جغرافيا، ولكنها الأولى في التمدن والازدهار»[6]، وبدأ التساؤل عن سبب تراجع الدولة العثمانية، وسر نجاح وتقدم الدول الأوربية، وانتشرت فكرة «لابد من عمل شئ ما»[7].

1- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.9.

2- Quoted in: Ibid.

3- من أبرز معاوني السلطان سليم الثالث وأجرأهم وأشدهم صراحة، تسلم منصب رئيس الكتاب، أو وزير الخارجية بين 1795 و1796. بتكليف من السلطان زار أوربا خلال عامي 1792 و1793 للاطلاع على أوضاع المؤسسات الادارية والحكومية هناك، وتقديم وصف عن مشاهداته، وهو ما جاء في تقرير بخمسمائة صفحة تألف من قسمين، إختص الأول بالمؤسسات العسكرية في أوربا، والثاني بالشؤون الادارية والحكومية هناك، قتل عام 1799. الدكتور خالد زيادة، اكتشاف التقدم الأوربي، ص76-77.

4- نقلا عن: المصدر نفسه، ص78.

5- علق رحالة أمريكي زار اسطنبول أوائل القرن التاسع عشر على إنتشار مثل هذه الأحاسيس بين العثمانيين بقوله «كان الاتراك متكبرون كما الطاووس... لكن مع فرصة بسيطة لعمل مقارنة، كانت النتيجة... إكتشافهم للنقص الموجود فيهم».

C.M.Kortepeter, Op.Cit.

6- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.9.

7- Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, P.171; B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.130.

يمكن التعرف على مثل هذه الأفكار والتوجهات، مثلا، في كتابات مصطفى سامي، الذي زار معظم المدن الأوربية، وصار سفيرا للدولة العثمانية في باريس عام 1838، ليكتب إثر عودتـه منها كراسا أسماه «رسائل أوربية» (اوربا رسالسي) وقف فيه على دور العلم في التقدم الأوربي، وحالة التواصل بين القديم والحديث في الإنجاز العلمي ضمن الحضارة الأوربية بالشكل الذي أمكنها من تحقيق مخترعات ميكانيكية رائعة، واصفا مشاعره وأفكاره خلال زيارته لمتحف بقوله:

> **«ما النفع من هذا؟ المخترعات الأوربية، المكتشفات الكثيرة التي تتطور كل يوم لتجعل كل شيء مريحا، هذه الإنجازات الجبارة مثل الملاحة البخارية، هذه الصناعات التي تحتاجها البلدان المسلمة بشدة في كل ضروراتها اليومية من قبيل الورق ، النسيج، الزجاج، وصناعة الساعات، ومؤخرا هذه المحاولات الرائعة للطيران في الهواء والاتصال بواسطة أسلاك تمد تحت الأرض، كلها صارت ممكنة بفضل حفاظهم على إنجازات الأقدمين والسابقين، وإضافة مخترعاتهم الخاصة عليها. إذا ما أدركنا هذا فأننا سوف نفهم لماذا إن منتجات نسميها نحن قديمة تستحوذ على اهتمامهم وعنايتهم في عصر المخترعات هذا»[1].**

أبدى مصطفى سامي إعجابه بأنظمة الحكم الأوربية، والأمن، والمساواة أمام القانون، والحرية، والرخاء الاقتصادي، وانتشار التعليم في أوربا[2]، وتكلم عن النقطة الأخيرة بالذات بحماس ومبالغة واضحين: «الرجال والنساء، على السواء، كل شخص في أوربا، خصوصا فرنسا، يقرأ ويكتب، حتى الراعي والحمال العادي قادر في الأقل على قراءة رسالة ترسل له» حسب وصفه[3]، وبالحماس نفسه تكلم عن الحرية الدينية في أوربا «لا شخص في أوربا مقيد بالقضايا الدينية أو الطائفية. فبغض النظر عن ديانة الرجل- حتى لو كان يهوديا- بإمكانه الحصول على وظيفة لدى الحكومة ما دام هو أهل لذلك» «كل هذا

1- Quoted in: Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.129.

2- B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.133.

3- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.130.

بفضل التقدم والعلم»[1]. وتوصل مصطفى سامي إلى نتيجة مفادها بأنه متى ما تحققت المعرفة في الدولة العثمانية، وانتشرت العلوم الحديثة من خلال التعليم الحديث، فان البلاد ستتوقف عن الاعتماد على المنتجات الأوربية، وستدخر ثروتها لتحقيق تقدم أبعد[2].

إن قراءة لكتابات وانطباعات مصطفى سامي عن الحضارة الأوربية تظهر ان الجوانب التي أثارت اهتمامه وتركيزه هي تلك التي لها خلفياتها في طبيعة المشاكل التي كانت الدولة العثمانية تواجهها، وهو ما يبدو أكثر وضوحا عند معاصره صادق رفعت باشا(1807-1856)[3].

مثل من سبقه ممن زاروا أوربا، صور صادق رفعت كل شيء فيها جميل ومثالي. فتحدث عن سيادة الحرية الدينية، واستقرار الإدارة الحكومية، ونزاهة الموظفين، وترقي العلوم، وانتشار التعليم، وتطور الصناعة، وازدهار التجارة، وتشجيع الاستثمار، والبنوك، وقوة البخار، والقطارات، وخدمات البريد، والنظافة، ومؤسسات العناية بالفقراء والمرضى وغيرها من الأمور التي نالت إعجابه[4]. لكنه لم يكتف بالمظاهر الخارجية للحضارة الأوربية، بل حاول معرفة أسس تميزها عن غيرها من الحضارات، وفي هذا الصدد أشار إلى أن الحضارة الأوربية تستند إلى الإدراك الكامل لحقوق الإنسان وحريته، وانطلاقا من هذا فأن أهم واجبات الحكومة «تأمين الحياة الآمنة والملكية والشرف وسمعة كل أمة وشعب (ملة) هي التطبيق الصحيح لحقوق الحرية الضرورية، والحرص على عدم المساس بها»[5]،

1- Ibid.

2- Ibid.

3- مفكر وسياسي عثماني، تلقى تعليمه الأولي في المدارس الدينية، ولم يلبث أن حظي بتدريب خاص في مدارس البلاط، صقله بتعيينه في عدد من الوظائف الادارية. في العام 1837 صار سفيرا للدولة العثمانية في فينا، ليتعين بعدها في مناصب أرفع في اسطنبول. له كتابات عديدة عن أوضاع الدولة العثمانية وسبل إصلاحها، أبرزها مقالتين طويلتين، الأولى من اثنتي عشرة صفحة باسم «مقال يتعلق بأوضاع أوربا»، والثانية «حول إصلاح أوضاع الدولة العثمانية». للتفاصيل ينظر:=

Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, PP.169-195.

4- B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.132.

5- Quoted in: B.Lewis, Islam in History: Ideas Men and Events in the Middle East, NewYork, 1973, P.271;

سليم الصويص المحامي، اتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، عمان، 1970،ص.28.

«فالحكومة وجدت لرفاه المواطنين، لا ليكون المواطنون أدوات لخدمتها، ونتيجة لهذا لابد للحكومة من التصرف على وفق حقوق الشعب، وبموجب القانون»[1].

الحضارة، والحرية، والشعب، وحقوق الإنسان، وتحديد مهام الحكومة بهذا الشكل، كلها مفاهيم جديدة على العثمانيين، طرحها صادق رفعت لأول مرة، ربما من غير إدراك كامل لمدلولاتها، أو بفهم مشوش لمضامينها، لكن مجرد إثارتها دشن تطورا نوعيا في قياس الزمان والمكان.

حـاول صـادق رفعـت، مثـل غيـره، إيجـاد حلـول لإصـلاح أوضـاع الدولـة العثمانيـة، كان أهمهـا اسـتئصال الحكـم الاسـتبدادي، وإتبـاع سياسـة سـلمية ثابتـة علـى المسـتويين الداخلـي والخارجـي، وتشـريع قوانيـن قضائيـة وإداريـة، ووضـع أسـس تنظـم التزامـات الرعايـا مـن قبيـل دفـع الضرائـب وتأديـة الخدمـة العسـكرية، كمـا أكـد بقـوة أهميـة تنظيـم التعليـم، لاسـيما فـي مجالـي الجيـش والبحريـة، وتدريـب موظفيـن نزيهيـن، وضمـان أمنهـم واسـتقرارهم، والأهـم مـن كل هـذا وذاك حمايـة وتشـجيع الزراعة والصناعة والتجارة[2].

احتلت النقطة الأخيرة أهمية خاصة بين حلول صادق رفعت الإصلاحية، ودشن ذلك بداية لانعكاس التغيرات الاقتصادية في الدولة العثمانية بين المفكرين الترك، وفي هذا الجانب دعا، أيضا، إلى محاكاة الأنظمة الأوربية، وإتباع خطاها في تأمين حرية النشاط الاقتصادي، وإنشاء مؤسسات اعتماد وبنوك حديثة، والعمل على التخلص من القوانين والظروف المزعجة، وغير الضرورية، موضحا بأنه متى ما أعطي الناس ضمانات بحماية ممتلكاتهم، وتوفير الحماية لنشاطهم الاقتصادي، والمساعدة على إنجاحه، فان الدولة

1- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.131; http:// www. History. Hacettepe. Edu. Tr/ archive/ liberalism. Html, Mehmet Seyitdanlioglu, The Rise and Development of the liberal Thought in Turkey.

2- Please look at: Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, PP.179-195.

ستزدهر أيضا، وعلى العكس من ذلك في أي مكان يسود فيه الحكم الاستبدادي فأن واقع وإحساس اللاأمان، بتأثير مثل هذا النظام، من شأنه إعاقة التطور الاقتصادي[1].

وجد جانب كبير من طروحات صادق رفعت باشا طريقه للتطبيق بإصدار مرسوم كلخانة الذي شكل البداية الواضحة على طريق تحديث الدولة العثمانية بالسير على نهج العالم الغربي. ومع إن هدف الدولة العثمانية من توجهها نحو الغرب كان استيراد التقنية المتقدمة فقط، وتجنب كل تأثير آخر، لكن من الواضح إن الاحتكاك بأوربا، وبوادر التحديث في شكل تقليد الغرب، كان له أثره في تسرب الفكر الأوربي إلى النخبة العثمانية، وتكون مجموعة مميزة من المثقفين العثمانيين الذين أسهموا في صياغة وبلورة الفكر الأوربي، وتقديم فكر جديد إلى المجتمع العثماني، متخطين، من خلاله، مرحلة التلميح إلى التأكيد، والالتفاف إلى التحديد، والتخبط إلى الوضوح.

1- Ibid, PP.180-187.

ثانيا- دخول الأفكار الجديدة للدولة العثمانية

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثورة فكرية في الدولة العثمانية على وفق الوصف المعبر للمؤرخ الاسكوتلاندي جب[1]، إذ جعلت تغيرات أوضاع الدولة العثمانية تعلم اللغات الأوربية مطلبا ضروريا، وحاجة ملحة، ضمن الواقع العثماني الجديد، وبالنتيجة ازداد عدد الذين يجيدونها بشكل مطرد[2]، مما فتح الباب واسعا أمامهم للتعرف على مختلف الكتابات الأجنبية والإلمام بها، ووجه قسم كبير منهم جهوده لنشر المعارف الغربية في الدولة العثمانية بكل حماس وهمة، من خلال ترجمتها إلى التركية. فترجمت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أعمال كثيرة بداية بمحاورات حكمية (Muhaverat-I Hikemiyye) عن كل من فنلون (Fenelon) وفولتير (Voltaire) وفونتيل (Fontenelle) عام 1859، تلماك (Telemaque) لفلنون عام 1862، لتتابع الأعمال المترجمة لكبار الكتاب الغربيين مثل مونتسكيو (Montesquieu)، روسو (Rousseau)، لوك (Locke).[3].

ازداد عدد الأعمال المترجمة على نحو متصاعد، إذ وصلت نسبتها عام 1875 إلى 6.4٪ قياسا بمجموع الكتب الصادرة منذ إدخال الطباعة إلى الدولة العثمانية، لترتفع النسبة

1- E.J.W.Gibb, A History of Ottoman Poetry, Ed. E.G.Browne, Vol.V, Printed four, London, 1964, P.20.

2- Ibid., PP.5-6; J.S.Szyliowicz, Op.Cit., P.132; C.H.Dodd, Politics and Government in Turkey, Great Britain, 1969, P.12.

3- Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, PP.226-236; Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, PP.199-200;

بول دومون، المصدر السابق، ص72-73.

زمن السلطـان عبدالحميد الثاني إلى ٪23 [1]. كما إنها لاقت إقبالا ورغبة عاليين، انعكس بوضوح من خلال تكرار طبعها فعلى سبيل المثال طبعت تلماك، وحدها، حتى العام 1890 إحدى عشرة مرة[2].

كان جانبا كبيرا من الأعمال المترجمة انتقائيا الهدف الأساس منه تجميع أفكار جديدة وعرضها على الانتليجنسيا العثمانية، ولعل هذا يفسر وصول حصة فولتير، مثلا، خلال ثلاثة عقود تبعت العام 1859، إلى سبع كتب، فضلا عن عدد كبير من المقالات المنشورة له، أو عنه[3].

لم تلبث النخبة العثمانية، المشبعة بالفكر الغربي، أن اختارت لنفسها المعترك الفكري وسيلة أساسية لإيجاد سبيل لإنقاذ الدولة العثمانية وتغيير حالها على وفق تصور جديد في كل الميادين، مقدمة للمجتمع العثماني عموما، وللفئة المثقفة على وجه الخصوص أنماطا جديدة في التنظير، ومفردات حديثة في التعبير، وفيض من الأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية حملت طابع الحداثة والتحديث لمجمل الواقع العثماني.

ربما كانت الحرية من بين أكثر الأفكار بروزا ضمن الفكر السياسي العثماني، وأقوى المفردات تغيرا في المعنى والمدلول. فحتى القرن التاسع عشر احتفظت مفردة الحرية بالمفهوم التقليدي المتوارث عن الفكر الإسلامي، حتى إنها عرفت في ثنايا معجم لغوي يعود تاريخه إلى أواسط القرن الثامن عشر، بالتفسير التالي: «إن الحر يقابله الرقيق... والحرية عند السالكين انقطاع الخاطر من تعلق ما سوى الله تعالى... والحرية نهاية العبودية، فهي هداية العبد عند ابتداء خلقته»[4]. لكن بعد منتصف القرن التاسع عشر أخذ مفهوم

1- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص210.

2- الدكتور أورخان أوقاي، الأدب التركي في مرحلة الغريب، ص111.

3- الدكتور أورخان أوقاي، دراسة أولية عن الحياة الفكرية خلال عهد التغريب، «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، إشراف أكمل الدين إحسان اوغلى، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الثاني، استانبول، 1999، ص278-279.

4- نقلا عن: الدكتور خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوربي، ص101.

الحرية بمعناه الحديث بالتبلور. فبعيد إصدار المرسوم الإصلاحي لعام 1856 كتب إبراهيم شناسي[1] (1826-1871)، وهو المعروف بتجنبه استخدام المفردات الثورية، أو الدخول في مواجهات نضالية، قصيدة خاطب فيها الصدر الأعظم رشيد باشا[2]، بقوله «حررتنا وكنا أسرى الظلم» و «إن شرعك للإنسان وثيقة للعتق، وهو الذي يوقف السلطان عند حده»[3].

قد لايكون في هذه الكلمات دعوة معينة، وقد لا تكون أكثر من وصف حال على وفق ما أحس به شناسي، لكن مجرد طرق هذا الموضوع، واستخدام مفردة الحرية بمعنى سياسي، والتطرق لمفهوم تحديد صلاحيات السلطان كان نقلة بحد ذاتها.

كان نامق كمال هو من أنضج فكرة الحرية وأعطاها بعدا سياسيا وعمقا عاطفيا، وبرز بوصفه مدافعا متحمسا عنها من خلال تغنيه بها في أدبه، منثوره ومنظومه، وبرزت بين كتاباته

1- شاعر ومسرحي وصحفي، عد من أبرز رواد الأدب التركي الحديث، تعلم الفرنسية في سن مبكرة، وذهب إلى فرنسا مرتين، بقي في كل مرة من أربع إلى خمس سنوات، تولى وظائف حكومية عدة، شارك في جريدة «ترجمان احوال» عام 1860، وأصدر جريدة «تصوير افكار» عام 1862، ترجم عددا من الأعمال الفرنسية، ونشر مجموعة مؤلفات، منها «ديوان شناسي» و«ضروب الأمثال العثمانية». يراجع: وحيد بهاء الدين، أعلام من الأدب التركي، بغداد، 1965، ص16-23؛

Murat Uraző, Şinasi Hayatı Şahsiyeti Eserlerinden Seçme Parçalar, İstanbul, 1955

مراد اوراز، حياة شناسي وشخصيته ومقاطع مختارة من شعره، اسطنبول، 1955.

2- مصطفى رشيد باشا (1800-1858) يعد «أب» التنظيمات، وملهم مرسوم كلخانه، بدأ عمله الوظيفي أمينا للباب العالي، وارتقى إثر ذلك مختلف المراتب، واحدة إثر اخرى، في عام 1834 عين سفيرا في باريس، مما شكل خطوة أولى في عمل دبلوماسي كانت الاقامة في لندن أبرز مراحله، عام 1837 صار وزيرا للخارجية، ووصولا إلى العام 1846 صعد إلى منصب الصدارة. تميز بمثابرته على تحقيق الاصلاحات الأكثر جسارة، وعند وفاته عام 1858 خلف وراءه خمس توليات لمنصب الصدر الأعظم، وعدة بعثات إلى الخارج، وفترتي تعيين لمدتين طويلتين نسبيا على رأس وزارة الخارجية. يراجع بول دومون، المصدر السابق، ص67-68؛

S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit., PP.58-59.

3- Quoted in:B.Lewis, Islamin History: Ideas, Men and Events in the Middle East, NewYork, 1973, P.274; Nihad Sâmi Banarlı, Resimlı Türk Edebiyâtı Târihi, II, İstanbul, 1998, S.862

نهاد سامي بانرلي، تاريخ الأدب التركي المصور، الجزء الثاني، اسطنبول، 1998، ص862.

قصيدة مشهورة جاشت بالعاطفة، حملت أسم الحرية (Hürriyet)، وصفت بأنها «شعار لكل عصر... وبيان ثوري لهذه الفكرة»[1]، وكان أول من اتجه بين مثقفي جيله إلى تأكيد إن الإنسان يولد حرا، وإن هذه الحرية «ضرورية ضرورة الماء والهواء»[2]، ولم يتردد في الإعلان صراحة، وبشكل أكثر وضوحا «إن حق وواجب الإنسان لا أن يحيا فحسب، بل أن يحيا حرا»[3]. وأضحت الحرية، بين مثقفي الدولة العثمانية، مطلبا أساسيا لتحقيق الرقي والتقدم والسعادة. فكتب الشاعر والدبلوماسي العثماني سعدالله باشا (1838-1891) في أثناء زيارته لمعرض كبير أقيم في باريس عام 1878، ضمن رسالة وصف فيها إحساسه تجاه ما شاهده: «أمام المدخل الرئيسي يوجد تمثال الحرية، والتمثال جالس على مقعد وبين يديه رمز، إن منظر التمثال وشكله يوحي بالنداء التالي: أيها الزوار الفضلاء عندما تتأملون هذا العرض المدهش للتقدم الإنساني، لا تنسوا أن هذه المنجزات كلها من صنع الحرية. في ظل الحرية تبلغ الشعوب والأمم هدفها في السعادة. فبدون الحرية لا توجد الطمأنينة، وبدون الطمأنينة لا يقوم الجهد، وبدون الجهد لا يكون الرفاه، وبدون الرفاه لا تأتي السعادة»[4]. تعبيرا عن المعنى ذاته، وإعجابا بالأنموذج الأوربي، نفسه، واستلهاما منه، قال شاعر آخر شاديا باسم الحرية «إن ما نجل ونعظم من جميع ما نراه من نتاج التهذيب الأوربي والحضارة وثمرة العلوم والفنون إنما هو الحرية. كل شيء يستمد نوره من كوكب الحرية المنير. أما الأمة المسلوبة الحرية فلا حول لها ولا أمل في ارتقاء معارج العمران. السعادة بلا الحرية مستحيل لا يدرك، والوجود الإنساني والحياة الصحيحة بلا سعادة تكفلها الحرية إنما هي وهم باطل وخيال خادع. عش أبدا ياكوكب الحرية ما التهبت القلوب شوقا إليك وتزاحمت أنفس عشاقك على فدائك»[5].

1- الدكتور أورخان اوقاي، الحياة الفكرية خلال عهد التغريب، ص273.

2- بول دومون، المصدر السابق، ص75.

3- Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, PP.297-298.

4- Quoted in: Nuri Eren, Turkey Today and Tomorrow. An Experiment in Westernization, NewYork, 1963, P.14; B.Lewis, The Middle East and the West, P.47.

5- نقلا عن: لوثروب ستودارد، حاضر العالم الاسلامي، ترجمة عجاج نويهض، المجلد الثاني، الجزء الرابع، الطبعة الثالثة، بيروت، 1971، ص47.

وبدت الحرية المبدأ الذي لابد له أن يسود، فكتب ضياء باشا «ما دام العصر الحالي هو زمن شباب الإنسانية، فان فكرة الحرية ستـنتـشر عبر العالم مثل نهر فاض على ضفافه، وكل الوسائل التي يلجأ إليها المستبدون من سجن وإبعاد وحتى قتل، لايمكن لها أن تقيم سدا قادرا على إيقاف تدفقها»[1].

فاضت الحرية السياسية والشخصية التي نادى بها المثقفون لتمتد إلى حرية الفكر والتعبير عنه، وبالنتيجة حرية الصحافة. فأشار شناسي إلى أن لكل إنسان الحق في التعبير عن أفكاره، بل وعد ذلك بمثابة التزام من كل شخص تجاه مجتمعه[2]. وفي السياق نفسه أكد نامق كمال إن لكل إنسان امتيازا في امتلاك أفكار ومعتقدات، وأن يعبر عنها[3]، وإن من واجبه أن يعمل على تنقية أفكاره، وتخليص معتقداته من كل تعصب وخرافة[4].

بأسلوب قوي ومؤثر أسهمت الصحافة في الدفاع عن حرية الرأي، والمطالبة بحرية الصحافة، فجاء ضمن افتتاحيات إحدى الصحف «**إن الناس يعيشون في الجسد الاجتماعي، وهم مثقلون بالكثير من الالتزامات القانونية... فلهم [أيضا] الحق بالتعبير عن آرائهم كجزء من حقوقهم المكتسبة... إذا كان هذا التصريح بحاجة إلى دليل تكفي الإشارة إلى الصحف السياسية للأمم التي تنورت أذهانها بفضل إلزامية التعليم**»[5]. وبطريقة كاريكاتيرية معبرة تناولت صحيفة أخرى موضوع حرية الصحافة من خلال رسم أظهر رجلا مربوط اليدين والقدمين، مع تعليق «الصحافة حرة ضمن الحدود القانونية»[6].

إحتل موضوع حرية الصحافة حيزا كبيرا في كل المناقشات السياسية، وخلال مناقشات البرلمان العثماني لعام 1876 كانت حرية الصحافة مطلبا لمعظم النواب، فـ «أينما

1- Quoted in: Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, P.352.

2- Ibid., P.273.

3- Kemal H. Karpat, The Mass Media, P.261.

4- محسن بهجت شاكر كوبرلي، تاريخ الأدب التركي، كركوك، 1975، ص189.

5- Quoted in: Kemal H. Karpat, The Mass Media, P.258.

6- Ibid., PP.260-261.

كانت الصحافة حرة، كان هناك تقدم» حسبما أعلن أحد النواب، مؤكدا «إن الصحافة يجب أن تكون حرة. كلنا مشدوه بتقدم أمريكا- هذا البلد الجديد. وأولئك الذين يتساءلون عن السبب لا يعرفون إنه متى ما وجد أمريكيان اثنان مع بعضهما تبعتهما مطبعة للنشر وجريدة»[1].

بعين المدرك حدد نامق كمال طبيعة الدور الذي يمكن أن يكون للصحافة الحرة في توعية وإنضاج الرأي العام، فإذا «كون الناس رأيا حول سياسة الدولة، فان ذلك يحدث من خلال الصحافة... وإذا ما أعطي كل شخص تعليم سياسي لمدة سنوات، فان ذلك لن يساعد الرأي العام كما تفعل الصحف»[2]. وعلى الرغم من التراجع الذي تعرضت له الصحافة في العهد الحميدي، فإنها ظلت موردا هاما في تعريف العثمانيين بالأفكار الجديدة، ونقل الأفكار السائدة في العالم الغربي، وإدخالها في صلب الفكر السياسي العثماني.

جنبا إلى جنب مع فكرة الحرية، برزت فكرة الوطنية، وهنا اكتسبت كلمة وطن مدلولا جديدا أيضا، فبعد أن لم يكن معناها يتجاوز الإشارة إلى مكان الولادة[3]، و»وطني حيث تحكم الشريعة»[4]، أخذ المفهوم السياسي الحديث للمفردة، مع بداية القرن التاسع عشر، بالتسرب إلى داخل الدولة العثمانية[5]. وبتأثير توجه الحكومة العثمانية للسياسة المركزية برزت الحاجة لإيجاد نوع من الولاء للدولة والارتباط بها. وهو ما انعكس مبكرا في وثيقة رسمية يعود تاريخها إلى العام 1839 بتأكيدها أهمية إرساء نوع جديد من الارتباط بالدولة والوطن من خلال «معرفة الناس معنى حب الدولة والوطن»[6]، وبوضوح وعملية أكبر حدد المؤرخ والسياسي أحمد جودت أبعاد الموضوع عندما تساءل عن كيفية دفع «قروي مسلم

1- Kemal H. Karpat, The Mass Media, P.264.

2- Ibid., P.267.

3- الدكتور خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوربي، ص97.

4- http:// empires. Ru/ docs/ karpat. doc., Kemal H.Karpat, The Formation of Turkish National and Territorial Identity in The Ottoman State.

5- B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.115.

6- Quoted in:Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.105

للقتال والدفاع عن الوطن في الوقت الذي لا يتعدى مفهوم الوطن بالنسبة إليه محيط قريته»[1].

انعكست هذه الحاجة بسرعة بين كتابات الأدباء والمثقفين العثمانيين الذين وجدوا في خلق الشعور الوطني سبيلا كفيلا بالحفاظ على سلامة الدولة العثمانية ووحدتها، فعملوا على استخدام كلمة وطن بمدلول سياسي جديد امتد ليشمل الدولة العثمانية إجمالا. إذ كتب إبراهيم شناسي عام 1851 «أريد أن أضحي بنفسي في سبيل ديني ودولتي ووطني وملتي»[2]، وخصص جانبا من كتاباته لمناقشة فكرة الوطن[3]. كما ظهرت في خضم حرب القرم، ولأول مرة، مجموعة من القصائد الوطنية[4].

تبقى الوطنية، بالأساس، مسألة إحساس بالانتماء، يحتاج إنماؤه أمورا كثيرة، فلابد، مثلا، من إيجاد ارتباط بين القيم الموروثة والقيم المستحدثة بطريقة تحقق القبول الجماعي للقيم والأفكار الجديدة. للوصول إلى هذه الغاية حاول نامق كمال الاستفادة من المنجزات التاريخية، فمن خلال ست مسرحيات تأريخية مجد بها مآثر الرموز التأريخية الإسلامية والعثمانية، مثل صلاح الدين والسلطانين سليم الأول ومحمد الثاني، مؤولا التاريخ بما يتفق مع ميول وتوجهات موجودة في زمانه «فأضفى على أبطاله مفاهيم سياسية وإجتماعية لاتقبل التصديق قبل الوقت الذي كتب به»[5]. وربما أراد من خلال تركيزه على دور القادة، وإبداء إعجابه بهم حد التقديس، تصوير

1- أحمد جودت، المصدر السابق، ص18؛

B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.338.

2- Quoted in: B.Lewis, The Middle East and the West, P.76

في الترجمة العربية ص116.

3- B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.336.

4- B.Lewis, The Middle East and the West, P.76

في الترجمة العربية ص166.

5- Ercüment Kuran, Ottoman Hstoriography of the Tanzimat Period, “Historians of the Middle East”, Ed. B.Lewis and P.M.Holt, London, 1964, P.425.

ملامـح القيـادي القـادر علـى تحقيق التحـول الاجتماعـي كما تخيلـه، لكن الأهـم من هذا هو سعيه لتعزيز الولاء للدولة العثمانية من خلال مفهوم الوطن[1].

الجانب الأكبر من فلسفة نامق كمال دار حول تعزيز فكرة «الوطن»، وهو في هذا الصدد يعرف الوطن على انه قيمة عليا يدين له كل العثمانيين بالولاء والإخلاص[2]، وحبه هبة إلهية، وشعور طبيعي بسيط فالإنسان يحب وطنه بشعور هو عين الشعور الذي يحب به الرضيع مهده، والطفل ملعبه، والشاب مكانا يرزق فيه، والشيخ ركن فراغه وراحته، والولد والدته، والوالد عياله»[3]. ويرجع هذا الشعور الطبيعي إلى روابط وجدانية تبرره، بل تفرضه أيضا فالإنسان «إنما يحب وطنه لأن حياته، وهي أغلى وأكبر النعم، تبدأ بتنسم هواء هذا الوطن. وإنما يحب الإنسان وطنه لأن نظره، وهو أكرم هبات الطبيعة، يقع أول ما يقع على أرض الوطن. وإنما يحب الإنسان وطنه لأن مادة جسمه جزء من وطنه. وإنما يحب الإنسان وطنه لأنه إذا تلفت حوله رأى في كل ركن من أركانه ذكرى حزينة لعمره الماضي وكأنما قد تجسدت. وإنما يحب الإنسان وطنه لان تلك المقبرة الساكنة لأجداده الذين كانوا سبب وجوده، ومدرج أولاده حين تحتويهم الدنيا، وإنما يحب الإنسان وطنه لما بينه وبين مواطنيه من وحدة اللغة وتبادل المنفعة والألفة والمؤانسة، وما ينبني على ذلك من قرابة القلوب وأخوة الأفكار»[4].

بإصـراره علـى تكـرار عبـارة حـب الوطـن حـاول نامـق كمـال ليـس تقديـم الفكرة فحسـب، وإنمـا غرسـها أيضـا، كما عمد إلـى اسـتثمار كل الرمـوز الممكنة التي من شـأنها

1- Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.265.

2- Kemal H. Karpat, The Formation of Turkish National.

3- نقلا عن: حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، القاهرة، 1951، ص411.

4- نقلا عن: المصدر نفسه؛

Hikmet Dizdaroğlu, Namık Kemal Hayatı Sanatl Eserleri, İstanbul, 1968, PP.45-46

حكمت ديزدار اوغلو، حياة نامق كمال ومؤلفاته الشعرية، اسطنبول، 1968، ص45-46.

تعزيـز الـولاء للامة والدولة والوطـن، مطالبا الجميـع بالتضحية بمصالحهـم الفردية لاجل المجتمـع الأكبـر- الوطـن[1]، فالوطـن هو الـذي «يحمـي للجميـع حقوقهـم وحياتهم... [كمـا] ترعـى الأم الحقيقيـة أبناءهـا»[2]. وبحـب كبيـر لرجلـه المريـض الـذي اضمحلت مكانتـه فـي عيون الكثيـر، بما فيهـم العثمانيون أنفسـهم، مجد نامـق كمال الدولـة العثمانية بقولـه «وإذا الوطـن أحتقـر، فـلا تظـن أن ذلـك يقلـل مـن شـأنه... فـان الجوهـرة لا تفقـد قيمتها لو تهاوت على الأرض»[3].

بصورة معبرة عرض نامق كمال فكرة الموت من أجل الوطن من خلال عدة أعمال، أبرزها مسرحية الوطن أو سلستره (Vatan Yâhut Silistre) التي عرضت لأول مرة عام 1872، ولاقت رواجا كبيرا، وإقبالا واسعا حتى في زمن عبدالحميد رغم حظر هذا العمل، أسوة بغيره من الأعمال ذات الطابع المشابه، معرضين أنفسهم لأقسى العقوبات[4]. إذ أعلن كمال على لسان بطل مسرحيته، المستوحاة من أحداث حرب القرم، «إن الدولة قد أعلنت الحرب، والعدو على الحدود يحاول أن يطأ بقدميه الأرض» وعظام الآباء، والأجداد، والشهداء الذين ضحوا بحياتهم لاجل الوطن، «كيف يمكن لرجل أن يعيش وهو يرى أمه تحت الأقدام. أو أن يعيش وهو يشاهد ولي نعمته تحت أقدام المهانة دون أن يحرك ساكنا» «أنا ذاهب إلى القتال، وقد عقدت العزم على أن أموت» فـ «لماذا خلقت إن لم يكن لاجل الموت في سبيل الوطن»[5].

الوطـن، عنـد نامـق كمـال، روابـط وجدانيـة، بمقـدار مـا هـو أرض جغرافيـة، لكن أرضـه الجغرافيـة ظلت مـن دون حدود واضحـة المعالـم. فباسـتثناء المنطقة الشـمالية التي

1- Kemal H. Karpat, Transformation of Ottoman State, P.265.

2- Quoted in: Ibid., P.266.

3- وحيدالدين بهاء الدين، نامق كمال شاعر الوطنية والحرية، «المعرفة» (مجلة)، دمشق، العددان 13و14، 1961، ص25.

4- Halide Edib, Confiet of East and West in Turkey, P.144.

5- Nâmık Kemâl, Vatan Yâhut Silistre, Hazırlayan Kenan Akyüz, Ankara, 1990

نامق كمال، الوطن او سيلستره، اعداد كنعان اق يوز، انقرة، 1990.

وضع نهر الدانوب حدا لها، ترك نامق كمال الواقع الجغرافي للدولة العثمانية مبهما، ولم تتضح صورته إلا من خلال المناهج الدراسية، ولاسيما التاريخ والجغرافية، التي كان لها إسهامها في تطوير الفكرة الوطنية. فخلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحول استخدام الخرائط إلى شئ أساس في عرض مادة الجغرافية، مما ساعد على تكوين صورة واضحة وصحيحة لدى الطلاب عن بلادهم شملت، على وفق تحديد الكتب المدرسية، الأناضول، البلقان، العراق، سوريا، الحجاز، نجد، اليمن، بنغازي، كريت، قبرص، وطرابلس الغرب، مشيرة إلى أن بعض هذه الأجزاء تعرض لغزو الأعداء، ولابد من استردادها[1]. كما خصصت تلك الكتب جزءا كبيرا من محتواها لتعريف المفاهيم الجديدة، مثل الأرض، الدولة، المجموعات العرقية، الأنظمة السياسية، ديدنها في ذلك «خلق مواطن عثماني مدرك لجذوره الوطنية، والأهم من هذا مدرك لواجباته تجاه الوطن»[2] على وفق المنهج الحميدي. وانطلاقا من النهج نفسه سعت الكتب المدرسية إلى تأكيد أن الوطن هو بمثابة أب وأم للجميع، ومن ثم فمن واجب كل شخص أن يكون ابنا بارا لوطنه، عاملا لأجل رفعته[3].

مع نهاية القرن التاسع عشر تحولت الفكرة الوطنية إلى موضوع أساس في معالجات المثقفين والأدباء، الذين عملوا على بلورة الفكرة وإنضاجها، ووضعوا من خلال مناقشاتهم أساسا للفكر القومي في الدولة العثمانية.

إن أبرز مقومات فكرة الوطن العثماني تحقيق اتحاد كل العثمانيين، بمختلف انتماءاتهم العرقية والمذهبية، ضمن وطن يتساوى فيه الجميع في حقوقهم وواجباتهم. بالنتيجة تفرعت عن فكرة الوطن فكرة المساواة التي دافع عنها مفكرو الدولة العثمانية بحماس، فأعلن سعدالله باشا، ضمن قصيدة له أن:

1- **Kemal H.Karpat, The Formation of Turkish National.**

2- **Ibid.**

3- **Ibid.**

الإنسانية أعطيت نظاما جديدا

عمرو ليس عبدا لزيد، وزيد ليس سيد عمر

حكم واضح ولاشك، فيه ينظم أسس المساواة[1].

وضمن الخط نفسه، أكد نامق كمال مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات لكل أبناء الدولة العثمانية، واصفا إياها، كما حلم بها أن تكون، «المساواة أخذت طريقها، كل فرد يتسابق مع غيره للتفوق في شتى المجالات ومختلف الميادين»[2]، و«ما دام الله خلق الكل سواسية في الحصول على سعادة الدنيا والآخرة»[3]، فالكل متساوون في حقوقهم السياسية التي يعد إقرارها، وضمان العدالة من بين أولى مهام الحكومة[4].

مثل كلمة المساواة لم تكن مفردة العدالة بحد ذاتها جديدة على المجتمع العثماني، لكن أسلوب طرحها حمل مفهوما سياسيا جديدا. فتعدى مفهوم العدالة العمل لصالح الرعايا إلى احترام حقوقهم السياسية[5]، على وفق تصريح أحد كبار مصلحي الدولة العثمانية «لإبقاء الحكومة ضمن حدود العدالة لابد من أمرين، أولهما إن القانون الذي تتصرف الدولة بموجبه يجب أن لا يبقى ضمنيا وخافيا، بل لابد من إعلانه للعالم... والمبدأ الثاني هو الدستور»[6].

حظيت فكرة الدستور باهتمام كبير ضمن البرنامج الإصلاحي لمفكري وساسة الدولة العثمانية، تأثرا بما عاصرهم من سياسة أوربية متجهة نحو تعميق مفهوم البرلمانية،

1- نقلا عن: سليم الصويص المحامي، المصدر السابق، ص29؛

B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.133-134.

2- نقلا عن: محسن بهجت شاكر كوبرلي، المصدر السابق، ص205.

3- المصدر نفسه، ص189-190.

4- Şerıf Mardın, The Genesis of Young Ottoman Thought, P.330.

5- B.Lewis, Islam in History, P.275.

6- Quoted in: Ibid; Mustafa Nihat Özön, Namık Kemal ve İbret Gazetesi, Ankara, 1938, S.97

مصطفى نهاد اوزون، نامق كمال وجريدة عبرت، انقرة، 1938، ص97.

فرأوا في الدستور الحل الأمثل لكل مشاكل الدولة العثمانية، والسبيل الذي من شأنه الارتقاء بواقعها إلى الأفضل، فالأنظمة الدستورية هي التي بنت وأقامت أكثر الكيانات المدنية تطورا وعلمية[1]. في هذا الصدد كتب ضياء باشا:

«أرجو أن تلتفتوا إلى دول القارة الأوربية. هل هناك أي حكومة إستبدادية خلا روسيا؟ أليس حتى روسيا تحاول تدريجيا تقليد الأنظمة الموجودة في الدول الأوربية الأخرى؟ وهل أباطرة فرنسا والنمسا وملوك إيطاليا وبروسيا وملكة بريطانيا أقل قوة وعظمة من أباطرة روسيا؟ وبما أن تيار الرأي العام الأوربي يسير بهذا الاتجاه، وما دامت الدولة العلية تمثل دولة أوربية، فسيكون من المستحيل علينا الاستمرار إذا ما عزلنا أنفسنا عن العالم (الغربي)»[2].

وضمن الأنظمة الأوربية حاول نامق كمال إيجاد الشكل الذي يمكن تطبيقه في الدولة العثمانية، ورغم تأثره، أسوة بغيره من المثقفين العثمانيين، بالأنموذج الفرنسي فكرا وثقافة وسياسية[3]، وجد إن التجربة الدستورية الفرنسية لا تعطي القدر الكافي من الحرية، ومن وجهة نظره إن العثمانيين أهل لأن «يُحكموا على وفق دستور أكثر ليبرالية من الدستور الفرنسي»[4]. بالمقابل أبدى إعجابه بكل ما خص النظام السياسي البريطاني، لاسيما البرلمان، فبريطانيا تمثل «مهد أكثر المبادئ السياسية التي شهدها العالم... والتجسيد القوي

1- **M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.82;**
زين ن.زين، التمثيل الشعبي وقوانين الانتخابات في المقاطعات العربية من الامبراطورية العثمانية، «الأبحاث»(مجلة)، بيروت، السنة 14، الجزء 2، أذار 1961، ص105.

2- **Quoted in: B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.139-140; M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.28-29.**

3- حول التأثير الفرنسي بالانتليجينسيا العثمانية يراجع: حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، ص374-375؛
Kemal H.Karpat, Social Themes in Contemporary Turkish Literature, Part I, “Middle East Journal”, Washington, Vol.14, 1960, P.33; Halide Edib, Conflico of East and West in Turkey, PP.50-51.

4- **B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.145.**

لفعالية الرأي العام الذي لا يقهر في وجه السلطة»[1]. على وفق رأيه فأن هذا النظام السياسي هو السبب في كل تقدم حققته بريطانيا حتى غدت «أنموذجا للعالم ، دون أي مبالغة»، وهو الكفيل بإنقاذ الدولة العثمانية من الهلاك[2]. وبتفاؤل كبير حيال إمكانية تنفيذ النظام الدستوري في الدولة العثمانية أشار إلى ان «أوربا احتاجت قرنين من الزمان للوصول إلى هذه الحالة، وبينما هم أوجدوا بأنفسهم أسباب نهضتهم، وجدناها نحن تامة حاضرة بين أيدينا، فإذا ما شمرنا عن ساعد الجد، فهل هناك من ريب في أننا واصلون إلى درجة من الرقي تضارع أسمى ما وصلت إليه بلاد العالم المتحضر؟ وحتى لو احتجنا لاجل ذلك قرنين من الزمان، وهل القرنان إلا كلمح البصر في عمر الجماعات»[3].

في تحليل الحكومة الدستورية، وأصل الحكومات، والشكل الذي ينبغي لها أن تكون عليه أشار ضياء باشا إلى أن نشوء المجتمعات السياسية كان نتيجة عقد اختياري بين مجموعة من الناس، وبسبب الطموح والطمع الفكري لدى الإنسان، وميله للسيطرة، ظهرت الخلافات والنزاعات، وصار من الضروري وجود من يتولى إدارة شؤونهم، فاختاروا من له من الكفاءات ما يؤهله لأداء هذه المهمة لقاء أجور يتولى المجتمع تقديمها له، وإثر اتساع المجتمعات السياسية، وتنوع احتياجاتها، ازدادت مهام الشخص المسؤول وصلاحياته، مما أضفى عليه أهمية واحتراما أكبر، وصار يعرف ملكا أو باديشاه. ومع تقادم الزمن نسيت هذه الأسس، وانتشر الإعتقاد بأن الملك هو السيد، والشعب خدم له، خلافا لحقيقة الأمر، ولم يلبث أن أخذ الملك باستخدام السلطات التي أخذها من الشعب ضد الشعب نفسه، وتحول إلى مستبد استدعى التخلص منه تحركا أخذ أشكالا مختلفة تراوحت شدتها بين تطور سلمي وحرب ذات طابع قومي[4].

1- Ibid.

2- Ibid.; Hilmi Ziya Ülken, Türkiyede Çağdaş Düşünce Tarihi, I, İssanbul, 1966, S.140

حلمي ضياء اولكم، تاريخ الفكر المعاصر في تركيا، الجزء الأول، اسطنبول، 1966، ص140.

3- Quoted in: Mustafa Nihat Özön, Namık Kemal ve İbret Gazetesi, S.187;

حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، ص412.

4- Please look at: Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, PP.341-346.

بعمق أكبر عالج نامق كمال الموضوع، وبدأ، مثل ضياء باشا، من فكرة إن تكون المجتمعات السياسية كان نتيجة لاقتناع الناس بحاجتهم إليها لحماية أنفسهم من أذى بعضهم البعض، أي إن وجود الدولة في الوضع الطبيعي إعتمد على رضا مواطنيها، الذين منحتهم الطبيعة حقوقا ثابتة تتركز مهمة الدولة في الحفاظ عليها من خلال تزويدها بالسلطات الضرورية اللازمة لتحقيق تلك الغاية. أما حق السيادة فيعود للجميع، ولا توجد سيادة خارجة عن الناس، ولا إرادة تعلو إرادتهم. وبحكم عدم إمكانية ممارسة حق السيادة من الجميع حتمت الضرورة تفويض مجموعة تنوب عن البقية في تولي أمور الحكم، هذا التفويض يمكن أن يكون بطرائق مختلفة، وأفضل أشكال الحكومة هي الأقل تهديدا لحرية الفرد[1]. ويضيف مؤكدا أن الحفاظ على حرية الفرد يقتضي ضمان حقوقه الشخصية (Hukuk-u Şahsiye)، وحقوقه السياسية (Hukuk-u Siyasiye)؛ تأمين الأولى يتم من خلال تأسيس المحاكم المختصة والنزيهة، فيما يعتمد ضمان الثانية على فصل السلطات، وتأسيس حكومة تمثيلية[2].

إن تحليلات نامق كمال تُظهر تأثرا كبيرا بنظرية العقد الإجتماعي[3]، وتقدم دليلا ملموسا على عمق تأثر المفكرين العثمانيين بالفكر الغربي. لكن الأهم من هذا إن أسلوب

1- Please look at: Ibid., PP.290-296; Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, PP.210-211; http:// www. Gencturkler. 8m. com/ TURKEY/ HISTORY/ deringi. Html, Selim Deringil, The Ottoman Origins of Kemalist Nationalism: Namik Kemal to Mustafa Kemal, "European History Quarterly", 1993, PP.165-191.

2- Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, PP.308-309.

3- نظرية العقد الإجتماعي (Social Contract Theory) من بين أشهر النظريات الإجتماعية والسياسية، على وفق هذه النظرية فأن نشوء الدولة كان نتيجة إتفاق مقصود وإختياري بين الناس البدائيين خرجوا بموجبه من حالتهم الطبيعية. ولم يتفق دعاة النظرية في وصف الحالة الطبيعية، فهي أما مثالية أو غير ملائمة ولايمكن إحتمالها، وفي كلتا الحالتين هجرها الناس، وأقاموا مجتمعا سياسيا عن طريق التعاقد، ونتيجة للعقد فقد كل إنسان حريته الطبيعية جزئيا أو كليا، وحصل مكانها على الأمن وحماية الدولة التي كفلها القانون السياسي. شهدت هذه النظرية رواجا واسعا في أوربا ابان القرنين السابع عشر والثامن عشر، إذ رأى فيها الفلاسفة والسياسيون، على السواء، أفضل صورة فلسفية وقانونية يستطيعون من خلالها هدم نظرية الحق الالهي في الحكم من خلال إيجاد أصل أرضي للسلطة الحكومية، وجعلها شأنا خالصا من شؤون العالم الدنيوي. يراجع: جان توشار واخرون، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة علي مقلد، بيروت، 1987، ص225-226، 295-298، 335-336.

طرحه، جملة وتفصيلا، كان جديدا على الفكر العثماني، جديدا في تقديمه نظرية تعطي الأولوية للدستور والحرية، وفي تأكيده سيادة الشعب وضرورة فصل السلطات، وفي تبيانه لوجود حقوق طبيعية للإنسان خارج الأطر الدينية. على الرغم من ذلك فأن أفكار نامق كمال لم تخلُ من بعض الارتباك. فإلى جانب تأكيده النظام الدستوري، وإن «العدالة لا يمكن حمايتها إلا من خلال قوة الأغلبية»[1]، أشار إلى أن «هذا لا يعني إن العدالة موجودة فيما تفضله الأغلبية، أو ما تراه مفيدا» «فالقانون غير العادل، حتى لو حظيّ بموافقة جميع الناس، يبقى غير عادل وغير قانوني، بل انه لا يعدو أن يكون إستبدادا»[2].

الارتباك الفكري أخذ شكلا أكثر عمقا ووضوحا عند بقية المفكرين العثمانيين. فعلى الرغم من التركيز على فكرة الدستور، لم يكن لمفكري الدولة العثمانية رؤية واضحة، أو حتى موحدة، حول الفكرة الدستورية[3]، بل إن عدد التصورات عن هذه الفكرة ربما ساوى عدد معتنقيها[4]، وتجاوز الارتباك النظرية إلى سبيل تطبيقها في الدولة العثمانية، وهو ما يبدو واضحا من خلال ما أشار إليه نوري بيك، أحد أبرز قادة العثمانيين الجدد، بقوله:

> «عندما تأملت واقع البلاد أحسست بشك كبير حول إمكانية تحقيق أهدافنا التي نسعى لاجلها، وعرفت انه ليس من السهل إحداث التغيير بأماني بضعة رجال، وإدراكا مني بأنه بدون التعليم يستحيل إيجاد الحقيقة، بدأت أعتبر نفسي تلميذا ينبغي عليه استثمار فرصة الذهاب إلى باريس للدراسة. محمد مقتنع بأن التأسيس الحقيقي للنظام الليبرالي في بلادنا لن يكون ممكنا إلا من خلال دعم الحركة القومية. في حين آمن ضياء باشا بأن إدراك أهدافنا يعتمد على إكتساب القوة باستمالة السلطان إلينا. واعتقد اغا بأن الوصول إلى مواقع مؤثرة في التأييد لأهدافنا يستلزم تحقيق

1- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.211.

2- Ibid., 212.

3- Justin McCarthy, The Ottoman Peoples and the end of Empire, P.24.

4- Nermin Menemencioğlu, Namik Kemal Abroad. A Centenary, "Middle East Studies", London, Vol..4, October 1967, P.34.

تسوية مع الحكومة. بينما كان [نامق] كمال مقتنعا بأن الأمة العثمانية مخلصة لحكامها العثمانيين، ولن يكون بوسعنا عمل أي شيء ما لم يرده الباديشاه فعلا... ولذا كان متفقا مع الرأي القائل بأنه لا توجد وسيلة سوى... أن يُجلب إلى العرش باديشاه مصمم على فرض الإصلاح المرام تحقيقه. رفعت يصر على إن تنفيذ أي محاولة يجب أن يكون على وفق القانون، بينما أدرك رشاد بأننا في معضلة غير قابلة للحل، ومن دون أن يقدم أي نصح، وجد إن أكثر مجالات النشاط فائدة إثراء معرفته من خلال دراسة كل ما هو ممكن. أما المجنون سعاوي فمعروف لنا جميعا بطباعه السيئة وأهدافه الأنانية، وهو ما دفعنا إلى معاملته بحذر لمنعه من أي عمل من شأنه أن يترك إنطباعا سيئا ضدنا جميعا»[1].

إن قراءة لما سبق تظهر إن جانبا من حالة اللاوضوح في التعامل مع فكرة الدستور تعود إلى إدراك النخبة العثمانية لحقيقة واقع المجتمع العثماني الذي لم يصل لمرحلة تؤهله إلى النظام الدستوري من جهة، ومن جهة ثانية فأن الهدف الأساس وراء رفع شعار الدستور كان تقليص هيمنة السلطان، وإقامة تشريع متوازن، أكثر منه تطبيقا لنظم ديمقراطية. وهو ما يتضح من خلال أول دستور وجد طريقه للتطبيق في الدولة العثمانية، فمع إن دستور 1876 أُخذ بشكل مباشر من الدساتير الغربية، لاسيما الفرنسي والبلجيكي، حذف واضعو الدستور فقرة الحق في تأسيس أحزاب سياسية أو التجمع السلمي، كما إن الوزارات، بموجب القانون الدستوري، لم تكن مسؤولة أمام البرلمان، ومن ثم فأن الدستور لم يضع أساسا للنظام البرلماني[2]. وتضمن الدستور نقاط ضعف أخرى يسرت للسلطان عبدالحميد الثاني تعليقه، وعلى الرغم من استمرار العمل به من الناحية الشكلية فأن مجرد ذكر كلمة دستور كان يُعد جريمة عقوبتها النفي، لا بل تحول تعليق لوحة فنية تمثل إجتماع البرلمان الأوربي عند بوابة أحد الفنادق إلى حدث جلل إستلزم إصدار مرسوم سلطاني بإزالة اللوحة، وإجراء

1- .Quoted in: Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, PP.207-208.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.28.

تحقيق مع مالك الفندق[1]. وارتفعت زمن عبد الحميد أصوات معارضة للحكم الدستوري، مؤكدا إن البرلمان يشكل خطرا في دولة متعددة الديانات والقوميات مثل الدولة العثمانية. فمثلا كتب أحمد مدحت[2]:

«في حالة السماح للبرلمان بإصدار القوانين التي، إذا تم تبنيها، قد تتعدى قدرة الشعب وضرورياته، ونتيجة لعدم إمكانية تنفيذ هذه القوانين فأن السلطة التنفيذية للدولة قد تجد نفسها مضطرة لإلغائها. زيادة على ذلك فأن البرلمانات تنتهك الأمن العام لأنها تتغذى على الصراع بين مختلف المذاهب الدينية... وفي حالة بلاد كبلادنا التي تتكون من مجموعات عرقية متباينة، فان البرلمان لن يكون له صلة بالإسلام، وإن المشاكل التي قد يسببها هي من الوضوح حتى للعقل البسيط»[3].

كانت هناك أفكار مماثلة لهذا التوجه ضمن إطار الدولة العثمانية، وفي المقابل ارتفع صوت على النقيض منه، ولاسيما في المنفى، بعيدا عن ضغوط الباب العالي، حيث وجد المثقف المجال واسعا للكتابة بحمية وحماس عاليين، مقدما كما من الأفكار التقويضية

1- Ibid., PP.30-31.

2- أحمد مدحت (1844-1912) صحفي وروائي ومؤرخ، بدأ نشاطه الصحفي عام 1871، ونفي عام 1872 إثر إتهامه بموالاته لجمعية العثمانيين الجدد، ولم يعد إلا سنة 1876، بعد عزل السلطان عبدالعزيز. نجح في نيل ثقة السلطان عبدالحميد فعُين مديرا للمجلة الرسمية، ومطابع الدولة، وهو ما أثار نقمة الاتحاديين، فأهمل بعد وصولهم للسلطة، وإنصرف إلى التأليف والتدريس. أبرز مآثره= إصدار جريدة «ترجمان الحقيقة» عام 1878، بالاضافة إلى نشر ما يزيد على 150 كتابا. وقد ساهمت مؤلفاته في خلق ذوق جديد، وفي تعريف القراء بالثقافة الأوربية بجوانبها المختلفة وباسلوب جذاب إستهوى القراء، وأثار إهتمامهم. يراجع: «أحمد مدحت»، «الهلال»، الجزء السادس، السنة الحادية والعشرون، مارس 1913، ص355-357؛

C.Kuotret, Ahmet Mithat, Ankara, 1962

س. كوترات، أحمد مدحت، انقرة، 1962؛

B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.189-190; Kerimk K.Key, Trends in Modern Turkish Literature, "The Muslim World", NewYork, Vol. XLVII, April 1957, P.321.

3- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.31.

الرامية بشكل خاص إلى لبرلة نظام الحكم والمؤسسات[1]، ورأى كلا الطرفين في الصحافة المجال الأرحب لعرض أفكارهم، لاسيما وإنها شهدت اتساعا كبيرا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر عددا وتوزيعا. إذ وصل معدل توزيع بعض الصحف، خلال العقد السابع من القرن التاسع عشر، إلى أربع وعشرين ألف نسخة[2]، وارتفع الرقم خلال الثامن منه إلى ثلاثين ألف نسخة[3]. وعلى الرغم من تراجع الصحافة خلال عهد عبدالحميد الثاني بسبب الرقابة، ظل معدل التوزيع مرتفعا، فبلغ للثلاث صحف الرئيسة ثلاثين ألف نسخة[4]، وهو رقم له ثقله قياسا بزمانه ومكانه، ويتعزز هذا الثقل إذا ما عرفنا إن النسخة الواحدة كانت تقرأ بصوت مرتفع للأشخاص الذين لايعرفون القراءة[5].

هذا التوزيع الواسع للصحافة أسهم في تحولها إلى أداة فعالة في هدم قلاع الأفكار المهترئة في المجتمع العثماني، وفتح العقول أمام أفكار جديدة لم يسبق للدولة العثمانية عهد بها، وجاءت أسماء الصحف معبرة عن ذلك الوضع وعن تلك الأفكار، فكان من بين أسمائها: «تصوير الأفكار» (Tasvir-i Efkâr)، «ترجمان الأفكـار» (Tercüman-i Efkâr)، «مخبر» (Muhbir)، «حرية» (Hürriyet)، «عبرة» (Ibret)، «إتحاد» (Ittihad)، «إنقلاب» (Inkilâb)، «البصيرة» (Basiret)، «ترقي» (Terakki)، «علوم» (Ulum)، «خيال» (Hayal)، «ترجمان الحقيقة» (Tercüman-i Hıkikat)، «مرآة» (Mirat)، «وطن» (Vatan)، «مرآة الوطن» (Ayniyy-i Vatan)، «صباح» (Sabah)، «إقدام» (Ikdam)، «تقويم التجارة» (Takvim-i Ticaret)[6].

1- بول دومون، المصدر السابق، ص75.

2- Kemal H.Karpat, The Mass Media, P.259.

3- Ibid., P.262.

4- Turgut Özal, Op.Cit.

5- Ahmet Emmin, The Tukish Press, P.450.

6- Please look at: Ahmed Emin, The Turkish Press, PP.452-455; S.J.Shaw and E. k. Shaw, Op.Cit., PP.128-129; Kemal H.Karpat, The Mass Meadia, PP.259-265; B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.146-150.

كرسـت الصحيفـة الأخيرة نفسـها بالكامل لمعالجـة الموضوعـات الاقتصادية التي شـغل تناولهـا حيـزا كبيـرا مـن صحافـة الدولـة العثمانيـة مـا بعـد منتصـف القـرن التاسـع عشـر، فبـدأت منـذ مرحلـة مبكـرة بمعالجـة مختلـف الجوانـب الاقتصاديـة مـن تجـارة وصناعـة وزراعـة ونظـام ضريبـي ووضع مالـي[1]، وظهـرت علـى صفحاتهـا موضوعات إقتصاديـة كثيـرة حديثة عهد بالدولـة العثمانية، مثـل: «أهمية الاقتصـاد»، «لا ضرائب بدون تمثيـل»، «ضـرورة العمـل»، «وحـدة النظريـة والتطبيـق»، «قيمة العمـل وإنتقـاد الخمول»، «علم ثروة الأمم»[2].

تطورت الأفكار الاقتصادية في الدولة العثمانية بشكل سريع تناسب طرديا مع حجم التغيرات الاقتصادية فيها، وتبنى العديد من مثقفيها مبدأ الحرية الاقتصادية، مؤمنين بأنه السبيل الأمثل للنهوض بالواقع الاقتصادي للدولة[3]. فأكد شناسي على مبدأ حرية المبادرة، مشيرا إلى انه ما دام هناك قوانين تسير الطبيعة، فلابد من وجود قوانين تتحكم بالاقتصاد، مؤكدا على أهمية الملكية الخاصة وتكوين الرأسمال[4]. وكتب اوهانس باشا السقزي (Sakızlı Ohannes Paşa)، مدرس الاقتصاد في المدرسة السلطانية، عدة أعمال دافع فيها عن تطبيق مبدأ الحرية الاقتصادية في الدولة العثمانية، منها كتابه «مبادئ علم ثروة الأمم» (Mebadi-i Ilm-i Servet-i Milel)، نقل من خلاله طروحات ادم سميث (Adam Smith) في كتاب ثروة الأمم (Wealth of Nations)، وشرح مفاهيم الإنتاج والتداول وإستهلاك السلع، كما عبر عن إيمانه بضرورة المنافسة الحرة لتقدم الدولة العثمانية، ورفضه لممارسة الدولة أي شكل من أشكال الاحتكار، أو السيطرة على النشاط الاقتصادي، علاوة على إنتقاده النظام الاشتراكي بوصفه مناقضا للطبيعة البشرية[5].

1- **Kemal H.Karpat, The Mass Media, P.259.**

2- **Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, PP.239-240, 245.**

3- **Mehmet Seyitdanlioglu, Op.Cit.**

4- **Ibid.**

5- **Ibid.**

تحول ضغط الواقع الاقتصادي بين الواقع والطموح إلى محور أساس في معالجات المثقفين العثمانيين. فجاء في جريدة «حريت»: «إن وطننا في موقع جغرافي يجعله أهم نقطة بين ثلاث قارات، وكان قديما للعالم كمخزن الميرة، ومما يؤسف له جد الأسف أن تكون أرضا طيبة زكية تخرج أحسن النبات وأوفر المحصول، ولا نجد اليوم لقمة العيش نتبلغ بها»[1].

وحذر ضياء باشا من التهديد الذي يتعرض له مستقبل الدولة العثمانية بسبب الإمتيازات الأجنبية، والتعسفات الاقتصادية والمالية للأجانب، بما في ذلك حق حيازة الملكية، وتدخل الأوربيين والموظفين الفاسدين والحكام المحليين في شؤون البلاد. وأشار إلى أن تغير اللباس التقليدي تسبب في دمار الصناعة المحلية، وأدى إنخفاض الطلب على الملابس ذات الصنع المحلي إلى توجه أعداد متزايدة من العاطلين للبحث عن أي عمل، حتى لو كان غير إنتاجي[2].

ضمن الخط نفسه كتب نامق كمال «سابقا كنا مكتفين ذاتيا بزراعتنا وصناعتنا، أنوال النسيج لدينا تغطي كل حاجتنا. إلا انه في غضون عشرين أو ثلاثين سنة إنهار كل ذلك تقريبا. وما من شك في أن السبب يكمن في حرية التجارة الممنوحة للأجانب من خلال المعاهدات سيئة الصيت»[3]. وإنتقد نامق كمال الواقع الاقتصادي إجمالا، مع التركيز على ظواهر محددة بعينها، أبرزها سيطرة العناصر المسيحية على النشاط الاقتصادي، والوضع المحابي الذي منحته أياه الأمتيازات الأجنبية[4]، وألح على أهمية إيجاد شئ من التوازن، إن لم يكن التفضيل، لصالح المسلمين، من خلال إنشاء شركات وبنوك إسلامية، ودعم وحماية التجار المسلمين[5]، كما طالب بحماية ممتلكات الدولة، وإعادة تنظيم الحياة الاقتصادية بشكل

1- نقلا عن: حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، ص410.

2- Kemal H.Karpat, Transformation of theOttoman State, P.263

3- Nermin Menemencioğlu, Op.Cit., P.45.

4- Şerif Mardin, Genesis of Young Ottoman Thought, PP.36-37.

5- Kemal H.Karpat, Transformation of the Ottoman State, P.264.

عقلاني، وإصدار قوانين تنظيمية عاجلة[1]، معللا كثيرا من مشاكل الدولة الاقتصادية بضعف الهيكلية الإدارية، زيادة على السياسية «**فلماذا نعزو ضعفنا الداخلي للتدخل الأجنبي؟ هل وضعت روسيا قوانيننا؟ هل نهبت بروسيا خزائننا؟ هل منعتنا فرنسا من إنشاء المدارس؟ كلا كلا، إن هذا الظلم، وهذه الممارسات الشريرة هي بسبب النشاطات المعروفة للباب العالي**»[2]. وبأسلوب غاية في الحدة إنتقد الباب العالي، وشكك بإمكاناته في مناسبات كثيرة، فمثلا كتب إثر بدء المحادثات لتجديد الاتفاقية التجارية مع بريطانيا عام **1892**:

> «**أتيحت أمامنا مؤخرا إمكانية لتجديد الاتفاقية مع إنكلترا، ولكن كيف؟... السؤال هو هل يتمتع الباب العالي بقدرات دبلوماسية تؤهله لأن يثبت للقوى الأوربية الشروط الجائرة المفروضة بموجب الامتيازات الأجنبية، وجعلهم يدركون أحقية موقفنا**»[3].

تحول إنتقاد الإدارة إلى موجة عامة، وظهر توجه إستهدف إعادة دراسة جوانب الإدارة الكفوءة، والسبل اللازمة لديمومة إزدهار الدولة العثمانية من حيث الصلة بالعلم، فأمسى تولي إدارة أمور الدولة من أشخاص يمتلكون القدرة العلمية مطلبا رئيسا للانتليجنسيا العثمانية:

> «**إن الحاكمين في هذه البلاد يجب أن يكونوا على دراية تامة بمختلف المواضيع، خاصة الإدارة الحكومية والعلاقات الدولية. في عصرنا هذا يجب أن لاتقع إدارة شؤون الحكومة بأيدي رجال جهلاء كما حصل في السابق**»[4].

وبأسلوب ساخر إنتقد ضياء باشا الوضع المتخلف للمهيمنين على إدارة الدولة العثمانية، في الوقت الذي أضحى فيه عارفوها ومثقفوها مجرد تعساء، كأنما ما وجدوا إلا

1- Ibid.; Nermin Menemencioğlu, Op.Cit., P.45.

2- Quoted in: Nermin Menemencioğlu, Op.Cit., P.45.

3- Halil İnalcık, Turkey Between Europe and The Middle East, "Perceptions", Turkey, Vol.III, March- May 1998, P.14.

4- Quoted in:M.Şükrü Hanioğlu, Young Turks in Opposition, P.11.

«لمقاساة الاضطهاد على أيدي الجهلاء»[1]. وإمتدت الإنتقادات اللاذعة، حد المرارة، إلى كبار المسؤولين، بما في ذلك الصدور العظام[2].

من بين أبرز ما نادت به الانتليجنسيا العثمانية في طروحاتها عن الوضع الإداري، ضرورة إستبدال النظام الإداري المتوارث ببيروقراطية جديدة ومتعلمة تتلاءم ومتطلبات الواقع الجديد للدولة العثمانية. تحولت هذه النقطة إلى هدف أساس ابان عهد السلطان عبدالحميد الثاني الذي شهد إعادة تأسيس مفهوم الولاء للسلطان كمبدأ جوهري في الإدارة العثمانية، ليصبح هذا المبدأ «معتقدا وحيدا للدولة» في ظل «قائد أوحد»[3]. وغدا الولاء، لا الكفاءة، معيار تعيين أي شخص، ومبرر بقائه في منصبه، كبر هذا المنصب أو صغر[4]، وهو ما عارضته الانتليجنسيا العثمانية، ورفضته بقوة، مطالبة بأن يتم منح مناصب ووظائف الدولة كافة على وفق الاستحقاق، وإنتقدوا مفهوم الولاء للسلطان بكل الأساليب، فبين جد ما أريد به إلا إستهزاءا وسخرية عكست مكنونا جادا كتبت صحيفة «اسطنبول» في عددها الصادر في 15 أيلول 1899:

«كما هو معروف في بلادنا إن أولويات التعيين هو الولاء لا الاستحقاق، وإذا ما رفض أي شخص {مبدأ الولاء للفرد} فمن المستحيل عليه أن ينال منصبا حتى لو كان بنفس مؤهلات رشيد باشا»[5].

في ظروف كهذه، وبتأثير ملامح الحكم الحميدي، بدا طبيعيا أن يطال النقد، لدرجة الهجاء، قمة السلطة. فعلى الرغم من نظام الرقابة والجاسوسية، بل وربما بسببها، كتب

1- Quoted in: Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P.140.

2- مثالا على ذلك قصيدة «ظفرنامة» (Zafernâme) لضياء باشا، التي هجا بها الصدر الأعظم عالي باشا، باسلوب ساخر مدحا ما أريد به إلا ذما. للاطلاع على نص القصيدة يراجع:
E.J.W.Gibb, Op.Cit., PP.96-111; Önder Göçgün, Zıya Paşanın. Hayatı Eserleri Edebi Şahsiyeti ve Bütün Şiirleri, Ankara, 1987, S.333-349
اوندر جوكجون، ضياء باشا. حياته آثاره شخصيته الأدبية وجميع أشعاره، أنقرة، 1987، ص333-349.

3- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.23.

4- السيد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب 1840-1909، القاهرة، 1970، ص57.

5- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.26.

توفيق فكرت[1] (1867-1915) قصيدة باسم «الضباب» وصف بها اسطنبول في صباح غطتها أكفان الضباب، فشاهد تنافر الأضداد وصراع الخير والشر، وأراد من خلال تشبيهه أن يعكس هول ظلم عبدالحميد وفساد سياسته[2]. وبصراحة أكبر، وثورية أقوى كتب ضمن قصيدة ثانية:

جابهنا ألوان الباطل، فهل هذا قانون..؟!

وفي أغوار البؤس تردينا، فهل هذه دولة..؟!

- - - - - - - -

إنتشلوا الإنسانية من وطأة الأقدام الثقيلة..البليدة

إنسفوا معاقل الدناءة، وحطموهـا..

ولئن كان للظالم مدافع وقلاع وحصون،

فان للحق وجها صارما لا يرد، ولا يخذل..[3]

وبعنـف أقـوى كتـب أديـب أخـر كتابـا أسـماه «دجـال»، وعـرف عنـوان كتابـه بقولـه «إذا تسـاوى فـي الحـروف دجـال وجـلاد، فمـا أدري آيكمـا أظلـم للعبـاد، أي بـأس يامليكـي إذا فاخرتـه وفاضلتـه فأنـت قبلـه هـذا الملـك خربتـه»[4]. ووجـه خطابـه

1- ولد في اسطنبول من اب وأم تركيين، تخرج من ثانوية غلطة سراي عام 1888، إنخرط في سلك الإدارة والوظيفة، وتقلد مناصب عديدة، عمل في المجال الصحفي فترة طويلة، وتولى رئاسة تحرير «ثروة فنون» خلال السنوات 1895-1901.للتفاصيل يراجع: وحيد بهاءالدين، أعلام من الأدب التركي، بغداد، 1965، ص39-48؛

Ahmet Hamdi Tanpinar, Edebiyat Üzerine Makaleler, İstanbul, 1969, S.280-290

أحمد حمدي تانبار، مقالات بشأن الأدب، اسطنبول، 1969، ص280-290.

2- للاطلاع على نص القصيدة يراجع: محسن بهجت شاكر كوبرلي، المصدر السابق، ص218-219.

3- نقلا عن: وحيد بهاءالدين، أعلام من الأدب التركي، ص43.

4- الدكتور حسين مجيب المصري، في الأدب العربي والتركي. دراسة في الأدب الاسلامي المقارن، القاهرة، 1962، ص246.

للسلطان قائلا «إستخرج صورتك ووزع على الولايات آلافا مؤلفة، فلا أقل من أن يبصق الناس عليها»[1].

كثرت الكتابات التي إنتقدت السلطان عبدالحميد، شخصا وسياسة، خصوصا بعيدا عن سلطته وإرهابه خارج الدولة العثمانية، مطلقة عليه مختلف النعوت والأوصاف[2]، وبالمقابل ظهر كتاب تولوا الدفاع عنه وتبرئة ساحته، برز بينهم أحمد مدحت من خلال كتابته لسلسلة من المقالات بينها مقال بعنوان «الإستبداد» حاول الكاتب من خلاله التمييز بين الأوتوقراطية والإستبداد، وأشار إلى أن الإستبداد مرادف لحكم اللاقانون، ومن ثم فان لجوء الحاكم للاستبداد أمر غير عقلاني، ومصير الحاكم الاستبدادي هو نفس مصير قادة الثورة الفرنسية ممن حاولوا التلاعب بالقوانين سعيا وراء غايات شخصية[3]. وهناك مقال آخر بعنوان «الحرية القانونية» عرف فيه الكاتب القانون على أنه تمثيل للعادات العامة، وإن الحاكم الذي يطبقها هو حاكم عادل، والذين يطيعونه هم أحرار، هذا النظام غير قابل للاستبداد، إلا من خلال سوء إستخدام مجموعة بيروقراطية أنانية للحريات من اجل مكاسب خاصة. وفي هذا السياق، وبعد نقاش طويل وعميق، وصفت الحكومة في عهد عبد الحميد بانها حكومة غير دستورية، لكنها حكومة عادلة[4].

هذه الكتابات، على الرغم من طبيعة هدفها، أسهمت من خلال مناقشاتها، والمواضيع التي أثارتها، والمفردات التي إستخدمتها، في الترويج للأفكار الجديدة، وصبت بشكل أو بآخر في بلورة تلك الأفكار وتعريف المجتمع العثماني بها.

بحكم تغير نوعية الأفكار السائدة، وولوج المثقفين العثمانيين آفاقا فكرية جديدة، وإستخدام تعابير وصياغات حديثة، ظهرت الحاجة إلى تعديل اللغة وتطويرها،

1- المصدر نفسه، ص247.

2- يراجع مثلا: «اميد» (جريدة)، مصر، 1سبتمبر1900.

3- M.Şükrü Hanioglu, The Young Turks in Opposition, P.27.

4- Ibid.

وإلـى تبسـيطها أيضا. فعلاوة علـى حتمية إدخال مفـردات جديدة، وضرورة تبسـيط قواعد اللغـة[1]، أدرك عـدد مـن المثقفيـن الفـارق الكبيـر بيـن لغـة الكتابـة ولغة الـكلام، وتحول الأولـى، نتيجـة تأثرهـا بـالأدب الفارسـي والعربـي وكثـرة المحسـنات البديعيـة وطغيـان الصناعـة اللفظيـة، إلـى لغـة للخاصـة والدواويـن، حتـى غـدت غيـر مفهومـة إلا لـذوي مسـتوى ثقافـي عـال[2]، وبـدأ اتجـاه للكتابة بلغـة سـهلة ومفهومة، بـرز بيـن رواده إبراهيم شناسـي وتبعه عـدد كبير من الأدبـاء والكتـاب الذين إنتقدوا الأسـلوب اللغـوي المتبع[3]، ورأى فيـه بعضهـم سـببا لإنغمـاس الشـعب فـي الجهـل، وعـده آخـرون أسـلوبا مهينـا ومشـجعا علـى الخنـوع[4]. وكان ضيـاء باشـا أشـد مـن هاجـم اللغـة العثمانيـة القديمـة، وإنتقدهـا بوصفهـا «أداة للزمـرة الحاكمـة»[5]، وأوضـح إن إزدواجيـة اللغـة تجعـل الناس جاهلـة للقوانيـن رغمـا عنهـا، وتعطـي الـولاة، نتيجـة هـذا الجهـل، فرصـة للبطـش والإرهـاب[6]، ووصـف الأدب العثماني بأنـه «مصطنع وغريب، ومجـرد تقليد عن الأصل العربي والفارسي»[7]، مطالبا، لهذا السبب، بتبني لغة عامة الشعب التركي:

1- حول هذا الموضوع ينظر: الدكتور نوري يوجه، اللغة التركية العثمانية، «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الثاني، استانبول، 1999، ص15-16؛

D. Kshner, Op.Cit., PP.58-61.

2- الدكتور إبراهيم الداقوقي، الأدب التركي المعاصر، سلسلة الدراسات التركية، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1984، ص71-73؛ «الاقتصاد التركي تطور العلاقات الاقتصادية التركية»، سلسلة الدراسات التركية، الجامعة المستنصرية، بغداد، ص758.

3- الدكتور هدايت كمال بدري، المصدر السابق، ص79؛ الدكتور فيليب حتي، موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة الدكتور أنيس فريحة، بيروت، 1965، ص251.

4- Şerif Mardin, Some Notes on An Early Phase in the Modernization of Communications in Turkey, "Comparative Studies in Society and History", U.S.A, Vol.III, April 1961, P.268.

5- Ibid.

6- «الاقتصاد التركي»، ص758.

7- المصدر نفسه؛ الدكتور نوري يوجة، المصدر السابق، ص17.

«الذين يبتغون اللغة العربية فليذهبوا إلى بلاد العرب، والذين يبتغون اللغة الفارسية ليرحلوا إلى إيران، والذين يبتغون اللغة الإفرنجية ليذهبوا إلى بلاد الفرنجة. إن كل من لايدرك هذه الحقيقة هو جاهل: نحن أتراك، فينبغي أن تكون لنا لغة تركية»[1].

مثل هذا التوجه إزداد قوة مع الاقتراب من نهاية القرن التاسع عشر بشكل صب بالضرورة في بوتقة تكوين الوعي القومي، إذ كتب شمس الدين سامي[2] في جريدة «الصباح»، ضمن عددها الصادر في 13 آذار 1899: «على كتابنا، وشعرائنا، ومترجمينا، وعلينا كلنا البحث والعمل على إيجاد كلمات تركية خالصة، وإستخدامها عوضا عن الكلمات العربية أو الفارسية أو أي كلمة أجنبية أخرى شاع إستخدامها في أيامنا»[3].

إن الغاية الأهم وراء تبسيط اللغة وجعلها قريبة من اللغة المتداولة، هي إيصال الأفكار الجديدة إلى أوسع قطاع ممكن من الناس، وكما أشار أحد المثقفين العثمانيين «إن كتاباتي بتركية محضة مستندة على هذا الهدف... فالذي أتمناه هو إستخدام لغة من شأنها أن تجعل ما نكتبه مفهوما للعثمانيين المعاصرين، خصوصا أولئك الذين يمتلكون ثقافة وتعليما عاديين»[4]. وبالفعل ساعد تبسيط اللغة الكتاب العثمانيين على الاقتراب من مختلف فئات

1- نقلا عن: أبو خلدون ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، الطبعة الثانية، بيروت، 1985، ص98.

2- صحفي وأديب عثماني، ولد عام 1850 في ولاية يانينا Yanya (ألبانيا)، تميز باجادته للغات عديدة أبرزها الفرنسية والايطالية واليونانية والفارسية. بدأ نشاطه بالترجمة، كما كتب العديد من الروايات والمسرحيات، لكن الصحافة كانت ميدانه الرئيس، تولى رئاسة تحرير عدة صحف منها «الصباح» و«ترجمان الشرق» (Tercüman-ı Şark). وجه جل جهده وإهتمامه نحو إصلاح اللغة التركية، وله مجموعة كراريس في اللغة، وعدة قواميس أشهرها القاموس التركي (Kamus-ı Türki)، وقاموس الاعلام (Kamus-ül A'lam). توفي عام 1904. للتفاصيل ينظر:

D.Kushner, Op.Cit., PP.16-17; Agâh Sırrı Levend, Şemsettin Sami, Ankara, 1969

اغا سري ليفند، شمس الدين سامي، انقرة، 1969.

3- **Quoted in:D.Kushner, Op.Cit., P.72.**

4- **Quoted in: Ibid., P.73.**

المجتمع العثماني، خصوصا المدنية، والتأثير في سلوكها وميولها، والأهم في أفكارها من خلال تعريفهم بأفكار جديدة لم يسبق لهم التعامل معها، وإنتقاد مظاهر وقيم لطالما رأوا فيها واقعا مسلما به. فانتقدوا الكثير من العادات والتقاليد الاجتماعية البالية والخاطئة بوصفها «قيودا» و»سلاسل» قيدت الأعناق، وأعاقت تقدم المجتمع، وهاجموا الخرافات والعقلية التواكلية والرجعية الاجتماعية السائدة[1].

كان موضوع النخاسة من الأمور التي حظيت باهتمام وبحث غير قليلين، لاسيما من خلال الأعمال الروائية التي أدانت قضية الرق إجمالا، مع تركيز خاص على موضوع رق الإناث، وإستهل هذا الاتجاه نامق كمال في رواية له بعنوان «إنتباه» يعود تاريخها إلى العام 1876، فأبدى فيها، على لسان بطل روايته علي بيك، إشمئزازه من رق الإناث ورفضه له[2]. وخلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ظهرت كتابات كثيرة اهتمت بمعالجة الموضوع بشمولية أكبر، وثورية أعمق[3].

ظهرت قضية المرأة بوصفها أبرز الموضوعات الإجتماعية التي عمد المثقف العثماني إلى بحثها بروحية وطرح جديدين، فشغلت حيزا كبيرا في صحف وكتابات الدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، لابل إن المرحلة شهدت صدور صحف ومجلات خصصت بأكملها لبحث قضايا المرأة، منها جريدة «ترقي النساء» (Tarakki-I Muhaddarat) التي بدأت بالصدور عام 1869، «العائلة» (Aile)

1- محسن بهجت شاكر كوبرلي، المصدر السابق، ص190؛ الدكتور عزيز العظمة، العلمانية من منظور مختلف، بيروت، 1992، ص90.

2- Please look at: Namık Kemal, İntibah Ali Beyin Sergüzeşti, İstanbul, S.68-70
نامق كمال، انتباه. مغامرات علي بيك،استانبول، ص68-70.

3- Şerif Mardin, Super Westernization in Urban Life in the Ottoman Empire in the Last Quarter of the Nineteenth Century, "Turkey Geographic and Social Perspectives", Ed. P.Benedict and Others, Leiden, 1974, PP.404-405;
الدكتور أورخان أوقاي، الأدب التركي في مرحلة التغريب، «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الثاني، استانبول، 1999، ص132.

1880، «الخوانم» (Hanımlar) 1882، «حديقة الزهور» (Şükufezar) 1883، «صحيفة خاصة بالمرأة»(Hanımlar Mahsus Gazete) 1895 [1].

لم تكن هذه الصحف موجها للمرأة العثمانية المثقفة الجديدة فحسب، بل وصوتا لها أيضا، من خلال مشاركة النساء في كوادرها، وتولي تحرير عدد منها. فجاء في العدد الأول لـ«حديقة الزهور» التي أصدرتها عارفة خانم، ابنة وزير التعليم منيف باشا، «نحن مجموعة من الناس إتخذ منهن الرجال إضحوكة وسخرية بقولهم إننا «نمتلك شعرا طويلا وعقلا خاويا» سنثبت عكس هذا الكلام، ونمضي للتقدم في ميدان الحياة بثبات، من دون تفضيل الرجال على النساء أو النساء على الرجال»[2].

عالجت المرأة العثمانية قضاياها بادراك وجرأة واضحين، تجاوزا زمانهما ومكانهما، ورفعت صوتها بمطالب قوية ومحددة، مثل حق النساء في الحصول على التعليم العالي، والمساواة في الحياة العامة والسياسة والعمل والـزواج. وهاجمت تعدد الزوجات والاضطهاد العام للمرأة. فهاجمت مقالة يعود تاريخها إلى العام 1868، وقعتها ثلاث سيدات، قضية التمييز بين الرجال والنساء، وأعربت السيدات خلالها عن تذمرهن من حالة العزل بين الجنسين في المطاعم والمراكب والقطارات والمسارح، والاماكن القذرة واللاصحية المخصصة لهن في وسائل المواصلات العامة لا لشئ إلا لأنهن نساء، على الرغم من إن الأجور المفروضة هي نفسها على كلا الجنسين، وأشرن إلى أن الادعاء بان هذه الممارسات تهدف لحماية وصيانة شرف المرأة هو محض رياء في بلد تجبر فيه المرأة على السير في الأزقة والطرق الفرعية، بدلا من الطرق الرئيسة ذات الإنارة الجيدة، مخافة أن تصادف رجلا في الطريق. كما أكدن إن مشاكل المرأة ليست إلا نتيجة الإصرار على إبقائها

1- http:// www. Ohiolink, edu/ etd/ send- pdf. Egi? Acc_num= miami 1060799831, Vuslat D. Altınöz, The Ottoman Women's Movemennt: Women's Press Journals Magazines and Newspapers from 1875 to 1923, Master thesis, Miami University, 2003, PP.7-8,11.

2- Quoted in: Ibid, P.11.

خاضعة للرجل الذي يرفض بدوره السماح لها بالتعليم، في الوقت الذي ينعتها فيه بالجهل والتخلف[1].

وبلغة مقنعة حاججت فاطمة علية[2] في كتابها «نساء الإسلام» (Nisvan- Islâm) المدافعين عن تعدد الزوجات «بوصفه حق منحته الطبيعة للذكور، وأكدته الشريعة»[3]، موضحة انه لايمكن الإستمرار في الدفاع عن هذا الموضوع، أو تجاهل الانتقادات الموجهة ضده، لتخلص إلى إستنتاج مفاده «إذا آمنا بأن مبادئ الإسلام مقبولة عالميا، فيجب علينا أن نعلن بأن الزواج الأحادي هو الشكل الذي فرضه الإسلام، وان أمر الآية القرآنية[4] الرجل بالبقاء مع زوجة واحدة هو أمر منسجم مع التحضر، عند ذلك فقط يمكننا أن نبرر موقعنا»[5].

لم تقتصر مناقشة قضايا المرأة على نساء الطبقة الراقية، بل شاركت نساء الطبقة الوسطى الجديدة بالموضوع، فببساطة نمّت عن وعي واضح كتبت إمرأة في رسالة بعثت بها إلى جريدة «ترقي النساء»:

> «لقد صار معروفا ان لا الرجل خلق لخدمة زوجته، ولا المرأة خلقت لتكون عبدة لرجل، إذا كان الرجل قادرا على دعم نفسه وأسرته من خلال مهاراته وخبراته، فلماذا لا يجب على المرأة أن تطالب بالمهارة والمعرفة نفسها؟ ما الفرق بين الرجال

1- Ibid.

2- فاطمة علية خانم (1864-1924 Fatma Aliye Hanım) كاتبة معروفة، تعلمت الفرنسية منذ سن مبكرة بمساعدة والدها جودت باشا، لها نتاجات عديدة، خصوصا في تاريخ الدولة العثمانية وواقعها الإجتماعي. ينظر:

Nihad Sâmi Banarlı, Resimli Türk Edebiyâtı Târihi, S.993-994.

3- تبنت هذه الفكرة، والدفاع عنها، مجموعة من الكتاب العثمانيين، برز بينهم محمد ازاد، من خلال سلسلة مقالات، بدأ نشرها عام 1896، وكتاب حمل عنوان «تعدد الزوجات» (Taaddüd-ü Zevcat) نشر في اسطنبول عام 1898.

Niyazi Berkes, Development of Secularism in Turkey, PP.285-286.

4- في إشارة إلى الآية القرآنية «فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم» . القرآن الكريم، سورة النساء، الآية 3.

5- **Niyazi Berkes, Development of Secularism in Turkey, P.287.**

والنساء إذا كنا نمتلك نفس الأيادي والأقدام، والعيون والأدمغة؟ ألسنا بشرا مثل بعضنا البعض؟ هل السبب في بقائنا في المكان نفسه منذ خلقنا هو إختلاف الجنس؟ لايمكن لأحد له إدراك سليم أن يقبل بهذا! إذا كان من المفروض علينا بصفتنا نساء تركيات أن نبقى جاهلات وغير متعلمات، ألا ينبغي للنساء الأوربيات ، إذن، أن يكن مثلنا؟ إذا كان سبب جهلنا ضرورة فرضها الحجاب، فماذا بشأن النساء الفلاحات اللواتي يعملن مع رجالهن في الحقول ويساعدنهم بكل السبل؟»[1].

مثل هذا التحرك النسوي كان مظهرا جديدا على الواقع الفكري العثماني عكس، مثلما حمل، أفكارا جديدة في موضوع فرضت حيويته مشاركة الجنسين. ولطالما كان صوت الرجل، حتى في قضايا المرأة، أعلى من صوت المرأة نفسها، وأبعد إسماعا. وقد شكلت المرأة محورا لكتابات كثير من المثقفين العثمانيين، تناولها الجانب الأكبر منهم ضمن الأطر التقليدية بوصفها أما وزوجة يعتمد عليها صلاح الرجل العثماني وإنشاء جيل جديد واع ومسؤول، وهي محور للعائلة التي لا يمكن لها أن تؤدي وظيفتها بشكل صحيح إلا من خلال تعليم المرأة[2]. ضمن هذا المفهوم كتب شمس الدين سامي في كتيب بعنوان «النساء» (Kadınlar) بأن «الحالة التي عليها المرأة تساوي للحالة التي عليها الأسرة» مطالبا بتعليم المرأة، ومستنكرا الوضع المتخلف الذي أبقيت عليه[3].

على الرغم من طابع الحداثة في هذا الطرح، ظهر بموازاته فكر أكثر تقدمية، تبناه كبار مثقفي الدولة العثمانية، آمن بأن تحرير المرأة أمر ملازم للرقي الحضاري، وظهرت بداياته في مسرحية كوميدية بعنوان «زواج شاعر» (Şâir Evlenmesi) لإبراهيم شناسي، والمكتوبة عام 1860، إنتقد فيها شناسي ترتيبات الزواج التقليدي، ورأى فيها سمسرة للإناث، ومأساة تثير الضحك[4]. وبعين

1- Quoted in: Vuslat D.Altınöz, Op.Cit., P.7.

2- Ibid., P.32.

3- Ibid., P.33.

4- Nihad Sâmi Banarlı, Resimli Türk Edebiyâtı Târihi, S.865-867;

محسن بهجت شاكر كوبرلي، المصدر السابق،ص175.

الناقد نفسها تعرض نامق كمال، في الكثير من أعماله، للوضع المأساوي للمرأة داخل الأسرة، وفي مقالة له بعنوان «العائلة» (Aile)، أعرب عن رفضه للأوجه الجائرة واللامنطقية في الزواج والحياة الأسرية، وأوضاع المرأة في المجتمع عموما[1].

شـكلت مسـألة تحريـر المـرأة أحـد المحـاور الرئيسـة التـي شـغلت بـال أحمـد مدحـت، ومـع أن قضيـة الـزواج التقليـدي ظلـت مـن بيـن أبـرز الأمـور التـي تعـرض لهـا بوصفهـا واحـدة مـن أكثـر القضايـا سـوءا فـي الحيـاة الأسـرية[2]، وان قصتـه المعنونـة «الفتـاة حاملـة الدبلـوم» (Diplomali Kiz) تمثـل مظهـرا مـن تفكيـره فـي العالـم النسـوي[3]. فانـه تجـاوز هـذه الموضوعـات إلـى مديـات تخطـى فيهـا زمانـه، ومـازال يصعـب تقبلهـا إلـى الأن. وصـف أحـد الكتـاب مسـاهمة أحمـد مدحـت فـي قضية المرأة بالشكل الآتي:

> «فـي روايـة فكرتهـا الرئيسـة مسـاواة الرجـل بالمـرأة فـي التعليـم تجـاوز خيـال مدحـت الأفـكار الأكثـر جـرأة المسـموح بهـا فـي وقتـه، وتنبـأ بأنـه سـيأتي اليـوم الـذي تدخـل فيـه المـرأة التخصصـات كافـة. تكـرر فـي كتاباتـه مسـائل تتعلـق بتدنـي أوضـاع النسـاء، تعاسـتهن ومعاناتهـن نتيجـة عـدم إمتلاكهـن حقوقـا مسـاوية لحقـوق الرجـال. وقـد ذهـب مدحـت إلـى الحـد الـذي دافـع فيـه عـن حقـوق النسـاء اللواتـي أجبـرن تحـت ظـروف معينـة علـى إمتهـان الدعـارة، وإنتقـد بشـدة الإعتقـاد بإثمهـن ومعاقبتهـن بقسـوة. وقـال إن مـن واجبنـا السـعي لإنقـاذ هـؤلاء النسـوة مـن الانحطـاط، وهـو مـا سـيكون ممكنـا لـو فقـط توقفنـا عـن معاملـة النسـاء كسـلع، أو عبيـد، ويصبحـن أحـرارا فـي تقريـر مصيرهـن،

1- Please look at: Mustafa Nihat Özön, Namık Kemal ve İbret Gazetesi, S.199-205.

2- Vuslat D.Altınöz, Op.Cit., PP.32-33.

3- Şerif Mardin, Urban Life in the Ottoman Empire, P.404; www. amherst. edu/~ jjelias/ main- links/ classes/ Religion56/ rel56 syl. html, D.Kandiyoti, End of Empire: Islam Nationalism and Women in Turkey.

لذلك ينبغي علينا العمل على مساعدة الساقطات، ومد أيدينا إليهن لإنقاذهن، بدلا من وصمهن إلى ما لا نهاية»[1].

بواقعية أكثر كتب مثقف عثماني أخر مقالة في جريدة «الترقي» طالب خلالها الرجل بإلتزام جانب النساء لنيل حقوقهن، وبرز التعليم مطلبا أساسيا لإكتساب تلك الحقوق: «في عصر الترقي هذا، كل مواطني الدول المتقدمة من ذكور وإناث حصلوا على أعلى درجات العلوم والآداب. فلماذا لانعمل من اجل أن تحقق المرأة العثمانية وضعا أفضل من وضعها الحالي؟ في فرنسا، النساء يحاولن نيل حق التصويت والعمل في المؤسسات الحكومية، ولم يحصلن على هذا الإقدام إلا من خلال التعليم»[2].

كانت المطالبة بتعليم النساء جزءا من دعوة أوسع أكدت ضرورة التعليم الحديث بين كل العثمانيين. فكان التعليم الحديث ونشر المعارف من بين أبرز ما نادى به شناسي[3]، وإحتل الموضوع نفسه حيزا كبيرا في كتابات نامق كمال، مطالبا الدولة بإتخاذ دور قيادي في تحقيقه[4]، وسعى شمس الدين سامي إلى تنفيذه بنفسه[5]، وسلك الطريق عينه أحمد مدحت الذي نشر، لغايات تعليمية بحتة، كتابات في مختلف العلوم والمعارف الحديثة من طب وأحياء وفلك وتاريخ ولغة...[6].

أثمرت هذه الجهود، مع كل التغيرات في الحياة الفكرية المصحوبة بإنفتاح على القيم الإجتماعية والحضارية الغربية، فأصبح للعلوم الحديثة الأولوية على سائر المعارف، وبدأت مضامينها تخلخل سطوة العقائد الدينية في الفكر العثماني التقليدي، وأخذ الخطاب

1- Quoted in: Niyazi Berkes, Development of Secularism in Turkey, PP.283-284.

2- Vuslat D.Altınöz, Op.Cit., P.9.

3- Kemal H.Karpat,The Mass Media, PP.258-259; Nermin Menemencioğlu, Op.Cit., P.32.

4- Şerif Mardin, Genesisof Young Ottoman Thought, PP.216,312

5- الدكتور أورخان أوقاي، الأدب التركي في مرحلة التغريب، ص130.

6- Kemal H.Karpat, The Mass Media, P.266.

الثقافي يتناول مختلف المسائل من الجانب العلمي بعيدا عن الحجج الدينية القديمة، وبرزت فئة جديدة من المثقفين، مميزة ومتمايزة عن المثقفين التقليديين، مليئة بهاجس التقدم والنظام وإكتساب العلوم الحديثة[1].

إلى جانب العلم، برزت فكرة الترقي بوصفها حجر الزاوية في الفكر العثماني، وصارت عبارة «الترقي الجديد» (Terakkiyat-ı Cedide) بين المثقفين العثمانيين هي المحك في كل مجال، متخذين من التجربة الغربية أنموذجا، والعلوم الحديثة سبيلا، ما دامت هي الفاصل في كل المقارنات بين حقيقة الوضع العثماني المتخلف، والواقع الغربي المتقدم. وصف أحد المثقفين العثمانيين هذه الرؤيا بقوله «إن وضعنا مقارنة بفرنسا مثل وضع طفل غير متعلم بجانب عالِم ضليع»[2]. وأوضح مثقف آخر في سياق إعجابه بالحضارة الأوربية «إن العلم هو السبب في تمكن الأوربيين من السفر من قطب لآخر من الكرة الأرضية، في حين لا يستطيع سكان القارات الأخرى حتى الخروج من أماكن سكناهم»[3].

بإستخدام منهج المقارنة، نفسه، أشار ضياء باشا في مقال له بعنوان «أسباب تدني وطن الترك» إلى مدى إنتظام القوة الحربية والمالية وأسس الحكم في الدولة الأوربية، و«ما تبعثه كل أحوالنا في النفس من حزن وأسى، وإن العامل الوحيد وراء تقدم هؤلاء هو تمسكهم بالعلم والتقنية، بينما يكمن الجهل والغفلة وراء تخلفنا»[4]. وكثيرا ما قارن نامق كمال بين ما شاهده في العالم الغربي، وما هو قائم في الدولة العثمانية، طارحا التساؤل «بأي وسيلة يمكننا اللحاق بمعدل السرعة الذي كشفت عنه أوربا في مسيرتها الحضارية؟» «إنها الممالك الغربية التي عُرفت بأوفى قدر من الحضارة، وأوفى قدر من الحرية، وأوفى قدر من

1- W.Yale, The Near East A Modern History, U.S.A, 1958, P.45;
الدكتور عزيز العظمة، المصدر السابق، ص90-91؛ حسين لبيب، كتاب تاريخ الأتراك العثمانيين، الجزء الثالث، القاهرة، 1917، ص68-69.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.14.

3- Ibid., PP.10-11.

4- الدكتور أورخان أوقاي، الحياة الفكرية خلال عهد التغريب، ص275.

المطبوعات...»[1]. وتمثل الجواب عند عدد كبير من المثقفين بإكتساب العلوم، وإتباع سبل الحضارة الحديثة فهما الأساس في نجاح وحصانة الدولة، حسبما أشار أحد أعلام حركة التحديث في الدولة العثمانية، موضحا بأنه عند مقارنة فرد «ذكي» بآخر «غير متعلم»، يكون ما نصل إليه ان هذه المقارنة تنطبق على الفرق بين الدولة التي «تطبق الحضارة الحديثة» والدولة «التي ترفض تطبيقها»[2]. وأكد ثانٍ عدم إمكانية تحقيق إزدهار الدولة العثمانية إلا من خلال العلم «فأن تقدم الشعوب يأتي من زيادة سكانها وزراعتها وفنونها ورأسمالها وتجارتها، علاوة على إندفاع وتفاني أناسها، ويتوقف التقدم على العلم والمنطق وإكتساب أكبر قدر من المعرفة»[3]. وإن «بقاء وسعادة الأمة متوقف على العلم» كما ذكر مثقف آخر[4].

لقد كان أثر العلم الحديث كبيرا جدا لدرجة إن الكثير منهم صار على قناعة بانه مع كل التقدم الذي يشهده العالم سيسهل ضبط كل جوانب الحياة على وفق العلم. فمثلا كتبت إحدى الصحف الاسطنبولية «يحتاج المثقف اليوم إلى معرفة العلم والتكنلوجيا فقط لاغير. فقد وصل العلم الآن إلى مستويات يمكن بها معرفة الأمور كافة، وكما كان الرجل يتميز بطائفته في العصور السالفة...، فاليوم نرى أن الناس منقسمين إلى ثلاث طبقات: العلماء، التقنيون، العمال»[5]. وبدأت الصحف العامة بنشر دروس في مختلف العلوم النظرية والتطبيقية بأسلوب تعظيمي هدف إلى إظهار أهمية العلم[6]. فحاول أحد المفكرين المقارنة بين التاريخ والجيلوجيا كأداتين لإكتساب المعرفة، مفضلا الجيولوجيا لإعتمادها على العلم:

> **«مثلما لا يقبل من المرء جهله بأصله سواء كان أصله الطبيعي أم الأخلاقي، فإن من المعيب له أن يهمل دراسة الجيولوجيا. فعن طريق دراسة التاريخ يمكن فهم أساليب**

1- المصدر نفسه.

2- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks ın Opposition, P.11.

3- Quoted in: Ibid.

4- Quoted in: Ibid., P.14.

5- Quoted in: Ibid., P.12.

6- Ahmed Emin, The Turkish Press, PP.454-455.

معيشة وعادات الشعوب والأمم السالفة، لكن علم الجيولوجيا يكشف لنا عن آلاف القرون من التاريخ الطبيعي. فالتاريخ عبارة عن تقارير وقصص حدثت على مر أجيال الإنسان المتعاقبة، بينما لايمكن لعلم الجيولوجيا أن يتأثر بتغيير الظروف والأحوال»[1].

حازت العلوم الحديثة على شعبية كبيرة عند النخب العثمانية، وحينما ظهرت أول صحيفة مهمة في هذا المجال احتوت قوائم المسجلين فيها أسماء كثير من الوزراء، والسفراء، وكبار الموظفين، والضباط ذوي الرتب العالية[2]. وإزاء الإنفتاح الواسع بين المثقفين العثمانيين على المعارف العلمية، وتشوقهم للإلمام بها، أخذت المقالات العلمية بالظهور حتى في الصحف المحافظة، وظهرت مجلات ذات طابع موسوعي حملت أسماء توحي بعلمية مضمونها، مثل «مجموعة فنون» (Mecmua-i Fünûn)، «علوم» (Ulûm)، «خزينة أوراق» (Hazınet-i Evrak)، «خزينة فنون» (Hazinet-i Fünûn)، «ثروت فنون» (Servet-i Fünun)، «معارف» (Maarif)، «معلومات» (Malumat)...[3]. كما ظهر كم كبير من الكتب الموسوعية عكست مدى اللهفة للتعرف على الغرب وتقنياته[4].

شكل الإنفتاح نحو العلوم الغربية جزءا من إنفتاح أوسع على كل ما هو غربي بين النخبة العثمانية، فتبنى معظم أبناء هذه النخبة الأنموذج الغربي في نمط تفكيرهم، وأسلوب حياتهم، بل وفي نوع أسمائهم أيضا[5]، وسعوا لأن يكونوا أكثر أوربة في طابعهم، متخذين من العلم والتقدم مبدءا لهم[6].

1- Quoted in: S.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.11.

2- Ibid.; Şerif Mmardin, Genesis of Young Ottoman Thought, PP.238-240.

3- الدكتور أورخان أوقاي، الحياة الفكرية خلال عهد التغريب، ص277.

4- المصدر نفسه.

5- من الطريف الإشارة إلى انه خلال أربعة عقود ونصف تلت عام 1840 إنخفض معدل حاملي أسماء محمد وأحمد وعلي، في تركيا، إلى أقل من الثلث.

R.W.Bulliet, First Names and Political Change in Modern Turkey, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.9, November 1978, P.491.

6- Şerif Mardin, Urban Life in the Ottoman Empir, PP.304-442; Z.D.Ferriman, Turkey and The Turkes, London, 1911, P.76.

ثالثا- التيارات الفكرية في الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر - 1908.

أدى تنامي الأيديولوجية الحديثة، ذات الطابع الغربي، وتسارع فعل المؤثرات الفكرية الأوربية، إلى فرز وجهتي نظر تبلورتا سريعا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتحولتا، مع نهاية القرن، إلى محوري صراع فكري وسياسي في الدولة العثمانية، إستمرت آثاره حتى بعد انهيارها. تمثلت المجموعة الأولى بأنصار الأيديولوجيات الحديثة والذين أرادوا جلب الحداثة الغربية إلى مجتمعاتهم، وتطبيق الأنموذج الغربي على كل جوانب الحياة، مستندين إلى أسس فكرية واجتماعية وثقافية خارجة عن السلطة الدينية، وخارجة عليها في بعض الأحيان، ورأوا في جانب من مظاهر الدين وتعاليمه، وفي معظم التقاليد الشرقية معوقات أمام التطبيق، وألف هؤلاء التيار الأكبر والأكثر هيمنة بحكم ارتباطهم بالدولة، وبسنة التطور الطبيعية[1]، تقابلها مجموعة محافظة ظهرت، لحد ما، رد فعل على حركة التحديث، وإتهمت أنصارها بالانحراف عن حضارة العثمانيين وقيمهم وثقافتهم والتفريط بالإسلام وسنن الأجداد الأولين، و «لم يروا في الأمور التي تأتي من الغرب إلا زندقة وسفالة متفرنسة»[2]. تمحور هؤلاء حول المؤسسات الدينية، وشكل طلاب المدارس

1- للتفاصيل ينظر: الدكتور عزيز العظمة، المصدر السابق، ص100؛

R.P.Mitchell, Mutual Perceptions of Western and Islamic Civilization. Some Thoughts in the Context of Technological Change, "Seminar on Civilization Changes in the Middle East in Modern Times", Ain Shams University- Middle East Research Centre, 1979, P.7.

2- نقلا عن: الدكتور خالد زيادة، إكتشاف التقدم الأوربي، ص108.

الدينية الجانب الأكبر والأكثر فعالية ضمنهم، مستمدين تأثيرهم من الدين ومكانته في النفوس[1].

مع هاتين المجموعتين ظهرت مجموعة ثالثة، في مكان ما على الخريطة الفكرية بينهما، مثلها العثمانيون الجدد الذين استطاعوا تشكيل التيار الأقوى لمدة ليست بالقليلة من خلال إستثمارهم الامتعاض الموجود بين العثمانيين، ولاسيما المسلمين من الطابع العلماني التغريبي الحاد لعملية تحديث الدولة، وإستفادة المسيحيين على وجه الخصوص، وشكل هذا الامتعاض، على وفق رأي ماردين، العمود الفقري للحركة[2].

وصفت هذه المجموعة بكونها ليبرالية سياسيا، ومحافظة دينيا[3]، فحاولوا بمفاهيم إسلامية تبرير تبني المؤسسات الغربية، معتبرين ذلك التبني عودة إلى روح الإسلام الحقيقية، لا إدخال شيء جديد عليه، وسعوا إلى إيجاد مصادر إسلامية للأفكار المراد إدخالها للدولة العثمانية وإلباسها لباسا إسلاميا بإستخدام تعابير دينية[4]. فصوروا الحرية على أنها هبة إلهية[5]، وحب الوطن جزءا من الإيمان[6]، والإتحاد

1- المصدر نفسه، ص107-108؛ الدكتور ابراهيم خليل أحمد العلاف، الجذور التاريخية للعلمانية في تركيا المعاصرة، «شؤون إجتماعية» (مجلة)، قطر، العدد60، شتاء 1998، ص11؛

C.H.Dodd, Politics and Government in Turkey, P.12; Tolga Koker, Op.Cit., P.4.

2- Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, PP.14-20; Şerıf Mardin, Urban Life in The Ottoman Empier, P.425.

3- الدكتور جمال زكريا قاسم، الخروج العربي عن الدولة العثمانية، «العلاقات العربية التركية من المنظورين العربي والتركي»، إشراف اكمل الدين احسان اوغلى ومحمد صفي الدين أبو العز، بيروت، 1993، ص174.

4- البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ترجمة كريم عزقول، الطبعة الثالثة، بيروت، بلا، ص90؛ الدكتور أورخان اوقاي، الحياة الفكرية خلال عهد التغريب، ص271؛

Halil Inalcık, Turkey Between Europe and the Middle East, P.15.

5- بول دومون، المصدر السابق، ص75.

6- Kemal H.Karpat, Formation of Turkish National;

السيد رجب حراز، المصدر السابق، ص49.

«شكلا حاصلا من إنعكاس نور الله»[1]، وبإصرار أكبر إتخذوا من الإسلام مرجعا ثابتا في دعواهم إلى الفصل الصارم بين السلطات، وإلى تدشين نظام حكم دستوري في الدولة العثمانية، مشددين على وجود آيات قرآنية تدل على وجود النظام البرلماني في الإسلام، وبأن الله أمر به بموجب الآية «وشاورهم في الأمر»، وفي موروث المؤسسات الإسلامية فإن نظام البيعة وما كان يجري في عهد الخلفاء الراشدين يكشف بوضوح إمكانية إيجاد حكم على هذا النحو[2].

على الرغم من ذلك، فان العثمانيين الجدد، بإستثناء إحترامهم المستمر والمتعمد للرموز الإسلامية، كانوا ميالين نحو العصرنة ونخبة التغريب، ومؤيدين للسير باتجاه التحديث وإستخدام التقنيات الغربية، اعتراضهم كان منصبا على الإفراط في التغريب والتخلي عن الحضارة المحلية[3]. ويبدو أن الإسلام عندهم، كما أشار أحد الباحثين، كان نظاما للحياة أكثر من كونه مسائل إعتقادية[4]، إنطلاقا من إيمانهم أنه بدون الدين تصير الأخلاق «مجرد تأملات فلسفية»، ولن يكون بإمكانها أن تشكل رقيبا على أفعال الإنسان[5]. ضمن هذا السياق يمكن أن نفهم سبب إستشهاد أحد أبرز أعضاء العثمانيين الجدد بقول فولتير «إذا لم يكن الله موجودا، فمن الضروري أن

1- «أشهر الحوادث وأعظم الرجال: محمد نامق كمال بك»، «الهلال»، الجزء 15، السنة 5، 1 تشرين الثاني 1896، ص164.

2- Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, PP.292-293,343,367-368; Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, PP.213-214;
الدكتور محمد الناصر النفراوي، التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية 1839-1918، تونس، 2001، ص89؛ الدكتور أورخان اوقاي، الحياة الفكرية في عهد التغريب، ص271-272.

3- C.H.Dodd, Democracy and Development in Turkey, Great Britain, 1979, P.79.

4- الدكتور أورخان أوقاي، الحياة الفكرية خلال عهد التغريب، ص283.

5- Şerif Mardln, The Genesis of Young Ottoman Thought, P.314, Mithat Cemal Kuntay, Namık Kemal Devrinin İnsanları ve Olayları Arasında, II, İstanbul, 1941, S.484.
مدحت جمال كوتاي، وسط الناس والأحداث في فترة نامق كمال، الجزء الثاني، اسطنبول، 1949، ص484.

نبتدع إلهـا»[1]. وقـد سعوا، مـن خلال استيعابهم لمبادئ الفلسفة الغربية وتكيفها مع الإسلام، إلى سد الفجوة بين المجموعة المؤيدة للتغريب والمجموعة المعارضة له، وإقتنعوا بأن طرح أفكارهم المستوحاة من الفكر الغربي بتعابير إسلامية من شأنه أن يجعلها أكثر قبولا في مجتمع أغلبيته مسلمة[2]، وهو ما أشار إليه نامق كمال في إحدى رسائله عن سياسة الحركة إزاء التغريب:

«لقد كُتب سابقا في عبرة إننا سوف نتقبل أي نوع من التقدم الذي تحققه أوربا، رغم أننا يجب أن لانكون أوربيين بأي حال من الأحوال، بربك! إن إصرار المسلمين على أن لا يصبحوا أوربيين أكثر من السابق مائة مرة... ولأن الجميع يتحاشى تقليد الأوربيين، فعلينا مواجهة المعارضة والمشاكل التي لاتنتهي»[3].

ربما كان أول من دشن هذا التوجه هو السلطان محمود الثاني بإصداره تصريحا أعلن فيه المساواة بين كل مواطنيه بغض النظر عن معتقداتهم: «من الآن فصاعدا فان المسلمين مسلمون فقط في مساجدهم، والمسيحيين مسيحيون في كنائسهم، واليهود يهود في معابدهم. خارج هذه الأماكن الجميع متساوون ويتمتعون بحقوق سياسية واحدة»[4]. وجرت محاولات كثيرة لبلورة هذا المفهوم فكريا وسياسيا إستنادا إلى فرضيتين رئيسيتين: الأولى إن رعايا الدولة من غير المسلمين لايمكن أن يستمروا مجتمعين تحت مظلة النظام القديم الذي يسمح بوجود موقع مهيمن للمسلمين،

1- Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought, P.314.

2- http:// cdy. Sagepub. Com/ cgi/ reprint/ 14/1 /21. pdf, Haldun Gülalp, Using Islam as Political Ideology Turkey in Historical Perspective, P.25;
الدكتور بيتر جران، الخلفية العثمانية لظهور الواقعية في الفكر العربي المعاصر: إحياء الكلاسيكية الجديدة للقرن الثامن عشر في مصر وسورية وتركيا- أمثلة من بعض الكتابات الطبية، «العلاقات العربية التركية»، تحرير الدكتور عقيل محمد عقيل البربار، الجزء الأول، ليبيا، 1982، ص226.

3- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.14-15.

4- Quoted in: Niyazi Berkes, Historical Background of Turkish Secularism, P.62.
الدكتور ابراهيم خليل أحمد العلاف، الجذور التاريخية للعلمانية في تركيا المعاصرة، ص14.

والثانيـة أن أي سياسـة إسـلامية أو قوميـة مـن شـأنها أن تتسـبب بمزيد من الخلافـات التي تعزز النزعة الانفصالية[1].

أستُمد مفهوم المواطنة العثمانية، مثل باقي عمليات التحديث في الدولة العثمانية، من الأنموذج الغربي، ولم يكن نتاج فكر فلسفي، بل تلبية لمتطلبات حاجة واقعية[2]. إلا انه كان أضعف من أن يسد تلك الحاجة. ففي الوقت الذي لم يثر به حماسا، أو تجاوبا يذكر من جانب المسيحيين مفضلين الفكر القومي[3]، آثار ردود أفعال عنيفة بين المسلمين الذين كانوا يتمتعون بموقع سياسي متميز بموجب النظام القديم، وأحسوا في مساواتهم مع أبناء الديانات الأخرى تراجعا وإنقاصا لموقعهم[4]. على الرغم من ذلك استمرت العثمنة تيارا فكريا له أنصاره ومؤيدوه طوال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فدافع عنها احمد مدحت، مثلا، بوصفها مفهوما متسامحا، ومحاولة حكومية جادة لفرض فكر موحد بين كل العثمانيين في الوقت الذي تحترم فيه دين وطائفة ولغة وقومية كل واحد منهم[5]، وأيدها شمس الدين سامي ضمن السياق نفسه مشددا على الحاجة إلى تحقيق الاتحاد بعيدا عن القضايا الدينية والقومية[6].

1- http:// www. Foreignpolicy. Org. tr, Şaban Çalş, The Origins of Modern Turkish Foreign Policy Ottoman Psychological Background, "dpe: Dış Politika- Foreign Policy", Ankara, Vol.XXVII, 2001, P.61.

2- Kemal H.Karpat, The Formation of Turkish National;
وليام ل.كليفلاند، ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة، تعريب فيكتور سحاب، بيروت، 1983، ص39.

3- Firouz Bahrampour, Turkey: Political and Social Transformation, Brooklyn, 1967, P.9.

4- Sabah Çalş, Op.Cit., P.61.

5- George W. Gawrych, Tolerant Dimensions of Cultural Pluralism in The Ottoman Empire: The Albanian Community 1800-1912, "International Journal of Middle East Studies", U.S.A, Vol.15, November 1983, P.531.

6- Ibid.

لمعالجة جوانب الضعف في تيار العثمنة ظهرت محاولات لإجراء تعديل أيدلوجي على الفكرة بشكل يجعلها أكثر قبولا عند المسلمين، أصحاب الثقل الديمقراطي الأكبر في الدولة العثمانية. فمع الاستمرار في التأكيد على إمكانية تحقيق إنسجام ووحدة بين مختلف الأقوام الذين يشكلون الدولة العثمانية على أساس وطنية جماعية تربطهم جميعا بالوطن العثماني، وبأن العرق والدين يأتيان بالدرجة الثانية بعد الوطن والمواطنة[1]، حاولوا الترويج لفكرة العثمنة بإستخدام تعابير وإيحاءات دينية غلب عليها الطابع الإسلامي[2]، ففاخر نامق كمال بأن وطنه العثماني كان مهد عيسى، ومنه جاء نور الله إلى موسى، وفيه وجد آدم البديل والعوض عن الفردوس، وإختتم كلامه بتوجيه الخطاب إلى وطنه قائلا «إذهب، ياوطني، وإرتد السواد في الكعبة، ومد ذراعك إلى حديقة النبي»[3].

مثل هذا التوجه لم يلبث أن تطور، أمام الخوف من إنتشار الفكر القومي بين الشعوب المسلمة، إلى دعوة لإنشاء وحدة إسلامية. فاعترض علي سعاوي على إقتراح عثماني شبه رسمي بتبني الباب العالي القومية، مبينا إن القومية في أوربا تعني شيئا آخر، مختلفا تماما «فليس عندنا مشكلة قومية، والمشاكل القومية تقود لدمارنا، وقضية توحيد المسلمين مسألة إسلامية دينية وليست مسألة قومية»[4]. وتحدث نامق كمال عن الوحدة الإسلامية بوصفها هدفا موضوعيا في عصره، وأخذت دعوته طابعا ثقافيا أكثر منه سياسيا، مؤكدا «إن وحدة شعوب الإسلام لا تتحقق في السعي وراء أهداف سياسية، أو نزاعات مذهبية، بل بوجود وعاظ»[5]، وطبيعي فأن

1- B.Lewis, The Middle East and the West, P.88; Hilmi Ziya Ülken, Türkiyede Çağaş Düşünce, S.135-137.

2- Hasan Kayalı, Arabs and Young Turks Ottomanism Arabism and Islamism in Ottoman Empire 1908-1918, London, 1997, P.24.

3- B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.339.

4- B.Lewis, The Middle East and the West, P.88

في الترجمة العربية ص134-135.

5- B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.341; Mustafa Nihat Özön, Namık Kemal ve İbret Gazetesi, S.77-78.

الوحدة الإسلامية عند شخص مثل نامق كمال مرتبطة بجعل الإسلام عصريا، والسير على خطى أوربا، ولما كان العثمانيون أقرب شعوب الإسلام إلى أوربا فهم أكثرها قدرة على التقدم الحضاري، وهم قادتها على طريق الرقي الذي لابد له أن يحقق وحدة المسلمين يوما ما بالتأكيد[1].

خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، وإزاء كل أحاسيس الإذلال والبلبلة التي هيمنت على العالم الإسلامي بحكم كل الهزائم التي تعرض لها على أيدي القوى الغربية المسيحية في مناطق مختلفة من آسيا وأفريقيا، واستيلاء الشك، بفعلها، على مجموعة كبيرة من العثمانيين فيما إذا كانت سياسة تغريب المؤسسات والمجتمع سياسة مناسبة، وضمن دولة عكس واقعها الديموغرافي تغيرا حادا ليصير أكثر من ثلاثة أرباع سكانها مسلمين، برز الإسلام بوصفه أيدلوجية بديلة عن العثمنة، وفكرا كفيلا بتحقيق إتحاد وتعبئة الغالبية العظمى من العثمانيين.

آمن الإسلاميون إن السبب الرئيس وراء تراجع الدولة هو التنكر لتعاليم وقيم الإسلام، وإذا ما تم التخلي عن النهج التغريبي، وأعيدت المؤسسات الإسلامية إلى الدولة، فأن النتيجة الأكيدة هي انتصار المسلمين على الكفار، وعودة عصرهم الذهبي[2]. وتجاوز نهجهم التعامل مع الإسلام على إنه مسألة دينية تختص بالعبادات والعقوبات والمعاملات، إلى محاولة إنشاء أسس لأيدلوجية سياسية شاملة من خلال استخدام كل المصطلحات الدينية الممكنة، والعمل على إيجاد إحساس بهوية سياسية إسلامية تجمع في ظلها كل المسلمين[3]. ورأى أصحاب هذه الدعوة، التي عرفت بأسم الجامعة الإسلامية، على اختلاف مذاهبهم إن أسباب ضعف الإسلام تكمن في العدوان الاستعماري الذي يريد

1- B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.341; Hilmi Ziya Ülken, Türkiyede Çağaş Düşünce, S.135.

2- Şaban Çalş, Op.Cit., P.62; Y.Armajani, Op.Cit., P.236.

3- Şaban Çalş, Op.Cit., P.62; Albert Hourani, Near Eastern Nationalism Yesterday and Today, "Foreign Affair", U.S.A, Vol.42, October 1963, P.127.

احتلال بلاد المسلمين واستغلال أهلها، ويسعى إلى تحقيق السيادة والتفوق على المسلمين، والتأثير فكريا وثقافيا في معتقداتهم. ولذا ارتكز جهادهم على إنهاء الاحتلال وتحطيم الامتيازات والحفاظ على العقيدة الإسلامية. ويضيف البعض هدفا أخر هو تحقيق وحدة المسلمين تحت سيادة شرعية هي الخلافة[1].

كانت الجامعة الإسلامية عاطفة أكثر منها عقيدة، إستطاعت أن تحيي الآمال بإمكانية إحياء أمجاد الإسلام والمسلمين، وأخذت على محمل الجد من كثير من المسلمين في أنحاء مختلفة من العالم من شمال أفريقيا إلى الهند وأواسط آسيا، مثلما في الدولة العثمانية[2]. إلا أنها ظلت مجرد فكرة لم يتبعها إيجاد تنظيم عملي لها، بل تحولت إلى أداة جيدة بيد عبدالحميد الذي ربما رأى فيها وسيلة لتعزيز موقفه الخارجي عن طريق كسب ولاء المسلمين في مختلف أنحاء العالم بوصفه خليفة المسلمين[3]، لكن الأهم من هذا هو توطيد مركزه الداخلي، فالجامعة الإسلامية التي تبناها عبدالحميد لم تكن لأغراض دينية وانما لأهداف سياسية، كما لم تكن لتوحيد مسلمي العالم كله، إذ كان عبدالحميد من الذكاء والواقعية ما يجعله يدرك أن مثل هذا الهدف يتجاوز كثيرا الإمكانات التي يتمتع بها، بل هي جامعة إسلامية للاستخدام الداخلي، حاول الخليفة السلطان عن طريقها تأييد سلطته الزمنية، وتمتين مركزه الداخلي في أذهان رعاياه بضربه على وترهم الحساس من خلال

1- للتفاصيل ينظر: موفق بن مرجة، المصدر السابق، ص126-148؛
B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.340-343; S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit., PP.259-260.

2- Şaban Çalş, Op.Cit., PP.63-64;
جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص172.

3- W.S.Vucinich, The Ottoman Empire Its Record and Legacy, NewJersy, 1965, P.100;
وليام ل. كليفلاند، المصدر السابق، ص42؛ جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص171؛ جورج انطونيوس، يقظة العرب. تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة الدكتور ناصرالدين الأسد والدكتور إحسان عباس، تقديم الدكتور نبيه أمين فارس، الطبعة الخامسة، بيروت، 1978، ص136.

إصراره على أن سلطته الزمنية تستند إلى سلطته الدينية[1]. كما كان هناك هدف مهم آخر وراء السياسة الدينية لعبدالحميد هو مقاومته إنتشار «فيروس» النزعة القومية الذي أخذ يهدد باجتياح الشعوب المسلمة في الدولة العثمانية[2]. فمن خلال الشكل الديني الذي عمل على إضفائه على نفسه، وباستخدام لغة إسلامية انتقد الفكر القومي بشدة واصفا إياه بالتهديد الأكبر للإسلام والدولة العثمانية، وادعى إن بريطانيا هي من روج لفكرة الأمة العرقية ومفهوم الوطن القومي، يحدوها هدف تقويض إيمان المسلمين[3]، مقترحا، لمواجهة هذا التهديد، دعم وضعه خليفة للمسلمين، وإعطاء الأولوية للإيمان وحب الخليفة، وإرجاع حب الوطن إلى المرتبة الثانية[4].

أثرت السياسة الإسلامية التي روج لها عبدالحميد بعدد غير قليل من المثقفين، بما في ذلك المحدثين أنفسهم، بحكم ما للدين من تأثير في النفوس[5]. غير أن مجموعة أخرى منهم لم يقبلوا بها، أو بالعثمانية أساسا عمليا ومقبولا للولاء، مفضلين تبني فكرة القومية.

1- Hasan Kayalı, Op.Cit., PP.31-33;

الدكتور حسين علي الشلاه، طالب باشا النقيب البصري ودوره في تاريخ العراق السياسي الحديث، بيروت، 2002، ص124؛ محمد عبدالباقي عشماوي، الوطن العربي بين وحدتين عثمانية دمرته وعربية أيقظته، القاهرة، 1958، ص46.

2- L.L.Snyder, The New Nationalism, NewYork, 1968, P.199; W.S.Vucinich, Op.Cit., P.100;

سؤدد عبدالحسين سبتي الربيعي، دور النخبة في تطوير الفكر القومي العربي في بلاد الشام في عهد الاتحاديين 1908-1918، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد القائد المؤسس للدراسات القومية والاشتراكية العليا- الجامعة المستنصرية، 2002، ص42-65.

3- Kemal H.Karpat, The Formation of Turkish National.

4- Ibid.

5- تجدر الاشارة إلي أن شاعرا شكاكا مثل جميل صدقي الزهاوي، الذي كان قد إنتقد السلطان عبدالحميد شعرا وحكم عليه بالاقامة الجبرية، ألف كتابا صدره بفصل حول الامامة قرر فيه، إستنادا إلى الآيات القرآنية المختلفة، إن الامامة واجبة، وإن الطاعة واجبة، وإن وحدانية السلطان قرينة وحدانية الله، وإن ساكن يلدز عبدالحميد هو «إمام الامة الاسلامية على الاطلاق، وحامي بيضة الملة الحنيفة في الآفاق، حجة الله البالغة في أرضه، القائم بأمر الدين في إداء نفله وفرضه، ما زالت أوامره السنية شرعة للحق ومنهاجا، وعزائمه الهمايونية في سماء المعالي سراجا وهاجا». نقلا عن: الدكتور عزيز العظمة، المصدر السابق، ص102.

ففي الوقت الذي نما فيه الوعي القومي بين العرب والكرد والألبان[1]، تعزز، بفعل الظروف والعوامل نفسها، الفكر القومي التركي، ولم يكن حتى رافع راية الجامعة الإسلامية في منأى عن تأثيره[2].

تسرب الفكر القومي إلى المثقفين الأتراك عبر عدة قنوات، لعل أولها اللاجئون البولنديون والمجريون الذين انتقلوا إلى الدولة العثمانية اثر فشل ثورتهم لعام 1848، خاصة وإن قسما كبيرا منهم فضلوا البقاء فيها واعتنقوا الإسـلام، منهم الكونت قسطنطين بورزيسكي(Contantine Borzecki) ليصير اسمه، بعد اعتناقه الإسلام، مصطفى جلال الدين باشا، والذي نشر عام 1899 كتابا بالفرنسية في اسطنبول بعنوان «أتراك ألامس وأتراك اليوم» (Les Turcs Anciens et Modernes)، تكلم فيه عن مشاكل الدولة العثمانية واقتراحاته لحلها، واشتمل الكتاب على جزء تأريخي ضم دراسة لمستشرق أوربي عن التاريخ القديم للأتراك،حاول جلال الدين، من خلاله، إظهار دور الأتراك الإيجابي والخلاق في التاريخ[3].

شكل هذا الكتاب، والكتابات المشابهة، أحد السبل المهمة لإطلاع الأتراك على كتابات المستشرقين الأوربيين الذين توجهوا لدراسة كل ما تعلق بالأتراك لغة وشعبا وتاريخا، فكان لكتاباتهم دور مؤثر على الذهنية التركية، خصوصا في تقدير التاريخ التركي القديم، والاعتقاد بهويتهم المميزة[4].

نحو أواخر القرن التاسع عشر، وتأثرا بالبحوث الأوربية عن الشؤون التركية، وبدرجة أكبر بهجرة عدد كبير من المثقفين الأتراك المسلمين من روسيا إلى اسطنبول حاملين معهم

1- سؤدد عبدالحسين سبتي الربيعي، المصدر السابق، ص42-65؛ فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص176؛ موفق بن مرجة، المصدر السابق، ص99.

2- في مناقشة لعبد الحميد الثاني مع صدره الأعظم خير الدين باشا، صرح السلطان قائلا «باشا، أنا تركي، وسأظل تركيا».

Tolga Koker, Op.Cit., P.8.

3- B.lewis, The Emergence of Moderm Turkey, P.345.

4- B.Lewis, The Middle East and The West, P.83

في الترجمة العربية ص127.

فكرة الوحدة اللغوية والثقافية للشعوب التركية، ظهرت مجموعة من العلماء والكتاب سعت إلى تعزيز تيار التركية من خلال توجيه الحياة الثقافية صوب البحث عن ثقافة قومية خاصة بالأتراك[1]. وشكل هذا التيار رحما للأدب القومي، الذي كان بيان ولادته غداة الانتصار العسكري على اليونان عام 1897 صدور ديوان «مشاعر تركية» (Türkçe Şürler)، للشاعر محمد أمين[2]، الذي أشاد بأشعاره بسمو الأتراك، لا العثمانيين، فصرح قائلا:

« **تركي أنا، كريم اسمي، كريم عرقي**»

وأعلن «**نحن الأتراك بهذا الدم، وهذا الاسم نحيا**»[3].

كان للتيار التركي، مثلما للعثماني والإسلامي، أنصار ومؤيدون، ازدادوا هنا وقلوا هناك. وفي حالات غير قليلة جمع المثقف الواحد في نفسه رصيدا للتيارات الثلاثة، وحاول التنسيق بينها بشكل مقبول، من ذلك ما كُتب، مثلا، في جريدة «إقدام» ضمن عددها الصادر في 27 تموز 1896:

«**بالدين نحن مسلمون، بالحياة الاجتماعية نحن عثمانيون، وبالقومية نحن أتراك**»[4].

مثل هذا التوجه عكس ارتباكا وشدا واضحين، وأكد حالة إنقسام كبير بين الموروث الحضاري وكم الأفكار الجديدة المتغلغلة في المجتمع العثماني. وطبيعي امتدت آثار هذا الانقسام والخلاف لتشمل كل الجوانب الفكرية وتطبيقاتها على الواقع الاجتماعي، فأقيم

1- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص212.

2- محمد أمين (1869-1944) شاعر واديب تركي، تسلسل، بعد تخرجه من كلية الحقوق، في السلم الوظيفي وتولى عددا من المناصب الادارية، نشر أولى قصائده أثناء الحرب العثمانية اليونانية. أعجب بتيار التري، وإنضم إلى مؤسسي مجلة الوطن التركي عام 1911. له نتاجات كثيرة، منها «استيقظ أيها التركي» (Ey Türk Uyan)، «نحو طوران» (Turana Doğru)، «حقوق التركي» (Türkün Hukuku)، «الفتيات المثقفات» (Aydin Kızları)، «مصطفى كمال»(Mustafa Kemal).

"Meydan Larousse Büyük Lûgat ve Ansiklopedi", Vol.12, İstanbul, 1973, S.860

3- Quoted in: B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P. 343; Nuri Eren, Op.Cit., P.17.

4- Quoted in: David Kushner, Op.Cit., P.25.

التعارض المطلق بين الموقف الليبرالي، وبين الموقف الديني أو الذي يعضده الدين، وركزوا على قضايا بذاتها لتأخذ شكلا رمزيا بين الفريقين، فأصبح الحجاب، مثلا، علامة على الفرق بين هذا وذاك، وأودع فيه، وفي قضية المرأة عموما، نَفَسٌ من القدسية، وبالمقابل صار تحررها علامة على العلمانية والتغريب، أصبحت المرأة ميدانا لمباراة حامية بين الفريقين، وصار في عالمها الفرق بين علامات القدس وعلامات الدنس، بين الدنيا المنفوحة قدسا ونقائضها[1]. أما أولئك الذين حاولوا التوفيق بين الفريقين فقد طالبوا المرأة بتحقيق الموازنة بين الحداثة والتقليدية، وتوقعوا منها أن تكون عصرية في مظهرها مع الحفاظ على القيم المتوارثة، مثل الاحتشام، بشكل يكفل إبعادها عن الدخول في مملكة الرجال[2].

أمتد هذا الوضع المشوش ليشمل الرجال، أيضا، بصيغة معارضة ما هو «فوق التغريب» (Over- Westernization) بين الرجال الصفوة الذين تحول مفهوم التغريب عند جانب كبير منهم إلى تقليد العادات الاجتماعية للغرب، والميل إلى الإفراط في التأورب في الأنماط المعيشية بأشكالها المظهرية، وتبني كل ما هو أوربي[3]. فمع وجود تيار دافع عن تبني الحضارة الغربية، مظهرا وجوهرا، بوصفها كلا غير قابل للتجزئة، كانت هناك كتابات كثيرة ذمت هذا التوجه من وجهة نظر إسلامية، كجزءٍ من هجومها على التغريب إجمالا[4]، وظهرت كتابات أخرى ذمته، أيضا، ولكن بوصفه فهما ضيقا للتغريب وعائقا أمام التحديث، ودعت إلى المزيد من التغريب الواعي المصحوب بالمحافظة على قيم الحضارة المحلية.

1- **Şerif Mardin, Urban Life in the Ottoman Empire, PP.421-422;**
الدكتور عزيز العظمة، المصدر السابق، ص111.

2- **http:// www. Aihgs. Com/ paradox. Htm, Ayse Kadioglu, The Paradox of Turkish Nationalism and the Construction of Official Identity, "Middle Eastern Studies", Vol. 32, April 1996.**

3- **http:// www. Kongar. Org/ aen_tr.php,, Emre Kongar, Turkeys Cultural Transformation, "The Transformation of Turkish Culture", Ed. G.Renda and C.Max Kortepeter, NewJersey, 1986, PP.19-68; Ayse Kadioglu, Op.Cit.; Şerif Mardin, Urban Life in the Ottoman Empir, P.406.**

4- الدكتور عزيز العظمة، المصدر السابق، ص107.

فـ «من أجل أن نرتقي بحضارتنا علينا محاولة اكتساب التقدم الصناعي الغربي من أوربا. نحن لا نريد أن نفتح مراقص أو بارات، ولا نريد أن نقلد أخلاقهم وشطحاتهم الشيطانية كقسوة قلوبهم إزاء الشعوب التي تموت جوعا»[1]، كما أشار أحد دعاة هذا التيار. وفي السياق نفسه أكد أحمد مدحت أهمية اتخاذ الخطى على طريق التغريب بعناية «لأننا رأينا أن الحضارة الأوربية لها جوانب سلبية، مثلما لها جوانب إيجابية» و«فهمنا لأن نكون أوربيين هو أخذ الصناعات والعلوم الحديثة، والإلمام بوسائل الاقتصاد والحرف النفعية»، لكننا يجب أن نكون حريصين على عدم أخذ «الجوانب السلبية» في الحضارة الأوربية، ولابد من وضع حدود على الأوربة «فإذا ما حاولنا التأورب فقط من اجل أن نصبح أوربيين، فإننا سوف نفقد شخصيتنا. ومن جهة أخرى فاننا إذا حولنا إضافة الحضارة الأوربية إلى شخصيتنا الخاصة، فإننا سوف لن نحافظ ونديم ونصون شخصيتنا فحسب، بل وسوف نهذبها ونقويها أيضا»[2].

على الرغم من التركيز على أخذ كل ما يخص الجوانب العلمية والتقنية من أوربا، لكن هذا المجال، أيضا، تحول إلى محل جدل عنيف، لم تثمر معه جهود التسوية ليظل الصراع حامي الوطيس بين الجانبين، فبينما حاولت مجموعة، باستخدام شعارات دينية لطالما حركت الجموع الغفيرة، تحريم تدريس العلوم العصرية واللغات والجغرافية، واتهموا من عمل على نشرها بالكفر[3]، بل وتمكنوا، قبيل ثورة 1908، من إستحصال أمر حكومي بشطب كلمة فلسفة من القاموس[4]، أصر أنصار العصرنة، الذين هيمنوا على الحياة الفكرية حتى في ظل حكم عبدالحميد الثاني، على المضي قدما في تبني ونشر العلوم الغربية، ورفض كل محاولات التسوية. فكتب أحد أعلام هذه الحركة:

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.14.

2- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.285.

3- R.H.Davison, Westernized Education in Ottoman Turkey, P.298;

الدكتور عزيز العظمة، المصدر السابق، ص1

4- Abdulhak Adnan- Adivar, Interaction of Islamic and Western Thought in Turkey, "Near Eastern Culture and Society. A Symposium on The Meeting of East and West", Ed. T.C.Young, NewJersey, 1951, 124.

«حاول بعض مثقفينا، تجنبا لردود الأفعال الحادة، جعل الثقافة الأوربية أكثر قبولا، وذلك لإدخال الحضارة الحديثة إلى أرض الإسلام.وقد زعم هؤلاء إن للحضارة الغربية جذورا إسلامية. وقد ذكروا في الصحف، وفي كتبهم، وفي مختلف الكتابات، إن العلوم والتكنولوجيا الأوربية مأخوذة من اكتشافات إسلامية. وهذا جهد مشكور. ولكن رغم أن هناك كثيرا من الصدق فيما يقولونه، إلا انهم بالغوا كثيرا أيضا، وخلقوا مشاكل جديدة عن غير قصد. حتى لو حاولنا تجديد الأبحاث والدراسات عن طب أبن سينا، وفيزياء أبن النفيس، وكيمياء الجاحظ، وترجمنا كتبهم، ونشرناها، وأسسنا مدارس خاصة لهذا الغرض، يبقى علينا، بالمقابل، أن نحصل على أفضل المنجزات العلمية لقرننا الحالي. هل لأننا لا نستطيع علاج الملاريا بطب أبن سينا، يعني أننا لانستطيع مد سكك الحديد، وبناء سفينة، أو لأننا لا نستطيع استخدام التلغراف عن طريق كيمياء وفيزياء الجاحظ.... إذا أردنا تحديث أنفسنا علينا القيام بذلك عن طريق استعارة العلوم والتكنولوجيا الحديثة... حتى أوربا ظهر فيها بعض المفكرين الذين حاولوا التوفيق بين النصوص الدينية والعلوم الحديثة من أجل إخماد نار التعصب. وعلى أي حال، إن التعصب دمر أولئك الذين حاولوا إخماده، لان التعصب ليس بالوحش الذي يمكن إغرائه عن طريق الليونة. وأخيرا اجتمع المفكرون سوية، يدا بيد، وشنوا حربا ضد التعصب، مستخدمين الفؤوس والبارود لتدميره، وعندها فقط بدأ تقدم الحضارة. في مجتمعنا، أيضا، ولكي نحقق التقدم الحضاري، وننقذ المسلمين من الجهل المخيم على عقولهم يجب إعلان الحرب ضد التعصب لإنهائه بالقوة، وفتح الطريق أمام التحضر»[1].

في هذا المناخ من الأفكار الجديدة، والصراع بين مفاهيم الإصلاح والتغريب والميول المحافظة، والفكرة العثمانية والبعث الإسلامي والنزعة القومية، ولدت «جمعية الإتحاد والترقي».

1- Quoted in: M.Şükrü Hanıoğlu, The Young Turks in Opposition, P.15.

الفصل الثالث:

جمعية الاتحاد والترقي
التأسيس والانتشار

أولا- نشأة جمعية الاتحاد والترقي

حتم واقع الغليان الاجتماعي والفكري للدولة العثمانية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ظهور تنظيمات سياسية تتفاعل معه، وتعمل على تلبية متطلباته، جمعت بين شعور عارم بالاستياء من الأوضاع الاقتصادية والسياسية المتردية، ورغبة جياشة في التغيير، برز بينها ما عرف بـ «جمعية الاتحاد والترقي» (İttihat ve Terakki Cemiyeti).

ضمن الفئة المثقفة، وبين الصفوف الطلابية بالذات، يمكن متابعة تكون النواة الأولى لجمعية الاتحاد والترقي. ففي الذكرى المئوية للثورة الفرنسية، وبإيحاء كل ما رافقها من أجواء، قامت مجموعة من طلبة الكلية الطبية العسكرية في الحادي والعشرين من أيار 1889 [1] بتشكيل جمعية سرية هدفها الواضح معارضة النظام

1- هناك اختلاف كبير في تحديد تأريخ تأسيس الجمعية، إذ يشير المؤرخ أحمد بدوي كوران في كتابه «تأريخ الثورة والشبان الترك» المنشور عام 1945، إلى أن الجمعية تأسست عام 1892، لكنه يعود ويعدل التاريخ إلى الحادي والعشرين من أيار 1889 في كتابه الثاني عن تأريخ الجمعية «تأريخ الثورة والاتحاد والترقي»، ويترك يوسف حكمت بايار شهر أيار لعام 1889 مفتوحا في تحديد موعد تشكيل الجمعية، ويشير مصدر آخر إلى أن التاريخ هو بعد ساعة من غروب شمس الخامس والعشرين من شهر أيار 1887. رغم كل هذا الخلاف فان الميل عند معظم من أرخ لجمعية الاتحاد والترقي اعتماد التاريخ الذي حدده مؤسس الجمعية إبراهيم تيمو، أي الحادي والعشرين من أيار 1889.

Ahmed Bedevi Kuran,İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkler,İstanbul,1945,S.30

أحمد بدوي كوران، تأريخ الثورة والشبان الترك، اسطنبول، 1945، ص30؛

Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, İstanbul, 1948, S.61

أحمد بدوي كوران، تأريخ الثوة والاتحاد والترقي، اسطنبول، 1948، ص61؛

Yusuf Hikmet Bayur, Türk İnkılâbı Tarihi, Cilt I, Kısım I, Ankara, 1963, S.64

يوسف حكمت بايار، تأريخ الثورة التركية، المجلد الأول، القسم الأول، أنقرة، 1963، ص64؛

◄ "Atatürk Ansiklopedisi", Hazırlayan Ömer Sami Coşar, Cilt 1, İstanbul, 1981, S.115

الاستبدادي الحميدي، وذلك بمبادرة من الطالب الألباني إبراهيم تيمو، الذي التحق بالكلية سنة 1888-1889، ليتيح له إضراب طلابي، حدث في السنة نفسها، التعرف على الطلبة المتفقين معه في الرؤى والتوجهات، وبدأ بمفاتحة إسحاق سكوتي، وهو كردي من ديار بكر، ليدعوا مع بعضهما اثنين من أقرانهما في الصف، وهما كل من عبدالله جودت، كردي من عربكير، ومحمد رشيد، شركسي من القوقاز، ولم يلبث أن انضم إليهم عضو خامس هو حسين زادة علي من باكو[1]. واختار المؤسسون «الاتحاد العثماني» (İttihad-ı Osmani) اسما لجمعيتهم.

لم يكن من قبيل المصادفة أن تشكل الكلية الطبية مهدا للجمعية، فالفن العسكري والطبي يمثلان قطاعين من قطاعات الدولة جرى الاضطلاع فيهما بإصلاحات تحديث منذ مرحلة مبكرة، وكانا، بحكم هذا الواقع، متقدمين على بقية المجتمع في أغلب الأحيان، كما أن التدريس بالكلية الطبية العسكرية منذ البداية كان باللغة الفرنسية، وهو ما فتح الباب على مصراعيه أمام طلابها لينهلوا من الفكر الأوربي، ويكونوا أكثر اتصالا بالمفاهيم والعلوم الغربية، والأقوى ارتباطا باتجاهات أوربا الفكرية، والأكثر ابتعادا عن الموروث الفكري، لاسيما وإن مناهجهم خلت من دراسة العلوم الدينية أو التقليدية، واتسمت بطابع عصري

◄ «موسوعة اتاتورك»، اعداد عمر سامي كوشر، المجلد الأول، اسطنبول، 1981، ص115؛ "İttihad ve Terakki Cemiyeti'nin Kurucusu ve 1/1 no'lu Üyesi İbrahim Temo'nun İttihad ve Terakki Anıları", İstanbul, 1987, S.15

«ذكريات إبراهيم تيمو مؤسس جمعية الاتحاد والترقي والعضو 1/ 1 فيها عن الاتحاد والترقي»، اسطنبول، 1987، ص15.

1- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İtthad ve Terakki, S.61; "Atatürk Ansiklopedisi", S.114; Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt 1860-1908, İstanbul, 1983, S.163

شوكت ثريا ايدمير، أنور باشا من مقدونيا إلى آسيا الوسطى، الجزء الأول 1860-1908، اسطنبول، 1983، ص163.

قياسا بكل أنواع المعرفة السائدة، لينعكس كل ذلك في طبيعة نظرتهم لواقعهم الاجتماعي والشكل الذي طمحوا أن يكون عليه[1].

بعد بدايتها المتواضعة أخذت الجمعية بالانتشار أولا بين صفوف المدارس العليا الاسطنبولية في الكلية الحربية، والكلية البحرية، ومدرسة الطب البيطري، ومدرسة الإدارة وغيرها من المدارس الحديثة[2]، ساعدها المناخ الثوري المهيمن على هذه الأماكن، الذي كان من بين مظاهره تزايد أعمال العصيان، وارتفاع هتاف الطلبة، مرارا بملء إرادتهم «يحيا الدستور» و «يسقط السلطان» بدلا من «عاش السلطان»[3]. كما بدأت الجمعية، بخطى وئيدة، باكتساب الأنصار بين ضباط الجيش، وضمن العاملين في صفوف البيروقراطية[4].

1- فرانسوا جوجو، المصدر السابق، ص228؛ الدكتور محمد أنيس والدكتور السيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، 1967، ص167؛

Kemal H.Karpat, Turkey's Politics. The Transition to a Multi- Party System, Second Printing, USA, 1966, P.7; R.H.Davison, Westernized Education in Ottoman Turkey, P.295; Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, PP.115-116.

2- L.Kinross, Op.Cit., P.572; G.S.Papadopouloos, England and the Near East 1896-1898, Institute for Balkan Studies, Thessaloniki, 1969, P.56.

3- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص219؛

B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.195; http:// coursesa. matrix. msu. edu/~ fisher/ hst373/ readings/ Deringil 1. html, Selim Deringil, Long Live the Sultan! Symbolism and Power in the Hamidian Regime, "Chapter One of his book: The Well- Protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire 1876-1909, London, 1998, PP.16-43".

4- Mustafa Müftüoğlu, Tarihin Hükmü. Abdülhamıd Kızıl Sultan Mı?,. Cild II, Ankara, S. 46

مصطفى مفتي اوغلو، حكم التأريخ. هل كان عبدالحميد سلطانا أحمرا؟، المجلد الثاني، انقرة، ص46؛

Necip Fazıl Kısakürek, Ulu Hâkan II Abdülhamid Hân, İstanbul, 1964, S.232

نجيب فاضل قصاكورك، الخاقان العظيم عبدالحميد الثاني، اسطنبول، 1964، ص232.

أخذ الأعضاء يعقدون اجتماعاتهم بصورة جدية، وصاروا يطلقون على كل اجتماع اسما خاصا به، فسموا الاجتماع الأول «اجتماع الأربعة» (Dörtler İçtimaı)، والاجتماعات القليلة التي تلته أطلق عليها «اجتماع أمام الحمام»(Hamamönu İçtimaı) أو «اجتماع في غرفة المطالعة أمام حطب الموقد» (Hatab Kıraathanesi İçtimaı)[1]، جرت في هذه الاجتماعات التباحث في أوضاع الدولة العثمانية، والحديث عن الثورة الفرنسية، والتغني بقصائد نامق كمال وقراءة كتاباته[2].

بعد شهرين من الاجتماع الأول عُقِد أول اجتماع خارج أسوار الكلية الطبية العسكرية في حديقة مقهى يملكه رجل الباني يدعى علوش اغا، وأطلق على الاجتماع اسم اجتماع تحت شجرة التين (İnciraltı İçtimaı)، شارك فيه، حسب رواية تيمو، اثنا عشر عضوا، وهم، فضلا عنه، وعن زميليه عبدالله جودت واسحق سكوتي، كل من علي رشدي الهرسكي، موظف في وزارة العدل، والصحفي علي شفيق الازميري، وعساف درويش، طالب في كلية الطب، ومحرم الكريتي، مدرس في كلية طب الشام، وشرف الدين مغمومي، طالب في كلية الطب من منطقة اسكدار، ومحمد رشيد الشركسي وثلاثة آخرون نسي تيمو أسماءهم[3].

دارت مناقشات الاجتماع حول نظام العمل في الجمعية وأسلوب قبول الأعضاء، ولم يخلُ الحديث من خلاف في وجهات النظر، إذ طالب البعض باقتصار العضوية على العناصر المسلمة، وكان القرار النهائي، كما أصر عليه إبراهيم تيمو، جعل القبول مفتوحا لكل عثماني،

1- إن سبب اختلاف التسمية للاجتماعات نفسها هو انعقادها في غرفة استخدمت بشكل مزدوج للمطالعة وجمع حطب الحمام بحكم قربها منه.
Şevket Süreyya Aydemır, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.164; "Atatürk Ansiklopedisi", S.115.

2- تمتعت كتابات نامق كمال، بالذات، بتأثير كبير ومتميز بين صفوف الطلبة والشباب.
B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.196; Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralarım, İstanbul, 1957, S.6
كاظم نامي دورو، ذكرياتي عن الاتحاد والترقي، اسطنبول، 1957، ص6.

3- **"İbrahim Temo'nun İttihad ve Terakki Anıları", S.16.**

بغض النظر عن ديانته وقوميته، طالما ثبت حسن نيته واستعداده للكفاح ضد الحكم الاستبدادي[1]. وخرج المجتمعون بعدة قرارات، أهمها عقد لقاءات أسبوعية في أماكن مختلفة لكتابة النظام الداخلي للجمعية، وجمع الرسوم، وتأسيس الفروع[2]. كما تم انتخاب هيئة إدارية للجمعية صار بموجبه علي رشدي رئيسا للجمعية، نظرا لسنه ومقامه حسب تعبير تيمو، وانتخب شرف الدين مغمومي أمينا للسر، وعساف درويش أمينا للصندوق[3].

حوّل هذا اللقاء الجمعية من مجموعة طلاب ينقصهم التنظيم إلى مؤسسة ذات إطار عمل محدد، ومعقد بعض الشيء، فقسمت الجمعية إلى خلايا، ضمت كل خلية خمسة أعضاء، وأعطي كل عضو فيها رقما كسريا، وضع في بسطه رقما خاصا بالعضو، أما مقام العدد فيمثل رقم الخلية. وتسلم إبراهيم تيمو، بوصفه مؤسسا، رقم العضوية الأول 1/ 1، أي العضو الأول في الخلية الأولى، وبالطريقة نفسها تم إعطاء الأرقام الأخرى لبقية الأعضاء الذين تقرر أن تقتصر دائرة معارفهم من أعضاء الجمعية على أعضاء الخلية فقط، باستثناء عضو الارتباط الذي يحق له أن يكون على معرفة بعضو واحد من الخلية الأخرى[4]. دفع هذا التنظيم الكثير من الباحثين، بدءا برامزور والعديد ممن ساروا على نهجه، إلى تأكيد التأثر بمنظمة الكاربوناري (Carbonari)[5]. ومع إن هذا الاحتمال يبقى واردا، إلا أنه ليس

1- Ibid., S.17.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.72.

3- "İbrahim Temo'nun İttihad ve Terakki Anıları", S.16.

4- Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.17
في الترجمة العربية ص50-51؛ الدكتور حسن كلشي، الوجه الآخر للاتحاد والترقي، ترجمة وتقديم الدكتور محمد م.الارناؤوط، الأردن، 1990، ص22-23.

5- الكاربوناري، أو حارق الفحم جمعية سرية تأسست في إيطاليا أوائل القرن التاسع عشر من مجموعة استفزتهم السيطرة الأجنبية على بلادهم، ورفعت الجمعية «الحرية والاستقلال» شعارا لها. جمع بينها وبين الجمعيات الماسونية تشابها كبيرا في طبيعة الحفلات وماهية المراسيم والشعائر والأقسام والعهود. وكانت هذه الجمعية أشهر الجمعيات السرية في إيطاليا، وأكثرها نفوذا، أدت دورا فاعلا في الثورات المجهضة لسنوات 1821 و1831، وأسهمت بشكل متميز في حركة الانبعاث والوحدة الإيطالية. يراجع: الدكتور صالح محمد العابد، حركة الانبعاث الإيطالية Risorgimento، «المؤرخ العربي» (مجلة)، العدد17، 1981، ص166-167؛ علي أدهم، متزيني، الطبعة الثانية، بغداد، 1985، ص11-13.

هناك معلومات تؤكد معرفة العناصر المؤسسة للجمعية بآراء وأفكار الكاربوناري، في الوقت الذي توجد فيه إشارات واضحة إلى التأثر بالجمعية اليونانية السرية فيليكي ايتيريا (Filiki Eteria)[1]، إذ أن إبراهيم تيمو أشار إليها، بوصفها أنموذجا، منذ اللقاء الأول لتأسيس الجمعية[2]، وعمد، خلال الاجتماعات، إلى شرح تنظيماتها وأعمالها مع المؤسسين[3]. والواقع إن الجمعيتين كان يجمعهما الكثير من التشابه، ولاسيما في الجانب التنظيمي، وشرب الاثنان موضوعيا من منهل واحد هو الماسونية. وسواء كان التأثر بهذه أو تلك فأنه، على أي حال، لم يكن بالأفكار السياسية، وإنما في إطار أعمالهما المؤسساتية. فنظام الأرقام كان من شأنه أن يحافظ على سرية الجمعية وأمن أعضائها، وهو مطلب ضروري في ظل النظام الحميدي.

على الرغم من كل المحاولات للحفاظ على سرية الجمعية بدأت الجاسوسية النشطة لعبدالحميد، منذ العام 1890، بالتقاط الأخبار عن وجود نشاط ما بين صفوف الطلبة[4]. وفي العام 1892 وصلت يلدز معلومات مؤكدة عن وجود تنظيم سياسي داخل الكلية الطبية

1- وتعني «جمعية الأصدقاء»، وهي جمعية سياسية سرية أسسها في روسيا التجار اليونانيون المقيمون هناك عام 1814، ثم مدت نشاطها إلى أقاليم الدولة العثمانية، مع تركز أكبر في اليونان، وفي العام 1818 نقلت الجمعية مركزها إلى اسطنبول. رغم اقتصار أعضاء الجمعية في المراحل الأولى على التجار، فأنها ما لبثت أن ضمت بين صفوفها مختلف فئات المجتمع اليوناني، فمع التجار صار هناك الحرفيون، وملاك الأراضي، ورجال الدين، والمثقفون. وتزايد عدد أعضاء الجمعية بشكل سريع، فتراوح عام 1820 ما بين 80 ألف و200 ألف عضو، ساعد على نجاح نشاطها بنيتها التنظيمية المقتبسة، بدرجة كبيرة، من الكاربوناري والماسون. وقد تمكنت الجمعية من تهيئة الأوضاع للثورة في اليونان وإعلان الانتفاضة عام 1821. يراجع: الدكتور هاشم صالح التكريتي، المسألة الشرقية، ص90-91؛

"Sovetskaya Istoricheskaya Encyclopedia", Vol. IV, Moscow, 1963, Str.427-428.

«الموسوعة التأريخية السوفيتية»، المجلد الرابع، موسكو، 1963، ص427-428.

2- "İbrahim Temo'nun İttihad ve Terakki Anıları", S.15.

3- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.72.

4- Ibid., P.71.

الحربية، بوساطة تقرير قدمه مجموعة من طلابها[1] أوضح أن «أفكار الحرية» تنتشر بطلاقة في الكلية الطبية العسكرية، وبأن الكلية مليئة بالمطبوعات الممنوعة، وعن احتمال حدوث فعاليات معادية للنظام في القريب العاجل. إثر ذلك جرت عمليات تفتيش واسعة في الكلية، تلاها نقل مدير الكلية صائب باشا إلى موقع آخر، ووضع زكي باشا، مدير المدارس العسكرية والمقرب من السلطان، مسؤولا عن الانضباط العسكري في الكلية وصاحب الكلمة الأعلى فيها، وأجريت عملية تحقيقات واعتقالات واسعة[2].

لم تحل كل الإجراءات الحكومية دون تنامي الجمعية، بل إن اتساعها واجتذاب العناصر الجديدة ظل مستمرا، واكتسب زخما إضافيا، منطلقا خارج أسوار الكليات والمدارس إلى مختلف الفئات المثقفة العثمانية[3]، وامتد ليشمل عددا من الشخصيات البارزة من أمثال وزير التعليم السابق منيف باشا[4]، المعروف بأفكاره التحررية، والحاج أحمد أفندي الموظف المدني في دائرة الحسابات الحربية، وشيخ من الدراويش المولوية اسمه نائل أفندي[5]. فلقد انعكست الإجراءات الحكومية الصارمة إيجابا على اتساع نشاط الجمعية، وهو ما يمكن إستنباطه من مضامين منشوراتها، إذ نص واحد منها نشره الاتحاديون

1- يذكر أرنست أ. رامزور إن عدد الطلبة الذين رفعوا التقرير كان ثلاثة، بينما يشير محمد شكر هاني اوغلو إلى أن العدد كان أربعة.

Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.19; M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.73.

2- **M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.73; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, PP.19-20.**

3- **http:// www. p.sa. ac. uk/ cps/ 2002/ jcoby. pdf, Tim Jacoby, The Internal Dynamics of Turkish Militarism, P.13.**

4- تولى منيف باشا (1830-1910) مهام وزارة التعليم في الدولة العثمانية لمدة نيف وخمس سنوات، امتدت من 1885-1891.

Mustafa Yazıcı, Tanzimattan Buyana Milli Eğitim Bakanları Başbakanıar, S.79.

5- **M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.73-74.**

مؤاساة لوفاة أحد أعضائها «رغم موت عضو واحد منا، فقد ولد آلاف لقيادة مسيرة التنوير. إن فئة المتحررين خالدة»[1]، وفي منشور آخر اقتبسوا جملة مشهورة لنامق كمال عبروا، من خلالها، عن إيمانهم بكونهم مجموعة فكرية واعية لواقعها، ترفض القمع الصادر عن الاستبداد، فخاطبوا المستبدين على لسان شاعرهم المفكر: «يستحيل محو التحرر بالقمع والقسوة. حاولوا أن تمحوا العقل من الإنسانية إن استطعتم»[2].

لم تلبث الجمعية أن بدأت بنشر نشاطها بين صفوف العثمانيين الموجودين خارج الدولة العثمانية من المنفيين، جبرا أو اختيارا، تحت وطأة النظام الحميدي، وأخذت النوى تتشكل في القاهرة ورومانيا ولندن، وعلى نحو خاص في باريس وجنيف[3]، ساعد على نجاح إنشائها مجيء أعداد متزايدة من أعضاء الجمعية إلى أوربا خشية على أنفسهم من الاعتقال أو النفي، وتركز معظمهم في باريس، متخذين منها ملاذا آمنا ومكانا للدراسة والاستزادة من العلوم الحديثة، ومركزا للنشاط السياسي ضد السلطان عبدالحميد[4]. من بين هؤلاء كان طلاب الطب إسماعيل زهدي، وأحمد ورداني وناظم السلانيكي. وقد كلف الأخير بالاتصال بالمعارضة في فرنسا، وتأسيس علاقة مع أحمد رضا (1859-1930)، المعارض المعروف لعبد الحميد، الذي قدر له أن يكون من أشهر رجال الاتحاد والترقي في أوربا[5].

1- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.17.

2- Quoted in: Ibid.

3- Tarık Z. Tunaya, Türkiyede Siyasi Partiler 1859-1957, İstanbul, 1958, S.110-111

طارق ظ. تونايا، الأحزاب السياسية في تركيا 1859-1957، اسطنبول، 1958، ص110-111.

4- V. I. Shpilkoval, Mladoturetskaya Revoliotsia 1908-1909 gg., Izdatelstvo Nauka, Moskva, 1977, Str.33-34

ف. إي. شبيلكوفا، ثورة تركيا الفتاة، دار نشر العلم، موسكو، 1977، ص33-34؛ فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص229؛ الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص26.

5- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkler, S.31; Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.170.

ولد أحمد رضا في اسطنبول من أم مجرية اعتنقت الإسلام، وأب تركي اسمه علي رضا، الذي كان يلقب بعلي الإنكليزي لإجادته اللغة الإنكليزية وعلاقته الطيبة بالإنكليز، وتقليدهم في نمط حياتهم، والمعروف بتوجهاته الدستورية وميوله التحررية، وكان أحد أعضاء مجلس الأعيان إبان الحكومة الدستورية الأولى، ثم نفي بأمر من السلطان عبدالحميد إلى آلجن (Ilgin) حيث مات، وهو ما ترك بالضرورة أثره في أفكار وتوجهات أحمد رضا[1].

درس أحمد رضا في غلطة سراي، ثم توجه إلى فرنسا لدراسة الزراعة بعد أن راعه واقع الفلاح التركي، و«نظرا لفشلي في فهم أسباب هذا الفقر» حسب قوله «فكرت في إن الحل قد يكون في إصلاح أساليب الزراعة»[2]. بعد إكمال دراسته عمل في وزارة الزراعة، لكنه لم يتمكن من تحقيق أي من طموحاته في الإصلاح الزراعي، وخلص إلى «أن جهل الفلاحين هو العائق أمام إدراكهم الحاجة إلى تطبيق الطرق الزراعية الحديثة»، وفضل الانتقال إلى التعليم لأنه «السبيل الأمثل لتنوير أذهان الناس»[3]. وبعد مدة من عمله مديرا للتعليم في ولاية بورصة أحس بيأس وإحباط عميقين بسبب استحالة نقل أفكاره إلى حيز التطبيق، فقرر الرحيل للإقامة في فرنسا عام 1889 [4]، وهناك سعى أحمد رضا، على وفق كلامه، إلى دراسة أسباب تقدم الأمم، ولاسيما «تلك التي مرت، مثل حالنا، بظروف خطرة»

1- Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.168; B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.197-198; http:// www. ifea- istanbul- net- noire- gerit. html, Enes Kabakçı, Ahmed Riza Bey Interprets Positivism.

2- Quoted in: Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, PP.305-306.

3- Quoted in: Ibid., P.306.

4- Yusuf Hikmet Bayur, Türk İnkılâbı Tarihi, S.246; Şvket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.168; V. I. Shpilkoval, Mladoturetskaya Revoliotsia, Str.35-36; http: //www. Fsmitha. Com./ h2/ ch09tu. Html, Islam and Revolution in Turkey 1900-1930.

واستنتج «بأنه لا توجد وسيلة لإنقاذ البلاد والأمة من الخطر المحدق بها إلا من خلال التعليم والعلوم الوضعية»[1].

في سبع مذكرات بعث بها أحمد رضا إلى السلطان عبدالحميد إبان السنوات 1889-1894، سعى، باستخدام لغة المنطق، إلى إقناع عبدالحميد بتغيير سياسته تجنبا للثورة، وأكد له إن الناس لا تريد الدستور، أو الجمهورية، أو حق الإضراب، الناس فقط بحاجة إلى إدارة «لا تضحي بحقوقهم العامة في قضايا تخص الحياة والموت بسبب الطمع، ولا تُلغي وجودهم استجابة لنزوة تحكمية»، وإن إعادة الحكم الدستوري هو الكفيل بضمان وجود مثل هذه الإدارة، وبوضع أساس لبرنامج تعليمي شامل من التعليم الابتدائي إلى الجامعي، لم يفت أحمد رضا أن يقدم تفاصيله[2]. وفي جهوده للدعوة إلى نظام دستوري عمد رضا إلى الأسلوب نفسه الذي اتبعه العثمانيون الجدد في التشديد على إن الشريعة تأمر بتطبيقه، داعما طروحاته بأمثلة من سنة الرسول الكريم، وسيرة الخلفاء الراشدين، ومن ممارسات السلاطين العثمانيين الأوائل أيضا[3].

تمكن أحمد رضا، خلال وجوده في فرنسا، من تحقيق شعبية واسعة بين المعارضة العثمانية، وذلك بفضل منشوراته في الصحافة الفرنسية، وندواته حول تحرير المرأة، والأهم مذكراته الإصلاحية المرسلة للسلطان. فألتف حوله المعجبون والمؤيدون، واستطاع أن يجمع حوله مجموعة معادية لنظام عبدالحميد، وصار من المفيد لجمعية الاتحاد العثماني كسبه ضمن صفوفها.

كانت محاولات الاتصال بأحمد رضا قد بدأت منذ بداية قيام الجمعية عام 1889، إلا أن الجمعية لم تكن من القوة والاتساع بدرجة تثير اهتمامه[4]. على كل حال بعد محادثات طويلة مع ناظم السلانيكي، جرت في العام 1895، انضم أحمد رضا إلى الجمعية مترئسا

1- Quoted in: Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.306.

2- Ibid., PP.306-307.

3- Ibid.; Hasan Kayalı, Op.Cit., P.42.

4- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.74.

قيادتها في أوربـا. وبوصفه أحـد الأنصار المتحمسين لمذهب أوكست كونت (Auguste Comte) ومدرسته الوضعية[1]، طالب المؤسسون في اسطنبول تغيير اسم الجمعية إلى «النظام والترقي» (Nizam ve Terakki)، وهو ترجمة لشعار الوضعيين (Ordere et Progress)، وأمام إصرار المؤسسين على بقاء مصطلح الاتحاد جزءا من اسم الجمعية صار الاتفاق على أن يكون الاسـم «جمعية الاتحاد والترقي العثمانية» (Osmanlı İttihad ve Terakki)[2].

تعاون مع أحمد رضا في إدارة نشاط الجمعية في باريس شخص ذو خلفية سياسية ميزته عن أقرانه، هو خليل غانم (1864-1907)، وهو عربي مسيحي من بيروت، مَثل سوريا في مجلس المبعوثان العثماني عام 1878، وبعد إغلاق المجلس توجه إلى أوربا منخرطا، منذ 1880، بالنشاط السياسي ضد عبدالحميد. نشر، معبرا عن أفكاره ومواقفه

1- بعد العام 1822 عرض اوكست كونت (1798-1857) فلسفته الوضعية من خلال مجموعة مؤلفات أبرزها: «محاضرات في الفلسفة الوضعية» و»نهج السياسة الوضعية»، صاغ من خلالها قانونه الشهير بتطور البشرية ذو الثلاث مراحل، تبدأ بالمرحلة اللاهوتية أو الوهمية، ثم المرحلة الميتافيزيقية أو التجريدية، وأخيرا المرحلة العلمية أو الوضعية. وركز كومت في فلسفته على أهمية تنظيم المجتمعات على أسس علمية، والتوفيق بين النظام والتقدم «أي نظام شرعي لا يستقر أو يدوم بصورة خاصة إذا لم يتوافق تماما مع التقدم، وأي تقدم كبير لا يمكن أن يستكمل بفعالية إذا لم ينزع في النهاية إلى تثبيت النظام تثبيتا أكيدا». وأظهر كومت إيمانا عميقا برسالة النخبة وقال بوجوب تمييز دقيق بين الجمهور والتقنيين والحكام. ولعل الجانب الأكثر غرابة في أفكار كومت ذلك الذي خص فكرة الحقوق الفردية، فالواجبات نحو المجتمع وحدها الموجودة، ولا تعترف الوضعية لأي أحد بحق غير القيام بالواجب دائما، ولا تؤمن إلا بواجبات الجميع تجاه الجميع، ووجهة النظر الاجتماعية للوضعية لا تقبل بأي فكرة عن الحق تقوم على ذاتية الفرد، فـ»كل حق بشري هو ضلال كما هو لا أخلاقي». بالنتيجة فان السياسة الوضعية تستند على جعل كل مواطن موظفا اجتماعيا، وتقتضي الطاعة الكاملة تماما. للتفاصيل ينظر: ليفي بريل، فلسفة أوجست كونت، ترجمة وتقديم الدكتور محمود قاسم والدكتور السيد محمد بدوي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1952؛ الدكتور قباري محمد إسماعيل، المدخل إلى علم الاجتماع، الإسكندرية، ص143-157؛ جان توشار وأخرون، المصدر السابق، ص514-516.

2- **Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.170; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad Terakki, S.61; Necip Fazil Kısakürek, Ulu Hâkan II Abdülhamid Hân, S.231-232.**

السياسية، في مختلف الصحف الفرنسية، لاسيما الوضعية التي كان هو من مؤيديها، علاوة على العديد من الصحف العربية[1]. من مؤلفاته كتاب عن السلاطين العثمانيين يوضح لنا ماهية أفكاره، وعلى وفقها إن ما أهلك «الأمة العثمانية» أمران، الأول الاستبداد الذي يطيح بالعواطف في أعماق النفس، ويفسد الروح، ويقضي على معنى الإنصاف ومفهوم العدل الواضح عند الإنسان، ويشوش أحكامه، وقد يجعل أناسا يظهرون، رغم ذكائهم وطيبة قلوبهم، أشرارا وحمقى»، والثاني الإسلام الذي كان في بدايته متسامحا، لكنه ما لبث أن صار مستبدا، وهو ما يبدو واضحا للمتأمل في سيرة الخلفاء العرب الذين كانوا «تحت ستار مظهرهم المتدروش على استبداد مقيت»، وفي أيام الأتراك الذين درجوا على عدم التساهل أثناء صراعهم الطويل مع المسيحية. أما العلاج، على وفق رؤية خليل غانم، فكان يكمن في العودة إلى دستور 1876، ومراقبة تربية الأمراء ومحيطهم الخلقي مراقبة دقيقة[2]. في العام 1895 أسس خليل غانم، مع الأمير الدروزي أمين أرسلان وعدد من الشخصيات السورية غير المسلمة «الجمعية السورية- التركية» التي اتخذت من «معارضة الظلم اليومي من الإمبراطورية، وخصوصا في سوريا» هدفا لها، وأصبحت جريدة «كشف النقاب» الصادرة باللغة العربية، ثم جريدة «تركيا الفتاة» الصادرة باللغتين العربية والفرنسية لسان حالها، شارك خليل غانم في الأولى، بينما تولى تحرير الثانية. وشكل مفهوم العثمنة أبرز مرتكزات الفكر السياسي للجمعية، وصارت هذه النقطة بالذات أهم سبب للتقارب بينها وبين «جمعية الاتحاد والترقي العثمانية»، وهو ما توج باندماج الأولى بالثانية عام 1896[3].

1- «المقتطف»، المجلد 28، جزء 8، آب 1903، ص632؛ توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908-1914، القاهرة،1960، ص50؛ عبد الجبار حسن الجبوري، الأحزاب والتجمعات السياسية في القطر السوري من أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة 1958، بغداد، ص22-23؛ الدكتور جلال يحيى، العالم العربي الحديث، مصر، 1966، ص423-424.

2- البرت حوراني، المصدر السابق، ص316-317.

3- للتفاصيل حول «الجمعية السورية التركية» يراجع:

M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.44-49; Hasan Kayalı, Op.Cit., PP.42-43.

كان خليل غانم هو الأكثر قربا من أحمد رضا، عمق صلتهما اتخاذ الاثنين من الفكر الوضعي منهاجا لهما، وفي أواخر العام 1895 تعاون الاثنان، مع عدد آخر من المعارضين العثمانيين في فرنسا، على إصدار جريدة «مشورت»، لسان حال «جمعية الاتحاد والترقي العثمانية»[1]، وبعد جهود متواصلة صدر في الأول من كانون الأول 1895 العدد الأول من الجريدة باللغة التركية، وفي السابع من الشهر نفسه صدرت النسخة الفرنسية من الجريدة، ولكن بواجهة مختلفة، فاستنكرت «مشورت» التركية أوضاع المسلمين في المناطق الخاضعة للإدارة الفرنسية أو البريطانية، وأحوال الأتراك تحت وطأة حكم الروس والبلغار، وأكدت أهمية العنصر التركي في الدولة العثمانية؛ فـ«مشورت جريدة تركية ستعطي التفسير التركي، يعني الحقيقة عن كل شئ». أما النسخة الفرنسية فقد حاول أحمد رضا، على صفحتها الأولى، إيضاح الأسس الوضعية لجمعية الاتحاد والترقي[2].

قُبيل هذه التطورات، وفي السادس من تشرين الأول من عام 1895 تحديدا[3]، نشر أحمد رضا برنامج الجمعية في بيان معنون «إلى العالم المتحضر»، جاء ضمنه:

> «إننا نطالب بإصلاحات، لا لهذا الإقليم أو ذاك،بل لأجل كل الإمبراطورية، لا لمصلحة قومية واحدة، بل لمصلحة كل العثمانيين من يهود، ونصارى، ومسلمين. إننا نريد التقدم في مضمار المدنية، ولكننا نعلن بعزم إننا لا نريد أن نتقدم إلا بالطريق الذي فيه تدعيم العنصر العثماني، واحترام ظروف وجوده الخاصة. إننا مصممون على حفظ الأصالة المميزة لحضارتنا الشرقية، ولذا فلن نأخذ من الغرب إلا النتائج العامة لتطوره العلمي، والتي هي ضرورية في توجيه الشعب نحو الحرية... إننا

1- Hasan Kayalı, Op.Cit., P.42.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.78.

3- يشير أرنست رامزر إلى أن تأريخ نشر البرنامج هو الثالث من كانون الأول 1895 في جريدة مشورت، إلا أن محمد شكر هاني اوغلو نقله عن «تايمز» (Times) في التأريخ المذكور أعلاه.
Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.24; M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.271.

نعارض إحلال التدخل المباشر للدول الغربية محل السلطة العثمانية، وهذا ليس ناجما عن التعصب لأن المسألة الدينية عندنا أمر خاص، ولكنه منبعث من العاطفة المشروعة للكرامة المدنية والقومية»[1].

موازاة مع الانتعاش وتثبيت الخطى في الخارج، نجحت الجمعية في ترسيخ أقدامها بالداخل، إذ أسست فروعا لها في مختلف أنحاء الدولة العثمانية، كان أبرزها فروع البلقان، سلانيك، أزمير، دمشق، بيروت، كريت، رودس، ليسبوس (Lesbos) طرابزون، طرابلس، وهناك فروع أيضا في قبرص، البوسنة، أظنة، أنقرة، ادرنة، حما، حمص، قسطموني (Kastamonu)، الموصل[2]. وازداد عدد المنتمين إلى الجمعية بمعدلات غاية في السرعة، قياسا بطبيعة النظام[3].

صاحب التطور الكمي تطور نوعي أيضا، تجسد في تصعيد فعاليات الجمعية، وإجراء نشاطات أكثر بروزا وأقوى تأثيرا، فسعى الاتحاديون إلى استثمار كل موقف سياسي ممكن، وكانت الأزمة السياسية التي صاحبت مذابح الأرمن لعام 1895 أولى أبرز تلك المناسبات، فاستطاع كل من إبراهيم تيمو وإسحاق سكوتي وإسماعيل إبراهيم تأمين مطبعة حجرية، وطبعوا أكثر من ألف نسخة لأول بيان لـ«جمعية الاتحاد والترقي العثمانية»، في أول ظهور علني لها[4]، عبروا من خلاله عن أسفهم لانتفاضة الأرمن، لكنهم ألقوا مسؤولية الانتفاضة، والمذبحة التي تلتها، أو التحريض ضد الأرمن على عاتق السلطة الاستبدادية التي لم تتخذ

1- **Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.78; Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.25**

في الترجمة العربية ص57.

2- **M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.84-90, 108; Tarık Z. Tunaya, Türrkiyede Siyasi Partiler, S.111.**

3- **أشارت بعض مصادر الاتحاديين أن عدد المنتمين للجمعية وصل في العام 1896 إلى 18 ألف عضو، في حين أكدت مصادر رسمية نفي 130 ألف شخص للخارج بسبب انتمائهم للجمعية.**

M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.277.

4- **الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص26.**

أي إجراء لتطبيق الإصلاحات، ودعوا إلى الانتفاضة «لإزاحة مركز الاستبداد والظلم»[1]، ووزع البيان في مختلف أنحاء اسطنبول، ولاسيما في الجوامع، تبعه بيان ثان بالمضمون نفسه، لكن بلغة أقوى، وزع بشكل خاص بين الضباط، ثم بيان ثالث ورابع ركزوا فيهما على الفساد الحكومي، وأكدوا أن كل العثمانيين، وليس الأرمن فقط، كانوا ضحية استبداد السلطان عبدالحميد، وكرروا الدعوة إلى الانتفاضة، مناشدين المسلمين والمسيحيين للتوحد ضد العدو المشترك[2]. كما ظهرت منشورات تهاجم الحكومة والسلطان، وقصائد تدعو إلى مقاومتهم، كتب عليها اسم الجمعية[3].

وفي مضمار التطور النوعي والفكري نشير أيضا إلى النشاط الواسع للغاية الذي بدأت «جمعية الاتحاد والترقي العثمانية» تمارسه في ميدان الصحافة، إذ أصدرت عددا كبيرا للغاية من الصحف، وبأكثر من لغة، وفي مجموعة كبيرة من أشهر المدن الأوربية والشرق أوسطية. ففي غضون المدة بين عامي 1879 و1907 أصدر الاتحاديون الأوائل ما مجموعه 120 صحيفة معارضة تبشر بأفكارهم، وتفضح مساوئ الاستبداد الحميدي. وللغرض نفسه أصدر الاتحاديون مجموعة من صحف الهجاء التي تحولت إلى أداة نوعية جديدة، ومؤثرة لفضح الاستبداد، وكانت تصدر واحدة منها في بريطانيا، وأخرى في سويسرا. ومن المفيد أن نشير إلى أن واحدة من صحف هجاء الاتحاديين كانت تحمل اسم «عبدالحميد»، وقد أرسل علي فؤاد نسخة منها إلى شخص السلطان، وكان الاتحاديون يرسلون باستمرار أعدادا كبيرة من صحف الهجاء هذه إلى داخل الدولة العثمانية بصورة سرية، وبشتى السبل[4].

1- للإطلاع على نص البيان يراجع:

Tarık Z. Tunaya, Türrkiyede Siyasi Partiler, S.122-123.

2- زين نورالدين زين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، الطبعة الثالثة، بيروت، 1979، ص73-74؛

M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.79.

3- الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص27.

4- **V. I. Shpilkova, Mladoturtskaya Revoliotsia 1908-1909, Str.34.**

امتـدت فعاليـات جمعيـة الاتحـاد والترقـي، والجماعـات المعارضة الأخـرى، من اسـطنبول إلـى بقيـة أنحـاء الدولـة العثمانية بشـكل كثيـف تجـاوز كل التوقعـات. وبحكم ظـروف المرحلة بـدأت الحكومة تنظـر لمثل هـذه الفعاليات بجدية وقلـق، فذكرت إحدى الصحـف البريطانيـة «إن فعاليـات حـزب تركيـا الفتـاة تسـبب عـدم ارتيـاح في قصـر يلدز أكثـر ممـا فعله وجـود الأسـطول البريطاني فـي ليمنـوس[1]»[2]، الأمر الذي تطلـب تحركا سـريعا وحازمـا من الحكومـة العثمانيـة. وبمجـرد خلاصها من خطـر التدخـل الأجنبي[3] بـدأت حمـلات مداهمـات وتحقيقات واسـعة، وألقـي القبض علـى ثلاثـة وأربعين عضوا مـن الجمعيـة، وعـدد كبيـر مـن مؤيديهـا، أو المتعاطفيـن معهـا، وصـل عددهـم، حسـب بعـض المصادر، إلى تسـعمائة شـخص[4]. ونتيجة التحقيقـات المكثفة تمكنت السـلطات مـن معرفـة العناصـر القيادية، ونجحت فـي إلقاء القبض على عـدد منها، فاعتقلـت عبدالله جـودت ومصطفـى أفنـدي وعلـي شـفيق وشـرف الديـن مغمومي ومحمـد رشـيد، تبعهم إسـحاق سـكوتي والمـدرس فـي المدرسـة الحربيـة أحمـد بـك تشروكسـولو[5]. وبعـد محاكمـات شـكلية صـدرت بحقهـم أحـكام نفـي إلـى أماكـن مختلفـة[6]، وأُرسـل أولئك

1- ليمنوس (Lemnos) جزيرة تقع في بحر ايجه، تسمى الآن ميدلي (Midilli) وهي من ضمن الجزر اليونانية.
"Türk Ansiklopedisi", Cilt XXIV, Ankara, 1979, S.140
«الموسوعة التركية»، الجزء الرابع والعشرون، انقرة، 1979، ص34.

2- **Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.75.**

3- حول محاولات التدخل العسكري لكل من بريطانيا وفرنسا وروسيا إثر المذابح الأرمنية ينظر: نجلاء عدنان حسين العكيلي، المصدر السابق، ص38-53؛
W.L.Langer, The Diplomacy of Imperialism 1890-1902, Fifth Printing, NewYork, 1968, PP.160-146.

4- **M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.77.**

5- **Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Turkler, S.31; Tarık Z. Tunaya, Türrkiyede Siyasi Partiler, S.110; Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.170-171.**

6- **Mark Sykes, The Caliphs Last Heritage A Short History of The Turkish Empire, London, 1915, P.380.**

الأشـد خطـرا إلـى طرابلس الغـرب[1]. أمـا إبراهيـم تيمو فقـد هرب، خشـية اعتقالـه، إلى رومانيا حيث أسس أكثر من فرع للجمعية هناك[2].

حتمت هذه الظروف إنشاء لجنة مركزية جديدة صار حاجي أحمد رئيسا لها بمعية طالب الطب صبري المكي، والمدرس في مدرسة «نمونة ترقي مكتبى» حسين عوني، وصار نادر بك، مدير المدرسة نفسها، سكرتيرا لها، وتم تأليف لجنة تنفيذية جديدة تكونت من المارشال كاظم باشا، القائد العسكري لاسطنبول، والشيخ عبد القادر والشيخ نائلي وحقي بك، عضو في مجلس الدولة، ونجيب باشا، سفير سابق، وأسعد بك، موظف كبير في وزارة الأشغال، وهناك أيضا شفيق بك من وزارة الحربية، وخورشيد بك من الحرس السلطاني[3]. بالنتيجة تحولت الهيئة القيادية للجمعية في العاصمة اسطنبول، من مؤسسة طلابية إلى جمعية من البيروقراطيين ذوي المناصب العالية وكبار الضباط[4].

علـى الرغـم مـن أن الجمعيـة المركزيـة فـي اسـطنبول، على وفـق النظـام الداخلي للجمعيـة، هـي اللجنـة التنفيذية لمجمل المؤسسـة[5]، فقد تحـول هذا الواجـب، إثر انهيار فـرع اسـطنبول، وباعتـراف كل الفروع، إلى فـرع باريس، وصار أحمد رضا رئيسـا للحركة.

1- ظلت طرابلس الغرب، طوال عهد عبد الحميد، المنفى الأنموذج لأولئك الأشد خطورة. يراجع:
F.O. 371/ 9928, Tel. No. 255, From Sir N. O'conor to Sir Edward Grey, 23 April 1906.

2- الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص27-29؛
Necip Fazıl Kısakürek, Ulu Hâkan II Abdülhamid Hân, S..233.

3- **Tarık Z. Tunaya, Türrkiyede Siyasi Partiler, S.109-110; M.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.77; Mustafa Müftüoğlu, Tarihin Hükmu Abdülhamid Kızıl Sultan Mı, S.46.**

4- تجدر الإشارة إلى أن إبراهيم تيمو، نفسه، لم يعرف أعضاء اللجنة المركزية في اسطنبول، ولا حتى رئيسها.
M.Şükru Haniğlu, The Young Turks in Opposition, P.77.

5- نصت المادة السادسة من النظام الداخلي للجمعية على «إن الهيئة الإدارية للجمعية تتكون من رئيس وأربعة أعضاء، ومركزها الرئيس مدينة اسطنبول». للاطلاع على النص الكامل للنظام يراجع:
Tarık Z. Tunaya, Türrkiyede Siyasi Partiler, S.117-122.

ومنذ البداية اتخذ فرع باريس، ممثلا برئيسه، سياسة معارضة لتدخل الدول الأجنبية على أساس أن مثل هذا التدخل يمكن أن يفضي إلى مزيد من الامتيازات لتلك الدول، كما عارض الأسلوب الثوري سبيلا للتغيير، ونصح بسياسة أكثر تحفظا لجمعية الاتحاد والترقي، وأعلن بأن هدفهم هو إعادة الدستور وانتخاب البرلمان، وبأنه لا توجد لديهم كراهية لشخص عبدالحميد، بل أن موقفهم منه مستند على أرضية أساليبه المقيتة وسوء حكمه[1]. بينما تبنت اللجنة المركزية في اسطنبول، بتشكيلتها الجديدة، الانقلاب في القصر بمساعدة الدول الأجنبية سياسة لها، الأمر الذي أثار الخلاف بين الاثنين، وهو ما أوضحه أحمد رضا بقوله:

> «إن أغلب الرسائل التي استلمتها من اسطنبول منذ بداية صدور صحيفة مشورت تنطق بحسرات ودموع حول ضرورة الثورة [إنهم يقولون] 'إن الاتحاد والترقي غافلة عن هدفها الأساس، ولا تتخذ أي إجراء، إنها لا تعاقب الجواسيس الذين يذبحون أعضاء الجمعية بفؤوس الاستبداد. أي أمة استعادت حريتها دون استخدام السلاح؟ عليك الانضمام إلى الرأي العام. لا تمحق نفسك بترويج أفكار سخيفة مثل من الممكن التغيير دون سفك دماء'. في السابق هاجم الناس القصر من غير أن يعرفوا ماذا يفعلون، ولماذا هم ثائرون، وقد صرخوا 'نحن لا نريد هذا'. اليوم من غير الممكن إثارة ثورة عظيمة بهذه النوعية من الثورات العمياء. لابد للأمة أن تمتلك مبادئ قوية، ومثل عظيمة توجهها نحو هدف وطني»[2].

لم يلبث الخلاف في وجهات النظر بين فرعي اسطنبول وباريس أن تحول إلى مشادة حادة. في تلك الظروف هرب مراد بك الميزانجي إلى أوربا، ومحمد مراد الميزانجي (1853-1912) من مواليد داغستان بالقوقاز، حصل على تعليمه في روسيا، وأنهاه بتخرجه

1- M.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.78.

2- Quoted in: Ibid., P.79.

من غيمنازيوم روسية(Russian Gymnasium)[1] في ستافروبل (Stavropole)، المكان الذي تعرف فيه على كبار فلاسفة أوربا أمثال جان جاك روسو وشارل مونتسكيو، وتعمق بدراسة الأعمال التأريخية الغربية[2]. بعد تخرجه من المدرسة المذكورة سافر ميزانجي إلى زيورخ لاكمال دراسته[3].

في العام 1873 ترك روسيا لاجئا إلى اسطنبول حيث شهد، بعد بضع سنوات من وجوده فيها، التجربة الدستورية والنتيجة التي آلت إليها. في اسطنبول عمل مراد بك لمدة في دائرة الدين العام، ثم انتقل لتدريس مادة التأريخ في المدرسة الملكية التي تمتع فيها بسمعة وتأثير كبيرين سرعان ما تجاوز أروقة المدرسة ممتدا إلى صفوف مختلف المثقفين، وذلك بفضل جريدته الأسبوعية «ميزان»، أولا، ومن خلال أعماله في مجال التأريخ؛ التاريخ العام (Tarih-I Umumi) بستة أجزاء، والتأريخ العثماني(Osmanlı Tarihi)، ورواية مثلت السيرة الذاتية له حملت عنوان الفاكهة الأولى أو الفاكهة المحرمة (Turfanda Mı Yoksa Turfa Mı)[4].

حاول مراد الميزانجي في تعامله مع طلابه ومن خلال كتاباته الأولى، غرس فكرة الحرية، والتأكيد على شمولية وقداسة فكرة الخلافة، وأوضح أن ضعف المسلمين أمر

1- أصل الكلمة من (Gymnasion) الإغريقية، أُطلقت لأول مرة على المؤسسات التربوية في بلاد الإغريق. شاع استخدام المصطلح في العصر الحديث وصار يطلق على المدارس المتوسطة مع بدايات ظهور الرأسمالية. تم تأسيس أول نوع من هذه المدارس سنة 1726، ورغم التطورات المستمرة التي عاشتها هذه المدارس في روسيا القيصرية، إلا إنها ظلت تخدم الخواص لا العوام، ففي العام 1913 بلغ عدد هذه المدارس في كل روسيا المترامية الأطراف 434 مدرسة، يدرس فيها 143ألف تلميذ تقريبا. ألغيت هذه المدارس في البلاد مباشرة بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية عام 1917.

2- هناك خلاف بين المصادر حول التعليم الذي حصل عليه مراد بك، إذ يشير برنارد لويس إلى احتمال إكمال مراد لدراسته الجامعية، بينما يؤكد نيازي بيركس بانه في السنة التي يفترض فيها توجهه إلى الجامعة قرر الهرب إلى أسطنبول.

B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.193; Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.370.

3- V. I. Shpilkova, Mladoturtskaya Revoliotsia 1908-1909, Str.37.

4- Ibid., Str.36-37; S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit., P.256.

ممكن علاجه من خلال لَمّ شعثهم حول خليفة المسلمين، وعن طريق تطبيق الشريعة بفرض النظام الدستوري. لكن النهج السياسي الذي اتبعه عبدالحميد بعثر الشكل الذي أمن به مراد للجامعة الإسلامية. ومع وصوله إلى مرحلة اليأس في إمكانية تحقيق الإصلاح، والأهم في أن يكون سببا فعالا في تحقيقه من خلال موقع إداري مهم، قدم مراد مذكرة إلى السلطان ناصحا فيها إياه بالإصلاحات الضرورية الواجب اتخاذها، وإدراكا منه بعدم جدوى هكذا خطوة توجه إلى أوربا عام 1895 [1].

كل ذلك يعني، في المحصلة النهائية، إن الميزانجي كان يمثل جناحا فكريا يمينيا، غير ثوري، في صفوف الاتحاديين، إقتصرت طروحاته في كتاباته وخطبه على ضرورة العمل من أجل إقناع السلطان عبدالحميد الثاني، لا إجباره، على إحياء الدستور والبرلمان، ومن دون أي مس بالنظام القائم، وهو بذلك كان يعبر عمليا عن مصالح وقناعات تجار وملاكي الأقسام الشرقية من آسيا الصغرى. كما أن موقفه من القوميات غير التركية داخل الدولة العثمانية إتسم بطابع رجعي، حتى أنه أيد إجراءات السلطان عبدالحميد الدموية ضد الأرمن في 1894-1895 [2].

مع ذلك كله إن التوقيت الذي توجه فيه الميزانجي إلى أوربا، وطبيعة شخصيته المرنة، جعل منه قوة موازنة بين الفرعين الاسطنبولي والباريسي، لاسيما وأنه نشر، غداة توجهه إلى أوربا، كتابا بعنوان «قصر يلدز والباب العالي. الواقع السيء للشرق» (Le Palais de Yildiz et la Sublime Porte Leveritable mal d'Orient) عبر فيه عن قناعته بأهمية إعادة السلطة إلى الباب العالي، مرجحا الانقلاب في القصر والتدخل الأجنبي

1- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.307; Tahsin Paşa, Abdülhamit ve Yıldız Hatıraları, İstanbul, 1931, S.99-101

تحسين باشا، عبدالحميد وذكريات يلدز، اسطنبول، 1931، ص99-101؛

"Abdülhamid'in Hatıra Defteri", S.113-114

في الترجمة العربية ص134-135.

2- V. I. Shpilkova, Mladoturtskaya Revoliotsia 1908-1909, Str.37.

سبيلا لذلك[1]. فلئن كان هذا الكتاب سببا في مقابلة أحمد رضا للميزانجي ببرود شاجبا مطالبه بحكومة مسؤولة وتدخل أجنبي بدلا من الاجتماع المباشر للبرلمان، فانه كان السبب، أيضا، في أن يحظى بدعم فرع اسطنبول وعدد من أعضاء فرع باريس. غير إن محاولة مراد في تكوين جبهة موحدة تضم كل القوى المعارضة للنظام الحميدي انتهت بالفشل، كما أن جهوده في الحصول على دعم الدول الأجنبية لم تأتِ بشئ مثمر[2]. وإزاء هذه الخيبة قرر مراد ترك باريس والتوجه إلى مصر[3]، ليعود الصراع لشكله المباشر بين فرعي باريس واسطنبول.

على الرغم من معارضة أحمد رضا المتواصلة لأي تحرك ثوري، استمر فرع اسطنبول في تنظيم صفوفه استعدادا للتحرك، فسعى إلى الاتصال بكل الشخصيات المستعدة للتعاون وكسبها ضمن صفوف الجمعية، وحسب تصريح أحد أعضائها فـ «إن جميع كبار موظفي البلاد المعروفين بحسن السمعة والشرف كانوا في الجمعية»[4]، وتمكنت اللجنة المركزية في اسطنبول من كسب دعم مجموعة من كبار الضباط العثمانيين، وإن اتخذ موقف البعض منهم طابعا نفعيا، ففي الوقت الذي فتحوا فيه قنوات اتصال، بل وتعاون مع الجمعية، عقدوا عزمهم على التزام جانب الطرف المنتصر، وهو ما تجسد، مثلا، في موقف وزير الحربية علي رضا باشا الذي صرح لأحد مساعديه «إذا نجح هؤلاء الرجال سأكون بجانبهم، على أي حال إن فشلوا فلعنة الله عليهم، وسأنقلب عليهم جميعا»[5].

بعد الانتشار الواسع الذي حققته الجمعية في اسطنبول، والعدد الكبير من الشخصيات رفيعة المستوى التي انضمت إلى صفوفها، بدأ الاستعداد للتحرك، وبحكم المذابح الأرمنية

1- **M.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.79-80.**

2- **Ibid.**

3- **Ahmed Bedevi Kuran, İnkılap Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.90.**

4- **Quoted in: Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.28**

في الترجمة العربية ص60.

5- **Quoted in: M.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.85.**

وما صاحبها من موقف دولي معارض لعبدالحميد، اقتنعت مجموعة البيروقراطيين الموجودين ضمن الجمعية بأنه إذا لم يحصل تدخل أجنبي مباشر لدعم محاولتهم في إقصاء السلطان، ففي الأقل سيحظون بدعم أوربي لمشروعهم. وبالفعل إثر مقابلات قام بها أعضاء الجمعية مع عدد من ممثلي الدول الأجنبية نالوا تأييدا لإحداث «تغيير مقبول في وضع الأمور»[1].

بناءً على هذه النتيجة بدأت اللجنة المركزية في اسطنبول باتخاذ خطوات عملية في صدد تنفيذ الانقلاب، ومن خلال شيوخ الطريقة المولوية، وبالذات الشيخ نائلي، جرى اتصال سري مع رشاد باشا، أخو السلطان عبدالحميد، الذي وافق بدوره على المشروع الانقلابي[2]. كما جرى اتصال مع فرع باريس للحصول على موافقته، لكن جواب الأخير كان باهتا مبهما، وغير مُرضٍ[3]، وفي كل الأحوال يبدو أن فرع اسطنبول لم يرد بخطوته تلك أكثر من القيام بالإجراءات الشكلية.

اقتضت خطة الانقلاب استخدام القوات العسكرية تحت قيادة كاظم باشا، واحتلال الباب العالي عند اجتماع مجلس الوزراء، مع تشكيل مجموعة من الفدائيين تتولى اغتيال عبدالحميد إذا ما قرر المقاومة، ثم استحصال فتوى من شيخ الإسلام وتنصيب آخر محله يوافق على إعادة الدستور، ومع أن اسم مراد ظل مطروحا ليكون السلطان المرتقب، فأن وضعه الصحي أفضى إلى الاتفاق على رشاد باشا[4].

في أواخر العام 1896 نضجت الأوضاع للتحرك، فخارجيا كانت تداعيات القضية الأرمنية قد بلغت أوجها[5]، وداخليا وصلت حالة اللارضا بين صفوف الضباط وطلاب

1- **Ibid., PP.84-85.**

2- **Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.65.**

3- **Ibid., Necip Fazıl Kısakürek, Ulu Hâkan II Abdülhamid Hân, S.232-233.**

4- **M.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.85; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, PP.31-32**

في الترجمة العربية ص62.

5- **Please look at: W.L.Langer, Op.Cit., PP.303-355.**

الكليات العسكرية حدها الأقصى إثر ارتفاع عدد المبعدين والمفصولين من كل الصفوف. وكان لضغط المجموعة العسكرية في الجمعية على حتمية التحرك وعدم التأجيل أثرها في تحديد ساعة الصفر[1]، التي تقرر أن يكون في آب سنة 1897 [2].

على الرغم من إنجاز شوط كبير من استعدادات التحرك، فان المحاولة افتضحت قبل بلوغها حيز التنفيذ، إذ كشف نادر بك بطريقة دراماتيكية عن الخطة إلى إسماعيل باشا، مفتش عام المدارس العسكرية، الذي أسرع بدوره لإخبار القصر بكل التفاصيل[3]، تبع ذلك اعتقالات واسعة غلبت عليها العشوائية[4]، وتجاوز العدد الإجمالي، حسب تقدير بعض المصادر 350 شخصا[5]، فيما تشير مصادر أخرى إلى اجراءات أوسع، وأشد بكثير، مما يتفق مع طبيعة السلطان الدموية. فحسب المعلومات الموثقة للمستشرقة السوفيتية فيرا إيفانوفنا شبيلكوفا (Vera Ivanovna Shpilkova) بلغ عدد الذين ادينوا فقط 87 شخصا،

1- M.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.86.

2- V. I. Shpilkova, Mladoturtskaya Revoliotsia 1908-1909, Str.35.

3- من غير الواضح مدى تعمد نادر بك في إفشاء خطة الانقلاب، أو الكيفية التي تم بها ذلك، إذ تؤكد مصادر الجمعية الرسمية على نقطة التقصد، ينظر على وجه الخصوص: «جاسوس بى ناموس نادر»، «ميزان» (جريدة)، جنيف، برنجي سنة، نمرو 28، 19تموز 1897. أما ارنست رامزور فيشير إلى أن نادر بك باح بالموضوع تحت تأثير حالة من السكر.

Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, PP.32-33.

بينما يذكر روحي بك الخالدي المقدسي، ضمن روايته لتأريخ الجمعية، بأن نادر بك رفع صوته أثناء النقاش حول الخطة فسمعه البعض، وبعد التحقيق أقر بكل شيء. ويكرر أحمد عزت الأعظمي الرواية نفسها. روحي بك الخالدي المقدسي، أشهر الحوادث وأعظم الرجال. الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة، «الهلال»، السنة 17، الجزء الثاني، نوفمبر 1908، ص20. وإذا كانت الرواية الصحيحة هذه أو تلك، فإن الأهمية التي عُلقت على دور نادر بك في إفشال الانقلاب كانت أكبر مما ينبغي، فمن خلال وثيقة بريطانية يبدو إن السلطان كان على علم بالمحاولة قبل أن يفشي بها نادر بك. يراجع:

M.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.276.

4- “Atatürk Ansiklopedisi”, S.199; H.C.Thomson, The Outgoing Turk Impressions of A Journey Through the Western Balkans, London, 1897, P.226.

5- M.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.86.

تم تنفيذ حكم الاعدام بحق 13 منهم، وصدرت أحكام بحق البقية بالسجن لمدد تتراوح ما بين 6 أشهر و20 سنة. فضلا عن ذلك تقرر نقل 260 ضابطا من العاصمة اسطنبول، كما لقي 32 طالبا من طلاب الكلية العسكرية حتفهم تحت التعذيب في قصر يلدز، وتقرر نفي 2560 عالم دين ودارس في المدارس الدينية إلى خارج الدولة العثمانية لمدة عامين[1].

كان ضمن المعتقلين كاظم باشا، ومفوض الشرطة حسني بك، وقائد الجندرمة صالح باشا، والشيخ عبدالقادر، والشيخ نائلي، والدكتور صبري المكي، والحاج أحمد وغيرهم من الأشخاص الذين ألقي القبض عليهم وتم نفيهم على الفور، وفرقوا في أماكن مختلفة، فنفي الحاج أحمد إلى فزان، وأقام الشيخ نائل، مع من نفي من أقاربه، في حمص وبنغازي، وأرسل صبري المكي إلى الموصل، وشفيق بك إلى عكا، وشتت العناصر الأقل أهمية في مناطق أكثر قربا[2]. وخوفا من فوران عسكري جرت تنقلات كثيرة في الجيش، وأُبعد الضباط ذوي الرتب العالية، بما في ذلك عدد من المشاركين في المحاولة الانقلابية من أمثال كاظم باشا، إلى مناطق بعيدة[3].

أثير كلام كثير حول الموقف «المتهاون» للسلطان عبدالحميد حيال مجموعة ثبت تآمرها ضده، فأرجع أرنست رامزور السبب بالانتباه الذي أثارته المذابح الأرمنية، والسياسة الخاطئة للسلطان[4]. بينما رأى أورخان محمد علي إن شخصية السلطان «العطوفة» هي

1- V. I. Shpilkova, Mladoturtskaya Revoliotsia 1908-1909, Str.35.

2- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.65; L.Andevson, Nineteenth- Century Reform in Ottoman Libya, “International Journal of Middle East Studies”, U.S.A, Vol. 16, August 1984, P.340; Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, PP.33-34

في الترجمة العربية ص63.

3- روحي بك الخالدي المقدسي، المصدر السابق، ص20؛

M.Şükru Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.86.

4- Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.34

في الترجمة العربية ص64.

السبب، مستشهدا بقول للسلطان نفسه: «انهم يدفعونني لكي أسلك طريق الشدة والعنف. ولكنني لا أستطيع ذلك لأنني لا أملك نفس المزاج العنيف الذي يملكه جدي السلطان محمود»[1]، ولم يفته أيضا انتقاد سياسة عبد الحميد المتسامحة وغير الفعالة[2]. قد يكون لهذا، وغيره، أثره في تصرف عبدالحميد، وباختلاف الأسباب فأن النتيجة كانت تهاوي فرع اسطنبول لجمعية الاتحاد والترقي للمرة الثانية، وعلى الرغم من أن طلبة الكليات تمكنوا من إعادة تنظيم صفوفهم، ونجحوا في تشكيل لجنة مركزية جديدة ومواصلة اكتساب عناصر جديدة وفتح خلايا إضافية، فإن هذا الفرع لم يحصل على السلطة والأهمية والثقل الذي كان له في العام 1896، بل رجع إلى تركيبته الطلابية، واقتصر نشاطه على بعض الفعاليات البسيطة.

1- نقلا عن: أورخان محمد علي، المصدر السابق، ص273.

2- المصدر نفسه.

ثانيا: الأصول الاجتماعية لمؤسسي جمعيـة الاتـحاد والترقـي

على الرغم من كثرة الكتابات التي اهتمت بتأريخ الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، والتي كرست جانبا من صفحاتها، وفي بعض الأحيان كلها، لدراسة تأريخ «جمعية الاتحاد والترقي»، فأن المعلومات المقدمة عن جذور الاتحاديين الاجتماعية تبقى ضحلة جدا، يغلب عليها الارتجال. فيشير بيرج بيربيروكلو ،مثلا، إلى انتمائهم إلى البرجوازية الصغيرة[1]، ويتفق معه فيروز أحمد بتصنيفهم «طبقة وسطى دنيا»[2]، ويضيف أنهم «فئات مهنية حديثة النشوء»[3]، في حين يؤكد م. نعيم طرفان بأنهم تكونوا، بدرجة أساس، من «نُخب الاختصاصيين والمثقفين»[4]، ويذكر مصدر أخر أنهم طلبة المدارس الدينية والمدارس التقنية والكليات العسكرية والبحرية، مع مجموعة لها ثقلها من الأرستقراطية القديمة[5]، أما هنري أ.أللين فيقول بأنهم «ضباط شباب»[6]، ويتبنى جيفري

1- بيرج بيربيروكلو، المصدر السابق، ص9.

2- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص19.

3- Feroz Ahmad, The Young Turks. The Committee of Union and Progress in Turkish Politics 1908-1914, Oxford, 1969, P.16.

4- M. Naim Turfan, Rise of the Young Turks Politics. The Military and Ottoman Collapse, NewYork, 2000, P.64.

5- Ardern G.Hulme- Beaman, Twenty Years in The Near East, London, 1898, P.301.

6- Henry E.Allen, The Turkish Transformation A Study in Social and Religious Development, NewYork, 1968,P.8.

لويس الرأي نفسه[1]، بينما يصفهم ارنست رامزور بـ«أولاد الأسر المتوسطة»[2]، ويتحدث برنارد لويس عن «أتراك مسلمين، معظمهم جنود» و«عدد من النخبة الحاكمة»[3]، بالمقابل يرجع شو أصول الاتحاديين إلى «الطبقة الدنيا» وحتى «صنف الرعايا»[4]، في حين أن ريتشارد روبنسون يوضح أنهم «تقنيون جدد، انتليجنسيا يقظة حديثة، ضباط جيش شرق غربيين»[5]، وفي كتابها عن تركيا الفتاة والاتحاد والترقي تحاول سناء اكسن (Sina Aksin) الجمع بين مختلف التوصيفات بقولها «أتراك، صبية، أعضاء في الطبقة الحاكمة، أشخاص بتعليم غربي وعقلية برجوازية»[6].

يصعب الخروج من الآراء السابقة بتصور واضح، أو محدد عن الخلفية الاجتماعية لأعضاء «جمعية الاتحاد والترقي»، فكلها لا تعدو أن تكون تعميمات عريضة، بل متعارضة أيضا، فهل كانوا فئات مهنية أم جنود؟ نخبة حاكمة أم رعايا؟ طبقة دنيا أم بيروقراطية عليا؟ ...، إن سطحية المعلومات المقدمة وتعارضها واقع يبرره عدم وجود بيانات واضحة ومحددة لأعضاء الجمعية خلال مرحلة النشاط السري، ثم الأعداد الكبيرة التي انضمت إلى صفوفها بعد أحداث 1908. وهي عقبات تعترض أي محاولة لتلمس الطريق، قد يساعد على تقليصها اقتصار نطاق البحث على العناصر القيادية.

بقدر تعلق الأمر بالمجموعة المؤسِسة خلال المرحلة 1889-1899، هناك عدة خصائص مشتركة يمكن لها أن ترسم ملامح للخلفية الاجتماعية لأعضاء «جمعية الاتحاد

1- G.Lewis, Op.Cit., P.43.

2- Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.19

في الترجمة العربية ص52.

3- B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.209,212.

4- S.J.Shaw and E.K.Shaw, Op.Cit., PP.263-264.

5- Richard D.Robinson, The First Turkish Republic A Case Study in National Development, Cambridge, 1963, P.5.

6- Quoted in: http:// www. Let.leidenuniv. nl/ tcimo/ tulp/ Research/ ejz 16. pdf., Erik Jan Zürcher, The Young Turks- Children of the Boderlands?, October 2002.

والترقي». بدءا إن كل أعضاء الجمعية كانوا من الرجال، وعلى الرغم من وجود مادة في النظام الداخلي تنص على أن المرأة المنتمية إلى الجمعية لها نفس حقوق الرجل العضو فيها وعليها نفس الواجبات المفروضة عليه[1]، على أرض الواقع لم تكن هناك أي امرأة بين صفوف الجمعية خلال تلك المرحلة. جميع أعضاء الجمعية كانوا من الشباب، فتراوحت أعمار المؤسسين الخمسة، عند تأسيس الجمعية، بين ثمانية عشر وثلاثة وعشرين عاما[2]، ومعظم الذين انتموا للجمعية في المرحلة المبكرة للتأسيس لم تتجاوز أعمارهم الثلاثين عاما[3]. الكل كانوا مسلمين، مع وجود إستثناءات محدودة جدا. إحدى السمات الأكثر بروزا بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي هي اختلاف انتماءاتهم العرقية، فجمعت الجمعية بين صفوفها الألبان والأكـراد والشراكسة والأتـراك والعرب. كما تنوعت خلفياتهم الاجتماعية، فمنهم أبناء ملاك الأرض، ومنهم أبناء ضباط أو موظفين كبار، البعض منهم كانت أصوله جدا متواضعة[4]، لكنهم،إجمالا، كانوا من بيئة حضرية ومثقفة، لمعظمهم خلفية ما في الجهاز البيروقراطي، وعدد منهم كانوا من كبار موظفي الدولة، وإن كان دخول المجموعة الأخيرة، بالذات، إلى الجمعية أمر عرضي، إرتبط عند معظمهم بأهداف نفعية أكثر منه قناعات مبدئية. والناحية الأخرى أنهم، من دون استثناء، تعلموا بمدارس حديثة مؤسسة على وفق الأنموذج الغربي، وكان كل واحد منهم يجيد لغتين في الأقل[5].

يحتل مكان الولادة، أو بشكل أكثر دقة الأصول الإقليمية للاتحاديين أهمية خاصة في فهم واقعهم الاجتماعي، وأسباب توجهاتهم السياسية. وأبرز مصدر لمعرفة مكان الولادة هو التقليد المتبع في الدولة العثمانية بمصاحبة اسم الشخص للقب يتشكل، في

1- Tarık Z. Tunaya, Türrkiyede Siyasi Partiler, S.122.

2- "Atatürk Ansiklopedisi", S.114.

3- يراجع: «الهلال»، الجزء الثالث، السنة الثامنة عشر، 1 كانون الأول 1909، ص134-140.

4- Erik Jan Zürcher, The Young Turks; M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.168.

5- «الهلال»، الجزء الثالث، السنة الثامنة عشر، 1كانون الأول 1909، ص14.

الغالب، من اسم بلده الأصلي، لاسيما وان التسمية بأسماء الأسر لم تكن معتادة، فمثلا إن علي رشدي الهرسكي تعني علي رشدي من الهرسك، وعلي شفيق الأزميري أي علي شفيق من أزمير، وناظم السلانيكي بمعنى ناظم من سلانيك... والحقيقة المعروفة، في هذا الصدد، إن المؤسسين الخمسة لم يكن بينهم تركي واحد، فاثنين منهم كانا من الأكراد، واثنين من القوزاق، وواحد من ألبانيا. وهو ما يدفع إلى الاعتقاد بأن ظهور قضايا الهوية والولاء كانت أقوى بين المسلمين من غير الأتراك ، وربما حتى سابقة لوجودها بين الأخيرين، وإن كانت متأخرة عن ظهورها بين المجتمعات المسيحية طبعا. وقد أخذت تلك الأحاسيس، في نفوسهم، شكلا مزدوجا للدولة العثمانية من جهة، ولمجموعاتهم العرقية من جهة أخرى، فالشعوران كانا في طور التكوين، ولم يكن هذا يتعارض مع ذاك على وفق وجهة النظر المرحلية. وربما من بين أبرز النماذج على ذلك هما كل من إسحاق سكوتي وعبدالله جودت، فكثيرا ما وجه الأول كلامه إلى القوميات المختلفة في الدولة العثمانية، بضمنها الأكراد طبعا، يدعوها إلى التوحد مع الإدارة العثمانية[1]، ومرارا كتب عبدالله جودت في الموضوع نفسه، من ذلك مثلا: «لسنا نؤمّـل في التعرض للغة أي عثماني وقوميته... ولكننا مطمئنون من أن حكما دستوريا ما، لو باشر ممارسة الحكم، لجعل العثمانيين كافة متساوين، وحقق للغات القوميات العثمانية التطور والازدهار، وراقت العثمانية العثمانيين جميعا من دون استثناء»[2]. ولم يجد كل من إسحاق سكوتي وعبدالله جودت حرجا أو تناقضا للكتابة في مواضيع تخص الأكراد حصرا، وتمجد رموزهم[3]، وفي أحيان غير قليلة وقع عبدالله جودت كتاباته باسم «كردي»[4].

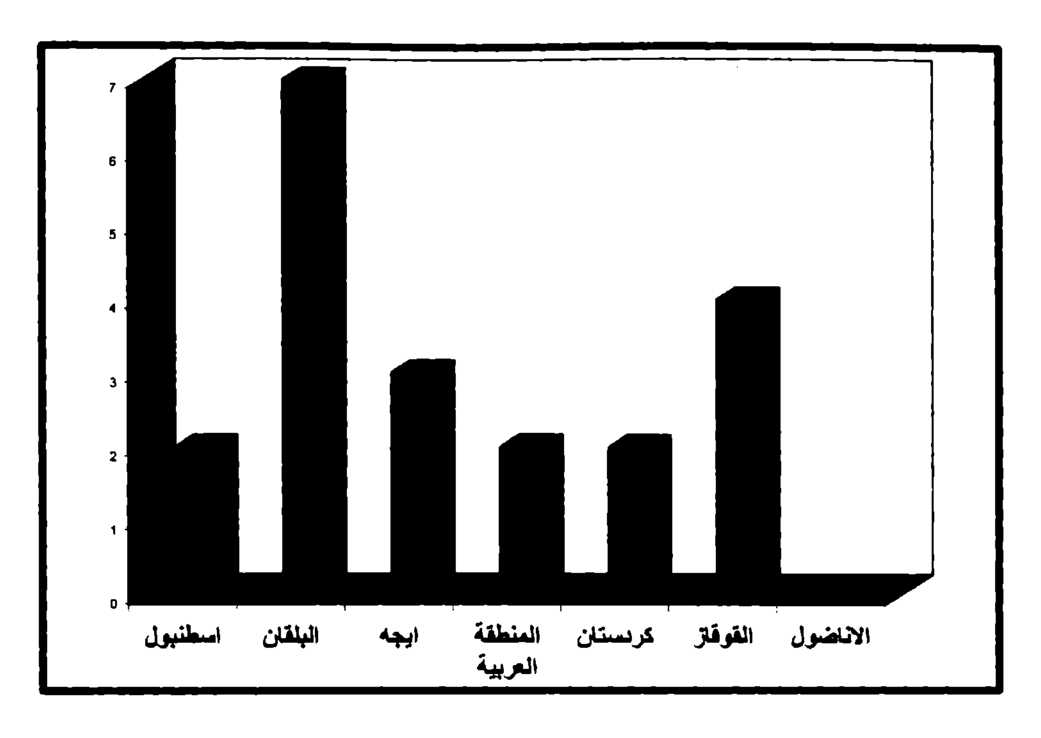
1- **M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.169;**

فةرهاد بيربال، روزنامةكةرى كوردى به زمانى فةرةنسى، هةولير، 1998، ل26.

2- «عثمانلى»، «عثمانلى» (جريدة)، جنيف، برنجى سنة، نومرو 31، 1كانون أول 1898.

3- ينظر مثلا: «بدرخان باشا زادهلر»، «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنة، نومرو 20، 15أيلول 1898؛ «بدر خان بك»، «كردستان» (جريدة)، جنيف، عدد14، 9ذي الحجة 1316؛ «كردجه قسم»، «كردستان»، فلكستون، عدد 27، 22ذي القعدة 1318؛ مالميسانز، المصدر السابق، ص20-29، 21.

4- مالميسانز، المصدر السابق، ص15؛ فةرهاد بيربال، روزنامةكةرى كوردى، ل17.



شكل رقم (3)
التوزيع الإقليمي لقادة الاتحاديين خلال المرحلة 1889-1896 [1]

بالتوسع خارج نطاق المجموعة المؤسسة امتدادا لتتبع الانتماءات الإقليمية لأعضاء «جمعية الاتحاد والترقي» خلال المرحلة التأسيسية 1889-1896 [2] يتضح أن ٪35 منهم كانوا من البلقان، ٪20 من القوقاز، ٪15 من منطقة بحر ايجه (Aegean)، التي تشتمل على أزمير وردوس وكريت، أما حصة كردستان فكانت ٪10، وتتكرر النسبة نفسها في اسطنبول، وفي المنطقة العربية، في حين لا يوجد أي عضو من الأناضول. أي أن الجميع كانوا من الأقاليم الحدودية، وجانبا كبيرا منهم كانوا ينتمون إلى مناطق ذات غالبية مسيحية حيث تكثر الحركات الانفصالية المدعومة من دول أجنبية.

1- مصدر البيانات:

Erik Jan Zurcher,The Young Turks.

2- يراجع الشكل رقم (3).

في ضوء هذه الحقائق يمكن فهم سبب الإصرار على الاتحاد مبدأ أساسا في الجمعية وجزءا غير قابل للإلغاء من اسمها، لكن الأهم من هذا إن أصولهم جعلتهم أكثر إحساسا بالموقع المتراجع للمسلمين قياسا بالمسيحيين، واتساع الفجوة بينهما بشكل واضح، ولاسيما في جانبين، الأول هو التعليم والمتجسد بالتميز الواضح للمدارس التي أنشأتها المجتمعات غير المسلمة في الدولة العثمانية والبعثات التبشيرية الأجنبية، التي تحولت، بسبب تفوقها، إلى مركز جذب، حدا بعدد من العائلات المسلمة إلى إرسال أولادها إليها، مع أنهم ظلوا أقلية فيها. أما الجانب الثاني، وهو الأكثر حيوية لاتصاله بواقع الحياة اليومية، فيتمثل بالنشاط الاقتصادي الذي كانت الهوة فيه دائمة الاتساع لصالح المسيحيين بحكم سيطرتهم على التجارة الخارجية والنشاطات الاقتصادية المهمة، وتمتعهم بالحماية بسبب نظام الامتيازات[1]. دفع هذا الواقع المجموعات المسلمة في تلك المجتمعات إلى مزيد من التمسك بالسلطة المركزية، وبوحدة الدولة العثمانية على أمل الاستفادة من الدعم السلطوي الذي يمكن أن يقدم لهم، لكن الأهم من هذا أنهم أرادوا التخلص من واقع التمييز المفروض ضدهم في مجتمعاتهم، ومن الفارق الكبير في الواقع الحياتي بين مجتمعات الأديان المختلفة، وإيجاد دولة حديثة يتساوى فيها الجميع بغض النظر عن دياناتهم وأعراقهم. من هذه النقطة، بالذات، يمكن فهم موقف العناصر المحدودة من المسيحيين الموجودين ضمن صفوف الجمعية، والذين تركزت أصولهم أساسا ضمن المرحلة التأسيسية في بلاد الشام، فنتيجة واقعهم القومي والاجتماعي والعددي لم يكن بإمكانهم تشكيل حركة قومية انفصالية، وتطلعوا، بدلا عن ذلك، إلى «مهرب من عالم الطوائف الدينية الضيق إلى مجتمع علماني أوسع لا يمكنهم تصوره موجودا إلا في إطار أمة حديثة»[2]، وعبروا عن قناعتهم بعدم وجود علاج لأوضاع الدولة العثمانية «إلا الحكم الصالح الذي لا يمكن أن يقوم إلا بفضل اشتراك الجميع فيه، وفصل الدين عن السياسة... وقبل كل شئ إقامة العدل والاتحاد

1- سبق التطرق لهذا الموضوع بشئ من التفصيل في الفصل الأول.

2- فريتس شتيات، المصدر السابق، ص31.

بين أبناء الديانات المختلفة، وتقوية الشعور الوطني الموحد بين جميع المواطنين العثمانيين»[1]. هذا الموقف، وهذه القناعات والتصورات تنطبق، إلى حد ما، على اليهود والدونمة الذين انضموا إلى صفوف الجمعية في المرحلة اللاحقة.

إن جانبا كبيرا من خصائص الاتحاديين في المرحلة التأسيسية ظل مستمرا كما هو، وتبلور قسم آخر بشكل أكثر وضوحا خلال السنوات التالية لنشاط جمعية الاتحاد والترقي.

1- البرت حوراني، المصدر السابق، 315.

ثالثا: انتقال نشاط الاتحاديين الفكري والتنظيمي إلى خارج الدولة العثمانية

بعد الضربة التي تلقاها فرع اسطنبول في العام 1896، تحول ثقل الجمعية بعيدا عن يد السلطان عبدالحميد، لا سيما في باريس ومصر، وانفرد أحمد رضا بقيادة فرع باريس ومارس نفوذه على بقية فروع الجمعية[1]. وكان فرعه قد نجح في حزيران 1896، بفضل الدعم المالي الذي تلقاه من المسؤولين ذوي المرتبات العالية، في شراء مطبعة حديثة أغنته عن الطباعة الحجرية في طباعة منشورات الجمعية، وبشكل خاص «مشورت»، الجريدة الرسمية الناطقة باسمها[2].

إلى جانب «مشورت» كان لجمعية الاتحاد والترقي جريدة «ميزان» الصادرة في القاهرة، وكلتاهما كانتا تدخلان الأراضي العثمانية عن طريق دوائر البريد الأجنبية[3]، لتوزع، بعد ذلك،

1- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.69-70.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.80.

3- تمتعت دوائر البريد الأجنبية بامتيازات خاصة داخل الدولة العثمانية، حتى قيل «إن نقل صحيفة من باريس إلى ارضروم أسهل بكثير من نقلها من بيرا إلى غلطة»، وهو ما شجع الاتحاديين على استخدامها في إيصال منشوراتهم، ولا بد من الإشارة إلى انهم لم يتجاسروا على الذهاب بأنفسهم إلى دوائر البريد خوفا من عيون السلطان اليقظة دائما لمراقبة الداخلين إلى تلك الدوائر والخارجين منها، وفضلوا، في أغلب الأحيان، الاستعانة بأحد الأشخاص الأجانب للقيام بالمهمة بدلا عنهم.

Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey Sultan II.Abdülhamit İttihad ve Terakki, İstanbul, 1964, S.71

جمال كوتاي، الأمير صباح الدين السلطان عبدالحميد الثاني وجمعية الاتحاد والترقي، اسطنبول، 1964، ص71؛ Mustafa Müftüoğlu, Tarihin Hükmü Abdülhamid Kızıl Ssutan Mı, S.51; Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.26

في الترجمة العربية ص58.

من دون تمييز، في العاصمة والأقاليم من خلال شبكة الجمعية[1]، بيد انه لم تمض إلا مدة قصيرة حتى ألقت «ميزان» بظلها على «مشورت»، ونالت شعبية أوسع بكثير مما لرفيقتها[2]، فكانت جريدة «ميزان» مطلوبة أكثر من «مشورت»، وذات تأثير أعمق، وهو ما يرجع، بدرجة كبيرة، إلى نوعية اللغة التي استخدمتها كل منهما، إذ أصر أحمد رضا على استخدام الفكر والشعار، بل وحتى التقويم الوضعي في جريدته، وترتب على ذلك إلصاق تهمة الإلحاد بالجمعية، وهي مسألة غاية في الخطورة ضمن مجتمع حظيت فيه القضايا الدينية بوزن كبير، إزداد ثقله مع التأثيرات التي صاحبت فكرة الجامعة الإسلامية وجهود الترويج لها، الأمر الذي تنبه له بعض أعضاء الجمعية، ودفعهم إلى الإعراب عن قلقهم ، فجاء في رسالة أحدهم:

«إنني أخشى إذا انتشر هذا بين الرأي العام العثماني الذي لا يزال متخلفا، فربما نفقد العطف الضئيل الذي نحظى به، ولن يتسنى لنا بعدها عمل أي شيء»[3].

على النقيض منها استخدمت «ميزان» لغة دينية، وعرضت طروحاتها الفكرية من وجهة نظر إسلامية جعلتها أقرب لمشاعر وتوجهات جموع واسعة، بما في ذلك الاتحاديين أنفسهم، فعلى الرغم من تحررهم من التعصب الديني، وتفاخرهم بكونهم أحرار التفكير، فهم «بوصفهم وطنيين لن يسمحوا بأن تخسر تركيا وضعها القيادي في العالم الإسلامي» حسب تحليل مصدر دبلوماسي معاصر[4]، وكان من شأن الدولة الإسلامية التي تخيلها مراد الميزانجي تأمين استمرار مثل هذا الموقع للأتراك.

حاول الميزانجي الاستفادة من هذا الوضع، وأراد من أحمد رضا تخويله صلاحيات خاصة في إدارة الفرع المصري، وما لبث أن انزلق بدور المدير للمؤسسة بأكملها، ففي

1- **Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey Sultan II.Abdülhamit İttihad ve Terakki, S.71.**

2- **Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.26; L.Hirszwicz, The Sultan and the Khedive 1892-1908, “Middle Eastern Studies”, London, Vol.8, October 1972, P.300.**

3- **Quoted in: Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.67.**

4- **Quoted in: L.Hirszowicz, Op.Cit., P.300.**

رسالة رسمية إلى مدير فرع البلقان أبدى الميزانجي توجيهه بالنمط الواجب اتباعه في سياسة الجمعية ضمن خط إسلامي بدا غاية في البعد عن نهج الفرع الباريسي للجمعية، كما نشر برنامجا جديدا مفصلا ومطولا بعنوان «أسلوب إدارة حزبنا» اختلف جملة وتفصيلا عن المنهاج المنشور في الجريدة المركزية للجمعية[1].

ظل مراد مخلصا لفكرة انقلاب القصر، كما واصل جهاده لنيل الدعم الأجنبي، ولاسيما البريطاني بحكم مكان إقامته، وقبل ذلك قناعته بضرورة الحصول على مساعدتهم في إعادة بناء الإدارة في الدولة العثمانية[2]. وتمكن مراد بالفعل من الحصول على دعم وحماية اللورد كرومر الذي وجد بالميزانجي أداة جيدة يمكن استخدامها في علاقاته مع السلطان العثماني والخديوي المصري[3]، وهو توجه لم يكن بعيدا عن ذلك الذي تبناه الخديوي عباس حلمي (1874-1944)، فمع أنه ساند الاتحاديين وبقية العناصر المعارضة للحكومة العثمانية، وقدم الأموال للميزانجي لتيسير طباعة «ميزان»[4]، فأنه كثيرا ما غير موقفه إلى الضد تماما، ولم يتردد، في أكثر من مرة، عن تسليمهم للحكومة العثمانية، وأراد، هو الآخر، استخدامهم في صلاته مع قوات الاحتلال البريطاني والسلطات العثمانية على السواء، فمتى ما ساءت علاقته بهذه تقرب إلى تلك بأي وسيلة ممكنة، بما فيها موقفه من المعارضة العثمانية[5]، كما سعى، من خلال الاحتفاظ بروابط معينة مع الاتحاديين، إلى تأمين شكل من أشكال الموازنة والتأثير في الجبهة العثمانية التي كثيرا ما رحبت بالعناصر

1- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 81.

2- Ibid., P.82.

3- لورد كرومر، عباس الثاني، ترجمة فؤاد، مصر، ص78-80؛

L. Hirszowicz, Op. Cit., P.300.

4- L. Hirszowicz, Op. Cit., P.301.

5- Afaf Lutfi Al- Sayyid, Egypt and Cromer. A Study in Anglo- Egyptian Relations, London, 1968, P.147;

الدكتور محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، 1382، ص170-171.

المعارضة والمستاءة من الأسرة الخديوية، ولابد من أن حلم زعامة العالم الإسلامي في حال انهيار الدولة العثمانية قد دغدغ خياله[1]، على أن الأهم من ذلك، والأكثر واقعية، إن ترحيبه بالعناصر المعارضة، مع إبقاء قنوات المفاوضات والمساومات مفتوحة مع الحكومة العثمانية، أمن للخديوي الحصول على مكاسب مادية وإقليمية من سلطات لم يتردد عن التلويح بها، بل حتى بذلها، للتخلص من معارضيه[2].

مثل هذا الوضع لم يكن مريحا لمراد بك، وبدأ يأخذ شكلا سلبيا تحت تأثير ضغط الحكومة العثمانية التي تحركت بالاتجاهين المصري والبريطاني مع بعضهما، وباستخدام كل السبل الممكنة، فوجه المفوض العثماني في مصر تأنيبا للخديوي وفتح معه مفاوضات هدفت إلى إقناع عباس حلمي بإبعاد مراد عن مصر[3]. وفي الجهة الثانية أبلغ السلطان البريطانيين بأن فعاليات مراد تؤذي هيبته بوصفه خليفة للمسلمين ، وقرن التخلص من مراد بحل المسألة الأرمنية والمشكلة المصرية، كما أكد الدبلوماسيون ورجال الدولة العثمانيون لبريطانيا بأن مراد يشكل عائقا على طريق التقارب بين الحكومتين العثمانية والبريطانية[4]. وبلغ الوضع الذروة عندما أشاعت اسطنبول بأن مراد أرسل رجلا لاغتيال السلطان، مطالبة الخديوي بتسليم الميزانجي لها للمثول أمام المحكمة[5].

أتت تلك الجهود أُكلها فأظهرت الحكومة المصرية عدم ارتياحها من النشاط الاتحادي، كما قرر كرومر، الذي أقلقه نوع وحجم المشاكل التي قد تثيرها فعاليات مراد في مصر، ولاسيما مع كل التفاعل الذي لاقاه من الشخصيات الوطنية المصرية، منع نشر جريدة «ميزان»[6]. وإزاء هذه التطورات قرر مراد التوجه إلى أوربا حيث الحرية الأكبر والتأثير الأقوى.

1- L. Hirszowicz, Op. Cit., P.302.

2- Ibid., PP.302-303; Afaf Lutfi Al-Sayyid, Op. Cit., P.147.

3- L.Hirszowicz, Op.Cit., P.301.

4- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P82.

5- L.Hirszowicz, Op.Cit., P.300.

6- Ibid., PP.300-301; T.Little, Modern Egypt, London, 1967, P.60; Jacob M.Landan, Jews Arabs Turks. Selected Essays, Jerusalem, 1993, P.167.

قُبيل توجه مراد إلى باريس بلغت المعارضة أوجها ضد أحمد رضا، فمع أن الأخير كان، حسب وصف العديد من المصادر[1]، إنسانا مبدئيا حديا جادا «لم يرتب أحد في صدق هدفه ومثاليته وأمانته التي لا تقبل الهوادة»[2]، وجمع حوله بفضل هذه الصفات الكثير من المحبين والمعجبين، فأن ملامح شخصيته نفسها تسببت في إبعاد الكثير من أعضاء الجمعية عنه، وأكسبته عداوة عدد غير قليل منهم، ولاسيما بين العناصر المؤثرة ممن اتهموا أحمد رضا «بنشر جريدة مشورت بدون مشاورات» حسب تعبير أحدهم، ليكمل كلامه قائلا:

> «استنبط الفلاسفة الإنسانيون أسلوب المشاورات للتحقيق في آراء كل واحد، واكتشاف طريقة لتحويل نظرية المساواة التامة غير الواقعية إلى ممارسة مساواة نسبية، في أيامنا يمكن الإثبات بأنه لا توجد طريقة أخرى لتأكيد السلام بين الناس. إننا بتواضع اندمجنا بهذا الخضم البشري... وبهدوء نرجو من [أحمد] رضا بك مغادرة هذه الروحية... لقد توسلنا إليه، وضحينا بصلاحياتنا وشرفنا الإنساني بهدف توجيهه نحو الطريق الصحيح. لكن هذه المساعي لم تُجنِ ثمارا. لقد استمر على إصراره المطلق. في الوقت الذي كان يهاجم فيه السلطان عبدالحميد لإقامة الدستور صار هو مستبدا متطرفا... نحن خدمناه خدمة المطيعين، لكنه بدل اعتبار اعتدالنا مظهرا لوطنيتنا، اتخذها دليلا على مقدرته الشخصية ، الهزيلة أصلا، وظهر مثل الديك الرومي المستأسد، الذي هو من أغبى الحيوانات. وكلما كان يرفع نفسه، كنا ننحني نحو الأرض ليرفع نفسه أكثر»[3].

كما أعلن كثيرون تساوي أحمد رضا مع عبد الحميد في الاستبداد، وساءت الأوضاع بسرعة كبيرة، وصار أحمد رضا هدفا لهجوم معظم أعضاء الجمعية[4]. في

1- Please look at: Yusuf Hikmet Bayur, Türk İnkılâbı Tarihi, S.246; B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.197.

2- Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.22

في الترجمة العربية ص55.

3- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.82-83.

4- "Atatürk Ansiklopedisi", S.201-202; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.67-70.

هـذا الوقـت نجـح عدد مـن أعضاء الجمعيـة البارزيـن بالهروب مـن سـجنهم والتوجه إلى أوربـا، وكان مـن بينهم تشوركسـولو أحمد ومدحت شـكري وإسـحاق سـكوتي الذي كان قـد اكتسـب احتراما جما مـن خلال دوره في تأسـيس الجمعية، وتنسـيق أعمالهـا لمدة غير قليلـة[1]. وبالتأكيـد أنعـش هربهـم الجمعيـة، لكنـه فـي عيـن الوقـت نـال أكثـر مـن مكانة أحمـد رضـا، بحكم عـدم معرفة معظمهم بـه، وبالتالـي فلم يكونـوا يكنون لـه احتراما مثل ذلـك الـذي لـدى الطـلاب العثمانيين فـي باريس[2]. فـي هذه الأجـواء، ومع وصـول مراد إلـى باريـس، بـدأت التهيئـة لاجتمـاع تنظيمـي فـوق العـادة، بـدى واضحـا منـذ البداية أن نتيجته لن تكون في صالح أحمد رضا.

عقد الاجتماع في أواسط تشرين الثاني 1896، وتم الاتفاق فيه على تأسيس لجنة تنفيذية تتولى إدارة كل شؤون الجمعية، تتألف من مدير ومساعد وثلاثة أعضاء. وباقتراع سري أُنتخب مراد بك مديرا للجنة، وصار تشوركسولو أحمد مساعدا له، وعضوية كل من الدكتور ناظم وشرف الدين مغمومي وإسحاق سكوتي، وأُوكلت، أيضا، للدكتور ناظم إدارة المراسلات، ولإسحاق سكوتي أمانة الصندوق. أما أحمد رضا الذي دخل الاجتماع قائدا للحركة، فقد غادره بوصفه محررا لجريدة «مشورت» شرط اقتصارها على الملحق الفرنسي، وخضوع أعدادها لإشراف وسيطرة اللجنة[3].

اختطت اللجنة الجديدة لنفسها سبيلا مختلفا عن ذلك الذي اتبعه أحمد رضا بشكل انسجم مع طروحات مراد الميزانجي، فجاء في الجريدة المركزية الجديدة «ميزان» بأن مهمة

1- **Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.69; Ernest E.Ramsaur , The Young Turks, P.37**

في الترجمة العربية ص67.

2- **M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.83.**

3- **Ibid., P.84; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Turkler, S.42-44; Ernest E.Ramsaur , The Young Turks, PP. 38-39**

في الترجمة العربية ص68.

«جمعية الاتحاد والترقي» الملحة هي «إنقاذ الدولة والخليفة»، وحث البيروقراطيين ذوي المناصب الرفيعة للانضمام إليهم في الانقلاب المرتقب[1].

شهدت هذه المرحلة تغيرا ملموسا في تركيبة الجمعية جاء نتيجة هروب العديد من العسكريين وانضمامهم إلى صفوفها رافعين أصواتهم بطلب ثورة عسكرية، والقيام بتحركات قوية وفعالة على أرض الواقع، بدلا من الخطابات ووعود التغيير، وآمنوا، شاركهم في قناعتهم ثلة من أعضاء الجمعية، بأن التطور في العالم هو نتيجة الثورة، وأن سفك الدماء هو ثمن لا بد منه لنيل الحرية، وبأن هذا هو قانون الطبيعة الذي لا يمكن تغييره[2].

استجابة لهذه المشاعر والتصورات، وفي ظل الإدارة الجديدة، عمدت جماعة من النشطاء، كما كانوا يُعرفون، إلى تأسيس فرع خاص في جمعية الاتحاد والترقي، حمل اسم «الحزب الثورة العثمانية» (Osmanlı İhtilâl Fırkası)، أعلن عنه في الحادي والعشرين من كانون الأول 1896، وتولت إدارته لجنة ثلاثية بقيادة حلمي الطوني[3]. قامت هذه المجموعة بوضع نظام خاص بها، وصنعوا ختما لهم كتب عليه «الحزب الثوري العثماني ـ العدالة أو الموت»[4]، وكتبوا مناشدات مثيرة ومؤثرة بلغة دينية، لتحريض الشعوب العثمانية المسلمة، عنونوها للقيادات الدينية والعسكرية، نص أحدها:

«أيها الجيش! ألا زلتم لا تترددون في الدفاع عن سلطان عديم الإيمان ينكر الله، يحتقر النبي عليه السلام، باع أرضنا الحبيبة إلى الروس، لا يصلي ولا يصوم؟ فكروا في ذلك جيدا. إرثوا لأهل بيتكم والآباء والأمهات المسنين في مدنكم. إن كنتم لا تريدون رؤية ديننا الحنيف، وأطفالكم الذين لا يمكنكم حملهم لتقبيلهم، تحت أقدام العدو، وجهوا أسلحتكم

1- **M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.84.**

2- **Ibid., P.91.**

3- **"Atatürk Ansiklopedisi", S.201; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.98-99.**

4- **Necip Fazıl Kısakürek, Ulu Hâkan II Abdülhamid Hân, S.234.**

نحو عبدالحميد. ساعدوا الشعب بقيادة علماء الدين في هجومهم على يلدز. هذا ما يريده الله»[1].

وزع هذا المنشور، ومنشورات مشابهة أخرى، وباللغة نفسها، على نطاق واسع في اسطنبول وبقية أقاليم الدولة العثمانية، كما بدأ الفرع بإصدار جريدة باسم «آذان» ضرب مضمونها، مثل اسمها، على وتر المشاعر الدينية[2].

اقتنـع مـراد بـأن أفضل طريقـة للتعامل مـع هذا الفـرع هو السـماح له بتنفيـذ برامجه باسـتقلالية ، وبأن نشـاط الفرع ربمـا يكون مفيدا لخططـه بصدد الانقلاب، لـذا لم يعارض نشـر رسـائل مرسـلة للميزان مـن داخل الدولـة العثمانية حتى لـو خالفت أفـكاره الخاصة، ونشـر مقـالات ثوريـة متطرفة، وعمد مـن خلال كتاباتـه في «الميـزان» إلى تهديـد الضباط ذوي الرتـب العاليـة مـن الذيـن كانـوا يحافظـون علـى مراكزهـم بـدلا مـن مقاومـة نظـام عبدالحميـد، بأنهـم سـوف يفصلـون، ولن يسـمح لهـم بالخدمة ثانيـة بعد الانقـلاب الذي ادعـى أنـه آتٍ لا محالـة[3]، وطالـب كل الموظفيـن الكبـار بأن يحـذوا حذو أولئـك الذين يقدمـون التبرعـات لجمعيـة الاتحـاد والترقـي[4]. هـذه اللغـة المضخمـة التي اتبعهـا مراد أعطـت انطباعـا بإمكانية فـوزه، ودفعت دعـاة العمل الثـوري، وأنصار التحرك السـريع إلى التزام جانبه.

كان مـن الواضـح أن مجموعـة مراد بـك هي الأقوى، علـى أن تكتل أحمـد رضا لم يكـن ضعيفـا أيضـا، وكانـت المحـاولات قـد بـدأت لإحداث تقـارب بيـن المعسـكرين، وظهـرت بالفعـل عدة إشـارات علـى إعادة الروابـط بينهما، مثـل تعاون الطرفيـن في حملة إرسـال بيانـات لعناويـن مختلفة داخـل الدولـة العثمانيـة وخارجهـا[5]، وقيـام أحمد رضا

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.92.

2- يراجع الملحق رقم (6).

3- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.92-93.

4- «شكران»، «ميزان»، برنجى سنه، نومرو 11، 15 مارت 1897.

5- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.95.

بحـذف الشـعار الوضعـي مـن جريدتـه[1]، لكن هـذه الأمور لـم تتعـد الجوانب الشـكلية، واسـتمر الصـراع فـي حقيقتـه بالتعمق، فواصـل أحمد رضـا الاحتفاظ بوقوفـه ضد أي حل ثـوري، وطرحـه برامجـه علـى أسـس وضعيـة، ومـن جانبـه انتقـل مـراد وأتباعـه، فـي أيـار 1897، إلـى جنيـف لقطـع أي روابـط مـع أحمـد رضـا، وأضافـوا ملحقا فرنسـيا إلى «ميزان» للتضييق على نشاطه[2].

جاءت الأحداث التي رافقت حرب الدولة العثمانية-اليونانية حول كريت عام 1897، لتزيد الخلاف عمقا بين فرعي جنيف وباريس إثر قيام محرر، من أصل يوناني، في «مشورت»، بنشر مقال أيد فيه الثوار الإغريق في كريت ، ورفض أحمد رضا تنفيذ أوامر مركز جنيف بالإعلان أن نشر المقال كان خطئاً مطبعيا[3]، وعلق أحمد رضا بأن مراد وأتباعه مثلوا وجهة نظر إسلامية محافظة، وانحرفوا عن السياسة الليبرالية التي اتبعها في توحيد المجموعات الدينية المختلفة في الدولة العثمانية، وهو اتهام رفضه مراد بك[4]، وتطور الموضوع ضمن اجتماع الفرع الرئيس إلى إبعاد أحمد رضا عن أي منصب في الجمعية، وهو ما لم يك كافيا لإرضاء مراد الذي قدم استقالته إلى اللجنة التنفيذية للجمعية[5].

1- Ernest E. Raamsaur, The Young Turks, P.29

في الترجمة العربية ص60.

2- BAR. Film No. 86095, Direktion der Justiz & Polizei des Kantons Zürich, An die Schweizerische Bundesanwaltschaft in Bern, Bunesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.477, 22 December 1906; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarıhımız ve Jön Turkler, S.69; Hans- Lukas Kieser, Osmanische Opposition in Genf 1868- 1908, "Schweizerische Zeitshritft Für Geschichte", Switzerland, Vol.52, Nr.3, 2002, P.273

هانس- لوكس قيصر، المعارضة العثمانية في جنيف 1868-1908، «المجلة السويسرية للدراسات التأريخية»، سويسرا، المجلد 52، العدد 3، 2002، ص273. (باللغة الألمانية).

3- "Atatürk Ansiklopedisi", S.222-223.

4- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.97.

5- Ibid.; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.40

في الترجمة العربية ص69.

على الرغم من شكلية الإجراءين، واستمرار كل من مراد الميزانجي وأحمد رضا بنشاطهما، فأن هذه التطورات أحرجت الاتحاديين، وزاد من وضعهم صعوبة النتيجة التي آلت إليها الحرب بين الدولة العثمانية واليونانية، إذ توقع المركز الرئيس في جنيف إتباع سياسة دبلوماسية طريقا للمعالجة، وبعد إعلان الحرب شكك في إمكانية عبدالحميد تحقيق أي نجاح. انطلاقا من هذه التصورات كان تناوله لموضوع كريت ضمن منشوراته، مع هجوم حاد على عبدالحميد وسياسته. لكن الانتصار العثماني على اليونان أطاح بالأعمدة المرحلية لهجومهم، وأجبرهم على الصمت ولو مؤقتا[1].

في ظل هذه الظروف أراد السلطان قبض محصلة انتصاره، وقرر القيام بجولة مساومة مع الاتحاديين ، الهدف منها تخليهم عن منشوراتهم، وعن مجمل نشاطهم إن أمكن ذلك، وعين لهذه المهمة رئيس مخابراته أحمد جلال الدين باشا[2].

بدأت المفاوضات مع بداية تموز 1897، ورفض أحمد رضا ومجموعته الدخول فيها لتتحدد باللجنة المركزية في جنيف التي اشترطت للوصول إلى اتفاق إعلان عفو عام ودفع مبلغ ستمائة ألف فرنك لقاء غلق جريدة «ميزان»، كما طالبت الحكومة العثمانية بشراء المطبعة وكل نسخ «ميزان» التي لم يتم توزيعها بسعر عال يكفي لتغطية المبالغ المعادة إلى المشتركين وتوفير مبلغ لتوزيعه إلى أقرباء الموتى من أعضاء «جمعية الاتحاد والترقي»[3].

خلال المناقشات أراد الاتحاديون الحصول على ضمانات جوهرية من أحمد جلال الدين باشا، وأن يقدم السلطان نفسه تعهدا بإجراء إصلاحات، غير أن مراد بك لم يلبث أن

1- Please look at: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.95-96.

2- روحي بك الخالدي المقدسي، المصدر السابق، ص157؛
Yusuf Hikmet Bayur, Türk İnkılâbı Tarihi, S.252; http:// www. dtsk. de/ tr/ kultur- gesellschaft- tr/ kg- 2003- 01- 15 kamil- tr. Html, Kamil Çolak, Tarıh Sohbetleri II. Meşrtiyet.

3- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.99; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.96-98; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkleri, S.45-57.

فاجأهم، في العشرين من تموز، بقراره قبول العودة إلى اسطنبول، رغم معارضة معظم رفاقه[1]، واضعا بقراره حدا للمفاوضات، فاضطرت اللجنة القبول بإنهاء النشر، وإن كانت قد رفضت إيقاف كل نشاطها، واصفة الاتفاقية بـ«هدنة» بين الاتحاديين وحكومة يلدز التي يتوقع منها القيام بإصلاحات وعفو عام، تحتفظ اللجنة بحقها في العودة إلى ممارسة كامل نشاطها في حال عدم تنفيذهما[2].

إن أي محاولة لمعرفة الأسباب التي دفعت بالميزانجي إلى هذا التصرف لا تعدوا أن تكون تكهنا، قد يقترب أو يبتعد عن الحقيقة، وفي هذا الصدد قدم أرنست رامزور تحليلا يستحق التمعن[3]، على أنه لا يمكن النظر للموضوع بمعزل عن طبيعة شخصية مراد الميزانجي الطموحة والتي كثيرا ما حلمت بموقع متميز ضمن البيروقراطية العثمانية، واستعداده المسبق للتخلي عن نشاطه في صفوف الجمعية[4]، وحالة التقاطع الفكري والمنهجي بينه وبين عدد كبير من الشخصيات البارزة والمؤثرة في الجمعية، حتى بين صفوف أتباعه ومؤيديه أنفسهم.

نُفذت اتفاقية كونتريكسفل (Contrexévill Treaty)[5]، على الرغم من المعارضة الشديدة والتحذيرات المتواصلة من معظم فروع الجمعية تقريبا، وجاءت الاعتراضات الأشد عنفا من فروع اسطنبول وبلغاريا ورومانيا ومصر. فكتب الأخير، مثلا، في رسالة وجهها إلى اللجنة المركزية:

1- **Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.74-76; Yusuf Hikmet Bayar, Türk İnkılâbı Tarihi, S.252-253.**

2- **Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, PP.47-48**

في الترجمة العربية ص76؛ أحمد عزت الأعظمي، المصدر السابق، الجزء الأول، ص62-64؛ أورخان محمد علي، المصدر السابق، ص279.

3- **Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, PP.48-49**

في الترجمة العربية ص77.

4- خلال وجوده في مصر أبدى مراد،أثناء مفاوضاته مع ممثلي السلطان، استعداده للبقاء صامتا والإحجام عن مضايقة السلطان، مقابل اجتماعه بعائلته في بلغاريا، إلا أن عبدالحميد رفض هذا الاقتراح.

L.Hirszowicz, Op.Cit., P.300.

5- نسبة إلى مكان عقد المفاوضات.

«إن جهود سنتين قد ضاعت في مساومة غريبة استمرت شهرا واحدا... نتيجة لا يمكن تبريرها إلا من خلال أحد ثلاثة أسباب: سذاجة مفرطة، أو عجز، أو بلادة وأنانية... إن العملية لا يمكن أن تكون إلا جريمة فاضحة. سيجعلهم الله بالتأكيد يتحملون عبء هذه المسألة»[1].

كما عبر الكثير من الشخصيات البارزة في الجمعية عن يأسهم وحسرتهم ورفضهم لموقف مراد بلغة وصلت حد الإهانة[2]، وأطلق أحمد رضا وجماعته هجوما عنيفا على مراد واتفاقه، فكتب خليل غانم **«لسنا معاندين جامدين، ولكننا لا نؤمن بوعود السلطان أو بكلمته، وإيماننا أضعف بالوسطاء الذين يرسلهم إلينا. إننا نطلب الأعمال والأفعال. كيف نلتزم بالسكوت عن مطالبته بإدخال الإصلاحات التي وعد بها مائة مرة، ولم يقم حتى ببذل جهد مخلص؟... إن الوعود لا قيمة لها، وأن المبادئ هي كل شيء»[3]**

بررت تطورات الوضع داخل الدولة العثمانية كل تلك المواقف والكلمات، إذ استمرت الاعتقالات في أثناء المفاوضات بين الاتحاديين ومبعوث السلطان، بل وازدادت زخما بعد التوصل إلى «الاتفاق»،وتم نفي ما يقارب الثمانين عضوا في «جمعية الاتحاد والترقي»، معظمهم من الطلبة، إلى طرابلس الغرب وفزان[4]، ولم تجدِ كل طلبات العفو عنهم نفعا، ورفض بذلك أهم طلب لجمعية الاتحاد والترقي، ولم يجرؤ أحد على ذكر الإصلاحات الموعودة، وهو ما نسف الأسس التي قامت عليها الهدنة. أما مراد فقد أجرى مع وصوله إلى اسطنبول مقابلة مع صحيفة «إقـدام» شجب فيها نشاط الاتحاديين ضد السلطان[5]،

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.100.

2- Please look at: Ibid.

3- Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.52

في الترجمة العربية ص81-82.

4- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.101;

«تاريخ القوات المسلحة التركية الدور العثماني. الحرب العثمانية الإيطالية 1911-1912»، ترجمة محمد الأسطى، مراجعة نجم الدين زين العابدين، بيروت، 1988، ص32.

5- "Atatürk Ansiklopedisi", S.224.

وحصل على مكافأته مركزا وظيفيا جيدا ومرتبا كبيرا[1]، لكنه من الناحية الواقعية كان يعيش تحت الإقامة الجبرية، ولم تنفعه استفاقته المتأخرة على واقعه الجديد[2].

شكلت هذه الأحداث ضربة موجعة لجمعية الاتحاد والترقي، لكنها كانت بعيدة عن أن تكون مميتة. واتجهت الأنظار في تلك المرحلة إلى أحمد رضا الذي كان قد ارتفع نجمه إثر إخفاق الدعوة القضائية التي رفعتها السلطات العثمانية ضده وضد جريدته في محاكم باريس، بتهمة الإساءة لسمعة السلطان، خلال الأزمة في جمعية الاتحاد والترقي صيف **1897**.

لـم يكـن هـذا النـوع مـن المحـاولات مع صحيفـة أحمـد رضـا الأولى مـن نوعها، وإنمـا سـبقتها محاولـة فـي العـام **1896** تمكن السـلطان فيها من فـرض حظر علـى توزيع «مشـورت» التركيـة[3]، الأمـر الذي أثر سـلبا في وضـع ومكانة أحمـد رضا. أمـا المحاولة الجديـدة فكانـت نتيجتها مختلفـة تماما، حتى أن حكـم المحكمة كان بمثابـة «صفعة بوجه السـلطان» حسـب الوصف المعبر لأرنسـت أ.رامـزور[4]. فلم يكتف نص الحكـم[5] بكيل المديـح لأحمـد رضـا وجماعتـه، بل ونقـل الكلمـات التـي اسـتخدموها في ذم السـلطان والصفـات القاسـية التـي أطلقوهـا عليـه مثل «مخادع سـفاك، سـوط عـذاب مـن الله على النـاس، ملـك متعطـش للدماء، مسـتبد سـفاح طاغيـة متفسـخ، عار علـى المسـلمين...»، وارتـأت المحكمـة أن غرامـة مقدارها سـتة عشـر فرنك، مع وقـف التنفيذ، جـزاء كاف لهم عن كل تلك الكلمات والأوصاف.

1- Ibid.; Yusuf Hikmet Bayur, Türk İnkılâbı Tarihi, S.253.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.100;

رجب حراز، المصدر السابق، ص62.

3- Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, PP.35-36

في الترجمة العربية ص65.

4- Ibid., P.36

في الترجمة العربية ص66.

5- للإطلاع على نص الحكم يراجع: Ibid., P.36-37 وفي الترجمة العربية ص66-67.

من الواضح إن هذه المحاكمة، على عكس ما أريد لها، كانت نصرا للاتحاديين، وبالتأكيد إنها أعادت شكلا من الشعبية لهم، تجسد باندفاع العديد من المثقفين الفرنسيين للدفاع عن «جمعية الاتحاد والترقي» ممثلة، على نحو الخصوص، بأحمد رضا الذي تحرك ثانية، بفضل كل الأضواء التي سلطت عليه، لاتخاذ موقع قيادي في الجمعية، وأجبرت الظروف التي رافقت الدعوى الكثير من الاتحاديين البارزين إلى التخفيف من اعتراضهم ضده. فكتب إسحاق سكوتي، مثلا «لو أن أحمد رضا ترك إصراره الذي لا معنى له، فأنه رجل مقبول عندنا نظرا لخدمته وأهليته، وبناء على ذلك لو أنه يعدنا بأنه سوف يعرض أفكاره الأنانية لنظام التشاور، الذي هو الدعامة الرئيسة للجنتنا، فسيعاد إلى موقعه السابق بالترحيب»[1]. وشاركت عناصر مؤثرة، وفروع عديدة ضمن الجمعية، إسحاق سكوتي في رأيه، وانساق البعض إلى أكثر من ذلك، فطالب أحد فروع اللجنة المركزية للجمعية بالاعتذار من أحمد رضا عن طردها له، ووعد فرع آخر بتقديم الدعم لتأمين نشر «مشورت»[2]. وبعد صدور الحكم ازداد التأييد والدعم للقائد الوضعي قوة واتساعا وصراحة، حتى بين جماعة مراد بك، بمن فيهم أولئك الذين قرروا العودة إلى الوطن، وكتب أحدهم «لا فرق بين استخدام السنين 108 [التأريخ الوضعي] أو 1312 أو 1896. إن الكافر الذي يمتلك ضميرا [إشارة إلى أحمد رضا] أفضل من الرجل المتدين الذي بلا ضمير [مراد بك]»[3].

مشجعا بكل هذا الإطراء والتأييد قرر أحمد رضا إعادة إصدار «مشورت»، وبسبب بيع المطبعة على وفق «اتفاقية» كونتريكسفيل، وتمكن وكلاء السلطات العثمانية من شراء الدار التي تصدر فيها «مشورت»، اضطر أحمد رضا إلى كتابة الجريدة بخط يده وطباعتها حجريا، وصدر أول عدد من «مشورت» الجديدة في الثالث والعشرين من أيلول 1897، مع عنوان فرعي «لسان حال جمعية الاتحاد والترقي»، خط بها أحمد رضا مقدمة معبرة، جاء فيها:

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.99.

2- Ibid., P.98.

3- Quoted in: Ibid., P.110.

«وجد الحزب أن لا جدوى ترجى من إصدار جريدتين باللغة التركية في آن واحد، وقد انجذب أولئك الذين أصدروا ميزان في جنيف بدلا من مشورت لوهج المكافأة الموعودة من رئيس جهاز المخابرات أحمد جلال الدين باشا، وعادوا إلى اسطنبول. إني أجد في مقابلة أصدقائي لأحد خدم عبدالحميد إذلالا مضاعفا أولا لأنه جاسوس، وثانيا لكونه خادما لسلطان طاغ. ولم يكتف البعض منهم بلقائه، بل وقبلوا منه الهدايا أيضا. لقد انسحبوا من ميدان الغزو والقتال، وباعوا ختم الجمعية والمطبعة التي كانوا قد ائتمنوا عليها، وأوقفوا إصدار ميزان. ومثلما أن الأفعال المخزية التي قام بها حفنة من الأشخاص الحقراء الذين تجسسوا للقصر، وصاروا أدوات للقتل الجماعي لم تلطخ شرف الأمة العظيم، فإن عودة خمسة أو عشرة موتورين التحقوا خطأ بالشبان الأتراك لن ينسف قوة وسياسة جمعية الاتحاد والترقي»[(1)]

استفاد أحمد رضا من سمعته بوصفه القائد الذي استعصى شراؤه أو إيقافه على الرغم من كل محاولات السلطات العثمانية، وعمل على تعزيز وضعه في الجمعية بتعديل موقفه من التحرك الثوري بشكل يقرب النُشطاء منه، وإرسال رسائل عديدة إلى بعض أعضاء الجمعية والعديد من فروعها في الدولة العثمانية مؤكدا استعداده للعمل معهم، وتمكن من تحقيق تقدم في جهوده، حتى أن العديد من الشخصيات البارزة في الجمعية، بمن فيهم عبدالله جودت الذي كان قد هرب من منفاه في طرابلس الغرب، ووصل أوربا وقت عقد الهدنة، طالبوا بتعيين أحمد رضا مديرا للجمعية، إلا أن إسحاق سكوتي، الذي تولى رسميا إدارة اللجنة التنفيذية للجمعية، لم يرغب بمثل هذا الإجراء[(2)].

في آب 1897 عُقد أول اجتماع بعد «اتفاق» كونتريكسفيل لمن بقي من اللجنة المركزية للجمعية في جنيف، قرروا فيه إعادة تنظيم صفوفهم، واستئناف إصداراتهم[(3)]. وبالفعل صدرت

1- Quoted in: Ibid., P.112.

2- Ibid., P.114; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.91-92.

3- M.Şükrü Haniğlu, The Young Turks in Opposition, P.114.

في الأول من كانون الأول من العام نفسه الطبعة الأولى للجريدة المركزية الجديدة التي حملت اسم «عثمانلى»[1] ، أُمنت الأموال اللازمة لها من خلال مساومات دارت بين إسحاق سكوتي وممثلي السلطان في القاهرة، بعد أن باع سكوتي لهم المطبعة والنسخ القديمة لصحف ومنشورات الفرع المصري[2]. وتبع صدور «عثمانلى» بأربعة أيام إصدار ملحقها الفرنسي[3].

أفزعت هذه التطورات السلطات العثمانية التي حاولت اعتراض صدور جريدة «عثمانلى» بدعوى خرقها الاتفاقية الموقعة بين الطرفين[4]، لكن «جمعية الاتحاد والترقي» فندت هذا الادعاء أمام الإدارة السويسرية، وكل الدول الغربية من خلال جريدتها الجديدة، وعدد من الصحف الأوربية، والاتصال بالكثير من الشخصيات المرموقة سياسيا وثقافيا، متهمين السلطان بإغرائهم بوعود إصلاح لم تر النور أبدا[5]. وتمكنوا بطريقتهم تلك من الحصول على دعم الشعوب الأوربية.

لم يحتج مركز جنيف الكثير من الوقت حتى يتمكن من تنظيم لجنته المركزية التي برز بين أعضائها إسحاق سكوتي وعبدالله جودت وحلمي الطوني ونوري أحمد وعقيل مختار[6]،

1- يراجع: «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنة، نومرو 1، 1 كانون أول 1897.

2- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.106-108; W.S.Vucinich, Op.Cit., P.106.

3- "Osmanli" (Supplement Français Mensuel Du) (Journal), Geneve, No.1, 5 Decembre 1897.

4- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.108.

5- يراجع: «افادة مخصوصه»، «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو 1، 1كانون اول 1897؛ «تأسفمى ايده لم، افتخارمى»، «عثمانلى»،جنيف، برنجى سنه، نومرو24، 15تشرين ثاني 1898؛ BAR.Film No.86095, Le Conseiller D'Etat Charge du Department de Justice et Police, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.29, 17January 1898.

6- BAR. Film No. 86095, Direktion der Justiz & Polizei des Kantons Zürich, An die Schweizerische Bundesanwaltschaft in Bern, Bunesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.477, 22 December 1906; M.Şükrü Haniğlu, The Young Turks in Opposition, P.115.

وصارت هذه اللجنة، من جديد، مركزا للجمعية[1]، بينما أعيد أحمد رضا إلى وضعه السابق قبل إقصائه عنها[2].

مارس أحمد رضا من موقعه القديم الجديد فعاليات كثيرة، حظي معظمها بدعم اللجنة المركزية في جنيف، على الرغم من تعكر الأجواء المتكرر بينهم، لعل أبرز تلك الفعاليات مشاركته على رأس وفد من «جمعية الاتحاد والترقي» في مؤتمر لاهاي للسلام[3]، وتقديمه مذكرة لممثلي الدول الحاضرين في المؤتمر، ونجاحه في إلقاء خطبة عكس، من خلالها، أهداف وتوجهات الجمعية[4]. وضمن الخط نفسه انضم إلى مؤتمر السلام العالمي في كريستيانيا (Ciristiania)[5]، حيث ألقى خطابا شابه في مضمونه خطابه في لاهاي[6]. كما بذل أحمد رضا جهودا كبيرة لدفع شخصيات بارزة في المجتمع الفرنسي، على المستويين الفكري والسياسي، للكتابة في الملحق الفرنسي لـ «مشورت»، بهدف التأثير في الرأي العام الأوربي لصالح الجمعية[7]. وبالفعل كان لنشاطاته تلك دورها في الترويج لفعاليات الجمعية،

1- ينظر: «استانبولدن»، «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو 2، 15كانون اول 1897؛ «اسكويدن»، «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو3، ا كانون ثاني 1898.

2- M.Şükrü Haniğlu, The Young Turks in Opposition, P.115.

3- عقد مؤتمر لاهاي للسلام (Hague Peace Conference) بناء على اقتراح قدمه قيصر روسيا في آب 1898 بهدف الحد من سباق التسلح، وانعقد المؤتمر في مدينة لاهاي الهولندية في شهر أيار 1899، وواصل أعماله إلى تموز من العام نفسه، حضره ممثلون من ست وعشرين دولة. لم يحقق المؤتمر شيئا يستحق الذكر حول نزع السلاح، وإنما تمخض عن تشكيل محكمة دائمية مقرها لاهاي لتسوية «النزاعات عدا الخاصة بقضايا الشرف أو المصالح الهامة»، وشُكلت المحكمة عام 1901. عُقد المؤتمر ثانية عام 1907، نتج عنه سلسلة من المعاهدات بخصوص الحد من ويلات الحرب. آلان بالمر، موسوعة التاريخ الحديث، الجزء الأول، ترجمة سوسن فيصل السامر ويوسف محمد أمين، بغداد، 1992، ص351-352؛
W.L.Langer, Op.Cit., PP. 581-601.

4- Tarık Z.Tunaya, Türkiyede Siyasi Partiler, S..111; Nurı Eren, Op.Cit., P.57; Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.121-122.

5- الآن أوسلو.

6- Please look at: Tarık Z. Tunaya, Türkiyede Siyasi Partiler, S.111; "Atatürk Ansiklopedisi", S.252.

7- Nurı Eren, Op.Cit., P.57; M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.129.

وتوسيع انتشارها، والإعلاء من شأنها «فلم يبق هناك أوربي لم يسمع بعنوان لجنتنا، ولا توجد أي جريدة إلا ونشرت مواضيع تتعلق بشؤون لجنتنا» حسب صياغة أحد الاتحاديين[1].

لـم يمنـع كل النشـاط الذي أبـداه أحمـد رضا، مركـز جنيـف، بلجنته الجديـدة، من السـيطرة علـى زمـام الأمـور فـي الجمعيـة، سـاعده علـى ذلـك تعديـل النظـام الداخلـي للجمعيـة، ووضـع شـفرة جديـدة بيـن الفـروع، فـرض مـن خلالهـا هيمنتـه علـى كل المراسـلات[2]. كمـا بـدأ المركز بإصـدار ثلاث صحـف إضافيـة الأولى «كردسـتان» التي اسـتأنف إصدارهـا فـي جنيـف[3] بـإدارة الزعيـم الكـردي عبدالرحمـن بدرخـان باللغتيـن الكرديـة والتركيـة، بمطابـع «جمعيـة الاتحـاد والترقـي»، وحسـب توجيههـا[4]، وطبعـت

1- Quoted in: M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.133.

2- Ibid., P117.

3- كانت ولادة صحيفة كردستان في القاهرة، وصدر العدد الأول منها في 30ذي العقدة 1315 هجري، الموافق 22نيسان 1898 ميلادي، بإدارة مقداد مدحت بدرخان، الأخ الأكبر لعبد الرحمن بدرخان. يراجع: الدكتور كمال مظهر أحمد، إحدى زوايا تاريخ الصحافة الكردية، ترجمة صدر الدين عارف، «سردم» (مجلة)، السليمانية، العدد الأول، صيف 2003، ص18؛ هوكر طاهر توفيق، دور الصحافة الكوردية في تطوير الوعي القومي الكوردي 1898-1918، دهوك، 2004، ص67-76.

4- تنظر: «عثمانلى»، جنيف،ايكنجى سنه، نومرو35، 1مايس1899؛ «عثمانلى»، جنيف، نومرو22، 15تشرين أول 1898؛ مالميسانز، المصدر السابق، ص14. يميل معظم الكتاب الكرد إلى اعتبار جريدة «كردستان» جريدة وطنية كردية، ويعطي محتوى الجريدة أساسا متينا لهذا الرأي من خلال تركيزها على قضايا الكرد وكردستان. ينظر مثلا: فةيسةل دةباغ، نةخير روزنامةى كردستان (1898-1902) ئوركاى حزبى (ئيتحاد وتةرةرقى) نةبووه، «روزنامةفانى»، زماره 8، نيسان 2002، ل45؛ ئارام قةلادزةيى، منيش دةليم نةخير... روزنامةى كردستان (1898-1902)) ئوركاى حزبى (ئيتحاد وتةرةرقى) نةبووه بةلام عةبدولرةحمان بةدرخان لة ريزه كانى (ئيتحاد وتةرةرقى) دا ئيشى كردوه، «روزنامةفانى»، زماره 8، نيسان 2002، ل51. لكن الجريدة أيضا، في توجهها العام، لم تكن تختلف عن توجهات جمعية الاتحاد والترقي، فقد عبر عبدالرحمن بدرخان عن الهدف من إصدار جريدة كرستان بـ«إقامة نظام اتحادي يضم الأرناؤوط والرومانيين والآثوريين والعرب والأرمن والمناطق التي يقطنها الكرد، وينشد إسقاط نظام السلطان»، حسبما نقله مالميسانز في كتابه السابق الذكر ص13، وهنا لا بد من التأكيد مجددا على طابع الازدواجية في الولاء خلال تلك المرحلة، ومصاحبة الولاء للعثمانية للولاء للعرق، وحتى لو كان الولاء العرقي، عند هيئة تحرير كردستان هو الأكثر قوة وبروزا، فأن سيطرة اثنين من القادة الأكراد على الجمعية كان من شأنه تخفيف حساسية تلك المشاعر.

مقالات لاثنين من المؤسسين، والعضوين الأبرز في الجمعية لتلك المرحلة الكرديين إسحاق سكوتي وعبدالله جودت. الصحيفة الثانية «به به روحی»[1] التي اعتمدت أسلوب الهزل والكاريكارتير بهدف بث الدعاية بشكل يسهل فهمه للعامة العثمانية[2]. والثالثة هي «جرأت»[3]. واعتمد مركز جنيف، أيضا، إصدار العديد من البيانات وتوزيعها بكثافة داخل الدولة العثمانية من خلال شبكة «جمعية الاتحاد والترقي» في العاصمة وبقية الأقاليم، كان أبرزها بيانا وبخوا فيه السلطان وحطوا من شأنه من منطلق الأفضلية الدينية التي طالما استخدمها عبدالحميد للرفع من مكانته، جاء فيه:

«أيها المسلمون

إن عبدالحميد حسب ديننا ليس بالسلطان ولا بالخليفة، ولينظر أولئك الذين يشكون في كلامنا إلى القرآن الكريم والسنة. لقد أظهرت جمعيتنا أوامر الله ورسوله إلى الحكومة والشعب من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، لكن عبدالحميد أشاح بوجهه عنها، وأثبت أنه كافر لا يتردد عن معصية الله. لذلك كان على شعبنا حمل السلاح ضده، ومن المؤسف أنه لم يفعل رغم ثبوت خطأ ذلك... لقد وقعت جمعيتنا في العام الماضي اتفاقية مع عبدالحميد عرفت باتفاقية كونتريكسفيل، وكتمنا أنفاسنا انتظارا لتنفيذ وعود عبدالحميد. على أي حال فقد انتهز عبدالحميد الفرصة، ووصل إلى الذروة في إنزال المعاناة على بلادنا، والهدم فيها، وإذلال الدولة والخلافة. لقد أعلنت لجنتنا الحرب على عبدالحميد الذي لم يحافظ على وعده كما أمر القرآن الكريم...

1- الاسم لقزم مضحك طوله لا يزيد عن ستة أقدام، يستخدم في عروض دمى الظل التركية.

2- امتازت الرسوم الكاريكارتيرية في الجريدة، إجمالا، بوضوح الفكرة وعمق المضمون. ينظر مثلا: «به به روحی» (جريدة)، جنيف، برنجی سنه، نومرو 2، 1مارت 1898؛ «به به روحی»، برنجی سنه، نومرو 4، 1نيسان 1898.

3- قدم صاحب ومحرر «جرأت» حقي بك، تعريفا بالجريدة وأهدافها ضمن العدد الثاني منها. تنظر: «جرأت» (جريدة)، باريس، سنه 1، نومرو 2، 25أيلول 1898.

كونوا منصفين أيها المسلمين، كونوا منصفين... إن عبدالحميد مَحق الدين والدولة. هبوا رجاءً وقطعوا هذا الخليفة المزيف وشركائه إربا... ومهما كان حجم الظلم فالحق معكم، والنصر لكم (إن الله مع الذين اتقوا)»[1].

من الواضح أن اللجنة في جنيف أبدت تمسكا باستخدام البلاغة الإسلامية، والأهم من هذا أن العناصر التي صعدت إلى موقع السيطرة في المركز الجديد هي مجموعة النشطاء التي كانت تكافح باستقلالية زمن الميزانجي، والتي أرادت من العمل، لا الكلام، منهاجا لها، وهو ما يبدو واضحا من تصريحات إسحاق سكوتي الذي أعلن أن التحرك العملي الملموس على أرض الواقع هو الهدف الرئيس للمؤسسة «إذا صار ضروريا إلغاء عثمانلى فسوف نقوم بذلك، إننا نفعل كل وأي شئ لإدخال الفزع في قلب عبدالحميد. بالأمس فقط أرسلنا ألف فرانك لمكان ما، ومثل هذه المبالغ ستزداد تدريجيا... وإذا ما تمكنا من إنجاز عملية داخل الإمبراطورية، فسوف يبادر كل شخص إلى إرسال الأموال إلينا»[2]. وبالفعل أُرسل المندوبون الجوالون إلى مختلف أنحاء الدولة العثمانية لجمع التبرعات، الأمر الذي أسهم في تعديل الوضع المالي لمركز جنيف[3]، وبدأ التحضير لعملية اغتيال السلطان. فنشرت الجريدة الرسمية للجمعية رسالة تهديد مفتوحة للسلطان عبدالحميد، جاء فيها:

«ليجن جنونك! كن عنيفا كالكلب المسعور! ارتعش أيها الطاغية، ارتعش!... الكل يرتعش خوفا من عزيمة الشعب المتماسك، بعض الأخوة لا يفهمون شيئا من هذا، ولذلك فهم غير قادرين على فهم حقيقة أننا طبعنا هذه الجريدة قبل الموعد المقرر لها، وبست صفحات[4]. الرجاء التحلي بالصبر لغاية العدد التالي»[5].

1- BAR. Film No. 86096, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14249, Bd. 4.

2- Quoted in: M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.117.

3- «بيان حال وإعلان»، «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو 4، 15كانون اول 1898.

4- هذا العدد كان من الأعداد القليلة التي بست صفحات، معظم أعداد الجريدة بثمان صفحات، وبعضها بعشر.

5- «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو 23، 28تشرين اول1898.

هذا التهديد قد يكون منسجما مع الخطة المفصلة التي وضعها الأعضاء العسكريون في جنيف في ضوء المعلومات المقدمة من أحد المقربين في يلدز من المطلعين على دقائق الأمور فيه[1]. غير أن «عثمانلى» لم تفِ بوعدها، فجاء العدد التالي صامتا[2]، ولعل هذا يفسر النتيجة التي آلت إليها المحاولة.

على الرغم من التوقعات الكبيرة لقادة اللجنة المركزية الجديدة، والآمال العريضة التي علقت عليها، فإنهم بدأوا، بعد أقل من سنة، يسقطون في هاوية اليأس. فخطط التآمر أثبتت عدم فاعليتها، وبُعثرت مبالغ ضخمة في مشاريع غير عقلانية، في الوقت الذي استمرت فيه عمليات الاعتقال الجماعي داخل الدولة العثمانية، والهجوم الدبلوماسي العنيف على كل عناصر المعارضة خارجها[3]. كل هذا دفع مركز جنيف للدخول في المفاوضات من جديد مع الحكومة العثمانية، كانت بوادرها الأولى مع بداية النصف الثاني من عام1898.

استمرت المفاوضات مدة طويلة زادت على السنة، حاول الاتحاديون خلالها الحصول على كل الأموال الممكنة من يلدز لتمويل نشاطهم ضده[4]. وفي محاولة منهم لامتلاك موقع أفضل في المساومات أعلنوا إنشاء جمعية سميت «جمعية الرشادية»

1- BAR. Film No. 86095، سرايه قارشو اجرا اولنه جق حركات تعرضيه يى مبرهن تعليمات، Bunderchiv- Bern، E.21/ 14248.

2- تنظر: «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو24، 15تشرين ثاني 1898.

3- ينظر: ماليسانز، المصدر السابق، ص17؛ الدكتور محمد أنيس والدكتور رجب حراز، المصدر السابق، ص170؛

"Atatürk Ansiklopedisi", S.253.

4- لجأ السلطان عبدالحميد الثاني في أحيان كثيرة، كما يقر بنفسه، إلى تقديم الأموال والمناصب لمعارضيه في الخارج لاسترضائهم أو إقناعهم بتخفيف حدة لهجتهم ضده، ولم يمانع حتى لو أخذت المسألة شكل الابتزاز، لدرجة أن الكثيرين ممن أرادوا الحصول على مال أو منصب معين توجهوا إلى الخارج وأعلنوا معارضتهم لعبدالحميد، سبيلا للوصول إلى مبتغاهم. تراجع: «مذكرات السلطان عبدالحميد»، ص85-86؛ روحي بك الخالدي المقدسي، المصدر السابق، ص156؛ محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني. أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها، بيروت، 1954، ص165.

(Reşadiye Committee)[1]، ونشروا برنامجها بعدة لغات[2]، لكن هذا المشروع لم يلبث أن انتهى إلى الفشل[3]. وإزاء تعاظم مشاكل الاتحاديين المالية، وتزايد الضغوط التي تعرضوا لها من السلطات السويسرية التي ازدادت شدتها بتأثير الجهود الدبلوماسية العثمانية، وتقديم السلطات العثمانية ترجمة لمقالات نشرت على نحو خاص في «به به روحى»، وأيضا في «عثمانلى» هاجمت السلطان بأسلوب ازدرائي قاسٍ، واستخدمت كلمات تهديد متطرفة[4]. كل هذه الظروف اضطرت اللجنة المركزية لجمعية الاتحاد والترقي، أواخر 1899، إلى قبول اتفاق تقرر بموجبه توقف اللجنة المركزية في جنيف عن إصدار منشوراتها وعن كل نشاطها مقابل الاستجابة لمطلبهم بإعلان العفو العام عن أعضاء «جمعية

1- نسبة لاسم «رشاد» ولي العهد والسلطان المنتظر.

2- للإطلاع على نص البرنامج باللغات الإنكليزية والفرنسية والتركية ينظر:
BAR. Film No. 86095, Republque Et Canton De Geneve, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.502, 19 September 1899.

3- Please look at: BAR. Film No. 86095, Le Conseiller D'Etat Charge du Departement de Justice et Police, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.487, 11 September 1899; BAR. Film No.86095, An das eidgen. Justiz- und Polizeidepartement, Bundesarchiv- Bern, E.21/14'248, No.2311, 13Octtober 1899; BAR. Film No. 86095, Le Conseiller D'Etat Charge du Departement de Justice et Police, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.555, 18 Octtober 1899; BAR. Film No. 86095, Bundesarchiv- Bern, E.21/14248, 30 November 1899; "Atatürk Ansiklopedisi", S.253.

4- Please look at: BAR. Film No. 86095, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.236, 15April 1899; BAR. Film No. 86095, Eidg. Justiz & Polizeidcpartemant, Bundesarchiv- Bern, E.21/14248, No.262, 15 April 1899; BAR. Film No. 86095, Bundesarchiv- Bern, E.21/14248, 24 April 1899; BAR. Film No. 89095, Le Conseiller D'Etat Charge du Departement de Justic et Police, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14248, No.573, 10 November 1899 ; Isa Blumi, Publisher Hitmen Diplomats and Dreamers Switzerlan's Ottoman- Albanian Diaspora 1899-1920, "Schweizersche Zeitschrift Für Geschichte", Switzerland, 2002, P.316; "Atatürk Ansiklopedisi", S.253.

الاتحاد والترقي»، وإطلاق سراح المعتقلين منهم. كما صدرت إرادة سلطانية بتعيين إسحاق سكوتي وعبدالله جودت أطباء في سفارات الدولة العثمانية في روما وفينا على التوالي، تبعها تعيين حلمي الطوني في سفارة مدريد[1].

ربما كانت مسألة إطلاق سراح المسجونين هي النقطة الأكثر تأكيدا بين مطالب مركز جنيف، إلا أن هذا لا يجعلها الأكثر أهمية، بل أنها حتى كانت ذات اعتبار متدن عند اللجنة المركزية للدخول في المفاوضات، أو القبول بالاتفاق. فأوضاع السجون السلطانية، بما في ذلك المكان الأكثر قسوة في طرابلس الغرب، والذي خبره عبدالله جودت بنفسه، لم يكن بتلك الشدة، بل أن كثيرا منها تحول، بحكم ضخامة الأعداد المنفية إليه من الاتحاديين والمسجونة هناك منهم، إلى مركز متميز لفعالياتهم[2]، ولم يكن هروب السجناء منها أمرا صعبا، لاسيما في ضوء مساعدة الضباط الذين كان معظمهم أعضاء في «جمعية الاتحاد والترقي»[3]. ففي طرابلس الغرب، أنموذج الصرامة والشدة، نجح أكثر من نصف المسجونين والمبعدين في الهرب منها إلى مصر أو أوربا، بل أن واليها أعلن عجزه عن السيطرة على الأعداد الكبيرة من السجناء والمبعدين في مكان تتوفر فيه «إمكانية الفرار برا وبحرا» و «أن عدم جدوى المكان يقتضي أن لا يرسل فيما بعد إلى هنا إلا الأشخاص المراد تأديبهم حبسا، وصرف النظر عن إرسال الأشخاص المراد إبعادهم، ويجب إيفادهم إلى أماكن أخرى»[4]. هذه الحقائق تدفع إلى الترجيح بأن العامل الأساس وراء دخول اللجنة المركزية للاتحاد والترقي في مفاوضات مع الباب العالي هو الحاجة الملحة للأموال لتأمين استمرار نشاطها وتمويل فعالياتها ومخططاتها، فالوضع المالي

1- **Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.143;**
مالميسانز، المصدر السابق، ص17؛ دوكتور جه بار قادر غه فوور، رووناكبيرى كورد دكتور عه بدولا جه وده ت -1869 1932، «كاروان»، به غداد، زماره 37، 1985، ل7.

2- **M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.121.**

3- **Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S. 151;**
الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص31.

4- «وثائق تاريخ ليبيا الحديث. الوثائق العثمانية 1881-1911»، جمع وترجمة عبدالسلام أحمد، ترتيب ومراجعة وتقديم الدكتور أحمد صدقي الدجاني، بيروت، 1974، ص178-179.

للجمعية كان مترديا جدا، حتى أن موضوعا بسيطا مثل قوت أعضاء الجمعية، تحول إلى مشكلة حقيقة وصلت حد الجوع حسبما عكست مراسلاتهم الخاصة[1].

خلال مرحلة المفاوضات نجح قادة مركز جنيف في ابتزاز أموال من الباب العالي ساعدتهم على الاستمرار في نشاطهم لأكثر من سنة[2]، ومع الوصول إلى خط النهاية في هذا الطريق، شكلت الوظائف المعروضة على أعضاء اللجنة المركزية فرصة أخيرة لإيجاد مورد لتمويل الجمعية[3]، حيث كانت اللجنة قد اتخذت قرارا، أوائل عام 1898، فُرض بموجبه على كل عضو في «جمعية الاتحاد والترقي» تقديم ثلثي راتبه إليها لإبقاء سريان عضويته بها[4]، الأمر الذي دفع العديد من قادة الاتحاديين المرموقين، بمن فيهم إبراهيم تيمو، إلى تقديم النصح لقادة مركز جنيف بقبول الوظائف لمدة سنة على الأقل لتوفير مال يكفي للنشر لأطول مدة ممكنة[5].

كان من الصعب توضيح هذه الاعتبارات لكل أعضاء الجمعية، خصوصا داخل الدولة العثمانية الذين عدّو «اتفاق» مركز جنيف مع الباب العالي خيانة للجمعية، وخاطبوا الذين قبلوا بها على أنهم أشخاص انتهازيين وحقراء، ولم تُجد نفعا كل محاولات أولئك الأعضاء للتهدئة من خلال إعلانهم بأن قبولهم بالمناصب التي تم تعينهم فيها كان فقط لإطلاق سراح الأعضاء المسجونين[6]. هذا الوضع جعل عمل فرع جنيف غاية في الصعوبة، زاد وضعه سوءا الهجوم العنيف الذي تعرضوا له من فرع باريس، واستخدام بعضهم كلمات قاسية، بل ومهينة أيضا، بحق قادته، وأبدى أحمد رضا استنكاره للنتيجة التي آلت إليها

1- Please look at: Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S. 143.

2- M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.134.

3- Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S. 143;
«ضياع عظيم»، «كردستان»، جنيف، عدد30، 4ذي الحجة1319.

4- Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S. 135.

5- Ibid.
وتجدر الإشارة إلى أنه بفضل تلك المساعدات ، بالدرجة الأساس، واصلت «عثمانلى» الصدور مدة ليست بالقصيرة. ماليسانز، المصدر السابق، ص18.

6- "La fortresse de Tripoli", «Osmanli" (Supplement Français Mensuel Du), No.13, 1August 1899.

Twitter: @ketab_n

المفاوضات، محافظا على وصفه بالقائد الصلب الذي لا يمكن شراءه، وهو ما وجه إليه الأنظار بعض الشيء. لكن رضا كان أضعف من أن ينعش حركة الجمعية مع كل العلل التي تعاني منها، لا بل أنه، مثل معظم أعضاء الجمعية، اضطر، في أكثر من مرة، وبتأثير ضغط السلطات الأوربية مرضاة للباب العالي، إلى الانتقال وجريدته لأكثر من مكان[1].

في أواخر كانون الأول 1899 بدا أن «جمعية الاتحاد والترقي» أبيدت تقريبا بتأثير ضربات السلطان القوية والمتلاحقة، واعتقد معظم أعضائها إن المعجزة فقط هي التي يمكنها تحقيق انبعاث الجمعية. وحدثت المعجزة فعلا بهروب الداماد محمود باشا وولديه الأميرين صباح الدين ولطف الله في الرابع عشر من كانون الأول [2]1899.

لم يكن الداماد محمود شخصا عاديا، فقد كان أبوه الأميرال خليل باشا، وأمه بنت السلطان محمود الثاني، والأهم من ذلك إنه زوج أخت السلطان عبدالحميد، مثل بلاده لمدة من الزمن في سفارة باريس، وشغل عام 1892 منصب وزير العدل لما يقرب الثمانية أشهر[3]. فكان من الطبيعي أن يتحول هروبه إلى حدث جلل شغل بال الصحف الأوربية في حينه، والتي أكدت أن هروب الداماد محمود كان نتيجة ميوله التحررية ورغبته في إحياء دستور 1876 [4]، وهو رأي تبنته مصادر عديدة[5]، في حين أرجعت أخرى السبب إلى التعاطف المعروف للداماد محمود مع البريطانيين، المتفق مع مصالحه الاقتصادية، وفشله في الحصول على امتياز

1- محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني، ص160؛
Cavit Orhan Tütenqil, İngiltere'de Türk Gazteciliği 1867-1967, İstanbul, 1969, S.28
جاويد أورهان توتنكيل، الصحافة التركية في انكلترا 1867-1967، اسطنبول، 1969، ص28.

2- "Atatürk Ansiklopedisi", S.253; Yusuf Hikmet Bayur, Türk İnkılâbı Tarihi, S.256.

3- Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkler, S.63-66; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, PP.54-55
في الترجمة العربية ص83؛ أحمد عزت الأعظمي، المصدر السابق، ص66.

4- Please look at: M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.143.

5- Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.55; Mustafa Müftüoğlu, Tarihin Hükmü Abdülhamid Kızıl Sultan Mı, S.52.

سكك حديد بغداد لصالح الشركة البريطانية[1]. وقد يكون لكلا السببين دورهما في قرار الداماد محمود، كما لا يمكن إغفال خلافاته مع السلطان عبدالحميد[2]، وهو العارف لقريبه وللمدى الذي يمكن له أن يصل إليه للتخلص من مثيري القلق في نفسه. على أي حال فأن الهرب من الدولة العثمانية بحد ذاته لم يكن أمرا جديدا، بل كان ظاهرة منتشرة دفعت رحالة أوربي، كان مقيما في اسطنبول في ذاك الوقت، إلى القول «إنه لفريد حقا أن ترى هؤلاء الناس يهربون من أراضي إمبراطورية عظيمة كما يهرب المرء من السجن تماما، ولا بد لهم، إذا أرادوا النجاح، من التحايل والمكر، ومتى عبر شخص الحدود سرى عن الآخرين، أما السلطان فيبدو عليه نفس اليأس البادي على شرطي شهد هروب سجين أودعت إليه حراسته»[3]. وتتابع الهاربون من لظى نار السلطان، حتى بين النخبة العثمانية، فبعد أشهر معدودة من فرار الداماد محمود روع السلطان من جديد بهروب فرد أخر بارز من حاشيته هو إسماعيل كمال بك وهو رجل ألباني تعين في العديد من المناصب في الدولة العثمانية، كان أخرها واليا لطرابلس الغرب، ليفر، حتى قبل أن يباشر في منصبه الجديد، متوجها، مثل أغلب من سبقه، إلى أوربا[4].

قدم هروب هذه الشخصيات، ولاسيما الداماد محمود الذي لم تجدِ معه كل مغريات وضغوط السلطان لإعادته إلى اسطنبول[5]، دعما قويا للاتحاديين في وقت كانوا في أشد

1- Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkler, S.68-78; http:// www. Geocities. Com/ begunay/ z 42. htm, Orkun Konak, Jöntürkler ve Prens Sabahaddin

اوركون كوناك، تركيا الفتاة والأمير صباح الدين؛ فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص235.

2- حول تلك الخلافات تنظر: مذكرات السلطان عبدالحميد، ص107-108؛

Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.172.

3- Quoted in: Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.61

في الترجمة العربية ص88-89.

4- Ibid., P.61; Mustafa Müftüğlu, Tarihin Hükmü Abdülhamid Kızıl Sultan Mı, S.53.

5- عرض السلطان على الداماد محمود مبالغ مغرية وامتيازات كبيرة، وبذل دبلوماسيوه جهودا حثيثة ومضنية مع الحكومات الأوربية، وعمد عبدالحميد،في محاولة أخيرة منه، إلى اتهام الداماد محمود بسرقة مجوهرات أخت السلطان وخطف ولديها اللذين كانا، بموجب القانون السلطاني، في رعاية السلطان وليس لوالدهما أي سلطة قانونية عليهما.

◄

الحاجة إليه، وسعى الكثير من أعضاء الجمعية إلى عمل كل شئ ممكن لاجتذابه إليهم، ورأى فيه بعضهم أملا لتوحيد كافة المعارضين للنظام، وتوسل به آخرون استنشاق حياة جديدة في الحركة[1]. أنعشت هذه الآمال الرسالة الهجومية التي وجهها الداماد محمود للسلطان[2]، وتبادل المراسلات بينه وبين أحمد رضا، معلنا من خلالها استعداده للتعاون مع المعارضة، وداعيا إلى العمل الجماعي[3].

شجعت توجهات الداماد محمود مركز جنيف للاتصال به وبولديه، ورأوا فيهم مصدرا مهما للتمويل واستعادة الكرامة. وفي شباط **1900** وافق محمود باشا على الكتابة لجريدة «عثمانلى»، وهو ما أعاد إليها شيئا من قيمتها المفقودة، وفي نهاية آذار من العام نفسه توجه محمود باشا إلى جنيف، وجرى إثر ذلك تشكيل مركز جديد هناك ضم كلا من محمود باشا وولديه صباح الدين ولطف الله، وحسين سيرت، ومحمد علي حليم باشا، وعلي حيدر مدحت، وصار أدهم روحي مديرا للمركز، ونوري أحمد محررا لجريدته، لكن السيطرة الفعلية كانت، بحكم القوة المالية، بيد الداماد محمود باشا[4].

◄ **"Atatürk Ansiklopedisi", S.253; Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey Sultan II.Abdülhamit İttihad ve Terakki, S.95-100; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, PP.55-57**

في الترجمة العربية ص84-85.

1- **M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.144.**

2- للإطلاع على نص الرسالة ينظر:

Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey Sultan II.Abdülhamit İttihad ve Terakki, S.80-81.

3- للإطلاع على نصوص المراسلات ينظر:

Ibid., S.82-90; Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkler, S.93-95.

4- **BAR. Film No.86096, Le Conseiller D'Etat Charge du Departement de Justice et Police, Bundesarchiv- Bern, E.21/14250, No.156, 31 March 1900; BAR. Film No. 86096, Jungtürcn, Bundesarchiv- Bern, 18 May 1900; M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.145; Hans- Lukas Kieser, Osmanische Oppositionelle in Genf, P.282.**

كان أهم تغيير في ظل القيادة الجديدة صدور سلسلة مقالات في «عثمانلى»بلغة موالية لبريطانيا ومنتقدة لألمانيا، وتُرجم هذا التوجه على أرض الواقع بانتقال مركز الجمعية وجريدته من جنيف إلى لندن، فصدر العدد 62 من «عثمانلى» هناك، معلنين بذلك عن تبدل فكري إنطوى على موقف موالٍ لبريطانيا غَصت به الأعداد التالية لجريدة «عثمانلى»[1]، لكن بريطانيا لم تبدِ حينه الاهتمام المرجو منها[2].

إزاء الفشل في الحصول على الدعم البريطاني، ركز الداماد محمود نشاطه في خطين، تمثل الأول بتكرار المحاولات التي سبق وقام بها العديد من قادة الاتحاديين لتحقيق تفاهم مع الأرمن وكسبهم لجانبهم، وكانت جهوده أكثر حظا قياسا بما سبقها، فأبدى «حزب الداشناق»[3] استعداده للتعاون مع الاتحاديين، مع إعلانهم رفض إعادة دستور مدحت باشا أساسا لحل مشاكل الدولة العثمانية، وإبداء تطلعهم لسياسة ديموقراطية فيدرالية أسلوبا للعلاج[4].

1- ينظر مثلا: «عثمانلى»، لندن، اوجنجى سنه، نومرو 65، 1 آغستوس 1900؛ «عثمانلى»، لندن، اوجنجى سنه، نومرو66، 15 آغستوس1900.

2- Please look at: M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.148-149.

3- الداشناق (Dashnaks) تعني الاتحاد، تأسس هذا الحزب في روسيا عام 1890 إثر توتر العلاقة بين الأرمن والأتراك في أرمنيا الروسية، وسرعان ما أنشأ له فروعا في اسطنبول وطرابزون ووان والعديد من المناطق الأخرى، وامتلك مركزا للدعاية والنشر في كبرى المدن الغربية، لا سيما باريس ولندن. سعى الحزب إلى تحرير الأرمن من مظالم الدولة العثمانية، وأراد، آنئذ، تحقيق الحكم الذاتي لأرمينيا في إطار الدولة العثمانية باستخدام كل السبل، وفي مقدمتها الكفاح المسلح، واعتقد أن بوسع الشعب الأرمني أن يحقق هدفه هذا بمساعدة الدول الأوربية الكبيرة. الدكتور كمال مظهر أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة محمد الملا عبدالكريم، الطبعة الثانية، بغداد، 1984، ص247،263؛ كرم رزق، ذكرى 24نيسان. صفحة من تاريخ الأرمن حتى الحرب العالمية الأولى، «مجلة البحوث والأنباء الاقتصادية»، بيروت، العدد54، 2000، ص23؛
http:// www. ttk. gov.tr/ ingilizce/ armenian_ studies/ 27 mayis 2005. pdf, Kemal Çiçek, The Ottoman Armenians: The Question of Relocation and Immigration During WW1, P.4.

4- Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.154; Hans-Lukas Kieser, Osmanische Oppositionelle in Genf, P.282.

أما الخط الثاني فقد تبنى البلاغة الإسلامية للحصول على الدعم والتأييد داخل الدولة العثمانية، وتجاوز هذا الأسلوب الجريدة الرسمية إلى طبع كتيبات تحمل ختم «اتحاد المسلمين» وزعت في أرجاء الدولة العثمانية كافة، ولاسيما في العاصمة اسطنبول[1].

تزامنا مع هذا النشاط قرر محمود باشا التوجه إلى مصر، حيث الغالبية المسلمة، لمواصلة مساعيه هناك، بعد أن حصل على تعهد خديوي مصر بالحماية والدعم[2]، لكنه ما أن وصل إلى القاهرة حتى ضيق عليه كلا الجانبين المصري والبريطاني، استجابة لمساعي وضغوط عبدالحميد[3]، فتحول الداماد محمود إلى سجين في مصر بدل كونه قياديا للفعاليات ضد السلطان، وتحولت الأنظار، إثر ذلك، إلى إسماعيل كمال الذي أثبت أنه ألباني أكثر منه عثماني، فكان الجزء الأكبر من جهده متجها نحو الألبان وقضاياهم[4]. لذا بحث الاتحاديون عن قيادة فعالة في شخص علي حيدر مدحت باشا، لكنه لم يكن يمتلك ميزة أكثر من كونه ابنا لمدحت باشا[5]. أما أحمد رضا فعلى الرغم من نشاطه المحدود في تلك الحقبة، أضفى عليه موقفه القوي ضد التدخل الأجنبي، ورفضه أشياء كثيرة، أبرزها التكلم مع أزلام السلطان، بريقا خاصا بين قادة الجمعية، بيد أنه لم يكن كافيا لينفرد بقيادتها[6].

1- M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.149.

2- Ibid., P.150.

3- للتفاصيل ينظر: أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن، الجزء الثاني، القسم الأول، مصر، 1936، ص353-360؛ «الهلال»، السنة العاشرة، الجزء العاشر، 15 شباط 1902؛
Tahsin Paşa, Abdülhamit ve Yıldız Hatıraları, S.108-109.

4- بعد مدة قصيرة من هروبه أسس إسماعيل كمال جريدة باسم «تحية ألبانيا» (La Salut de L'Albanie) طبعها باللغات الألبانية والتركية واليونانية. كما أسس روابط مع مجموعة الانفصاليين الألبان في روما، وناقش مستقبل ألبانيا مع رجال الدولة اليونان، وحتى أنه ألقى خطبا تدعو لاستقلال تركيا الأوربية.
M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.151; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.61; Mustafa Turan, Taşkışla'Da 31 Mart Fâciasl, İstanbul, 1966, S.10-11
مصطفى طوران، فاجعة 31 آذار في طاش قشلة، اسطنبول، 1966، ص10-11.

5- Please look at: M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.151.

6- Please look at: Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.154.

خلال المدة تلك واصلت مجموعة النشطاء في جنيف عملها داخل «جمعية الاتحاد والترقي» ، وإتخذت منحنى أكثر استقلالية من خلال تأسيس لجان فرعية عديدة كان من بينها «الجمعية العثمانية لمستقبل الأمة والوطن» (İstikbal-i Vatan ve Millet Cemiyet-i Osmmniyesi) التي أسسها كمال بك أواسط 1900[1]، وأصدرت صحيفة ناطقة بلسـانها باسم «وطن»، صدر العدد الأول منها في 11 كانون الثاني 1901[2]، تبعها قيام شفيق بك بإصدار جريدة باسم «استقبال»[3]، وهناك أيضا «الاتحاد العثماني والشعبة الإجرائية» (Osmanlı İttihad ve İcraat Şubesi) تأسست في آب من العام نفسه. لكن التنظيم الأكثر حيوية ونشاطا كان «جمعية الانتقام للشبان العثمانيين» (İntikamcı Yeni Osmanlılar Cemiyeti) التي أسسها علي فخري بتوجيه من حلمي الطوني[4]، وأصدرت الجمعية جريدتين الأولى باسم «انتقام»، والثانية هجائية باسم «طوقماق»[5].

مثل الاسم غلبت على مضمون الجريدتين لغة عنف حد التطرف والاشمئزاز. ومع العنف بدت الجرأة سمة واضحة فيهما، فكتبت «انتقام»:

«إننا شربنا الدم من الشروق إلى الغروب

لقد مرت خمس وعشرون سنة

إننا نريد الانتقام الانتقام

العالم كله لم يشهد شيئا مثل هذا

ستقطع الكلاب جثته»[6].

1- M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.159.

2- «وطن» (جريدة)، جنيف، نومرو 1، 11كانون ثاني 1901.

3- صدر العدد الأول منها في 3 ذي الحجة 1317. ينظر: «استقبال» (جريدة)، جنوه، برنجي سنه، نومرو1، 3ذي الحجة 1317.

4- Ahmed Bedvi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.155-157; Hans- Lukas Kieser, Osmanishe Oppositioelle in Genf, P.284.

5- طوقماق تعني المطرقة.

6- «انتقام» (جريدة)، جنيف، برنجي سنه، عدد28، 14مارت1901.

ونشرت «طوقماق»:

«إن الوقاحة وعدم الخجل لدمية يلدز صارت لا تطاق. النصيحة والتأنيب، وحتى استخدام الهراوة في بعض الأحيان لم تعطِ نتيجة. لذلك فكرنا مطولا وقررنا إما أن يتخلى هذا الرأس عن عناده، أو سنكسره قطعا»(1).

أظهرت اللجنة بعض التجديد في منهاجها بالطلب من مختلف أقاليم الدولة العثمانية التمرد على كل السلطات الحكومية التي تتجاوز عليها وتسرق أموالها، بدءا بالشرطي مرورا بجابي الضرائب ووصولا إلى حاكم الإقليم(2). لكنها، إجمالا، تمسكت بالأسلوب التقليدي باستخدام اللغة الدينية، بل ووصلت بأسلوبها هذا حد التهريج، والنماذج كثيرة، منها دعوة وزعت في العاصمة اسطنبول، كُتب فيها:

«يا موحد!

إن دينك ومعتقدك يجعل كل خفي ظاهرا أمامك...

يا موحد، قم وتقدم لإنقاذ دينك ومعتقدك الذي سيطرت عليه أيدي الظالمين.

يا موحد، أنقذ نفسك!

يا موحد، أنقذ أمتك، إنهم يدمرونها.

فوق هذه الأحداث الحقيرة، نقف صفا أخيرا، هناك يقف قائد، قائد قاسٍ، متعطش للدماء، شيطان متوج.

إن دينكم ومعتقدكم بين يديه.

كما لو أن دينكم ومعتقدكم قد أنتزع من قلوبكم النقيةـ ولا توجد هناك مثل هذه القوة والسلطة إلا لله ـ وألقي في القذارة في قلب ذلك الشيطان.

1- «افادهء مخصوصه»، «طوقماق» (جريدة)، جنيف، عدد1، برنجى سنه، 1مارت1901.

2- M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.161.

أنقذ يا موحد، أنقذ!

شُق الطريق إلى هذا القلب القذر وأنقذ دينك، معتقدك، دولتك، بلدك!

إن الله يعين من أعانه.

يا موحد: إعانة الله تعني طاعة أوامره، فأطعه!

إننا نسمع هذا باستمرار.

إننا يدا بيد. رجاءً استمعوا لهذا ومدوا أيديكم إلينا!

يا أخي إننا نعاني فقدان الأملاك، الأرواح، الجيش، البلد، والأمة. إن واجب الجميع إنقاذ أولئك الناجين والانتقام لأولئك الذين فقدناهم.

يا موحد: إن مكان الانتقام هو قلب عبدالحميد القذر.

جمعية الانتقام للشبان العثمانيين»[1].

على الرغم من أن هذه الجمعية كانت الأقوى بين رفيقاتها، فأنها عانت، مثلهن، من مشاكل غير قليلة، قادت إلى التجزئة وظهور مجموعة جديدة باسم «جمعية الاسترداد العثمانية» (Osmanlılar İstirdad Comiyeti)، أصدرت صحيفة حملت الاسم نفسه، وعملت على توزيع النداءات في جوامع اسطنبول[2]. ولم تثمر محاولة حلمي الطوني، في صيف 1901، للتوحيد، وهو ما قاده إلى قطع كل ارتباطاته معهم[3].

عكس وجود هذه اللجان والفرق، مثلما حمل حالة تشتت شديدة في «جمعية الاتحاد والترقي»، طالت المعارضة العثمانية في الخارج إجمالا، ودفع الكثيرين إلى رفع أصواتهم مطالبين بعقد مؤتمر يوحد الصفوف، ويضع الأهداف، وينظم النشاطات.

1- «يا موحد»، «انتقام»، برنجي سنه' عدد25، 21شباط 1901.

2- «استرداد» (جريدة)، جنيف، برنجي سنه، نومرو7، 10 مارت 1901.

3- M.Sükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.161.

الفصل الرابع:

مؤتمرات الاتحاديين ونتائجها

أولا: المؤتمر الأول عام 1902 واتساع شق الخلاف.

مع أفول القرن التاسع عشر، وإطلالة القرن العشرين، شهدت جمعية الاتحاد والترقي توسعات كبيرة، وعانت من انقسامات أكبر، فكان هناك الكثير من الفروع والتفرعات، مع ارتباط تراوح بين الشكلية أحيانا، والفعلية أحيانا أخرى، حتى أنه لم يعد هناك وجود حقيقي لجمعية موحدة أو حتى ملتفة، بل تحولت إلى نوع من سديم شمل جماعات صغيرة معزولة إحداها عن الأخرى، ومنظمة، إلى هذا الحد أو ذاك، حول صحيفة أو شخصية ما.

إلى جانب جمعية الاتحاد والترقي كانت هناك تشكيلات كثيرة ومتنوعة، فقلما وجدت مجموعة عرقية أو دينية أو حتى طائفية، ضمن الدولة العثمانية، من دون أن يكون لها تشكيل سياسي أو ثقافي أو ديني يعكس أمانيها وتطلعاتها، اختار معظمها لنفسه العواصم والمدن الأوربية، بعيدا عن البطش الحميدي، مركزا لنشاطه. ومن بين مختلف التشكيلات برزت الأرمنية بوصفها الأكثر تنظيما، والأوسع دعاية ونشاطا، والأقوى تأثيرا بين أبناء جلدتها، والانجح في كسب عطف وإسناد الدول الأوربية. وكان للألبان، أيضا، نشاطهم الواضح في أوربا، علاوة على وجود تنظيمات عربية وكردية ويونانية ويهودية....

إزاء ذلك العدد الكبير من التنظيمات والصحف، وعلى الرغم من الاختلاف بينها منطلقا ومنهجا.وهدفا، جرت محاولات عدة للتنسيق بينها، اضطلع الاتحاديون بمعظمها، وتطورت تلك المحاولات إلى السعي لعقد مؤتمر عام تُجمع فيه كل المعارضة. دشن هذا التوجه حلمي الطوني من خلال اقتراح قدمه في 15 آب 1899 إلى فرع باريس للجمعية مرشحا مدينة برنديزي (Brindisi)، في جنوب إيطاليا، مكانا لانعقاده. لكن أحمد رضا لم

يبد تحمسا للفكرة، وهو ما برره ناظم السلانيكي بعدم ثقة أحمد رضا بالعناصر غير التركية ضمن الدولة العثمانية:

«بخصوص قضية المؤتمر المقترح في برنديزي، عندما يقول أحدهم مؤتمر فان الشيء الذي يتبادر إلى الذهن هو جمعية مكونة من مجموعة من الناس مجتمعة سوية للعمل نحو هدف مشترك. كم من الناس ممكن إيجادهم لحضور مؤتمر ينعقد نيابة عن جمعيتنا؟ ما هي طبيعة المكتسبات التي يمكن أن تستخلص من المؤتمر لأجل وطننا من خلال انضمام أناس يقبلون الدعوة بإيمان تام وأربعة أخماسه ونصف عرب وأرمن واغريق وألبان!؟»[1].

لم يمنع هذا الموقف الطوني من متابعة مساعيه، فأرسل في 15 أيلول 1899 دعوات إلى مجموعة من القادة المعروفين بمعارضة النظام العثماني[2]، ومع أن تسلمه لوظيفته في السفارة العثمانية في مدريد حجّم من حركته، فانه لم يتردد عن التنكر باسم آخر والسفر إلى أثينا، عام 1900، مستأنفا دعوته لعقد مؤتمر وتهيئة برنامج له[3]. ورغم كل تلك الجهود فانه لم يلاق إلا موقفا رافضا تعدى أحمد رضا إلى الداماد محمود وإسماعيل كمال وبهاءالدين شاكر وشرف الدين مغمومي وعبدالحق حامد وأحمد وارداني وغيرهم من الأعضاء البارزين[4]. وكان لوضع حلمي الطوني المتراجع بين قادة الاتحاديين دور في ذلك الموقف[5]، وربما، أيضا، بتأثير الأمل الذي أحيي في نفوس الاتحاديين، إثر هروب الداماد محمود، حول إمكانية توحيد صفوف المعارضة. على أي حال فقد سهل هذا الوضع على الحكومة العثمانية حظر انعقاد المؤتمر بجهود متواضعة.

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.136.

2- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.174.

3- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.174.

4- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.135-136.

5- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.175.

بادر إلى المحاولة الجديدة لعقد المؤتمر أولاد الداماد محمود باشا، وعلى وجه الخصوص الأمير صباح الدين، وسارت الجهود، هذه المرة، في طريق أكثر توفيقا من سابقتها فمن مصر صدر «نداء عام إلى العثمانيين» وقعه الأميران صباح الدين ولطف الله، اللذان كانا يزوران مصر حينه، موجهين من خلال ندائهما دعوة للعثمانيين كافة للاجتماع في مؤتمر يبحث السبل الكفيلة بإقامة العدل والحرية في الدولة العثمانية[1].

كانت الظروف التي مرت بها المعارضة العثمانية في الخارج، لا سيما «جمعية الاتحاد والترقي» خلال الأعوام 1899-1901 تؤلف سببا رئيسا في تغير الموقف من الدعوة لعقد مؤتمر، فوجد النداء ترحيبا من جهات عديدة إذ رحب مركز «جمعية الاتحاد والترقي» في جنيف بالنداء مدفوعا بإدراكه بضعفه وأمله في أن يكون مركزا لأنشطة ما بعد المؤتمر ملكيته لختم الجمعية، ورأى أحمد رضا في المؤتمر مسرحا جيدا لعرض أفكاره على بقية عناصر المعارضة التي أوشكت روابطه معهم على الانقطاع، كما أطرى النشطاء على عقد المؤتمر وأعربوا بأنه كان هدفهم طيلة الوقت. أما الشخصيات القيادية البارزة ضمن الجمعية من رجال الدولة السابقين، أمثال الداماد محمود وإسماعيل كمال، فقد أملوا بالمؤتمر مناسبة ملائمة للعمل على ضمان تدخل القوى الكبرى في السياسة العثمانية، وتمنت فروع الجمعية داخل الدولة العثمانية على المؤتمر النجاح في توحيد كل المعارضة العثمانية، أما الأرمن والألبان وبقية التنظيمات الباحثة عن الانفصال أو الحكم الذاتي، فأنها وجدت في المؤتمر فرصة ملائمة لإسماع صوتها لعموم الدول الأوربية[2].

مع بدء الجهود والاستعدادات لعقد المؤتمر انتشرت حالة من الفزع بين الأوساط الحاكمة في اسطنبول، فبذلت مساعي لإحباط انعقاده، إذ فرضت الحكومة العثمانية رقابة صارمة على أي نشاط داخل الدولة العثمانية، واتخذت إجراءات مشددة ومكثفة لقطع

1- Atatürk Ansiklopedisi, S.292; Orkun Konak, Jönturkler ve Prens Sabahaddin; Ernest E.Ramsaur, The Young Turks, P.65.

2- Please look at: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.166.

اتصالات الاتحاديين بالمتعاونين أو المتعاطفين معهم في الداخل، من قبيل تشديد المراقبة على مراكز البريد الأجنبية وأي منفذ آخر يمكن أن يستغله الاتحاديون في إدخال منشوراتهم إلى أرجاء الدولة، وأجرت عمليات تمشيط واسعة، وأخضعت المشتبه بهم لرقابة صارمة، وشنت حملة واسعة للحيلولة دون إنتشار ما عدّته «منشورات انفصالية»[1].

صاحبت مساعي السلطات العثمانية داخل الدولة، محاولات جادة خارجها، استهلتها وزارة الخارجية بنشر تقرير حول اشتراك مجموعة من قادة الاتحاديين في محاولة لاغتيال السلطان، وعملت السفارات، من خلال نشر هذا التقرير وتقارير أخرى مشابهة، على تصوير الاتحاديين مجرمين وخارجين عن القانون، وصدرت أحكام مختلفة بحق عدد منهم[2]. وتعاونت السلطات العثمانية مع السلطات السويسرية للحد من نشاط الاتحاديين هناك، كما دخلت في مفاوضات مع الحكومة الفرنسية لمنع انعقاد المؤتمر[3]، وقطعت شوطا بعيدا وبدى أنها في طريقها إلى تحقيق ذلك، حتى أنها نجحت في الحصول على قرار من الحكومة الفرنسية بتقييد حركة الجمعية[4]. غير أن تلك المساعي جابهتها، بالمقابل، جهود مُضنية بذلها الاتحاديون بدأها صباح الدين وشقيقه لطف الله بكتابة رسالة موجهة للرأي العام الأوربي أوضحا فيها مبرراتهما لعقد مؤتمر في باريس، تبعها هجوم شرس شنه الاتحاديون من خلال صحفهم، والصحف الأوربية، ضد الحكومة العثمانية، كما وصفوا الحكومة الفرنسية بانها أسيرة لرغبات السلطان العثماني، وجعلوا من قضيتهم واحدة من مشاكل الحرية، ساعدهم في ذلك الاحتجاج المتصاعد في فرنسا ضد سياسة عبدالحميد، خصوصا نحو الأرمن[5]. وتمكنوا، بعد كسبهم لدعم العديد من الساسة الفرنسيين البارزين،

1- Ibid., P.175.

2- Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S.183.

3- “Atatürk Ansiklopedisi”, S.292; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.143;

«احرار عثمانيه قونغره سى»، «كردستان»، جنيف، عدد31، 1نيسان 1318.

4- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.144.

5- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.177-178.

من بينهم عدد من الوزراء والنواب، من الحصول على موافقة انعقاد المؤتمر شرط أن تكون جلساته في منـزل خاص، وليس مكان عام، وإبقائها مغلقة بوجه العامة، وتقديم تفاصيل جلسات المؤتمر إلى وزارة الداخلية الفرنسية قبل عقدها[1].

على الرغم من هذه الشروط فأن الموافقة على عقد المؤتمر كانت تؤشر، بحد ذاتها، إنجازا كبيرا في ضوء كل العراقيل التي وضعت أمامه.

سيطر مقدما الدعوة لعقد المؤتمر على تنظيمه، وشكلا لجنة منسقة شاركهما في عضويتها إسماعيل كمال، وحضر أحمد رضا بعض جلساتها. وتولت اللجنة اختيار المدعوين وإرسال الدعوات إليهم[2].

أعلنت اللجنة عن تمسكها بأن يشترك ممثلو كل الأعراق والطوائف في الدولة العثمانية في المؤتمر[3]، الأمر الذي أكدته وأشادت به مصادر عدة[4]، بينما تظهر أسماء الحضور السبع وأربعون إلى المؤتمر وجود تمثيل قوي للأرمن بسبب اقتناع اللجنة المنسقة بأن وجودهم كفيل بنيل دعم الدول الكبرى، وتمثيلا جيدا للألبان، ووجودا ملحوظا لليونان[5]. لكن بالمقابل لم يكن هناك تمثيل عربي، فرغم وجود خليل غانم، إلا أنه من الصعب القبول به، وهو من يصفه البرت حوراني بأنه كان «لا عروبيا قبل كل شئ»[6]، ممثلا

1- **Ibid., PP.179-180; "Atatürk Ansiklopedisi", S.292.**

2- **M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.180-181; Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S.143.**

3- توفيق علي برو، المصدر السابق، ص53-54.

4- ينظر مثلا: الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص33؛ فرنان ويليه، الأسس التاريخية لمشكلات الشرق الأوسط، تعريب نجدة هاجر وطارق شهاب، بيروت، 1960، ص51؛
Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.259.

5- يورد أحمد بدوي كورون قائمة بأسماء معظم النواب، يعيد كمال كوتاية ذكرها
Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.151; Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S.144.

6- البرت حوراني، المصدر السابق، ص317.

عرقيا للعرب، وحتى وأن كان يبقى تمثيل العرب ضعيفا. أما الأكراد فصحيح أن الزعيمين الكرديين عبدالرحمن بدرخان وحكمت بابان حضرا المؤتمر[1]، غير أن مشاركتهما لم تكن على أساس صفتهما العرقية بل لدورهما ضمن المعارضة العثمانية، وهو ما ينطبق على الأعضاء الشراكسة في المؤتمر، وللأسباب نفسها كان وجود الشخص اليهودي الوحيد آلبرت فوا (Albert Fua) الذي لم يشر مطلقا إلى أسم ديانته طوال جلسات المؤتمر[2]. ومن ثم فأن أعراقا وطوائف لها ثقلها في الدولة العثمانية غيبت عن المؤتمر، ومُثلت أعراق أخرى بشكل فاق ثقلها العددي. وتجدر الإشارة إلى أن قياديين بارزين في «جمعية الاتحاد والترقي» لم يحضروا المؤتمر، من بينهم أثنين من المؤسسين هما إسحاق سكوتي وعبدالله جودت بحكم اشغالهما وظيفة رسمية[3]، كما لم يحضر أي من أدهم روحي، الرئيس الرسمي للجمعية، بسبب خلافه مع الأمير صباح الدين، وأحمد صائب نتيجة مشاكل السفر[4]، أما حلمي الطوني، صاحب الجهد الأوفر لعقد المؤتمر، فلم يكن بين المدعوين أصلا[5].

سبقت انعقاد المؤتمر لقاءات ودية واجتماعات تحضيرية أسفرت عن إعداد جدول أعمال تضمن توجهات عامة للمؤتمر، اشتملت على:

1- الدكتور عبدالستار طاهر شريف، الجمعيات والمنظمات والأحزاب الكردية في نصف قرن 1908-1958، بغداد، 1989،ص14؛ جرجيس فتح الله، يقظة الكرد. تاريخ سياسي 1900-1925، أربيل،2002،ص52.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP. 183-184.

3- تختلف المصادر حول مشاركة إبراهيم تيمو في المؤتمر، ففي الوقت الذي تشير فيه العديد من المصادر إلى تمثيله في المؤتمر.

Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkler, S.151.

يؤكد الدكتور حسن كلشي، المهتم بدراسة كل ما يخص إبراهيم تيمو، على عدم مشاركته في المؤتمر واكتفائه بتهيئة وفد البلقان، ووضع التوجيهات لهم. الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص33-34.

4- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.181-182.

5- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.183.

1. بقاء الأسرة الحاكمة، وتنصيب فرد منها على العرش، والالتزام بالولاء والطاعة للسلالة العثمانية.

2. رفع الدين الإسلامي إلى مصاف المدنية، وحماية الأديان الأخرى.

3. منح الرعايا العثمانيين من المسلمين وغير المسلمين نفس المزايا ماديا ومعنويا، وتوحيدهم سياسيا.

4. قبول الدستور المعلن في 1876 أساسا للوحدة، ومبدءا موجها لإدارة السياستين الداخلية والخارجية[1].

وبعد مفاوضات مطولة تم التوصل إلى نص أكثر تفصيلا، جاء فيه:

«1 - إننا نرفض الربط بين الشعوب العثمانية والنظام الذي عشنا فيه خمس وعشرين سنة، فهو نظام ظالم، وهو المصدر الوحيد للمساوئ المقترفة في الإمبراطورية، التي تثير ازدراء الإنسانية جمعاء.

2 - إننا نريد تأسيس ائتلاف بين مختلف شعوب الإمبراطورية وأعراقها، يضمن للجميع، من غير تمييز، تمتعهم الكامل بحقوقهم التي أقرتها إعلانات السلاطين، وعززتها المعاهدات الدولية، ويوفر لهم الوسائل التي ترضي كل آمالهم الشرعية في الإسهام بالإدارة المحلية، وتضع الجميع على قدم المساواة من ناحية الحقوق والواجبات. إن ذلك سيلهمهم الشعور بالولاء والإخلاص تجاه العرش والسلالة العثمانية، التي باستطاعتها وحدها المحافظة على وحدتهم.

3 - سنوجه جهودنا، في كل الأحوال، نحو تنسيق رغبات الشعوب العثمانية، وجهود جميع المواطنين من اجل الأهداف الآتية: (أ) الحفاظ على وحدة واتحاد الإمبراطورية العثمانية (ب) إعادة تأسيس النظام والسلم في

1- M.Şükrü Hanioğlu, The Turks in Opposition, P.185.

الداخل، وهما شرطان أساسيان للتقدم (ج) احترام القوانين الأساسية في الإمبراطورية، وخاصة الدستور الصادر في العام 1876، والذي هو أهم ما فيها قطعا، والكفيل بتقديم أقوى وأثمن ضمان للإصلاحات العامة، ولحقوق الشعوب العثمانية وحرياتها السياسية تجاه التعسف.

4 - إننا نعلن عزمنا الأكيد على احترام المعاهدات الدولية، ولاسيما معاهدة برلين التي يجب أن تمتد بنودها الخاصة بالنظام الداخلي لتركيا إلى كل ولايات الإمبراطورية»[1].

حالما تم الاتفاق على النص، طبع ليوزع على الموفدين للمؤتمر الذي أطلق عليه أسم «مؤتمر العثمانيين الأحرار»[2] (Ahrâr-ı Osmânıye Kongresi)، وعقدت أولى جلساته في الساعة الثامنة من مساء الرابع من شباط عام 1902 في منـزل المتعاطف الفرنسي مع المعارضة العثمانية جيرمين انتون لوفافر بونتاليس (Germain Antoin Lefever-Pontalis)، انسجاما مع شروط الحكومة الفرنسية[3].

ألقى صباح الدين الخطاب الافتتاحي للمؤتمر، وأكد فيه أن هناك حربا جارية بين الحرية والاستبداد، وإن كل مشاكل الدولة العثمانية سببها النظام القائم الذي ابتعد عن التقليد المتبع في معاملة الأعراق والديانات الموجودة ضمن الدولة العثمانية، وأعلن «أن الأتراك الذين يكونون الأكثرية في الإمبراطورية، لا يطلبون لأنفسهم إلا ما يطلبونه، وبنفس

1- **"Ataturk Ansiklpedisi", S.292-293; Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, Paris, 1907, PP.368-370**

بول فيش، القسطنطينية في الأيام الأخيرة لعبد الحميد، باريس، 1907، ص368-370.

2- **T.Yılmaz Öztuna, Türkiye Tarihi, Cilt 12, İstanbul, 167, S.174**

ت. يلماز أوزتونا، تاريخ تركيا، جزء 12، اسطنبول، 1967، ص174.

3- **Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.144; Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.256; Hamza Eroğlu, Türk İnkılâp Tarihi, İstanbul, 1982, S.64**

حمزة اركول، تاريخ الثورة التركية، اسطنبول، 1982، ص64.

المقدار، لإخوانهم المسلمين وغير المسلمين كافة... إننا نطلبها لجميع العثمانيين دون استثناء»[1].

بعد خطاب صباح الدين أُلقيت خطابات مؤيدة ومساندة[2]، استحقت وصف «الخطابات النارية»[3]، أعقبها اختيار صباح الدين رئيسا للمؤتمر، وتعيين نائبين له، الأول يوناني اسمه ساثاس (Shathas)، والثاني أرمني أسمه سيزان (Sissian)[4]. وبدا أن كل شئ يسير نحو التوفيق، ولاسيما بعد أن حظيت المقررات المقترحة بموافقة جميع المشتركين، إلا أن هذا الوضع ما لبث أن تغير إثر اقتراح قدمه إسماعيل كمال بإضافة ملحق للمقررات نص على:

«طالما تلك هي المبادئ التي أقيم على أساسها الائتلاف، فأننا نشكل لجنة دائمة تسعى لتطبيق هذه المبادئ وتكرس نفسها للاتصالات الضرورية مع الدول الموقعة على معاهدة باريس لسنة 1856، وعلى معاهدة برلين لسنة 1878، وذلك للحصول على التأييد المعنوي والعمل المؤيد من جانبها، لأن من أهدافها تنفيذ الاتفاقات الدولية الخاصة بالنظام الداخلي في تركيا، وجميع الأعمال الدولية المنبثقة من المعاهدات المذكورة سابقا، وتطبيقها على ولايات الإمبراطورية كافة بالشكل الذي يجعلها مفيدة لكل منها إلى أقصى حد»[5].

هزّ هذا المقترح المؤتمرين، ومع نهاية الجلسة الأولى كان واضحا أنهم في طريقهم للانقسام إلى مجموعتين، الأولى مؤيدة للمقترح إلتفت حول صباح الدين، أصطلح على

1- Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, PP.367- 368; M.Şükrü Hanoğlu, The Young Turks in Opposition, P.188; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.67.

2- يراجع مثلا خطاب حسين سيرت في
Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.183.

3- «احرار عثمانيه قونغره سى»، «كردستان»، جنيف، عدد31، 1نيسان1318.

4- Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.66; W.S.Vucinich, Op.Cit., PP. 106-107.

5- Quoted in: Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, P.370; "Atatürk Ansiklopedisi", S.293.

تسميتها بالأغلبية، والثانية معارضة بقيادة أحمد رضا، سميت بالأقلية. وخلال الجلسة الثانية، التي عقدت، كما الجلسات الأربع التالية، في مقر إقامة الأمير صباح الدين، صار الانقسام حقيقة واقعة[1]، إذ خطب أحمد رضا معلنا:

«أرفض تماما أي تدخل من الأجانب، وتحت أي مسوغ، في شؤون بلادنا الداخلية» موضحا أن رفضه مستند إلى أسباب موضوعية، أهمها:

«- إن كل أمة حرة في إدارة شؤونها الداخلية تماشيا مع إدارتها، هذا حق معترف به في كل العالم ومن كل الأمم...

- إن التدخل الأجنبي الذي حصل حتى الآن لم يحترم قط مصالحنا الوطنية. كل حالات التدخل انتهت بإلحاق الضرر بنا، وفصل عنصر عنا، أو نيل امتياز جديد من حكومتنا... إن حق التدخل الذي مارسته أوربا ضدنا ليس إلا تطبيقا لمبدأ «الحكم لمن غلب»، وبأسلوب مخز. وفي كل وقت تدخلت فيه قوى خارجية في أمورنا الداخلية، كانت تبتغي مصالحها. إن فضائحهم الوحشية في الصين وأفريقيا وحمايتهم لعبد الحميد، على وجه الخصوص، أدلة تدعم كلامنا...
- إن القوى الكبرى، إلى جانب كل عيوبها التي لا يمكن إصلاحها، واقعة تحت تأثير النفوذ الشرير لروسيا فيما يخص شؤوننا، وحتى أولئك الراغبين بإصلاح أوضاعنا سوف يخشون توجيه إهانة إلى الروس، ويضعون قيودا على تنفيذ كل إصلاح بشكل يتماشى مع المصالح الروسية. لذا فأن دعوة التدخل الأوربي، مع وجود النفوذ الروسي، يعني دعوة للتدخل الروسي.
- أنا أسأل هل الحقوق والامتيازات التي سوف نتنازل عنها مساوية للمصالح التي سنحصل عليها؟ من الواضح إننا سنخسر. إذا قال أحدهم بأن أوربا تتدخل بغض النظر عن إرادتنا [نجيب على ذلك بالقول] إن من خارج سلطتنا

1- Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S. 146-148;

حسن كلشي، المصدر السابق، ص34.

إعاقة أوربا. مع هذا فأن استدعاء تدخلها هو في صميم صلاحياتنا. إن المشاعر الوطنية وكرامة الوطن يحتمان علينا العمل بهذا الاتجاه»[1].

صدرت تصريحات مشابهة من خليل غانم والدكتور ناظم ومصطفى حمدي وخوجا قدري، كما قدم عبدالرحمن بدرخان شجبا لاذعا[2]، أما أحمد فريد فقد وجه نقدا مرا لإسماعيل كمال، معلنا أن «حماية السلطات الأجنبية عار وليس شرفا... نريد تنفيذ إصلاحنا دون تدخل أوربا المخادعة والمغتصبة»[3].

بالمقابل أعلن زعيم كتلة الأغلبية: «بهدف إسماع صوتنا لأوربا يتوجب علينا أن نثبت بأننا نسمع صوتها. لذا أنا أقترح، ومن منطلق الواجب الوطني، طلب الوساطة الخيرة للقوى الكبرى من لدن وفد رفيع يضم أعضاء من كل العناصر العثمانية، داعين إياها تنفيذ بنود المعاهدات، وجلب قوات للضغط على النظام الاستبدادي الراهن... تأملوا التاريخ، كم هي عدد المرات التي تدخلت فيها [القوى الأجنبية] في شؤوننا الداخلية، أو حتى كم مرة اقتطع جزء من بلادنا؟ لماذا لا نسعى إلى تحويل هذه التدخلات، والتي حدثت معظم الوقت حتى بدون عمل عسكري، إلى عمل يصب في صالحنا»[4].

أطلق أنصار صباح الدين تصريحات مشابهة، وما لبث أن تحول النقاش بين المؤتمرين إلى جدل عنيف، تقاذفت خلاله الأغلبية والأقلية التهم فيما بينها[5]، ولم تجد كل محاولات التنسيق ورأب الصدع بين الطرفين، فمن الواضح أن موضوع الخلاف لم يكن في مسألة هامشية، وإنما في قضية جوهرية استطاعت الأغلبية، يساندها الأرمن، حسمها لصالحها بإدخال المقترح إلى مقررات المؤتمر[6].

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.195.

2- «أحرار عثمانيه قونغره سي»، «كردستان»، جنيف، عدد 31، 1نيسان1318.

3- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.195.

4- Quoted in: Ibid., P.191; Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S.146.

5- Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S.146.

6- Ibid.

لم تضع تلك النتيجة نهاية لمشاكل المؤتمر المتفاقمة والمتزايدة، فسرعان ما تفجرت معضلة جديدة، وهذه المرة من جانب الأرمن الذين عارضوا «الإصلاحات العامة» الموصوفة في البند الثالث من المقررات المقترحة، كما شكل البند الرابع موضع استياء لرغبتهم في الحصول على تنفيذ إصلاحات خاصة بالولايات الست شرق الأناضول ذات الأغلبية الأرمنية، وذلك بموجب المادة 61 من معاهدة برلين[1]، وعبروا عن توجههم بإعلانهم:

«1 - إن اللجان الأرمنية مستعدة للتعاون مع العثمانيين الأحرار في كل عمل مشترك يهدف إلى تغيير الوضع القائم.

2 - أما خارج العمل المشترك فإن اللجان الأرمنية ستواصل عملها الخاص، ولا بد من أن يكون واضحا تماما بأن عملهم موجه ضد النظام القائم لا ضد وحدة تركيا أو كيانها الحي.

3 - ليس لعملهم الخاص أي هدف سوى الحصول على تنفيذ سريع للمادة 61 من معاهدة برلين، ومذكرة 11 آيار 1895 وملاحقها[2]، وكذلك

1- نصت المادة على: «يتعهد الباب العالي دون أي تأخير بتحقيق الإصلاحات وإدخال التحسينات التي تقتضيها ظروف المقاطعات التي يقطنها الأرمن، وبضمان سلامتهم، وأن يتعهد بتأمينهم من اعتداء الشراكسة والأكراد. وستحاط الدول الأوربية علما بصورة دائمة عن الوسائل التي ستستخدم هناك بحق الأرمن لمراقبة تطبيقها».

"Great Britain: Foreign Policy and the Span of Empire 1689-1971. A Documentary History", Ed. Joel H. Wiener, Vol.III, London, P.2455.

2- اشتملت مذكرة 11آيار 1895، المقدمة من بريطانيا وروسيا وفرنسا، على مطالب إصلاحية كان أهمها إجراء إصلاحات إدارية على كل المستويات من الولاية إلى المديرية، وإجراء إصلاحات في النظام القضائي، ومشاركة غير المسلمين في مؤسسات البوليس والجندرمة. للإطلاع على نص المذكرة وملاحقها يراجع:

"British Document on Ottoman Armenians", Ed. Bilâl N. Şimşır, Vol. IV, Ankara, 1990, PP.130-145; Salahi Ramsdan Sonyel, The Ottoman Armenians. Victims of Great Power Diplomacy, London, 1987, PP.174-180.

الإصلاحات المذكورة في المذكرات التي قدمت باسم اللجان الأرمنية إلى الحكومة الفرنسية على وفق الأساليب الدبلوماسية»[1].

حملت هذه الصياغة في طياتها عزل الأرمن لأنفسهم عن بقية المعارضة العثمانية، وتخليهم عن مفهوم «العثمانيون الأحرار» بتأكيدهم على الاستعداد للعمل معهم.

في محاولة من رئيس المؤتمر للحفاظ على جسور التواصل مع الأرمن صرح معلنا:

«إن ممثلي شعوب الإمبراطورية العثمانية الذين اشتركوا في المؤتمر المفتتح في باريس في الرابع من شباط...، بعد إطلاعهم على القرارات أعلاه، والتي تحتج على النظام القائم في تركيا، قرروا القيام بعمل مشترك يهدف إلى:

1 – إبدال نظام الحكومة الحالي بنظام حر عادل يضمن إعادة الدستور.

2 – تذكير الدول الأوربية بأن واجبها ومصلحة الإنسانية العامة تقتضيان تنفيذ بنود المعاهدات والقرارات الدولية القائمة بينها وبين الباب العالي، وبطريقة تنتفع منها كل أجزاء الإمبراطورية العثمانية»[2].

بهذا التصريح عمد صباح الدين، تسانده الأغلبية، إلى استخدام لغة مرنة تضمنت قبول الإصلاحات في الولايات الأرمنية على وفق رغبة الأرمن، وفي الوقت نفسه ترنو إلى إرضاء مجموعة من الأقليات بطلب تطبيق تلك الإصلاحات على الدولة العثمانية كلها. لكن تحقيق التسوية لم يكن بالأمر الهين، فأعربت الأقلية عن اعتراضها، مؤكدة أن «القضية الأرمنية» مشكلة داخلية[3]، ورفضت التعامل مع الأرمن كأنهم جهة مستقلة، واستنكرت منحهم وضعا خاصا، فإذا «**كان الأرمن عرضة لسخط وقمع الإدارة الحالية، فهل أن الأتراك الذين يؤلفون العنصر الغالب أقل اضطهادا، أو أكثر مساواة في المعاملة من الأرمن؟!**»[4].

1- **Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, PP.370-371.**

2- **Ibid., P.371.**

3- **Salahi Ramsdan Sonyel, Op.Cit., P.276.**

4- **Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.194.**

انطوى هذا التصريح على شكوى صريحة من وضع الأتراك قياسا ببقية الأعراق العثمانية، لكن الأهم من ذلك إنه أعلن سيادة العنصر التركي في الدولة العثمانية. وكانت محاولة الأمير صباح الدين للتهدئة بالتأكيد أن الدستور سيشكل مصدر تحديد حقوق وواجبات الجميع ذات أثر عكسي، إذ أعلن الأرمن بأنهم لا يرون الدستور كفيلا بضمان حقوقهم، وأعربوا عن رفضهم خضوع مناطقهم للدستور العثماني المزمع إعلانه. مما أثار ردود أفعال عنيفة حتى في صفوف الأغلبية نفسها، فصرح إسماعيل كمال:

«نيابة عن الأغلبية أفند تلك التصريحات. نحن نبحث عن أرضية ملائمة لإصلاح يفيد الجميع، بمن فيها أنتم... أما إن أردتم إيجاد قانون قاصر عليكم فأقول لكم كلا! كلا! وسوف تكون كلا دائما هي الإجابة، وسنناهضكم من الآن فصاعدا في كل مناسبة، فطالما أنتم باقون عنصرا في الدولة العثمانية فسيكون هناك دستور لكم مثلما هو لنا.

لقد دافعت عن قضيتكم لا محاولة لاسترضائكم، بل إن دفاعي عنها هو نيابة عن مصلحة دولتي وحكومتي، وسأدافع عنها حتى لو لم ترغبوا أنتم بذلك. أنا لا أرى فيكم عنصرا مستقلا بل عثمانيين، تمتلكون حقوقا بهذه الصفة. أنتم ليس لديكم الحق في مساومتنا، وتقديم العروض كما لو كنتم دولة»[1].

رفض الأرمن هذا التصريح، مهددين بالانسحاب من المؤتمر، ما دام لا يوجد شئ في أعماله وأهدافه يعنيهم، أو يهمهم. لقد حضر الأرمن المؤتمر بخلفية تنظيمية راسخة، ورؤية مستقبلية واضحة إلى حد ما، ساعين بمشاركتهم الحصول على مكسب جديد، لا فقدان إنجاز سبق تحقيقه. بالمقابل اظهر صباح الدين، ومجموعته، تمسكهم بمشاركة الأرمن، ورأوا في دعمهم لقضايا الأرمن سببا حيويا في الحصول على مساندة الدول الأوربية، وهو ما دفعهم إلى إصدار قرار لصالح الأرمن، واستجابة لمطالبهم، نص على:

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP.194-195.

«1 - تحقيق الرغبات الشرعية للأرمن فيما يتعلق بتنظيم الإدارة المحلية للولايات التي يقطنون فيها، ولبقية الولايات كافة.

2 - تأسيس حكومة مركزية دعامتها الأفكار الحرة، والتي ستكون خير ضمان للحقوق القومية، وكذلك تأسيس العمل المنظم لإدارة الولايات، الأمر الذي يستفيد منه الأرمن كما حالهم حال بقية شعوب الإمبراطورية، على المستوى نفسه والمقياس ذاته»[1].

رفضت الأقلية هذا القرار جملة وتفصيلا، معلنة أنها وجدت فيه، وفي مبادئ الأغلبية عموما، تهديدا للمصلحة الوطنية، وأصرت، على لسان زعيمها أحمد رضا، أن يُدخل إلى محاضر المؤتمر، وضمن جلسته الختامية المنعقدة في 9 شباط 1902، إعلان تبين الأقلية فيه نيتها في وضع برنامج عمل مستقل ينص على:

«أيها الوطنيون الأعزاء...

بتمسكنا بالمؤتمر كنا نأمل مزج كافة العناصر العثمانية، وكانت الاستفادة من القوة المنبثقة عن اتحادنا غاية أمانينا... ولكننا نعبر هنا عن أسفنا العميق لخيبة آمالنا المشروعة. لقد اعتقدت أغلبية المؤتمر إن تنفيذ الإصلاحات في تركيا يستلزم بالضرورة اللجوء إلى تدخل الدول الأجنبية، وإن روح القرار مستتر وراء تعبير "العمل الودي" لتلك البلدان. إننا، نحن الأقلية، مقتنعون بأن أي أمة توجهها مصالحها الخاصة التي لا تتفق دوما مع المصالح الخاصة لبلادنا، لذلك فقد رفضنا كليا أي عمل قد يمس استقلال الإمبراطورية العثمانية.

إننا لا نعادي أوربا، كما نحن متهمون ظلما بذلك، بل على العكس إن محاكاة تقدمها في بلادنا هو هدفنا الرئيس والمقدس، خصوصا في تطور علومها ومؤسساتها . إننا نتبع الطريق الذي اختطته أوربا، وحتى في رفضنا قبول التدخل الأجنبي فإن مصدر

1- Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, P. 372.

إلهامنا فيه هو القرارات الوطنية التي تفخر بها عن حق كل الشعوب الأوربية الحريصة على استقلالها.

لذا فأننا نعلن بأن علينا العمل بشكل مستقل، ونتمنى ملء قلوبنا أن تتمكن اللجنة المستقبلية التي ستؤسسها الأغلبية من القيام بما فيه خير بلادنا»[1].

من الواضح أن النتيجة الوحيدة التي أسفر عنها المؤتمر، على الرغم من الآمال التي عُلقت عليه لتوحيد الصفوف وتكثيف الجهود، هي الانقسام الواضح والصريح إلى مجموعتين، انسحب على الأولى اسم الأغلبية والثانية الأقلية. لكن لا بد من التعامل بشئ من الحذر مع الاصطلاحين، إذ كان عدد الأقلية ما بين ستة عشر وثمانية عشر شخصا، بالمقابل تألفت الأغلبية من خمسة وعشرين شخصا[2]، فالفارق لم يكن كبيرا حتى عقب انضمام العدد القليل الباقي من أعضاء مركز «جمعية الاتحاد والترقي» القديم في جنيف إلى مجموعة صباح الدين، مدفوعين بتردي علاقتهم مع أحمد رضا من جهة، وضعفهم المتفاقم من جهة ثانية، خصوصا بعد وفاة إسحاق سكوتي، المصدر الأهم لإمدادهم بالمال والمقالات مجهولة الاسم، في آخر يوم للمؤتمر[3]. وعلى الرغم من سيطرة الأغلبية على المواقع القيادية ضمن المؤتمر، إلا أنها لم تمتلك موقعا مهيمنا بين المعارضة العثمانية، ولم تكن هناك أية صحيفة تمثلها، بالمقابل كان للأقلية ثقلا قويا بين الاتحاديين، وسيطر أفرادها على نشر ست من صحف المعارضة[4]، وامتلكوا موقعا قياديا في شبكة الاتحاد والترقي في باريس وجنيف ومصر وبلغاريا، وكانوا ، بحكم خلفيتهم التاريخية، الأكثر قربا إلى شُعب الجمعية الموجودة داخل البلاد العثمانية

1- Ibid., PP.372-373;

«كردستان»، عدد 31، 6 محرم 1320.

2- Please look at: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, PP. 192-193.

3- M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution. The Young Turks 1902-1908, New York, 2001, PP.10-11.

4- هي كل من: «مشورت»، «انتقام»، «استرداد»، «كردستان»، «موازين»، «صناجق» (راية).

M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.197; Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S.156.

والأكثر تأثيرا فيها، في حين تركزت علاقة الأغلبية مع كبار رجال الدولة في اسطنبول[1]. وفي الوقت الذي كانت فيه مجموعة أحمد رضا في طريقها للتبلور بتركيبتها الاجتماعية صوب الطابع البرجوازي، كان من الممكن تصنيف مجموعة صباح الدين اجتماعيا ضمن فئة الكمبرادور، امتلك معظمهم مصالح اقتصادية مع الدول الأجنبية، وكانوا على قناعة تامة بأهمية التدخل الأجنبي وضرورة الحصول على دعم الدول الأجنبية[2]. والنقطة الأكثر أهمية إن الأغلبية كانت ائتلافا لفئات وأعراق مختلفة، تسعى وراء أهداف متناقضة ومتباعدة، فكان بين صفوفها الأتراك واليونان والألبان والأرمن، وأعرب ممثلو الثلاثة الأخيرين عن تمسكهم بانتماءاتهم العرقية وعرّفوا أنفسهم بها، ولم يقدموا إسنادا حقيقيا للنهج السياسي الذي تبنته الأغلبية، حتى أن الأرمن أعلنوا عن تحفظهم على الانضواء تحت الخيمة العثمانية. على العكس من ذلك لم يكن بين الأقلية سوى مسيحي واحد هو خليل غانم الذي ظل قريبا من أحمد رضا، فكرا وتوجها، حتى وفاته عام 1903، والشخص الوحيد بين الأقلية الذي أعلن عن هوية عرقية مع هويته العثمانية هو عبدالرحمن بدرخان الذي كان ذا نهج سياسي أقرب إلى صباح الدين منه إلى أحمد رضا ظهر في مطالبته، من خلال منشوراته ونشاطاته، بدعم الدبلوماسيين الأجانب، وفي مناشداته الكثيرة للأكراد بالتعامل السلمي والودي مع الأرمن[3].

1- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.197.

2- A.F.Miller, Kratkaya Istoria Turtsii, Str.188, 281.

3- استخدم عبدالرحمن بدرخان في نداءاته لغة قومية عبرت عن وعي بأهداف السياسة الحميدية، فكتب في إحداها: «إنكم أيها الكرد، لستم بين شعوب الشرق إلا أشجعهم وأعقلهم، ماذا صنعتم منذ مضى في الدفاع عن التراب الذي تعيشون عليه؟ ... ماذا حققتم من اجل الدفاع عن كردستان؟ أوهل تعلمون إن هذا الملك الذي يدعي أنه خليفة، وأنتم رافضون إطاعته، ليس إلا مستبدا وجديرا بخلعه عن عرشه؟... فإن ما يمارسه من استبداد يجعل المرء يترحم على جنكيز خان... كيف تسمح لكم شهامتكم وشجاعتكم اللتان يعرفهما القاصي والداني بقتل ثلة من نساء الأرمن وأطفالهم الأبرياء؟ إن ما اقترفتم من فظائع كفيل بأن يصوركم للرأي العام العالمي «وحوشا». ألا تعلمون إن قتل الكثير من الأرمن العزل سيجتث يوما وطنكم وبيوتكم من أساسها؟ ... إن التضحية بكل هذه العلاقات الطبيعية والمتجذرة في أعماق التاريخ من اجل سياسة الإبادة الجماعية للسلطان عبدالحميد، وتعريض الأرمن إلى المذابح سيجعلكم أمام تبعات ومسؤوليات جسيمة في الدنيا والآخرة، ولن تنجوا من العقاب». نقلا عن: مالميسانز، المصدر السابق، ص22-23.

ورغم ذلك فقد فضل الانضمام إلى الأقلية مدفوعا بالموقف المتطرف الذي اتخذته الأغلبية في محاباة الأرمن.

كل ذلك جعل الأغلبية بموقع ضعف قياسا بالأقلية، وأمام مشاكل أكثر بكثير من تلك التي جابهتها الأقلية، ولم تجانب صحيفة «كردستان» الحقيقة في تعليقها «إن الفئة التي تسمى أقلية هي في الواقع أغلبية»[1].

بعد انتهاء المؤتمر مباشرة سعت جماعة الأغلبية إلى تشكيل منظمة جديدة أطلق عليها اسم «جمعية محبي الحرية العثمانية» (Osmanlı Hürriyetperverân Cemiyeti)، حددت هدفها بـ «اتحاد كل العثمانيين»،وتمحور طموحها حول القيام بانقلاب تدعمه الدول الكبرى[2]، وأكدت «عثمانلى»، التي غدت الصحيفة الرسمية الناطقة بلسان التنظيم الجديد، على أن النظام الحميدي لا يمكن تغييره إلا بتدخل تلك القوى:

> **«إن عبدالحميد العارف بالتاريخ العثماني يعلم جيدا جدا إن كل التدخلات الأجنبية الجماعية، الحاصلة في غضون الأعوام السبعين الماضية، أدت إلى الحفاظ على الدولة وسلامة وحدة أقاليمها، وحصول بعض العناصر [العرقية والدينية] على الامتيازات.**
>
> **السلطان يعرف هذا، ويصبح قلقا عندما يفكر بحقيقة إن القوى الأجنبية في هذا الوقت قررت القيام بعمل جماعي لوضع نهاية للحكم الظالم والجائر للنظام الاستبدادي الراهن، الذي تسبب في معاناة الشعب ووضع عقبة أمام التقدم الضروري في العصور الحديثة، وشكل تهديدا مستمرا لتوازن القوى.**
>
> **الآن ستقبل الأعراق المختلفة جميعها، والأتراك أولها وفي مقدمتها، مع العرفان بالجميل والإحساس بالالتزام، المساعدة الخيرة والتوصيات الصادقة [من القوى**

1- «كردستان»، جنيف، عدد31، 6 محرم 1320.

2- **M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, PP.10-11; http:// www. yunus. hacettepe. edu. tr/` mehmets/ libralizmindogusu. htm, Mehmet Seyitdanlıoğlu, Türkiyede Liberal Düşüncenin Doğuşu ve Gelişimi.**

الكبرى] بهدف نيل الحرية وحماية استقلالنا، كذلك سوف يتأهبون من اجل تنفيذ تلك التوصيات الهادفة إلى استبعاد نظام الحكم الحالي الذي جلب لهم العار»[1].

في أواخر العام **1902** بدأ الإعداد الفعلي لمحاولة انقلابية تولى صباح الدين مع الباي[2] شوكت، أحد الاتحاديين البارزين في طرابلس الغرب، إعداد الخطة[3]، التي بدت بسيطة، تلخصت بقيام الألباني رجب باشا، قائد الجيش العثماني الموجود في طرابلس الغرب، بتحريك قواته تحت ذريعة القيام بمناورات عسكرية، ونقل قسم من جنوده، بواسطة سفن تؤمن مسبقا، إلى سلانيك حيث يتوقع أن يلاقي دعما من الألبان الموجودين هناك، وتوجه عدد آخر من القوات للسيطرة على الدردنيل. تلك التحركات، حسب قناعة معدي الخطة، كفيلة بلفت أنظار الدول الأوربية وإرغام عبدالحميد على التخلي عن العرش[4].

على الرغم من وجود جوانب ضعف غير قليلة بالخطة، تم الاتفاق عليها، وتقرر أن يتولى رجب باشا والباي شوكت القضايا العسكرية، بينما يتابع إسماعيل كمال وصباح الدين الأمور المالية والدبلوماسية[5]. وبخصوص النقطة الأخيرة بدت بريطانيا، مدفوعة بالتقارب العثماني الألماني، أكثر الدول الأوربية استعدادا للتعاون، وسعيا للحصول على دعمها التقى إسماعيل كمال بالسفير البريطاني في فرنسا السير ادموند مونسن (Sir Edmund Monsan) عارضا عليه الخطة بأكملها، ثم توجه إلى بريطانيا مزودا برسالة من مونسن إلى وزارة الخارجية البريطانية، حيث التقى في اليوم التالي، لتسليم الرسالة، السير توماس ساندرسن (Sir Thomas Sannderson)، الوكيل الدائم لوزارة الخارجية البريطانية، في منزله الخاص. وصف إسماعيل كمال اللقاء بالشكل التالي:

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.12.

2- رتبة عسكرية تعادل العميد.

3- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Turkler, S.155.

4- "The Memoirs of Ismail Kemal Bey", Ed.Sommerville Story, London, 1920, P.309.

5- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Turkler, S.156.

«قدمت له توضيحات مفصلة عن مسار العمل الذي نقترحه، وطبيعة الحماية التي نطلبها من الحكومة البريطانية، وهي مجرد حمايتنا من أي عمل قد تقوم به روسيا لمنع نجاح عملنا الوطني. وقد وعد اللورد [السير توماس] ساندرسن أن يتصل برئيسه ويبلغني قراره. وبعد أقل من يومين تسلمت دعوة ثانية من الوكيل الدائم للذهاب إلى داره، حيث قرأ لي الرسالة التي كتبها اللورد لانسدون (Lord Lansdowne) [وزير الخارجية البريطاني] حول الموضوع، يعطي فيها وعدا بالتأييد اللائق بالسياسة التقليدية لبريطانيا العظمى، رغم أنها كانت محاطة بتحفظ طبيعي أملاه عدم حدوث الانقلاب بعد»[1].

حددت بريطانيا «تأييدها اللائق»، شفاها طبعا مخافة الإضرار بالعلاقات البريطانية العثمانية أو استخدام الوثيقة المكتوبة أداة دعاية بيد المعارضة العثمانية، بإرسال أسطولها لحماية الدولة العثمانية ضد أي عمل روسي محتمل[2].

استنادا إلى تلك التطورات، وطبقا لترتيب مسبق مع السير ساندرسن، توجه إسماعيل كمال إلى مصر لمقابلة اللورد كرومر وإعلامه بالموضوع، ونجح في إقناعه بأهمية تغيير الأوضاع في الدولة العثمانية والتصدي لمشكلتها «بل أن من مصلحة بريطانيا العظمى أن تراها وقد حُلت بشكل يخلق تركيا قوية وصديقة»[3].

تعلقت القضية الأخرى التي احتاجت توجيه الجهود لعلاجها بتوفير الأموال اللازمة للانقلاب، وفي هذا الخصوص التقى إسماعيل كمال بخديوي مصر، وتمكن من إقناعه بدعمهم، فوضع عباس حلمي أربعة آلاف دولار في إحدى البنوك البريطانية لخدمة الانقلاب المزمع القيام به[4]. ورغم ظروف وفاة والده توجه الأمير صباح الدين، مع إسماعيل كمال،

1- “The Memoirs of Ismail Kemal Bey”, P.310.

2- M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, PP.19-24.

3- “The Memoirs of Ismail Kemal Bey”, PP.310-311.

4- أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن، الجزء الثاني، القسم الثاني، مصر، 1936، ص9-10.

إلى لندن في بداية العام 1903 لإكمال الترتيبات المالية، ونجح في الحصول على قروض من عدد من المصرفيين بقيمة عشرة مليون دولار[1].

بعد تأمين الجانبين المالي والدبلوماسي بدأ تنفيذ الترتيبات الأخيرة، وظهر إن المشروع قاب قوسين أو أدنى من التنفيذ، فأرسل إسماعيل كمال مواطنه الألباني جعفر بريجاني إلى طرابلس للقاء رجب باشا وتهيئة الاستعدادات الأخيرة[2]، كما أنجزت كل التفاصيل الصغيرة، بما فيها طبع الكراس المقرر توزيعه في اسطنبول عقب نزول القوات[3]، ولم تبق إلا مسألة واحدة، لم تلبث أن صارت العائق الأساس، بل والوحيد، أمام تنفيذ الانقلاب، تمثلت بشراء السفن اللازمة لنقل الجنود.

أوكل تنفيذ صفقة السفن، التي سبق لصباح الدين الاتفاق عليها، إلى إسماعيل كمال، مع بيانات كاملة بحمولتها وأحجامها[4]. ويذكر إسماعيل كمال في مذكراته أنه «اكتشف أن كل ما قيل له عن السفن تحول إلى مجرد وعود واقتراحات غامضة»[5]، ولم يجد نفعا وجود معظم الشخوص الأساسية المساهمة بالمشروع الانقلابي في أثينا لحل المشكلة[6]، أو حتى توجه صباح الدين إلى مصر ولقاء الخديوي طلبا للمساعدة للحصول على السفن. كما لم يقتنع أي منهم بجدوى الذهاب إلى نابولي بحثا عن سفن هناك مثلما اقترح إسماعيل كمال[7]، لتنتهي المحاولة قبل أن تبدأ.

اختلفت المصادر في تحديد أسباب الفشل، إذ أشار إسماعيل كمال إلى أنه «كان علينا أن نبدأ العمل من جديد للحصول على سفن للنقل، وقد تطلب هذا العمل، والمفاوضات

1- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Turkler, S. 159.

2- "The Memoirs of Ismail Kemale Bey", P.311.

3- M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P. 22.

4- "The Memoirs of Ismail Kemal Bey", P.311.

5- Ibid..

6- "Atatürk Ansıklopedisi", S.321.

7- Ibid.;

أحمد شفيق باشا، المصدر السابق، الجزء الثاني، القسم الثاني، ص9-10.

الأخرى، وقتا طويلا، فمضت المدة التي يستطيع فيها رجب باشا أخذ جنوده من العاصمة للقيام بمناورات، وكان الفصل متأخرا»[1]. وأشار مصدر آخر قريب من رجب باشا إلى أن بعض تعليقات إسماعيل كمال، مثل «اتصل بي عند وصولك اسطنبول» و «يجب أن نفهم إن وعود بريطانيا بالدعم لا تتجاوز عدم الاعتراض على المشروع» وتأثير إسماعيل كمال القوي على رجب باشا دفعت الأخير إلى التراجع[2]. بينما وجه أحمد بدوي كوران إصبع الاتهام إلى إسماعيل كمال بشكل صريح، مؤكدا أنه استفاد من المشروع لمصلحته الخاصة، وتلاعب بالأموال المودعة لديه، واتصل بشخصيات كثيرة، بما فيها خديوي مصر وملك اليونان، دون استشارة زملائه[3]. ويتفق معه علي حيدر مدحت مضيفا أن إسماعيل كمال كانت له مشاريعه القومية الخاصة، وبأنه أراد تحويل مشروع الانقلاب لخدمة مصالح الألبان[4].

على الرغم من الاختلاف في تحديد سبب الفشل، فأن المصادر تجمع بشكل أو بآخر، على تحميل إسماعيل كمال القدر الأكبر من المسؤولية. وعلى أي حال كانت نتيجة تلك النهاية الانهيار الكامل لـ «جمعية محبي الحرية العثمانيين» وتفرق أعضائها، فاختار إسماعيل كمال قطع صلاته مع المعارضة العثمانية وتكريس جهوده علانية لخدمة القضية الألبانية[5]. وفضل لطف الله بيك العودة إلى اسطنبول[6]، بينما قرر صباح الدين الاعتكاف معيدا النظر في توجهاته وأفكاره[7].

1- **"The Memoirs of Ismail Kemal Bey", P.311.**

2- **M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.23; Atatürk Ansıklopedisi, S.312.**

3- **Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Turkler, S. 159,164.**

4- **Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.23.**

5- **Please look at: "The Memoirs of Ismail Kemal Bey", PP.312-315.**

6- **Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.89**

في الترجمة العربية ص113.

7- **Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, P.378.**

كان أحمد رضا ومجموعته قد رفضوا أن يكون لهم أي مشاركة في المشروع الانقلابي أو أي صلة به، مفضلين الانصراف إلى تنظيم صفوفهم وتقوية تشكيلاتهم. وما أن تشتتت «جمعية محبي الحرية العثمانيين» حتى برزت الأقلية بتنظيم ذا نهج وتوجهات اختلفت تماما عن مجموعة الأغلبية، فبعيد انتهاء مؤتمر **1902**، ومدفوعة بالنتائج التي آلت إليه والوصف الذي خرجت به باختزالها إلى أقلية، عقدت مجموعة أحمد رضا اجتماعا أسفر عن تنظيم جمعية جديدة، بعد خلاف وجدل طويلين، باسم «جمعية الترقي والاتحاد العثمانية» (Osmanlı Terakki ve İttihat Cemitini)[1]، محاولين باختيارهم الحفاظ على معاني الاسم القديم مع إضفاء شكل جديد. وبرز بين قادة التنظيم الجديد، مع أحمد رضا، الدكتور ناظم السلانيكي وماهر سعيد وأحمد صائب والدكتور بهاءالدين شاكر وسامي باشا سيزائي[2].

اعتبارا من العاشر من نيسان **1902** باشرت الجمعية الجديدة بإصدار جريدتها المركزية باللغة التركية، التي حملت اسم «شورى آمت» (مجلس الأمة)، واتخذت من مصر مقرا لها، كما استمر في باريس نشر «مشورت» باللغة الفرنسية[3]، وحددت «جمعية الترقي والاتحاد» برنامجها بالشكل الآتي:

> **«إنقاذ البلاد من الكوارث الحالة بها؛ ضمان الحرية والسعادة للعثمانيين كافة، الحفاظ على استقلال وسلامة أقاليم الدولة العلية؛ تحويل الإدارة الفردية المستبدة إلى نظام دستوري؛ تطبيق الدستور الصادر في السابع من ذي الحجة 1293 هجرية؛ خلق اتحاد حقيقي بين المجتمعات العثمانية المختلفة بشكل يكون فيه نابعا من**

1- **Hamza Eroğlu, Türk İnkılâp Tarihi, İstanbul, 1982, S.64-65**

حمزة اراوغلو، تاريخ الثورة التركية، اسطنبول، ص64-65.

2- **Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.257; "Atatürk Ansiklopedisi", S.294.**

3- **Atatürk Ansiklopedisi, S.294; http:// www. dallog.com./ kurumlar/ itterak. htm-bas, Ana Sayfa, İttihat ve Teraki.Türkiye'de Kurulan İlk Siyâsi Parti.**

الحس الوطني والإنساني؛ الوحدة السياسية لكل الرعايا العثمانيين، مسلمين وغير مسلمين؛ تأمين استمرارية وجود الأسرة الملكية العثمانية النبيلة مستندة على دعامتين الخلافة والسلطنة»[1].

وآمنوا أن الخطوة الأولى في تحقيق هذا البرنامج هي إزاحة السلطان عبدالحميد عن الحكم[2].

لم يكن لهذه الجمعية نشاط سياسي بارز أو متميز خلال السنوات1902-1906، لكنها أوجدت بناءا فكريا ما لبث أن ترسخ أساسه وارتفعت أعمدته التي كان أبرزها، وعلى النقيض تماما من نهج «جمعية محبي الحرية العثمانية»، معاداة الغرب ورفض التدخل الأجنبي في السياسات المحلية للدولة العثمانية والتغلغل الاقتصادي الغربي فيها، الموضوع الذي غطى صفحات جريدتي «شورى آمت» و«مشورت»، ولم يتبنوا هذا الموقف بحكم الضرر الذي لحق بالطبقة الاجتماعية التي انتموا إليها فحسب، بل لأنهم آمنوا، أيضا، أن قلب النظام القائم في الدولة العثمانية بمساعدة القوى الكبرى هو ضرب من الخيال، وصرحوا بقناعتهم بأن تدخل الدول الكبرى في المجالين السياسي والاقتصادي قيد يد الدولة العثمانية، وتسبب في انحدارها[3].

تحول كره الغرب ورفض التدخل الأجنبي إلى دعامة قوية لفكرة سياسية أكثر قوة تمثلت بالأتركة (Turkism)، فأخذت صحيفة «شورى آمت» بالتركيز على الرموز الوطنية المشهورة، بما في ذلك شخصيات ألفت جزءا من الحركة الثورية في مناطق تسعى للانفصال عن الدولة العثمانية، كما عملت على تسليط الضوء على تاريخ الترك قبل الدولة العثمانية بلغة ملؤها الفخر والاعتزاز[4]، والأكثر دلالة و الأقوى معنى إنها استخدمت، على نحو متكرر، وصف «تركي» عوضا عن «عثماني»:

1- **Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.32.**

2- **Ibid.**

3- **تراجع مقتطفات معبرة يردها محمد شكر هانكلو من جريدة «شورى آمت».**
Ibid., PP.34-35.

4- **حول هذا تراجع اقتباسات عميقة يوردها محمد شكر هانكلو من جريدة ««شورى آمت»».**
Ibid., PP.40,43,175.

«إن الأمة التركية موجودة وستبقى موجودة، رأس هذا البطل العملاق يضطجع على سور الصين، وتمتد ساقاه إلى بحر مرمرة والبحر المتوسط. الترك موجودون، وسيظلون كذلك كما بقوا لأكثر من عشرين قرنا. إن أسلافنا، أجدادنا بتأسيسهم للعديد من الدول الكبرى جاءوا بالقانون والنظام لكل آسيا وجزء من أوربا وأفريقيا... إن أمتنا التركية هي واحدة من أعظم الأمم»[1].

في ظل مثل هذه القناعة لم يكن غريبا أن تعلن الجمعية على لسان أحد أبرز قادتها بـ **«أننا لن نقبل أي عثماني غير مسلم في جمعيتنا إلا بعد جلب انتباهه بأن ذلك يتم بفضل الشخصية المضيافة والكريمة للمسلم والتركي. إن جمعيتنا هي جمعية تركية قح. إنها لن تخضع أبدا لأفكار أعداء التركية والإسلام»**[2].

احتل الجانب الاقتصادي ونظام الامتيازات دورا مؤثرا في تقوية وتعزيز فكرة الوطنية التركية، فسجل أحمد رضا اعتراضه على الامتيازات الممنوحة للمسيحيين دون المسلمين في الدولة تلك، وصرحت الجمعية بوهمية فكرة الاتحاد مع العناصر المسيحية في الدولة العثمانية، زاعمة أن تلك العناصر كانت دائما ضد الأتراك، وساعية إلى التقسيم العرقي. بالمقابل لا يوجد هناك أي تثقيف وطني للأتراك، وحملت الحكومة العثمانية مسؤولية ذلك:

«في المدارس الأرمنية واليونانية والبلغارية الشعور الوطني للطلاب موجه ضد الإدارة التركية، بينما لا يسمح للطلاب في مدارسنا ذكر كلمة «وطن». إن الإهمال والتغاضي والخيانة المطلقة للنظام الحالي فتحت الأبواب أمام هجوم عنيف واستغلال من الأجانب. أليس هذا خطأ كبيرا بل وجريمة؟»[3].

وعرضوا سياستهم المقترحة من خلال انتقاد سياسة السلاطين العثمانيين في الأماكن التي امتدت إليها سيطرة الدولة العثمانية:

1- Quoted in: Ibid., P.175.

2- Quoted in: Ibid., PP.35-36.

3- Quoted in: Ibid., P. 41.

«لو كان السلطان الفاتح قد استخدم نفس الأساليب التي اتبعها الروس في البلدان التي احتلوها لأصبح مواطننا اليوناني في بولون عثمانيا حقيقيا، ولما كان هناك فرق في الدين أو الوطنية بينه وبين أولئك الذين ينتقدهم بضراوة. إن الأسى يغمرنا لأن ذلك لم يحصل وعانينا نحن الأتراك الخسائر»[1].

على الرغم من صعوبة إيصال صحف المعارضة[2]، وجدت هذه الأفكار صدى وتفاعلا واسعين داخل الدولة العثمانية، زادها الحنكة التي تعامل بها أعضاء الجمعية في عرض الفكرة باستخدام الدين الإسلامي أداة وطنية في حشد ودمج وإثارة الشعوب المسلمة، وفي معاداة الغرب الاستعماري، ومادة اجتماعية للتحديث[3].

بموازاة هذه الأفكار ظهر صباح الدين بعد سنتين على الأقل من الاعتكاف، بخط فكري آخر، وتوجهات وطروحات حملت، في كثير من جوانبها، شكلا جديدا عن الأفكار السائدة بين المتنورين العثمانيين. فخلال محاولته بلورة أفكاره، ومساعيه للبحث عن برنامج كفيل بإصلاح أوضاع الدولة العثمانية قرأ كتاب المفكر الفرنسي أدموند ديمولان (Edmond Demolins) (1852- 1907)، أحد أتباع فردريك لي بلاي[4] ومن بين أشد

1- Quoted in: Ibid.

2- تفنن أصحاب الجرائد في ابتداع الوسائل والحيل لإدخال جرائدهم إلى الدولة العثمانية، فكانوا أحيانا يضعون جرائدهم داخل مطبوعات تحمل صور السلطان، أو تحوي مقالات تمتدحه، وعمد بعضهم إلى تغيير أسم صحفهم مرات ومرات لإخفاء أمرها، وتيسير دخولها إلى الوطن. «المدى» (جريدة)، بغداد، السنة الثالثة، العدد 485، 10أيلول 2005.

3- Please look at: M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for A Revolution, P.43.

4- فردريك لي بلاي (1806) (Frederic Le Play-1882) مفكر فرنسي، كان من كبار أعيان الإمبراطورية الثانية في فرنسا، وكان شاهدا واعيا لتقلبات اجتماعية كبيرة فيها انعكست في كتاباته التي برز بينها «العمال الأوربيون» المنشورة عام 1855، على إن أشهر وأهم كتاباته التي بث من خلالها أهم طروحاته الفكرية وقناعاته العقائدية كان الإصلاح الاجتماعي» (1864)، والذي أكد من خلاله أهمية مبدأ السلطة: سلطة الأب، سلطة رب العمل، سلطة صاحب الملك، سلطة الدولة التي يجب أن تختزل من سلطاتها وتستند على الهيئات المحلية. واعتقد لي بلاي أن السياسة تابعة للأخلاق والدين، فبدت له الإصلاحات الفكرية والأخلاقية أكثر أهمية من الإصلاحات السياسية والاقتصادية. وأكد على ضرورة جعل الرفاه في متناول الطبقات ذات الإمكانات المحدودة، وجعل الضروري في متناول الأكثر فقرا «وتنشئة الشعب نحو الله عن طريق البحبوحة والنعمة والاعتراف بالجميل» جان توشار وآخرون، المصدر السابق، ص530.

المعجبين بنظام الحكم البريطاني، المعنون «سر تقـدم الإنكلو- سكسـون» (Aquoi tient la Superioité des Anglo- Saxons). وحسب كتاب ديمولان فإن «الأمم قسمان: فمنها من تربت على الاتكال، وهو عبارة عن ميل أفرادها إلى الاعتماد على الهيئة أو الحزب من عائلة وعشيرة وقبيلة وحكومة وغيرها لا على أنفسهم، وأكبر مثال لتلك الأمم هو الشرق. ومنها من تربت على النشأة الاستقلالية، أي أن كل فرد منها يعتمد على نفسه لا على الجماعة، وأعظم مثال فيها هي الأمم الإنكليزية السكسونية»[1].

وأطلق ديمولان على النوع الأول اسم «التشكيل الجماعي» (Formation Communautaire)، والثـاني «التشكيـــل الفـــردي» (Formation Particulariste)[2].

تأثر صباح الدين كثيرا بأفكار ديمولان، ولاسيما وأنه كان على معرفة شخصية به، واستوحى منها «وصفة» خاصة للدولة العثمانية آمن بأنها حل أمثل لأوضاعها، وعلاجا شافيا لكل أمراضها، مؤلفا بتجربته أول محاولة للقيام بتحليل اجتماعي للمسببات الكامنة وراء «الفساد» في بلاده للوقوف عليها، والسعي لإيجاد حلول ناجعة لها، فقدم برنامجا للإصلاح الاجتماعي كان الأول من نوعه في تأريخ الفكر العثماني[3].

حسب رأي صباح الدين فإن الحالة المتردية للدولة العثمانية لا يتحملها السلطان وحده، رغم تسببه في جانب كبير منها، فالمسؤولية الأكبر تقع على عاتق المجتمع كله[4]، والضرورة لا تقتضي تغيير الحاكم بل تغيير المجتمع نفسه، وتحويله من التشكيل الجماعي إلى الفردي، موضحا أنه لم يعد من الممكن إيجاد علاج شاف لكل أمراض البلاد من خلال قناعات اعتباطية لا تستند إلى قوانين اجتماعية مستلهمة من الملاحظة العلمية للواقع المجتمعي[5].

1- ادموند ديمولان، سر تقدم الإنكليز السكسونيين، ترجمة أحمد فتحي زغلول، تصحيح توفيق الرافعي، القاهرة، 1899، ص110.

2- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.310.

3- Ibid.; Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.265.

4- Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, P.380.

5- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.311.

أصل الشر في الدولة العثمانية، على وفق قناعة صباح الدين، هو نظام القرون الوسطى الاقتصادي السائد فيها، وانعدام مبادرات أصحاب المشاريع الخاصة[1]، فالبلاد، كما يؤكد صباح الدين، بمؤسساتها وإداراتها ونظام الملكية فيها وحضارتها الثقافية، كل ذلك وغيره يطابق النوع الجماعي للمجتمع حيث تكون المجتمعات، كما تظهر كل الدلائل التاريخية والاجتماعية، غير قادرة على التقدم، وتكون الهيمنة فيها للنظام الاستبدادي المطلق[2]. انطلاقا من هذا التحليل، مثلما يؤكد صباح الدين، فإن عبدالحميد لم يكن إلا نتيجة طبيعية لواقع الدولة العثمانية الاجتماعي[3]. كما رأى في النظام التربوي المتبع، وانعدام المبادرة الفردية أكبر مسببات الضعف الاجتماعي في الدولة العثمانية، ويتابع موضحا بأن الطبقات الدنيا تفتقر للمعرفة ورأس المال اللازمين لتحسين أوضاعها، أما غالبية الطبقة الوسطى فقد وجهت جل اهتمامها للوظائف المدنية والعسكرية، وأضحى الموظفون المبدعون موضع نقمة في ظل الصراع على السلطة. في مثل هذا النظام فإن الفساد والفوضى سمتان امتدتا حتى إلى الحياة الخاصة[4].

للنهوض بواقع الدولة العثمانية اقترح صباح الدين برنامجا عاما لعلاج الواقع السياسي للدولة العثمانية، وبرنامجا خاصا للارتقاء بالتعليم فيها. شدد في برنامجه السياسي على تطبيق اللامركزية في المؤسسات الحكومية والإدارية، مشيرا إلى أن «سلطان المركزية الحكومية المسيطر هو عقبة دائمة في طريق تحرر الفرد»[5]، وهو قلب الطغيان، حتى لو كانت الحكومة دستورية «ففي بلد توجد فيه مثل هذه الإدارة، فإن إبدال الملك ببرلمان يتكون من خمسمائة

1- لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني، مراجعة يوري روشين، موسكو، بلا تاريخ، ص394.

2- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.311; Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.263-265.

3- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.311.

4- Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, P.380; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.85

في الترجمة العربية ص109.

5- Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, P.380.

شخص لن يفرق كثيرا»[1]. لذا فالحل، كما وضعه صباح الدين، تأسيس حكومات محلية تتولى فيها مجالس الإدارة العمومية والبلدية المنتخبة تسوية أمور ومصالح الولايات والنواحي وتشترك في إدارتها، ويكون لأعضاء تلك المجالس الصلاحية التامة في شؤون الولاية المالية والقضايا والمعاملات الخاصة بقوانينها وأنظمتها، وتشترك الولايات في مجلس المبعوثان المركزي في عاصمة الدولة بنواب تنتخبهم المجالس العمومية، ويكون لكل ولاية قوات أمن خاصة بها. أما بشأن الموظفين الإداريين فتتولى الحكومة المركزية تعيين الولاة والمتصرفين ورؤساء المالية ورؤساء المحاكم، ويختار الولاة بقية الموظفين شرط أن يكونوا من مختلف القوميات في الولاية بحسب النسب العددية لكل منها[2]، مؤكدا إن هذا الشكل من اللامركزية كفيل بطمأنة آمال الجميع، وضمان حقوق المسلمين والمسيحيين، على السواء، للإسهام في الحكومة المحلية[3].

أما بخصوص برنامجه التعليمي فقد أكد صباح الدين أهمية خلق ومضاعفة أصحاب الإبداع الذاتي، ولاسيما من المختصين، وهو ما يحتم بالضرورة إيجاد نظام تعليمي جديد بالكامل يؤسس على شاكلة النظام البريطاني. ومثل ديمولان، حض صباح الدين على تدريب الشباب على روح المبادرة وحب المغامرة[4].

انطلاقا من هذه القناعات أسس صباح الدين منظمة اسماها «عصبة الإدارة اللامركزية والتشبث الشخصي» (Ademi Merkeziyet Cemiyeti ve Teşbbüsü Şahsi)[5]، وأصدر،

1- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.87.

2- Tarık Z. Tunaya, Türkiyede Siyasi Partıler, S.143-144;
توفيق علي برو، المصدر السابق، ص56.

3- Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, P.380;
توفيق علي برو، المصدر السابق، ص58.

4- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.312.

5- Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S.175; Ahmed Emin Yalman, Yakın Tarıhte Gördüklerim ve Geçirdiklerim, Cilt 1(1888-1918), İstanbul, 1970, S.74
أحمد أمين يلمان، ما رأيت وما مررت به في التاريخ القريب، الجزء الأول(1888-1918)، اسطنبول،1970،ص74.

في نيسان 1906 جريدة ناطقة بلسان عصبته، ومعبرة عن أفكاره أطلق عليها اسم «ترقي»[1]، تصدرت صفحات عددها الأول خطة عمل العصبة المؤلفة من أربع نقاط:

«1 - نشر تذوق الدراسات الاجتماعية بين مواطنينا لإثارة روح المبادرة والوصول إلى اللامركزية في الإدارة.

2 - البحث عن الوسائل الموصلة إلى ائتلاف مختلف العناصر التي تكوّن الدولة العثمانية.

3 - الدفاع عن حقوق العثمانيين أمام الأمم المتطورة، ونشر رأي عام يساندهم هناك.

4 - تأسيس جمعيات ولجان داخل البلاد للعمل على تحقيق هذا المنهاج، والوقوف أمام كل محاولة قد تقدم عليها قوة غاشمة لعرقلته وتعطيله»[2].

نتيجة كل تلك التطورات بات الاتحاديون، في العام 1906، منقسمين بشكل واضح إلى مجموعتين فكريتين متعارضتين ومتضادتين، الأولى ليبرالية لا مركزية نادت بأن يكون لكل عناصر الدولة العثمانية دورهم البناء في إرساء أسسها وإعلاء بنائها، آمن بها ودعا إليها الأمير صباح الدين، والثانية مركزية سلطوية نادت بالاستناد إلى العنصر التركي معللة إن ذلك هو الضمان الوحيد لبقاء الدولة وتحقيق الرقي لها، تزعمها أحمد رضا، معبرا، ومجموعته، عن قناعتهم بأن نظام اللامركزية من شأنه أن يكون مقدمة لتمزيق الدولة العثمانية، وإن منح الحكم الذاتي للقوميات هو «خيانة حقيقية»[3]. وقد حاولت كلتا المجموعتين أن تدلي بدلوها وتحظى بأنصار ومؤيدين لها خارج الدولة العثمانية وداخلها.

1- Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S177; Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.262;

«الهلال»، الجزء الأول، السنة السابعة، 1تشرين الأول 1908، ص27.

2- Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, PP. 381-382;

«الهلال»، الجزء الأول، السنة السابعة، 1تشرين الأول 1908، ص26-27.

3- Ahmed Bedevı Kuran, İnkilap Tarihimiz ve İtthad ve Terakki, S.233;

فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص233.

ثانيا: محاولات إعادة تنظيم صفوف الاتحاديين وانعقاد المؤتمر الثاني لأحزاب المعارضة العثمانية.

خلال سنوات وجود الاتحاديين في أوربا، وفي ضوء انفتاحهم على العالم الغربي، الجديد عليهم بكل ما فيه، ومع عمق الحسرة والألم المتأصل في النفوس من مجمل واقع بلادهم، أظهرت عناصر كثيرة بينهم قدرة فريدة على التشرب بأفكار مختلفة، كانت مضامينها استجابة طبيعية للتغيرات الحاصلة في الدولة العثمانية مجتمعا واقتصادا وسياسة وثقافة، وغالبا ما طرحوها بثوب إسلامي شرقي رأوا فيه أكثر ملاءمة لواقع الدولة العثمانية، وقدموا نتاجا فكريا غزيرا، فكان وجعهم في معظمه أخضرا حق للفرح أن يشتهيه.

حاول الاتحاديون، مرارا وتكرارا، الانتقال إلى الفعل وتطبيق أفكارهم على أرض الواقع، وذاقوا طعم الفشل المر مرات عدة، وتشتت صفوفهم غير مرة، حتى صار الانقسام طابعا ملازما لهم. وفي العام 1906 بدأت محاولات لإعادة بناء الجمعية داخل الدولة العثمانية، وإقامة شبكة فعالة بين أظهرها. وبالضرورة انسحب على جهدهم الواقع الانقسامي لصفوف المعارضة في الخارج والتي كان صباح الدين وأحمد رضا أبرز رموزها. فبعد أن أرسى صباح الدين أسس عصبته بدأ يعطي اهتماما نحو بناء شبكة من الداعمين والمؤيدين له، ولاسيما على الأراضي العثمانية، ونجح بالفعل في تأسيس فرع بين صفوف الطلاب في اسطنبول، اتخذ من الكلية العسكرية مركزا له ليتسع نطاقه شاملا طلبة الكليات الأخرى[1].

1- Ahmed Bedevı Kuran, İnkilap Tarihimiz ve İtthad ve Terakki, S.185-187.

ساعد تأسيس فرع اسطنبول على زيادة توسيع جريدة «ترقي» ونشر مادة صباح الدين الدعائية، والأهم من ذلك، تأسيس فروع أخرى لـ «عصبة الإدارة اللامركزية والتشبث الشخصي» انطلقت خارج اسطنبول، وانتشرت على وجه الخصوص شرق الأناضول وسواحل البحر الأسود. شجع على ذلك التطور أوامر اللجنة المركزية في باريس بتأسيس الفروع ما أمكن ذلك، من دون انتظار تعليمات منها، وجعل العمل الجاد لتأسيس فرع جديد من أولويات مهام كل فرع[1].

أظهر صباح الدين اهتماما ملموسا بإقامة صلات مع العناصر غير التركية، وأعلن مرارا عن قناعته بأن الثورة التركية المحضة ستؤدي بالضرورة إلى إثارة القوميات غير التركية، الأمر الذي قد يتسبب بنهاية الدولة العثمانية[2]، وبفضل مبادئ عصبته الخاصة بالإدارة اللامركزية وتأكيده المستمر حق الجميع في إدارة أمورهم الخاصة، نجح في تأسيس فروع للعصبة خارج المنطقة التركية، منها فرع في دمشق، وآخر في اللاذقية، كما كان للعصبة شعبية واسعة في القاهرة، وتمكنت من جذب العديد من الشخصيات العربية[3]، كما تحمس لها بعض القادة الكرد، لعل أبرزهم عبدالله جودت وعبدالرحمن بدرخان[4].

من نفس منطلقات توجهه نحو العناصر غير التركية من المسلمين، آمن صباح الدين بضرورة وحدة العثمانيين مسلمين وغير مسلمين، واستثمر صلاته القديمة مع الأرمن، فوجه في العام 1905 دعوة لهم للتعاون مع عصبته، كما تبادل الرسائل مع عدد من القادة الأرمن[5]،

1- Ahmed Bedevı Kuran, İnkilap Tarihimiz ve İtthad ve Terakki, S.187-188; M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, PP.91-92.

2- M. Şükrü Hanioğ, Preparation for a Revolution, P.99.

3- Ibid., P.98;

الدكتور محمد عبدالرحمن برج، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر، مصر، 1974، ص115-116.

4- جرجيس فتح الله، المصدر السابق، ص55.

5- Camal Kutay, Prens Sabahattin Bey, S.149; Altan Deliorman, Türklere Karşı Ermeni Komitecileri, İstanbul, 1397, S.80.

ووجد تعاونا جيدا من «حزب الداشناق»، خصوصا من خاجادور مالوميان[1]، أسفر عن توصل التنظيمات إلى اتفاق سري للتعاون، سعى كلاهما للاستفادة منه، وانعكس فعلا في عدة نشاطات مشتركة[2].

على الرغم من كل تلك الجهود، ومع أن صباح الدين صار يبدي اهتماما متزايدا لتأسيس فروع قوية وفعالة، فإن اتساع الشبكة، إجمالا، ظل مسألة ثانوية له، فصباح الدين لم يكن راغبا في حيازة السلطة من خلال ثورة شعبية، بل أراد استخدام النشاط أداة للحصول على التدخل الأجنبي.

بموازاة مساعي صباح الدين، وبجدية وحرص واهتمام أكثر، كانت جهود «جمعية الترقي والاتحاد» لإيجاد تنظيم لها داخل الدولة العثمانية تحمل العبء الأكبر في تأسيسه بهاء الدين شاكر الذي أعلن إن واجبه الأول هو «الإشراف على التنظيم داخل الإمبراطورية»، مؤكدا أن «التجارب المرة التي خرجنا بها من عملنا خلال الاثـنتي عشرة سنة الأخيرة تظهر لنا بوضوح استحالة الاستفادة من المنشورات ما لم يكن التنظيم موجودا [في الدولة العثمانية]» و «من الواضح أن المركز لم يتمكن من تحقيق نجاح حقيقي حتى يتم تأسيس الفروع واستكمالها»[3]. وبالفعل نجح بهاءالدين شاكر، خلال أقل من سنة، وبمساعدة الدكتور ناظم، في تأسيس شبكة فاقت توقعات الاتحاديين، تركزت في المناطق التي

1- خاجادور مالوميان (Khathatur Malumian) قيادي أرمني، ولد في زانكيزور في أرمينيا عام 1865، ويعد من بين أبرز قياديّ «حزب الداشناق»، عمل في صحيفة «مشاك» في تفليس، وأمضى بعض الوقت في سانت بيتريبورغ. نشط في باريس عام 1904، وتعاون مع الاتحاديين في التخطيط للإطاحة بالسلطان عبدالحميد، وكان له دور مؤثرافي مؤتمر 1907 للأحزاب العثمانية المعارضة، كما بذل جهودا في التهيئة لانقلاب الاتحاديين، ضمن إطارها انتقل في العام 1908 إلى اسطنبول حيث ألقى خطبا حماسية لكسب التأييد. رغم كل ذلك فبعد بضع سنوات، وتحديدا في الرابع والعشرين من نيسان 1915، ألقى الاتحاديون القبض على مالوميان ليقتل على أيديهم.

C. J. Walker, Armenia The Survival of Nation, London, P.380.

2- M. Şükrü Hanioğ, Preparation for a Revolution, PP.92,95-98.

3- Quoted in: Ibid., PP.136, 143, 144.

لا تخضع للدولة العثمانية إلا اسميا، أو تلك التي حصلت على الاستقلال الذاتي حديثا، فتم إنشاء فروع في بلغاريا ورومانيا وكريت وقبرص والقوقاز والبوسنة ومصر[1].

على الرغم من إنشاء كل تلك الفروع لـ «جمعية الترقي والاتحاد»، فإن تأسيس فرع في اسطنبول ظل الهدف الأهم والأكبر، والأكثر صعوبة أيضا بحكم الجاسوسية النشطة للنظام الحميدي، ولم تُتخذ خطوات إيجابية في هذا الصدد إلا في أواسط العام 1907، رافقتها مساعي ناجحة لإيجاد فروع في مناطق حيوية أخرى، فتم إنشاء فرع في طرابزون وآخر في أزمير، كما تأسست فروع أقل أهمية في بيروت وبغداد وديار بكر[2].

لتحقيق انتشار أوسع لجأت «جمعية الترقي والاتحاد» إلى استخدام كل السبل، ولم تتردد في طرح مختلف الأفكار حتى لو تعارضت مع بعضها البعض، وخاطبت كل مجموعة بما أحبت سماعه، فمع التزامها فكرة الأتركة، وتأكيدها بأنها «جمعية تركية قح»، استخدمت العثمنة أيضا لكسب دعم القوميات المختلفة الموجودة في الدولة العثمانية، خصوصا غير المسلمة، وفي مقدمتها الأرمن، فأعلنت إن هدفها الرئيس هو تحقيق «المساواة والعدالة» لكل الأعراق، وأن «بالإمكان تحقيق رفاه وسعادة العثمانيين من خلال تعاونهم جميعا... دون تمييز لدين أو معتقد أو عرق»[3]. كما استخدمت الطرح والتعبير الإسلاميين لجذب المسلمين إليها، فادعت إن الجمعية تشكلت من «أناس نذروا حياتهم لخلاص الدولة العثمانية، ولتنوير عقول إخواننا في الدين استجابة للحديث الشريف 'إنما المؤمنون أخوة'»[4].

1- Please look at: Ibid., PP.147-166.

2- Tarık Z. Tunaya, Türkiyede Siyasi Partiler, S.1; Yusuf Hikmet Bayur, Türk İnkılâbı Tarihi, S.298; J. B. Villata, Atatürk, Translated from Spanish by William Campbell, Ankara, 1979, P38; B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.205.

3- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.174.

4- Quoted in: Ibid., P.176.

استخدمت اللغة النفعية نفسها مع شرائح المجتمع المختلفة من رأسماليين وعمال وفلاحين... . ومع أن هذا الأسلوب شوه نهج الجمعية الفكري، فإنه يسر لها تأسيس فروع عدة، وكسب الأنصار والمؤيدين بين جموع مختلفة عرقا ودينا وانتماءا اجتماعيا. بيد أن الانطلاق الحقيقي والانتشار الواسع لم يحدث إلا عقب الاندماج بـ «جمعية الحرية العثمانية» (Osmanlı Hürriyet Cemiyeti).

ربما أمكن تتبع خلفيات «جمعية الحرية العثمانية» بين بقايا فرع الاتحاديين في سلانيك، حيث تأسست «جمعية الحرية العثمانية»، فكما سبقت الإشارة تعرضت «جمعية الاتحاد والترقي» في الدولة العثمانية لضربة قاسية إثر فشل المحاولة الانقلابية لعام1896، وتلاشى كثير من فروعها، وانحسر نشاط البقية، بما فيها فرع سلانيك، بحيث اقتصر على فعاليات بسيطة غلب عليها الاستحياء، دون أن تنقص الجراءة بعضا منها. إذ أورد دبلوماسي بريطاني في مذكراته أنه في آب 1903 طلب مقابلته خمسة من الاتحاديين الموجودين في سلانيك، ممن كان لهم فيما بعد دور قيادي في أحداث 1908، هم كل من رحمي وطلعت وجمال وجاويد والحاج عادل، وأرادوا عقد لقاء سري معه، طرحوا فيه تساؤلهم عن تصوره حول إمكانية النجاح في الحصول على تأييد الدول الأجنبية لتحرك ثوري يدبرون له، وكان جوابهم عن استفساره بشأن موقف الجيش والشرطة وكبار الموظفين تجاه مثل هذا التحرك بوجود تعاطف بين الموظفين المدنيين والعسكريين، لكنه لم يكن أكثر من تعاطف «أفلاطوني». حينئذ نصحهم الدبلوماسي البريطاني بأن يبعدوا عن أذهانهم كل فكرة لثورة في غير وقتها، فلا يمكن أن تكون نتيجتها إلا فقدانهم، وأتباعهم، لحياتهم، والتراجع بالبلاد لوضع أسوأ[1].

اقتنع القادة الخمسة برأي الدبلوماسي[2]، وسعوا إلى تنظيم صفوفهم وإنشاء منظمة قوية في سلانيك، وشهدت محاولاتهم جهدا مكثفا في العام 1905. لكن الحركة، على

1- Sir Robert Graves, Storm Centers of the Near East. Personal Memories 1879-1929, London, 1933, PP.200-201.

2- Ibid., P.201.

الرغم من ذلك، استمرت على شكلها غير المنظم، ولم يتطور نشاطها إلى أكثر من لقاءات كرر فيها قادة المعارضة ضرورة إسقاط نظام السلطان عبدالحميد[1].

خلال تلك المرحلة كان هناك تشكيل أفضل تنظيما أسسه الضابط مصطفى كمال {أتاتورك فيما بعد} بالتعاون مع ثلاثة من أصدقائه[2]، واختار كلمة «وطن» (Vatan) اسما له، وما لبث أن تطور الاسم إلى «جمعية الحرية والوطن» (Vatan ve Hürriyet Cemiyti)، وازداد أعضاء الجمعية واتسع نشاطها بسرعة، فصار لها فروع في دمشق ويافا والقدس[3]، وهو ما شجع مصطفى كمال على السعي إلى إنشاء فرع للجمعية في مقدونيا، وفي سلانيك تحديدا، المنطقة الأكثر اشتعالا في الدولة العثمانية، والتي صارت «الكعبة السياسية للاخوة

1- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.211.

2- تذكر انسكلوبيديا أتاتورك إن الرفاق الثلاثة هم كل من مفيد أوزداش والحاج مصطفى والدكتور محمود، ويؤيد محمد شكر هانكلو ذلك، في حين يختلف أرنست أ. رامزور في الاسم الأخير مشيرا إلى أنه سليمان بك.

"Atatürk Ansiklopedisi", S.336; M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.211; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.95

في الترجمة العربية ص118.

3- للمزيد من التفاصيل حول تأسيس الجمعية واتساع نشاطها يراجع: مصطفى الزين، أتاتورك أمة في رجل، بيروت، 1972، ص19-25؛ ضابط تركي سابق، الرجل الصنم، ترجمة عبدالله عبدالرحمن، الطبعة الثانية، بلا، 1978، ص63-67؛

H. Froembgen, Kemal Ataturk. A Biography, Translated from the German by K. Kirkness, London, PP.46-52; Dagobert Von Mikusch, Mustapha Kemal between Europe and Asia, Translated by J. Linton, London, 1931, PP.31-35; Saad Borak, Atatürk. Gençlik ve Hürriyet, İstanbul, 1960, S.8-11;

سعد بوراق، أتاتورك. الشبيبة والحرية، اسطنبول، 1960، ص8-11؛

Kemal Köktürk, Atatürk Hayatı Devrimleri ve Anıları, İstanbul, 1981, S.12-13

كمال كوكترك، أتاتورك. حياته، ذكرياته وثوراته، اسطنبول، 1981، ص12-13؛

Zahir Güvenli ve M. Râsim Özgen, Kaplan ve Pars. Mustafa Kemal, Cilt 1, İstanbul, 1955, S.18-19

زاهر كوفنلي وم. راسم اوزغن، النمر والفهد مصطفى كمال، الجزء الأول،اسطنبول، 1955، ص18-19.

في الإيمان» حسب وصف أحد المصادر[1]. فبحكم قرب مقدونيا من أوربا صارت المنطقة أكثر تقدما من بقية أجزاء الدولة العثمانية، وأيسر اتصالا بالعالم الخارجي[2]، ثم أنها، وللسبب عينه، أثرت بمشاكلها المعقدة على كل الدول الأوربية، وكان ذلك من الأسباب المهمة التي جعلت الدول الكبرى ترسل، في العام 1904، قوات دولية إلى مقدونيا، تألفت من روس ونمساويين وفرنسيين وإيطاليين وبريطانيين، مهمتها الحفاظ على النظام إلى جانب الجيش العثماني[3]، وفي العام 1905 فرضت الدول الخمس نظام الرقابة المالية على الولايات المقدونية لتتحول المنطقة إلى مكان للتنافس بين الدول الأوربية المختلفة، وبشكل أكبر ثقلا وأكثر وضوحا من بقية أجزاء الدولة العثمانية[4]. أدت تلك الظروف إلى ضعف قوة السلطان عبدالحميد في المنطقة، وعجزه عن وقف انتشار الأفكار الثورية فيها من جهة، وإلى ترحيب سكان المنطقة، والمسلمين منهم خصوصا، بأي تنظيم يؤمن مصالحهم ويرضي أمانيهم، وأهمها إبقاء مقدونيا جزءا من الدولة العثمانية.

من الشائع إن مصطفى كمال وصل سلانيك، والتقى هناك بعدد من قادة المعارضة من الضباط الذين التحق كلهم في وقت لاحق بـ «جمعية الحرية العثمانية»، مثل عمر ناجي

1- Dagobert Von Mikusch, Op.Cit., P.48.

2- الدكتور لطفي المعوش، المسألة القومية في سياسة الدول البلقانية من مؤتمر برلين حتى الحروب البلقانية (1878-1913)، «تاريخ العالم الحديث» (مجلة)، بيروت، العدد 193، أيلول- تشرين الأول 2001، ص60-67؛

http: // www. hungary. Com/ corvinus/ lib/ bogdan, Henry Bogdan, From Warsaw to Sofia. A History of Eastern Europe, Ed. Istvan Fehervary, New Mexico, 1989, PP.142-143.

3- W. S. Monroe, Op.Cit., PP.53-54; M. S. Anderson, The Eastern Question 1774-1932. A Study in International Relations, Reprinted, HongKong, 1982, PP.271-272; W. Miller, The Ottoman Empire and its Successors 1801-1927, New Impression, London, 1966, PP.445-447.

4- M. S. Anderson, The Eastern Question, P.272; W. Miller, Op.Cit., PP.447-448.

وحقي بهاء وخسرو سامي ومحمد طاهر البورصي وإسماعيل ماهر ومصطفى نجيب[1]، غير أنه يصعب الجزم فيما إذا كان قد تمكن فعلا من تأسيس فرع لجمعيته فيها[2]، ومن غير الممكن القبول بأن هذا الفرع، المشكوك أصلا في وجوده، هو اللبنة التي تكونت منها «جمعية الحرية العثمانية» وبأن مصطفى كمال هو المؤسس الحقيقي لها، كما حاولت بعض المصادر تأكيد ذلك[3].

إن تفاصيل تأسيس «جمعية الحرية العثمانية» يوردها كاظم نامي دورو، أحد المؤسسين العشرة، في مذكراته التي يتضح من خلالها بأنه بعد لقاءات واجتماعات عديدة قرر قادة المعارضة في سلانيك تحويل نشاطهم المشتت إلى مسعى منظم، وعقدوا في

1- **Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.272; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, PP.98-99**
في الترجمة العربية ص120.

2- هناك مصادر تؤكد تأسيس مثل هذا الفرع منها:
Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.272; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.99
في الترجمة العربية ص120؛ سليم الصويص المحامي، المصدر السابق، ص21. وأخرى تنفي ذلك، مثل:
H. Froembgen, Op.Cit., P.50; Dagobert Von Mikasch, Op.Cit., P.49; Irfan Orga, Phoenix Ascendant. The Rise of Modern Turkey, London, PP.34-35;
مصطفى الزين، المصدر السابق، ص26؛ ضابط تركي سابق، المصدر السابق، ص66-67.

3- أخذ هذا الموضوع مكانا أكبر من حجمه الحقيقي في تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي» بتأثير مكانة مصطفى كمال في تاريخ الدولة العثمانية وتركيا الحديثة، والهالة التي أضفيت على «منقذ تركيا» من بعض معاصريه، والكثير من المؤرخين اللاحقين الذين استندوا إلى ما ذكر من سبقهم، فظهرت كتابات كثيرة في هذا الصدد، يدخل ضمنها معظم المصادر السابق ذكرها حول أتاتورك، ومصادر كثيرة غيرها. ومع أن الشك يحيط بمعظم المعلومات الواردة عن مصطفى كمال في تلك المرحلة، فإن الجزء الخاص بلقائه بعدد من المعارضين، وسعيه لتشكيل فرع لجمعيته الوليدة في سلانيك يبدو معقولا تسنده إشارة العديد من المصادر المستقلة إلى أن جمعية مصطفى كمال سبقت بكثير تحوله إلى شخصية محورية في السياسة التركية. يراجع:
M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.112; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.96.

تموز 1906 اجتماعا تأسيسيا ضم عشرة أشخاص: محمد طاهر البورصي مدير الرشدية العسكرية في سلانيك، وطلعت بك رئيس كتاب دائرة سلانيك، ومدحت شكري مدير مستشفى سلانيك، واليوزباشي أمين ثروت قائد الجندرمة في مقدونيا، واليوزباشي كاظم نامي، وثلاثة ضباط برتبة ملازم أول هم كل من حقي بهاء وعمر ناجي وإسماعيل جنبلاط، اجتمعوا جميعا في دار إسماعيل جنبلاط. وخشية أن يفاجئهم أبوه أو اخوته نقلوا مقر اجتماعاتهم اللاحقة إلى دار مدحت شكري. وعقب اجتماعات يومية تواصلت لأكثر من شهرين أنهى المجتمعون، في السابع من أيلول 1906، الترتيبات لإنشاء جمعية سرية أسموها «جمعية الهلال» (Hilâl Cemiyti)، وانتخبوا مجلسا أعلى لإدارة شؤونها تكون من طلعت بك ورحمي بك وإسماعيل جنبلاط[1]. وفي الثامن عشر من أيلول العام نفسه تغير اسم الجمعية إلى «جمعية الحرية العثمانية»، ومُيز العشرة الذين شاركوا في الاجتماع الأول بصفتهم المؤسسين للجمعية[2].

كانت المشكلة الأساسية التي واجهت «جمعية الحرية العثمانية» خلال مرحلة التأسيس، وحتى بعدها، هي عدم امتلاك صحيفة تنطق بلسانها وتعبر عن أفكارها، فحاول مؤسسوها تغطية هذا النقص باستخدام جريدة كانت موجودة في حينه تدعى «كوجك باغجه سي» (حديقة الطفل) التي بدأ عمر ناجي نشر مقالاته فيها[3]، وما لبثت الجريدة أن صارت صوتا معبرا للمعارضة في سلانيك، تخللت أعدادها قصائد وطنية حماسية، وجمل استفزازية أثارت الرقابة، وتسببت في إيقاف صدور الجريدة[4]، ليعود المؤسسون من دون جريدة تعبر عنهم مستعيضين عن ذلك باستخدام صحف الاتحاديين، وموادهم الدعائية[5].

1- Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralarım, S.12-13.

2- Kâzım Karabekir, İttihat ve Terrakki Cemiyeti 1896- 1909, İstanbul, 1993, S.176-177

كاظم كاربيكر، جمعية الاتحاد والترقي 1896–1909، اسطنبول، 1993، ص176–177.

3- "Atatürk Ansiklopedisi", S.376.

4- Ibid. .

5- Please look at: Kâzım Karabekir, İttihat ve Terakki Cemmiyti, S.159-163.

في فعاليتها المبكرة وجهت الجمعية جل جهدها نحو تجنيد أكبر عدد ممكن من الأفراد، مع حرصها على إبقاء نشاطها بعيدا عن أعين السلطات الحكومية من خلال تمسكها بكتمان وسرية عاليين في كل تحركاتها، وفي مقدمتها ما خص قبول الأعضاء الجدد، وكل الإجراءات والمراسيم المصاحبة[1]، واتبعت نظام ترقيم تسلسلي لأعضائها، شغل فيه العشرة المؤسسون الأرقام من واحد إلى عشرة[2]، ولرفع شأن الجمعية في أعين الأعضاء الجدد وضع المؤسسون فجوة بمقدار مائة بينهم وبين المنتميين الجدد[3]، فالعضو صاحب الرقم **117** لم يكن إلا العضو السابع عشر في الجمعية[4]، مع أن الجمعية قد لا تكون بحاجة لهكذا أسلوب، فخلال مدة قصيرة جدا نجحت في كسب عناصر كثيرة، أغلبهم من الضباط[5]، وفي غضون سنة تقريبا تجاوز عدد أعضائها الألف[6].

1- أورد اثنان من أعضاء الجمعية في مذكراتهم مراسيم الانتماء إليها، والتي تبدأ بإجراء تحقيقات حول الشخص المرام اكتسابه، وبعد التأكد من خلفيته واستعداده يعرف بأفكار الجمعية وغاياتها، وحال الموافقة على قبوله يحدد موعد لأداء القسم يؤخذ فيه الشخص المرشح إلى مكان أمين، فتعصب عينا الشخص قبل مسافة معينة، ويقاد بطريق متعرج، وعند الوصول إلى المكان المحدد يجري التعارف بكلمتين سريتين هما «هلال» و «معين»، وعندما يحل عصاب العيون يجد المرشح نفسه في غرفة مظلمة فيها ثلاثة أشخاص يلبسون أقنعة سوداء لا يظهر منها إلا عيونهم، وقماش أحمر يغطي أجسادهم من الأكتاف إلى الأقدام، هم الذين يحلفونه اليمين، وأمامه منضدة عليها القرآن الكريم ومسدس، يضع المرشح يده اليمنى على القرآن الكريم واليسرى على المسدس ويقسم بأن يكرس نفسه لإنقاذ البلاد والقضاء على الاستبداد، وإطاعة أوامر الجمعية، وعدم إفشاء أسرارها تحت أي ظرف، واستباحة ماله وحياته إذا ما خالف ذلك. ثم تعصب عيناه من جديد ليعاد إلى المكان الذي بدأت منه رحلته، دون أن يعرف الأشخاص الذين التقى بهم، أو حتى المكان الذي أدى فيه القسم، لتبقى دائرة معارفه من الجمعية مقتصرة على الخلية التي ينسب إليها، والتي لا تتجاوز، عادة، الشخص الذي اكتسبه للجمعية وثلاثة آخرين.

Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralarım, S.15-16; Halil Paşa, Bitmeyen Savaş, İstanbul, 1972, S.32-34

خليل باشا، الحرب التي لا تنتهي، اسطنبول، 1972، ص32-34.

2- Tarik Z. Tunaya, Türkiyede Siyasi Partiler, S.114.

3- Mustafa Müftüoğlu, Abdülhamid Kızıl Sultan Mı?, S.63.

4- Halil Paşa, Bitmeyen Savaş, S.34.

5- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.213.

6- Atatürk Ansiklopedisi, S.377.

تزامن تأسيس «جمعية الحرية العثمانية» واتساع حجمها مع إدراك «جمعية الترقي والاتحاد» لأهمية سلانيك، وسعيها لتأسيس فرع لها هناك وتعزيز وجودها في المنطقة وتوسيع نشاطها فيها، ووجدت في الاندماج مع «جمعية الحرية العثمانية»، الذي بادرت الأخيرة بعرضه، فرصة طيبة لتحقيق هدفها بجهد ووقت أقل[1].

لم يكن طرح فكرة الاندماج شيئا غريبا أو مفاجئا. فعلاقات قادة «جمعية الحرية العثمانية» مع الاتحاديين قديمة ومتجددة، إذ أن العديد من القادة المؤسسين كانوا أعضاء سابقين في «جمعية الاتحاد والترقي العثمانية»، فطلعت بك كان من بين الأعضاء النشطين في الجمعية ضمن فرع أدرنة، والقي عليه القبض في العام 1896 وحكم بالسجن لثلاث سنوات[2]. وكان مدحت شاكر عضوا في فرع جنيف، عاد للدولة العثمانية بعد اتفاق كونتريكسفل في العام 1897، ورحمي كان عضوا في سلانيك، القي عليه القبض إثر اتهامه بالمشاركة بمحاولة اغتيال[3]، وكان كـاظم نامي عضوا في فرع تيرنا لغاية 1897[4]. كما أن العديد من الأعضاء الفاعلين في «جمعية الحرية العثمانية» كانت لديهم اتصالات مع «جمعية الترقي والاتحاد» قبل اندماج جمعيتهم معها، حتى أن اثنين منهم، هما عمر ناجي، أحد العشرة المؤسسين، وسامي خسرو اللذين اضطرا إلى الهرب خارج الدولة العثمانية إثر انكشاف أمرهما لسلطاتها، اختارا الانضمام لصفوف الاتحاديين في باريس، وكتبا لقادة «جمعية الحرية العثمانية»، بناءً على توجيه سابق منهم، بأن جماعة أحمد رضا أقرب لهم من جماعة صباح الدين، وبأنه لا يوجد اختلاف حقيقي بين جمعيتهم و «جمعية الترقي

1- Ibid., S.376; M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, PP.214-215; W. S. Davis, A Short History of the Near East from the Founding of Constantinople (330A.D. to 1922), NewYork, 1956, P.360.

2- Mustafa Müftüoğlu, Abdülhamid Kızıl Sultan Mı?, S.56-57; Ziya Şakir, Yakın Tarihin Üç Büyük Adamı: Talat, Anver, Cemal Paşalar, İstanbul, 1944, S.59
ضياء شاكر، ثلاثة رجال كبار في التاريخ الحديث: الباشوات طلعت وأنور وجمال، اسطنبول، 1944، ص59.

3- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P. 213.

4- Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralarım, S.6-8; Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasa'ya Enver Paşa, Birinci Cilt, S.271.

والاتحاد»، بل إن الجمعيتين متشابهتان كثيرا في التوجهات والأهداف، وكان طبيعيا أن يتحول الشخصان مع مثل هذا التقييم، إلى عضوين فاعلين في صفوف «الترقي والاتحاد»[1]. الأهم من كل هذا إن «جمعية الحرية العثمانية» كانت تفتقر إلى التنظيم الجيد والوسائل الدعائية، وبدا في الاندماج علاج فعال لهذا الخلل، وبالمقابل يقدم الاندماج لـ «جمعية الترقي والاتحاد» قاعدة عريضة للبداية، وأساسا جيدا للتطور. فتحقيق الاندماج كان مهما لكلا الجانبين.

بعد مفاوضات طويلة جرت بين الجمعيتين داخل الدولة العثمانية، استمرت أكثر من أربعة أشهر، ناب فيها عن «جمعية الترقي والاتحاد» الدكتور بهاء الدين شاكر والدكتور ناظم السلانيكي، تم التوصل، في **27** أيلول **1907**، إلى صيغة نهائية للاتفاق باندماج الجمعيتين في جمعية واحدة حملت الاسم القديم للجمعية، أي «جمعية الاتحاد والترقي العثمانية» رغم بعض المعارضة[2]، في محاولة للاستفادة من شهرة وانتشار الاسم[3].

جاء في نص وثيقة الاندماج:

«إن 'جمعية الترقي والاتحاد العثمانية' التي مركزها في باريس و 'جمعية الحرية العثمانية' التي مقرها سلانيك، قد اتحدتا اعتبارا من **19**شعبان **1325** هـ/ **14** أيلول **1323** ر/ **27** أيلول **1907**م تحت اسم 'جمعية الاتحاد والترقي العثمانية' على وفق الشروط المدرجة أدناه:

1- **"Atatürk Ansiklopedisi", S.376; Camal Kutay, Prens Sabahattin Bay, S.207.**

2- أبدى بعض أعضاء «جمعية الحرية العثمانية» تحفظهم على الاسم بدعوى «حدوث حالات ابتزاز عدة تحت اسم الاتحاد والترقي، كما أن بعض الأعضاء ممن باعوا أنفسهم إلى القصر قد يدعون، في حال نجاح الجمعية، أنهم أعضاء فيها».

"Atatürk Ansiklopedisi", S.376.

3- **Please look at: Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralam, S.15-16; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.190; B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.205-206;**

محمود صالح منسي، حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي، القاهرة، 1972، ص94.

1. سيكون لدى الجمعية مقرين رئيسين، الأول في الداخل والثاني في الخارج، ويكون مركز المقر الخارجي في باريس، أما الداخلي فيبقى في سلانيك، ولكل من المركزين إدارته الخاصة.

2. إن الهدف الأساس للجمعية هو إعادة العمل بالدستور الذي وضعه مدحت باشا عام 1293 (1876)، والتأكد من تطبيقه. وللوصول لهذا الهدف يتحتم على الجمعية الاستعداد والبدء بتشكيل القواعد في الداخل والخارج، كل على حدة، وتحديد التنظيم وواجبات الأفراد، مراعية في ذلك القدرات والحاجات المحلية.

3. في الشؤون المالية، على الرغم من استقلال المقرين، يجب عليهما معاونة كل منهما الأخر عند الضرورة.

4. إن المقر الداخلي يرى الاتصالات المباشرة غير آمنة، ويفضل أن تتخابر الفروع والأعضاء في البلاد من خلال مقر باريس، شرط خضوع تلك المخابرات لسلطته.

5. إن المقر الخارجي، بالإضافة لكونه المركز الرئيس للفروع في الخارج، فإنه يقوم بواجب تمثيل الجمعية أمام العالم الخارجي. وإن العلاقات مع الحكومات والصحافة الخارجية هي من مسؤولية المقر الخارجي، أما مسؤولية المشاريع والفعاليات الداخلية فكلها من شأن المقر الداخلي.

6. لا يحق للمقرين تعديل أعمال بعضهما البعض إلا من خلال الإقناع.

7. في الوقت الراهن يكفي أن تقتصر وسائل نشر الجمعية على جريدتي «شورى امت» باللغة التركية و«مشورت» باللغة الفرنسية. وعلى المقر الخارجي أن يأخذ بعين الاعتبار كل مقترحات ومشاركات المقر الداخلي الذي عليه المساهمة ماديا وفكريا في تلك المطبوعات»[1].

1- **Tarık Z. Tunaya, Türkiyede Siyasi Partiler, S.128-129; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.238-239.**

من الواضح إن اندماج الجمعيتين لم يكن يعني امتصاص الواحدة الأخرى، بل استمر كلاهما بالعمل كهيئات مستقلة، لكنه كان عملا منسقا بحلة جديدة، إذ أنتج الاندماج جمعية جديدة بتنظيم قوي، رسخته جهود الدكتور بهاء الدين شاكر والدكتور ناظم، ومادة دعائية قوية وفعالة تمثلت بمنشورات الاتحاديين في باريس[1].

مع الاندماج دخلت «جمعية الاتحاد والترقي»، بمقريها الاثنين، مرحلة جديدة، وللمرة الثانية في تاريخ الاتحاديين منذ العام 1896 تمتعت «جمعية الاتحاد والترقي» بشبكة عمل قوية متركزة في منطقة معينة من الدولة العثمانية، عززها اندماج معظم الجمعيات الصغيرة الموجودة في سلانيك، بما فيها «جمعية الوطن والحرية» بالجمعية القديمة الجديدة[2].

اتسعت «جمعية الاتحاد والترقي» بسرعة تثير الإعجاب والتعجب في ظل ظروف عملها السري وخطواتها المحسوبة، ومع أنها ركزت في نشاطها على المسلمين، والأتراك منهم على وجه الخصوص، فإنها وبهدف تحقيق دعاية أقوى للجمعية بين الدول الأوربية، اهتمت بالانفتاح على كل العثمانيين الموجودين في مقدونيا، بغض النظر عن دينهم وعرقهم، وتمكنت بالفعل من كسب دعم وتأييد عدد من اليونانيين والبلغار، وانخرط في صفوفها عدد كبير نسبيا من الألبان[3]، كما انتمى أشخاص مرموقون من الجالية اليهودية في سلانيك إلى الجمعية وتحولوا إلى أعضاء فاعلين فيها، بينهم عمانوئيل قرصو

1- Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralam, S.17-18; M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P. 212.

2- Irfan Orga, Op.Cit., PP.34-35; Richard D. Robiuson, Op.Cit., P.7;
الدكتور محمد كمال الدسوقي،المصدر السابق،ص315؛ سعيد سنو، تركيا الكمالية، بيروت، 1938، ص18.

3- Please look at: D. Djordjevic and S. Fischer - Galati, The Balkan Revolutionary Tradition, NewYork, 1981, PP.194, 200; A. Herbert, Ben Kendim. A Record of Eastern Travel, Ed. D. MacCarthy, London, 1924, P.160;
شاهه دحام عبدالله الجبوري، العلاقات العثمانية اليونانية 1876-1909، بغداد، 2003، ص128-129.

(Emmanuel Carasso) وعمانوئيل سليم (Emmanuel Salem) ونسيم ماتزلياخ (Nesim Matzliach) ونسيم روسو (Nesim Ruso)[1].

كل هؤلاء الأعضاء اليهود كانوا، في الوقت نفس نفسه، ماسونيين مؤثرين، وكان لهم إسهامهم الكبير في فتح محافل الماسونية، المؤسسة ذات التاريخ القديم في الدولة العثمانية[2]، أمام «جمعية الاتحاد والترقي» لعقد الاجتماعات السرية وخزن السجلات والمراسلات المهمة بعيدا عن أيدي السلطات العثمانية، والأهم من ذلك هو دورهم في إحداث نقلة كمية في علاقة «جمعية الاتحاد والترقي» مع الماسونية من خلال انتماء الاتحاديين، في الدولة العثمانية، لصفوف الماسونية بأعداد تصاعدت

1- الدكتور حسان علي حلاق، دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش (1908-1909)، الطبعة الثانية، بيروت، 1980، ص61؛ الدكتورة خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908-1918، بيروت، 1973، ص44؛

Http: // www. vahdet. com. tr/ filistin/ doya 2/ 0399. html, Türkiye'de Yahudi Lobiciliği.

2- دخلت الماسونية إلى الدولة العثمانية أوائل القرن الثامن عشر، وفي العام 1717 تم افتتاح أول جمعية ماسونية فيها، كان إبراهيم متفرقة أول أعضائها، وفي العام 1733 تأسس محفل ماسوني في أزمير، كما تأسس محفل آخر في غلطة سراي باسطنبول عام 1738، وتوالى تأسيس المحافل الماسونية،= واتسع نشاطها بسرعة في الدولة العثمانية، فوصل عدد الماسونيين فيها في العام 1882 إلى ما يقارب العشرة آلاف شخص انتموا إلى مختلف أطياف المجتمع العثماني قوميا ودينيا واجتماعيا، وكان بينهم شخصيات من الخط الأول في الدولة العثمانية، على سبيل المثال فؤاد باشا ومدحت باشا ونامق كمال وضياء باشا والسلطان مراد الخامس وخيرالدين التونسي وأسماء كثيرة أخرى. قبل قيام ثورة 1908 بلغ عدد المحافل الماسونية التي تأسست في بقاع مختلفة من الدولة العثمانية خمسا وستين محفلا تقريبا. يراجع: الدكتورة هدى درويش، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية منذ قيام دعوة يهود الدونمة 1648م إلى نهاية القرن العشرين، الجزء الأول، دمشق، 2003، ص263-264؛ الدكتور أحمد نوري النعيمي، اليهود والدولة العثمانية، عمان، 1997، ص176-178؛ الدكتور خليل إبراهيم العلاف، دور الماسونية في الحياة الاجتماعية والسياسية التركية المعاصرة، «دراسات اجتماعية»، (مجلة)، بغداد، عدد 2 و3، 1999-2000، ص30-31؛ الدكتور عصمت برهان الدين عبدالقادر، تغلغل الماسونية في الدولة العثمانية 1839-1918، «مجلة المجمع العلمي»، بغداد، الجزء الأول، المجلد الثامن والأربعون، 2001، ص207-227؛

Angelo Iacovella, Gönye ve Hilal. İttiihad- Terakki ve Masonluk, Çeviren Tülin Altınova, İstanbul, 1998, S. 8-24

أنجلو اياكوفيللا، المثلث والهلال. الاتحاد والترقي والماسونية، ترجمة تولين ألتنوفا، اسطنبول، 1998، ص8-24.

سـريعا بعـد مـا أظهرتـه الماسـونية، بإمكاناتهـا وأجوائهـا، مـن مواءمـة لطبيعـة وظـروف عملهم[1].

إن تزايد دور الماسونية في «جمعية الاتحاد والترقي» ووجود أعضاء يهود بين صفوفها، دفع الكثير من الكتاب إلى تصوير ثورة الاتحاديين بأنها مؤامرة ماسونية يهودية صهيونية، وبأن «جمعية الاتحاد والترقي» لم تكن إلا واجهة لجمعية سرية ماسونية يهودية صهيونية تولت هي حكم الدولة العثمانية من وراء الستار منذ العام 1908 [2]، وهو طرح

1- E. F. Knight, The Awakening of Turkey. A History of the Turkish Revolution, London, 1909, P.112.

2- Please look at: Sir Harry Luke, The Old Turkey and the New. From Byzantium to Ankara, London, 1955, 137-144; www. le-carrefour- de- lislam.com / occultare/ translation- Dccultus. htm., Flavien Brenier, Honest Masonry in Turkey.

وأيد هذا الموضوع عدد من المؤرخين والصحفيين الأتراك، خصوصا بعد وفاة مصطفى كمال، عندما صار التغني بأيام عبد الحميد شائعا لحد ما، لعل أبرز هؤلاء هو جواد رفعت أتلخان. يراجع:

Cevat Rıfat Atilhan, İlim Işığında ve Tarih Önünde 31 Mart Faciası, İstanbul, 1956

جواد رفعت أتلخان، فاجعة 31 مارت في ضوء العلم وأمام التاريخ، اسطنبول، 1956؛

Cevat Rifat Atilhan, İslâmı Saran Tehlike. Siyonizm ve Protokollar, İstanbulő 1955

في الترجمة العربية: جواد رفعت أتلخان، الخطر المحيط بالإسلام (الصهيونية وبروتوكولاتها)، ترجمة وهبي عزالدين، بغداد، 1965؛ جواد رفعت أتلخان، أسرار الماسونية، ترجمة وتعليق نورالدين الواعظ المحامي وسليمان محمد أمين القابلي، بغداد،1965.

ووجد هذا الطرح هوى كبيرا في نفوس الكتاب العرب، أزاح عن كاهلهم عبء تحمل وزر وجود الكيان الصهيوني، وفضلوا أن يصيروا ضحية لمؤامرة عالمية، وقلما خلت دراسة عربية تناولت الموضوع من هذه الفكرة، كما كرست بعض دراساتنا الأكاديمية جزئيا، أو كليا لتأييد ودعم هذا الطرح. يراجع مثلا: الدكتور أحمد نوري النعيمي، أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، بغداد، 1982؛ الدكتور أحمد نوري النعيمي، يهود الدونمة. دراسة في الأصول والعقائد والمواقف، عمان، 1995؛ الدكتورة هدى درويش، المصدر السابق؛ أنور الجندي، السلطان عبدالحميد صفحة ناصعة من الجهاد والإيمان والتصميم لمواجهة تحديات الاستعمار والصهيونية، القاهرة، 1983؛ محمد علي قطب، ماذا نعرف عن يهود الدونمة. أصلهم، نشأتهم، حقيقتهم، القاهرة، 1978؛ الأب لويس شيخو، أسرار الماسونية (السر المصون ◄

اشتمل على مبالغة وتضخيم، بل ومغالطة واضحة، فصحيح أن الصلة بين الاتحاديين والماسونية تعود إلى مرحلة مبكرة في تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي» تمثلت بوجود عدد من الماسونيين ضمن صفوف الاتحاديين الموجودين خارج الدولة العثمانية، وباتصالات قديمة بين الماسونية وشخصيات قيادية في الجمعية، أبرزها أحمد رضا، فإن تلك الصلة ظلت محدودة، وبقي أحمد رضا رافضا الانضمام إلى الماسونية لتعارضها مع نهج المدرسة الوضعية الذي اختاره لنفسه، ومبديا تحفظه من انفتاح الجمعية على الماسونية[1]، ولم يغير موقفه إلا بعد أن علم إن الماسونية كانت تُستثمر من بقية التنظيمات المعارضة في الدولة العثمانية، بما في ذلك الأحزاب الأرمنية صاحبة الإمكانات القوية، فصرح معلنا:

> «في العصر الذي كانت فيه حرية الأحزاب وحق حرية الكلام غير مكفولة في أوربا أدت المنظمات الماسونية خدمة كبيرة بمساندتها أفكار الحرية والتقدم، مثال ذلك مساهمتهم في التعجيل بقيام الثورة الفرنسية.

◄ في شيعة الفرمسون)، بغداد، 1965؛ إبراهيم الداقوقي، فلسطين والصهيونية في وسائل الإعلام التركية، بغداد، 1987؛ محمد مكرم العمري، أسرار الأشرار قبالى اليهود والتنظيمات السرية والسعي للسيطرة على العالم، بيروت، 2004؛ الدكتور مصطفى حلمي (تقديم ودراسة)، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية. دراسة حول كتاب النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والنعمة لشيخ الإسلام مصطفى صبري، الإسكندرية، 1985؛ أنيس عبدالخالق محمود القيسي، السلطان عبدالحميد الثاني والأطماع الصهيونية في فلسطين (1876-1909)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 1998؛ محمد طارق فخري البياتي، التغلغل الصهيوني في تركيا وأثره في الأمن القومي العربي حتى عام 1967، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد، 2000؛ سنان صادق جواد السعدي، موقف جمعية الاتحاد والترقي من الحركة الصــهيونية (1889-1914)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 2005؛ الدكتور عبدالزهرة الجوراني، دور الماسونية في الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد الثاني، «دراسات في التاريخ والآثار» (مجلة)، بغداد، العدد الخامس، 2001، ص161-176؛ سعيد الأفغاني، سبب خلع السلطان عبدالحميد. وثيقة بتوقيعه. فريدة مجهولة تصرخ بالسبب، «العربي» (مجلة)، الكويت، العدد 169، كانون الأول 1972، ص150-156.

1- M. Şükrü Hanioğlu, Notes on the Young Turks and the Freemasons 1875-1908, “Middle Eastern Studies”, London, Vol. 25, April 1989, PP.190-191.

نظرا لأن هذه الجمعيات السرية فقدت مبررات وجودها في البلدان المستقلة [في أوربا]، فإن عددا من المنظمات الماسونية أخذت على عاتقها التدخل في الشؤون السياسية الخارجية. لقد عبأوا طاقتهم لمحاربة الاستبداد والقمع في كل العالم. إن عبدالحميد أدرك أهمية المجموعات الماسونية وصلتها بالسلطان السابق المظلوم مراد الخامس، لهذا السبب فإنه كلف وكلاء سريين لعمل تحقيقات عن سياسة وأفكار هذه المنظمات، لكن المجموعات الماسونية مستوعبة جيدا لمساعي الجاسوسية الحميدية وأنا أثق بأنها ستأخذ الاحتياطات الضرورية للوصول بمشاركتها إلى نهاية جيدة»[1].

على الرغم من هذا التصريح ظل أحمد رضا بعيدا عن الماسونية، واستمرت علاقة «جمعية الاتحاد والترقي» بها ضيقة نوعا ما، ولم يحدث التعاون الفعلي بين الماسونية والاتحاديين إلا عقب تأسيس المقر الداخلي للجمعية في سلانيك باتباعه نفس الخطى التي مشت عليها «جمعية الحرية العثمانية»[2]، بيد أنه لا توجد صورة واضحة عن أبعاد ذلك التعاون، ولا توجد أدلة تبين فيما إذا كان للماسونية دور ما في ثورة الاتحاديين، ولم يشر الاتحاديون في أدبياتهم قبل الثورة، حسبما يشير محمد شكر هانكلو، إلى هذا الموضوع[3].

ربما كانت أول إثارة لموضوع علاقة الاتحاديين بالماسونية بُعيد ثورة 1908، وتحديدا في آب 1908، حينما صرح أحد الاتحاديين الشباب، واسمه رفيق بك، في لقاء مع صحيفة باريسية قائلا:

1- Quoted in: Ibid., PP.192-193.

2- E. F. Knight, Op.Cit., P.112; Angelo Iacovella, Gönye ve Hilalö S.32-42; W. Yale, Op.Cit., P.162; http:// theunjustmedia. com, Harun Yahya, The Knights Tempiars;

محمد حبيب، نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، مصر، 1953، ص27.

3- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.40.

«حقا إننا وجدنا سندا معنويا من الماسونية، وخاصة الماسونية الإيطالية، فالمحفلان الإيطاليان 'مقدونيا ريزورتا' (Macedonia Risorta) و'لابور ايت لوكس' (Labor et Lux) قدما لنا خدمة حقيقية، ووفرا لنا الملاجئ، فكنا نجتمع فيها كماسونيين، لأن كثيرا منا كانوا ماسونيين، غير أننا في الحقيقة كنا نجتمع لننظم أنفسنا، كما إننا اخترنا معظم رفاقنا من هذين المحفلين اللذين ساعدا لجنتنا كغربال، نظرا لما كانا يبديانه من دقة في الاستفسار عن الأفراد، فكان العمل السري الذي يجري في سلانيك قلما يثير الشكوك في القسطنطينية. كما إن عملاء الشرطة حاولوا عبثا دخوله»[1].

مع إن هذا الكلام لا يعطي أكثر من وصف وتلخيص واضحين، نوعا ما، لدور الماسونية في نشاط المقر الداخلي لـ «جمعية الاتحاد والترقي» في سلانيك، فقد استغله الماسونيون ليعلنوا أنفسهم القوة الرئيسة وراء ثورة 1908[2]. وسرعان ما تبنى خصوم الاتحاديين هذا الطرح دليلا على علاقة الاتحاديين بالماسونية «الشيطانية»، ومحذرين من نفوذ اليهود ودونمة سلانيك بين قيادات الجمعية[3]. وتحولت المسألة لشكلها المضخم على يد الحكومة البريطانية، إذ وجدت فيها سلاحا جيدا في وجه أي دعاية محتملة من جانب الأتراك للجامعة الإسلامية بشكل يضر مصالح بريطانيا، وقد اقترح السير جيرارد لوثر (Sir Gerard Lowther)، سفير بريطانيا في اسطنبول، في حاشية رسالته الشهيرة إلى وزير

1- **Quoted in: Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.107; Cevat Rıfat Atilhan, İslâmı Saran Tehlike Siyonizm ve Protokollar, S.203-204**

في الترجمة العربية ص151.

2- **M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 40; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.106**

في الترجمة العربية ص126.

3- **Pleas look at: Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.106**

في الترجمة العربية ص126؛ الدكتورة خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي، ص45.

خارجيته في التاسع والعشرين من أيار عام 1910 [1]، التي أورد بها معلومات عن الماسونية السياسية والنفوذ اليهودي في دوائر الاتحاديين طفحت بالغرائب والمتناقضات[2]، إرسال نسخ منها إلى مصر وإيران والهند، حتى يفهم المسلمون في تلك البلدان إن «حركة تركيا الفتاة تؤثر عليها بشكل خطير الماسونية السياسية اليهودية والملحدة»[3]، واستغلت بريطانيا

1- تشير مصادر عدة إلى أن السير جيرارد لوثر، الذي تزامن وصوله إلى اسطنبول مع إندلاع ثورة 1908، قد تأثر في رؤيته للأحداث وتقييمه للاتحاديين برأي المترجم الأول في السفارة البريطانية جيرالد فتزماريس (Gerald Fitzmaurice)، الذي عرف بكرهه لـ «جمعية الاتحاد والترقي» من جهة، واقتناعه بنظرية المؤامرة وضخامة الدور الماسوني الصهيوني اليهودي في الجمعية وثورتها من جهة ثانية، وهناك إشارات إلى أن تقرير لوثر المذكور آنفا، والذي تحول إلى مصدر أساس لا يقبل الشك في معظم الكتابات العربية ذات الصلة بالموضوع، كان بناء على تحقيق أجراه فتزماريس.
Hasan Ünal, Britain and Ottoman Domestic Politics: from the Young Turks Revolution to Counter - Revolution 1908-9, "Middle Eastern Studies", London, Vol.37, April 2001, PP.1-2; Elie Kedouri, Young Turks Freemasons and Jews, "Middle Eastern Studies", London, Vol. 7, January 1971, P.91; Joseph Heller, British Policy Towards Ottoman Empire 1908-1914, London, 1983, PP.13,14; http// www. mauovhouse. clara. net/ book2/ summary. Htm., Geoffrey Miller, Straits: British Policy Towards the Ottoman Empire and the Dardanelles Campaign, Chapter two; http:// coursesa. Matrix. Msu. Edu/ ~fisher/ hst 373/ readings/ Fromkin.html, David Fromkin, A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East.

2- أشار لوثر في رسالته الطويلة والمطولة إلى أن «وحي الحركة في سلانيك من ابتكار الماسون الطليان، واللونان الأحمر والأبيض هما نفسهما لعلم الاثنين»، كما قال إن الاتحاديين «قلدوا الثورة الفرنسية... ويعود ذلك إلى الماسونية اليهودية من ناحية، وإلى حقيقة أن اللغة الفرنسية هي اللغة الأوربية الوحيدة المنتشرة بشكل واسع في الشرق الأدنى من ناحية أخرى، وقد أدى تطور الثورة الفرنسية إلى العداوة بين إنكلترا وفرنسا، وإذا تطورت الثورة التركية على النهج نفسه فأغلب الظن إنها ستجد نفسها كذلك في حالة عداء لمصالح بريطانيا ولأهدافها». للاطلاع على نص الوثيقة، وعلى ترجمة عربية لها يراجع:
Elie Kedourie, Op.Cit., PP. 94-103;
«دور اليهود والماسونية في الانقلاب العثماني 1908. نص رسالة السفير البريطاني في القسطنطينية إلى وزير خارجية بريطانيا»، ترجمة الدكتور محمد توفيق حسين، «آفاق عربية» (مجلة)، بغداد، العدد التاسع، أيار 1978، ص58-63.

3- **Quoted in: Elie Kedourie, Op.Cit., P.103.**

الموضوع بشكل أقوى خلال الحرب العالمية الأولى بهدف عزل «جمعية الاتحاد والترقي» ودفع العرب إلى الثورة ضد حكومة الاتحاديين[1].

إن هذا لا يعني نفي علاقة الاتحاديين بالماسونية أو باليهود، وإنما محاولة للخروج من صيغ المبالغة، والتعامل مع الموضوع ضمن حجمه الواقعي، فجمعية مثل «الاتحاد والترقي» لم تكن عندها رغبة، أو استعداد لمنح تنازلات إلى أي مجموعة أثنية أو دينية، وعارضت الصهيونية، حالها حال غيرها، بقوة حينما ظهرت توجهاتها الانفصالية[2]. ولم يُعرف عن عمانوئيل قارصو، أبرز عنصر يهودي بين صفوف الاتحاديين، اهتماما بالصهيونية[3]، وكان بين اليهود في الجمعية من حارب الصهيونية وتوجهاتها[4]. وعندما اعتقد الصهاينة إن نظام اللامركزية، الذي دعا له صباح الدين، يشكل «اهتماما رئيسا للشعب اليهودي» وفاتحوا قادة الاتحاديين بالموضوع، وصف أحمد رضا هذا الطرح بـ «الخيانة»[5]، وجاء الرد واضحا وقاطعا على لسان الدكتور ناظم السلانيكي:

> «الأمير صباح الدين انتهى: لم يعد له وجود، وأهمل برنامجه عن اللامركزية والحكم الذاتي للقوميات والأقاليم. إن جمعية الترقي والاتحاد تريد المركزية والهيمنة التركية على السلطة. إنها لا تريد قوميات في تركيا... . إنها تريد وطنا تركيا موحدا، بمدارس تركية وإدارة تركية ونظام قانون تركي»[6].

1- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.260.
2- Ibid.; Isaiah Friedman, Germany, Turkey and Zionism 1897-1918, Oxford, 1977, P.141.
3- Jacob M. Landan, Op.Cit., P.174; "Türkiye'de Yahudi Lobiciliği".
4- Jacob M. Landan, Op.Cit., P.175; W. F. Weiker, Ottomans Turks and the Jewish Polity . A History of the Jews of Turkey, New York, 1992, P.237.
5- Nevile J. Mandel, The Arabs and Zionism before World War 1, Los Angeles, 1976, P.59.
6- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.260.

هذا الجواب يوضح رؤية الاتحاديين لمجتمعهم المثالي، وموقفهم تجاه أي حركة تهدد، أو تقلق وجود الدولة العثمانية، ويعطي ملمحا لسياستهم التي كانت مصدر شكوى لليهود مثل بقية أطياف الدولة العثمانية[1]، فلم تتردد الجمعية في قلب ظهر المجن لأي جهة تعارض مصالحها، أو يحتمل أن تضرها، بما في ذلك الماسونية وعناصرها[2].

لقد أبدت «جمعية الاتحاد والترقي» استعدادها للتحالف مع أي جهة يمكن أن تؤمن لها دعما من أي شكل، وبصرف النظر عن مدى الاتفاق أو الاختلاف معها في الفكر أو المنهج أو الغاية. ففضلا عن الماسونية، استعان الاتحاديون بالجماعات الصوفية التي انتعشت كثيرا في المجتمع العثماني أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين بتأثير السياسة الإسلامية التي انتهجها السلطان عبدالحميد، ولئن كانت أغلب الجماعات الصوفية ميالة لمساندة السلطان، فإن بعضا منها كانت معارضة له، ولمجمل النظام السياسي في الدولة العثمانية، أقوى جماعة بينها هي البكتاشية، بما امتلكته من خلفية تاريخية[3]، وانتشار

1- A. Herbert, Op.Cit., P.184.

2- حول هذا الموضوع تراجع وثائق منشورة في: الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص93-96.

3- تكونت البكتاشية في رحم الطريقة الحيدرية، حول أفكار وتعاليم الحاج بكتاش، خلال القرن الرابع عشر، ونمت وكبرت بسرعة لتظهر طريقة واضحة المعالم أواخر القرن الخامس عشر، وفي العام 1501 صارت البكتاشية، رسميا، طريقة مستقلة بذاتها، وكانت مساندة للسلطة المركزية وتحت حمايتها إلى العام 1826 حين تعرضت البكتاشية لضربة قوية مع حل الجيش الانكشاري، فأعلن خروجها على القانون، ودُمرت زواياها، ومُنع ذكر اسمها مما جعل البكتاشيين يجنحون إلى السرية، نوعا ما، ودخل نظامهم مرحلة جديدة كان لهم فيها دورا لا يقل أهمية عما كان عليه في الماضي. إن أهم ما ساعدهم على متابعة التأثير والتطور هو تأييد الأوساط الحكومية العليا، إذ كانت عدة أميرات من أمهات أو أخوات السلاطين بكتاشيات، وكان السلطان عبدالعزيز نفسه يتعاطف مع تلك الطريقة. كما إن طبيعة النظام البكتاشي، وما عرف عنه من تحرر وعدم التزام بالتقاليد ومقاومة لسلطة رجال الدين، ووافق توجهات الحكومة العثمانية في مرحلة التنظيمات. في العام 1925 ألغيت البكتاشية، أسوة بكل الطرق الصوفية، لتبدأ من ذاك التاريخ السرية الحقيقية للبكتاشية التي نجحت في المحافظة على استمرارية نشاطها إلى اليوم. أحمد يشار اوجاق، الحياة الدينية، «الدولة العثمانية تاريخ وحضارة»، إشراف وتقديم اكمل الدين إحسان اوغلى، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الثاني، استانبول، 1999، ص187-189؛ الدكتور ايرين ماليكوف، النظام البكتاشي بعد سنة 1826، «المجلة التاريخية المغربية»، تونس، العدد31-32، ديسمبر 1983، ص542-543؛
J. K. Birge, The Bektashi Order of Dervishes, London, 1937.

واسع لا سيما في الاناضول والبلقان، إذ تقدر بعض المصادر عدد المنتمين إليها بعشر الأتراك في الدولة العثمانية[1].

ضمت البكتاشية بين صفوفها قاعدة عريضة من بسطاء الناس، ولاسيما الفلاحين والجنود، كما احتوت على عدد غير قليل من المثقفين[2]. ومثل أفرادها تنوعت معتقداتها بين «الخرافات الفجة... والإلحاد المادي»[3]. وأخذت تلك المعتقدات من مصادر مختلفة حد التناقض[4]. كما أقامت علاقات مع جهات عدة، بما في ذلك الماسونية[5]. وعلى الرغم من أنها لم تكن سنية أو شيعية، أخذت بعض اللمحات من الفكر الشيعي، فمثلا في موقفها من الخلافة كانت ميالة إلى فكر الشيعة الإمامية، وبالتالي كان لها موقف معادٍ من محاولات عبدالحميد في إحياء الخلافة[6]، ولعل هذا ، مع موقفها المساند للحركة القومية الألبانية[7]، كانا أبرز مسببات العداء بين عبدالحميد والبكتاشية، وانجذاب الأخيرة نحو الحركات المعارضة.

تعاونت البكتاشية، عن قرب، مع الاتحاديين منذ مرحلة مبكرة، وفي العام 1899 طبع أحد البكتاشيين، في مصر، جريدة معارضة باللغتين التركية والألبانية[8]، كما فتحت

1- J. K. Birge, Op.Cit., P.16.

2- Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.109

في الترجمة العربية ص128؛ الدكتور محمد أنيس، المصدر السابق، ص247.

3- Ernest E. Ramsaur, The Bektashi Dervishes and the Young Turks, "The Moslem World", NewYork, Vol.XXXII, 1942, P.7.

4- يراجع: محمد موفاكو، البكتاشية... انتسبوا للإسلام وأعفوا أنفسهم من كل التكاليف والعبادات، «العربي» (مجلة)، الكويت، العدد 220، آذار 1977، ص64-66.

5- Ernest E. Ramsaur, The Bektashi Dervishes, PP.8-9; W. S. Monroe, Op.Cit., P.281.

6- Ernest E. Ramsaur, The Bektashi Dervishes, P.10;

الدكتور محمد أنيس، المصدر السابق، ص247.

7- حول هذا الموضوع يراجع: محمد موفاكو، المصدر السابق، ص66-67؛

Ernest E. Ramsaur, The Bektashi Dervishes, P.11.

8- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.54.

البكتاشية أبوابها أمام الاتحاديين ونشاطهم، وازداد التعاون عمقا بعد العام 1906، حتى أن الكثير من الاتحاديين كانوا منتمين إلى البكتاشية، بما في ذلك بعض الشخصيات القيادية في «جمعية الاتحاد والترقي»[1].

كان للاتحاديين علاقة مشابهة مع طريقة الملامية، فكان طاهر البورصي عضوا بارزا في تلك الطريقة، ومن خلاله «أقبل الأخوان الملامية كافة على الانضمام إليها[جمعية الاتحاد والترقي] دون تردد»[2]. كما أشار صادق بك، مؤسس فرع «جمعية الاتحاد والترقي» في موناستير، إلى أن عددا كبيرا من الاتحاديين هناك كانوا منتسبين للملامية، ومتحمسين لها[3].

هناك أيضا ارتباط بين «جمعية الاتحاد والترقي» وطريقة المولوية التي ساهمت في محاولة الاتحاديين الانقلابية عام 1896، كما شاركت في توزيع منشورات «جمعية الاتحاد والترقي» داخل الدولة العثمانية، واستخدم الاتحاديون التكايا التابعة لها، بل وبيت شيخ الطريقة نفسه مقرا لعقد اجتماعاتهم[4].

لم يكن لـ «جمعية الاتحاد والترقي» تفاهم مبدأي مع أي من تلك الطرق، بل سعى الاتحاديون وراء المنفعة أين ما كانت وكيفما اتفق، الأمر الذي يسر لها تحقيق تطور واضح وسريع، وساعدهم على زيادة حجم الجمعية، ومضاعفة فروعها، وتوسيع رقعة نشاطها.

في خضم كل تلك التطورات كان تنظيم صفوف الجمعية وتعزيز صلاتها مع بقية أطراف المعارضة القوية وتوسيع حجم تعاونها معهم، مطالب حيوية لأي تحرك حقيقي. وفي أواخر العام 1907 بدأت جهود مشتركة من «جمعية الاتحاد والترقي» و «عصبة المبادرة

1- Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.113

في الترجمة العربية ص131؛ الدكتور ايرين ماليكوف، المصدر السابق، ص543.

2- Ernest E. Ramsaur, The Bektashi Dervishes, P.13.

3- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.54.

4- Ibid., P.55;

فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص237.

الخاصة والإدارة اللامركزية» و «حزب داشناق» لعقد مؤتمر ثان لأحزاب المعارضة العثمانية، يهدف إلى جمع كل التنظيمات في برنامج عمل ثوري موحد[1].

اتخذت ترتيبات المؤتمر بسرية تامة، ولم تقم أي مؤسسة بتصريحات عامة عن الموضوع، وربما كان ذلك سببا في اختلاف المصادر حول الجهة التي بادرت لانعقاد المؤتمر، إذ تشير «انسكلوبيديا أتاتورك» إلى أن حزب داشناق الأرمني هو من أثار الموضوع[2]، ويكرر رامزور الرأي نفسه[3]، بينما يؤكد محمد شكر هانكلو بأن «جمعية الاتحاد والترقي» هي أول من دعا لعقد المؤتمر[4]. وفي كلا الحالين فإن الاستعداد للتقارب وردم الهوة المفرقة كان موجودا لدى كلا الطرفين، مما دفع الجهود في هذا الصدد إلى أمام.

في أواخر تشرين الثاني **1907** اتفقت الأحزاب المنظمة للمؤتمر على تأسيس لجنة ثانوية مختلطة تضم ممثلين عن الأحزاب الثلاثة، تتولى التهيئة للمؤتمر وإعداد جدول أعماله، تكونت من خمسة أشخاص: أحمد رضا وسامي باشا زايد سيزائي ممثلين عن «جمعية الاتحاد والترقي»، وأحمد فضلي والدكتور نهاد رشاد ممثلين عن «عصبة المبادرة الخاصة والإدارة اللامركزية»، وخاجتور مالوميان ممثلا عن الداشناق. وتقرر أن تعقد اللجنة لقاءاتها في مكاتب «جمعية الاتحاد والترقي»، وجريدة «الترقي»، بالتناوب[5].

كان من بين أولويات المؤتمر جلب أكبر عدد ممكن من الأحزاب المعارضة إلى صفوفه، وتحقيق تحالف معها، ولتحقيق هذه الغاية تم الاتصال بـ «حزب الهنجاك»

1- A. F. Miller, Kratkaya Istaria Turksii, Str. 121; Orkun Konak, Jöntürkler ve Prens Sabahaddın;

لوتسكي، المصدر السابق، ص396.

2- “Atatürk Ansiklopedisi”, S.377.

3- Ernest E. Raamsaur, The Young Turks, P.125

في الترجمة العربية ص140-141.

4- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, PP. 191-192.

5- Ibid., P.194; Altan Deliorman, Türklere Karşı Ermeni Komitecileri, S.62.

الأرمني[1] والتباحث معه، إلا أن المحاولة انتهت سلبا بإبداء «الهنجاك» رفضه للتحالف مع «جمعية الاتحاد والترقي» موجها انتقادات شديدة للاتحاديين، في مقدمتها اتباع سياسة إسلامية «رغم عدم وجود أمة إسلامية» حسب تعبير قادة الهنجاك[2]، واشترطوا، لإقامة أي تعاون أو تنسيق مع الاتحاديين، الاعتراف بأرمينيا إقليما مستقلا ضمن الدولة العثمانية، وبضمان الدول الأوربية الكبرى[3]. جرت اتصالات مشابهة مع منظمات بلغارية ويونانية وألبانية بارزة، لم يكن حظها أفضل من تلك التي حصلت مع «الهنجاك»[4].

إن فشل المنظمين في إقناع التنظيمات الثورية القوية للانضمام إلى المؤتمر دفعهم إلى العمل على إشراك جهات غير مهمة لتحقيق التنوع العرقي والديني في المؤتمر، وتضخيم عدد الموقعين على مقرراته، فأُشركت هيئات تحرير أربع صحف، ثلاث منها داشناقية مثلت بالمؤتمر بوصفها منظمات مستقلة، هي كل من هيئة تحرير جريدة «أرمينيا» (Armenia) الصادرة في مرسيليا، وهيئة تحرير الجريدة الثورية «رازمك» (Razmik) الصادرة في البلقان، وهيئة تحرير جريدة «هايرنك» (Hayrenik) الصادرة في الولايات المتحدة الأمريكية[5]. أما هيئة تحرير الجريدة الرابعة، والتي أُريد من خلالها تمثيل العنصر العربي في الدولة العثمانية، فكانت جريدة «الخلافة» الصادرة في لندن باللغتين العربية والتركية[6]. كما

1- «الهنجاك» (Hunchak) تعني الناقوس، تأسس هذا الحزب في العام 1887 من قبل مجموعة من الطلبة الأرمن في جنيف، ويمكن وصفه بحزب البرجوازية الأرمنية الصغيرة. اتخذ من الحرية والوحدة لأرمنيا وإقامة الدولة الأرمنية المستقلة عن طريق الكفاح المسلح شعارا أساسيا له، واتسمت مجمل فعالياته بثورية وعنف كبيرين. الدكتور كمال مظهر أحمد، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ص263،247؛ Kamuran Gürün, Op.Cit., PP.122-124; Sadi Koçaş, Ermeniler ve Türk - Ermeni İlişkileri, İkinci Baskı, Ankara, 1967, S.126-129

سعدي كوجاش، الأرمن والعلاقات التركية الأرمنية، الطبعة الثانية، أنقرة، 1967، ص126-129.

2- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.192.

3- Ibid..

4- Please look at: Ibid., PP.197-200.

5- Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.125.

6- Ibid..

كان هناك وجود صوري لـ «جمعية العهد العثماني» من خلال أحمد جلال الدين باشا، بعد تحوله من الموالين للسلطان عبدالحميد إلى المعارضين له[1]. وتمثيل اسمي لـ «جمعية مصر الإسرائيلية» (Comité Israélite dEgypte) بإرسال رسالتين إلى رئيسها آروام غالانتي من أحمد رضا، أكدت الأولى قبول اشتراك الجمعية في المؤتمر، وأعلنت الثانية نهاية المؤتمر[2].

تبع انتهاء اللجنة الثانوية من التحضيرات، وتهيئة مسودة قرارات تحظى بقبول الجميع، انعقاد مؤتمر لثلاثة أيام ابتداء من 27 كانون الأول 1907، برئاسة مشتركة من القادة الثلاثة أحمد رضا وصباح الدين ومالوميان[3]. واتعاضا بما جرى في مؤتمر 1902، كان هناك إصرار من الجميع على أن لا يكون المؤتمر أكثر من لقاء اجتماعي تجاوز فيه الكل تركيز مناقشاتهم في ماهية القرارات الواجب تبنيها، وتجنبوا إثارة المواضيع التي قد تسبب الخلاف أو تزعج المداولات، مثل تطبيق المادة 61 من مؤتمر برلين، أو طلب تدخل الدول الأجنبية[4]. وأراد الجميع الوصول إلى نتيجة جيدة، وتأمين سير السفينة بكل ربابينها على اختلاف وجهاتهم. وحتى عندما أبدى المقر الداخلي لـ «جمعية الاتحاد والترقي» معارضته للتحالف مع الأرمن، وتشككه في نواياهم إذا ما نجحت الثورة، كان الجواب الكفيل بإقناعهم من المقر الخارجي للجمعية بأن الهدف الوحيد للتحالف هو إسقاط عبدالحميد، وبعد صعود «جمعية الاتحاد والترقي» إلى السلطة سيكون من السهل إقناع «الأرمن والاقليات الأخرى» بالإدارة المختارة[5].

1- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.201; L. Hirszowicz, Op.Cit., P.302.

2- آورام غالانتي، توركلر ويهوديلر تاريخى سياسي تدقيق، استانبول، 1928، ص45-47.

3- “Atatürk Ansiklopedisi”, S.377.

4- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.201;
لوتسكي، المصدر السابق، ص396.

5- “Atatürk Ansiklopedisi”, S.377.

خـلال جلسـات المؤتمـر التي غلـب عليهـا الهـدوء نوعا ما، عـرض كل مـن القادة الثلاثـة بضاعتـه. فأكـد أحمـد رضـا علـى فلسـفته الوضعيـة داعيـا إلـى وجـوب التمسـك بمصالـح «الأكثريـة العظمـى التـي تنشـد حكـم النظـام والتقـدم»[1]. وألقـى صباح الدين خطابـا مفعمـا بمقتطفـات من ديمولان واصفـا أفكاره سـبيلا أمثل لحل كل مشـاكل الدولة العثمانيـة[2]. بينمـا أشـاد مالوميـان بالاشـتراكية منهاجـا وغايـة، ونصـح ببسـط «القوميـة» لـكل «البشـرية»، موضحـا إن ذلـك يسـاعد النـاس علـى تـرك الضغائـن الدينيـة والقومية، ويسـمو بهـم لمرحلـة تعلـو بالإنسـانية[3]. ومـن المشـوق إن أيـا من القـادة لـم يتمكن من إيجـاد إطار عمل مشـترك يجـري ضمنه التقريب بيـن أفكارهم، أو دمـج أهدافهم، مفضلين تجـاوز كل تناقضاتهـم، مـع إبداء شـيء مـن التفهم لأفـكار بعضهـم البعض، ولـم يجمعهم إلا هدف مرحلي تمثل بإزاحة عبدالحميد عن السلطة.

أنهى المؤتمر اجتماعاته في التاسع والعشرين من كانون الأول 1907، وقرر بالإجماع إصدار بيان ختامي بمقرراته، اشتمل على:

1. إرغام السلطان عبدالحميد على التنازل.
2. تغيير الإدارة القائمة جذريا.
3. تأسيس نظام تمثيلي وحكومة دستورية[4].

وشدد البيان على إن هذه الأهداف يجب تنفيذها بأسرع السبل الممكنة، سواء أكانت ثورية أو غير ثورية، مقترحا أشكال المعارضة التي يمكن اتباعها:

1- Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.128

في الترجمة العربية ص143.

2- Ibid., PP.128-129

في الترجمة العربية ص143-144.

3- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.206.

4- "Atatürk Ansiklopedisi", S.378;

ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، الطبعة الثانية، بيروت، 1960، ص107.

1. المقاومة المسلحة لأعمال الحكومة وإجراءاتها.

2. المقاومة السلمية بشكل الإضرابات السياسية والاقتصادية، مثل إضراب الموظفين الحكوميين والشرطة، والإضراب عن العمل.

3. الامتناع عن دفع الضرائب للحكومة القائمة.

4. نشر الدعاية بين صفوف الجيش لكسبهم إلى المعارضة، أو تحريضهم على رفض الزحف ضد الشعب، أو ضد الجماعات الثورية.

5. الثورة العامة إذا اقتضت الضرورة.

6. أساليب العمل الأخرى التي قد تمليها الظروف[1].

وبناءً على اقتراح اللجنة الثانوية تقرر تأسيس لجنة دائمة تتولى تنفيذ قرارات المؤتمر، وتضطلع بالمنهج الجديد للدعاية من خلال كتابة كراسات ومناشدات ثورية باللغات التركية والعربية والكردية والألبانية والأرمنية والبلغارية واليونانية، وتوجيه مطبوعات مشابهة إلى فئات اجتماعية بعينها، يخاطب بها الفلاحون والجنود والضباط والموظفون وكبار المسؤولين في الدولة، النخبة. كما كان على اللجنة الدائمة، أيضا، اتخاذ الإجراءات الضرورية لمعاقبة «الخونة»[2].

في رأس سنة 1908 أقيمت مأدبة كبيرة على شرف المشاركين في المؤتمر، عبر خلالها الجميع عن رضاهم بنتائج المؤتمر، واصفين قراراته بنجاح كبير توج بتحالف قوي بين مختلف عناصر الدولة العثمانية، وقال مالوميان:

1- A. F. Miller, Kratkaya Istoria Turtsii, Str. 121; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.127

في الترجمة العربية ص141-142؛ لوتسكي، المصدر السابق، ص396.

2- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.205.

«إن اللجان الثورية المقدونية كانت منذ وقت طويل متفقة مع الداشناق، وتحالفهم هذا حقيقي ومؤكد، كذلك الحال بالنسبة للألبان ولكياناتهم السياسية، أما فيما يخص الكرد فلسوء الحظ إنهم يفتقرون للكيانات السياسية، لكننا، ومع علاقتنا بالكثير منهم هنا وهناك، لدينا الأمل والرجاء»[1].

هذا الوصف مضلل بالتأكيد، فتحالف المؤتمرين لم يتجاوز الاتفاق النظري بين مجموعة تنظيمات، معظمها بلا حول أو قوة، بما في ذلك عصبة صباح الدين التي كانت تعاني من ضعف أوضاعها إجمالا، وأقوى طرفين في المجموعة كانا «جمعية الاتحاد والترقي» و»حزب داشناق» اللذين اقتصر تعاونهما على بعض النشاطات البسيطة، مثل قيام «الداشناق» بتوزيع «شورى آمت»، وتسهيل تنقل عدد من الاتحاديين في الدولة العثمانية[2]، وإظهار «جمعية الاتحاد والترقي»، من خلال منشوراتها، بعض العطف تجاه معاناة الأرمن وطموحاتهم[3]. ولم يتطور التعاون بينهما إلى نشاط ثوري جماهيري مشترك.

قد لا يكون نجاح المؤتمر أكثر من إعلامي، على أن هذا لا ينفي أنه كان خطوة للأمام حدثت بالتوازي مع خطوات متقدمة أخرى لـ «جمعية الاتحاد والترقي» داخل الدولة العثمانية.

1- Quoted in: Ibid., P.206.

2- Ibid., PP.207-208.

3- Ibid., P.193; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, P.129

في الترجمة العربية ص144.

ثالثا: تطور الأوضاع في الدولة العثمانية ونضـوجهـا باتجـاه الثـورة

مع بداية العام 1908 كثفت «جمعية الاتحاد والترقي» اتصالاتها بالأوساط البلغارية والألبانية واليونانية، وقدمت لها كل الوعود المطلوبة لاستمالتها إلى صفها[1]، وأرسلت عددا من ممثليها البارزين لتنشيط العمل الدعائي في الدولة العثمانية، واستخدمت مادة ثورية غلب عليها التأكيد على «النضال من اجل الحرية وفلاح البلاد، ومن اجل القضاء على الاستبداد حتى إذا اقتضى ذلك التضحية بالنفس»[2]، إلا أن مسعاها الأول واهتمامها الرئيس كان موجها نحو تشكيل قوة ضاربة، واجتذاب الجيش إلى جانبها، خصوصا ضباط الفيلقين الثاني والثالث المتمركزين في مقدونيا[3]. فبدأت «جمعية الاتحاد والترقي» بإصدار كتابات تخاطب العسكريين، من ذلك كتيب أصدره أحمد رضا بعنوان «الواجب والمسؤولية: الجندي» شرح فيه الدور الذي يتعين على الجيش أداءه في الدفاع عن الدولة العثمانية وفي

1- الدكتور هاشم التكريتي، بريطانيا وانتفاضة الشعب الألباني 1910-1911، «المجلة التاريخية» (مجلة)، بغداد، العدد الثاني، 1972، ص158؛

A. F. Miller, Kratkaya Istoria Turtsii, Str.121; http:// coursesa. matrix. msu. edu/ ~fisher/ bosnia/ redings/ poulton1.html, Hugh Poulton and Miranda Vickers, The Kosovo Albanians: Ethnic Confrontation with the Slav State, "in: Muslim Identity and the Balkan State, Ed. Hugh Poulton and Suha Taji-Farouki, NewYork, 1997, PP.139-169".

2- A. F. Miller, Kratkaya Istoria Turtsii, Str.121.

3- Ibid.; J. A. R. Marriott, The Eastern Question. An Historical Study, Fourth Edition, Oxford, 1969, P.434; Lord Eversley, The Turkish Empire from 1288 to 1914, NewYork, 1919, P.347.

تقدمها، مبينا إن هذا الدور تغير وانتقل من الفتح إلى الدفاع عن البلاد، ومن الغزو إلى الوطنية، مشددا على أن الضباط هم أكثر مكونات المجتمع العثماني تأهيلا ووطنية، ومن ثم ينبغي عليهم توجيه الحياة السياسية للدولة، خصوصا في التصدي للاستبداد الحميدي الذي يسير بالبلاد نحو الهاوية، وختم أحمد رضا كتيبه بدعوة النخبة العسكرية إلى تولي واجبها الثوري[1].

لم تواجه الجمعية صعوبة في تجنيد أعداد كبيرة من الضباط، لا سيما من ذوي الرتب الصغيرة بين ملازم ورائد، وأعداد أكبر من المدنيين من أهالي مقدونيا، فخلال شهور قليلة، عقب بداية العام 1908، وصل عدد المنتمين للجمعية خمسة عشر ألفا[2]، بينهم ألفين من الضباط[3]، حرصت الجمعية على تنظيمهم في خلايا صغيرة يتولى الضباط قيادتها، واستخدمت نظام العصابات تكتيكا ثوريا لها، مستفيدة من الأنموذج الذي سبقها إليه البلغار واليونان في مقدونيا[4].

بجهود كبيرة ومتواصلة شكلت الجمعية شبكة واسعة شملت كل مدن مقدونيا، وامتد بعضها إلى بقية المنطقة الأوربية في الدولة العثمانية، وسرعان ما صار فرع موناستير (Monastir)، الذي تولى قيادته طاهر البورصي، الثاني في الأهمية بعد فرع سلانيك، كما برز فرع رسنة (Resna) بإشراف اليوزباشي نيازي بك[5]، وفرع اخريد (Ohrid) بإشراف

1- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص233-234.

2- E. F. Knight, Op.Cit., P.120.

3- http:// maviboncuk. blogstop. com/ 2004/ 05/ mavi- boncuk- great- liberator- of- empire. html., Zafer F. Yoruk, Great Liberator of the Empire or the Man Primarily Responsible for the Ottomans Catastrophic Collapse?.

4- Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralarım, S.21;

يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ص173-174.

5- تشير بعض المصادر إلى أن نيازي في تلك المرحلة كان برتبة بكباشي (رائد). منها مثلا: «الانقلاب العثماني»، «الهلال»، الجزء الثالث، السنة السابع عشرة، 1 كانون الأول 1908، ص168؛

E. F. Knight, Op.Cit., P.160.

البكباشي أيوب صبري، وفرع أسكوب (Üsküb) بإشراف غالب بك، وفرع أخر في أدرنة بإشراف عصمت اينونو، الذي صار فيما بعد رئيسا للجمهورية التركية، وهناك فروع مهمة أخرى في تيرنا، كريسوبوليس (Chrisou`polis)، درما (Drama)، سكوتاري (Scutari)[1]، وفي مدن كثيرة أخرى خولت كلها بالعمل باستقلالية والتحرك ذاتيا بمجرد بدء الأنشطة بالتصاعد[2]. كما واصلت «جمعية الاتحاد والترقي» مساعيها لتأسيس فروع لها في بقية أجزاء الدولة العثمانية، حتى لو كانت صغيرة الحجم ومحدودة العدد، لدعم مركز الجمعية في مقدونيا، المكان المقرر لأي تحرك ثوري، وتضخيم قوتها ومدى انتشارها في عيون السلطات الحكومية[3].

وصولا إلى منتصف العام 1908، كان لـ «جمعية الاتحاد والترقي» صيرورة مختلفة تماما عما كانت عليه في بداية العام، وبمستوى فاق حتى توقعات قادة الجمعية أنفسهم، ووصف بهاء الدين شاكر قوة المنظمة قائلا:

> «لسنا كما كنا سابقا، فنحن نعمل بجدية، والجمعية الحالية أقوى بكثير جدا عما كانت عليه سابقا، منظمتنا صارت على غاية الأهمية، حتى أننا سنستخدم المدفعية إذا ما وجدنا الأمر يستوجب ذلك... كلنا يعمل بقوة، ونضع أرواحنا على أهبة الاستعداد. إننا لا نكتفي بكتابة مقالات وكلمات فارغة تسطرها أقلامنا. متطوعونا الفدائيون يخترقون قرى البلاد، وفرقنا السياسية في تجوال متواصل، قواتنا تزداد وتكبر، وشبكتنا تتسع بمرور الأيام»[4].

1- "Atatürk Ansiklopedisi", S.276; M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.229; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, PP.114-115.
في الترجمة العربية ص132.

2- Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralarım, S.21.

3- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.231.

4- Quoted in: Ibid., P.232.

بموازاة تعاظم النشاط الاتحادي داخل الدولة العثمانية، جاءت الأحداث الخارجية لتعطي زخما إضافيا لتوسيع الجمعية، ولتحرك الأوضاع في الدولة العثمانية باتجاه الثورة. وبادئ ذي بدء إن انتصار اليابان العسكري، في العام 1905، على إمبراطورية القياصرة الروس، أثار في الدولة العثمانية، كما في كل آسيا، فرحة كبيرة، فقد تعرض العدو التقليدي للهوان والهزيمة، ونجحت دولة آسيوية في كبح جماحه، ولم تكن المنتصرة كأي من الدول، بل دولة دستورية، مما أعطى سببا إضافيا للتفاؤل والتشبث بالدستور سبيل قوة ووحدة[1]. وقادت هزيمة روسيا وزعزعة أوتقراطيتها إلى تطور آخر أكثر أهمية هو الثورة الروسية[2]، التي تركت آثارها على كل الحركات المقاومة للاستبداد في المنطقة، لا سيما «جمعية الاتحاد والترقي»، وشكلت حافزا لتطور الأحداث الثورية في الدولة العثمانية، حيث كان للثورة أصداء مبكرة، من ذلك الرسالة التي وجهها عدد من الضباط العثمانيين، في العام 1906، إلى أقرباء الملازم شميدت[3]، أقسموا فيها «بجثمان شميدت الطاهر العزيز

1- حسين لبيب، تاريخ المسألة الشرقية، مصر، 1921، ص94.

2- ثورة برجوازية جاءت نتيجة طبيعية لكل التطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية التي شهدتها روسيا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وما أفرزته كل تلك التطورات من حاجة للتغيير والإصلاح الذي اشتدت المطالبة به لتأخذ مع بداية العام 1905 طابعا ثوريا، فانفجرت مظاهرات وإضرابات واسعة كان نقطة التحول فيها إطلاق الحرس الإمبراطوري النار على مظاهرات سلمية سائرة باتجاه القصر الإمبراطوري، في يوم الأحد الموافق 22 كانون الثاني = 1905، وقتل نحو ألف شخص وجرح عدة آلاف آخرين ليستحق ذلك اليوم اسم «الأحد الدامي» (Bloody Sunday)، واتسعت إثره الإضرابات والمظاهرات شاملة مناطق واسعة من روسيا، انضمت إليها أعداد كبيرة من العمال والطلاب والأطباء والمهندسين والمعلمين وعموم المثقفين، كما انفجرت ثورات فلاحية في معظم أرجاء الريف الروسي. ووصلت قوة الحركة حدا أجبر القيصر الروسي على القيام بتنازلات، فأصدر في 17 تشرين الأول 1905 بيانا منح فيه حرية الصحافة والتعبير عن الرأي وتكوين المنظمات والأحزاب ودعوة الدوما للانعقاد على أن تمثل فيه كل الطبقات وانتخاب أعضائه بأسرع وقت.

Anatole G. Mazour, Russia. Past and Present, U.S.A., 1951, PP.345-367; W. Kirchner, A History of Russia, Fourth Printing, NewYork, 1955, PP.156-161.

3- بيتر بيتروفيتش شميدت (1867-1906) ثوري روسي، أحد قادة انتفاضة بحارة سيواستوبل في البحر الأسود أيام الثورة الروسية، أعتقل ونفذ فيه حكم الموت مع عدد من زملائه.

"Bolshaya Sovetskaya Encyclopedia", Trete Izdania, Vol. XXIX, Moskva, 1978, Str.444.

علينا وعلى الشعب الروسي أن نناضل حتى آخر قطرة من دمائنا من اجل الحقوق المدنية المقدسة التي ضحى عدد غير قليل من أفضل مواطنينا بحياتهم من اجل تحقيقها. ونقسم أيضا بأننا سوف نبذل كل ما في وسعنا، وبجميع السبل، من اجل تعريف شعبنا التركي بأحداث روسيا، ومن اجل أن نحقق بجهدنا المشترك حياة كريمة»[1]. وخلال تلك المرحلة، أيضا، تم في إيران، البلد الجار المسلم، إنشاء نظام حكم دستوري[2]، كان لقادته اتصال بالاتحاديين وتأثير فيهم[3]، ليشكل ذلك التطور برهانا إضافيا على أن أيام النظم الاستبدادية قد صارت معدودة، وإن «جمعية الاتحاد والترقي» تعمل تماما في الاتجاه الصحيح الذي يتحرك به التاريخ.

رافق كل تلك التطورات التدهور الاقتصادي الحاد والسريع في الدولة العثمانية، وأتى شتاء 1906-1907 غاية في القسوة ليزيد الوضع سوءا، بكل ما صاحبته من شحة الفحم وأخشاب التدفئة، وارتفاع في الأسعار، وضعف في المحاصيل الزراعية[4]. وتتواصل الأزمة الاقتصادية وتزداد ضراوة خلال شتاء 1907-1908، لتصل الأسعار، حسب ما أوردته إحدى الصحف المعاصرة، «إلى مستوى لا يحتمل»[5]. ويتسبب ذلك الوضع في

1- Quoted in: A. F. Miller, Kratkaya Istoria Turtsii, Str. 119-120.

2- للتفاصيل حول تلك المرحلة من تاريخ إيران يراجع: يرفند ابراهيمان، إيران بين ثورتين، ترجمة مركز البحوث والمعلومات، عدد 22، بغداد، 1983؛

E. G. Browne, The Persian Revolution of 1905-1909, London, 1966.

3- http: // www. personal. umich. edu/~jrcole/ bhconst. htm, Juan R.I. Cole, Iranian Millenarianism and Democratic Thought in the Nineteenth Century, "International Journal of Middle East Studies", Vol.24, February 1992, PP:1-26; http:// meria. idc. ac.il/ journal/ 2003/ issue 3/ cetinsaya. pdf, Gokhan Cetinsaya, Essential Friends and Natural Enemies: The Historic Roots of Turkish- Iranian Relation, "MERIA: Middle East Review of International Affairs, Vol.7, No.3, September 2003, PP.116-132.

4- «الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة»، «المنار»، الجزء 11، المجلد 11، 24 كانون الأول 1908، ص843-844؛ فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص238.

5- نقلا عن: فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص238.

نشوب تمردات كثيرة خصوصا شرق الاناضول، وفي العام 1906 تتحول مدينة أرضروم إلى مسرح انتفاضة حقيقية شاركت فيها البرجوازية الصغيرة المحلية والضباط والموظفون، مطالبة بإلغاء الضرائب الجديدة وإعادة العمل بالدستور، وتظل المدينة تحت سيطرة الثائرين لعدة أسابيع، ساعدهم رفض الجيش الذي أُرسل لمحاربتهم التحرك ضدهم[1]. ومع أن الانتفاضة انتهت في العام 1907، فقد نشبت في السنة نفسها انتفاضات أخرى، أصغر نطاقا، شرق الاناضول[2]. وفي أواسط العام 1908 احتشدت النسوة في سيواس يطالبن بالخبز، وما لبث التجمع أن تحول إلى انتفاضة[3]. لكن الأكثر أهمية وخطورة من كل تلك الأحداث هو امتداد السخط إلى الجيش، بمختلف تشكيلاته، شاملا كل أرجاء الدولة العثمانية تقريبا. ففي العام 1906 انفجرت انتفاضة بحارة الأسطول العثماني، وخمسة تمردات أخرى بين الجند في أماكن مختلفة[4]. وارتفع عدد التمردات في العام 1907 إلى 13 تمردا، وإلى 28 تمردا في الأشهر الستة الأولى من العام 1908[5]. كل تلك الظروف وما أفرزته من تطورات، عكست انفصال الجماهير عن نظام كان شعبيا في بدايته، وفسرت جزئيا عدم وجود من يدافع عنه، والأكثر أنها أظهرت إن شروط الثورة في الدولة العثمانية بدأت تنضج، والكل صار «يتنفس هواء الثورة»[6].

جاءت التطورات الدبلوماسية لتضيف المزيد إلى الهموم العامة، وتترك أثارها في التوجه نحو الخيار الثوري وتحديد ساعة الانطلاق. فالتقارب الانكلو- روسي، واللقاء بين القيصر الروسي نيقولا الثاني، والملك البريطاني ادوارد السابع في ريفيل (Reval) في

1- المصدر نفسه؛

A. F. Miller, Kratkaya Istoria Turtsii, Str.120.

2- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص238.

3- المصدر نفسه.

4- ل. ن. كتلوف، خصائص وأهمية الحركات الجماهيرية في المشرق العربي، ص174-175؛

A. F. Miller, Kratkaya Istoria Turtsii, Str. 120.

5- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص238.

6- Ahmed Emin Yalman, Turkey in My Time, Norman, 1956, P.17.

حزيران 1908، أدى إلى انتشار المخاوف من احتمال تمزق الدولة العثمانية[1]، زادها قيام الأسطول الروسي بمناورات قرب السواحل العثمانية على البحر الأسود[2]. وصبت الدعاية الألمانية والنمساوية الزيت على النار عندما أكدت أن الحديث الذي دار بين العاهلين كان بالفعل حول تقسيم الدولة العثمانية[3]. وآمن الاتحاديون أنه بات ضروريا الانتقال إلى الفعل من اجل إعادة العمل بالدستور طبعا، لكن الأكثر إلحاحا هو الحيلولة دون تمزيق البلاد، فالقلق على مصير الدولة العثمانية استبد بكل الاتحاديين، ويروي نيازي بك أنه بقي ثلاثة أيام بلياليها لم يستطع النوم إثر سماعه بخبر لقاء ريفال[4].

رافق تلك الأحداث تزايد وطأة الإجراءات الحكومية على «جمعية الاتحاد والترقي»، فتوسع الجمعية السريع في كل الدولة العثمانية، وقوة انتشارها في الأقاليم الأوربية منها تحديدا، جعلت استمرار السرية التامة، التي حاولت الجمعية جاهدة الحفاظ عليها، أمرا مستحيلا حتى في مقدونيا حيث شبكة التجسس أقل فاعلية نسبيا، فأخذت تقارير الجواسيس المشحونة بأخبار الجمعية ترد على يلدز، وبدأت إثرها تحقيقات وإعتقالات ومحاكمات واسعة شكلت تهديدا على الجمعية وفعاليتها، وحتمت الإسراع بالتحرك[5].

1- W. D. David, European Diplomacy in the Near Eastern Question 1906- 1909, The University of Illinois Press, 1940, P.62; Ali Naci, Ya Hürrıyet Ya Ölüm!, İstanbul, 1934, S.76

علي ناجي، إما الحرية وإما الموت، اسطنبول، 1934، ص76؛
Hılmi Kâmil Bayur, Sadrazam Kâmil Paşa- Siyasi Hayatı-, Ankara, 1954, S.240
حلمي كامل بايور، الصدر الأعظم كامل باشا. حياته السياسية، أنقرة، 1954، ص240؛ صلاح محمد نصير وكمال الدين الحناوي، الشرق الأوسط في مهب الريح، الطبعة الثانية، القاهرة، 1951، ص196.

2- الدكتور أحمد عبدالرحيم مصطفى، المصدر السابق، ص266.

3- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص239.

4- «خواطر نيازي»، «الهلال»، الجزء التاسع، المجلد السابع عشر، 1حزيران 1909، ص547.

5- «الانقلاب العثماني وتركيا الفتاة»، «المنار»، الجزء 11، المجلد11، 24كانون الأول 1908، ص855؛ E. F. Knight, Op.Cit., PP.134-135; "Memoirs of Halide Edib", NewYork, 1972, P.255; Feroz Ahmad, The Young Turks, PP.4-5; Samih Nafız Tansu, Madalyonun Tersi, S.42.

في الثالث من تموز بدأ التحرك فعلا بصعود نيازي بك إلى الجبال، بعد أن أخذ معه عددا كبيرا من الأتباع، ومبلغا من المال، وكميات من الأسلحة والعتاد نقلها من مخازن وحدته عند هروبه، وقبل ذلك صدور الموافقة من مقر «جمعية الاتحاد والترقي» على التحرك، ليبدأ بالقرب من موناستير نوع من حرب العصابات ضد السلطات الحكومية إلى أن يتم إجبارها على إعادة العمل بالدستور[1]. وما لبث البكباشي أنور أن حذا حذوه، ليقلدهما ضباط آخرون كثر[2]، فانتشرت الحركة بسرعة كبيرة من وحدة إلى أخرى، ساعدها على ذلك آلية التحرك في الجيش، وما يرافقها من ضبط وربط[3].

حاولت الحكومة السيطرة على الوضع بإرسال شمسي باشا، المعروف بإخلاصه للسلطان عبدالحميد، لتولي قيادة جيش مقدونيا وإخماد الحركة، وجاء رد الاتحاديين قويا

1- «خواطر نيازي»، «الهلال»، الجزء التاسع، المجلد السابع عشر، 1حزيران 1909، ص547؛

"Die Diplomatischen Akten des Auswartigen Amtes 1871-1914", 25. Band, Zweite Halfte, Berlin, 1927, P.559; Yakub Kenan Necefzade, 1908-1918 Sultan İkinci Abdülhamid ve İttihad-Ü- Terakk, İstanbul, 1967, S.44-45

يعقوب كنعان نجف زادة، السلطان عبدالحميد الثاني والاتحاد والترقي1908-1918، اسطنبول،1967، ص44-45؛

Şvket Süreyya Aydemir, Makedonya"dan Ortaasya"ya Enver Paşa, İkinci Cilt 1908- 1914, İstanbul, 1986, S.30-36

شوكت ثريا ايدمير، أنور باشا من مقدونيا إلى آسيا الوسطى،الجزء الثاني1908-1914، اسطنبول،1986، ص30-36.

2- **http:// www. angelfir. com/ rnb/ bashiri/ Enver.html., Iraj Bashiri, Enver Pasha; Laszlo Rasonyı, Tarihte Türklük, Ankara, 1971, S.252**

لاسزلو راسوني، التريك في التاريخ، أنقرة، 1971، ص252؛ أميرة محمد الخربوطلي، المصدر السابق، ص125.

3- **http:// www. marxists.org/ archivel/ trotsky/ works/ 1909/ 1909- turks. htm, Leon Trotsky's, The Young Turks, Translated by Ted Crawford.**

ومعبرا باغتيال القائد المرسل في شوارع موناستير في وضح النهار[1]، مما أدى إلى ازدياد حماس الثوار واتساع نطاق فعالياتهم، فأخذت وحدات الجيش الثالث تتبع إحداها الأخرى بالانضمام إلى الثوار مطالبة بالدستور[2]، وجرى تنفيذ سلسلة من الاغتيالات طالت معظم رجال السلطان ومسانديه في مقدونيا[3]. إلا أن نقطة التحول الحقيقية في الثورة كانت في اختيار 18000 جندي، جرى استقدامهم من الاناضول، الانخراط في صفوف الثوار بدلا من القضاء عليهم[4]، فحتى ذلك الحين كان تمرد الضباط المنتمين إلى «جمعية الاتحاد والترقي» حدثا شبه عادي في مقدونيا الخاضعة منذ سنوات عدة للجماعات الثائرة، لكن انضمام الجنود الاناضوليين قدم دليلا على تأثير فكر الاتحاديين على الجنود، وعلى أن زمام الموقف فلت، بالكامل، من أيدي القصر، وصارت الجمعية صاحبة اليد العليا في مقدونيا، وما من شيء يمكن عمله لقلب تلك الحقيقة، وصار القصر في ذهول، والحكومة عاجزة، والسلطات المحلية غير قادرة على القيام بأي أمر ضد الجمعية.

1- Ali Naci, Ya Hürriyet Ya Ölüm, S.76; http:// www. shsu. edu/ ~his_ncp/ yturks. html, Edwin Pears, An English Account of the Young Turks Revolution (1908), "From his book: Forty Years in Constantinople: The Recollections of Sir Edward Pears 1873-1915, NewYork, 1916"; Ali Canip Yöntem, Selanıkte 10 Temmuz Sebahı, "Yakın Tarihimiz", İstanbul, Cılt2, Sayı 22, Temmuz 1962, S.257

علي جانيب يونتم، صباح العاشر من تموز في سلانيك، «تاريخنا المعاصر»، اسطنبول، المجلد الثاني، العدد22، تموز 1962، ص257.

2- "Die Diplomatischen Akten des Auswartigen Amtes", P.560; Nikshoy C. Chtterji, Muddle of The Middle East, Vol.1, New Delhi, 1973, P.126.

3- "British Documents on the Origins of the War 1898-1914", Ed. G. P. Gooch and Harold Temperley, Vol.V, London, 1928, PP.286-287; "Die Diplomatischen Akten des Auswartigen Amtes", P.568; E. F. Knight, Op.Cit., P.138; Feroz Ahmad, The Young Turks, P.10.

4- "British Documents on the Origins of the War", P.288.

مـا بيـن 20و23 تمـوز عمـت أعمـال العصيـان المدنـي والعسـكري العديـد مـن المـدن «التـي تعالـى صياحهـا يحيـا الوطـن، تحيـا الأمـة، تحيـا الحريـة»[1]، وانهمـر علـى يلـدز سيل مـن البرقيـات المطالبـة بإعـادة العمـل بالدسـتور مـن كل أنحـاء الدولـة العثمانيـة[2]، وهـدد الجيـش بالزحـف علـى اسـطنبول إذا لـم يرضـخ السـلطان[3]، الـذي بـدى محاصـرا مـن كل الاتجاهـات، حتـى أن حرسـه الخـاص قـرر الانحيـاز لجانـب الثـوار[4]، كمـا انسـحب العديـد مـن أعوانـه مـن حولـه[5]. وفـوق كل ذلـك تـم، فـي 23 تمـوز، إعـلان الدسـتور بشـكل عفـوي فـي موناسـتير وفـي عـدة مـدن مقدونيـة أخـرى[6]. وصـدرت أوامـر الجمعيـة بالتحـرك على اسـطنبول فـي 26 تموز إذا اسـتمرت الحكومة في الرفض و المقاومة[7].

1- "Die Diplomatischen Akten des Auswartigen Amtes", P.562.

2- Leon Trotsky's, The Young Turks; Ali Canip Yöntem, Selanikte 10 Temmuiz Sebahı, S.259; C. D. Ussher, An American Physician in Turkey. A Narrative of Adventures in Peace and in War, NewYork, 1917, P.162;
ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، ص108؛ يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، بيروت، 1966، ص152.

3- Samıh Nafız Tansu, Madalyonun Terşi, S.42; E. F. Knight, Op.Cit., PP.20-21; M. P. Price, A History of Turkey from Empire to Republic, London, 1956, P.82; Francis McCullagh, The Fall of Abd-Ul-Hamid, London, 1910, P.164.

4- D. L. Neave, Romance of the Bosphorus, London, PP.159-160; C. D. Ussher, Op.Cit., P.162.

5- عائشة عثمان أوغلي، والدي السلطان عبدالحميد الثاني، ترجمة الدكتور صالح سعداوي صالح، تقديم الدكتور أكمل إحسان أوغلي، الاردن، 1991، ص218-219.

6- «مناستردن مكتوب»، «اقدام» (جريدة)، استانبول، اون بشنجى سنه، نومرو5104، 10 اوكست 1908؛ E. F. Knight, Op.Cit., PP.218-220; Ali Canip Yöntem, Selanikte 10 Temmus Sebahı, S.259; Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P.60; Feroz Ahmad, The Young Turks, P.12.

7- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.273;
محمد رفعت، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، مصر، 1959، ص330.

روّعت كل تلك التطورات السلطان عبدالحميد الذي حاول احتواء الموقف بكل السبل من وعد ووعيد وإغراء وتهديد[1]، ومع تزايد حراجة الوضع قرر الانحناء أمام القوة، والتفاهم مع الثائرين، وفي صبيحة يوم الجمعة، الموافق 24تموز 1908 نشرت الصحف العثمانية الإرادة السلطانية بإعادة العمل بدستور 1876، والدعوة لإجراء انتخابات قريبة، وعقد البرلمان بعد تعطيل دام أكثر من ثلاثين عاما[2].

1- يراجع: «اقدام»، اون بشنجى سنه، نومرو 5122، 28 اوكست 1908؛

E. F. Knight, Op.Cit., PP.195-201.

2- «تبليغات رسمية»، «اقدام»، اون بشنجى سنه، نومرو 5087، 24 تموز 1908؛

Sir Telford Waugh, Turkey Yasterday Today and Tomorrow, London, 1930, P.110; E. Lengyel, Turkey, London, 1970, P.42; A.Mango, Turkey, London, 1968, P.28; Fazıl Nalbandoğlu, Demokrasi ve Rejimler Politikası, Ankara, 1950, S.41

فاضل نالبنداوغلو، الديمقراطية وسياسة الأنظمة، انقرة، 1950، ص41.

رابعا: تبلور بنية الاتحاديين الاجتماعية

إن العديد من ملامح البنية الاجتماعية لـ «جمعية الاتحاد والترقي» ظلت مستمرة منذ التأسيس في العام 1889 وإلى اندلاع الثورة في العام 1908، فمثلا بقي الرجال مهيمنون، حد التفرد تقريبا، في الجمعية، فإلى العام 1908 لم يسجل بين أعضاء الجمعية سوى امرأة واحدة هي أمينة سامي خانم ابنة المؤرخ المعروف جودت باشا[1]، وهو ما كان بالضرورة بتأثير قيم وتقاليد ذاك الزمان والمكان، على أن هذا لا ينفي أنه، وبحكم الظروف عينها كان للمرأة إسهامها المؤثر في نشاط الجمعية، فمكان إقامتها الخاص في المنزل كان له حرمة كبيرة جعلته في منأىً عن تفتيش السلطات الحكومية، الأمر الذي استغله الاتحاديون لإخفاء وثائقهم وأوراقهم الهامة، كما كانت المرأة عنصرا فعالا في إيصال الرسائل والتعليمات بين أعضاء الجمعية، إذ أن حركتها وتنقلاتها قلما كانت تجذب انتباه عيون جواسيس السلطان[2].

كما ظل أعضاء الجمعية، إجمالا، من الشباب، فكان معدل الأعمار السائد بينهم ما بين 29 و38 عاما، عدد قليل منهم فقط كان عمرهم في العام 1908 قد تجاوز الأربعين عاما، لكنهم أيضا كانوا مصرين على أن يكونوا شبابا. الروح الشبابية كانت واضحة على الكل في نشاطهم وتقدميتهم، وفي رفضهم لكل القيم التقليدية السائدة، ورفعهم صوت الحداثة والمطالبة بالتحديث، وحسب تقييم المؤرخ التركي طارق ظفر تونايا فإن الاتحاديين وضعوا الشبابية قيمة عليا فوق كل شيء[3]، وهو ما يظهر واضحا من خلال مذكرات كاظم قرةبكر

1- "Memoirs of Halide Edib", P.255.

2- E. F. Knight, Op.Cit., P.123.

3- Quoted in: Erik Jan Zürcher, The Young Turks.

الذي اختار، مع مجموعة من رفاقه، غداة تأسيسهم لتنظيم سري في العام 1904، عبارة «الجنس الجديد» (Jeune Gens) مصطلحا سريا للتعارف فيما بينهم[1].

وطوال تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي» بقي المسلمون الأغلبية الغالبة فيها، وواصل قادتها استخدام الإسلام أيديولوجية أساسية للتعبئة، وفي حالات كثيرة اتخذوا الجوامع أماكن لدعايتهم[2]، كما اهتموا بإظهار جمعيتهم بصورة المدافع عن المسلمين، وهاجموا كل من حاول تشويه تلك الصورة، فمثلا كتبت صحيفة الاتحاديين المركزية «إن أولئك الذين زعموا أن نشرة جمعية الاتحاد والترقي هي معادية للشريعة لا يفهمون الإسلام»[3]. رغم ذلك كان في صفوف الجمعية بعض المسيحيين، وعدد من اليهود ازداد مع تصاعد نشاط الاتحاديين داخل الدولة العثمانية، لا سيما خلال السنوات 1906-1908، وهو ما ارتبط أساسا بواقع اليهود في الدولة العثمانية، فصحيح أنهم كانوا جزءا من الكومبرادور، واستفادوا، مثل المسيحيين، من الانفتاح على الأسواق الرأسمالية العالمية، وتمتع العديد منهم بنفس الحماية والامتيازات التي تمتع بها التجار الأجانب بحصولهم على «البراءة»، لكن معظمهم كانوا تحت حماية إيطاليا التي جاءت متأخرة على بقية الدول الكبرى، واحتلت موقعا أضعف منها في الدولة العثمانية[4]، الأمر الذي أثر سلبا على وضعهم الاقتصادي قياسا بالتجار المسيحيين المتنعمين بالحماية البريطانية أو الفرنسية، وأدخلهم في منافسة اقتصادية معهم لم يكن لليهود اليد العليا فيها أبدا، وما كان لهم، مع مثل ذلك الوضع وما ترتب عليه من إفرازات، أن ينظروا بعطف تجاه الحركات الثورية للأرمن أو البلغار أو اليونان، وإنما وجدوا فيها تهديدا لمصالحهم، بل ولكل مجتمعهم إذا ما فقدت الدولة

1- Kâzım Karabekir, İttihat ve Terakki Cemiyeti, S.67.

2- تراجع: «تبشير وعبرت»، «عثمانلى»، (جنيف)، ايكنجى سنه، نومرو 29، 1 شباط 1899.

3- «طرفمزدن آجيق مكتوب»، «عثمانلى»، (جنيف)، برنجى سنه، نومرو 11، 1 مايس 1898.

4- Feroz Ahmad, Unionist Relations with the Greek Armenian and Jewish Communities of the Ottoman Empire 1908-1914, "Christians and Jews in the Ottoman Empire. The Functioning of Plural Society", Ed. B. Braude and B. Lewis, Vol.I, London, 1982, P.426.

العثمانية تلك الأراضي[1]، ومن ثم فقد جمعتهم مع الاتحاديين الرغبة في الحفاظ على سلامة الدولة العثمانية ووحدة أراضيها، ووجدوا في «الحكم العثماني أفضل حماية ضد المسيحيين المعادين للسامية»[2].

لم يكن ذلك التغير الوحيد الذي طرأ على «جمعية الاتحاد والترقي»، فقياسا بنواتها الأولى عام 1889 كانت الاختلافات عديدة وهامة، لعل أبرزها زيادة العنصر التركي الذي بات سائدا بين أعضاء الجمعية أفرادا وقيادات مع اقتراب موعد الثورة[3]، رافق ذلك بدايات تبلور الوعي القومي، مما انعكس في مواقف وتصريحات أشخاص بارزين في الجمعية من الأتراك ومن بقية القوميات، فصار عبدالله جودت يتكلم عن الكرد وكردستان تاريخا وواقعا ومستقبلا يطمح له أن يكون[4]، وانخرط إبراهيم تيمو للعمل في اللجان الألبانية المطالبة بالاستقلال، وتبرع لها بالمال، وأعرب عن مشاعره، في إحدى مراسلاته الخاصة، بكتابته «إني أكره الأتراك»، وأضحى يستخدم في كتاباته عبارات تعكس انتماءه القومي وتنم عن اعتزازه به، مثل «الأمة الألبانية النبيلة» و«الألبانيون الشجعان»[5]. وأخذ الموضوع شكلا استعلائيا، وشوفينيا في أحيان كثيرة، عند الأتراك الذين صاروا يرون في العمل تحت إمرة غير الأتراك ما يجرح مشاعرهم، وإن «إصدار صحيفة عبدالرحمن بدرخان كردستان هو

1- http:// coursesa. matrix. msu. Edu/ ~fisher/ hst373/ readings/ ortaayli3. html, Ilbert Ortayli, Ottomanism and Zionism During the Second Constitutional Period 1908-1915, "in: Avigdor Levy (Ed.), The Jews of the Ottoman Empire, PP.527-536".

2- Feroz Ahmed, Unionist Relation with the Greek Armenian and Jewish Communities, P.426; W. F. Weiker, Op.Cit., P.234.

3- Howard M. Sachar, The Emergence of the Middle East: 1914- 1924, U.S.A, 1969, P.12.

4- يراجع: «روزى كورد كوفارى جفاتى 'هيفى'ى قوتابيانى كورد 1913 ئه سته موول»، ئاماده كردن وليكولينهوه عه بدوللا زه نكه نه، بيشه كه د. ئسماعيل شوكر، سليمانى، 2005، زماره 1 و2؛ ومالميسانز، المصدر السابق، ص57-60.

5- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.169.

سخف مزعج»، كما شجبوا صحيفة إسماعيل كمال والمفاهيم القومية الألبانية المطروحة فيها، وكل الصحف المشابهة[1]، ونظروا إلى اقتراح إبراهيم تيمو حول برنامج إصلاحي يهتم بتعليم غير الأتراك للغتهم القومية، باستهزاء وسخرية لا مبرر لهما[2].

اختلاف آخر على نفس الدرجة من الأهمية، إن لم يكن أكثر، هو أن «جمعية الاتحاد والترقي» صارت أكثر تجانسا من الناحية الاجتماعية، فمناضلوا مقدونيا ليسوا بعد طلابا بل رجال ميدان عملي، ولم يعد في الجمعية بشوات في قطيعة مع القصر، أو أشخاص من أصحاب الأملاك والنفوذ، بل أن هؤلاء صاروا هدفا لهجوم الجمعية، واصفة إياهم بـ «الأفراد الصفيقين المقنعين بهيئة أعيان، والذين أضحوا كارثة مروعة لشعبنا... الأغوات اللاإنسانيين، والبكوات عديمي الضمير، والبشوات المزيفين، والمفتيين الأشرار»[3]. واقترابا إلى العام 1908 كان الاتحاديون، إجمالا، من الطبقة البرجوازية الوسطى والدنيا، وانحدر معظمهم من فئات أقل شأنا من الأعيان والأشراف وأثرياء الفلاحين[4]، وعدد غير قليل منهم كان من أصول متواضعة[5]، أتاحت لهم مجانية التعليم واتساع وتطور ميادينه إبان عهد عبدالحميد، الحصول على تعليم حديث ومعارف جديدة تجاوزوا بها من سبقوهم وتفوقوا عليهم، ولم يوفر لهم وضع الدولة العثمانية الاقتصادية فرصة لممارسة نشاط

1- Ibid., P.170.

2- الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص36.

3- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.168.

4- Şerif Mardin, Historical Determinants of Stratification: Social Class and Class Consciousness in Turkey, "Ankara Üniversıtesi Siyasal Bilgiler Fakültesi Dergisi", Ancara, Cılt XXII, No.4, 1967, P.139

«مجلة كلية العلوم السياسية في جامعة انقرة»، انقرة، مجلد 22، عدد 4، 1967.

5- أحد أشهر الشخصيات الاتحادية وهو طلعت باشا، كان من أسرة متواضعة، كان أبوه موظفا بسيطا في إحدى دوائر العدلية، كما كانت أسرة أنور باشا متواضعة نسبيا فأبوه بدأ حياته عاملا أو موظفا في السكك الحديد.

Ziya Şakir, Yakın Tarihin Üç Büyük Adamı, S.3-4; Iraj Bashiri, Op.Cit.; Kemal H. Karpat, Turkey's Politics, P.15.

تجاري أو التوجه إلى المجال الصناعي أو حتى مواصلة حرف ومهن آبائهم، وفضلوا البحث عن الضمان الاقتصادي في الاستخدام لدى الدولة في الخدمة المدنية والعسكرية على السواء، ليشهد كلا الميدانين اتساعا غير مسبوق في تاريخ الدولة العثمانية، وانتج ذلك بيروقراطية عصرية إمتلك أفرادها معرفة جيدة نسبيا بالعلوم والتكنولوجيا الغربيين، لكنهم كانوا عاجزين عن الارتقاء إلى المراتب الوظيفية العليا بسبب السلطان المتوارث الذي حول البيروقراطية القديمة إلى شبه أرستقراطية، فكان بيروقراطيو العصرنة خاضعين لسلطة البيروقراطيين المعتمدين الموثوق بهم والمخلصين ذوي الطراز القديم، وخضع الملاك العسكري المتقدم والمتطور، هو الآخر، لإمرة ضباط غير، متعلمين لكنهم موثوقين سياسيا[1]، وإن أبسط مؤشر لذلك الوضع هو أن ثلثي الخريجين، إلى العام 1900، دخلوا العسكرية أو البيروقراطية المدنية، من بينهم كلهم خمسة أشخاص فقط وصلوا إلى مناصب عليا في الدولة[2].

من الطبيعي أن تتسبب تلك السياسة بانزعاج شديد ازدادت حدته خلال العهد الطويل للسلطان عبدالحميد الذي اطمأنت نفسه إلى اختيار وزرائه وكبار موظفيه من بين أشباه الأميين، مبررا ذلك بقوله: «إنني أدرك بأنني محاط بحفنة من كبار اللصوص، لكنني أفضل الاحتفاظ بهم لأنهم الأكثر إخلاصا لي»[3]، فـ «ما يهم جلالة السلطان وحكومته الموقرة حقا هو ليس القابلية العلمية بل الولاء الذي يظهرونه للسلطان» حسب تعبير أحد الثقاة المقربين للسلطان من عينته المفضلة[4]. وسعى عبدالحميد إلى ربط كبار رجال الدولة به شخصيا، فهو وحده ولي نعمتهم وله فقط تجب الطاعة، وقد ذكر أحد كبار موظفيه نص عبارات السلطان له قبل تعيينه مباشرة:

1- **Şerif Mardin, Historical Determinants of Stratification, PP.139-140; Hasan Kayalı, Op.Cit., PP.49-50;**

فيروز أحمد، المصدر السابق، ص18.

2- **J. S. Szyliowicz, Op.Cit., P.144.**

3- نقلا عن: الدكتور كمال مظهر أحمد، إحدى زوايا تاريخ الصحافة الكردية، ص15.

4- **Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.25.**

«لقد اخترناكم شخصيا... إنكم غير مدينين لأي شخص من ناحية التوصية أو الحماية، ولا لأي وساطة لمنحكم هذا المنصب. لقد حصلتم على الشرف مني أنا، لذا عليكم أن تفهموا أن لا سلطة أعلى من سلطتنا وليس لكم هدف سوى إطاعة أوامري»[1].

شكلت أيديولوجية النظام الحميدي القائمة على فرض الولاء للسلطان فقط، دون الوطن والدولة، واحدة من أهم النقاط التي رفضها الاتحاديون، وأعلنوا على لسان قادتهم أن من بين مطالبهم الأساس منح مناصب ووظائف الدولة كافة على وفق الأسس العلمية المعمول بها في العالم، ووردت مطالب مماثلة من جانب ضباط عسكريين في صحف «جمعية الاتحاد والترقي»[2]. وكان هذا الموضوع محل شكوى متزايدة من عموم الموظفين والضباط ذوي المناصب والرتب الدنيا[3]، ووجدت صدى لها، على الرغم من طبيعة النظام، لدى الباب العالي ومكتب الحربية الملكي اللذين التمسا من السلطان إيقاف منح المناصب والرتب والأوسمة والرواتب الإضافية من دون موافقتهما، وحذرا جميع الموظفين من تقديم طلبات مباشرة إلى القصر وتجاوز الوزراء[4]، لكن تلك الجهود كانت من دون جدوى وانتهت بالفشل، بل أن عبدالحميد الذي لاحظ الحماس الجديد بين مفكري وطالبي التغريب، سعى جاهدا لإطفاء تلك الروح بكل السبل، وتحولت دوافعه المتضادة إلى سبب أساس لتوسع حركة المعارضة ضده، فمن ناحية أراد أن يكون حكمه كفوءا قويا بمعونة بيروقراطية وعسكر محدثين، ومن ناحية أخرى رغب بأن يكون الرمز الوحيد للدولة العثمانية والآمر الناهي فيها[5]. والأسوأ إن أكثر السبل التي اعتمد عليها لفرض سيطرته كان بممارسته

1- Quoted in: Tahsın Paşa, Abdülhamit ve Yıldız Hatıraları, S.6.

2- Ibid., PP.25-26.

3- بمرارة كبيرة يذكر كاظم نعيم، في مذكراته، أنه لم ينل استحقاقه في الترقية والأوسمة، لأنه للحصول عليها «كان ضروريا تقبيل الأيادي وأنا لم أفعل ذلك»

Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralarım, S.24.

4- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.27.

5- Ergun Özbudun, Social Change and Political Participation in Turkey, London, 1974, PP.37-38; A. Mango, Op.Cit., P.31.

التجسس على الجميع، بمن فيهم الخلص من أتباعه، فعمل عبدالحميد على دفع الكل لكتابة التقارير عن الكل، معتبرا ذلك النشاط من الواجبات المنتظمة للموظفين المدنيين والعسكريين على السواء، وحينما اتخذت وزارة البحرية إجراءاتها ضد أحد الموظفين لإرساله تقارير جاسوسية إلى القصر عن شؤون الوزارة، قام السلطان باتخاذ إجراءات ضد الذين عاملوا الموظف على أنه جاسوس، وأخبرهم أن تقديم البلاغات السرية إلى الحاكم هو واجب كل موظف[1].

في ظل تلك السياسة تحولت كتابة التقارير التجسسية إلى شكل من «مواكبة الموضة»[2]، وغدت وسيلة فعالة للحصول على المكافآت والترقيات، بغض النظر عن نوعية المعلومات الواردة في التقارير، واقترابها أو ابتعادها عن الحقيقة، ودائما كان الموشي يتسلم مكافأته حتى لو ثبت كذب معلومات التقرير لحثه على مواصلة الكتابة و»عدم إخفاء الحقيقة عند معرفتها»[3]، وهو ما يبرر وصف أحد الاتحاديين للمرحلة بقوله:

«لم يكن قد بقي للناس في تركيا سوى طريق واحد وهدف واحد وهو جمع الأموال وصرفها على السفاهات. ولكن من اجل الوصول إلى الهدف كان عليك أن تكون رجل القصر المخلص، دون الاهتمام بأبيك وأمك أو اخوتك وأصدقائك أو ضميرك، كان عليك كبت أفكارك وحسك الوطني والإنساني»[4].

1- **M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.25.**

2- كتب اتحادي بارز في تزكيته لقيام هيئة خاصة تشكلت بعد ثورة 1908 بإتلاف معظم التقارير التجسسية: «إن الإصرار على نشر جميع تقارير التجسس سوف يؤدي إلى نتائج غير مرضية، لأن الشخص الذي قدم تقريرا تجسسيا خلال عهد عبدالحميد لم يكن بالضرورة خائنا محضا لأرضه ووطنه، ومن بين هؤلاء عدد كبير من الناس الذين لم يكونوا مدركين لما كانوا يفعلونه، كان الأمر وكأنهم يواكبون الموضة. أما الموظفون ذوي المناصب الصغيرة الذين وجب عليهم تقديم تقارير تجسس، فقد فعلوا ذلك للمحافظة على وظائفهم حتما. زيادة على ذلك كانت نسبة التعرض للنفي خارج البلاد هي 99٪ إذا لم يؤد الموظف تلك المهمة»
Quoted in: Ibid.

3- **“Die Diplomatischen Akten des Auswartigen Amtes”, P.566.**

4- الدكتور كمال مظهر أحمد، إحدى زوايا تاريخ الصحافة الكردية، ص15-16.

كل تلك الأوضاع كانت محل تذمر شديد، وكونت أسبابا كافية لعدد كبير من المدنيين والعسكريين، على السواء، للانخراط في «جمعية الاتحاد والترقي»، وحتى للفئات الدنيا من الموظفين الذين لم يكن معظمهم قد احتك بنفسه بضرر الوشاية، أو عانى إحساس الغبن من تأخر الترقية، فعيشهم في تلك الأجواء كان كفيلا بأن يرنوا بحثا عن أي جهة تعدهم بانتقال لوضع أمنوا أنه لا يمكن أن يكون أسوأ مما هم فيه، وزادت حماسهم اعتبارات أقوى تعلقت بلقمة العيش اليومية من ارتفاع في الأسعار وتدني الأجور وتأخر دفع الرواتب لشهور وسنوات أحيانا في كل مؤسسات الدولة، بما فيها المؤسسة العسكرية، بل أن الأخيرة كانت الأكثر سوءا، وتأخر الرواتب فيها كان الأقوى[1]، كما عانى الجيش العثماني باستمرار من نقص في المؤن والملابس والتجهيزات بسبب النقص الدائم في الأموال وتفشي الاختلاس وانتشار الفساد الإداري[2]، وهو ما تسبب باستياء شديد يفسر، جزئيا، أسباب الرواج الكبير الذي وجدته الجمعية داخل صفوف الجيش ليغدو الطابع الغالب عليها، تقريبا، قبيل الثورة. ثم أن الضباط العثمانيين كانوا على اتصال متزايد بالضباط الأجانب من خلال البعثات العسكرية والقوات الأجنبية الموجودة داخل الدولة العثمانية، وهو ما فتح أمامهم مجالات جديدة وقنوات اتصال مباشرة بالثقافة والفكر الأوربيين، لكنه من جهة أخرى زاد الغصة في صدورهم، وأحسوا بالغضب والخجل عند مقارنتهم حياتهم والحال التي هم عليها مع تلك التي تمتع بها الضباط الأجانب[3]، كما أنهم لمسوا، عن قرب، عجز وتراجع الدولة، التي

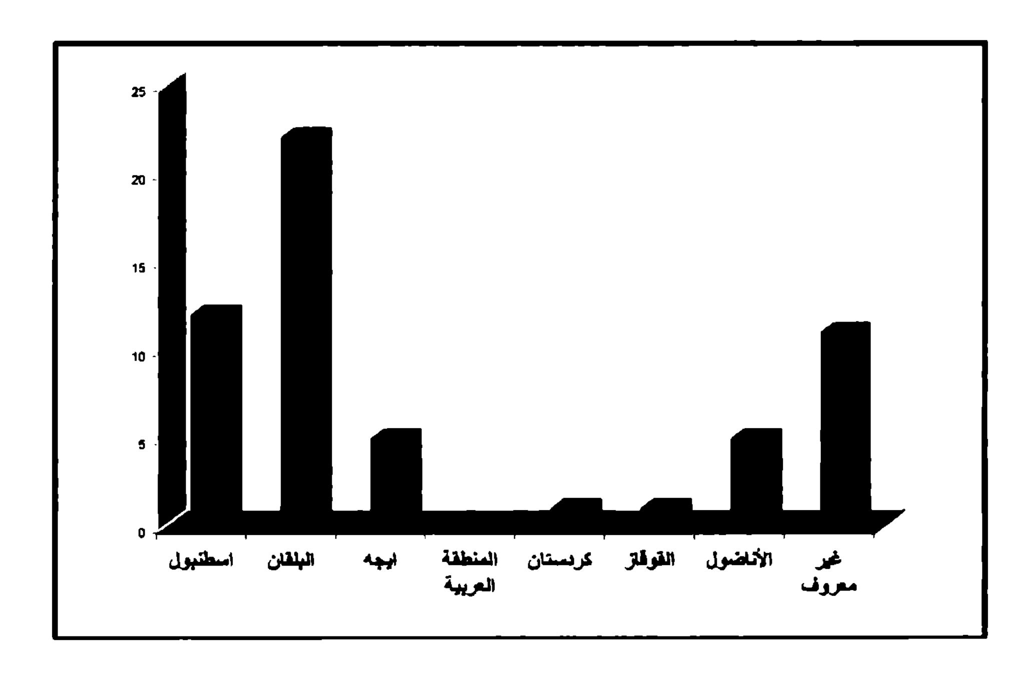
1- يشير مصدر معاصر إلى أن عدا حالات التأخير، كان الواقع الفعلي لاستلام الرواتب في وزارة الحربية كان أربعة أشهر فقط، وفي بعض الأحيان أقل من ذلك، قياسا بثمانية أو تسعة أشهر في السنة لموظفي وزارتي المعارف والعدل، ومرتبات كاملة لكل أشهر السنة في دوائر البريد والتلغراف، ودوائر الدين العام، والبنك الزراعي، والكمارك. «الدولة العلية وماليتها»، «المنار»، المجلد السادس، الجزء الثاني، نيسان 1903، ص71.

2- “Die Diplomatischen Akten des Auswartigen Amtes”, PP.557-558; E. F. Knight, Op.Cit., P.124; http:// www. let. leidenuniv. nl/ tcimo/ tulp/ Research/ Armingzu. htm, Erik Jan Zürcher, The Ottoman Conscription System in Theory and Practice 1844-1918.

3- Richard D. Robinson, Op.Cit., P.8; Ernest E. Ramsaur, The Young Turks, PP.117-118

في الترجمة العربية 134-135.

تعلموا تبجيلها، أمام الدول الأجنبية، والأكثر أمام العثمانيين المسيحيين الذين تدعمهم تلك الدول، وتؤمن لهم مكانا متفوقا على المسلمين، لا سيما اقتصاديا[1]، وهو واقع كان أكثر بروزا، وأقوى تأثيرا في المدن التجارية الكبيرة على حدود الدولة العثمانية، الأمر الذي انعكس جليا على الأصول الإقليمية لأعضاء «جمعية الاتحاد والترقي».



شكل رقم (4)
التوزيع الإقليمي لقادة الاتحاديين خلال المرحلة 1906-1914[2]

إن تتبع الانتماءات الإقليمية لقادة «جمعية الاتحاد والترقي»، قبيل الثورة وخلال السنوات القليلة التي تبعتها، وبالمقارنة مع المرحلة التأسيسية 1889-1896، يُظهر أن

1- **Erik Jan Zürcher, The Young Turks.**

2- مصدر البيانات:Ibid.

Twitter: @ketab_n

حصة المنطقة العربية تلاشت تماما، وانحسر نصيب كردستان إلى ٪7،1، ومثلها كان للقوقاز، كما انخفضت نسبة الأعضاء الذين تعود أصولهم لمنطقة بحر ايجه ٪7،8. بالمقابل صار هناك وجود للأناضول، إذ أن ٪7،8 كانوا منها، كما ارتفع عدد الأعضاء من اسطنبول إلى ٪21، وهو رقم لا بد أن يؤخذ بشيء من الحذر، فكان هناك عدة مبررات دفعت الآباء إلى تسجيل أبنائهم في العاصمة، أهمها أن مواطنيها كانوا معفويين من الخدمة العسكرية المرعبة، كما أنهم كانوا يحظون بامتيازات عديدة أولها، وليس أخرها، العناية الطبية[1]. أما الاتحاديون من البلقان فقد ارتفعت نسبتهم إلى٪6.38 [2].

من الواضح أن منطقة البلقان، ظلت طوال تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي»، منبعا أساسا للاتحاديين، وبقي أبناؤها عنصرا غالبا بينهم، وكان عدد غير قليل منهم من أبناء المهاجرين إلى المنطقة، إذ شهدت مدن عديدة في البلقان توافد أعداد كبيرة من المسلمين، قدموا من الأراضي التي فقدتها الدولة العثمانية، ولم تستطع المدن توفير فرص عمل جيدة لكل القادمين الجدد، واستخدم عدد كبير منهم عمالا غير مهرة عند التجار وأصحاب المزارع الكبيرة من اليونان والبلغار، وانخرط آخرون في صفوف الجيش، بينما حاول بعضهم مواصلة حرف كان واضحا إنها في طريقها للاندثار[3]، معظم أبنائهم، ممن حصلوا على فرصة في التعليم، جزءا من ملاكات الدولة وطالهم ما طالها، والأهم من ذلك إن أصولهم جعلتهم أكثر إدراكا لضعف الدولة وتضعضع وضعها والخطر المهدد لوجودها برمته، وشعروا أن ما حدث من فقدان لأراضي الدولة العثمانية ينبغي أن لا يسمح له بالحدوث مرة ثانية، ويجب الحفاظ على سلامة ووحدة أراضيها بإقامة نظام حكم دستوري قوي، ثم أنهم وبحكم خلفياتهم الاجتماعية وواقع حياتهم وطبيعة بيئتهم بتنوعها العرقي، وتراجع وضع الأتراك الاقتصادي فيها، كانوا اكثر إحساسا بحجم الفجوة بينهم وبين غير

1- Ibid.

2- يراجع الشكل رقم (4).

3- Kemal H. Karpat, Transformation of the Ottoman State, PP.260,274.

المسلمين، وهو ما انعكس في مذكرات عدد من الاتحاديين الذين أبدوا اندهاشهم بترف اليونانيين والأرمن، وكيف أنهم كانوا يحملقون، بكل رهبة، بمحلات إقامتهم على طول الطريق[1].

تجاوز الإحساس بواقع البلقان أبناء الإقليم إلى عدد كبير من الضباط العسكريين الموجودين فيها ضمن قوات الفيلقين الثاني والثالث، حيث وجدت «جمعية الاتحاد والترقي» أرضا خصبة لها، مستعينة بذلك الواقع بقوة مستندة على المخاوف العميقة من السيطرة المسيحية والتدخل الأجنبي، الموجودة بين المسلمين عموما، ولدى الضباط على وجه الخصوص[2]. فالتدخل الأجنبي الذي لم يكن أكثر من مجرد فكرة في العاصمة، ولم يكن يمثل قضية في الأقاليم الآسيوية من الدولة العثمانية، عدا الأقاليم الستة في الأناضول، قد تجسد بالوجود الفعلي للضباط والموظفين الأجانب في مقدونيا، الذين كانوا يساندون المسيحيين الموجدين فيها، ويدعمون كل مطالبهم. وانعكس الاحتكاك المباشر، بكل ما أفرزه من واقع يومي مزعج وقلق وخوف تصاعد بمرور الوقت، في مواقف الضباط الذين قادوا نشاط الاتحاديين، وفي كتاباتهم لتأتي مليئة بتعليقاتهم المعبرة عن امتعاضهم وكراهيتهم للضباط والموظفين الأجانب «المتعجرفين»[3].

1- **Erik Jan Zürcher, The Young Turks.**

2- رغم أن «جمعية الاتحاد والترقي» أكدت، في صحفها المختلفة، على فكرة المساواة بين كل المجموعات الدينية داخل الدولة العثمانية، ركز الاتحاديون بشدة، في دعايتهم الموجهة للمسلمين في مقدونيا، على إنهاء نشاط العصابات المسيحية، وتعزيز القانون والنظام من خلال إعادة فرض قانون الشريعة، ومقاومة تغلغل النفوذ الأجنبي.

http:// web. mit. edu/ cis/ www/ mitemes/, Ryan Gingeras, A Break in the Storm: Reconsidering Sectarian Violence in Ottoman Macedonia during the Young Turks Revolution, "Electronic Journal of Middle East Studies", Vol.3, Spring 2003, P.31.

3- **M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.238.**

في تلك الأجواء تعلم الاتحاديون دروسا عديدة، بعضها إيجابي والآخر سلبي، فمقدونيا، بكل أوضاعها، كونت نوعا من مختبر للفكرة القومية بالنسبة للكثيرين[1]، كما أن مواجهتهم للعصابات المقدونية جعلتهم على معرفة جيدة بأسلوب حرب العصابات، وقدمت لهم معلومات جيدة بهذا الخصوص استفادوا منها في ثورتهم. بالمقابل فإن تصديهم لتلك العصابات شوش في أذهانهم واقع المجتمعات المسيحية في الدولة العثمانية، وأدخل في نفوسهم شكوكا حول ولائها[2].

كان لخلفية الاتحاديين الاجتماعية، والبيئة التي نشأوا فيها أثر مهم في عقليتهم وتكوينهم الفكري، إلى جانب مؤثرات أخرى أبرزها التعليم الحديث الذي تلقوه في حياتهم الدراسية، وقراءاتهم العامة والاحتكاك عن قرب بثقافات العالم الغربي، خصوصا بين الجيل الأول من الاتحاديين خلال فترة بقائهم في أوربا وكل الخبرات والتجارب التي اكتسبوها هناك، فكلها عوامل أسهمت، إلى هذا الحد أو ذاك، في تحديد ملامح طروحات الاتحاديين الفكرية.

1- فرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص235.

2- Erik Jan Zürcher, The Young Turks.

الفصل الخامس:

أفكار الاتحاديين السياسية

أولا: الاتحاديون وتغريب الدولة العثمانية

مع انطلاقة حركة التغريب في الدولة العثمانية انقسم العثمانيون، عموما، والبيروقراطية العثمانية على وجه الخصوص، بحسب الموقف الذي اتخذوه منها بين مؤيد ومعارض وآخر في نقطة وسط بين هذا وذاك. ومنذ البداية كان أنصار التغريب ودعاة الإصلاح يرون في أنفسهم مجموعة مميزة حتى لو لم يكونوا ضمن إطار معين، وهي رؤية ساندها الدبلوماسيون والصحفيون الأجانب بإطلاقهم على كل المجموعة اسم «الشبان الأتراك». وعد الاتحاديون أنفسهم خلفاء تلك المجموعة وورثة الصراع ضد المعارضين للتغريب، وركزوا في منشوراتهم على هذه الصفة فأكبروا إصلاحات محمود الثاني، وجهود رجال التنظيمات البارزين، وثمنوا أفكار ومساعي العثمانيين الجدد في السير على خطى الغرب، وهاجموا كل من عارضهم[1]. وفي مناسبات كثيرة قدم الاتحاديون أنفسهم روادا ليس لتنظيم سياسي بارز فحسب، بل ولحركة أيديولوجية كبيرة، وصوروا أنفسهم «اللسان الناطق للشبان الأتراك»[2]. وتمكنوا، بتلك الصفة، من جذب أنصار التحديث إلى «جمعية الاتحاد والترقي» بغض النظر عن توجهاتهم السياسية، فاعترف العديد من الاتحاديين بأنهم انتموا إلى الجمعية على الرغم من جهلهم بأفكارها، تأثرا بمواقف زعمائها المناصر للتغريب[3].

1- تنظر مثلا: «ميزان»، باريس، برنجي سنه، نومرو15، 12 نيسان 1897؛ «جرأت»، برنجي سنه، نومرو 7، 28شباط 1899؛ «جرأت»، برنجي سنه، نومرو8، 10تموز 1899؛ «عثمانلي»، جنيف، ايكنجي سنه، نومرو 44، 15 أيلول 1899؛ «عثمانلي»، فلكستون، بةنجي سنه، نومرو87، 1تموز 1901؛ «انتقام»، برنجي سنه، عدد24، 14شباط 1901؛ «انتقام»، برنجي سنه، عدد43، 10 أيلول 1901.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.17.

3- Ibid.

من خلال كتاباتهم ومواقفهم برهن الاتحاديون على أنهم مرحلة فاعلة في تاريخ حركة التغريب في الدولة العثمانية وأصحاب الفكر الأكثر راديكالية في هذا الصدد، فقدموا التغريب لا خيارا بل سبيلا للبقاء، وعبروا عن قناعتهم «أما أن نستغرب أو ننتهي»[1]، وأرجعوا كل تطور فكري في الدولة العثمانية إلى الانفتاح على الغرب: «بما أننا أقمنا علاقات مع الحضارة الغربية، فان نهضة فكرية قد حدثت، وقبل هذه العلاقات لم تكن في مجتمعنا أي حياة فكرية»[2]. ولتحقيق نهضة شاملة «إننا ملزمون بأن نتأروب سواء رغبنا بذلك أم لم نرغب»[3].

لقد عد الاتحاديون الغرب الأوربي أفضل ما في العالم، وأبدوا حماسهم للحضارة الغربية جملة وتفصيلا، رافضين أي محاولة لتمييز بعضها عن البعض الآخر، أو تقسيمها إلى جانبين مادي يخص المنجزات العلمية والاختراعات التقنية، وآخر روحي يشتمل على ثقافة وقيم الغرب السياسية والاجتماعية، وانتقدوا جهود العثمانيين السابقة لهم في محاولات أخذ الأول دون الثاني، مشددين على أن محاولات التغريب الانتقائية أو الجزئية والجمع بينها وبين ما موجود في الدولة العثمانية لن يكون كافيا لإنقاذها، وإن من غير المجدي الإبقاء على قيم النظام العثماني القديم ومحاولة أخذ التقنيات الغربية ليس إلا[4]، بل إن تحقيق نهوض حقيقي في الدولة العثمانية يستلزم المزيد من التغريب والاستيعاب السريع للحضارة الغربية التي كانت بالنسبة لهم كلا لا يتجزأ، ولا تنحصر بالإبداعات العلمية الخارقة فقط، ولكن أيضا نمط التفكير المختلف تماما عن كل ما موجود في الشرق، وإن كل الإنجازات التي حققتها الحضارة الغربية ليست إلا إظهارات لأفكار وقيم الغرب ، ومن دون تبني أسس الثقافة والحضارة الغربية لن يكون بالإمكان تحقيق أي تغريب أو إصلاح[5].

فكتب عبدالله جودت، المدافع المتحمس عن التغريب:

1- Quoted in: B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.235-236.

2- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.17.

3- B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.236.

4- Şaban Çalş, Op.Cit., PP.67-68.

5- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.352.

«إن العلاقة بيننا وبين الغرب هي علاقة بين الضعف والقوة، بين الجهل والعلم... الغرب هو معلمنا، محبته هي محبة للعلم والتقدم والرقي المادي والأخلاقي. أن نكون تابعين مجدين وشاكرين للغرب هو قدرنا... ينبغي علينا أن نفهم شيئا واحدا: لا توجد هناك حضارتان، بل حضارة واحدة فقط هي الحضارة الغربية التي يجب أن نتلقفها بوردها وشوكها»[1].

لم يخفِ الاتحاديون إعجابهم الشديد بالغرب كونهم رأوا فيه الضوء الذي يجب على الدولة العثمانية الاهتداء به، والأنموذج الكفيل بتقديم الحلول لكل مشاكلها، وسعوا لأن يكونوا سفراء مخلصين للحضارة الغربية إلى العثمانيين، فشرحوا من خلال الرسائل التي بعثوا بها إلى صحف اسطنبول تجاربهم ومشاهداتهم المعجبة بكل ما هو أوربي سياسة واقتصادا وفكرا ومجتمعا[2]. وحاولوا تقديم الأفكار التي آمنوا بها، والتي سبقهم آخرون في تعريف العثمانيين بها، بشكل جديد وعلى لسان مفكرين غربيين وضمن مقاييس وأطر غربية. فالحرية، مثلا، الفكرة الأكثر سحرا والأقوى جاذبية في نفوس الكل في ذاك الزمان، خصوصا لدى الاتحاديين في ضوء المقارنة الصارخة بين المكانين القادمين منه والناشطين فيه، فأعلن عبدالله جودت أن الديمقراطية تستحق أن يُضحى لأجلها بكل شيء[3]، وإن الإنسان «الذي لا يملك الحرية لقول ما يؤمن به هو إنسان بنصف روح»[4]، وإذا ما انعدمت الحرية سيمتلئ المجتمع بأناس منافقين بوجهين يظهرون غير ما في صدورهم[5]، وتلك «الحكومات التي تمنع حرية الضمير هي حكومات غافلة لا تدرك في أي فساد أخلاقي تعيش»[6]. حاول الاتحاديون تقديم هذه الفكرة باستخدام اقتباسات من مفكرين أوربيين،

1- Quoted in: Ibid., PP.357-358; Şaban Çalş, Op.Cit., P.69.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.18.

3- دوقتور عبدالله جودت، قهريات، طبعه ثانيه، مصر، 1906، ص127.

4- Hilmi Yücebaş, Yedi Şairden Hatıralar, İstanbul, 1960, S.21

حلمي يوزباش، خواطر عن سبعة شعراء، اسطنبول، 1960، ص21.

5- ماليسانز، المصدر السابق، ص90.

6- المصدر نفسه.

فكان عبدالله جودت كثيرا ما يقتبس: «دعهم يقولون ما يريدون قوله، دعهم يلومونك، يدينونك، يسجنونك، دعهم يشنقونك، لكن دائما أعلن عن ما تفكر به»[1]. وسعى مراد الميزانجي إلى غرس فكرة الحرية بتفصيل وتكرار جوانب معينة من تأريخ الثورة الفرنسية[2]. وتكلم اتحادي بارز آخر عن الحرية في الدول المتحضرة، واتخذ بريطانيا أنموذجا له حيث لا يكون اختلاف الرأي أو المعتقد مصدرا للاستخفاف أو الكراهية، وأعطى مثالا أن شخصا مؤمنا بالحياة الآخرة من الممكن أن يكون صديقا لآخر لا يؤمن بها، ويسمع بعضهما البعض حججه وبراهينه، ولا يورث عدم الاقتناع، رغم حساسية الموضوع، إحساسا بالعداوة أو الضغينة، مؤكدا على أن درجة تحضر الأمم تقاس بمدى احترامها لحرية الوجدان (Hürriyet-i Vicdân) وحرية الفكر بوصفهما أثمن ما في الحرية، وموضحا أنه لم يقرأ ذلك في أي من الكتب، بل توصل إليه من تجربته الحياتية عندما عاش في بريطانيا، المكان الذي لا يضايق فيه أي إنسان سواء أكان مسيحيا أو يهوديا أو زرادشتيا أو حتى ملحدا[3].

في تناولهم لفكرة الحرية ركز الاتحاديون، بشكل خاص، على حرية الفكر دون حرية الفرد، وبالنتيجة كان طرحهم لفكرة الحرية وتعاملهم معها مبتورا ومختزلا، وهي صفة امتدت إلى عدة نواح من فكرهم السياسي، فقلما ناقش الاتحاديون أنواع الأنظمة السياسية التي أعجبوا بها، أو التي أرادوها لدولتهم، حتى أن الأمير صباح الدين شبه منشورات الاتحاديين بـ«عويل رجل ملدوغ»[4]. فقد ركز الاتحاديون كثيرا على فكرة الدستور مبرزين

1- هذه الجملة مقتبسة عن الكاتب الفرنسي بول- لويس كورير دي مير (1772-1825). يراجع:
http:// www. bmlisieux. Com/ litterature/ courier/ courie03.htm. Paul- Louis Courier De Mere, Pamphlet Des Pamphlets
بول- لويس كورير دي مير، مقالة المقالات.

2- **Şerif Mardin, Jön Türklerın Siyasi Fikirleri 1895- 1908, İstanbul, 1992, S.81**
شريف ماردين، الأفكار السياسية لتركيا الفتاة 1895-1908، اسطنبول، 1992، ص81.

3- **http:// journals. Cambridge.org/ download.pdf? file= %2FBSo68 -01%2 Fsoo 41977XO 5oooo17a pdf, Necati Alkan, The Eternal Enemy of Islam: Abdullah Cevdet and the Bahai Religion, P.9.**

4- **Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.205.**

أنفسهم دستوريين ودعاة لنظام دستوري، في الوقت الذي لم يكن لديهم تصور واضح عن النظام الدستوري المزمع تنفيذه، وتحولت فكرة الدستور بالنسبة إليهم إلى رمز جميل للحداثة الغربية وركيزة مهمة لتحقيق التغريب[1]، كما اعتقدوا أن وجود الدستور والبرلمان من شأنه أن يساعدهم في التغلب على العديد من المشاكل الداخلية والخارجية للدولة العثمانية. خارج هذا النطاق لم يكن الدستور أو الحكومة التعددية يعنيان لهم شيئا، ولم يحاولوا أن يجدوا صيغة دستورية أو يضعوا أساسا لنظام برلماني، واكتفوا بالتركيز على إعادة العمل بدستور 1876، رغم كل جوانب الخلل فيه، فكثيرا ما عبر أحمد رضا ومريدوه عن قناعتهم بالدستور المذكور بوصفه أداة نافعة في إيقاف تدخل الدول الكبرى في الشؤون الداخلية والخارجية للدولة العثمانية، ووسيلة فعالة لحل المشاكل العرقية داخلها. والحقيقة المعبرة في هذا الصدد أن الكثير من الاتحاديين، بمن فيهم عدد من القادة البارزين في الجمعية كانوا يجهلون كليا محتوى الدستور العثماني، فاعترف الدكتور ناظم مثلا:

> «أردنا في ذلك الحين إعادة الدعوة لدستور مدحت باشا... ما هي الخطوط الأساسية لذلك الدستور... والله لم أشاهد ذلك الدستور أبدا ولم أكن أعلم بمحتواه بتاتا. ولكن عندما كنا شبابا نعمل في باريس اعتقدنا إن أحمد رضا بك قد أطلع عليه وقرأه»[2].

فضلا عن ذلك لم يعط زعماء «جمعية الاتحاد والترقي» تعريفا واضحا للاستبداد الذي تآمروا ضده وركزوا على شجبه وادانته في كتاباتهم[3]، وأهملوا دراسته ضمن سياقات ومضامين سياسية، واهتموا أكثر بالتأكيد على أن المستبدين

1- Ibid., P.31.

2- Quoted in: Ibid., P.32.

3- تراجع مثلا: «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنة، نومرو 1، 1 كانون اول 1897؛ «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو 3، 1 كانون ثاني 1898؛ «عثمانلى»، جنيف، ايكنجى سنه، نومرو 41، 1 حزيران 1899؛ «به به روحى»، برنجى سنه، نومرو 5، 1 تشرين اول 1898؛ «انتقام»، برنجى سنه، عدد 4، 29 تشرين ثاني 1900؛ «استرداد»، برنجى سنه، نومرو 2، 20 كانون ثاني 1901؛ «طوقماق»، برنجى سنه، عدد 3، 1 نيسان 1901؛ دوقتور عبدالله جودت، قهريات، ص28-29.

شكلوا عائقا كبيرا أمام التقدم والتحديث وصاروا أعداء للعلم والمعرفة رغبة منهم في إبقاء رعاياهم جهلاء سهلي الانقياد:

«إن حاكمنا وحكومتنا لا يريدون دخول الضوء إلى بلدنا. إنهم يريدون لكل الشعب أن يبقى جاهلا يعيش في وحل البؤس والتعاسة، فلا يمكن لشعلة اليقظة أن تلتهب في قلوب أبناء امتنا. إن الذي تريده الحكومة هو جعل الناس كما الحيوانات مذعنون كالخراف، يتزلفون ويتذللون كالكلاب. إنها تمنع الناس من سماع أي فكر نبيل صادق. وبدلا من ذلك تقتل الهمة في نفوسهم بتأثير سياط الجندرمة الجاهلين واعتداءات الضباط الوقحين الفظين الظالمين»[1].

وبقي الغرب هو الأنموذج ومعيار المقارنة بين واقع سيئ ونظام مستبد عاشوا تحت ظله، وحياة مشرقة وأنظمة سياسية ليبرالية أملوا أن يصلوا إليها:

«إن الأوربيين يمشون عادة في الشوارع ورأسهم مرفوعة، في حين يمشي الشرقيون ورؤوسهم ترزح تحت ضغط الاستبداد وتنحني حتى تطأ الهامات الأرض، وتكاد تقع»[2].

باهتمام اقل تلمس الاتحاديون في الغرب الحلول لوضع الدولة العثمانية الاقتصادي، واعتقدوا أن تطبيق مبدأ الحرية الاقتصادي، مثلما هو موجود في الغرب، سيقدم «العلاج السحري» لكل المشاكل الاقتصادية للدولة العثمانية[3]، مشددين على دعم وتعزيز وجود طبقة برجوازية في الدولة العثمانية، فـ «أساس الدول المعاصرة هو البرجوازية، والدول الكبرى الحديثة قامت على البرجوازية الصناعية والتجارية والبنكية» كما أكد أحد قادة

1- Quoted in: http:// www. google. Com/ search? H1= ar&9= %22 turkey+ between Two+ world %22 & Ir, S. Kinzer, Crescent and Star. Turkey Between Two Worlds; B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.232.

2- Quoted in: Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.18.

3- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P.333.

«جمعية الاتحاد والترقي»[1]، وبالضرورة لا بد للبرجوازية المزمع خلقها أن لا تكون من الأرمن واليونان، بل من العثمانيين المسلمين، وتحديدا الأتراك فـ «إذا لم يتوصل الأتراك من تلقاء أنفسهم... إلى تكوين طبقة برجوازية رأسمالية فأنه سيكون من الصعب على المجتمع العثماني، المكون فقط من الموظفين والمزارعين، أن يحافظ على بقائه في شكل دولة حديثة»[2].

من ذاك الغرب سعى الاتحاديون لنقل الفكر والثقافة السائدين فيه إلى العثمانيين للتعرف عليها، بل والتشبع بها أيضا، سبيلا ضروريا لمحاكاة الغرب، وآمنوا أن التراكم المعرفي هو العامل الأساس في التغيير، خصوصا تغيير الواقع الذي يجب الخروج منه، وباتجاه هذا الهدف ترجموا الكثير من الكتابات الأوربية من مختلف المجالات، فترجم عبدالله جودت وحده ما يقارب السبعين كتابا في مواضيع تنوعت بين أدب ودين وعلم وفلسفة[3]. كما عبروا عن قناعتهم بأهمية معرفة لغة أجنبية واحدة، على الأقل، إلى جانب التركية، محطة مهمة على طريق الانفتاح على الثقافة الغربية، مفضلين الإنكليزية لأنها تفتح آفاقا أوسع وتتيح المجال للإطلاع على أدب وثقافة أمتين كبيرتين، بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية[4]. لكن الخطوة الأهم في هذا الصدد، على وفق الرؤية الاتحادية، كانت تطوير التعليم في الدولة العثمانية بشكل يتناغم مع ما موجود في الغرب، ويزيد من الارتباط بالحضارة الغربية، ويزيل كل ما يتعارض معها لتحقيق الترقي في الدولة العثمانية وضمان اتحادها، فكتب أحد الاتحاديين:

«في هذا البلد توجد ثلاث طبقات من الناس تختلف عن بعضها البعض حضارة وتعليما: عامة الناس، وأشخاص تعلموا في الكتاتيب، وأناس درسوا في المدارس

1- نقلا عن: الدكتور محمد الناصر النفراوي، المصدر السابق، ص260.

2- نقلا عن: المصدر نفسه، ص262.

3- للإطلاع على نماذج منها يراجع: مالميسانز، المصدر السابق، ص107-112؛

Hilmi Ziya Ülken, Türkiyede Çağdaş Düşünce Tarihi, S.388-392.

4- جلال نورى، تورك انقلابي، استانبول، 1926، ص145؛

Henry E. Allen, Op.Cit., P.22.

العلمانية [الحديثة]. النوع الأول بعيد إلى الآن عن أي آثار للحضارة الشرقية، والثاني لا يزال يعيش في الحضارة الشرقية، المجموعة الثالثة فقط هي التي حظيت ببعض الفائدة من الحضارة الغربية. هذا يعني أن جزءا كبيرا من أمتنا يعيش في العصر القديم، وآخر في الوسيط، وثالث في الحديث. كيف لأمة أن تكون حياتها طبيعية بوجود ثلاثة أنماط من الحياة؟ كيف يمكن لنا أن نكون أمة حقيقية من غير توحيد أشكال التعليم الثلاثة؟»[1].

وأكد اتحادي آخر أن الحاجة كل الحاجة تفرض إتباع النمط الحديث في التعليم مثل الموجود في الغرب[2]، ورشح الأمير صباح الدين نظام المدارس البريطاني لتطبيقه في الدولة العثمانية[3].

كان طرح التغريب الأشد جرأة والأقوى راديكالية فيما خص المجتمع العثماني، إذ أراد الاتحاديون تغريبه في كل شيء، حتى تفاصيل الحياة اليومية من مأكل ومشرب وملبس، حاربوا انتشار الخرافة فيه، ورفضوا كل تقاليده وقيمه البالية، وتوسلوا بالقيم الغربية بديلا عنها، وأكثر ما استوقفهم في التقاليد المرفوضة تلك التي خصت واقع المرأة في المجتمع العثماني، فاستهجنوا الوضع الذي عاشت فيه وكل ما كبلها وحط من شأنها من قيم وتقاليد حتى الدينية منها، فكتب أحمد رضا في رسالة بعث بها لأخته:

«لو كنت امرأة لاخترت الإلحاد على أن أكون مسلمة، ولكنت قلت لأبقى بعيدة عن دين كل قوانينه لصالح الرجال لا لصالح النساء، مثل السماح لزوجي أن يتزوج من ثلاث أخريات غيري، بالإضافة إلى جواري بالعدد الذي يرغب، وفوق هذا تنتظره

1- "Turkish Nationalism and Western Civilization. Selected Essays of Ziya Gökalp", Ed. Niyazi Berkes, NewYourk, 1959, P.278.

2- B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, P.237.

3- http:// www. ksq.harvard.edu/ kokkalis/ GSW %20 %208 %20 Papers/ Fisher Paper. Pdf, Nora Fisher, Contesting Turkey in Europe: Discourses of Inclusion, Exclusion and Co-habitation 1529-1923, PP.14-15.

حور العين في الجنة، أما أنا فأغطي رأسي ووجهي مثل حصان الطحن. إلى جانب هذا لا يسمح لي أن أطلق زوجي الذي يمنعني من نيل أي شكل من المتعة، ويُطلب مني الإذعان لضرباته... إن الأحوال سوف تتغير. على أي حال أما أن نكون قد ولدنا مبكرا جدا أو في بلد سيء الحظ»[1].

وتمنى أحمد رضا لنساء بلاده أن يكن مثل جان دارك[2]، فتساءل في إحدى مقالاته بلغة مزجت بين الشك والأمل «ظهرت في فرنسا فتاة اسمها جان دارك أنقذت وطنها، هل يمكن أن تولد في وطننا امرأة مثلها»[3]. بينما أبدى عبدالله جودت ثقة أكبر بإمكانات المرأة العثمانية، وأملا أقوى بما يمكن أن تكون عليه، فكتب قائلا: «من الجميل أن المرأة، رغم كل ما تعانيه من ضعف واسترقاق، تضحي بحياتها من اجل الحرية والعدالة»[4]. وأكد كثيرا على حرية المرأة وحقها في أن تَنتخِبْ وتُنْتخَبْ، كما عدّ الزواج من أربع نساء «وباء الأسرة»[5]،

1- Quoted in: http:// www. sozler. Com.tr/ symposium/ 3/ white/ sym3_ moke.htm, Mim Kemal Öke, Islamic Knowledge in the Information Age and Bediuzzaman.

2- جان دارك (1412) (Joan of Arc- 1431) فلاحة بسيطة من إحدى القرى الفرنسية ذاع صيتها خلال حرب المائة عام (1337-1453) بين إنكلترا وفرنسا. لم تكن جان دارك مثقفة، لكنها كانت ذكية وفطنة، والأهم أنها امتلكت شعورا وطنيا وقادا، وكانت متدينة جدا، أعلنت أنها تسمع أصواتا سماوية دفعتها للذهاب إلى ملك فرنسا الذي زودها، بدوره، بقوة صغيرة نجحت بها في تحقيق انتصارات غير قليلة على الإنكليز، كان أولها رفع الحصار عن أورليان (Orleans) في العام 1428، وهو ما زاد حماس الجنود الفرنسيين حتى اعتقدوا أنها بُعثت من السماء لنصرتهم. لم تلبث جان دارك أن وقعت بيد الإنكليز في العام 1431، وحكم عليها بالموت حرقا بتهم الهرطقة والسحر والمروق، لتنتهي حياتها وهي بعمر لا يتجاوز التسعة عشر عاما، وكان في ظهورها، وموتها أيضا، أثر كبيرافي بلورة الشعور الوطني الفرنسي. الدكتور عبدالقادر أحمد اليوسف، العصور الوسطى الأوربية، بيروت، 1967، ص264؛ الدكتور جوزيف نسيم يوسف، تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، الإسكندرية، 1984، ص234؛

W. T. Waugh, A History of Europe from 1378 to 1494, Third Edition, London, 1949, PP.71-79.

3- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, S.180.

4- دوقتور عبدالله جودت، قهريات، ص106.

5- مالميسانز، المصدر السابق، ص90.

مشددا على أنه من غير الممكن الوصول إلى مصاف الدول المتحضرة بمسودة الأسرة ذات الأربع نساء[1].

لقد لخص عبدالله جودت، الذي كان يؤكد على أهمية ويسر قراءة تاريخ المستقبل، الكيفية التي تمنى الاتحاديون للدولة العثمانية أن تكون عليها في مقال حمل عنوانا معبرا هو «يقظة نائم» كتب فيه:

«سيكون للسلطان زوجة واحدة، ولن تكون لديه محظيات، سيبعد الأمراء عن الحريم وخدمه وستفتح أمامهم أبواب العلم لينهلوا منها وسيدخلون سلك الجندية، سيلغى لبس الطربوش ويستبدل بغطاء رأس جديد، سيتم توسيع مصانع الألبسة الموجودة وتقام مصانع أخرى جديدة يرتدي نتاجها السلطان والأمراء والنواب والضباط والموظفون والجنود، ستلبس النساء ما يحلو لهن من ثياب، مع المحافظة على الاحتشام وسيتحررن في هذا الموضوع من تدخل وتسلط رجال الدين أو رجال الشرطة أو رعاع الشارع، وسيكن أحرارا في اختيار أزواجهن، ويندثر سماسرة الزواج. الأديرة والتكايا سوف تغلق وتحول عائداتها إلى ميزانية التعليم، كل الكتاتيب سوف تغلق، ويفتح محلها معاهد للتقنيات والآداب الحديثة. وسيحدد ارتداء الزي الديني برجال الدين الحاصلين على شهادة، ويحرم على غيرهم. وسيحظر تقديم النذور والعطايا للأولياء، وتخصص الأموال المجموعة في هذا الباب للدفاع الوطني، وسيمنع الأطباء الدجالون والمشعوذون من ممارسة أعمالهم، وتصبح المعالجة الطبية إلزامية، ستصحح المفاهيم المغلوطة حول الإسلام، ستتولى لجنة من الفلاسفة وعلماء اللغة تنقيح اللغة التركية وقاموسها، سيقوم العثمانيون بمبادرتهم وجهودهم الخاصة ببناء الطرق والجسور والموانئ وسكك الحديد

1- المصدر نفسه، ص100.

والقنـوات والسـفن والمصانـع مـن دون مـا انتظـار لأي شـيء مـن الحكومـة أو الأجانب، ستعدل قوانين الأراضي والأوقاف والنظام التشريعي برمته»[1].

طوال تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي» ظل التحديث الهدف الأسمى للاتحاديين والأمنية الأغلى ، ووجهوا لاجله جل جهدهم الفكري والعلمي، وبذكاء وحكمة عاليين استخدموا الدين أداة فعالة للوصول إليه.

1- **Quoted in: B. Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP. 236-237.**

ثانيا: الدين أداة تحديث

لقد كان الاتحاديون مدركين بأنهم ينتمون إلى دولة إسلامية بالدرجة الأساس، كما كانوا واعين للمكانة التي يحتلها الدين الإسلامي في مجتمعاتهم وحيوية وأهمية دوره فيها، مما انعكس في كتاباتهم بوضوح، فبين احمد رضا في تحليل عقائدي كتبه إن الإسلامية هي مجموعة الفضائل والحقائق التي نادى بها كل رسل الماضي، والدين عند المسلمين لا يعني موضوع تأمل وقاعدة تعبد حسب، ولكنه أيضا واجب إجتماعي، فالملكية والعائلة والحكم والأخلاق وكل ماله علاقة بالحياة العامة يدخل ضمن الدين، وان كل مسلم يخل بواجباته إزاء المجموعة، أو يهمل مؤازرة اخوته في الدين إنما يرتكب إثما «إن ثلثي سكان تركيا ما زالوا مسلمين صادقين ومؤمنين يفون بواجباتهم الدينية، فالدين في الإمبراطورية التركية هو أساس من أسس المجتمع مازال يؤثر تأثيرا بالغا في أقدار الشعوب... ثم إن سلطة الخليفة الدينية على مسلمي العالم بأسره مازالت كبيرة جدا فالخليفة هو نقطة ارتكاز المسلمين، وهو عروة رابطتهم الوثقى. أما الحكم الزمني فليس بإمكانه أن يمتد إلى ما وراء هذه الحياة الأرضية، كما انه ليس بإمكانه أن يحل الوثاق التي تشده إلى هذا العالم، فكيف يمكنه، منفردا، أن يحقق اكتفاء شعب مازال تعلقه بهذا العالم ضعيفا؟ لقد كان جمع السلطة والخلافة في القديم ضروريا لعملية الفتح، وهو اليوم ضروري لدفاعنا عن النفس. وفي هذا الزمان المتأزم خاصة تكتسب وحدة الكلمة قيمة أساسية»[1].

1- نقلا عن: الدكتور محمد ناصر النفزاوي، المصدر السابق، ص174.

انطلاقا من هذه القناعة تجنب الاتحاديون إيذاء مشاعر القارئ العثماني، وسعوا إلى الكتابة بأسلوب ينسجم مع مزاجه وذوقه[1]، ولجأوا إلى استخدام لغة إسلامية كانت واضحة في منشوراتهم ومادتهم الدعائية، فهاجموا السلطان عبدالحميد بوصفه ملحدا ومسيئا للإسلام والخلافة الإسلامية[2]، ووصفوا عهده بأنه أسوأ حقبة في تاريخ الإسلام[3]، وعندما أحسوا إن هجومهم على السلطان عبدالحميد آثار انزعاجا لدى كثير من المسلمين ممن عدوا ذلك إساءة لرمز ديني، عمد الاتحاديون إلى تجريد عبدالحميد من مثل تلك المكانة، والتأكيد انه ليس أهلا لها، وحاولوا تشويه صورة عبدالحميد وتركيز هجومهم عليه بصفته الإنسانية بعيدا عن أي منصب[4]، وفي إحدى دعاياتها المبكرة وصفت قيادات «الاتحاد والترقي» محاكمة تخيلية، لم تكن على شاكلة المحاكم الغربية التي دعوا إلى إنشائها في الدولة العثمانية، وإنما في يوم الحساب، حيث يقوم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدون، والسلاطين العثمانيون المشهورون وكبار رجال الدولة العثمانية بمحاكمة السلطان عبدالحميد الثاني، ويحكمون عليه بالموت وفقا للشريعة الإسلامية[5]. كما شجب الاتحاديون الاستبداد والظلم والاضطهاد باستخدام تعابير إسلامية، ودافعوا عن الحرية والمساواة والعدالة والوحدة والاستقلال الوطني بالأسلوب نفسه[6].

1- Victor Berard, La Mort De Stamboul. Considérations Sur Le Gouvernement des Jeunes- Turcs, Paris, 1913, P. 107.

فكتور بيرارد، موت اسطنبول. اعتبارات بشأن حكومة تركيا الفتاة، باريس، 1913، ص107.

2- ينظر مثلا: «رد المردود»، «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو12، 15 مايس 1898؛ «عبدالحميد بيغمبره عصيانى»، «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو16، 15 تموز 1898؛ «نعوذ بالله»، «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو17، آب 1879؛

BAR. Film No. 86096, Bundesarchiv- Bern, E. 21/ 14249, Bd. 4.

3- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.44.

4- Şerif Mardin, Jön Türklerin siyasi Fikirleri, S. 147.

5- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 200.

6- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P. 307.

والأهم من ذلك هو إن رؤية الاتحاديين وطبيعة فهمهم لواقع مجتمعهم دفعتهم إلى الاقتناع بان الطريقة الوحيدة لغرس التحديث أو التغريب في الدولة العثمانية كانت بتقديمه للجماهير الإسلامية بتعابير دينية، والسبيل الأسلم للتحاور معهم هو استخدام البلاغة الإسلامية، وان الإسلام هو الأداة الأمثل لقولبة «روح المسلم» وتطوير نفسية المسلمين وتغييرها، لا سيما في رؤيتهم للتغريب وتقبلهم له، كتب عبدالله جودت بهذا الصدد قائلا:

«خلال تجاربنا الطويلة أدركنا وأثبتنا أن الروح الإسلامية كانت تؤكد على الانفتاح والتفاعل حال وصولها إلى العالم المسيحي، وبدورنا لا بد لنا من نقل الدم الجديد إلى الوريد الإسلامي، والعمل على إيجاد كل قيم التقدم والتطور في البيئة الإسلامية، وهذا ما يقودنا دائما إلى الحديث عن المسلمين والإسلامية»[1].

ضمن هذا التصور قدم الاتحاديون الكثير من المؤسسات الغربية على إنها ذات أصول إسلامية، وان تطبيقها منسجم تماما مع التعاليم الدينية، فعلى سبيل المثال أكدوا أن النظام الدستوري في حقيقة الأمر نظام أملاه الإسلام، وبأنه يتفق تماما مع تعاليم الدين[2]، لا بل انه إسلامي خالص[3]. وعدوا البرلمان المرحلة الأخيرة لنظام الشورى في المفهوم الإسلامي[4]. وإرسال الفتيات إلى المدارس تطبيقا لأحاديث الرسول الكريم[5]، والتعليم واجب ديني لكل فئات المجتمع: «فإذا بحثنا في الصفات الإلهية نجد أن كل صفة تأمر الإنسان بالنشاط العلمي، وكل صفات الله هي محفز للبحث العلمي» على وفق صياغة أحد ابرز قادة الاتحاديين[6].

1- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 201.

2- «طنين»، استانبول، برنجي سنه، نومرو 33، 20 اغستوس 1334.

3- «اسلاميت وقانون اساسي»، «اقدام»، اون بشنجي سنه، نومرو 5089، 26تموز 1908؛ «جمعية اتحاديه علميه»، «اقدام»، اون بشنجي سنه، نومرو 5107، 13 اب 1908.

4- «عثمانلى»، جنيف، برنجي سنه، نومرو 5، 1 شباط 1898؛
Niyazi Berkrs, The Development of Secularism in Turkey, P.307; Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkler, S. 180.

5- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 201.

6- Şerif Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S. 239.

وكان في اختيار الاتحاديين للعديد من عناوين صحفهم مثل «مشورت» و «آذان» و «حق» و «اجتهاد» مؤشرا بارزا على تحركهم داخل القنوات الإسلامية وعلامة بينة على جهودهم في جذب انتباه المسلمين ونيل رضاهم وإعجابهم.

فضلا عن اقتناع الاتحاديين بأهمية الدين أداة تحديث اجتماعي، أدركوا دوره في قوة تلاحم ووحدة الدولة العثمانية، فالإسلام حسب تأكيد عبدالله جودت «يجمع المسلمين تحت ظلال خيمة واحدة، وطوال قرون ظلت هذه الاخوة قوية، ولم يستطع أي شئ هدم الشعور المشترك الذي يجمعها... وهذه الروح تحافظ على نفسها إلى الآن أمام كل المصائب»[1]، وقد دفعهم هذا إلى أن يكونوا اكثر إصرارا على توظيف الدين في خدمة أهدافهم، واكثر تمسكا باستخدامه في كتاباتهم.

في لغتهم الإسلامية استخدم الاتحاديون النصوص القرآنية والأحاديث النبوية بقدرة عالية، وفي أحيان كثيرة اقتربوا في كتاباتهم من أسلوب السلفيين واتباع محمد عبده وجمال الدين الأفغاني[2]، ودعوا إلى الرجوع بالإسلام إلى نقائه الأول، وتخليصه من كل ما لحق به من شوائب وخرافات[3]. وأكدوا على إن الإسلام في حقيقته يدعو إلى التطور والتقدم، وتصدوا لكل من يقول انه يشكل عائقا أمام تحقيقهما[4].

خلال عرضهم لفكرة الرجوع بالإسلام إلى أصوله ونقائه الأول عمد الاتحاديون إلى الفصل بين الإسلام ومؤسساته، وحملوا الأخيرة العبء الأكبر في مسؤولية تراجع المجتمع الإسلامي وتخلفه، فكتب احمد رضا:

> **«رغم إن العديد من الباحثين المشهورين برزوا من بين العرب في مجالات الهندسة والجبر والفلك والجغرافية والعلوم الطبية إبان زمن الرسول محمد وخلفائه، بعد مرور ألف سنة هبطت أمة محمد إلى المستوى الذي تطلب فيه سجل حساب تسوق بثلاثة**

1- Quoted in: Ibid., P. 231.

2- Necati Alkan, Abdullah Cevdet and the Baha'i Religion, PP.5-6.

3- Ibid., P. 4.

4- Nirazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, P. 308.

> قروش ونصف من موظف مبيعات الخضار. إن ذلك كان نتيجة لحقيقة إن أحاديث الرسول أسيء تفسيرها من الأئمة الجهلاء، لعنهم الله، حينما ادعوا إن استخدام الرسول لمصطلح العلم كان إشارة لقراءة نصوص القرآن لا غير... ولمثل هذه الأسباب لم يقرأ أحد أعمال الباحثين الغربيين... وقد اثر هؤلاء الأوغاد الجبناء في محق الأمة العظيمة وتدميرها... اليوم هبط المسلمون إلى مستوى اليهود. وإذا سُئلت عن رأيي الخاص: من وجهتي النظر التربوية والمعرفية فان المسلمين بالتأكيد هم اقل من مستوى اليهود»[1].

بالمنهج نفسه ودرجة الشدة عينها شن الاتحاديون حربهم على الدراويش والمتصوفة وتكاياهم، فوصفهم أحد الاتحاديين بأنهم «منافقين حاولوا الاستفادة من جهل الشعب وبراءته، وغلفوا نيتهم وأفكارهم بغطاء الزهد والتقوى»[2]، وأشار آخر إلى «أن الأولين اهتموا بتثقيف وبيان الطريق لهم، أما دراويش الوقت الحاضر فهم يقتلون روح العمل والحياة التي تمتلكها الأمة»[3]، وصرحوا أن التكايا صارت وكرا للكسل وأبعدت المجتمع عن الإسلام والقرآن، وعملت على إفساد الأخلاق والأفكار، وان التصوف انحرف عن الطريق الديني وصارت كتب المتصوفة «تنخر الدماغ مثل مصاص الدماء»[4]، وشددوا على أن «عصرنا ليس عصر الطرق»[5].

في تعامل الاتحاديين مع الإسلام كان الدين بالنسبة إليهم الباعث والمثير وليس المخدر للجماهير، وفي مقارنة بين العلم والدين كتب عبدالله جودت «إن الفارق بين العلم والدين هو إن العلم ضوء بلا حرارة، والدين حرارة بلا ضوء»[6]، مضيفا أن العلم في افضل الأحوال لا يتجاوز أن يكون شمسا شتائية لا حرارة فيها تؤدي بالمجتمع إلى الموت بينما الدين يعني

1- Quoted in: Mim Kemal öke, Op. Cit.
2- Quoted in: http: // www. alewiten. Com/ ittihatterakki htm, Baki Öz, İttihatve Terakki ve BektaŞiler.

باقي أوز، الاتحاد والترقي والبكتاشية.

3- Quoted in: Ibid.
4- Ibid.
5- Ibid.
6- Necati Alkan, Abdullah Cevdet and the Baha'i Religion, P. 5.

الحركة[1]، فالدين هو المحرك لا العلم، لكنه على وفق تصورهم يبقى بحاجة للضوء، ومن ثم فقد أكد الاتحاديون أن الدين بالوضع الذي هو عليه لا يمكن له أن يؤدي وظيفته الاجتماعية، وانه من الضروري أن يعدل بما ينسجم وتغيرات المجتمع، فالدين مثل كل شئ يجب إن يتطور، ومثلما كانت هناك حركة إصلاح ديني للديانة المسيحية فالإسلام أيضا بحاجة إلى حركة إصلاح واسعة[2]، ولتحقيق ذلك لابد من ترك التقليد جانبا وفتح باب الاجتهاد على مصراعيه من جديد[3]، وهي المهمة التي يجب أن يتولى القيام بها المسلمون من أصحاب الثقافة الحديثة، فصرح أحد الاتحاديين بأن «الصفوة المسلمة المتنورة» هي التي يجب أن تتكفل بهذا العمل[4]، وقال إسماعيل كمال ان «المسلمين الأذكياء واللامعين يجب أن يقوموا بتنوير الجماهير... وهذه الخدمة للمسلمين لا يمكن الحصول عليها إلا من المسلمين»[5].

ضمن نطاق بحثهم عن سبيل لتعديل الدين الإسلامي وإصلاحه، أبدى عدد من قادة الاتحاديين تحمسهم للبهائية[6] التي كانت قد جذبت انتباه الاتحاديين في مرحلة مبكرة من

1- Ibid., P. 8.

2- Ibid., P. 3.

3- Ibid.; Şerif Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S. 230-231.

4- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 202.

5- Ibid.

6- البهائية: حركة دينية ظهرت في إيران في العقد السادس من القرن التاسع عشر إثر الانقسام الذي حصل بالبابية، تزعمها حسين علي المازندراني (-1817 1892) الملقب (بهاء الله)، ونسبة لهذا اللقب سمي اتباعه، الذين تزايد عددهم سريعا، بالبهائيين، في العام 1853 نفي بهاءالله إلى بغداد، ثم إلى الآستانة، وبعدها إلى عكا، وتمكن من جمع الاتباع والمؤيدين حوله أينما ذهب، كثروا هنا وقلوا هناك. اشتملت عقيدة البهائية جوانب فيها خروج واضح على الدين الإسلامي ومخالفة صريحة لمعتقداته، وتبنوا طقوسا اختلفت عن طقوس الأديان السماوية، فقد ادعت أهدافا جميلة كانت كفيلة بجذب الاتباع إليها، من أهمها: وحدة العالم الإنساني، الدين يجب أن يكون سبب الوحدة والاتفاق، وجوب تطابق الدين مع العلم، المساواة بين الرجال والنساء، محو العصبيات بأنواعها، تأسيس السلم العالمي، تعميم التربية والتعليم، الحل الروحاني للمشكلة الاقتصادية، اتخاذ لغة عالمية. للتفاصيل يراجع: يوسف حسن محمد، الدعوة البهائية في العراق -1863 1977، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بغداد، 1995.

تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي»، فمنذ سنوات التأسيس الأولى كانت المناقشات تجري بين الاتحاديين حول أفكار البهائية، وازدادت متابعة الاتحاديين لكل ما له صلة بها بعد العام 1896 الذي شهد اغتيال العاهل الإيراني ناصرالدين شاه (1848-1896) [1] على يد أحد اتباع جمال الدين الأفغاني المنسوب إلى البهائية خطئا. فذلك الحدث وما تبعه من تغيرات في أوضاع إيران، دفعت عددا من قادة الاتحاديين، أمثال إبراهيم تيمو واحمد رضا وإسحاق سكوتي، إلى مضاعفة اهتمامهم بالبهائية، وبدأوا يرون فيها قوة محفزة ربما تؤدي إلى تغيرات مشابهة في الدولة العثمانية إذا تبناها العثمانيون[2]. وكان عبدالله جودت أكثر الاتحاديين حماسا للبهائية، فحاول تقديمها على أنها نظام أخلاقي جديد يسعى لتحقيق سلم عالمي، عقيدة لا رجال دين فيها، والاهم من ذلك انه لم يجد في البهائية ما يتعارض مع العقل والمنطق، ورأى أن مبادئها تجمع بين الدين والعلم، فالبهائية «ضوء يعطي حرارة» حسب تعبيره، موصيا باعتناق المسلمين إياها[3]، ولم يجد جودت، أو أي من الاتحاديين، حرجا في موقفهم من البهائية لقناعتهم انه «لا يوجد فيها ما يتعارض مع الإسلام الحقيقي» كما جاء على لسان سليمان نظيف[4]، وكان موقفهم منها يصب في الأساس في محاولاتهم لخلق «إسلام تحرري وتقدمي»[5].

على الرغم من تمسكهم بالطرح الديني، وتركيزهم على الدين الإسلامي أداة تحديث فعالة في المجتمع، تعامل الاتحاديون مع الدين ضمن السياق الوضعي، فالدين بوصفه وحي الهي ورسالة سماوية لم يجذب اهتمامهم، وكان لديهم قدر واضح من الشكوك حوله أيضا[6]، وحسب رأي الاتحاديين أن الإنسان مستقل بذاته ولا يتحكم به الله أو أي قوة أخرى، فهو لا يتصرف

1- للتفاصيل حول ظروف الحدث يراجع: علي خضير عباس المشايخي، إيران في عهد ناصرالدين شاه 1848-1896، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب – جامعة بغداد، 1987، ص328-330.

2- Necati Alkan, Abdullah Cevdet and the Baha'i Religion, P. 5.

3- Ibid., PP. 5, 8.

4- http:// turkish- bahai. faithweb. com/ nazif. htm, Necati Alkan, Süleyman Nazif's Nasiruddin Shah ve Babiler: an Ottoman Source on Babi- Baha'i History, with a translation of passages on Tahirih.

5- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 202.

6- Şerif Mardin, Jön Turklerin Siyasi Fikirleri, S. 23, 131, 183.

بدافع مشاعر غامضة، بل إن ما يحركه هو تفكيره وقدراته الذهنية، وحتى عند تصرفه بأسلوب لا عقلاني يبقى يحاول الاقتراب من المقاييس المقبولة اجتماعيا[1]، وآمنوا أن جوهر مهمتهم يكمن في إصلاح وتطوير قدرات الأفراد الذهنية، فعد عبدالله جودت نفسه مصلحا اجتماعيا أو «طبيبا اجتماعيا» على حد تعبيره[2]، وحتى انه عزى لنفسه دورا نبويا في المجتمع: « ليلا ونهارا أناضل لانيركم، أواصل العمل من شروق الشمس حتى طلوع القمر، ومن طلوع القمر إلى بزوغ الشمس، الرسل يعدونكم بالجنة في العالم الآخر، أنا جئت لأجعل من هذا العالم جنة لكم»[3].

مع هذا التوجه ظل الاتحاديون على قناعة تامة بأهمية وحيوية الدين في مجتمعاتهم وضرورة الاستفادة منه[4]، وآمنوا أن الدين مصدر أصيل لاتحاد الناس وتآلفهم ونشر السلام بينهم، و «إن البشرية لا يمكن أن تحيا بدون الدين»[5]. ووصف الاتحاديون الدين بـ« علم العامة»، لكن بالمقابل « العلم هو دين النخبة »[6]. وبقي المجتمع الذي حلم الاتحاديون بإنشائه في الدولة العثمانية مجتمعا يكون الدين فيه مسألة خاصة بالأفراد ويؤلف عاملا ثانويا للمجتمع[7]، وواجهوا تساؤل علماء الدين المعترضين عليهم عن ماهية العوامل المهمة ذات الأولوية في المجتمع بجواب بسيط، كان داخل نطاق أنصارهم «العلم»، وللجماهير «إنه الإسلام، لكنه ليس الإسلام الذي تعرفونه، بل الإسلام الحقيقي»[8].

1- Necati Alkan, Abdullah Cevdet and the Baha'i Religion, P. 3.

2- Şerif Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S. 239.

3- Quoted in: Ibid., S. 221.

4- Şerif Mardin, Ideology and Religion in the Turkish Revolution, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol. 2, No. 3, July 1971, P. 208.

5- Necati Alkan, Abdullah Cevdet and The Baha'i Religion, P. 12.

6- Ibid.

7- Ibid., P. 6; Baki Öz, OP. Cit.; http:// WWW. let. leidenuniv. nt/ tcimo/ tulp/ Reseavch/ ejz 13. htm., Erik- Jon Zürcher, Kemalist Düsüncenin Osmanlı Kaynakları, "in: Modern Türkiye'de Siyasi Düşünce: Kemalizm, Cilt 2, İstanbul, 2001, S. 44- 55"

8- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 203.

ثالثا: تأثير العلوم والنظريات الفلسفية المعاصرة في تفكير الاتحاديين ودورها في هيكلية أفكارهم

على الرغم من أن «جمعية الاتحاد والترقي» عرفت بنشاطها السياسي المعارض، فأن السياسة شغلت حيزا صغيرا من كتاباتهم، ونادرا ما علق القادة على اتجاهاتهم السياسية، كما افتقروا إلى الولاء لأي مذهب سياسي، ومالوا إلى ازدراء «الآراء السياسية النقية»، ولم يكن للسياسة إلا دور ضئيل في جدول أعمالهم الضخم[1]. بالمقابل كون العلم تعريفهم الخاص للحياة، فحسب الفكر الاتحادي «الحياة تتكون من عناصر كيماوية وفيزياوية تتفاعل لتصبح كائنا حيا بالنسخ والتطور»[2]. وباستثناء كتاباتهم الدعائية وجهوا جل نشاطهم للمجالات العلمية، وخلال مرحلة مبكرة من تاريخ الجمعية كان العديد من الأعضاء المؤسسين يكتبون المقالات في الصحف العلمية العامة، فنشر عبدالله جودت، مثلا، دروسا في الكيمياء والأحياء، وكتب قصائد تعالج هذه المواضيع مؤسسا تيارا جديدا في الشعر العثماني[3]، وكتب ابراهيم تيمو في مواضيع مشابهة[4]، في حين وجه شرف الدين مغمومي نقدا حادا للشعراء والعقلية الشعرية زاعما أن «الشعراء ارتكبوا جريمة ضد العلم بربطهم، من خلال قصائدهم، وظائف الدماغ بالقلب»[5]، وكتب حول الموضوع، معبرا عن الأفكار المنتشرة بين الرعيل الأول من أعضاء «جمعية الاتحاد والترقي»، ما نصه:

1- Ibid., P. 208.

2- Mim Kemal Öke, Op. Cit.

3- M. Şükrü Hanioğlo, The Young Turks in Opposition, PP. 18, 20.

- الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص25، 53.

5- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 18.

« ما أمر الكيمياء؟ ما هي الكيمياء؟! هل هناك ما يشبه عمق الإحساس حيال حدث ينتج عنه تكون مواد متنوعة ذات خواص كثيرة عن طريق مزج سائلين لا لون لهما، أو بمراقبة منظر إحدى المواد السامة القوية عند خلط مادتين سامتين أخريتين، أو عند ملاحظة الماء وهو يتجمد ومنظر التوهج فيه؟ هل هناك صورة شعرية أدق من هذه العجائب العلمية والتحولات الكيمائية؟... من المستحيل إجراء فحص دقيق وتفصيلي للشعر الذي خلفه الشعراء القدامى والتوصل إلى مفهوم واضح...، إذا أردنا أن نقول شيئا عن الشعر القديم من ناحية المفاهيم والإدراك، إلى جانب جمالية الأسلوب، لا نستطيع أن نقول اكثر من انه تخبط. انظروا إلى الدواوين التي تملأ رفوف المكتبات رغم خلوها من أي نفع، فمعظمها عن الحب، وبعض منها في الهجاء... لماذا نتمسك الآن بهذه الفكرة؟ أي جانب منها ينسجم مع العقل والعلم؟ إن السبيل الوحيد أمام المرء ليصبح شاعرا يتوقف على قدرته في الكتابة ضمن قافية ووزن وأكاذيب وخرافات. أي فكرة ساذجة تلك!... غالبا ما يقضي الشاعر وقته في النظر إلى الطبيعة وإبداعاتها بدهشة. ويصف جمال شروق الشمس على حديقة، أو على مزرعة مصحوبا بعودة الحيوانات. الجميع يحب ذلك. على أي حال دعونا نتأمل مرضا يصيب الحديقة أو الحيوانات. أيها القارئ اقرأ وصف شاعر لوضع الطرف المتألم. هل نستطيع القيام بأي معالجة؟... مع ذلك فأن الطبيب الجاد، الذي هو بالفعل شاعر حقيقي لا يمضي وقته بالنظر إلى الحدائق والحيوانات والإبداعات والكون بدهشة ويكتب وصفا مليئا بالأكاذيب، كلا، بل بتطبيق المعرفة الدقيقة التي يضعها على ورقة ثمينة فيها بضع اسطر فقط، تعيننا على الخلاص من المرض. وإذا اتبعنا وصفته في هذه الورقة في زمن الوباء فأننا سنحافظ على حياة الحديقة والحيوانات. إن الشعر حديثه وقديمه، كل الشعر، لا يصنع الخبز والملابس للإنسان. إن الشعراء الحقيقيين، أي العلماء، اخترعوا السفن والتلغراف»[1].

1- Quoted in: Ibid., P. 19.

هذا الطرح، مع غرابته وابتعاده عن المنطق من حيث أريد له التعبير عنه، يعطي تصورا عن مدى تأثير العلم على طريقة تفكير الاتحاديين بشكل كون فيه ملمحا بارزا منذ الأيام الأولى في تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي»، ففي نقاشاتهم المبكرة، وهم لم يزالوا بعد طلبة في الكلية، كانوا يشبهون تلاحم وتوحيد قواهم بعملية مزج العناصر في تجارب الكيمياء[1]. وغلب على مناقشاتهم الحديث عن أهمية العلم و دوره الريادي في تطور وتقدم البشرية، والصراع بين الدين والعلم بشكل عكس أزمة الصراع في داخلهم بين موروث ديني اعتادوا تقديسه، ومعارف وعلوم جديدة اكتسبوها شككتهم في كثير من قيم ذاك الموروث واخترقت هالة قدسيته، فكما جاء على لسان أحد قادة الاتحاديين:

« كنت في السنة الثانية من الإعدادية عندما بدأ يضعف تعلقي بالمُثل الدينية. عشت أزمة روحية أليمة، وكنت ابحث فيما حولي عن شئ أتعلق به، أو عن يد منقذة، أو فكرة أو عقل يأخذ بيدي. واحسرتاه، فنحن الشباب الذين كنا ندرس الكوزموغرافيا[2] وعلم حساب المثلثات والميكانيكا ونهجي فولتير وفنلون، وكنا مدفوعين إلى النقد والجدال بهذه الثقة في الذات، بل بهذا الاعتداد الذي تنعم علينا به فترة المراهقة، لم نجد من يلهمنا المثل الديني غير أستاذ يلقننا الكتاب الديني، يحضر مرة كل نصف شهر، إن لم يكن ذلك مرة في الشهر، ويبذل جهده في كل حصة، أو ما يشبه الحصة، في إعادة وبيان البيت:

فلتكن جنديا خاضعا لعبدالحميدخان إذ على المرء طاعته عملا بالقرآن»[3].

مثل تلك الأجواء كانت الأقوى في الأكاديمية الطبية، فقد كانت هذه المؤسسة مسقط رأس الأفكار المادية في الدولة العثمانية على مر عقود قبل أن تنشأ «جمعية الاتحاد والترقي» فيها، هناك تعرف الطلبة على كتابات جديدة عليهم بكل معنى الكلمة هزت كل رصيدهم

1- Ibid., P. 20.

2- الكوزموغرافيا (Cosmography) علم يبحث في مظاهر الكون وتركيبه العام، وهو يشمل علوم الفلك والجغرافيا والجيولوجيا.

3- نقلا عن: الدكتور محمد الناصر النفزاوي، المصدر السابق، ص239.

الفكري، وأثارت في نفوسهم الدهشة والحيرة لما لمسوه من فارق بين الطبيعة والدين[1]. إلى هذه الأكاديمية دخل مؤسسو « جمعية الاتحاد والترقي» وهم ملتزمون دينيا بحكم البيئة والتربية، وكان التدين عند بعضهم حد التطرف، وابرز مثال عبدالله جودت الذي ألف قبل دخوله للكلية الكثير من القصائد الدينية شابهت في بعض جوانبها كتابات المتصوفة[2]، لكنه ما لبث أن تغير في توجهاته وشارك بقية أقرانه بالابتعاد لهذا الحد أو ذاك عن قناعات الصبا الدينية مفضلين استخدام الدين أداة تحريك وتعبئة عوضا عن منطلق إيمان وقناعة وعقيدة، وانجرفوا نحو اعتناق المادية العلمية.

اخذ موقف الاتحاديين من العلم شكلا اكثر عمقا ووضوحا عقب انتقالهم إلى أوربا، فأوربا التي عاش الاتحاديون فيها واستقوا من منابعها فكرا وواقعا سياسيا كانت العالم الذي ترك فشل الثورات فيه أثرا ازداد عمقه بمقدار ما أثارت من آمال، وتعرض التفاؤل الليبرالي لصدمة عنيفة، وحولت الثورة الصناعية وجه أوربا، وانتصرت الوضعية السياسية مع الثورة الصناعية، وتذرع اللبراليون والمحافظون والاشتراكيون بقوة الواقع، ولجأوا إلى العلم لكي يبرروا المواقف الأكثر تعارضا، فباسم العلم أكد فلاسفة أوربا النصف الثاني من القرن التاسع عشر خلود صلاح الليبرالية، وإنها «اشتراكية علمية» تلك التي سعوا إلى إحلالها محل الاشتراكية الطوباوية، وفي العلم بحثوا عن أسس للمناهج السياسية، فـ «العلمية» (Scientism) كانت الجو المسيطر والمناخ الغالب على أوربا تلك المرحلة.

في بحر العلم والعلمية بحث الاتحاديون عن علاج شاف لكل أمراض الدولة العثمانية المتفاقمة، وسبل فعالة لتغيير مجتمعهم، وانجذبوا كثيرا نحو المادية التي احتلت أهمية كبيرة

1- **Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, PP. 116- 118.**

2- كتب، مثلا، في إحدى قصائده:

كل يوم الحب يكبر
ويدخل إلى أعماقي اكثر
هذا الدين بالنسبة لي
الأجمل الأرقى الحقيقي اكثر.

Hilmi Yücebaş, Yedi Şairden Hatıralay, S.5.

بين الأوساط الثقافية الأوربية في ذلك الوقت. وكان ليدويغ بوخنر[1] هو الأقرب بين الفلاسفة الماديين إلى الاتحاديين، فترجموا العديد من كتاباته إلى التركية، وتلقفوا بلهفة ما جاء فيها[2]. وربما كان للخلفية العلمية المتشابهة بعض الأثر في ذلك، فبوخنر كان في الأصل طبيبا، مثل كثير من الاتحاديين وكل الخمسة المؤسسين، تحول إلى الميدان الفلسفي يحدوه الأمل بتغيير واقع مجتمعه[3]، لكن الأهم من ذلك اعتقادهم بأنهم عثروا في مؤلفات بوخنر على نظرية عملية تمكنهم من إحداث نقلة في مجتمعهم، حتى إن أحد الاتحاديين وصف، في مرحلة لاحقة، تأثير قراءة كتابات بوخنر في نفسه بأنه «الوقت الذي عاش فكره فيه بسلام عميق»[4]. كما إنشد الاتحاديون إلى جهود بوخنر في تطوير توجه مادي لدراسة الطبيعة، وتركيزه المنصب على العلم بالدرجة الأساس، وتأكيده على إبعاد أي اثر للدين عنه[5].

بالسير على نهج مادية بوخنر أكد الاتحاديون على أن العلم في المستقبل القريب سوف يكون قادرا على حل كل الأمور الغامضة التي تشغل العقل البشري، مثل الروح وكل الوجود غير المنظور، وعندما يتطور العلم بالقدر الكافي سيكون ممكنا الاكتشاف إن هذه الأمور لا

1- ليدويغ بوخنر(Ludwig Büchner) (1824- 1899)، فيلسوف وفسيولوجي وطبيب ألماني، بدأت اهتماماته العلمية طبية، ثم وسعها لتشمل دراسة الفيزياء والكيمياء وعلم النبات وعلم المعادن وعلم الأمراض والفلسفة. في العام 1855 نشر أول واشهر كتاب له حمل عنوان «القوة والمادة» (Force and Matter)، عارض فيه المذهب المثالي في الميتافيزيقيا بفلسفة مادية متطرفة، وصور العالم على انه حصيلة القوة والمادة، كما إن الفكر نفسه عبارة عن وظيفة لأصل مادي هو المخ. قدم بوخنر مؤلفات أخرى صبت في نفس الخط، اشهرها «الطبيعة والروح»(1875)، و «في خدمة الحقيقة» (1862).
http:// en. Wikieedia. org/ Wiki/ Ludwig_ Buchner, Ludwig Büchner, "Wikipedia. The Encycopedia"; "Bolshaya Sovetskaya Ecyclopedia", Trete Izdanie, T. IV, Moskva, 1971, Str.171.
«الموسوعة السوفيتية الكبرى» (باللغة الروسية)، الطبعة الثالثة، المجلد الرابع، موسكو، 1971، ص171؛ يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1986،ص400.

2- Şerif Mardin, Jön Tuklerin Siyasi Fikirleri, S. 228- 229; Hilmi Yücebaş, Yedi Şairden Hatıralar, S. 7.

3- Şerif Mardin, Jön Tuklerin Siyasi Fikirleri, S. 228-229.

4- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.21.

5- Ibid.

تختلف عن الأشياء العادية الممكن رؤيتها[1]. وباستخدام السبل العلمية أراد الاتحاديون فهم طبيعة وتاريخ المجتمع، وطمحوا إلى اكتشاف قوانين تطوره، وتبنوا التفكير المادي لتحقيق تلك الغاية[2]، ووجهوا نقدا مرا لكل من تجاهل هذا المنهج، فكتب أحد قادة الاتحاديين:

> «إن العامل الأكثر أهمية، والذي قد يكون العامل الوحيد الذي يسمح بفهم المجتمعات، هو العامل الاقتصادي. وهل يوجد في العالم مكان أفضل من مدينة اسطنبول في قدرته على التدليل على صحة هذا الافتراض؟ ومع ذلك فمن الغريب أن الطبقة المثقفة التركية، على الأقل، تبدو مؤمنة بأن ما يسير المجتمعات هو الأفكار لا بل هو الأخلاق. إذ ليس من النادر أن يقرأ المرء في جرائد مملوءة أحداثا اقتصادية محيرة، افتتاحيات كتبت بروح مثالية تاريخية جديرة بفتيات في سن الثامنة عشر. فكتابنا السياسيون لا يدرسون البتة سير التاريخ من وجهة نظر المادية التاريخية المبنية على أسس اقتصادية. ومع ذلك فأنا اشك في أن أفراد طبقتنا المثقفة يجهلون أهمية القضايا الاقتصادية الفائقة عندما يتعلق الأمر بمرتباتهم، أو إنهم لا ينظمون حياتهم اليومية بما يلائم قوانين الاقتصاد»[3].

إلى جانب المادية آمن الاتحاديون كثيرا بالداروينية[4]، فقد عدوها أداة لفهم الواقع، محاولين تطبيق مفاهيمها على نشاطهم وواقع حياتهم، فادعى فرع «جمعية الاتحاد والترقي»

1- http:// www. crvp. org/ book/ series 01/ 1- 6/ chapter- xiv. Htm, Osman Bilen, The Intellectual's Role in Social Change.

2- Erik Jan Zürcher, Kemalist Düşüncenin Osmanlı Kaynakları.

3- نقلا عن: الدكتور محمد الناصر النفزاوي، المصدر السابق، ص261.

4- الداروينية نسبة إلى تشارلس داروين (1809 Charles Darwin-1882)، وهو عالم طبيعي وضع نظرية التطور في كتاب «أصل الأنواع» (1859)، ثم أيدها بكتابه المعنون «تغير الحيوانات والنباتات في حال الدجن» (1868)، وطبق نظريته على الإنسان في كتابه «تسلسل الإنسان والانتخاب الطبيعي» (1871)، وعالج على مقتضاها مسائل نفسية في كتابه «التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوان» (1872). وانتهى داروين إلى أن الأنواع الحالية، على اختلافها، يمكن أن تفسر بأصل واحد، أو ببضعة أصول، نمت وتكاثرت وتنوعت في زمن مديد بمقتضى قانون الانتخاب الطبيعي، أو بقاء الأصلح، وقوانين ثلاثة ثانوية هي قانون الملاءمة بين الحي والبيئة الخارجية، وقانون استعمال الأعضاء، أو عدمه، تحت تأثير البيئة، بحيث تنمو الأعضاء أو تضمر وتظهر أخرى جديدة تبعا للحاجة، وقانون الوراثة القاضي بانتقال الاختلافات المكتسبة إلى الذرية على ما يشاهد في الانتخاب الصناعي. فالنظرية الداروينية آلية تستبعد كل غائية، ولا تدع للكائن الحي قسطا من التلقائية. يوسف كرم، المصدر السابق، ص351-355؛ آلان بالمر، المصدر السابق، ص263.

في مصر أنه إتخذ قراره بتأسيس لجنة جديدة «لأن اللجنة القديمة قد أصبحت قديمة التفكير بفعل قانون التطور»[1]. وبشكل أكثر وضوحا طبق الأمير صباح الدين الداروينية على الحياة الاجتماعية بقوله: «إن قانون النشوء المطبق على الظواهر الطبيعية يرتبط بالظواهر الاجتماعية، ويؤمن التقدم بالاعتماد على الذين كانوا الأصلح والأنجح في محيطهم»، واسترسل معلنا إن من المستحيل تغيير قانون الطبيعة، وإن الأمر الوحيد الذي على الاتحاديين القيام به هو فهم وتطبيق هذا القانون على الأحداث الاجتماعية التي يشاركون فيها[2]. وضمن خط الربط نفسه بين الطبيعة والواقع الاجتماعي كتب أحمد رضا: «رغم أن كل القوى والثروات في العالم تجتمع في بلادنا، فإنها لن تتمكن من تغيير قوانين الطبيعة. فمثلما تخضع الجبال والأنهار لقانون معين، كذلك يتوجب على البشر أيضا الخضوع لقوانين الطبيعة»[3].

إن هذه الفكرة الرامية إلى خلق علاقة بين قوانين الطبيعة وقوانين المجتمع، والتي ظهرت بشكل قوي في أفكار الاتحاديين، كانت واحدة من أعظم الاختلافات بينهم وبين أسلافهم «العثمانيون الجدد»، إذ عدّ الأخيرون بعض المفاهيم، مثل «قانون الطبيعة» (Natural Law) و «الحق الطبيعي» (Natural Right)[4]، مفاهيم مقدسة، بينما لم يعد مثل ذلك التصور موجودا في أذهان الاتحاديين، وكل النخبة الجديدة، وهو ما شكل نقلة كبيرة باتجاه علمنة الفكر في الدولة العثمانية[5].

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.22.

2- Ibid .

3- http:// www. augustecomte. org/ contenu/ fjoints/ 35- fjoint.rtf, “Modernisation de la Turquie et L’Influence du Positivisme (1895- 1908)»

تحديث تركيا وتأثير الوضعية (1895-1908).

4- المفهومان قديمان قدم الفلسفة، ارتبطا مع بعضهما البعض، وتكون الثاني في رحم الأول، فقد نتج عن القول بوجود قانون طبيعي نابع عن طبيعة الإنسان ومن عقله، سابق على كل القوانين الوضعية وأسمى منها، القول بوجود جملة من الحقوق الطبيعية للأفراد، حقوق ملازمة للطبيعة البشرية، ثابتة للإنسان في حالته الفطرية، أي قبل تكون المجتمع ونشوء الدولة. الدكتور محمد سعيد مجذوب، الحريات العامة وحقوق الإنسان، طرابلس، 1986، ص24-25.

5- “Modernisation de la Turquie et L’Influence du Positivisme (1895- 1908)».

من منطلقات داروينية كان هناك ميل بيولوجي واضح بين الاتحاديين، فعرف أحمد رضا المجتمع بأنه «جسد معقد خاضع بشكل كلي لقوانين الطبيعة. وإن هذا الجسد يكون معرضا للأمراض الدورية»[1]. كما شبه أحد مناوئيه إبعاده عن «جمعية الاتحاد والترقي» في العام 1897 بـ «بتر عضو مميت في جسد الجمعية»[2]. الأهم من هذا أن الاتحاديين باستخدام الطرح البيولوجي قدموا عددا كبيرا من مطالبهم، وحاولوا تعزيز العمل الثوري:

> «إن المجتمع يشبه جسم الإنسان، لأن كلا منهما يتكون من خلايا حية مختلفة وكثيرة. ومثل الفرد المريض الذي يحتاج علاجا ليشفى من مرضه، فإن المجتمع بحاجة إلى أخذ علاج ليشفى من أمراضه، وإن أطباءه هم القانونيون والإداريون والسياسيون. وإذا خلا المجتمع من هؤلاء الأطباء، أو تجرأت جماعة من الطغاة رغم وجودهم (الأطباء)، على انتهاك حرمة النظام، وحالفها الحظ في إحراز قوة كبيرة... فإن العلاج لإنقاذ الأمة من مثل هذا المرض الخطير، الذي يؤدي بالتأكيد إلى نتائج خطيرة ومهلكة، هو ثورة الناس المنتهكة حقوقهم ضد ظالميهم. الثورة هي السبيل الوحيد الذي يمكن له أن يداوي الأمة الضعيفة والمريضة»[3].

باستخدام الأسس نفسها، وباعتماد نظرية عن الخصائص الوراثية لثيودول ارماند ريبوت[4]، حاول الاتحاديون الدفاع عن الحريات في المجتمع، وعن حرية وحقوق المرأة

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.208.

2- Quoted in: Idid.

3- «قيام»، «عثمانلى»، جنيف، برنجى سنه، نومرو 5، 1 شباط 1898.

4- ثيودور ارماند ريبوت (1839 Theodul Armand Ribot) (1916–)، عالم نفس فرنسي، وهو أول من دَرّس علم النفس التجريبي بجامعة السربون، إمتاز بتأكيده على الناحية العلمية في التعامل مع علم النفس، فوجّه جل اهتمامه لدراسة تأثير العوامل الطبيعية على الوضع العقلي وتجاهل كل العوامل الروحية وغير المادية، وبإتباعه أسلوب التجربة قدم دلائل كثيرة على أن هناك خصائص لا تورث.
http:// www. answers.com/ topic/ th-odule-ribot, Theodule- Armand Ribot; http://www. bookrags. com/ other/ Psychology/ ribot-thodule-1839-1916-lmem-01/ html, Theodule Ribot (1839-1916), "Psychology Study Guide".

تحديداً، فأكدوا أن التجارب على الحيوانات قد أثبتت أن الذرية المولودة من حيوانات محبوسة لا يمكن أن ترث خواص آبائها العرقية، وبالنتيجة فأن النسل الناتج عن نساء مستعبدات سيؤدي، بمرور الوقت، إلى انحطاط العرق[1]. والأكثر من ذلك انهم استخدموا هذه النظرية في أول وأقوى هجوم على البلاط العثماني، فباستنادهم إلى المقدمات نفسها أشاروا إلى أن الأمراء العثمانيين هم أبناء جواري، وبالتالي فانهم لا يمتلكون صفات آبائهم، بل أن نسل الأسرة العثمانية تراجع حد الانحطاط، ولذلك فأن البلاط الملكي يجب أن يلغى[2].

من الواضح أن الاتحاديين كانوا تحت تأثير الجو الفكري العام لأوربا أواخر القرن التاسع عشر، وانهم تأثروا بتيارات فكرية عديدة تعارضت مع بعضها في جوانب وتشابهت في أخرى، وكانت الوضعية أكثر المدارس الفكرية تأثيرا في الاتحاديين. والجدير بالذكر أن احتكاك الدولة العثمانية بالفلسفة الوضعية سبق تأسيس «جمعية الاتحاد والترقي» بعدة عقود، فقد كتب اوكست كونت بنفسه رسالة طويلة إلى الصدر الأعظم مصطفى رشيد باشا يدعوه فيها إلى إعتناق «المذهب الجديد»[3]، وفي مرحلة لاحقة توجه وفد من كبار الوضعيين، بصورة رسمية، للقاء مدحت باشا، وبإطراء شديد طمأنت رسالتهم الباشا الإصلاحي بأن «الوضعيين يثمنون الأمم من خلال مساهماتها الماضية في الحضارة»[4]. إلا أن جهود التقارب من الوضعيين لم تجد نتيجة ملموسة في تلك المرحلة. وكانت الخطوة الأولى من الجانب العثماني على يد بشير فؤاد (1852-1887) المسمى «العثماني الوضعي الأول»، والذي بدأ دراسته ونشاطه في الميدان العسكري، ثم ما لبث أن تحول إلى الطب وعلم الفسلجة، وحظي بثقافة غربية متعمقة بز بها كل معاصريه، على العكس تماماً من ثقافته الشرقية التي كانت غاية في الضحالة، ومثل معظم الاتحاديين كان بشير فؤاد مؤمنا

1- D.Kandiyoti, Op.Cit.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.19.

3- Please look at: Harun Yahya, Op.Cit.

4- "Modernisation de la Turguie et L'influence du Positivisme".

بالوضعية، وماديا من أنصار بوخنر[1]، امتاز بغزارة نتاجه، فخلال الأربع سنوات الأخيرة من حياته ترجم العديد من المؤلفات الأوربية الشهيرة، وكتب عشرين كتابا ومائتي مقالة في مجالات متنوعة، لاقت أفكارها قبولا واسعا، وكان لها دور ريادي في تعريف العثمانيين بالوضعية[2].

انطوت الوضعية التي تحدث عنها بشير فؤاد في كتاباته على مسائل عديدة أهمها: تُعرف الحقيقة نتيجة التجربة التي تتجسد في عدد من الوشائج بين عقل الإنسان والأشياء، الشئ الذي لايخضع للمشاهدة والتجربة ليس سوى خيال، والميتافيزيقيا أيضا ما هي إلا خيالات وأوهام ظهرت في عصور لم تكن البشرية قد أدركت فيها الحقائق العلمية بعد[3]. في الخامسة والثلاثين من عمره قام بشير فؤاد بالتجربة الأكثر غرابة وجرأة بمقاييس أي زمان ومكان، فقرر الانتحار لإجراء تجربة فسلجية يثبت من خلالها أن الحياة مجرد حادث مادي، فبعد تخديره لذراعه ورقبته تخديراً موضعياً، قطع شرايينه في كلا الموضعين، ودون ما شعر به وقت سيلان الدم من الجسد في رسالة كتبها ساعة وفاته وأعلن فيها انه قدم جسده هبة إلى مدرسة الطب لإجراء التجارب والبحوث الفسلجية عليه[4].

1- يبدو أنه لم يكن هناك فارق يذكر بين المادية والوضعية عند المثقفين العثمانيين في تلك المرحلة، فالمادية، كما فهموها، ترى أن الموجودات ليس إلا المادة، ولا شئ آخر يعلو عليها أو على الطبيعة، بينما ترى الوضعية إن العالم يدرك بالحواس وحدها، وأنه ليس هناك حقيقة قط على شكل كائن أو حادثة موجودة خارج المشاهدة والتجربة، ومن ثم فلا وجود للإلهيات أو الميتافيزيقيا، وبالتالي فأن الأولى، حسب نظرهم، تتجه نحو عالم مادي محض، بينما تدلنا الثانية على المنهج الذي يمكن بواسطته الوصول إلى الحقائق الموجودة في عالم على ذاك النحو. ينظر: الدكتور أورخان اوقاي، الحياة الفكرية في عهد التغريب، ص285-286.

2- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, PP.293-294; “Modernisation de la Turguie et L’lnfluence du Positivisme”; Suraiya Faroqhi, Subjects of the Sultan. Culture and daily life in the Ottoman Empire, London, 2000, P.253.

3- الدكتور اورخان اوقاي، الحياة الفكرية في عهد التغريب، ص287.

4- “Modernisation de la Turguie et L’lnfluence du Positivisme”; Suraiya Faroghi, Op.Cit., P.252.

لقد كان اهتمام بشير فؤاد بالوضعية جزئياً، تركز فقط في الأهمية التي أعطتها الوضعية للعلوم الطبيعية والتطورات التقنية، ومع أن كتاباته أثرت كثيراً على تفكير الاتحاديين وعلى ميلهم باتجاه الوضعية، فإن الموضوع اخذ بعداً أخر تماماً بين صفوفهم، فكانت الوضعية أساسا فكرياً لجمعية الاتحاد والترقي، واصبح احمد رضا، الذي قاد الجمعية بصورة متقطعة منذ العام 1865 وحتى العام 1908، صاحب علاقة فكرية حقيقية مع الفلسفة الوضعية، وشخصا مرموقا بين الوضعيين في العالم[1]، كما أكد عدد كبير من الاتحاديين ان معرفتهم كانت قد تأسست على الفلسفة الوضعية، ومن جانبهم دعم الوضعيون «جمعية الاتحاد والترقي» في حقبة المعارضة وبعد ثورة 1908 على السواء[2].

كانـت هنـاك عـدة أسـباب وراء شـعبية الفلسـفة الوضعيـة بيـن الاتحاديـين، فمثـل غيرهـم وجدوا فيها «فلسـفة علمية» تنسـجم مـع ميولهم العامـة. كما جذبهم إليها شـعارها ودعوتهـا للترقـي الـذي كان هدفـا للاتحاديـين، وظلـوا يتمسـكون بـه جـزءا مـن اسـم جمعيتهـم. وهنـاك سـبب آخر هـو أن الوضعيـة تبنت موقفـا معارضـا للسياسـات الأوربية تجـاه الدولـة العثمانيـة، وابتعـدت عـن الآراء الأوربيـة الخاصة بالمسـألة الشـرقية، ووجد الاتحاديـون فـي أفـكار الوضعيـة طرحـا معاديـا لطريقـة فهـم الباحثيـن والدبلوماسـيين الغربييـن للمسـألة الشـرقية، اسـتفادوا منه فـي مواجهتهـم للسياسـات الأجنبية فـي الدولة العثمانيـة[3]. كمـا أن الفلسـفة الوضعيـة أغنـت الاتحاديـين بالوسـائل النظريـة لرفـض اتهامـات الأوربييـن بخصـوص الصفـة الدونيـة والبربريـة التـي يطلقهـا الأوربيـون علـى الأتـراك[4]، وهـو ما برز بشـكل واضح فـي كتابات أحمد رضا[5] الذي اسـتفاد من الفلسـفة

1- “Modernisation de la Turguie et L’lnfluence du Positivisme”.

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.203.

3- Ibid., P.205.

4- “Modernisation de la Turguie et L’lnfluence du Positivisme”.

5- يراجع: أحمد رضا بك، الخيبة الأدبية للسياسة الغربية في الشرق، ترجمة محمد بورقيبة ومحمد الصادق الزمرلي، تقديم محمد العروسي المطوي، الطبعة الثانية، تونس، 1977، ص24، 47-49.

الوضعيـة أيضـا فـي إضفـاء الشـرعية علـى أفـكاره القوميـة[1]. الأهـم مـن هـذا وقبلـه كله اقتنـاع الاتحاديـين، خصوصـا أحمد رضا، بأن المسـلم إذا تحلى بــ «ثقافـة علمانية قوية»، بإمكانـه أن يصبـح وضعيـا ببسـاطة[2]، فلـم يبـدو الإسـلام للاتحاديـين عائقـا أمـام الفلسـفة الوضعية، بـل كان مـن السـهل، كمـا برهـن أحمـد رضا، الادعـاء بوجـود عناصر مشـتركة بين الإسـلام والوضعيـة[3]. ويبـدو أن أحمـد رضـا قـد تأثـر بموقـف الفلسـفة الوضعيـة مـن الدين المتسـاهل، نسـبيا، إذ أنها لا تنكـر دوره في المجتمع، بـل اعتقد كونت أن الأفـكار تعبئ البشـر، وأوصـى بأخذ المعتقـدات الدينية بمنظار الجدية، وسـاعدت هذه الرؤيـة المتسـامحة تجاه الدين الاتحاديـين علـى عـدم التعـارض مـع قناعـات مجتمعهم، ولعـل هـذا يفسـر موقـف الاتحاديـين الرافـض للماركسـية، التي كانـت تحتل مكانـة هامة فـي ذاك العصـر، وكان الاتحاديـون علـى معرفـة جيـدة بهـا، وذلـك بسـبب تصلبهـا تجـاه الديـن[4]، علاوة علـى أن الاتحاديـين كانوا تحت تأثيـر الفكر البرجوازي المؤمـن بالفردية والرافض للشيوعية[5].

يبقى السبب الرئيس وراء كل المكانة التي حظيت بها الوضعية بين صفوف الاتحاديين متمثلا بالنظام السياسي الذي وضع أسسه اوكست كونت مستندا إلى مفهومي القوة والسلطة، فقد شد هذا الاتحاديين واثر بهم كثيرا، وهو ما يظهر من خلال الإطار النظري الذي تمسكت به «مشورت»، وكما أوضح البير فوا، الذي كان مساعدا في تحرير «مشورت» ثم اتخذ موقفا

1- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.205.

2- "Modernisation de la Turguie et L'Influence du Positivisme"; Erik Jan Zürcher, Kemalıst Düşüncenın Osmanlı Kaynakları.

3- http:// www.ifea- istanbul. net/ noire/ gerit. pdf., E. Kabakçt, Ahmed Riza Bey Interprete du Positivisme

أ. كباكجت، أحمد رضا ممثل الوضعية.

4- "Modernisation de la Turguie et L'Influence du Positivisme"; Osman Bilen, Op.Cit.

5- مالميسانز، المصدر السابق، ص90.

معارضا من أحمد رضا، فان النظام السياسي الذي قدمته الجريدة كان مأخوذا من نظرية كونت، وتبرز السلطة أحد أهم مبادئه، مضيفا بان النظام الذي روجت له هو حكومة ملكية مع برلمان تنحصر مهمته في تحقيق توازنها[1]. ومن خلال مقالات أحمد رضا تتأكد ملامح التطلع إلى دولة مركزية ذات طابع استبدادي، فعلى سبيل المثال، بعد أن عرض مقترحاته بشأن إعادة الدستور، كتب قائلا:

«من جانب آخر فأن الأحداث على مر الأيام، وخلال مدة طويلة، تجعلنا نلاحظ بأن المجتمع ليس بوسعه التماسك، مع الأسف! إلا عبر إمبراطورية قوية»[2].

ويبدو التوجه الاستبدادي أكثر وضوحا في أفكار أحمد رضا من رأيه في الإنسان:

«إن كل الذين درسوا الطبيعة البشرية يعتقدون أن الإنسان هو حيوان أناني وكسول، يبحث عن إرضاء رغباته من خلال السبل الأكثر سهولة، وإن السرقة تكون أفضلها إذا لم يمنعه عن ذلك اله، أو رجل شرطة»[3].

إن صورة الإنسان التي وصفها أحمد رضا تمثل تعبيرا عن التشاؤم والحذر الذي ظهر في أوربا بشأن الديموقراطية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي أثر كثيرا في الاتحاديين إبان سنوات إقامتهم فيها، فبدأوا، بصورة صريحة، الدفاع عن الفكرة المنطوية على ضرورة إعطاء إدارة الدولة للنخبة. ومنذ المرحلة المبكرة لنشاط الاتحاديين في المنفى كانت الصفة الدائمة التي سادت منشوراتهم هي احتقار الجماهير[4]، وتوسلوا بنظرية النخبة منهاجا أنسب لتفسير التركيب الاجتماعي في الدولة العثمانية والتعامل معه، وحلا امثلا لأي

1- "Modernisation de la Turguie et L'Influence du Positivisme".

2- Quoted in: Ibid.

3- Quoted in: Ibid.

4- Please look at: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.206.

معضلة اجتماعية فيها. وعلى كثرة مناهلهم فإن الاتحاديين استقوا نظرية النخبة من كتابات غوستاف ليبون[1]، خصوصا كتابه «سيكولوجية الحشود» الذي وصفه أحد المؤرخين بـ «الكتاب المقدس لدى مختصي علم الاجتماع الأتراك»[2]. فبين صفوف كل الاتحاديين، وعلى اختلاف توجهاتهم، كانت أفكار ليبون ترد، باستمرار وإصرار، ضمن كتاباتهم ومنشوراتهم، وترجموا معظم كتبه للتركية لفهم أفضل لها، إذ شارك معظم الاتحاديين عبدالله جودت في وجهة نظره بأن أولئك الذين رغبوا بأن يكونوا أطباء اجتماعيين للأمة، يجب أن يكونوا ملمين بأفكار ليبون، وأن أي محاولة بهذا الصدد من دون فهم تلك الأفكار هو أشبه بممارسة الطب دون معرفة علم التشريح والفسلجة[3]. وشخصت الجريدة المركزية للاتحاديين، في إحدى المرات، مواطن الضعف في الحركة بأنها كانت «نتيجة الجهل بسيكولوجية الحشود، ولعدم مقدرة الأعضاء على معرفة أعدائهم على

1- غوستاف ليبون (Gustave LeBoon) (1841-1931) عالم نفسي واجتماعي فرنسي، له مؤلفات كثيرة في علم الإنسان، وعلم الآثار، والتفوق العرقي أيضا، لكن شهرته جاءت من كتاباته في ميدان علم النفس الاجتماعي ودراسته للخصائص النفسية للجماهير، والنظرية التي قدمها في هذا المجال عن سيكولوجية الحشود. يذهب ليبون في نظريته إلى أن الحشد ليس مجرد جمع من الناس، وإنما جمع يفترض فيه وجود حالة عقلية معينة، ويختلف الحشد بخصائصه، حسبما يعتقد ليبون، عن خصائص أعضائه، إذ يتميز رجل الحشد بسرعة التصديق، والاندفاع في التفكير الذي يخلو من التعرف على المساوئ والمزايا، والتعصب وروح السيطرة. ويعتقد ليبون إن الحشد صورة حية للجنون الجمعي= الذي يتملك الجماعة غير المنظمة، ويكون المستوى العقلي والخلقي لأعضاء الحشد مساويا لمستوى أدنى الأعضاء، وتنعدم الفردية ولا يشعر الفرد بحاجة إلى الأخلاق، حيث يفقد الفرد شخصيته وهويته. للتفاصيل يراجع: الدكتورة فوزية العطية، المدخل إلى دراسة علم النفس الاجتماعي، بغداد، 1992، ص108-111؛ محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعي. دراسات عربية وعالمية، الجزء الأول، الطبعة الرابعة، بيروت، 1984، ص98؛

http:// www. bartleby. com/ 65/ le/ LeBon- Gu. html, Gustave LeBon, "The Columbia Encyclopedia, Sixth Edition, 2001-05".

2- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.22.

3- Şerıf Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S.239.

وفــق ذلــك»[1]. بالمقابــل، حســبما رجــح أحــد الاتحاديــن، فــإن ســبب نجــاح عبدالحميد بربط جموع كبيرة من العثمانيين به هو معرفته لطبيعة نفسيتهم[2].

إن لغة ليبون البسيطة، ومبادئه المعقولة والمقبولة، والطبيعة العلمية الملموسة لعمله، كلها جعلت الاتحاديين يقتنعون به، بل ويفتتنون به أيضا. وجاء جانب كبير من شعبيته نتيجة أبحاثه في فراسة الدماغ التي صنفت عناصر المجتمع كافة حسب هرم التفوق الفسلجي. وقد ترجمت أبحاث ليبون عن محال القبعات في باريس، إلى اللغة التركية وقدمت بوصفها أساسا لفهم المشكلات الاجتماعية، وفيها أجرى ليبون بحثا عن العلاقة بين حجم القبعة، وبالتالي حجم الجمجمة، وطبيعة عمل الشخص، وادعى في خلاصة بحثه أن الخدم يمتلكون المعدل الأدنى فيما يخص حجم الجمجمة، وان لدى المفكرين توسعات في الدماغ اكبر من تلك التي عند غيرهم[3]. وقد عدّ عبدالله جودت، الذي كان يشاطر ليبون تفكيره بان الجهد العلمي يمكن أن يزيد من حجم دماغ الفرد، إن نوبات الصداع الشديدة التي كان يعاني منها خلال السنوات التي قضاها في الإعدادية العسكرية يُعد دليلاً على أن دماغه كان في حالة اتساع، وحسب ما قال «إن العيش في مجتمع يمتلك أفراده أدمغة اثقل وزنا من المعدل هو قوة طبيعية ومناسبة لضمان تقدم ذلك المجتمع»[4].

صارت كراهية ليبون للثورات، والثورة الفرنسية على وجه الخصوص، موضوعا جوهريا عند الاتحاديين، وتبنوا رؤيته بأن «الجماهير» في تحركها «مليئة بالأخطاء الطبيعية»[5]، ووجه الاتحاديون، من خلال كتاباتهم، نقدا مرا للجماهير، وألقوا اللوم عليهم لأنهم لم يثمنوا جهود الذين حاولوا تغيير الأوضاع[6]، ووصفوا الجماهير بأنهم «عديمي

1- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.206.

2- Şerıf Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S.147.

3- Mim Kemal Öke, Op.Cit.

4- Quoted in: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.23.

5- Ibid., P.206; Şerif Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S.147.

6- «عثمانلى»، جنيف، ايكنجى سنه، نومرو 37، 1 حزيران1899.

الإحساس» وفاقدين لقدرة التوصل إلى أي قرارات صائبة[1]. وبلغوا الذروة في إدانة الجماهير عندما حكموا عليها بأنها وحدها تتحمل مسؤولية واقع حكومتهم: «على من يقع الذنب؟ على الجماهير، لأن كل أمة تستحق الحكومة التي تقوم بإدارتها»[2].

من الواضح إن الاتحاديين في تعاملهم مع الجماهير لم يميزوا بين العناصر المختلفة التي احتواها، فازدروا الجميع. وكان لفشلهم في تعبئة الجموع إلى صفهم، داخل الدولة العثمانية، خلال سنوات نضالهم الطويل، أثر في موقفهم[3]، لكن الأهم هو تأثرهم بنظرية غوستاف ليبون الذي رأى إن «الحشد» ينتج عنه أشياء لا إنسانية، وإن سيكولوجيته غير طبيعية، ولم يضع ليبون أي فرق بين «الحشد» و «الجمهور»، عوضا عن ذلك فإنه نظر إلى الشعب والبرلمان، على السواء، بوصفهما «حشدا» يكوّن عقلية جماعية «وضعية». انطلاقا من هذا الطرح نظر الاتحاديون إلى المصوتين بوصفهم «حشدا»، ووصفوا البرلمان بالحشد المتجانس، وأكدوا أن العقلية الجماعية للمندوبين قد تصبح من الخطورة مثل تلك التي للحاكم الاستبدادي، وتفرغ الديمقراطية من محتواها[4].

إن القبول بأفكار ليبون وضع الاتحاديين أمام مشاكل عديدة أهمها إن الجناح المتشدد في «جمعية الاتحاد والترقي» كان يمجد الثورة، ومنذ بداية الحركة أعطيت الثورة مكانة انموذجية، والمشكلة الثانية هي أن الهدف الذي أعلنه الاتحاديون منذ البداية كان استئناف عقد جلسات البرلمان.

كان المأزق الثاني أسهل نسبيا، إذ أكد الاتحاديون على أنه إذا صار البرلمان «جمعية وطنية يرسل إليها الشعب أكثر الأفراد ذكاءً» فإنها من الممكن أن تكون ذات قيمة كبيرة[5]،

1- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.206.

2- «نيت ومقصدمز»، «استقبال»، نومرو 1، 3 ذي الحجة 1317.

3- "Modernisation de la Turguie et L'lnfluence du Positivisme".

4- Erik Jan Zürcher, Kemalist Düşüncenin Osmanlı Kaynakları; Tarık Z. Tunaya, Hürriyetin İlânı. İkinci Meşrutiyetin Siyasi Hayatına Bakışlar, İstanbul, 1956, S.61.

5- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.206.

أي أن البرلمان يجب أن يتكون من النخبة المثقفة التي ستكون مهمتها قيادة الجماهير وفرض أفكارها عليها عن طريق التكرار المستمر[1]، وأكد الاتحاديون على أهمية «نخبة المفكرين» وحتمية توليها كل الأمور، وفي مقدمتها السياسية، وبرروا ذلك بأن شؤون الحياة متشابكة ومتصلة مع بعضها البعض، ولا يمكن فصل الشؤون السياسية عنها. ولما كان المفكرون هم الأكثر قدرة على فهم هذا التشابك، وفهم قوانين الطبيعة، والأكثر مهارة في شرحها وتوضيحها، فأن أمور السياسة يجب أن تترك لهم[2]. بالنتيجة فقد برر الاتحاديون طلبهم في الوصول إلى السلطة على أساس امتلاكهم المعرفة الضرورية، وكان ذلك أول طرح من نوعه في تاريخ الدولة العثمانية[3]. ومثل كل شئ آخر حاول الاتحاديون إلباس نظرية «النخبة العلمية» عباءة إسلامية، واستخدموا أحاديث نبوية في هذا الصدد[4]، لكن شرحهم الأفضل للموضوع ظل مستندا على نظرية غوستاف ليبون، فكتبت جريدة «شورى امت»:

> «في إحدى أعماله شبه الفيلسوف الفرنسي غوستاف ليبون الأمة بالهرم صُنعت قاعدة الهرم من الجماهير وسميت بالشعب، أما قمته فتكونت من المفكرين... لذا فمن الضروري البحث عن أسباب تغير أحوال الأمم ليس بين الجماهير التي تشكل الغالبية العظمى، بل في سيكولوجية مفكريها... ولما كان في الكيمياء لا يمكن أن يتحد عنصران سوية ما لم تتوفر لهما طاقة حرارية أو كهربائية تحقق امتزاجهما، فإن الجماهير تحتاج إلى مثل تلك القنوات القيادية لتتمكن بالنتيجة من التأثر بالأحداث»[5].

لقد بقيت مشكلة كيفية تغيير النظام بدون ثورة هي الأكثر تعقيدا، وطوال المدة التي سبقت عقد المؤتمر الأول للجمعية عام 1902، تصور الكثير من قادة الاتحاديين بأن الحل

1- Ibid.;

مالمسانز، المصدر السابق، ص90.

2- Şerif Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S.181-182; C.H. Dodd, Democracy and Development in Turkey, P.80.

3- Şerif Mardin, Ideology and Religion in the Turkish Revolution, P.201.

4- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.206.

5- Quoted in: Ibid., P.207.

الوحيد هو تعريف الجماهير على هدفهم بإبدال نظام عبدالحميد بدكتاتورية المفكرين[1]، واقتنعوا أن خير وسيلة لإحداث تغيير في الدولة العثمانية هي من خلال التعليم والتراكم المعرفي، والجدير بالإشارة أن التعليم، على وفق مفهوم الاتحاديين، ليس وسيلة لمساعدة الإنسان لنفسه، بل ليستوضح مسؤولياته تجاه المجتمع[2].

دفعت هذه الأفكار الكثير من الاتحاديين، على اختلاف خلفياتهم الثقافية، إلى العمل في مجال التعليم. ففضل أحمد رضا أن يكون مديرا للتعليم في بورصا بعد أن حصل على شهادته في الهندسة الزراعية. وقام مراد الميزانجي بتدريس مادة التأريخ في المدرسة الملكية، على الرغم من انه كان مجرد مؤرخ هاوٍ، وفتح عبدالله جودت مع إسحاق سكوتي مدرسة ابتدائية خاصة[3]، كما تولى إبراهيم تيمو تأسيس جمعيات ثقافية لتعليم المسلمين في البلقان[4]. علاوة على ذلك طالبت صحف «جمعية الاتحاد والترقي» أعضاءها في المدن الصغيرة بالمباشرة بمشاريع تعليمية[5].

اكتسب التعليم أهمية إضافية بين صفوف الاتحاديين لإيمانهم بأنه من خلال التعليم واستمرار التراكم الثقافي، بإمكان النخبة المفكرة أن تكتسب التفوق البيولوجي، وتنقله وراثيا إلى جيل جديد بما يضاعف من حجمها ويزيد في إمكاناتها[6].

جذبت نظرية النخبة كل الاتحاديين،واستمرت في افتتانهم حتى بعد إعادة تنظيم الجمعية في العام 1907، والمشوق إن الإعجاب بها لم يقتصر على الأعضاء المدنيين في الجمعية، بل امتد الأمر ليشمل القياديين العسكريين فيها أيضا، أمثال عمر ناسي وأنور بك[7].

1- Ibid.

2- Şerif Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S.182.

3- مالميسانز، المصدر السابق، ص10.

4- الدكتور حسن كلشي، المصدر السابق، ص61-62.

5- Please look at: M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.207.

6- M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.309; Orkun Konak, Jön Türkler ve Prens Sabahaddin.

7- M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.308.

بتبنيهم لنظرية النخبة، لم ير الاتحاديون في أنفسهم أطباء اجتماعيين فقط، بل ومهندسين أيضا، تقع على عاتقهم مهمة التخطيط لبناء حاضر المجتمع ومستقبله[1]، وبوصفهم منقذين للدولة العثمانية فإنهم نظروا إلى المشاكل التي تعترضها من وجهة نظر الدولة، ونادرا ما وضعوا اعتمادهم على الشعب، معبرين عن قناعتهم بأنه لن يقبل الإصلاح والتغيير مختارا:

«إنما الإنسان حيوان مجبول على الميل إلى حفظ عاداته من التطور. ولقد درس الفلاسفة منذ عهد بعيد الملامع المختلفة لمنزع حفظ النوع عند البشر، وعند الحيوان أيضا، وأسموها 'النفور من الجديد'، فأثبتوا أن في أدوار انتقال الإنسانية من حالة إلى سواها، وبعبارة أخرى في أزمنة هيجان الأفكار واضطرابها حيث يكون الأمن مهددا تظهر منازع الارتقاء في ضعف بين منازع المحافظة»[2].

لذلك فكل النظريات التي حظيت باهتمام الاتحاديين وسعوا إلى تطويرها بما يلائم وضعهم، كانت تدافع عن التنوير من الأعلى، وتعارض فكرة المساواة المفترضة بين الناس. فعرض الاتحاديون الحرية الحقيقية على أنها توجد في تطابقها مع القوانين التي تعالج التباين الطبيعي بين الرجال[3]، وتمسكوا بنصيحة ليبون بالسعي لفهم نفسية الجماهير بهدف جعلهم أداة دعم لعمل الصفوة[4]، وأرادوا تطبيق مقولة أوكست كونت بأن المجتمع الذي يجب فرضه هو مجتمع تسبق فيه الواجبات الحقوق[5]، والجدير بالإشارة إلى أن أداء الواجبات، على وفق رؤية، لا يتساوى فيه الجميع، فـ «الواجبات مقدسة. وإن الأشخاص المهمين يأخذون على عاتقهم القيام بالواجبات الكبيرة، أما الواجبات الأصغر فيتولى القيام

1- http:// www. zaman. com/?b1= commentary & alt= &hn= 23455, M.Şükrü Hanioğlu, The Anniversary of a Century- Old Ideology.

2- أحمد رضا بيك، المصدر السابق، ص50.

3- M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.313.

4- Ibid.

5- Ibid.

بها أشخاص أقل أهمية»[1]. وبتناقض حد السخرية استمر الاتحاديون في كتاباتهم الفكرية بالإشارة إلى عدم المساواة بين الرجال، على الرغم من استخدامهم شعار «المساواة» في دعايتهم السياسية، وتحدد معنى شعارهم هذا بالمساواة بين العثمانيين من ناحية الاختلافات الدينية والعرقية، وحتى ضمن هذا الشكل لم يكن شعار المساواة مطلقا، بل أعطي فيها تفوق للعنصر التركي، فلا بد من وجود قمة للهرم[2].

كان موضوع العرق من بين الأمور التي تأثر بها الاتحاديون ضمن النظريات المعاصرة، وهنا أيضا برز اسم غوستاف ليبون الذي أثار اهتمام الاتحاديين بتعليقاته حول هذا الموضوع، فكانت حربه ضد الديمقراطية محاولة لحماية العرق الأرفع منزلة، وهم الأوربيون البيض، من حكم الرعاع[3]. كما أن كتابات ديمولان لفتت انتباه الاتحاديين، لكن دراسته للتفوق لم تكن من وجهة نظر بيولوجية. التأثير الأقوى في هذا الصدد كان لهيغل[4]، إذ جذبتهم نظرياته التي اقترحت تحرير الألمان من هيمنة الحضارة الغربية من خلال المناهج التعليمية الجديدة،

1- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.204.

2- C. W. Hostler, Turkism and The Soviets. The Turks of the World and their Political Objectives, London, 1957, P.97; http: let. leidenuniv. nt/ tcimo/ tulp/ Research/ fromtirep. html, Erik- Jan Zürcher, From Empire to Republic- Problems of Transition Continuity and Change.

3- Erik Jan Zürcherö Kemalist Düşüncenin Osmanlı Kaynakları; M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.209.

4- هيكل (Hegel) (1770-1831) فيلسوف ألماني، صار العقل المفكر الأول في الفكر الألماني في غضون مدة طويلة من القرن التاسع عشر، وهو ما يعود، بدرجة أساس، إلى أنه كان بروسي الأصل آمن بالمبادئ القومية وأبدى احترامه الكبير لتطبيق السياسة الدكتاتورية في الدولة، واصفا الدولة بـ «خطى الله على الأرض». أنتج مؤلفات عديدة، أشهرها «فينومنولوجيا الروح»= (Phenomenologie de I`esprit) عام 1807، الذي ركز فيه على وصف الظواهر الذهنية وأثرها في حياة الإنسان، وكتاب «المنطق» في ثلاثة مجلدات (1812-1816)، و «موسوعة العلوم الفلسفية» (1817)، و «مبادئ فلسفة القانون» (1821). كما قام هيغل بتطوير قانون الجدلية القائلة أن التطور ناتج عن التفاعل بين نصفين متضادين من الحقائق. للتفاصيل يراجع: جان توشار وآخرون، المصدر السابق، ص384-395؛ يوسف كرم، المصدر السابق، ص274-287.

كما أن حكمه بتفوق العنصر الألماني أعطى أرضية صلبة لبعض أعضاء «جمعية الاتحاد والترقي»[1].

على أي حال، وعلى الرغم من ورود بعض التعليقات حول موضوع العرق على لسان قادة الاتحاديين مثل حديث أحمد رضا عن «طهارة الدم» و «كرم الأخلاق الذي ينتقل بالوراثة»[2]، فإنهم، إجمالا، أعربوا عن رفضهم لفكرة العرق، وامتنعوا عن تكوين نظريتهم بهذا الخصوص[3]، وكان لوجود الأتراك في أسفل الهرم العرقي، من وجهة النظر التي طرحها فلاسفة الغرب، أثر كبير في ذلك، ومع أن انتصار اليابانيين أعطى الاتحاديين ذخيرة للقيام ببعض المحاولات، فإن تجاربهم ظلت بسيطة في هذا المجال. بالمقابل فإن فكرة التفوق العرقي للأوربيين كانت إحدى الأسباب الهامة وراء تصاعد العداء ضد أوربا.

1- **Harun Yahya, Op. Cit.; M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.209.**

2- **"Modernisation de la Turguie et L'Influence du Positivisme".**

3- **Ibid.**

رابعا: الاتحاديون ومعاداة الاستعمار

حددت «جمعية الاتحاد والترقي» في مرحلة مبكرة موقفها المعادي للاستعمار، وصار هذا الموقف أكثر تشددا وعنفا عقب مؤتمر العثمانيين الأحرار في العام **1902**، كما كان سببا أساسا وراء الانقسام الذي حدث بين صفوف الاتحاديين في ذلك المؤتمر. وانطلاقا من العام **1902** شكلت معاداة الإمبريالية أحد الأعمدة الرئيسة لأفكار «جمعية الاتحاد والترقي»، وكانت الجمعية مدينة بجزء كبير من انتصارها، في صيف **1908**، لاستخدامها الحكيم لأفكار معادية للاستعمار في دعايتها، إذ نجحت من خلالها في تحريك الجموع المسلمة ضد ما كان شائعا عن نوايا القوى الاستعمارية الأوربية في تقسيم أراضي الدولة العثمانية، وفي كسب معظم الضباط الصغار في مقدونيا الذين رأوا في التدخل الأوربي هناك مثالا مزعجا للاستعمار الأوربي.

لقد نظر الاتحاديون إلى السياسات الأوربية الموجهة ضد الدولة العثمانية على أنها جزء من الإمبريالية الغربية التي افتقرت إلى القيم الأخلاقية وفضلت المادة، وعابوا على الدول الأوربية الادعاء بالتحضر واتخاذه مبررا لغزو الشعوب والسيطرة عليها، فكتب أحمد رضا:

> **«تروم دولة من الدول الاستيلاء عسكريا على بلادٍ وتجريد سكانها من أرزاقهم، ويتعذر عليها وجود عذر لعملها هذا، فتعلن أن هذه البلاد يسكنها جنس سافل، بل أن في بقائه على حاله خطر على الإنسانية. وبذلك تنتحل لنفسها حقا، كأنما هو وحي أنزل عليها في إذاقة هذا الشعب طعم التمدن اللذيذ!... هل أفاضوا، على الأقل، الخير على الأمم التي أخضعوها لسلطانهم؟ إني أوجه سؤالي هذا لكل منزه عن الأغراض، من لي بمجيب يقول لي ماذا فعل الأمريكيون بالقبائل الهندية،**

والإنكليز بأهالي الاقيانوس [هكذا ورد في النص]، والفرنسيون بزنوج أفريقيا، والألمان بقبائل أفريقيا الغربية؟ إنما هي سياسة نفاق عادت بالوبال على البلاد التي تحملت وضع اليد الأوربية عليها، ونحن نشاهد اليوم ما هي عاقبة إدخال الحضارة لآسيا وأفريقيا، باسم التوغل السلمي على زعمهم، إنها عاقبة تعيسة، لا سيما من الوجهتين الأدبية وانحطاط البنية، فالأهلون المساكين يُقذف بهم من جديد في بربرية تزداد شناعتها بقدر ما تترقى وسائل التدخل في شؤونهم، وإن لم ينقرضوا عن آخرهم فما ذلك إلا لأن مغتصبيهم ما زالوا محتاجين ليدهم العاملة، وللحومهم لتكون طعاما للمدافع»[1].

كما تبنت الجمعية موقفا متشددا ضد الادعاءات الأوربية بأن الأتراك لن يتمكنوا من إصلاح دولتهم المتداعية ولأجل ذلك فأن التدخل الأوربي في شؤون الدولة العثمانية الداخلية صار أمرا ملحا. وعبر الاتحاديون عن قناعتهم بأن الأدب الاستعماري الأوربي صوّر مشرقا وهميا مغايرا لما موجود في الواقع وذلك لتبرير تدخلهم، مما كوّن حاجزا كبيرا أمام التفاهم الحقيقي بين العثمانيين والأوربيين على المستويين الرسمي والشعبي[2].

بفاعلية قوية رفض الاتحاديون الصفة العلمية المزعومة للاستعمار الأوربي المستندة على التفاوت العرقي، لا سيما ما تعلق بوضع الأتراك، والشعوب الآسيوية عموما، بالمرتبة الأدنى، وعدّوا هذه النظرية افتراء على الطبيعة، وقدم نصر اليابان على روسيا في العام **1905** سندا عظيما لموقف الاتحاديين الذين أعلنوا أن انتصار اليابان طمس النظرية ونسف الهرم العرقي:

«إن بعض الأوربيين، وبعض العثمانيين الذين يقلدون أي شيء يروه من غير أن يفهموه، يعتبروننا في الجزء الأدنى من السلسلة الهرمية العرقية. ودعنا

1- أحمد رضا بيك، المصدر السابق، ص15.

2- ينظر: المصدر نفسه، ص20-27؛

“Modernisation de la Turguie et L’lnfluence du Positivisme”.

نقولها بصراحة انهم يعتبرون الأتراك أناسا من الطبقة الثانية. لقد أزال نصر اليابانيين، الذين يرجع أصلهم إلى العرق الأصفر، ذلك الافتراء ضد الطبيعة من خلال التقدم في بلدهم، ومن خلال المدافع والبنادق في منشوريا »[1].

ومن خلال كتاباتهم أوضح الاتحاديون أن أفكار فلاسفة الاستعمار الغربي المبنية على التفوق العرقي من شأنها أن تؤدي إلى أوضاع مغلوطة، واللافت للنظر انهم شددوا على انتماء الأتراك إلى أوربا ورفض دفعهم نحو آسيا:

«لقد منعت الحكومة البانامية الصينيين والسوريين والأتراك من الدخول إلى بنما. وهي اتخذت هذا الإجراء لغرض منع الآسيويين الذين عدهم الأجانب بشرا من الطبقة الدنيا، من الهجرة بأعداد كبيرة... إن معاملة... ذوي البشرة الغامقة والأعراق السوداء من لدن شعوب أوربا الغربية، وعلى وجه الخصوص من الإنكليز والأمريكيين حقيقة معروفة جيدا. ورغم أن معظم الأتراك هم أوربيون عرقيا، فأن الذي يلائم رغبة العديد من القوى الزعم أن الأتراك لا ينتمون إلى العرق الأبيض، وانهم آسيويون تماما، هذا الادعاء سيستخدم مستقبلا لدفعنا خارج أوربا كليا، ومنع حكمنا للأمم المسيحية هناك»[2].

في عداء الاتحاديين للاستعمار وتصديهم الفكري له، ظل الاتحاديون ملتزمين بتفكيرهم وأفكارهم العلميين، فصوروا العلاقات الدولية على أنها صراع بين الأمم للبقاء على الحياة، يأكل فيه القوى الضعيف، مثل ما هو بين الأفراد والأعراق[3]. كما واصلوا استخدام الدين أداة رئيسة في كسب التأييد لأفكارهم وتعظيم فاعليتها على الجموع الإسلامية، فحاولوا الترويج بأن موقف الدول الأوربية من الدولة العثمانية لم يكن طمعا

1- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P. 201.

2- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, Praparation for a Revolution, PP. 35- 36.

3- Ibid., P. 304.

بممتلكاتها حسب، بل انه كان استمرارا لتاريخ صراع ديني طويل، وناتج عن أسباب دينية، و«مازال يوجد وراء التمدن العصري أوهام القرون الوسطى ومعتقداتها» حسب صياغة احمد رضا[1] الذي أشار إلى أن لدى الدول الأوربية برنامجا مسيحيا خفيا، وان سياستها تجاه الدولة العثمانية اعتداء سافر من «الصليبيين الجدد» مع تعصب ديني مقيت[2]. وكتب أيضا «حيثما يحدث عمل مخز، أو خرق للنظام في المناطق التابعة للدولة العثمانية يضع [الساسة الأوربيون] اللوم مباشرة على الأتراك وتعصبهم الديني، وبذلك يتدخلون في شؤوننا الداخلية بدعوى حماية المسيحيين- كأنما غير المسيحيين ليسوا بشرا! لقد ضربوا المدن بالقنابل وهم يصرخون 'إن الأتراك غير قادرين على التقدم والإصلاح، وان الدولة العثمانية لا تستطيع فرض أي نوع من النظام' محاولين تأليب الرأي العام الأوربي ضدنا»[3]. كما أعرب الاتحاديون عن قناعتهم بان الدول الأوربية هي من خلق مشكلة الملل في الدولة العثمانية، ووضعت العراقيل أمام أي حل لها بغية المحافظة على الامتيازات الأجنبية فيها. في هذا الصدد كتبت «مشورت»:

«نحن نعلم أن الأجانب يتمتعون في دولتنا بالكثير من الحقوق الخاصة التي لا يمتلكونها في أي مكان آخر، حتى في بلدانهم ذاتها. لقد لاحظ علي باشا وفؤاد باشا، وهما رجلا سياسة أتراك، الهفوات التي ارتكبها الأجانب تحت غطاء وحماية الحقوق الخاصة المذهلة والامتيازات، وبعد أن أدركا أن معظم الدسائس تستمد مصدرها من تلك الحقوق الخاصة، حاولا في عام 1858 والعام 1868 إلغاء جانب من تلك الامتيازات. أما الشعوب المنفصلة عن تركيا، مثل صربيا وبلغاريا، فأنها ألغت تلك الامتيازات بصورة كاملة تقريبا. إن الأوربيين، وعلى وجه الخصوص الأجانب الذين يستغلون الأتراك بشدة ووضعوا لرؤوس أموالهم ضمانات قاسية جدا، كان لديهم كل المصلحة في الاستمرار بالعيش تحت نظام الامتيازات، وكانت

1- احمد رضا بيك، المصدر السابق، ص11.

2- المصدر نفسه، ص18-19 .

3- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P. 303.

لديهم خشية من حكومة نيابية تبحث قبل كل شئ عن ترسيخ العدالة في البلد، وتعنى بالمطالبة بإلغاء الضمانات»[1].

تجـدر الإشـارة إلـى أن الاتحاديين في رفضهم للامتيازات الأجنبية ومعاداتهم للتدخل الأجنبي تناولوا الموضوع من وجهة نظر تركية. كتبت جريدة «شورى امت» بصدد ذلك ما نصه:

«متى ما تدخلت الدول الكبرى في شؤوننا ختمت تدخلها بفصل عنصر [من الدولة العثمانية] عنا، أو نيل امتيازات جديدة للمستغلين والمبشرين، بالمحصلة فأنهم يضعفون الأتراك على نحو مستمر»[2].

كما أكد الاتحاديون، من خلال كتاباتهم، على أن الدول الكبرى وتدخلها السياسي والاقتصادي في الدولة العثمانية سببا أساسا في تراجع الدولة العثمانية وتدهور شؤونها[3]. وبشكل مؤثر جمعوا بين رفضهم للامتيازات الأجنبية وهجومهم على عبدالحميد، واظهروا الامتيازات كإحدى الدعامات الرئيسة لنظام السلطان، فكتبت «مشورت»:

«لا نعلم ما هي حصة الشرف العائدة إلى السلطان من الأعمال التي تقوم بها الشركات الأجنبية، ومن ناحية أخرى إنها أعمال مضرة برمتها بالمصالح الاقتصادية والاجتماعية للبلد... إذا كان السلطان قد عمل على تشييد سكك الحديد وتأسيس البنوك ودوائر الجمارك، فذلك لأنه وجد فيها فائدة ليس لتركيا حسب، بل للجماعة المستغربة التي تبقيه متربعا على العرش حتى يقوم بدوره، وكما يحلو له، باستغلال الشعب والبلد»[4].

1- Quoted in: "Modernisation de la Turguie et L'lnfluence du Positivisme".

2- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P. 34.

3- جلال نورى، تاريخ تدنيات عثمانيه. مقدرات تاريخيه، استانبول، 1331.

4- Quoted in: "Modernisation de la Turguie et L'lnfluence du Positivisme".

وخلص الاتحاديون إلى أن أي محاولة للنهوض بالواقع العثماني والتصدي لمشاكله، تستلزم بالضرورة إلغاء الامتيازات الأجنبية[1]، فلا وجود لاستقلال سياسي من دون وجود استقلال اقتصادي حسبما أكد ذلك عبدالله جودت[2].

على أي حال فان التوغل السياسي والتغلغل الاقتصادي للدول الكبرى في الدولة العثمانية كان من القوى المحفزة الرئيسة في تحريك وتطوير الوعي القومي لأعضاء «جمعية الاتحاد والترقي».

1- Mehmet Seyitdanlioglu, Op. Cit.; Arnold S. Toybee, The Western Question in Greece and Turkey. A study in the contact of civilisations, Great Britain, 1922, P. 135.

2- Hilmi Yücebaş, Yedişairden Hatıralar, S. 21.

خامسا: الاتحاديون بين العثمنة والأتركة

طوال تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي» احتفظ مصطلح «الاتحاد» بأهميته بين أعضائها، وظل جزءا أساسا من اسمها، إذ كان الاتحاد مبدءاً متفقا عليه دائما بين كل الاتحاديين وهدفا رئيسا لجمعيتهم، فـ «الاتحاد هو ضمانة تحررنا، والنفاق هو سبب دمارنا واضمحلالنا» حسب صياغة الجريدة المركزية لـ «جمعية الاتحاد والترقي»[1]. وأراد الاتحاديون الحفاظ على سلامة أراضي الدولة العثمانية واتحاد كل من عليها، مسلمين وغير مسلمين، وسعوا لكسب دعم الجميع، فوجهت صحفهم جهدها لتوضيح الحقوق المتساوية للطوائف و الأعراق المختلفة، و سعوا إلى ترتيب برنامج إصلاحي عام[2].

مثل من سبقهم تبنى الاتحاديون فكرة «العثمنة» ودعوا لتطبيقها في الدولة العثمانية معبرين عن قناعتهم بأنها كفيلة بالحفاظ على اتحاد الدولة العثمانية، وان تطبيقها لن يتسبب بالضرر لأي من العثمانيين، بل على العكس إنها تقدم دعامة قوية لاتحاد كل ألوان الطيف العثماني مع الحفاظ على خصائص كل لون، واستندوا في دعواهم إلى التعايش الطويل بين مختلف الطوائف والأعراق داخل الدولة العثمانية بما يشبه محاولة لإيجاد تاريخ واحد يجمعهم ومقومات دولة قومية حديثة تضم الكل:

> «تذكروا دائما إن أسلافكم عاشوا سوية... يحترم أحدهم الآخر، سواء أكانوا يهودا أو مسيحا أو دروزا أو مسلمين... تخيلوا، الآن، أنكم جميعا أبناء هذه الدولة، ويعيش كلكم على الأرض نفسها، وبأنكم جميعا تعدّون أنفسكم عثمانيين... الله يعلم لن

1- نقلا عن: ماليسانز، المصدر السابق، ص25.

2- Şerif Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S. 149.

يبقى هناك أي مكروه أو شر، ولن يكون موجودا سوى الاتحاد والسلام، لا تقولوا أن هذا حلم... انتم عثمانيون قبل كل شيء، ابحثوا عن النجاة والسلامة في العثمانية، واجتنبوا، خصوصا، الاتصال مع أولئك الذين يحاولون جذب بعضكم بعيدا عن الجسد العثماني»[1].

كما أدان الاتحاديون الميول القومية التي بدأت تظهر بين مختلف العناصر في الدولة العثمانية، فـ«ان ليس الزمن زمن اللعب بكلمات كردستان وعربستان ولاظستان وارمنستان» على وفق تعبير عبدالله جودت[2]، وشجبوا، على وجه الخصوص بدايات ظهور مثل هذه التوجهات بين الأتراك، وكان الرفض الأقوى من الأتراك أنفسهم، فكتب حلمي الطوني في العام 1898: «إذا فصل الأتراك أنفسهم خارج الجسد العثماني فأن مآلهم إلى الدمار... وإذا وضعوا في أذهانهم تخيلات غريبة تضر بعثمانيتهم فأنهم سيتحطمون أيضا». وأضاف «لا توجد فائدة أو معنى، بل الضرر فقط، في تأسيس مجتمع منفصل، عوضا عن ذلك ابنوا مجتمعا واحدا فقط بتواصل مشاركة أحدكم الآخر للمظالم وباتحادكم كعثمانيين»[3].

في دعوتهم للعثمنة استخدم الاتحاديون أسلوبا حديثا، وبسيطا في الوقت نفسه، واستعملوا تعابير شائعة ومفردات سلسة لجعل طرحهم قريبا ومحببا إلى اكبر كم من الناس[4]، كما حاولوا تطمين القوميات المختلفة داخل الدولة العثمانية على حقوقها ومستقبلها، مؤكدين بأن العثمانية ستضمن اتحاد الدولة بمنح حقوق متساوية للجميع، ومن

1- طونه لى حلمى، خطبه، جنوه، 1315، ص33-34.

2- نقلا عن: مالميسانز، المصدر السابق، ص57.

3- Quoted in: http:// www. Ciaonet. Org\ olj\ meria\ meria 797- karaman. html, M. Lutfullah Karaman, Tunali Hilmi: An Outstanding Figure in the Process of Ideological Change from Ottomanism to Turkism, "MERIA. Middle East Review of International Affairs", Vol. 1, No. 3, July 1997.

4- Şerif Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikirleri, S. 107.

دون إعطاء أولوية لأي منها[1]، و حاولوا الإقناع بأن العثمانية لا تتطلب من أحد أن يترك دينه، أو يتخلى عن قوميته ليصبح تركياً:

«لا تدعوا العثمانية تخيف أحدا منكم، أن تكونوا عثمانيين لا يعني أن تصيروا أتراكا... أو إيذاء أي شخص، أو التسبب بمضايقة أي قومية... تعالوا جميعا لتكونوا كلكم عثمانيين... احصلوا على الخلاص من كل الشرور الناجمة عن هذا الانفصال»[2].

وبصراحة اكبر أوضح عبدالله جودت بأنه عثماني متمسك بعثمانيته، ويعطيها الأولوية «أما كوني شيعيا أو سنيا، متدينا أو حر التفكير، من العرق الأبيض أو الأصفر فمن الأمور الفنية الخاصة» محذرا من أن يفهم قوله بأنه ما دام مواطنا عثمانيا «فلتنسى اللغة الكردية وتنسى كرديتي، بالعكس فليطور الكردي لغته الكردية والأرمني لغته الأرمنية ويسعى من اجل ازدهارها» مبينا أن أولئك الذين يظنون إن في ذلك مضرة للدولة العثمانية «فأنهم ليسوا إلا فارغي الرؤوس، أو أشخاصا تخونهم نفوسهم ليس غير»[3].

على الرغم من هذه الرؤية المتفتحة إزاء كل القوميات والأديان وحقوقها ضمن الدولة العثمانية، كانت هناك لمحات تؤشر بدايات توجه نحو «الأتركة»، فحلمي الطوني، الذي تغنى كثيرا بالعثمانية وأعلن «أنا عثماني فقط... أنا لا ارتبط بأي مجتمع غير المجتمع العثماني»[4]، أكد في كتابات أخرى على أهمية اللغة التركية والعنصر التركي بأسلوب ناقض به نفسه وكل ما دعا إليه: «إن الأتراك هم أصل العثمانيين، ينبغي على كل عثماني أن يكون قادرا على قراءة ما يكتبه الأتراك... فاللغة التركية تعني اللغة العثمانية»[5]، ووصف الأهداف المستقبلية لطرحه بأن «التركية ستكون اللغة الرسمية للدولة العثمانية، وعلى كل موظف

1- Ibid., S. 106, 112.

2- Quoted in : M.Lutfullah Karaman, Op. Cit.

3- نقلا عن: مالميسانز، المصدر السابق، ص30.

4- Quoted in : M. Lutfullah Karaman, Op. Cit.

5- Quoted in : Ibid.

التحدث بالتركية وإتقان قراءتها وكتابتها بما ينسجم وموقعه، وكل الإجراءات في جميع الدوائر سيتم اتخاذها باللغة التركية»[1]. وعبر الطوني عن قناعته بأن الأتراك هم أصحاب الحق في أن يكون لهم وضع مهيمن في الدولة العثمانية لما تمتعوا به من صفات تميزهم عن غيرهم، ولان كل الأعراق الموجودة في الدولة، باستثناء الأتراك ، ثارت بوجه السلطة المركزية وسعت للانفصال:

«العرب ثاروا مرات عديدة، والألبان أيضا لهم تجاربهم في هذا المجال، حتى اللاظ... والكرد... قاموا اكثر من مرة، بأعمال عصيان مسلح... المبرر وراء هذه الأحداث كان بالدرجة الأساس الاضطهاد [من السلطة المركزية]... ما تبقى هم الأتراك الذين عانوا الجوع والفقر والاضطهاد! إن هذه الأمة الطيعة والصبورة والبسيطة والسوية الأخلاق... إنها أشبه بطلقة في بندقية تعاني من صعوبة في الانطلاق، ولكن بمجرد خروجها فإنها ستصل إلى ابعد ما يمكن»[2].

مثل هذه اللمحات وضعت أسسا لتطورات ابعد باتجاه تبلور الوعي القومي التركي، وميول «الأتركة» التي بدأت معالمها تتضح بعد العام **1902**، ساعد على ذلك زيادة العنصر التركي بين صفوف «جمعية الاتحاد والترقي»، وتغيير الهيكل التنظيمي للجمعية داخل الدولة العثمانية بتأسيس فروع نظامية في البلقان، حيث الإحساس بالهوية العرقية أقوى من المناطق الداخلية للدولة العثمانية. فبدأت تظهر في كتابات الاتحاديين إشارات تعبر عن امتعاضهم من استخدام كلمة عثماني[3]، واستنكروا أن تسمى دولتهم على اسم الأسرة الحاكمة، موضحين مبعث انزعاجهم بضربهم مثلا أن يطلق على الألمان «هوهينزوليرنيون»، او يسمى الفرنسيون «بربونيين» او «بونابرتيين»[4]. وبدأت تظهر محاولات تؤكد على القومية التركية وتدعوا إليها.

1- **Quoted in : Ibid.**

2- **«مقام اقدس جناب خلافتيناهى يه»، «عثمانلى»، برنجى سنه، نومرو 1، 1 كانون اول 1897.**

3- **Erik- Jan Zürcher, Kemalist Düşüncenin Osmanlı Kaynakları.**

4- **M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.296.**

كان يوسف اقجورا[1]، من بين أوائل من شددوا على القومية التركية، ففي العام 1904 نشر مقالا مطولا في جريدة «ترك» الصادرة في القاهرة، حمل عنوان «الأنظمة السياسية الثلاث» (Üş Tarz-ı Siyaset)، فاضل فيه بين العثمانية والإسلامية والتركية. وحدد اقجورا في مقاله تاريخ العثمانية بفترة التنظيمات، وعرفها بأنها السياسة التي تقوم على مبدأ وحدة القوميات في الدولة ضمن أمة عثمانية يتساوى فيها الجميع على اختلاف دياناتهم وقومياتهم، وأعرب عن رأيه بأن هذه السياسة استنفدت حظوظ نجاحها بعد أن قاومها داخليا المسلمون المحافظون والقوميات غير المسلمة، فضلا عن موقف الإسلام، عموما، وهو الدين الذي لا يقرّ، مهما اجتهد الفقهاء في توسيع مفهوم التسامح، بالمساواة بين المسلمين وغير المسلمين بالمعنى الحديث للمصطلح، وعرقلتها، خارجيا، الدول الكبرى التي وجدت في العثمانية ما يعارض مصالحها، مؤكدا «أن حلم تأسيس أمة عثمانية قد تلاشى» و «لا يمكن أن يبعث من جديد»[2].

أما الإسلامية، فيشير اقجورا إلى أنها لم تكن افضل حظا من العثمانية، بل إنها سببت زيادة التنافس والانقسام الموجود بين سكان الدولة العثمانية وزادت من ضعفها، والاستمرار بها يزيد من تراجع الأوضاع في الدولة، ويضاعف مشاكلها الداخلية والخارجية[3].

1- يوسف اقجورا(1876-1935)، ولد في عائلة تجارية في قازان تنتمي إلى البرجوازية الصناعية، توفي والده وهو لم يزل بعد صغيرا، وفي العام 1883 هاجر مع أمه إلى اسطنبول حيث تلقى تعليمه،في العام 1890 دخل الكلية الحربية وفيها انخرط بالنشاط السياسي، وما لبث أن القي القبض عليه في العام 1897 ونفي إلى طرابلس الغرب، مع ثلة من الاتحاديين، لينجح في الهرب من هناك عام 1899 متوجها إلى باريس حيث تحول اهتمامه من العلوم العسكرية إلى السياسية، فدخل «مدرسة العلوم السياسية» ذات الاهتمام بالدراسات القومية، والتي تضم عددا من الأساتذة المشهورين، من بينهم اميل بوتمي(Emile Boutmy) (1835-1906) مدرس علم نفس الشعوب، والبرت سوريل (Albert Sorel) (1842-1906) المهتم بتأثير العامل القومي في التاريخ، وكان لهذه المدرسة، ولكل أجواء فرنسا في تلك المرحلة، اثر واضح على توجهات يوسف اقجورا الفكرية. يراجع: محمد الناصر النفزاوي، المصدر السابق، ص249-253؛

S. J. Shaw and E. K. Shaw, Op. Cit., P. 262.

2- http:// eurasia – research. Com/ erc/ 009 Com. htm, Yusuf Akçura, Üş Tarz-ı Siyaset)Three Policies(, Translated by David S. Thomas.

3- Ibid.

إزاء اقتناعه بفشل السياستين العثمانية والإسلامية، رشح يوسف اقجورا التركية بديلا عنهما، ورأى أن إمكانية نجاح المذهب القومي أوفر بكثير، على الرغم من إقراره بخمول الشعور القومي عند الأتراك: «إن فكرة تكوين جنسية تركية مبنية على العرق حديثة جدا. أنا لا اعتقد انه قد سبق لهذه الفكرة أن وجدت سواء في الإمبراطورية العثمانية أو في أي دولة تركية ماضية... ولم اعثر على أي اثر يشير إلى وجود فكرة توحيد الأتراك إبان حركتي التنظيمات والعثمانيين الجدد»[1]. فيوسف اقجورا مقتنع، إذن، بان تبني الفكر القومي «أمر محتم، فهو التيار المهيمن في تاريخنا المعاصر»[2]. ويضيف في مكان آخر «إن العامل الذي اثر اكثر من غيره في تاريخ الحضارة العالمية في القرن التاسع عشر إنما هو الفكرة القومية، وانه لا شئ بإمكانه أن يقف سدا مانعا أمام هذه القوة الغالبة التي جرت محاولة صدها، عبثا، باستعمال جيوش تعد مئات الآلاف من الرجال»[3].

لم تكن مقالة اقجورا هي الوحيدة من نوعها ضمن كتابات الاتحاديين، إذ صاحبها ولحق بها كتابات كثيرة، فكانت «الأتركة» صفة واضحة في منشورات الاتحاديين خلال الأعوام 1902-1907، كان من بين ابرز وابسط ملامحها الاستخدام المتعمد لوصف «تركي» عوضا عن «عثماني»، ورفض البلاغة العثمانية التي استخدمتها صحف الاتحاديين في المرحلة السابقة، معربين عن يأسهم من جدواها، واستحالة تحقيق الاتحاد مع غير الأتراك في الدولة العثمانية. فكتبت «شورى امت»:

> «إذا كان هناك بين الأتراك أشخاص يترددون في منح حق المواطنة للمسيحيين، فهناك خلفية لمثل هذا التردد. فإذا اتفق أن كان مسيحيا عضوا في المجتمع اليوناني، فإنه ينظر صوب أثينا، وإذا كان بلغاريا فإلى صوفيا، وإذا كان أرمنيا فإنه يحلم بتأسيس أرمينيا المستقلة، محاولين اقتطاع أجزاء من وطننا، بالأمس ثار اليونانيون، والآن

1- Ibid.

2- Ibid.

3- نقلا عن : محمد الناصر النفزاوي، المصدر السابق، ص 271.

البلغاريون، وتورط الأرمن بعصيان مسلح. الأتراك يشهدون كل هذا، وبطبيعة الحال فانهم حزنوا وشعروا أن المسيحيين آذوهم»[1].

كما أعرب الاتحاديون عن قناعتهم بأن فعاليات المجموعات العرقية، من غير الأتراك، كانت دائما ضد الأتراك وموجهة نحو التقسيم، وأكدوا أن هناك صراعا مستمرا بين العناصر التركية وغير التركية في الدولة العثمانية، مشددين على أن الجماعات من غير الأتراك، وعلى وجه الخصوص من غير المسلمين، يحاولون تدمير الكيان الذي دافع عنه الأتراك فقط[2]، ورفضوا اعتبار أنشطة تلك الجماعات حركات ثورية، بل عدوها حربا أثيرت ضد الدولة:

«لقد عدّوا وضع العراقيل في طريق أولئك الذين يُهربون البنادق والديناميت والقنابل عبر الحدود الروسية، معاملة قاسية للأرمن... إنكم تتهمون الأتراك من دون وجه حق. لو كان الأتراك، الذين عشتم معهم لقرون، قد ذبحوكم لما وجدتم اليوم. إن هذا دليل قاطع على حقيقة عدم وجود مذابح ضدكم. دعونا ندفع بهذا السؤال للعالم كله: هل هناك أمة أخرى منحت مثل هذه المعاملة الشهمة لمجموعة عرقية مثل الأرمن الذين لم يقدموا شيئا لإصلاح أرض الآباء المشتركة، ولم ينزفوا قطرة دم واحدة في سبيلها؟ وعليه ما السبب وراء انتفاضة الأرمن؟ ما الذي يريدونه؟ إدارة مستقلة على الأرض التي تجرأوا بتسميتها أرمينيا؟ إن كان كذلك فإن انتفاضة الأرمن ليست ثورة بل حرب»[3].

مع أن موقف الاتحاديين الأكثر تعنتا ظل من نصيب القوميات غير المسلمة، ما لبث أن امتد الأمر ليشمل القوميات المسلمة أيضا، ونظروا للجميع بالمنظار التركي، فوصفوا

1- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P. 40.

2- Yusuf Hikmet Bayur, Turk İnkılâbı Tarihi, S.249.

3- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, PP.41-42.

الوطنين الألبان بـ «المتشردين»، وأدانوا بشدة التوجهات القومية التي أخذت تظهر بين العرب، حتى أن أحد أعضاء «جمعية الاتحاد والترقي» كتب منددا:

«رغم عدم إبداء الأتراك أي شئ سوى الاحترام للعرب، وعاملوهم بشكل جيد، فإن حقد العرب... المتأصل نابع من واقع أن الآثار المقدسة كانت بأيدي السلاطين العثمانيين الذين لم يكونوا أحفادا للعرب. ومثلما استخدمت القوى الإمبريالية الغربية بعثات التبشير الكاثوليكية والبروتستانتية لفصل الأرمن عن الإمبراطورية، فإنهم استخدموا مختلف الشيوخ والقادة الدينيين لجعل العرب يلعنون الأتراك»[1].

بخطى سريعة برزت التركية إلى المقدمة، فصارت تيارا غالبا بين صفوف الاتحاديين، وقد أسهمت السياسة الأوربية تجاه الدولة العثمانية، ونظرة الغرب الدونية للأتراك ووصفهم بالبرابرة، في تقوية النزعة التركية. فعلى الرغم من ميل أحمد رضا لسياسة العثمنة، صرح معلنا «أنا تركي. وافخر كثيرا بذلك»[2]، وردد كلماته هذه العديد من الأتراك داخل الجمعية وخارجها[3]، وكتب مدافعا عن الأتراك وممجدا لهم:

«هم يصفوننا تارة بالسفلة، وطورا بالتوحش، إما لأننا لا نشاطرهم أفكارهم... أو ربما لأننا برهنا، في اكثر من موقع، على إننا أبناء جنس اكتسب اعظم فضيلة بشرية، ألا وهي فضيلة الاصطبار على المحن والتجلد لتلقي المكروه من الغير، وزد على ذلك إننا من جنس متين القوى، وان الناس يبغضون عادة الأقوياء»[4].

1- Quoted in: Ibid., P.42.

2- Quoted in: Ercümend Karan, The Impact Of Nationalism on the Turkish Elite in the Nineteenth Century, "Beginnings of Modernization in the Middle East", Ed. W. R. Polk and R. L. Chambers, U. S. A., 1968, P.117.

3- Victor Berard, La Mort De Stamboul, P. 106.

4- احمد رضا بيك، المصدر السابق، ص49.

أكـدت توجهـات الاتحاديـين الجديـدة دلائـل ذات مغـزى صـارت مظاهـر عامـة وعاديـة فـي صحفهـم، مـن بينهـا زيـادة الاهتمـام بتاريـخ التـرك قبـل نشـوء الدولـة العثمانيـة، والدعـوة لتنقيـة اللغـة التركيـة وبـذل الجهـود فـي هـذا المجـال، وتأسـيس أقسـام خاصـة بـالأدب التركـي، هاجمـوا، مـن خلالهـا، الأدب الكلاسـيكي العثمانـي مؤكديـن انـه يـدور فـي فلـك الأدب الفارسـي وتغلـب عليـه الاسـتعارات الفارسـية والعربيـة، ودعـوا إلـى تطويـر أدب تركـي، يسـتند فـي مفرداتـه إلـى اللغـة التركيـة حصـرا[1]. وشـطت كتابـات الاتحاديـين إلـى التطـرف فـي أحيـان كثيـرة، مـن ذلـك مثـل، ارتفـاع الأصـوات المطالبـة بتوطيـن الأتـراك فـي المناطـق التـي شـهدت تراجعـا بعدد الأتراك، تحت هذا الظرف أو ذاك[2].

إن الصـورة النهائيـة للتركيـة المـروج لها من قبل الاتحاديين هي اسـتخدام الإسـلام أداة أصيلـة، فاسـتمروا في تغطية برامجهم بألفـاظ دينية منمقة وطنانـة، كما ادعت صحفهم أن الإسـلام والقوميـة قـد اندمجـا في هيكل واحـد[3]. وفـي محاولة مـن الاتحاديين لجمع التركيـة والإسـلام بالعصرنـة دعا حسـين زادة علـي إلى صـورة جديدة للهويـة تتلخص في أن يكونـوا أتراكا، ومسـلمين، وأوربيين، أي محتفظين بالمشـاعر التركية، ومنتسـبين للدين الإسـلامي، ومجهزيـن بالحضـارة الأوربيـة المعاصـرة[4] مـن دون أن يكون فـي دعواه أي إشارة أو مكان للعثمنة.

إن هـذه الفكـرة ذات الثـلاث شـعب، فصلهـا وعمـق أسسـها ضيـاء كـوك ألـب (1876-1924) فـي مقالتـه المعنونـة «الأتركـة والإسـلام والمعاصـرة» صـاغ فيهـا شـعارا حـدد بـه سـمات الهويـة، نـص علـى: «إننـا ننتمـي إلـى الأمـة التركيـة، والمجتمع

1- Please looke at: M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, PP. 43-44.

2- Şerif Mardin, Jön Türklerin Siyasi Fikileri, S. 148.

3- M. Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, P.211.

4- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, PP. 316-317.

الإسـلامي، والحضـارة الغربيـة»[1]. وصـار هـذا الشـعار حجـر الزاويـة فـي سياسـة «جمعيـة الاتحـاد والترقـي» عقـب ثـورة 1908، مـع تأكيـد قـوي علـى الجانـب التركـي. لكـن قبيـل الثـورة فـان الأتركـة، وكثيـرا مـن الأفـكار والمبـادئ التـي نـادى بهـا ولهـا الاتحاديون، تراجعت أو اختفت من برنامجهم الدعائي.

1- للتفاصيل عن ضياء كوك الب، حياته وأفكاره وتأثيره في الفكر القومي التركي يراجع:
"Turkish Nationalism and Western Cirilization", Op. Cit.; Uriel Heyd, Foundations of Turkish Nationalism. The Life and Teachings of Ziya Gökalp, London, 1950; Niyazi Berkes, Ziya Gökalp: His Contribution to Turkish Nationalism, "The Middle East Journal", London, Vol. 8, No. 4, Autumn 1954, PP. 375- 390.

سادسا: الاتحاديون من التنظير المثالي إلى الطرح الواقعي النفعي

صاحب عملية إعادة تنظيم «جمعية الاتحاد والترقي»، إبان السنتين اللتين سبقتا ثورة 1908، تحول في الأفكار السياسية للاتحاديين من النظريات الكبرى التي آمنوا بها ودافعوا عنها، إلى معتقدات سياسية وتكتيكات بسيطة وضيقة. فتبنى الاتحاديون برنامجا سياسيا وذرائعيا خالصا، بعد أن كانوا يزدرون النظريات السياسية المحضة، ولم يعد إيمانهم بالعلم قضية جوهرية، بل كلما ازداد ارتباط الاتحاديين بالنشاط السياسي العملي، كلما قل شوقهم السابق لمجتمع يقوم على أسس علمية، وفقدت مفاهيم أساسية في الفكر الاتحادي، مثل «العلم» و «التقدم» و «القانون الطبيعي» قيمتها عند قادة الاتحاديين، وصاروا ينظرون إليها على أنها عموميات لا يمكن أن تقدم إلا مساعدة بسيطة في حل المشاكل السياسية التي كانوا يواجهونها، بل أن الاتحاديين صاروا ينتقدون أولئك الذين واصلوا تمسكهم بطرح النظريات الاجتماعية العلمية، معبرين عن قناعتهم بأهمية استيعاب السياسة الحقيقية. وكان الهدف الأساس من كل هذا التغيير هو تسهيل القيام بالثورة، وتيسير إدارة دولة آمنوا أن إصلاحها يعتمد على مقاييس سياسية حساسة، وليس على نظريات كبرى لتنظيم عالمي بعيد المدى. وبحلول العام 1908 اكتمل التحول، وصارت الجمعية منظمة سياسية صريحة، ذات عقائد وتكتيكات سياسية خالصة[1].

في أثناء مدة التحول من حركة فكرية إلى أخرى سياسية، فإن المنظرين الاتحاديين وجدوا أنفسهم أمام خيارين: إما تسييس أفكارهم والتكيف مع الواقع الجديد للجمعية، أو

1- Please look at: M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, PP. 290-291.

الابتعاد عن مجرى الحركة وسياستها ليصبحوا مفكرين ونقاد اجتماعيين. وفي الوقت الذي لم يتمكن فيه العديد من الاتحاديين من التعامل مع هذا التحول، واختاروا ترك الجمعية لمتابعة أفكارهم المثالية من خلال منشوراتهم، اختار آخرون تقبل هذا التغير والانسجام مع البيئة الجديدة لـ «جمعية الاتحاد والترقي»، وتسييس النظريات التي كانوا أبطالها بما يلائم الواقع الجديد. وكان أحمد رضا في مقدمة هؤلاء، فبعد سنوات من الجدال بان الثورة ، مع كل ما تحويها من فوضى واضطراب، ستؤذي الدولة، وإن الطريق الأسلم للتغيير هو التطور التدريجي، غير فكره ودعا الجيش للدخول إلى المعترك السياسي، وتشكيل عصابات لإقصاء الحكومة[1]. وبعد تمسكه الطويل بالوضعية، تراجع مكانها في كتاباته، وانحسر استخدامها، فقط، في محاولات كسب دعم الوضعيين العالميين لبرنامج الاتحاديين ونشاطهم، وفي الترويج لأهدافهم السياسية، وانتهى حلمه بتأسيس مجتمع علمي يحكم فيه الدين الإنساني باستخدامه الوضعية في تعزيز أهدافه الوطنية، أما كفاحه للحفاظ على شعار «النظام والترقي» قاعدة أساسية لـ «جمعية الاتحاد والترقي» فقد نسي بسرعة[2].

ساعدت تلك التغيرات القادة الاتحاديين الذين تولوا إعادة تنظيم الجمعية والنشطاء الجدد، أمثال أنور بك وطلعت بك وعمر ناسي وبهاءالدين شاكر وناظم السالونيكي، إلى البروز في المقدمة، والتظاهر بالشهرة على حساب المنظرين الكبار للعقد السابق. ومع أن القادة الجدد تأثروا، بالتأكيد، بالفكر السياسي للاتحاديين، فإن أهدافهم، قصيرة المدى، تفاعلت بدرجة محدودة مع تلك النظريات، وعوضا عن بذل الجهود لتأسيس مجتمع جديد قرروا، ببساطة، التعامل مع السياسة الواقعية.

لقد نجح هؤلاء بجدارة في تحويل السمة الفكرية لـ «جمعية الاتحاد والترقي» التي لطالما عبرت عن نفسها في رفضها للثورة في الشوارع، وتمسكها بتغيير الوضع من خلال

1- “Modernisation de la Turguie et L’Influence du Positivisme”.

2- Enes Kabakçt, Ahmed Riza Bey Interprete du Positivism; M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.293.

إصلاح علمي ومعرفي فيها، إلى أخرى سياسية تبعث بمجموعات فدائية لاغتيال معارضيها. وبعد أن كانوا متمسكين بالنظرية الداروينية دليلا لفهم الحياة العضوية والاجتماعية، على السواء، ومؤمنين بالوضعية والنظرية النخبوية واللامساواة بين البشر، اتخذوا من «حرية، مساواة، عدالة» شعارا لهم، ولم يمنعهم عن ذلك كل تأكيداتهم السابقة في أن هذا الشعار هو نتاج نزوة رومانسية للقرن الثامن عشر، وشاهد على عصر ما قبل العلم والماضي البعيد، ووضع الاتحاديون الاعتبارات العلمية التي دافعوا عنها جانبا، وروجوا لشعارهم الجديد بقوة متناهية حتى صار حقيقة تناقلتها تقارير السفراء في الدولة العثمانية[1]. فشعار «حرية، مساواة، عدالة» كان دعامة مهمة في كفاح الاتحاديين ضد السلطان عبدالحميد، وأداة رئيسة في كسب دعم وتأييد المجموعات الأثنية المختلفة في الدولة العثمانية لصالحهم.

استخدم قادة الاتحاديين الجدد كل شئ لكسب المؤيدين والوصول إلى أهدافهم. وعلى الرغم من نزعتهم التركية، فإنهم نظروا إلى الأتركة، مثل نظرتهم إلى العثمنة والإسلامية، أدوات لتحقيق أهدافهم السياسية، خصوصا هدفهم الأسمى: إنقاذ الدولة العثمانية، ومن دون شك أن الدعاية لفكرة القومية التركية، التي استخدمتها «جمعية الاتحاد والترقي» بشدة طوال السنوات **1902-1907**، وبدرجة أخف إلى العام **1908**، ساعدت الجمعية في كسب العديد من المجموعات التركية التي أصبحت أقليات في أماكن مثل بلغاريا، وفي تأسيس روابط متينة مع ذوي الأصول التركية في القفقاس، كما أعطت انطباعا قويا ومؤثرا للضباط الأتراك الذين كانوا يخدمون في مقدونيا وتعلموا الإعجاب بالحركات القومية التي قاتلوا ضدها. وفي أواخر **1907** وبدايات **1908** بدأت الجمعية باستخدام العثمنة والإسلامية إلى جانب الأتركة في دعايتها، وفي أحيان كثيرة قام الاتحاديون، ببساطة تثير الاستغراب، بتبديل صيغة «الترك» بـ «العثمانية» حسب صفة المتلقي.

مثل هذه الدعاية النفعية المرنة لـ «جمعية الاتحاد والترقي»، والتي كانت تُعدل باستمرار لتناسب طيف القوميات والديانات بل والمعتقدات والأهداف السياسية أيضا،

1- ينظر: زين نورالدين زين، نشوء القومية العربية، ص82.

مكنت الجمعية من الوصول إلى صيغ للتعاون مع العديد من المجموعات غير التركية ممن كانت ترفض سابقا العمل مع الاتحاديين. وإزاء إدراك قادة الجمعيات بأن زعماء المنظمات العرقية- الدينية من غير الأتراك متمسكين بقومياتهم وخصائص مجتمعاتهم، ولديهم تحفظاتهم تجاه العثمنة المتطرفة ومخاوفهم من أنها قد تأكل الاعتبارات المميزة لهم بتصنيفهم عثمانيين قبل كل شيء، مالت الجمعية، في دعايتها، إلى الاعتراف بحقيقة أن المجموعات الأثنية المختلفة تمثل قوميات ضمن الدولة، مع أن قادة الاتحاديين ظلوا راغبين بتوحيد الجمعية تحت لواء العثمنة المتضامنة، فكتبوا:

«ما هي الأمة؟

إن الأمة هي الشعب الذي يتكلم معظمه لغة واحدة، والذي لديه نفس العادات والأخلاق...، فمثلا أن الأتراك والعرب أمم، لأن لكل واحد منهما لغة، ورابطة دم، وعادات، وتاريخ.

ماذا تعني الأمة العثمانية؟

إن الأمة العثمانية كيان أوجده ارتباط مختلف الشعوب، مثل الأتراك والعرب والأكراد والأرمن واليونانيين والبلغاريين واليهود... الذين ينتمون إلى قوميات وديانات مختلفة.

كيف أمكن تسمية هذه الشعوب، التي لديها لغات وديانات ومعتقدات مختلفة، بالأمة العثمانية؟

رغم أن هذه الشعوب لديها لغات مختلفة خاصة بها، فإن اللغة الرسمية واحدة. هي اللغة العثمانية.

هل الاختلاف في الديانة والمعتقد يعيق تكون الأمة؟

كلا، لا يمكنه أن يعيق تكون الأمة لأن مسألة الدين والمعتقد تخص الحياة الآخرة.

وفي قضايا هذا العالم، على أي حال، فإن الأفراد لا يمكنهم التخلي عن مصالحهم، وعلى أولئك الذين لديهم أهداف مشتركة أن يتحدوا»[1].

على الرغم من إعلان «جمعية الاتحاد والترقي» بأن الدين قضية شخصية، فإنهم لم يتمسكوا بذلك مطلقا. فانطلاقا من الانتهازية السياسية المتبناة من قادة «جمعية الاتحاد والترقي» ما بعد العام 1906، ما كان لهم أن يتخلوا عن وسيلة مؤثرة مثل الدين، بل أنهم شجعوا، من جديد، الاستخدام المستمر للإسلام أداة للاتفاق الوطني في دعاية الجمعية، وبلغ تركيزهم على الدين حدا دفع التقارير السرية الأجنبية إلى وصفهم بأنهم مسلمون متعصبون شديدو التطرف[2]. وقد أفادتهم هذه السياسة في استقطاب عدد كبير من المسلمين، بما في ذلك شخصيات ذات ثقل قوي، منها مثلا، بديع الزمان سعيد النورسي[3]، الذي ساند الاتحاديين متأثرا بدعايتهم الإسلامية، وكان ذا عون لهم في حملتهم الدعائية[4].

1- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.301.

2- Please look at: Ibid., P.239.

3- بديع الزمان سعيد النورسي (1876-1960)، رجل دين كردي، ولد ونشأ وتعلم في قرية تسمى نورس، تابعة لبدليس شرق الأناضول، لقب ببديع الزمان لعبقريته وقدرته السريعة على الحفظ والفهم. توجه، بداية شبابه، إلى اسطنبول حيث زجت به الأوضاع السياسية في أتونها، واتخذ موقفا معارضا من السلطان عبدالحميد، فتمكنت «جمعية الاتحاد والترقي» من اجتذابه إليها والحصول على تأييده لها، لكنه عاد وغير موقفه منها، عقب استلامها السلطة، معلنا معارضته لها. دخل النورسي في سجالات فكرية وسياسية كثيرة تعرض نتيجتها للسجن والنفي مرات عديدة، وهو ما أكسبه صيتا واسعا، لكن شهرته الحقيقية جاءت من تأليفه مائة وثلاثون رسالة سميت «رسائل النور» تعلقت كلها بالإيمان وتدعيمه في النفوس، وكان لها أثر ساحر على كثير من طلابه ومريديه الذين كونوا حركة أطلق عليها «حركة النور». وللنورسي مؤلفات أخرى أشهرها: «إشارات الإعجاز في مضان الإيجاز» و «المثنوي العربي» و «الصيقل الإسلامي». يراجع: الدكتور محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دمشق، 1999، ص364-393؛ مصطفى محمد، الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، ألمانيا الغربية، 1984، ص121-154؛
http:// www. risale - inur. Com.tr/ rnk/ eng/ tavihce/ 1 chap 3.html, Chapter Three.Freedom and Constitutionalism.

4- الدكتور محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص369.

لقد كان في السياسة البراغماتية التي تبنتها «جمعية الاتحاد والترقي» عونا كبيرا لها لكسب الكثير من الأنصار والمساندين، وساعدتها في الانتقال من التنظير إلى العمل والقيام بالثورة، لتسيطر على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية لعقد من الزمان، ولتكون أمام السلطة حقيقة واقعية لا فكرا نظريا. وخلال سنوات حكمهم اختط الاتحاديون لأنفسهم نهجا سياسيا اقترب مرات، وابتعد أخرى، عن الأفكار السياسية التي تبنوها، وتحمسوا لها، خلال مراحل نضالهم في صفوف المعارضة، مصيبين في أماكن ومخطئين في أخرى.

أفكار الاتحاديين في التطبيق العملي

«انفتح القرن العشرون لتركيا يوم 23 تموز 1908» حسب وصف المؤرخ التركي فيروز أحمد[1]. فشهد ذاك اليوم، كما فصلت ذلك الكثير من المصادر[2]، أفراح جماعية غامرة بانتهاء الاستبداد الحميدي، وعمت الشارع العثماني مشاهد مؤثرة، فالناس بمختلف انتماءاتهم الدينية والعرقية تعانقوا وتبادلوا التهاني، كما استجابوا بحماس لجهود قادتهم في تنظيم المظاهرات الشعبية فرحا بعودة الدستور، وتأييدا للنظام الجديد، وصدحت حناجر الشعراء مهللة للعهد الجديد[3]. فبعد قيود اسر طويل دام اكثر من ثلاثة عقود، وجد العثمانيون

1- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص76.

2- ينظر مثلا: «المشرق» (مجلة)، بغداد، السنة الحادية عشر، العدد9، ايلول1908، ص643؛ لوتسكي، المصدر السابق، ص397-398؛ الدكتور ك. استارجيان، تاريخ الأمة الأرمنية، الموصل، 1951، ص326؛ محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، الطبعة الثانية، بيروت، 1971، ص276-281؛ الدكتور رؤف الواعظ، أثر الدستور العثماني وخلع السلطان عبدالحميد في الشعر العراقي، «مجلة كلية الآداب- جامعة بغداد»، العدد 15، 1972، ص260-289؛

Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, P.63; B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.210-211.

3- من ذلك ما كتبه الزهاوي مقدما صورة للأفراح التي عمت المدن العثمانية:

وقفت والعين تبكي من مسراتها
أمام شعب من الأفراح عجاج
أمام بحر من الأفكار مضطرب
أمام جيش من الأصوات رجراج
إن الشعوب إذا هاجت عواطفها
كالبحر يضرب أمواجا بأمواج

أنيس الخوري المقديسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، الطبعة الثانية، دمشق، 1960، ص45.

أنفسهم وقد تحرروا فجأة، ولأول مرة في تأريخه اكتشف المجتمع العثماني حرية التعبير والتجمع، وبدت «الحرية» كلمة سحرية قادرة على حل جميع المشكلات وإشباع كل الرغبات، وان جميع الآمال ممكنة، وصرح أنور معلنا: «لقد عالجنا الرجل المريض»[1].

لقد فتحت ثورة الاتحاديين السبيل أمام سلسلة من تغيرات عميقة انتشرت في الدولة العثمانية خلال اكثر من عشر سنوات. وغداة الثورة فأن التغيرات كانت ذات أهمية واضحة، فكل المقربين من السلطان ودعائم نظامه المستبد هربوا أو جرى حبسهم، وتشتت شمل «بطانة يلدز»، وتم حل الشرطة السرية وإزالة شبكة الجواسيس، وعقب الثورة بأيام قليلة منح عفو عام استفاد منه ضحايا الظلم وتقارير التجسس والمجرمين، على السواء، كما رجع المنفيون السياسيون بالمئات، واستقبل العديد منهم بتظاهرات ضخمة، وجذبت الأوضاع الجديدة في اسطنبول جمعا آخر من المثقفين من مختلف أنحاء الدولة العثمانية، ومن مصر وإيران، وعلى وجه الخصوص أتراكا من روسيا وجدوا في الدولة العثمانية حرية تزايدت مكافحتها في روسيا[2].

انتشر المناخ الثوري بصورة سريعة، وازدادت إفرازات الثورة عمقا، لعل أحد تجلياتها الأكثر إثارة هو تطور الصحافة، فمع اندلاع الثورة قفز عدد النسخ الصادرة من الصحف اليومية في اسطنبول بمستوى بالغ الدلالة، إذ ازداد عدد نسخ جريدة «اقدام» إلى **60000** نسخة، و**40000** نسخة لجريدة «صباح»[3]. وإلى نهاية العام ظهرت مائة جريدة جديدة في الدولة العثمانية، احتلت الصحف الساخرة بينها مكانة هامة، بعد كبت طويل للضحك إبان عهد عبدالحميد[4]. ومع نهاية العام **1909** تجاوز عدد الصحف في الدولة العثمانية

1- نقلا عن: بول دومون وافرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص244.

2- يراجع: المصدر نفسه، ص246، 260، تاج السر احمد حران، تطور الفكر القومي العربي من خلال العلاقات العربية- التركية في الفترة 1908-1914، بغداد، 1983، ص15، فيروز احمد، المصدر السابق، ص76؛ **Mustafa Turan, Taşkışla'Da 31 Mart Fâciasl, S.33-34.**

3- **B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.230-231.**

4- بول دومون وفرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص254.

الـ350 [1]، وهو رقم ينطوي على دلالات معبرة، والأهم منه الطفرة النوعية في تلك المنشورات التي أمست تتطرق إلى مختلف المواضيع بحرية كبيرة نسبيا، وبعد أن كان مجرد ذكر «الثورة الفرنسية» يؤدي إلى إغلاق الجريدة، صارت الكثير من الكلمات التي ارتبطت بالثورة الفرنسية شائعة يوميا في الصحف والمجلات.

كما أدت ثورة الاتحاديين دور الكاشف للحركة العمالية. فغداة الثورة نظم العمال مسيرات وزعوا خلالها منشورات حملت شعار «جمعية الاتحاد والترقي»، وبعد إعلان الدستور الذي أملوا فيه تحسين حالهم وضمان حقوقهم، انغمس العمال في الإضرابات، فشهد شهر آب 1908، فقط، 110 إضراب، وسرعان ما اتسعت حركة الإضرابات لتمس كل قطاعات الحياة الاقتصادية تقريبا، ولم تتركز مطالب العمال على الأجور فقط، بل شملت أيضا ظروف العمل والعمال، فطالبوا بتخفيض ساعات العمل، وراحة أسبوعية إلزامية، والاعتراف بالنقابات من جانب مدراء المشاريع، وإنشاء مكتب للتفتيش على أحوال العمال[2]. ومن جانبها اتخذت «جمعية الاتحاد والترقي» في البداية موقف الحكم في منازعات العمال، مظهرة، على وفق حس وطني، إنها أكثر تحمسا للحركة العمالية عندما يخص الإضراب أحد المشاريع الأجنبية، لكنها ما لبثت أن أظهرت انزعاجها من اتساع الحركة وامتدادها إلى قطاعات استراتيجية مثل سكك الحديد، وخشي الاتحاديون أن تؤدي قوة الحركة إلى تحطيم ثقة الرأسماليين، مما دفعهم إلى العمل على كبح جماح الحركة العمالية، فأصدرت، في العام 1909، قانونا للإضراب اعترف بحق الإضراب لكنه قيد أعماله بدرجة خطيرة ومنع تكوين جماعات أو نقابات عمالية[3].

وأتـاح مناخ تموز 1908 للنساء المسلمات فرصة الإعـراب عن شخصيتهن وطموحاتهن، ففاجئن الجميع بحضورهن خلال الأيام الثورية ومشاركتهن في مظاهر الفرح

1- Hasan Kayali, Op.Cit., P.55; Kemal H. Karpat, The Mass Media, P.271;
جوزيف الياس، تطور الصحافة السورية في مائة عام (1865-1965)، بيروت، 1982، ص82.

2- بول دومون وفرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص257-258.

3- المصدر نفسه، ص258-259.

الأولى، كما أفصحن عن رفضهن للحجاب والانزواء في البيوت، وأظهرن رغبتهن في التعلم، وميلهن للمشاركة في الحياة السياسية، وأبدى الاتحاديون حرصهم على دعم الحركة النسوية، فخلال الشهور القليلة التي أعقبت الثورة تأسست، بدعم الاتحاديين، العديد من الجمعيات والنوادي النسائية التي طالبت بالارتقاء بمستوى المرأة وتحقيق مساواتها بالرجل[1]. كما بادر الاتحاديون إلى تأسيس شعب نسائية للاتحاد والترقي في العديد من المدن العثمانية، وعملوا على إتاحة التعليم للمرأة بشكل أوسع، وفسح فرص العمل أمامها. كما قدمت الجمعية دعمها للمطبوعات والصحف النسائية لتشهد ازدهارا واضحا[2]. وتبدو جهود الاتحاديين واضحة في السير قدما على طريق تحرر المرأة، بيد إن هذا التحرر لا بد له أن يكون بجرعات معينة، ويبقى ضمن حدود مرسومة داخل الأطر التي يقبلها المجتمع، فالاتحاديون لم يفضلوا اتخاذ نهج راديكالي، ولم يتردد كبار قادتهم في الإعراب عن تحفظهم إزاء المدى الذي يجب أن تصل إليه المرأة واقعا، وطموحا أيضا[3]. وربما كان الإجراء الأكثر تميزا في قضية المرأة هو ما خص موضوع الطلاق، ففي العام **1916** أصدرت الحكومة قانونا أجاز للزوجة طلب الطلاق إذا اقترف زوجها الزنا، أو انتهك عقد الزواج، أو تزوج ثانية دون موافقة زوجته الأولى، تبعه في العام التالي اعتماد قانون جديد للأحوال الشخصية، في الاتجاه نفسه، أرجع الزواج والطلاق والعلاقات الأسرية الأخرى إلى السلطات المدنية، واضعا نهاية لسلطة المحاكم الدينية[4].

مَثل هذا القانون خطوة مهمة على طريق العلمنة التي أحرزت تقدما كبيرا، في الدولة العثمانية، خلال عهد الاتحاديين وأدت إلى تبدل المشهد المؤسسي العثماني تبدلا محسوسا. فمنذ العام **1913** أصدرت الحكومة تشريعا حدّ، بدرجة ملحوظة، من تدخل المحاكم الدينية ووضع القضاة الشرعيين ومفسري الشريعة تحت سيطرة سلطات مدنية،

1- Vuslat Devrim Altinöz, Op.Cit., PP.14-15.

2- Please look at: Ibid., PP.16-22.

3- G. F. Abbott, Turkey in Transition, London, 1909, P.33.

4- بول دومون وفرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص321.

وفي العام 1915 صدر مرسوم نص على توحيد مجمل الجهاز القضائي، بما في ذلك المحاكم الدينية، تحت سيطرة وزارة العدل وحدها[1]. وضمن الاتجاه نفسه اجتهدت الحكومة في تحويل رجال الدين إلى «موظفين» بربطهم بالإدارة المركزية وتخصيص مرتبات لهم أسوة ببقية مستخدمي الدولة، كما ألزمت المدارس الدينية بقبول وصاية وزارة التعليم، وأخضعت الأوقاف الدينية لإشراف وزارة المالية، وفي خطوة لاحقة تم تجريد شيخ الإسلام من معظم صلاحياته لتنحصر بإدارة الشؤون الدينية فقط[2].

لقد كان البرنامج التحديثي للاتحاديين واسعا، شمل جوانب مختلفة من الواقع العثماني، فمثلا تطور التعليم بدرجة كبيرة، ففتحت مدارس لكلا الجنسين بمختلف المستويات في معظم أقاليم الدولة العثمانية، وحصلت تطورات مهمة في وزارتي الداخلية والحربية واستحدثت صنوف جديدة في الجيش، وأُدخلت تعديلات كبيرة على البلديات والمواصلات، وأضحت الكهرباء والهاتف ظاهرة منتشرة، وتجديدات كثيرة أخرى غيرها[3]، إذ حاول الاتحاديون إجراء التجارب في كل مجالات الحياة، واستعاروا بحرية كبيرة من الغرب، وجربوا ميادين كان يمكن تأجيلها في ضوء الأولويات، مثل إدخال الرياضة التنافسية ولأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية شارك فريق من لاعبين أثنين في الألعاب الأولمبية التي انعقدت في ستوكهولم في العام 1912 [4].

الآمال والطموحات كانت كبيرة، والمحاولات كانت حثيثة وجادة لتحقيق الكثير، لكن ظروف عملهم لم تكن مثالية، وحسب تعليق أحد المؤرخين «لإثبات نجاحها احتاجت ثورة تركيا الفتاة عشر سنوات من السلام، وعوضا عن ذلك حصلت على 12 سنة حرب»[5].

1- المصدر نفسه، ص323.

2- S.J. Shaw and E.K. Shaw, Op.Cit., PP.306-307.

3- للتفاصيل ينظر: فيروز أحمد، المصدر السابق، ص77؛
S.J. Shaw and E.K. Shaw, Op.Cit., PP.305-310; B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, PP.227-230.

4- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص77.

5- Quoted in: Richard D. Robinson, Op.Cit., P.12.

ففي غضون أشهر اضطرت الحكومة العثمانية إلى التنازل عن أراض أكثر من تلك التي تخلى عنها عبدالحميد طوال عهده، وهو ما تسبب في ضربة قوية لمصداقية الاتحاديين الذين كانوا قد أعلنوا إنهم جاءوا للحفاظ على سلامة الدولة العثمانية والحيلولة دون تمزقها، كما فشل الاتحاديون في مواجهة العدوان الأجنبي أو الحركات الانفصالية، وأظهروا عجزا لم يختلف عن ذلك الذي كانت عليه حكومة عبدالحميد، فتمكنت إيطاليا من السيطرة على طرابلس الغرب وبنغازي، كما فقدت الدولة العثمانية معظم أراضيها الأوربية[1]، وهو ما كان نكسة كبيرة للاتحاديين وإخفاقا جسيما لهم أمام الرأي العام العثماني. رغم ذلك فقد أظهر الاتحاديون تماسكا قويا وإصرارا واضحا لا على الاستمرار فحسب بل والانفراد بالسلطة أيضا.

مشجعون بكل الزهو والاعتداد بالنفس الذي أصابهم إثر نجاحهم السريع، والسهل نوعا ما، في القضاء على نظام استبدادي فرض سطوته على البلاد أكثر من ثلاث عقود، لم يخف الاتحاديون نيتهم في السيطرة الكاملة على مقاليد الأمور، ولم يسمحوا، إلا بمجال ضيق، لأي نشاط سياسي خارج سيطرتهم، وبغرور المنتصر أعلنوا أنهم «لا يخشون إلا الله»، وأن جمعيتهم «روح الدولة»، وأي محاولة لمعارضتها أو انتقادها هو «مؤشر للجهل»[2]، بل وخيانة للدولة[3]. والأكثر من ذلك إن «جمعية الاتحاد والترقي» كانت كثيرا ما تشير لنفسها بـ «الجمعية المقدسة»[4]. ومع أن الاتحاديين اختاروا، في البداية، البقاء

1- للتفاصيل يراجع: «مذكرات أنور باشا في طرابلس الغرب»، تقديم وترجمة عبدالمولى صالح الحرير، مراجعة حبيب الحسناوي، ليبيا، 1979؛ مولان زادة رفعت، توركية انقلابنك تاريخ ايج يوزى، استانبول، 1929، ص36-38؛ أنس إبراهيم العبيدي، أزمة البوسنة 1908-1909، بغداد، 2004؛
W. Miller, Op.Cit., PP.479-517; H.N.Howard, The Partition of Turkey. A Diplomatic History 1913- 1923, NewYork, 1966, PP.21-31; S.J. Shaw and E.K. Shaw, Op.Cit., PP.292-298.

2- Quoted in: M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.279.

3- M. Şükrü Hanioğlu, The Anniversary of a Century- Old Ideology.

4- Erik- Jan Zürcher, Islam in the Service of the National and Pre- national State.

خلف الأضواء، بعيدا عن مواقع السلطة، مدفوعين بقناعتهم بصعوبة نبذ الصفوة القديمة، فانهم من الناحية الفعلية كانوا الأمر الناهي في الدولة العثمانية[1]، وعملوا على إحلال الصفوة الجديدة بدل القديمة بصورة تدريجية، ونجحوا في استثمار كل المحاولات الانقلابية لتدعيم سلطتهم[2]، فتخلصوا من السلطان عبدالحميد الذي كان يمثل تهديدا خطيرا لهم، واختزلوا سلطات السلطان والصدر الأعظم. وفي مجلس الوزراء أدخلت «جمعية الاتحاد والترقي» عددا من رجالها سيطروا على الوزارات الأكثر أهمية، وقمعت الجمعية كل القوى المعارضة باعتقال ونفي غالبية قادتها، أو اغتيالهم[3]، كما أصدرت أحكاما بالإعدام نفذت علانية في الساحات العامة بصورة لم يسبق لها مثيل حتى في عهد السلطان الأحمر[4]. وحكم الاتحاديون البلاد من خلال الآلاف من القوانين المؤقتة، وعلى الرغم من عنفهم ارتفعت الأصوات المنتقدة، فمثلا صرح أحد أعضاء مجلس المبعوثان أن «الإرادة العرفية ليست سوى فزاعة» مؤكدا «حتى اشد الرجال حماقة يستطيع أن يحكم بلدا ما بالحكم العرفي»[5]، وأدان سجن وتعذيب المعارضين للحكومة. أوردت جريدة [طنين] التفاصيل على النحو الأتي: «لقد فتح السيد لطفي فكري الملفوفة التي جاء بها الخدم وابرز عصا قائلا: إن هذه العصا المدماة أيضا عصا مكسورة، وهي إنما كسرت نتيجة استعمالها للضرب. إن هذا السوط هو سوط مدير السجن... وهاهي تلكم الأصابع التي بترت والأظافر

1- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.280.

2- للتفاصيل ينظر: مولان زادة رفعت، توركيه انقلابنك ابج يوزى، ص39-58؛
V. R. Swenson, The Military Rising in Istanbul 1909, "Journal Of Contemporary History", Vol. 5, Number3, 1970, PP. 171-184; Feroz Ahmad, The Young Turks, PP. 14-47, 65-152. "

3- Zafer F. Yoruk, OP. Cit.

4- Hüseyin Cahit Yalçın, 31 Marttan Sonra İdamlar Karşısında, "Yakın Tarihimiz", İstanbul, Cılt2, Sayı 5, Mart 1962, S.136-137
حسين جاهد يالجين، أمام الإعدامات التي جرت بعد حادثة 31 آذار، «تاريخنا المعاصر»، المجلد 1، العدد 5، آذار 1962، ص136-137.

5- مالميساتر، المصدر السابق، ص52.

التي سقطت نتيجة التعذيب... فكروا مليا، وأبدوا أراءكم، وتذكروا قبل كل شئ أحفادكم... لا تخجلوهم بذكريات آبائهم»[1]. لكن هذا الصوت تم إسكاته، وأخرست كل الأصوات المشابهة بكل السبل المتاحة وغير المتاحة، بما فيها تلك التي لطالما أدانوا عبدالحميد لاتباعها. كما أوقف الاتحاديون كل الصحف المناوئة لسياسة الحكومة، أو التي تتجرأ على انتقادهم، بل وقتلوا الصحفيين المعاندين ممن تمسكوا بمواقفهم[2]، وجعل الاتحاديون من جمعيتهم حزبا وحيدا يمسك بأغلب خيوط السلطة، أدار الحياة السياسية للبلاد على هواه. واعتبارا من **1914** تمتعت الجمعية ببرلمان صوري كل أعضاؤه تقريبا من الاتحاديين، خلت مناقشاته من كل مذاق، وصار أعضائه مجرد مطبلين للحكومة، ولم يكتف الاتحاديون بالسيطرة على كل الوزارات، بل وتجاوزوا ذلك إلى منصب شيخ الإسلام، فوضعوا رجلا تابعا لهم يملك بالفعل قدرا من الدراية بالمسائل الدينية، لكنه بعيدا جدا عن الوسط المحافظ الذي كان كبار الشخصيات المسلمة يجيئون منه عادة[3]، كما نجحت «جمعية الاتحاد والترقي» أيضا، حسب شهادة السفير البريطاني في اسطنبول، بإنشاء لجنة سرية مكلفة بضبط أنشطة القصر السلطاني، ملتقى جميع الساخطين[4].

بموازاة كل تلك التطورات بذلت الجمعية جهدا ضخما لتوسيع ومد نفوذها إلى كل ولايات الدولة العثمانية، واضطلعت بإنشاء تنظيم هرمي كامل من مركز «جمعية الاتحاد والترقي» في سالونيك إلى الأندية المحلية، مرورا بشعب مدن الولايات، ومع نهاية **1909** أعلن بهاءالدين شاكر إن الجمعية نجحت في تأسيس **360** مركزا على طول البلاد، تضم أكثر من **850** ألف عضو[5]. وبخطى سريعة تضاعفت هذه الأرقام وتنافست الولايات على إنشاء

1- المصدر نفسه، ص52-53.

2- تنظر: «صدى بابل» (جريدة)، بغداد، العدد96، 20 آب 1911.

3- **Feroz Ahmad, The Young Turks, PP.146-147;**

بول دومون وفرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص301.

4- بول دومون وفرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص301.

5- **M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.288.**

مراكز لـ «جمعية الاتحاد والترقي» لتمتد حتى المناطق الريفية، وتسابق الناس للانضمام إليها طمعا في مكاسب، أو خوفا من مغارم «حتى كاد يشمل أكثر أبناء العصر» حسب وصف مجلة «المقتطف»[1]. وبالتأكيد لم يقتصر هذا التنظيم على المدنيين، بل ركزت الجمعية على العسكريين بدرجة أكبر، فجلعت أيديولوجيتها هي المهيمنة على الجيش، وقضت على كل الأيديولوجيات التي كانت تتعارض معها، وأحالت على التقاعد كل الضباط الذين عُدّوا غير قادرين على قبول قيادة الاتحاديين خلال عمليات تطهير موسعة جرت في العام 1914 [2]، وصنعت «جمعية الاتحاد والترقي من الجيش سندا أساسا لها مشيحة بنظرها عن أفكار سبق وأكدت عليها في استبدال عمودي المجتمع العثماني قبل التنظيمات، الانكشارية والصفوة القديمة، بصحافة حرة وبرلمان على التوالي[3]، فبقي الجيش قوة فاعلة في المجتمع العثماني.

لقد كان نظام الاتحاديين، بحزبه الواحد الموجود في كل مكان، وبرلمانه الذي لا توجد فيه مقاعد للمعارضة، وجيشه «الاتحادي»، وحكومته الوحيدة اللون، وتكميمه للرأي العام تجسيدا لدكتاتورية حقيقية، لكنها بلا دكتاتور، فرغم احتكار عدد من الرجال للسلطة، وبروز بعض منهم على حساب الآخر، فإن أحدا منهم لم ينفرد بالسلطة، ولم يتوصل أي شخص منهم إلى ممارسة سيطرة بلا ضابط على شؤون الدولة، بل اضطروا إلى اقتسام السلطة مع آخرين.

قد تكون في الدكتاتورية التي أوجدها الاتحاديون صدمة لكثير من المعاصرين لأحداث 1908، أو لمن تابع تاريخ «جمعية الاتحاد والترقي» بدءا من إعلان الثورة منجذبا لشعاراتها الدعائية، لكنها جاءت تطبيقا لفكر تمسك به الاتحاديون قبل استلامهم السلطة، فلم يكن الاتحاديون مؤمنين بالمشاركة الجماعية وحكم الشعب لنفسه، على إن هذا لا ينفي

1- «المقتطف»، المجلد 35، الجزء 3، سبتمبر 1909، ص875.

2- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص22.

3- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.313.

إن الشكل الذي خرجوا به لم يكن دكتاتورية نخبة مفكرة، مثل ما كان مزمع، بل على العكس إن الشخصيات التاريخية الكبرى من منظري الجمعية جرى استبعادهم، فشغل أحمد رضا منصبا شرفيا برئاسة البرلمان، وصار عبدالله جودت من المغضوب عليهم، وانتقل إبراهيم تيمو إلى المعارضة، في حين حكم غيابيا بالموت على صباح الدين، وتطول القائمة شاملة عددا كبيرا من مفكري «جمعية الاتحاد والترقي»، وعددا أكبر من النخبة المثقفة خارجها. ولم يكن النظام الذي أنتجه الاتحاديون دكتاتورية حزب حتى، بل كان على نحو أدق دكتاتورية زمرة، اقتسم أعضاؤها القادمون، إجمالا، من الطبقة الوسطى، المناصب المهمة في الجمعية والحكومة، فإلى جانب «الثلاثي الحاكم» أنور وجمال وطلعت، هناك رجال مثل الدكتور ناظم الذي كان بمثابة موجه خفي لجمعية الاتحاد والترقي ولم يخرج من الظل إلا في العام 1918 ليصبح وزيرا للتعليم، والدكتور بهاءالدين شاكر الذي ترأس، في العام 1914، الشعبة السياسية لـ «التنظيم الخاص» الذي أنشأه الاتحاديون لأغراض التجسس والدعاية والتحريض!، ومدحت شكرو أحد الأعمدة الراسخة وصاحب اليد الكبيرة في تنظيمها، ومحمد جاويد وزير المالية في أغلب وزارات الاتحاديين، وضياء كوك ألب الكاتب الموسوعي الموهوب الذي جرى تصعيده بسرعة بالغة إلى مرتبة الأيديولوجي الرئيس للجمعية، وقرة كمال نائب اسطنبول والذي تولى منصب وزير التموين أثناء الحرب[1].

اقتربت توجهات «الزمرة الحاكمة» في بعض الأحيان، وابتعدت في أحيان كثيرة أخرى عن الفكر الذي أسس له الاتحاديون قبل العام 1908، لكن الكل كان متفقا على أن هدفهم الأسمى هو الحفاظ على الدولة العثمانية ووحدتها المهددة بدرجة خطيرة. وبمجرد وصولهم إلى الإمساك بمقاليد الحكم صار لزاما عليهم العمل على تطبيق الجزء الأول من شعارهم «الاتحاد»، وفي محاولاتهم لتحقيق تلك الغاية لم يتركوا أي سبيل. فرغم الميول

1- Ibid., P.280;

بول دومون وفرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص302.

التي أبداها الاتحاديون للأتركة، ارتأى قادتهم أن يستخدموا معها العثمنة والإسلامية في الوقت نفسه. ففي العام 1909، مثلا، طالبت اللجنة المركزية لـ «جمعية الاتحاد والترقي» من الحكومة احتلال أذربيجان، مبررة ذلك بأن «الاستعباد الروسي لأرض أذربيجان العظيمة والغنية وسكانها الأربعة ملايين مسلم من العناصر التركية المحاربة، من شأنه قطع علاقاتنا وصلاتنا بآسيا الوسطى»[1]. وفي التاريخ نفسه اختارت لمجلس الأعيان أشخاصا أبرز ميزة لهم الدفاع بعناد عن العثمنة وحبهم الجم لها[2]. وفي ضوء ذلك لا يبدو غريبا أن تقوم «جمعية الاتحاد والترقي»، بالوقت عينه، بإرسال مندوبين إلى مكة المكرمة، أثناء موسم الحج، ليطلبوا من الشخصيات البارزة للعالم الإسلامي دعم النظام الجديد[3].

هذا التوجه للاتحاديين لا ينفي أنه في أوقات محددة ألتمس قادة الاتحاد والترقي واحدة من الأفكار الثلاثة أكثر من الأخريين، فبعيد الثورة اكتسبت العثمنة أهمية متعاظمة، واعتقد الاتحاديون إنها أفضل الوسائل لتحقيق اتحاد جميع العناصر العرقية في الدولة العثمانية، أي إنهاء الاتجاهات الخصوصية، أو الاستقلالية، وبالتأكيد الانفصالية بين صفوف قوميات الدولة، من المسلمين وغير المسلمين، وفي حالة غير المسلمين أراد الاتحاديون الانتهاء من الملل، الجماعات العرقية الدينية شبه المستقلة، والتي نظروا إليها على أنها لا تتماشى مع العصر وتؤلف تحديا حقيقيا للمفهوم الذي تصوروه للدولة، وعلى وفق وصف مصدر معاصر فإن الاتحاديين حاولوا القضاء على «الاتجاهات القومية وغير القومية في البلاد وأظهروا بوضوح أنهم يريدون الحرية لأنفسهم فقط»[4]. ومن دون شك إن مثل هذه الرؤية كانت مرفوضة من أبناء مختلف القوميات في الدولة العثمانية الذين تمنوا على النظام الجديد مكانة أوسع في شؤون الدولة وقدرا أكبر من الحكم الذاتي، إن لم يكن لشئ فعلى الأقل ثمنا لمشاركتهم في النضال ضد الاستبداد، وكان ذلك بداية لخلاف بين «جمعية

1- **M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.298.**

2- **Ibid.**

3- **Ibid.**

4- نقلا عن: الدكتور هاشم صالح التكريتي، بريطانيا وانتفاضة الشعب الألباني، ص159.

الاتحاد والترقي» وقيادات مجموعات أثنية مختلفة ممن سبق وتعاونوا مع الاتحاديين، خصوصا وأنهم فشلوا في إيجاد أرضية مشتركة خلال السنين التي قضوها في المعارضة، وأفضل ما استطاعوا تحقيقه هو تحالف تكتيكي لتحطيم النظام. وزاد من توتر العلاقات إن الترجمة التي قدمها الاتحاديون للعثمنة كانت، ببساطة، تركية، فأعلنت الصحف المقربة لـ «جمعية الاتحاد والترقي» بأن الأمة المسيطرة في الدولة العثمانية هي التركية، وقدمت المساواة الدستورية على أنها فضل ممنوح من الأمة المسيطرة إلى الباقين، بل وطالبت الصحف، أيضا، من مختلف القوميات في الدولة العثمانية السير على خط الأمة المسيطرة، وشدد الاتحاديون على أن هذا الأمر حقيقة يجب على كل فرد قبولها[1]. ولا يخلو من مغزى الإشارة إلى أن الاتحاديين، في اجتماعاتهم السرية، شددوا على أهمية الاستحواذ التركي على السلطة ضمن رؤية مركزية[2].

كان طبيعيا أن ترفض الفسيفساء القومية والدينية في الدولة العثمانية تلك العثمنة الهادفة إلى دمج الجميع في إناء صهر مليء بالشعارات التركية بطريقة لم تختلف كثيرا عن الأتركة. وتسارعت الأحداث باتجاه صراع سعى الاتحاديون للخروج منه منتصرين، ولم يترددوا، لأجل ذلك، اتباع سبل أبشع من تلك التي اتبعها عبدالحميد، كان أولها، وليس آخرها، مذابح أضنة ضد الأرمن[3]، مدشنين مناخ تخوف وريبة شديدين لدى كل القوميات، واجتهد الاتحاديون في تطبيق تصورهم المركزي للاتحاد باتباع سلسلة من التدابير، منها إغلاق الجمعيات والأندية بموجب قانون الجمعيات الصادر في آب 1909، والذي تحظر المادة الرابعة منه « الجمعيات السياسية التي تستمد غايتها أو أسمها من عرق أو قومية»[4]،

1- M. Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution, P.300.

2- ينظر: زين نورالدين زين، نشوء القومية العربية، ص83-84.

3- حول هذا الموضوع ينظر: نجلاء عدنان حسين العكيلي، المصدر السابق، ص73-78؛ Salahi Sonyel, The Great War and the Tragedy of Anatolia. Turks and Armenians in the Maelstorm of Major Powers, Ankara, 2000, PP.52-72.

4- للاطلاع على نص القانون ينظر: «وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث 1517-1920»، جمعها وعلق عليها الدكتور عبدالعزيز سليمان نوار، بيروت، 1974، ص498-503.

والقضاء على الجماعات المسلحة في مقدونيا بموجب قانون خاص بمكافحة تلك الجماعات، وإلزام غير المسلمين بأداء الخدمة العسكرية، كما فكر الاتحاديون بتعزيز توحيد البلاد عبر مركزة النظام التعليمي وفرض تفتيش على مدارس الأقليات والعمل على فرض اللغة التركية في المدارس والدوائر الحكومية. بيد أن كل تلك الإجراءات لم تؤد إلا إلى مزيد من السخط والنفور والتوتر والحركات الانفصالية بصورة وضعت الاتحاديين أمام مآزق حقيقية.

إزاء فشل العثمنة، وعلى الرغم من استمرار بعض الملامح في سياسة وإعلام الاتحاديين تظهر مواصلة تمسكهم بها، تحول الاتحاديون إلى مخرج آخر، بدا أنه متاحا أكثر لهم، تمثل بالتضامن الإسلامي، ولم يتردد الاتحاديون البراغماتيون في السير بهذا الاتجاه، ورفع راية الإسلام الخضراء مدفوعين بالتغير الديموغرافي الذي شهدته الدولة العثمانية إثر فقدانها لمعظم أراضي البلقان، لاعبين على نحو خاص بورقة التقارب التركي - العربي، مثلما فعل ذلك بالفعل السلطان عبدالحميد الثاني، في زمان سابق ولكن لاعتبارات مماثلة جدا.

لاجتذاب الولايات العربية للقضية العثمانية كان من المناسب تقديم تنازلات للنزعة القومية العربية تمثلت بإصدار قانونين مؤقتين، في العام **1913**، هدفا إلى إدخال تعديلات هامة على إدارة الولايات بمنح جرعة من الاستقلال لميزانياتها في القانون الأول، وفي الثاني إنشاء مجلس عام لكل ولاية مؤلف من منتخبين محليين، يتمتع بسلطات واسعة نسبيا[1]. كما كان لسياسة اليد الممدودة جوانب ثقافية، إذ اجتهدت الحكومة في رفع المستوى التعليمي للولايات العربية، ومصاحبة جهد التتريك، بشكل مفارق، تغلغل محسوس للغة العربية في بعض المدارس والمرافق الإدارية، وفي هذا الصدد كتبت «طنين» في نيسان **1913**: «إن تركيا دولة مسلمة، فكيف يمكنها النفور من العربية، لغة دينها؟ أليس من الواضح أن العداء للعربية يسير يدا بيد مع العداء للإسلام؟ إننا نحب العربية لأنها لغة

1- بول دومون وفرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص297.

القرآن والنبي. ونحب العربية لأن الحضارة الإسلامية لا تنفصل عن هذه اللغة... يجب الاهتمام بالعربية ليس فقط بالأقاليم التي يتحدث الناس فيها بها، وإنما أيضا في كل مكان آخر. ويجب على الحكومة أن تفعل ذلك ليس بسبب ملايين الرعايا الذين تضمهم الإمبراطورية، وإنما لأن هذه الإمبراطورية دولة مسلمة» و «قد اتخذت الحكومة خطوة في هذا الاتجاه السليم، إلا أن هناك خطوات أخرى يلزم اتخاذها»[1]. وبالفعل جرى اتخاذ العديد من الخطوات على طريق تحقيق تقارب عربي- تركي في ظل خيمة إسلامية، وتكاثرت مظاهر الأخوة بينهما متحولة إلى شهر عسل حقيقي ما لبث أن انقلب إلى الضد تماما، فالتوجهات القومية لدى كلا الطرفين كانت أقوى من أن تختفي وراء شعارات دينية[2].

استمر الاتحاديون في تطبيق سياسات مختلفة متى ما أحسوا أنها توفر إمكانات لإنقاذ الدولة وتقوية إخلاص المجموعات المختلفة للمركز، مروجين لهذه السياسة هنا، ومنفذين لتلك هناك، على وفق ماهية الجهة المستهدفة، وهو أمر لم يكن غريبا أو مستبعدا على الطابع الانتهازي لـ «جمعية الاتحاد والترقي» منذ مراحلها الأولى. وواصل الاتحاديون، في معظم ممارساتهم، تعشيق تلك السياسات بالأتركة التي ظلت سائدة دوما عند «جمعية الاتحاد والترقي» فكرا وتطبيقا. فمنذ العام 1902 كانت الأتركة هي الفكر المهيمن على كتابات الجمعية، وبعد ثورة 1908 وجد الاتحاديون، الذين عدّو أنفسهم المنقذين للدولة العثمانية، إن الأتركة غير مجدية لاختيارها سياسة رسمية للدولة، وفضلوا إرجاعها للخلف لتحاشي إثارة القوميات الأخرى والحركات الانفصالية داخل الدولة العثمانية، إلا أن هذا لا ينفي إنه

1- نقلا عن: المصدر نفسه، ص298.

2- اهتمت مصادر كثيرة بتغطية تاريخ هذه المرحلة، ينظر مثلا: تاج السر أحمد حران، المصدر السابق؛ زين نورالدين زين، نشوء القومية العربية؛ ليف كوتلوف، الحركة العربية في المشرق 1908-1914. دراسة سياسية تاريخية اقتصادية، ترجمة زياد الملا، تقديم عبدالله حنا، بيروت، 2001؛ توفيق علي برو، المصدر السابق؛ عبدالزهرة مكطوف الجوراني، الفكر السياسي في المشرق العربي أواخر القرن التاسع عشر حتى 1914، بغداد، 2001؛

Hasan Kayali, Op.Cit.

كان لها دوما مكانها في سياستهم، وازداد توجه الاتحاديين نحو الأتركة بعد أن فقدت العثمنة والإسلامية فاعليتهما، وأخذ المدافعون عن التعايش الأخوي بين جميع شعوب الدولة العثمانية بالتحول عن هذه الفكرة للاتجاه صوب تمجيد الأمة التركية، وتصاعد الحماس صوب الجامعة التركية، وعلى نحو متزايد أخذت النزعة القومية تبدو للاتحاديين أحد أطواق النجاة النادرة التي يمكن لتركيا أن تفكر في التشبث بها، وفي العام **1917** تخلت الجمعية بالكامل عن أي سياسة خلا التركية، ساعدها على ذلك كل التثقيف الفكري الذي حصل بهذا الاتجاه، والذي أضطلع مفكرون أتراك من روسيا بالدور الأبرز فيه، لتجتاح الدولة العثمانية مظاهر كثيرة تعكس تمسك حكومتها القوي بالتوجهات القومية واضعة بصمتها على كل جوانب الحياة.

كان لهذه النزعة القومية الكاسحة جناح اقتصادي انطوى على خلق طبقة برجوازية تركية تؤسس القاعدة الاجتماعية للدولة الجديدة. بدأت عملية خلق اقتصاد وطني في العام **1908**، واستمرت تصاعدا خلال العقد اللاحق، ولاسيما خلال الحرب، واتخذ الاتحاديون، حزبا وحكومة، إجـراءات متنوعة لتحقيق هدفهم، فشجعوا استهلاك المصنوعات المحلية وعمدوا إلى إقرار تعريفات كمركية جديدة تهدف إلى حماية الإنتاج المحلي والسوق الداخلية من مزاحمة السلع المستوردة، وتولوا إعادة تنظيم البنك الزراعي، وإعادة إنشاء جهاز مالي هو «بنك الاعتماد الوطني» تتمثل مهمته بتدبير الرساميل الضرورية للمشاريع التجارية والصناعية، كما صدرت خلال عامي **1909** و**1913** تشريعات لتشجيع الصناعة منحت مزايا عديدة للشركات التي تبدي ملمحا يتماشى مع المصالح القومية، وبدأت الحكومة، أيضا، بإنشاء شبكة من الطرق وسكك الحديد لتحقيق تكاملية السوق الوطنية، كما اضطلعت بتسمية الشوارع والبيوت لتوفير العناوين وتسهيل الأعمال التجارية، وضمن الخط نفسه اهتمت بزيادة المنشآت المدرسية الموجهة إلى التعليم الفني[1].

1- فيروز أحمد، المصدر السابق، ص107؛ بول دومون وفرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص325-326؛ ز.ي. هرشلاغ، المصدر السابق، ص70.

على الرغم من كل الكلام عن اقتصاد وطني وعن برجوازية وطنية، فإن نظام الاتحاديين أعطى اهتماما كبيرا للرأسمال الأجنبي في الاقتصاد. وقد أوضح وزير المالية الاتحادي محمد جاويد أن المشاريع الصغيرة وحدها يمكن أن تنفذ من خلال الرأسمال المحلي، فالرأسمال الأجنبي حيوي للأشغال العامة الرئيسة، كما أنه ضروري لتأسيس مهارات مثل الإدارة والعقلنة التي تحتاجها البلاد، واختتم توضيحه قائلا:

«كل البلدان التي تكون في حالة انفتاح للحضارة ستعثر لا محالة وتسقط على الطريق إذا هي بحثت عن التقدم بواسطة قوتها فقط... لقد تمكنت كل البلدان الجديدة من التقدم بمساعدة الرأسمال الأجنبي فقط»[1].

من دون شك إن الاتحاديين أرادوا الحفاظ على سيادة الدولة العثمانية ووحدة أراضيها في مواجهة الإمبرياليات، لكنهم أرادوا في الوقت نفسه استمرار مد اليد إلى أوربا، محاولة إلغاء الامتيازات مع مواصلة طلب عون رساميلها وخبراءها. وهو برنامج طموح لم تكن الدولة العثمانية تمتلك من القوة والإمكانات ما يساعدها على تحقيقه، فالاتحاديون المنخرطون في جهد مستميت من أجل إصلاح اقتصادي ورثوا تركة ثقيلة من المشاكل الاقتصادية، وزاد الوضع سوءا تكاليف حروب البلقان الباهظة جدا، وأراد الاتحاديون الحصول على أموال تمكنهم من الاستعداد لحرب جديدة على وشك النشوب، فاختاروا الطريق الأسهل، وعلى الرغم من مراميهم في كسب الاستقلال واصلوا اللجوء إلى الوصفات القديمة المتمثلة في الاقتراض وفي الانفتاح على الاستثمارات الأجنبية. فشهد عاما 1913 و1914 عقد عدة قروض، وصل حجم أحدها إلى أثنين وعشرين مليون ليرة، وهو ثاني أكبر مبلغ يقرضه الرأسمال الأوربي للدولة العثمانية منذ إفلاس عام1875 [2]. وخلال المدة نفسها انخرط الباب العالي في سلسلة من المحادثات الثنائية مع كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا وإيطاليا، سلم خلالها سكك الحديد وامتيازات أخرى إلى مشاريع أجنبية،

1- نقلا عن: فيروز أحمد، المصدر السابق، ص108.

2- ينظر: طاهر يوسف الوائلي، المصدر السابق، ص142.

وقَبِل، من غير قدر كبير من الاستياء، تقسيم الدولة العثمانية إلى مناطق نشاط اقتصادي مفتوحة أمام الدول الكبرى، والمقابل لم يكن أكثر من إدخال تحويرات طفيفة على نظام الامتيازات، لا سيما في المجال الضريبي. ولعل الاتفاق الموقع مع فرنسا في 9 نيسان 1914 مثال بليغ الدلالة على عجز الحكومة العثمانية في وجه الإمبريالية، فبموجب الاتفاق تحصل فرنسا على حق إنشاء العديد من خطوط سكك الحديد، واستثمار عدة موانئ على البحر الأسود والساحل السوري، وحق الأولوية في جميع القطاعات التي لها فيها مصالح خاصة، وإزاء كل ذلك لم تحصل الدولة العثمانية سوى زيادة الرسوم الكمركية ووعد بـ «إمكانية إعادة النظر في نظام الامتيازات»[1]. وإذ حاول الاتحاديون تصوير الاتفاق إنجازا لحكومتهم، أصابت صحيفة فرنسية كبد الحقيقة بتقييمها الاتفاق قائلة: «إن ما يجري في الواقع، تحت مسمى المسائل الاقتصادية ومسائل سكك الحديد، هو تقسيم حقيقي لتركيا الآسيوية إلى مناطق نفوذ»[2].

كان حظ تركيا في خلق برجوازية وطنية أفضل قليلا. فبين عامي 1914 و1918 تم إنشاء مائة شركة وطنية، بمستويات مختلفة تراوحت رساميلها بين 1600 ليرة وأربعة ملايين ليرة، وفي قطاعات متباينة مثل البنوك والتنقل وتوزيع المنتجات الزراعية والإنشاءات واستثمار الغابات[3]. وبدأ بالفعل انبثاق اقتصاد وطني سيطر عليه الأتراك، وبدأت ملامح تكون لبرجوازية تركية لكنها كانت أضعف من أن تسيطر على الدولة أو تقدم سندا لحكومتها. وكان الخيار المتاح أمام «جمعية الاتحاد والترقي» الاستناد إلى كبار ملاك الأراضي الذين شكلوا، بحكم ذلك التوجه، قوة سياسية حقيقية في مجلس المبعوثان، ولم تفكر الجمعية في إنهاء السيطرة الاقتصادية والسياسية للأغوات، أو الحد منها في الأقل، بل على العكس إن سياستها الزراعية مالت إلى محاباتهم. ففي ظل الأزمة المالية المتفاقمة التي عانت منها الدولة العثمانية إبان حكم الاتحاديين، شكلت الأرض مع ضريبة العشر المورد الأول

1- بول دومون وفرانسوا جورجو، المصدر السابق، ص295-296.

2- نقلا عن: المصدر نفسه، ص296.

3- المصدر نفسه، ص326؛ فيروز أحمد، المصدر السابق، ص108-109.

لخزينة الدولة، ومثلت المصدر الرئيس لتراكم الرأسمال، كما أنها الثروة الوحيدة التي أفلتت من الهيمنة الأجنبية.

مع ازدياد قوة ملاك الأرض، تفاقم تردي وضع الفلاح وزاد استغلاله بشاعة، ولم تحاول الحكومة الاتحادية بذل جهد يستحق الذكر لتحسين حاله. فبعد مرور أكثر من عام على ثورة الاتحاديين قام صحفي بجولة في الأناضول، حيث وجد البؤس في كل مكان، وسجل شكوى الفلاحين بأن لا شئ قد تغير بالنسبة لهم:

«قال الفلاح نادبا: الحرية كلمة أخذنا نسمع بها مؤخرا فقط، ولكن مما سمعنا، ومن بعض الفعاليات (المنقولة إلينا) فهمنا أنها شئ يستحق بذل الجهد من أجله، لكننا اعتقدنا أن كل شئ سيصحح: ستجمع الضرائب بعدالة وسلام، والقتلة واللصوص في القرى سيصلحون، أولادنا سيذهبون إلى الخدمة العسكرية ولن يحجزوا جياعا عراة لسنوات، بل يسرحون من الخدمة في الوقت المحدد، الموظفون لن يفعلوا ما يشاءون، وإن كل شئ سيتغير نحو الأحسن. ولكن لم يحدث شئ لحد الآن... قليلون فقط لديهم صكوك ملكية الأرض ونحن لسنا واثقين ما إذا كانت الأرض التي نفلحها تعود لنا أم لا، ولهذا السبب هناك معارك يومية يُقتل فيها بعض الناس أحيانا. نذهب إلى دوائر الدولة والمحاكم لكننا لا نستطيع شرح مشكلتنا. إنهم يفكرون فقط بجمع الضرائب... إننا نعمل على مدار العام وندفع ضرائبنا سنويا، وإذا لم ندفع أخذوها بالقوة حتى وإن باعوا قدورنا والفراش الذي ننام عليه، وهكذا فنحن في مديونية دائمة. خلال السنوات القليلة الماضية كان هناك عدد من الفلاحين في القرية ممن لم تكن لديهم البذور ليبذروها. ولعدم وجود من يساعدنا في أي مكان آخر، يتحتم علينا الذهاب إلى الأغا لشراء البذور منه أما بسعر 100-125 قرشا للكيلة، أو نعيد له ثلاث كيلات مقابل كل كيلة واحدة. إن هؤلاء الأغوات خطرون، إنهم يستطيعون أن يأمروا شقاواتهم بجلد الفلاح ويستطيعون سجنه أو يسلطون عليه موظفي الدولة لمضايقته، وهكذا يستحصلون ديونهم ممن لا يستطيعون دفعها»[1]

1- نقلا عن: فيروز أحمد، المصدر السابق، ص100-102.

لم يكن تردي الوضع مقتصرا على الفلاحين، بل امتد شاملا قطاعا واسعا من محدودي الدخل الذين قلما تبذل حكومة الاتحاديين جهدا لتحسين أوضاعهم، وزاد من معاناتهم الارتفاع الفاحش للأسعار إبان سنوات الحرب العالمية الأولى، وفي العام 1917-1918، أي في المرحلة الأخيرة من الحرب، ارتفعت أسعار المواد الضرورية لحياة الفرد اليومية بصورة خيالية، فسعر حقة الطحين، مثلا، بلغ 25،1 قرشا في العام 1913، ارتفع في العام 1917 إلى 16 قرشا، وارتفع سعر حقة اللحم في غضون المدة نفسها من 10 إلى 30 قرشا، والرز من 3 إلى 45 قرشا، والدهن من 16 إلى 200 قرشا. وساءت الأوضاع أكثر في العام 1918، إذ وصل سعر حقة اللحم إلى 200 قرشا، والدهن إلى 400. ووضع الغلاء أسوء مع الوقود، فإن سعر صفيحة النفط إرتفع في السنوات الأولى من الحرب إلى 50 قرشا قياسا بـ 16 قرش فقط قبلها، وقفز سعره أواخر الحرب إلى 250 قرشا[1]. وأمام هذه السعار كانت أجرة العامل اليومية تتراوح في تلك المرحلة ما بين 15 و50 قرشا، أما دخل الأسرة التي سيق معيلها إلى جبهات القتال فكان يبلغ 5 قروش في اليوم[2].

في تلك الظروف، ومقابل هذا الفقر، ظهرت ثروات ضخمة ترتبت على المضاربات واختلاس المال العام والسوق السوداء، فمثل كل البلدان المتحاربة كان للدولة العثمانية أغنياء حربها، جاء جلهم من صفوف «جمعية الاتحاد والترقي» أو المشمولين بحمايتها، إذ كانت الجمعية الموزع الوحيد للتعاقدات مع الجيش والخدمات العامة والوسيط المحتوم في جميع المعاملات المتصلة بالتموين. في تلك المرحلة الحرجة تألفت في اسطنبول «اسناف جمعيتي» (جمعية الأصناف)، وقد احتكرت الجمعية تجارة المواد الحياتية اليومية الضرورية في العاصمة، أي أن حياة وموت سكان العاصمة غدت تعتمد على عملها تحديدا،

1- A.F. Miller, Ocherki Noveyshey Istorii Turtsii, Izd. Academii Nauk SSSR, Moskva- Leningrad, 1948, Str.70-71

أ. ف. ميللر، موجز تاريخ تركيا المعاصر، منشورات أكاديمية العلوم السوفيتية، موسكو-لينغراد، 1948، ص70- 71.

2- Ibid.

وأُختير لرئاسة الجمعية قرة كمال الذي كسب شخصيا الكثير من موقعه المربح هذا، كما هيأ الفرصة نفسها للعديد من المقربين منه، وكان يؤكد أن أرباح الجمعية بلغت بضع مئات ألف ليرة فقط، مع العلم إن الجميع كان يعرف بأنه في تلك اللحظة كان يوجد في قاصة الجمعية أربعة ملايين ليرة. ولم تكن سرقات ومضاربات كل من وزير المواد الغذائية إسماعيل حقي، ومحرر الجريدة الرسمية للاتحاديين «طنين» حسين جاهد، والصحفي المعروف أحمد أمين وغيرهم عدد كبير من كبار وصغار زعماء الاتحاديين ممن كانوا يتباهون بأعمالهم التي مكنتهم من تشييد مجموعة كبيرة من البيوت الراقية بحيث ظهرت في اسطنبول محلة جديدة باسم شيشلي، وقد بنيت تلك البيوت من «مواردهم» في مضاربات بيع السكر والفحم بل حتى الأكياس الفارغة، وإن تلك القصور تحمل حتى اليوم أسماء معبرة مثل «شكر بالاس» (قصر السكر) و«قمر بالاس» (قصر الفحم) و«جوال بالاس» (قصر الأكياس)![1]. وفي عالم القصور لا تخلو من مغزى الإشارة إلى أن السفير الأمريكي في اسطنبول أبدى استغرابه ودهشته من ضخامة وأبهة مقر إقامة أنور باشا[2].

لم يتجرأ أحد على اتخاذ موقف معاد من هؤلاء المضاربين، ومن حاول ذلك تعلم بسرعة أن لا يتخطى حدوده، فشخص مثل أحمد رضا ما أن قدم دعوى ضد «Prefecat»[3] اسطنبول متهما إياه بالمضاربة حتى تم حجزه لمدة أربع وعشرين ساعة، مما جعله يغض الطرف بدوره عن المضاربين بعد ذلك[4].

إذا كان البعض قد تمكن من الاستفادة من الحرب، فأن الغالبية العظمى لم يكن لها الحق إلا في تحمل الصعوبات والعذابات التي تجرها الحرب في أذيالها: المجاعات، فرض

1- Ibid., Str.71.

2- المستر هنري مورغنتو، مذكرات سفير أميركا في الاستانة، ترجمة فؤاد صروف، مصر، 1923، ص42.

3- Prefecat أو Praefect مصطلح كان يطلق على مختلف المسؤولين المدنيين والعسكريين والشرطة في عهد الرومان القدماء، بقي المصطلح يستخدم في بعض البلدان الأوربية، مثل فرنسا، بمعنى الوالي أو مدير الشرطة.

4- A.F. Miller, Ocherki Noveyshey Istorii Turtsii, Str.71.

ضرائب متزايدة على بعض المنتجات، ومعدل تضخم سنوي تجاوزت نسبته الـ 300٪، ناهيك عن ارتفاع الأسعار. تقدم مدينة كبرى مثل اسطنبول أنموذجا على واقع الحياة في الدولة العثمانية حيث يتعايش أسلوبان للحياة متعارضان تعارضا صارخا. فمن جهة ثراء يتطاول بلا حياء ومحدثو نعمة يغرقون في اللهو والسكر والفجور، ومن جهة أخرى شقاء صارخ في كل مكان وموظفون أنزلت السوق السوداء والتضخم قدرتهم الشرائية إلى أسفل سافلين وشعب بائس بأكمله يرزح تحت نير الفاقة والتسول.

زاد من تفاقم الأوضاع في الدولة العثمانية خلال عهد الاتحاديين انتشار العنف بشكل لا مبرر له ولا مسوغ[1]، واستشرى الفساد الإداري في معظم أجهزة الدولة، وتفشت الجريمة بكل أشكالها والعصابات التي تقوم بعملياتها من دون أن تخشى العقاب، حتى وصل الأمر أن سُرقت خزينة وزارة الأوقاف وفلت الجناة بجرمهم[2]. وأحس الناس الذين مزقهم لظى الحرمان إن حكم الأرض كما لو صار للشيطان، وبات معظمهم يتحسر على «الزمن السعيد» في عهد عبدالحميد حيث الآمان الذي بات مفقودا مع أشياء كثيرة أخرى في حكم الاتحاديين[3].

قد لا يكون وجه الحكم الاتحادي بذاك القبح، فلا يمكن لأحد أن ينكر أن الاتحاديين حققوا إنجازات كثيرة. لكن مجيئهم للسلطة أيقظ أمالا كبيرة ظل معظمها بعيدا عن المنال، وعلى حد وصف مؤرخ تركي كان قريبا من الأحداث: «نادرة هي الحركات في العالم التي عُلقت عليها آمال بالقدر الذي عُلق على الثورة الدستورية العثمانية. ولكن نادرا ما أصيب الناس بالخيبة بالسرعة التي أصيب بها في الثورة الدستورية»[4].

1- R. Hichens, The Near East. Dalmatia, Greece and Constantinople, London, 1913, P.185.

2- Ziya Şakir, Yakın Tarihin Üç Büyük Adamı: Talat Anver Cemal Paşalar, S.22.

3- ينظر: جون هاسلب، المصدر السابق، ص342؛

A. Herbert, Op.Cit., P.184; Sir Harry Luke, Op.Cit., P.124.

4- نقلا عن: سليم الصويص المحامي، المصدر السابق، ص61.

الخـاتمــة

كان تأسيس «جمعية الاتحاد والترقي» وثورتها في العام 1908، فيضانا في تاريخ الدولة العثمانية خلال مراحله الأخيرة، فتح الأبواب أمام طوفان فكري، فتغلغلت في كل الدولة العثمانية، وفي اسطنبول على الخصوص، ذخيرة كاملة من الأفكار الجديدة بدلت وطورت معالم الواقع الفكري في الدولة العثمانية، وهيأت الأرضية اللازمة لنجاح الاتحاديين في وضع نهاية لنظام طويل الأمد، أُنشئ بعناية وطور ونُقي وجُدد من لدن السلطان عبدالحميد الثاني لأكثر من ثلاثة عقود، ليختفي ببساطة عن الأنظار. ولا يقل عن هذا أهمية إن الاتحاديين تمكنوا، من خلال أفكارهم، تشخيص النظام القديم في الصياغات العثمانية بأقوى الصيغ، وعملوا على استبدال المؤسسات القديمة بأخرى جديدة.

ارتبط بهذه النتيجة إفراز آخر تمثل في ظهور صفوة جديدة، تسلمت مقاليد الأمور، اختلفت عن القديمة جملة وتفصيلا، وابتعدت كل البعد عن الأرستقراطية القديمة، إذ امتدت جذورها الاجتماعية إلى الطبقة الوسطى، خبرتها محدودة بالتأكيد، لكنها دماء جديدة شابة متحمسة فتحت الطريق أمام تغيرات كثيرة، لم يكن كلها بالضرورة صائبا.

امتد التغيير الذي حدث في النخبة المتصدرة للمجتمع إلى العديد من المجموعات الأثنية والدينية في الدولة العثمانية، فمثلا حل الداشناقيون، لوهلة، محل الصفوة الأرمنية لما قبل 1908، واستعيض عن الصفوة المسلمة الألبانية المخلصة للنظام الحميدي، التي استفادت بصورة عظيمة منه لقاء ذلك الإخلاص، بنخبة مفكرة وطنية هدفت إلى توحيد الألبان، مسلمين وغير مسلمين، لصالح كل الألبان.

كان لـ «جمعية الاتحاد والترقي» الدور الأكبر في تكوين وبروز النخبة الجديدة، والإنجاز الهام الآخر للجمعية، الذي لا يقل عن هذا أهمية، هو أنه لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية استلم الحكم حزب سياسي منظم. وبالمهمة التي فرضتها الجمعية على نفسها في إنقاذ البلاد اتخذت دور السيد الموجه، فلم ترغب في وجود ممثلين سياسيين آخرين يمكن لهم أن ينتقدوا سياستها أو حتى يستفسروا عنها، إذ لم تكن «جمعية الاتحاد والترقي» مؤمنة بالقيم البرلمانية أو الدستورية أو حكم الشعب لنفسه، ولأن معاصري ثورة **1908**، وبعدئذ معظم المؤرخين الذين تعاملوا مع تلك المرحلة، عَرّفوا الثورة على إنها حركة دستورية، وعّدوا الاتحاديين طلاب دستور من دون الاهتمام بالأهداف التي تتبعها الاتحاديون، أو الاكتراث بالأفكار التي اعتنقوها قبل العام **1908**، تفاجأ الكثير بالصفة الدكتاتورية لـ «جمعية الاتحاد والترقي»، واعتبروها نتيجة لفساد السلطة، أو نظروا إليها على أنها استجابة للتطورات الخارجية، وأهملوا بالكامل مطبوعات الاتحاديين وأوراقهم الخاصة التي تكشف بوضوح إنهم رأوا أنفسهم فوق كل شيء، وهم، فقط، المخلصين للدولة.

ومثلما هو الحال مع العديد من الأحزاب المشابهة التي شعرت بأن واجبها، بل وقدرها، تغيير أسس المجتمع وهيكليته، نمت بسرعة الانقسامات الداخلية في «جمعية الاتحاد والترقي»، قبل وبعد تسلمها للسلطة، حول هذا الموضوع تحديدا، ومواضيع أخرى تفرع معظمها عنه. ورغم انبثاق جماعات داخلية وصعود شخصيات فردية قوية داخل الحزب، فان الجمعية لم تقع إطلاقا تحت هيمنة شخص منفرد، متجاوزة عبادة الأشخاص لصالح الحزب. كما لم يكن للجيش سيطرة على «جمعية الاتحاد والترقي» وقراراتها، كما تشير إلى ذلك بعض المصادر، فرغم العلاقة القوية والحساسة بين الجمعية والجيش العثماني، التي كان لها دور متميز في قيام الثورة ونجاحها، فان الجيش كان أداة فعالة ضمن أدوات أخرى استخدمتها الجمعية، ولم تكن الثورة إنجازا لمجموعة من الضباط الصغار، بل كانت نتاجا لعمل تنظيم سياسي قوي وأهداف بعيدة المدى.

وراء هذا التنظيم كان هناك قاعدة عريضة، وقد احتوت «جمعية الاتحاد والترقي» على اتجاهات متباينة. ومن هنا كان الطابع التجميعي، وغير المحدد نسبيا، لشعاراتها وأفكارها، ومن هنا أيضا نجاحها المتعاظم بين الجماهير. ومنذ ظهورهم على المسرح السياسي راهن الاتحاديون على القيم التعبوية، ومن ثم لا يصح إرباك المثل العليا للاتحاديين وسياساتهم، الواحدة بالأخرى، بل كان الاثنان في خلاف مستمر، فمن اجل إنقاذ الدولة العثمانية ورص الصفوف خلفهم اتبع قادة الجمعية سياسات ذرائعية مصممة للتغلب على المعارضة في مسعى لإسقاط النظام الحميدي، على الرغم من تعارض تلك السياسات مع المثل العليا في الفكر السياسي الاتحادي، وبعدما سيطروا على السلطة استمر الاتحاديون في اتباع المنهج نفسه أملا في إرضاء المجموعات الدينية والقومية المختلفة. ورغم نزعتهم فانهم لم يطبقوا سياسة منظمة وصلبة، فبدأت الجمعية بامتطاء جواد النزعة العثمانية، ثم تحولت إلى تمجيد الأمة العثمانية والشعب والإخاء الإسلامي، ومن الإهانات المتكررة التي عانت منها الدولة العثمانية منذ العام 1908 استخلصت حماسا للوحدة القومية. وقد رمت استراتيجيتها برمتها إلى أن تحشد حولها إجماعا واسعا، حتى أنها لم تتردد، بعيد الثورة، في استخدام السياسات الثلاث مع بعضها، مع برنامج تحديث لبناء دولة علمية علمانية.

وأخيرا فإن «جمعية الاتحاد والترقي» بنهجها السياسي وتوجهاتها المركزية في الحكم وكل التغيرات والتطورات التي حدثت بعد الثورة، أرادت بها أم لم ترد، أعطت دفعا لتبلور الوعي القومي في المنطقة. وكان لثورة الاتحاديين دور مميز في إعادة تنظيم الشرق الأوسط والبلقان، وبسببها فإن المنطقة من سكوتاري في ألبانيا إلى البصرة أصبحت على معرفة بالأحزاب السياسية، والنوادي الوطنية، والانتخابات وفكرة الحقوق الدستورية. كما أن تقدم السياسات الحزبية في الدولة العثمانية جعل الأحزاب السياسية المزدهرة، واللجان، والنوادي أصحاب الدور الأساس في السياسات القومية والمحلية.

الملاحق

(ملحق رقم 1)

الصفحة الأولى من العدد الأول لجريدة «عثمانلى» التي كان يصدرها الاتحاديون في جنيف



OSMANLI

ORGANE DE LA JEUNE TURQUIE

LE COMITE OTTOMAN D'UNION ET DE PROGRES

عثمانلی

١٣١٥

REDACTION DE OSMANLI GENEVE (Suisse)

اتحاد و ترقی جمعیتنك واسطهٔ نشریاتی

(ملحق رقم 2)

الصفحة الأولى من العدد الأول لجريدة «Osmanli» التي كان يصدرها الاتحاديون في جنيف

1re année. — N° 1. 10 CENTIMES 5 décembre 1897.

SUPPLÉMENT FRANÇAIS (MENSUEL) DU

Osmanli

JOURNAL BI-MENSUEL

ORGANE DE LA JEUNE TURQUIE

FONDÉ PAR LE COMITÉ OTTOMAN D'UNION ET DE PROGRÈS

ADRESSE RÉDACTION DU « OSMANLI », GENÈVE (SUISSE)

AVANT-PROPOS

Le Comité ottoman d'Union et de Progrès a toujours marché, depuis sa fondation, d'un pas lent, mais sûr, vers un but : le progrès intellectuel et matériel des Ottomans. Mais pour arriver à cet idéal, aujourd'hui commun à toute la jeunesse turque, un autre point de mire est encore à atteindre ; c'est l'union. En effet les premiers cercles secrets, nés au sein de cette malheureuse nation attaquée de tous côtés, engourdie par l'ignorance et endormie par la famine que lui fait endurer un tyran de premier ordre, ces cercles avaient déjà formulé cette règle, savoir : Pour ouvrir une ère sûre de progrès il faut que les différents éléments ottomans — sans distinction de religions, — fraternisent. Car tout le monde — nos tyrans en première ligne — ayant intérêt en l'ignorance du peuple et cherchant, par conséquent, à empêcher le progrès intellectuel, ont toujours maintenu la structure hétérogène dont la Turquie souffre.

Résumons une fois pour toutes ce que nous venons de dire, car c'est ce qui mettra en lumière le programme des jeunes Turcs.

Nous voulons le progrès [illegible] toute l'acception du mot : nous devons donc détruire les ennemis de cette idée et par conséquent saper la tyrannie. Et pour pouvoir mener à bien cette entreprise il faut nous renforcer par la fraternisation des différentes races ottomanes.

Il est inutile d'insister sur la difficulté pratique de cette formule. Seulement nous ne pouvons passer sans dire un mot sur le cercle vicieux dans lequel elle nous entraîne fatalement. Pour réaliser ce programme il faut enseigner au peuple ce qu'il est et ce qu'il pourrait être, et pour enseigner cela il est nécessaire de changer de milieu, et vice versa. Comment faire ? Nous avons naturellement suivi la route que, dans tous les pays, les comités de ce genre ont prise. C'est-à-dire nous avons commencé par faire de la propagande.

La grande difficulté pour l'entretien d'une imprimerie clandestine, en Turquie, nous a obligés à publier notre journal en Europe. Deux ans se sont déjà écoulés depuis l'apparition du premier numéro de cet organe, qui a changé deux fois de nom dans ce laps de temps.

Qu'il nous soit permis de dire quelques mots sur les résultats obtenus par nos travaux.

Il est vrai que nous avons mis trop d'espoir dans le succès de notre propagande. Nous n'en avons pas obtenu tout ce que nous en attendions : c'est-à-dire l'unité de l'idéal des différents éléments ottomans.

Néanmoins [nos] travaux ont attiré une grande convergence vers ce but. Pour les Turcs, cette idée fut vite acceptée. L'existence de plusieurs moteurs, les poussant naturellement vers l'union, nous a beaucoup aidés. Parmi ces moteurs nous ne citerons que la religion musulmane défendant à ses adeptes de voir quelque différence entre les hommes.

Mais pour les autres Ottomans, nous ne pouvons comprendre pourquoi cette tendance a été si tardive. À nos appels fraternels nous avons reçu des réponses qui nous font douter de leur sincérité.

Pourtant cette tendance apparente, et notre foi en l'évolution nous laissent le droit d'avoir plein espoir.

Le Comité n'a pas seulement fait de la propagande. Il a tâché aussi de changer ce milieu infecte qui entrave énormément la germination des idées libérales, si salutaires pour la Turquie.

Il s'est donné, en vain, beaucoup de peine pour arriver à faire comprendre aux grands hommes d'État ce qu'on attend d'eux. Il s'est adressé bien des fois à la conscience du Sultan qui est resté sourd à nos cris d'alarme.

Nous n'avons pas voulu verser de sang, car les horreurs de la révolution française sont assez récentes pour ne pas être oubliées encore. Il a fallu, avant tout, essayer tous les moyens possibles afin de nous éviter une lourde responsabilité. En outre, la perte des talents et des énergies, qu'on aurait été forcé de sacrifier, aurait été assurément peu utile, jusqu'au jour où le peuple eut été capable de le reconnaî-

BAr 3

(ملحق رقم 3)

الصفحة الأولى من العدد السابع لجريدة «ميزان» التي كان يصدرها الاتحاديون في باريس



Bundesarchiv E 21/ 14249

2 Année. — N° 7.

MIZAN (LA BALANCE)
ORGANE DE LA JEUNE TURQUIE
JOURNAL HEBDOMADAIRE

ADRESSE :
DIRECTION MIZAN
14, Rue des Ecoles, PARIS

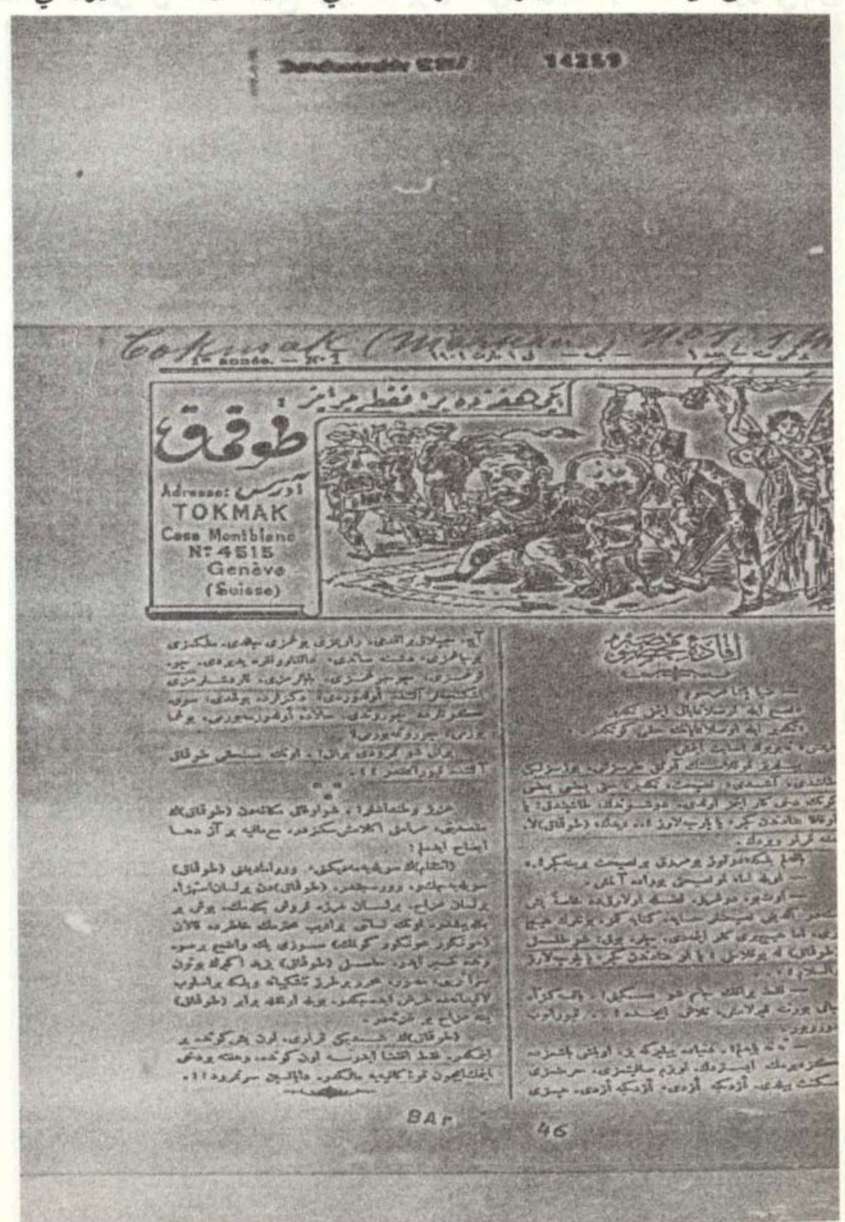
ABONNEMENTS :
50 centimes — 25 francs
AVEC SUPPLÉMENTS

DIRECTION MIZAN
14, Rue des Ecoles, 14, PARIS.

Twitter: @ketab_n

(ملحق رقم 4)

الصفحة الأولى من العدد الأول لجريدة «طوقماق» التي كان يصدرها الاتحاديون في جنيف



طوقمق

آدرس Adresse:
TOKMAK
Casa Montblanc
N° 4515
Genève
(Suisse)

(ملحق رقم 5)

الصفحة الأولى من العدد الأول لجريدة «اتحادغزنةسى» التي كان يصدرها الاتحاديون في القاهرة



اتحاد غزته سی

(ملحق رقم 6)

الصفحة الأولى من أحد أعداد جريدة «اذان» التي كان يصدرها الاتحاديون في جنيف



SCHWEIZERISCHE BUNDESANWALTSCHAFT
27.-MRZ-1902
№

اذان

تعاونوا على البر والتقوى

يد الله مع الجماعة

لبيك

من دعا الى عصبية

حي على الفلاح

كنتم خير امة اخرجت للناس

١٣١٤

عرفاتدن

حي على الفلاح ......

﴿ الله اكبر الله اكبر لا اله الا الله والله اكبر الله اكبر ولله الحمد ﴾

﴿ أستعيذ بالله ﴾

وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴿ صدق الله العظيم ﴾

﴿ الله اكبر الله اكبر لا اله الا الله والله اكبر الله اكبر ولله الحمد ﴾

لله الحمد كه دلده قرآن . تسبيح الده .. اللر بلده . كوزلر يرده .. بش وقت نماز . حقه نياز .. بر آى اوروج . وقتنده حج .. صدقه . زكاة .. فطره . قربان .. لسانلى سوز . كوكريوز .. قلبلر بحبنه يوق . جان ياقمه يوق .. انسانه مرحمت . حيوانه مرحمت .. هب ابيلكه كيديليور . قارنجه بيله ازيلميور .. الدن كلسه .

يرلر سوپوردولدجق . اوطه بوروبولدجق ..

نه موطلو ...

نه موطلو اونلره كه كيجه كوندوز كيج ازكن ده مزلر . قارا قيشده قيزيل كونده باقمازلر .. كوك دوغار باتار .. تام بش كره طوپلانيرلر ...

نه موطلو ...

نه موطلو اونلره كه هريرده بولنورلر ضانكه برنور دنياي قاپلامش . اوولره چوللره قوملقلره يايلمش . قارلى تپه لره بوزلقلرى طوتمش . تا قارانلق اورمانلره داغ قوووقلرينه صوقولمش .. هركس بونوره باقمش . هم كنديني هم باشقه لرى كورمش بربولمش .. هركس بر اولمش .. هپسي ﴿ محمد امتى ﴾ اولمش .. هپسنه بر آد ويريلمش (مسلمان) دينلمش ...

نه موطلو ...

﴿ الله اكبر الله اكبر لا اله الا الله والله اكبر الله اكبر ولله الحمد ﴾

نه موطلو اونلره كه مسلمان ديرلر .

(ملحق رقم 7)

الصفحة الأولى من جريدة «كردستان» الصادرة في مصر

حجبي كاغذيك في ريكه
حرفي ريكت مصرى سر
ناف خولي في جريده‌بي
لاو بدرخان باشا
مقداد مدحت بكى
هرجار دوهزار جريده‌يا
بي بره ازى ريكم
كردستانى ده بدين خلكى
پازده روژا جاركي تيت
تقيساندن

كردستان

١٣١٥

عنوان
محروسه كردستان ده غزته‌سي
صاحب ومحرري بدرخان
پاشازاده
مقداد مدحت
مرطبنده ... ٢ نسخه كردستان
ولايت مطالب ارسال ووسائل يله
قراوانساننشر وتعميم اولنه‌جقدر

كردستان خارجنه هر ير
ايچون سنه‌لك ابونه بدلي
٨٠ غروشدر
كردستان داخلنه خصوصي
اسمالره مجاناً كوندريلور

كردلري ايقاظ وتحصيل صنايعه تشويق ايچون شمديلك

اون بش كونده بر نشر اولنور كردجه غزته‌در

روژا پنجشى‌ده ٣٠ ذوالقعده سنه ١٣١٥ پنجشنبه في ٩ نيسان سنه ١٣١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

صد هزار شكر وحمد ژ خدى تعالى‌ره آم مسلمان خلق كرين. وظائفنا علم ومعرفتيره هش وزكا دامه. در حقا تعليماندنا علم ومعرفتيره كلك آيتين جليله واحاديث شريفه هتن. دنيابيده چقاس مسلمان هبن گوند وبازيرين جهاده مكتب ومدرسه وجريده هتن دنيابيده چه دبه چه نابه جريده دنفيسن. جيفامن تيت ژ كرداره كرد ژ گلك قوما زيده‌تر خوين هش وزكانه جاميرن دبين خوده راست وقوينه خورتن ودپسا وكه قومين دي نه خوندانه نه‌دولندن دنيابيده چه دبه جيران وان موسغوف جاوبه وى چه بكه نظاين. لوما ژ خديده من آف جريده ياها تمبسي باذنا خدى تعالى پاش نهو هر پازده روژاده جاركي آزي جريده‌كي بنفيسم. ناف في من كريه (كردستان) في جريده‌يده آزى بحثا قنجيا علم ومعرفتا بكم

لكوديري مروف دعله لكودري مدرسه ومكتبن قنج هنه آزي نشا كردا بكم لكودري چه شر دبه دولتين مظن چه دكن چاوه شر دكن تجارت چاوه دبه ازى حيا حكات بكم حتى نهو كسي جريده‌كي هولي نفيسي به آف جريده‌يا مناها ياعولي به لوما وي گلك كيابي هبتين. ازهيفي دكم كيابا جريده‌بي ژمنره بنفيسن حمي تشت وكي تو چه درين ركين پاشي هنكي دچه دكوه ريده آقه ايدي آزي دست مقصدي بكم. (ومن الله التوفيق)

حضرت پيغمبر عليه الصلوة والسلام گوتي‌يه «العلماء ورثة الانبياء» انكو علما وارثين انبيانه ژ طرف خديده مامورن وعظ ونصيحتي بدن خلكى ريا قنج نشا وان بكن لوما گلي علمايين كردا چاره اون وعظ ونصيحتا غيري ددن ولى درقي اون مير وآغا وكرمانجين دناسن وان تشويقا ظلانبا علم ومعرفتي بكن ريا قنج نيشا وان بكن هكي اون وي نكن گنهى حيا سطوى وميه

(ملحق رقم 8)

الصفحة الأولى من العدد الثاني لجريدة «جرات» التي كان يصدرها الاتحاديون في باريس



جرأت

Hakky Bey

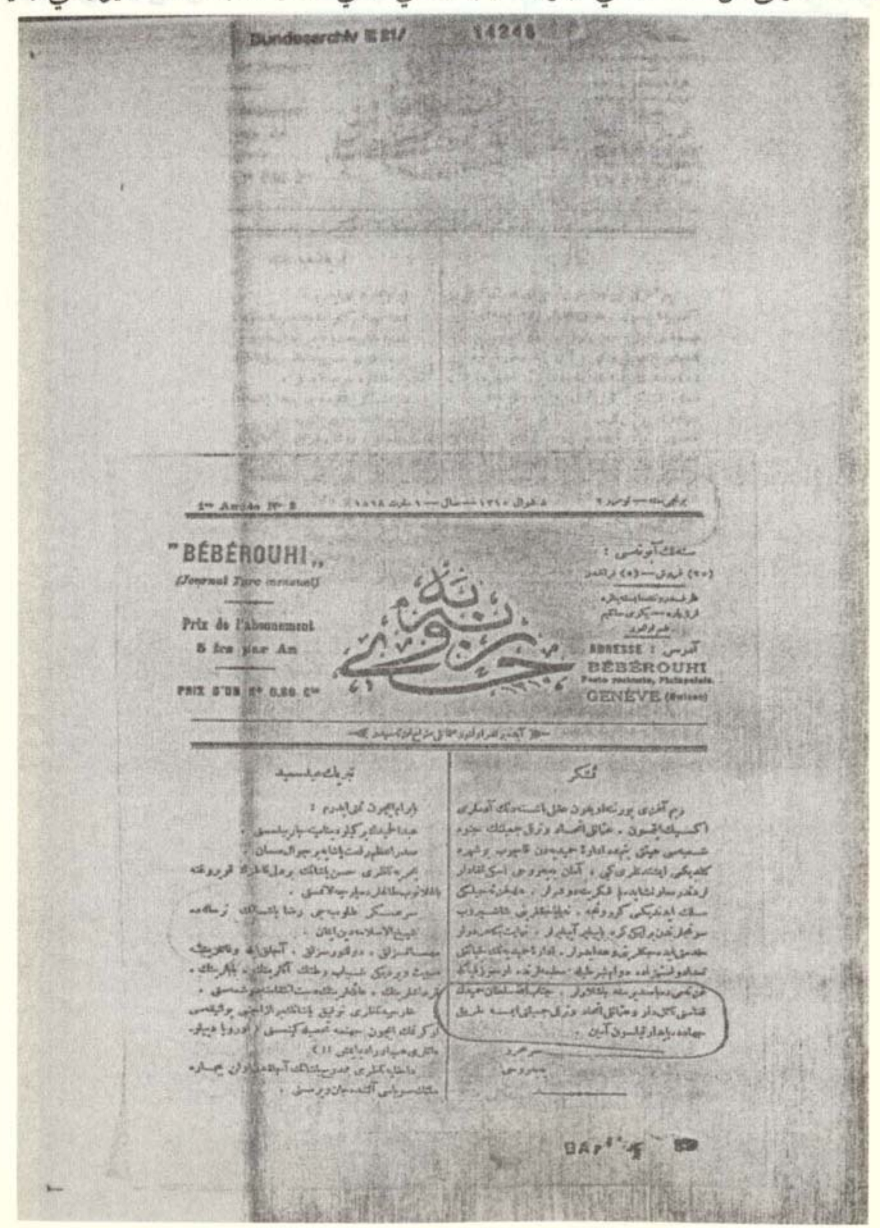
7

Rue Alfred Stevens

Paris

(ملحق رقم 9)

الصفحة الأولى من العدد الثاني لجريدة «بةبةروحي» التي كان يصدرها الاتحاديون في جنيف



1re Année N° 2

"BÉBÉROUHI"

(Journal Turc mensuel)

Prix de l'abonnement
5 frs par An

PRIX D'UN N° 0.50 C

ADRESSE: BÉBÉROUHI
Poste restante, Plainpalais.
GENÈVE (Suisse)

Twitter: @ketab_n

(ملحق رقم 10)

الصفحة الأولى من أحد أعداد جريدة «استقبال» التي كان يصدرها الاتحاديون في جنوة



استقبال

Istikbal
Poste Restante
Genève

(ملحق رقم 11)

الصفحة الأولى من العدد الأول لجريدة «وطن» التي كان يصدرها الاتحاديون في جنيف



Adresse
La direction du Journal « Vatan »
Rue de Monthoux
N° 6 ... trois-étage
Genève - Suisse

وطن
١٣١٦
VATAN

استقبال وطن وملت جمعيت عثمانيه نك مروج افكاريدر

مقدمه

(ملحق رقم 12)

الصفحة الأولى من العدد الثاني لجريدة «انتقام» التي كان يصدرها الاتحاديون في جنيف

2ième Numero de l'Intekam

22 Decem 1900

انتقام

انتقامجی يکی عثمانيلرك ناشر افكاريدر .

۲۹ رجب شريف ۱۳۱۸ — پنجشنبه — ۲۲ تشرين ثانی ۱۹۰۰

انتقام !

BAT 19

(ملحق رقم 13)

الصفحة الأولى من العدد الثاني لجريدة «استرداد» التي كان يصدرها الاتحاديون في جنيف



Istirdad
No 2, 20 Janvier 19..

COMITÉ ISTIRDAD
GENÈVE

استرداد

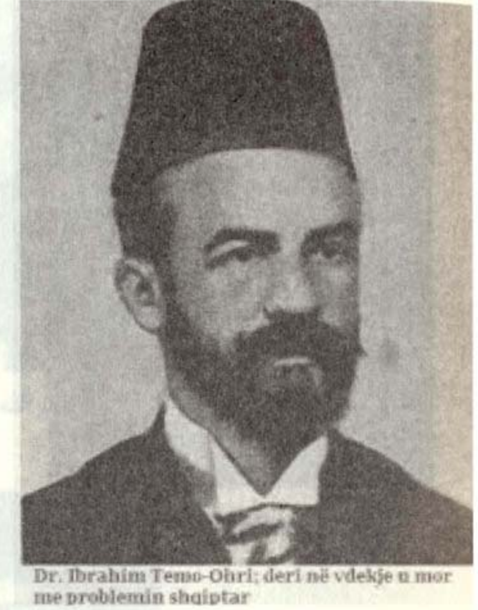
۱۹۰۱

Adresse: Istirdad.
Case Mt Blanc No 3

۲۰ کانون ثانی ۱۹۰۱

Twitter: @ketab_n

ملحق الصور



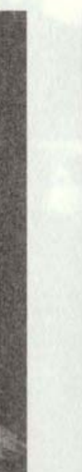
إبراهيم تيمو



أحمد رضا



الأمير صباح الدين



أنور باشا



طونالي حلمي



جمال باشا



نيازي باشا



عبد الله جودت



طلعت باشا

قائمة المصادر

قائمة المصادر

- القرآن الكريم

الوثائق غير المنشورة

- باللغة الفرنسية

- BAR.Film No.86095, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14248.
- BAR. Film No. 86096, Bundesarchiv- Bern, E.21/ 14249.

- باللغة الإنكليزية

- F.O. 371/ 9928, Tel. No. 255, From Sir N. O'conor to Sir Edward Grey, 23 April 1906.

الوثائق المنشورة

- باللغة العربية

- كنز الرغائب في منتخبات الجوائب، جمع سليم فارس، الجزء الخامس والجزء السادس، الأستانة، 1294هـ.
- «وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث1517-1920»، جمعها معلق عليها الدكتور عبدالعزيز سليمان نوار، بيروت، 1974.
- «وثائق تاريخ ليبيا الحديث. الوثائق العثمانية1881-1911»، جمع وترجمة عبدالسلام أدهم، ترتيب ومراجعة وتقديم الدكتور أحمد صدفي الدجاني، بيروت، 1974.

- باللغة الإنكليزية

- "Diplomacy in the Near and Middle East. A Documentary Record 1535-1914", Ed. J.C.Hurewitz, Vol.I, New York, 1972.
- "Great Britain: Foreign Policy and the Span of Empire 1689-1971. A Documentary History", Ed. Joel H. Wiener, Vol.III, London.
- "British Documents on the Origins of the War 1898-1914", Ed. G. P. Gooch and Harold Temperley, Vol.V, London, 1928.
- "British Document on Ottoman Armenians", Ed. Bilâl N. Şimşır, Vol. IV, Ankara, 1990.
- "The Great Powers and the Near Esst 1774-1923", Ed. M. S. Anderson, Great Britian, 1970.
- "The Middle East and North Africa in World Politics. A Documentary Record, Compiled", Translated and Edite J.C.Hurewitz, Vol.I, Second Edition, London, 1975.
- "Turkish Emigrations from the Balkans Documents", Ed. Bilâl N. Şimşır, Vol..1, Ankara, 1968.

- باللغة التركية

- «Rumelı»Den Türk Göçlerı Belgeler Doksanüç Muhacereti 1877-1878»، Hazırlayan Bilâl N. Şimşır، Ankara، 1968

«وثائق الهجرات التركية من البلقان 1877-1878»، إعداد بلال ن. شمشر، انقرة، 1968.

- باللغة الالمانية

- "Die Diplomatischen Akten des Auswartigen Amtes 1871-1914", 25. Band, Zweite Halfte, Berlin, 1927

«الأضابير الدبلوماسية لوزارة الخارجية 1871-1914»، المجلد 25، النصف الثاني، برلين، 1927.

المذكرات

- باللغة التركية

- "Abdülhamidin Hatıra Defteri (Belgeler ve resimlerle)", Yayına Hazırlayan ve Sadeleşiren İsmet Bozdağ, İstanbul.

- Ahmed Emin Yalman, Yakın Tarıhte Gördüklerim ve Geçirdiklerim, Cilt 1(1888-1918), İstanbul, 1970

أحمد أمين يلمان، ما رأيت وما مررت به في التـاريخ القريب، الجزء الأول (1888 1918-)، اسطنبول،1974.

- Halil Paşa, Bitmeyen Savaş, İstanbul, 1972

خليل باشا، الحرب التي لا تنتهي، اسطنبول، 1972.

- "İttihad ve Terakki Cemiyeti'nin Kurucusu ve 1/1 no'lu Üyesi İbrahim Temo'nun İttihad ve Terakki Anıları", İstanbul, 1987

«ذكريات إبراهيم تيمو مؤسس جمعية الاتحاد والترقي والعضو 1/ 1 فيها عن الاتحاد والترقي»، اسطنبول، 1987.

- Kâzım Karabekir, İttihat ve Terrakki Cemiyeti 1896- 1909, İstanbul, 1993

كاظم قرةبكر، جمعية الاتحاد والترقي 1896–1909، اسطنبول، 1993.

- Kâzım Nami Duru, İttihat ve Terakki Hatıralarım, İstanbul, 1957

كاظم نامي دورو، ذكرياتي عن الاتحاد والترقي، اسطنبول، 1957.

- Samih Nazif Tansu, Madalyonun Tersi, İstanbul, 1970

سامح نظيف تانسو، الوجه الآخر للمدالية، اسطنبول، 1970.

- Tahsin Paşa, Abdülhamit ve Yıldız Hatıraları, İstanbul, 1931

تحسين باشا، عبدالحميد وذكريات يلدز، اسطنبول، 1931.

- باللغة الإنكليزية

- Ahmed Emin Yalman, Turkey in My Time, Norman, 1956.
- C.D. Ussher, An American Physician in Turkey. A Narrative of Adventures in Peace and in War, NewYork, 1917.
- "Memoirs of Halide Edib", NewYork, 1972.
- Sir Robert Graves, Storm Centers of the Near East. Personal Memories 1879-1929, London, 1933.
- "The Memoirs of Ismail Kemal Bey", Ed.Sommerville Story, London, 1920.

- باللغة العربية

- أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن، الجزء الثاني، القسمين الأول والثاني، مصر، 1936.
- عائشة عثمان أوغلي(مذكرات)، والدي السلطان عبدالحميد الثاني، ترجمة الدكتور صالح سعداوي صالح، تقديم الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأردن، 1991.
- «مذكرات أنور باشا في طرابلس الغرب»، تقديم وترجمة عبدالمولى صالح الحرير، مراجعة حبيب الحسناوي، ليبيا، 1979.
- «مذكرات السلطان عبدالحميد»، إعداد الدكتور محمد حرب عبدالحميد، الطبعة الثانية، دار الهلال، 1985.
- «مذكرات سليمان فيضي من رواد النهضة العربية في العراق»، تحقيق وتقديم باسل سليمان فيضي، الطبعة الرابعة، بغداد، 2000.
- هنري مورغنتو، مذكرات سفير أمريكا في الأستانة، ترجمة فؤاد صروف، مصر، 1923.

الأطاريح والرسائل

- باللغة العربية

- اسماعيل نوري حميدي الدوري، حركة التحديث في تركيا 1923-1938، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية ابن رشد- جامعة بغداد، 1989.

- آلاء حمزة الفتلاوي، السياسة البريطانية تجاه تركيا 1919-1923، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 2000.
- أميرة محمد كامل الخربوطلي، الدور السياسي للعسكريين في تركيا، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية- جامعة القاهرة، 1972.
- أنيس عبدالخالق محمود القيسي، السلطان عبدالحميد الثاني والأطماع الصهيونية في فلسطين (1876-1909)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 1998.
- بان غانم أحمد حياوي، العلاقات العثمانية- الألمانية 1882-1918. دراسة تاريخية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة الموصل، 2001.
- جاسم محمد حسن، العراق في العهد الحميدي 1876-1909، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 1975.
- سؤدد عبدالحسين سبتي الربيعي، دور النخبة في تطوير الفكر القومي العربي في بلاد الشام في عهد الاتحاديين 1908-1918، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد القائد المؤسس للدراسات القومية والاشتراكية العليا- الجامعة المستنصرية، 2002.
- سحر عباس خضير، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تجاه تركيا 1917-1923 دراسة تاريخية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 2002.
- سنان صادق جواد السعدي، موقف جمعية الاتحاد والترقي من الحركة الصهيونية (1889-1914)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، 2005.
- صباح مجيد حميد العبدلي، العرب والجامعة الإسلامية في عهد السلطان عبدالحميد الثاني (1876-1909). دراسة تأريخية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا،بغداد، 1999.
- طاهر يوسف الوائلي، إدارة الدين العام العثماني 1881-1928. دراسة في التاريخ الاقتصادي الحديث، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة الكوفة، 1999، ص14.
- عبد الرزاق أحمد النصيري، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق 1908-1932، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب-جامعة بغداد، 1990.
- عصمت برهان الدين عبدالقادر، دور النواب العرب في مجلس المبعوثان العثماني 1908-1914، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة الموصل،1989.

- علي خضير عباس المشايخي، إيران في عهد ناصرالدين شاه 1848-1896، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة بغداد، 1987، ص328-330.
- محمد طارق فخري البياتي، التغلغل الصهيوني في تركيا وأثره في الأمن القومي العربي حتى عام 1967، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد، 2000.
- محمد عصفور سلمان الأموي، حركة الإصلاح في الدولة العثمانية وأثرها في المشرق العربي 1839-1908، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب-جامعة بغداد، 2005.
- نجلاء عدنان حسين العكيلي، الدولة العثمانية والمشكلة الأرمنية 1894-1916، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية- الجامعة المستنصرية، 2003.
- يوسف حسن محمد، الدعوة البهائية في العراق 1863-1977، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي، بغداد، 1995.

- باللغة الإنكليزية

- Yakthan Sadoun Al-Amir, British Reaction to Germany's Ottoman Policy 1870-1885. A Study of the Ottoman policies pursued by British and Germany Governments and their political and commercial consequences during the period 1870-1885, Doctor Thesis, School of Social Sciences- University of Bradford, 1978, PP.629-630.

الكتب

- باللغة العربية

- أ.سميليا نسكايا، الحركات الفلاحية في لبنان في النصف الأول من القرن التاسع عشر، ترجمة عدنان جاموس، مراجعة سالم يوسف، دمشق، 1972.
- الأب لويس شيخو، أسرار الماسونية(السر المصون في شيعة الفرمسون)، بغداد، 1965.
- إبراهيم الداقوقي، الدكتور، الأدب التركي المعاصر، سلسلة الدراسات التركية، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1984.
- إبراهيم الداقوقي، فلسطين والصهيونية في وسائل الإعلام التركية، بغداد، 1987.

- إبراهيم الميلحي، ما هنالك من أسرار بلاط السلطان عبدالحميد، دراسة تاريخية أحمد حسين الطماوي، تقديم الدكتور علي شلش، القاهرة، بلا.
- إبراهيم شريف، الدكتور، الشرق الأوسط دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة 14 تموز 1958 في العراق، بغداد، 1965.
- أبـو الثريـا سـامي، وسـاوس السـلطان عبدالحميـد، ترجمـة خلـف شـوقي أميـن الـداودي، بغداد، 1922.
- أحمد رضا بك، الخيبة الأدبية للسياسة الغربية في الشرق، ترجمة محمد بورقيبة ومحمد الصادق الزمرلي، تقديم محمد العروسي المطوي، الطبعة الثانية، تونس، 1977.
- أحمد عبدالرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، القاهرة، 1982.
- أحمد عزت الاعظمي، القضية العربية أسبابها مقدماتها تطوراتها ونتائجها، الجزء الأول، بغداد، 1931.
- أحمد عزت عبدالكريم وعبدالحميد البطريق وأبو الفتوح رضوان، تاريخ العالم العربي في العصر الحديث، القاهرة.
- أحمد نوري النعيمي، الدكتور، أثر الأقلية اليهودية في سياسة الدولة العثمانية تجاه فلسطين، بغداد، 1982.
- أحمد نوري النعيمي، الدكتور، اليهود والدولة العثمانية، عمان، 1997.
- أحمد نوري النعيمي، الدكتور، يهود الدونمة دراسة في الأصول والعقائد والمواقف، عمان، 1995.
- أسعد طلس، تاريخ الأمة العربية عصر الانبعاث يشتمل على تاريخ البلاد العربية منذ فجر القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) حتى العصر الحاضر، بيروت، 1963.
- آلما وتلن، الدكتورة، عبدالحميد ظل الله على الأرض، راسم رشدي، القاهرة، 1950.
- أنس إبراهيم العبيدي، أزمة البوسنة1908-1909، بغداد، 2004.
- أنور الجندي، السلطان عبدالحميد صفحة ناصعة من الجهاد والإيمان والتصميم لمواجهة تحديات الاستعمار والصهيونية، القاهرة، 1983.

- أنيس الخوري المقديسي، الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، الطبعة الثانية، دمشق، 1960.
- أورخان محمد علي، السلطان عبدالحميد الثاني حياته وأحداث عهده، الرمادي، 1987.
- ادموند ديمولان، سر تقدم الإنكليز السكسونيين، ترجمة أحمد فتحي زغلول، تصحيح توفيق الرافعي، القاهرة، 1899.
- ارنست أ. رامزور، تركية الفتاة وثورة 1908، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، تقديم ومراجعة الدكتور نقولا زيادة، بيروت، 1960.
- الاقتصاد التركي تطور العلاقات الاقتصادية التركية سلسلة الدراسات التركية، الجامعة المستنصرية، بلا.
- اكمل الدين إحسان اوغلى (إشراف)، الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، ترجمة صالح سعداوي، الجزء الأول والثاني، استانبول، 1999.
- بدرالدين السباعي، الدكتور، أضواء على الرأسمال الأجنبي في سورية 1850-1958، دمشق، 1967.
- البرت حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939، ترجمة كريم عزقول، الطبعة الثالثة، بيروت، بلا.
- برناد لويس، استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية، ترجمة الدكتور سيد رضوان علي، الطبعة الثانية، السعودية، 1982.
- برناد لويس، الغرب والشرق الأوسط، ترجمة الدكتور نبيل صبحي، لاغوس، 1965.
- بيرج بير بيروكلو، تركيا في أزمة من رأسمالية الدولة إلى الاستعمار الجديد، ترجمة مركز البحوث والمعلومات، عدد 21، 1983.
- بيري أندرسون، دولة الشرق الاستبدادية، ترجمة بديع عمر نظمي، بيروت، 1983.
- تاج السر أحمد حران، تطور الفكر القومي العربي من خلال العلاقات العربية-التركية في الفترة1908-1914، بغداد، 1983.
- توفيق علي برو، العرب والترك في العهد الدستوري العثماني 1908-1914، القاهرة، 1960.

- جان توشار واخرون، تاريخ الفكر السياسي، ترجمة علي مقلد، بيروت، 1987.
- جرجيس فتح الله، يقظة الكرد. تاريخ سياسي 1900-1925(ومما يتناول النزاع على جنوب كردستان أمام عصبة الأمم مع الوثائق والمذكرات المتعلقة به)، اربيل، 2002.
- جلال احمد أمين، الدكتور، المشرف العربي والغرب بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية، مركز دراسات الوحدة، الطبعة الرابعة، بيروت، 1983.
- جلال يحيى، الدكتور، العالم العربي الحديث، مصر، 1966.
- جواد رفعت اتلخان، أسرار الماسونية، ترجمة وتعليق نورالدين الواعظ المحامي وسليمان محمد أمين القابلي، بغداد، 1965.
- جواد رفعت اتلخان، الخطر المحيط بالإسلام(الصهيونية وبروتوكولاتها)، ترجمة وهبي عزالدين، بغداد، 1965.
- جواد قيس العزاوي، الدكتور، الدولة العثمانية. قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، الطبعة الثانية، بيروت، 2003.
- جورج انطونيوس، يقظة العرب، تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة الدكتور ناصرالدين الأسد والدكتور إحسان عباس، تقديم نبيه أمين فارس، الطبعة الخامسة، بيروت، 1978.
- جوزيف الياس، تطور الصحافة السورية في مائة عام 1865-1965، الجزء الأول، بيروت، 1982.
- جوزيف الياس، تطور الصحافة السورية في مائة عام(1865-1965)، بيروت، 1982.
- جوزيف نسيم يوسف، الدكتور، تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، الإسكندرية، 1984.
- جون هاسلب، السلطان الأحمر قصة حياة السلطان عبدالحميد، تعريب فيليب عطاالله، بيروت، بلا.
- حسان علي حلاق، الدكتور، دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبدالحميد الثاني عن العرش(1908-1909)، الطبعة الثانية، بيروت، 1980.
- حسن كلشي، الوجه الأخر للاتحاد والترقي، ترجمة وتقديم الدكتور محمد م. الارناؤوط، الأردن، 1990.

- حسن لبيب، كتاب تاريخ الأتراك العثمانيين، القاهرة، 1917.
- حسين لبيب، تاريخ المسلمة الشرقية، مصر، 1922.
- حسين مجيب المصري، تاريخ الأدب التركي، القاهرة، 1951.
- حسين مجيب المصري، الدكتور، تاريخ الأدب العربي والتركي دراسة في الأدب الإسلامي المقارن، القاهرة، 1962.
- حسين هادي الشلاه، الدكتور، طالب باشا النقيب البصري ودوره في تاريخ العراق السياسي الحديث، بيروت، 2002.
- خالد زيادة، الدكتور، اكتشاف التقدم الأوربي دراسة في المؤثرات الأوربية على العثمانيين في القرن الثامن عشر، بيروت، 1981.
- خيرية قاسميه، الدكتورة، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه 1908-1918، بيروت، 1973.
- دافيد أس. لاندز، بنوك وبشوات، ترجمة عبدالعظيم أنيس، مصر، 1966.
- دونالد كواترت، الدولة العثمانية 1700-1922، ترجمة أيمن أمنازي، الرياض، 2004.
- روبر مانتران(اشراف)، «تاريخ الدولة العثمانية»، ترجمة بشير السباعي، الجزء الثاني، القاهرة، 1993.
- رولان موسنييه وارنست لابرون، تاريخ الحضارات العام القرن الثامن عشر عهد الأنوار، ترجمة يوسف اسعد داغر، الطبعة الثانية، بيروت، 1987.
- ز. ي. هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ترجمة مصطفى الحسني، بيروت، 1973.
- زكريا فايد، العلمانية النشأة والأثر في الشرق والغرب، بيروت، 1988.
- زين نورالدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، الطبعة الثانية، بيروت، 1977.
- زين نورالدين زين، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية، الطبعة الثالثة، بيروت، 1979.

- ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية، الطبعة الثانية، بيروت، 1960.
- ساطع الحصري، محاضرات في نشوء الفكرة القومية، الطبعة الثانية، بيروت، 1985.
- سعيد سنو، تركيا الكمالية، بيروت، 1938.
- سليم الصويص المحامي، اتاتورك منقذ تركيا وباني نهضتها الحديثة، عمان ، 1970.
- سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، دار المدى للثقافة والنشر، بغداد، 2005.
- سليمان البستاني، عبرة وذكرى أو الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده، تحقيق ودراسة خالد زيادة، بيروت، 1978.
- السيد رجب حراز، الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب 1840-1909، القاهرة، 1970.
- شارل عيساوي،الدكتور، التاريخ الاقتصادي للشرق الاوسط وشمال افريقيا، ترجمة سعد رحمي، بيروت، 1985.
- شاهه دحام عبدالله الجبوري، العلاقات العثمانية اليونانية1876-1909، بغداد، 2003.
- صلاح محمد نصر وكمال الدين الحناوي، الشرق الأوسط في مهب الرياح، الطبعة الثانية، القاهرة، 1951.
- ضابط تركي سابق، الرجل الصنم، ترجمة عبدالله عبدالرحمن، الطبعة الثانية، بلا، 1978.
- طلال عتريسي، الدكتور، البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان. دراسة وثائقية، الوكالة العالمية للتوزيع، 1987.
- عبدالجبار حسن الجبوري، التجمعات والأحزاب السياسية في القطر السوري أواخر القرن التاسع عشر إلى سنة 1958، بغداد، 1980.
- عبدالزهرة مكطوف الجوراني، الفكر السياسي في المشرق العربي أواخر القرن التاسع عشر حتى 1914، بغداد، 2001.
- عبدالستار طاهر شريف، الدكتور، الجمعيات والمنظمات والأحزاب الكردية في نصف قرن 1908-1958، بغداد، 1989.
- عبدالعزيز سليمان نوار، الدكتور، الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون الفرس مسلمو الهند، بيروت، 1973.

- عبدالعزيز محمد الشناوي، الدكتور، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الأول، القاهرة، 1980.
- عبدالقادر أحمد اليوسف، الدكتور، العصور الوسطى الأوربية، بيروت، 1967.
- عبدالكريم محمود غرايبة، الدكتور، سوريا في القرن التاسع عشر 1840-1876، القاهرة، 1961.
- عبدالكريم كامل عبدالكاظم، الدكتور، النظم الاقتصادية المقارنة، الموصل، 1988.
- عبدالكريم محمود غرايبة، تاريخ العرب الحديث، بيروت، 1984.
- عبدالله حنا، الفلاحون وملاك الأرض في سورية القرن العشرين دراسة تجمع بين التاريخ الشفهي والتاريخ المكتوب، بيروت،2003.
- عبدالله حنا، القضية الزراعية والحركات الفلاحية في سوريا ولبنان (1820-1920)، القسم الأول، بيروت، 1975.
- عزيز العظمة، الدكتور، العلمانية من منظور مختلف، بيروت، 1992.
- عصر السلطان عبدالحميد وأثره في الأقطار العربية، الجزء الثاني والجزء الثالث عشر، دمشق، بلا.
- العلاقات العربية- التركية حوار مستقبلي :بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1995.
- علي أدهم، مَتزيني، الطبعة الثانية، بغداد،1985.
- علي محمد محمد الصلابي، الدكتور، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، القاهرة، 2004.
- عمر عبدالعزيز عمر، الدكتور، تاريخ المشرق العربي 1516-1922، إسكندرية، 1984
- فاضل مهدي بيات، الدكتور، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني رؤية جديدة في بنود الوثائق والمصادر العثمانية، بيروت، 2003.
- فرناند ويليه، الأسس التاريخية لمشكلات الشرق الأوسط، تعريب نجدة هاجر وطارق شهاب، بيروت، 1960.
- فوزية العطية، الدكتورة، المدخل إلى دراسة علم النفس الاجتماعي، بغداد، 1992.

- فيروز أحمد، صنع تركيا الحديثة، ترجمة الدكتور سليمان داود الواسطي والدكتور حمدي حميد الدوري، بغداد، 2000.
- فيليب حتي، الدكتور، موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة الدكتور أنيس فريحة، بيروت، 1965.
- قباري محمد إسماعيل، الدكتور، المدخل إلى علم الاجتماع، الإسكندرية.
- قدري قلعجي، مدحت باشا أبو الدستور العثماني وخالع السلاطين، سلسلة أعلام الحرية، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، 1951.
- ك. استارجيان، الدكتور، تاريخ الأمة الأرمينية، الموصل، 1951.
- كارلتون ج.هـ. هيز، الثورة الصناعية ونتاجها السياسية والاجتماعية، ترجمة احمد عبدالباقي، الطبعة الثانية، بغداد، 1962.
- الكسندر أداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها،ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، البصرة، 1982.
- كمال مظهر أحمد، الدكتور، أضواء على قضايا دولية في الشرق الأوسط، بغداد، 1978.
- كمال مظهر أحمد، الدكتور، صفحات من تاريخ العراق المعاصر دراسات تحليلية، بغداد، 1978.
- كمال مظهر أحمد، الدكتور، كردستان في سنوات الحرب العالمية الأولى، ترجمة محمد الملا عبدالكريم، الطبعة الثانية، بغداد، 1984.
- لؤي بحري، سكة حديد بغداد أو دراسة في تطور ودبلوماسية قضية سكة حديد برلين بغداد حتى عام 1914، بغداد، 1967.
- لوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة الدكتورة عفيفة البستاني، مراجعة يوري روشين، موسكو، بلا.
- لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، المجلد الثاني، الجزء الرابع، الطبعة الثالثة، دار الفكر، 1971.
- لورد كرومر، عباس الثاني، ترجمة فؤاد، مصر.
- ليف كوتلوف، الحركة العربية في المشرق1908-1914. دراسة سياسة تاريخية اقتصادية، ترجمة زياد الملا، تقديم عبدالله حنا، بيروت، 2001.

- ليفي بريل، فلسفة أوجيست كونت، ترجمة وتقديم الدكتور محمود قاسم والدكتور السيد محمد بدوي، الطبعة الثانية، القاهرة، 1952.
- ماري ملز باتريك، سلاطين بني عثمان الخمسة، ترجمة حنا غصن واخرون، بيروت، 1933.
- مالميسانز، القومية الكردية ود. عبدالله جودت في مطلع القرن العشرين، ترجمة شكور مصطفى، اربيل، 2000.
- مجموعة مؤلفين، الحدود الشرقية للوطن العربي دراسة تاريخية، بغداد، 1983.
- مجموعة مؤلفين، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، بغداد، 1984.
- محسن بهجت شاكر كوبرلي، تاريخ الأدب التركي، كركوك، 1975.
- محمد أنيس والسيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، 1967.
- محمد أنيس، الدكتور، الدولة العثمانية والشرق العربي 1514-1914، القاهرة، 1984.
- محمد الاسطى(مترجم)، تاريخ القوات المسلحة التركية الدور العثماني. الحرب العثمانية الإيطالية1911-1912، مراجعة نجم الدين زين العابدين، ليبيا، 1988.
- محمد جميل بيهم، فلسفة التاريخ العثماني أسباب انحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها، بيروت، 1954.
- محمد حبيب أحمد، نهضة الشعوب الإسلامية في العصر الحديث، مصر، 1953.
- محمد حرب، الدكتور، العثمانيون في التاريخ والحضارة، دمشق، 1999.
- محمد رفعت، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، مصر، 1959.
- محمد سعيد مجذوف، الدكتور، الحريات العامة وحقوق الإنسان، طرابلس، 1986.
- محمد عبدالباقي عشماوي، الوطن العربي بين وحدتين عثمانية دمرته وعربية أيقظته، القاهرة، 1958.
- محمد عبدالرحمن برج، الدكتور، دراسة في التاريخ العرب الحديث والمعاصر، مصر، 1974.
- محمد عبدالعزيز مرزوق،الدكتور، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، مصر، 1974.

- محمد عبداللطيف البحراوي، الدكتور، حركة الإصلاح العثماني في عصر السلطان محمود الثاني 1808-1839، القاهرة، 1978.
- محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة، الطبعة الثانية، بيروت، 1971.
- محمد علي قطب، ماذا تعرف عن يهود الدونمة أصلهم نشأتهم حقيقتهم، القاهرة، 1978.
- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، الطبعة الثانية، مصر، 1896.
- محمد كمال الدسوقي، الدكتور، الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، القاهرة، 1976.
- محمد محمد حسين، الدكتور، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء الأول، الطبعة الثانية، القاهرة، 1382.
- محمد مكرم العمري، أسرار الأشرار قبال اليهود والتنظيمات السرية والسعي للسيطرة على العالم، بيروت، 2004.
- محمد الناصر النفزاوي، الدكتور، التيارات الفكرية السياسية في السلطنة العثمانية1938-1918، تونس، 2001.
- محمود السيد أبو النيل، علم النفس الاجتماعي. دراسات عربية وعالمية، الجزء الأول،الطبعة الرابعة، بيروت، 1984.
- محمود رئيف أفندي، التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية، تعريب وتحقيق وتقديم الدكتور خالد زيادة، لبنان، 1985.
- محمود صالح منسي، حركة اليقظة العربية في الشرق الأسيوي، القاهرة، 1972.
- مصطفى الزين، اتاتورك أمة في رجل، بيروت، 1972.
- مصطفى حلمي(تقديم ودراسة)، الدكتور، الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية. دراسة حول كتاب على منكري النعمة من الدين والخلافة والنعمة لشيخ الإسلام مصطفى صبري، الإسكندرية، 1985.
- مصطفى محمد، الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، ألمانيا الغربية، 1984.
- معهد البحوث والدراسات العربية، «العلاقات العربية التركية من المنظورين العربي والتركي»، إشراف أكمل الدين إحسان اوغلى ومحمد صفي الدين أبوالعز، 1991-1992.

- من أمير إلى سلطان. ترجمة الخطاب الذي رفعه المغفور له الأمير مصطفى فاضل باشا إلى صاحب الجلالة السلطان عبدالعزيز سنة 1866، نقله إلى العربية احمد فتحي زغلول باشا، تصحيح توفيق الرافعي، القاهرة، 1922.
- موفق بن مرجة، صحوة الرجل المريض أو السلطان عبدالحميد والخلافة الإسلامية، الكويت، بلا.
- ن.أ. خالفين، الدكتور، الصراع على كردستان «المشاركة الكردية في العلاقات الدولية خلال القرن التاسع عشر»، ترجمة الدكتور احمد عثمان ابوبكر، بغداد، 1969.
- هاشم صالح التكريتي، الدكتور، الاستعمار. أشكاله تطوراته أساليبه، بغداد، 1989.
- هاشم صالح التكريتي، الدكتور، المسألة الشرقية، المرحلة الأولى 1774-1856، بغداد، 1990.
- هدى درويش، الدكتورة، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية منذ قيام دعوة يهود الدونمة 1648إلى نهاية القرن العشرين، الجزء الثاني، دمشق، 2003.
- هدى درويش، الدكتورة، العلاقات التركية اليهودية وأثرها على البلاد العربية منذ قيام دعوة يهود الدونمة 1648 م إلى نهاية القرن العشرين، الجزء الأول، دمشق، 2002.
- هوكر طاهر توفيق، دور الصحافة الكوردية في تطوير الوعي القومي الكوردي1898-1918، كركوك، 2004.
- وجيه كوثر اغي، الدكتور، الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي 1860-1920 مساهمة في دراسة أصولها التاريخية، الطبعة الثانية، بيروت، 1978.
- وحيدالدين بهاءالدين، أعلام من الأدب التركي، بغداد، 1965.
- وليام ل. كليفلاند، ساطع الحصري من الفكرة العثمانية إلى العروبة، تعريب فكتور سحاب، بيروت، 1983.
- يرفند إبراهيمان، إيران بين ثورتين، ترجمة مركز البحوث والمعلومات، عدد 22، بغداد، 1983.
- يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة الدكتور محمود الأنصاري، المجلد الثاني، استانبول، 1990.
- يوسف الحكيم، سورية والعهد العثماني، بيروت، 1966.
- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، الطبعة الخامسة، القاهرة، 1986.

- باللغة الإنكليزية

- A. Bonné, State and Economics in the Middle East. A Society in transition, London, 1955.
- A.B. Villata, Atatürk, translated from Spanish by William Campbell, Ankara, 1979.
- A.Briggs, The Age of Improvement 1783-1867, Twelfth Impression, New York, 1996.
- A.Herbert, Ben Kendim. A Record of Eastern Travel, Ed. D. MacCarthy, London, 1924.
- A.Mango, Turkey, London, 1968.
- A.Wittlin, Abdul Hamid. The Shadow of God, translated by N.Denny, London, 1940.
- Afaf Lutfi Al- Sayyid, Egypt and Cromer. A Study in Anglo- Egyptian Relations, London, 1968.
- Ahmed Emhn, Turkey in the World War, U.S.A, 1930.
- Anatole G. Mazour, Russia Past and Present, U.S.A., 1951.
- Ardern G.Hulme- Beaman, Twenty Years in The Near East, London, 1898.
- Arnold S. Toybee, The Western Question in Greece and Turkey. Astudy in the contact of civilisations, Great Britain, 1922.
- B. Braude and B.Lewis (ed.), Christians and Jews in the Ottoman Empire The Functioning of A Plural Society, Vol.I, London, 1982, P.269.
- B.Lewis and P.M.Holt, Historians of the Middle East, London, 1964.
- B.Lewis, Islam in History: Ideas Men and Events in the Middle East, NewYork, 1973.
- B.Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Second Edition, London, 1968.
- B.Lewis, The Middle East and the West, London, 1964.
- C.E.Clement, Constantionople The City of the Sultans, U.S.A, 1895.
- C.Eliot, Turkey in Europe, New impression, London, 1965.
- C.H.Dodd, Democracy and Development in Turkey, Great Britain, 1979.
- C.H.Dodd, Politics and Government in Turkey, Great Britain, 1969.

- C.W. Hostler, Turkism and The Soviets. The Turks of the World and their Political Objectives, London, 1957.
- Charles Issawi (ed.), The Economic History of the Middle East 1800-1914, U.S.A, 1966, P.49.
- Charles Issawi, The Economic History of Turkey 1800-1853, Chicago, 1980.
- D. L. Neave, Romance of the Bosphorus, London,
- D.C.Blaisdell, European Financial Control in the Ottoman Empire A Study of the Establishment Activities and Significance of the Administration of the Ottoman Public Debt, New York, 1929.
- D.Djordjevic and S. Fischer- Galati, The Balkan Revolutionary Tradition, NewYork, 1981.
- Dagobert Von Mikusch, Mustapha Kemal Between Europe and Asia, Translated by J. Linton, London, 1931.
- E. G. Browne, The Persian Revolution of 1905-1909, London, 1966.
- E. Lengyel, Turkey, London, 1970.
- E.F. Knight, The Awakening of Turkey. A History of the Turkish Revolution, London, 1909.
- E.G.Mears (ed.), Modern Turkey A Politico- Economic interpretation 1908- 1923 inclusive with Selected chapters by Representative Authorities, U.S.A, 1924.
- E.J.W.Gibb, A History of Ottoman Poetry, Ed. E.G.Browne, Vol.V, Printed four, London, 1964.
- E.M.Earle, Turkey. The Great Powers and The Baghdad Railway. A Study in Imperialism, NewYork, 1924.
- E.S.Creasy, History of the Ottoman Turks, Beirut, 1961.
- Ehsin Onulduran, Political Development and Political Parties in Turkey, Ankara, 1974.
- Ergun Özbudun, Social Change and Political Participation in Turkey, London, 1974.
- Ernest E. Ramsaur, The Young Turks Prelude to the Revolution of 1908,U.S.A, 1957.

- F.A.Neale, Islamism its Rise and its Progress or the Present and Past Conition of the Turks, Vol.I, London,
- F.E.Bailey, British Policy and the Turkish Reform Movement. A Study in Anglo- Turkish Relations 1826-1853, London, 1942.
- F.W.Frey, The Turkish Political Elite, U.S.A, 1965.
- Feroz Ahmad, The Young Turks. The Committee of Union and Progress in Turkish Politics 1908-1914, Oxford, 1969.
- Firouz Bahrampour, Turkey: Political and Social Transformation, Brooklyn, 1967.
- G.D.H.Cole, Introduction to Economic History 1750-1950, London, 1950.
- G.F. Abbott, Turkey in Transition, London, 1909.
- G.Landen, The Emergence of The Modern Middle East. Selected Readings, NewYork, 1970.
- G.S.Papadopouloos, England and the Near East 1896-1898, Institute for Balkan Studies, Thessaloniki, 1969.
- H.A.R.Gibb and H.Bowen, Islamic Society and the West A Study of the Impact of Western Civilization on Moslem Culture in the Near East, Volume One, Part I, London, 1951.
- H.C.Thomson, The Outgoing Turk Impressions of A Journey Through the Western Balkans, London, 1897.
- H.Froembgen, Kemal Ataturk. A Biography, Translated from the Germen by K. Kirkness, London.
- H.Gerber, The Social Origins of the Modern Middle East, London, 1982.
- H.Inalcik, Application of the Tanzimat and its Social Effects, Belgium, 1976.
- H.N.Horard, Turkey the Straits and U.S. Policy, Baltimore, 1974.
- H.N.Howard, The Partition of Turkey. A Diplomatic History 1913- 1923, NewYork, 1966.
- H.Temperley, England and the Near East. The Crimea, 2nd Impression, U.S.A, 1964.

- Halide Edib, Conflict of East and West in Turkey, Lahore, 1963.
- Hamiliton A.R.Gibb, Studies on the Civilization of Islam, Ed. Stanford J.Shaw and William R.Polk, London, 1962.
- Harry Luke, The Old Turkey and the New. From Byzantium to Ankara, London, 1955.
- Hasan Kayalı, Arabs and Young Turks Ottomanism Arabism and Islamism in Ottoman Empire 1908-1918, London, 1997.
- Henry E.Allen, The Turkish Transformation A Study in Social and Religious Development, NewYork, 1968.
- Irfan Orga, Phoenix Ascendant. The Rise of Modern Turkey, London.
- Isaiah Friedman, Germany Turkey and Zionism 1897-1918, Oxford, 1977.
- J.C.Hurewitz, Middle East Dilemmas the background of United States Policy, New York, 1953.
- J.K. Birge, The Bektashi Order of Dervishes, London, 1937.
- J.R.V.Millingen and S.I.Ali Shah, Peeps at Many Lands Turkey, London, 1932.
- J.S.Szyliowicz, Education and Modernization in the Middle East, London, 1973.
- Jacob M.Landan, Jews Arabs Turks. Selected Essays, Jerusalem, 1993.
- Joseph Heller, British Policy Towards Ottoman Empire 1908-1914, London, 1983.
- Justin McCarthy, Muslims and Minorities. The Population of Ottoman Anatolia and the end of the Empire, NewYork, 1983.
- Justin McCarthy, The Ottoman Peoples and The End of Empire, London, 2001.
- Kamuuran Gürün, The Armenian File. The Myth of Innocence Exposed, London, 1985.
- Kemal H. Karpat (ed.), The Ottoman State and its Place in World History, Leiden, 1974.
- Kemal H.Karpat, Turkey's Politics. The Transition to a Multi- Party System, Second Printing, USA, 1966.
- L.Kinross, The Ottoman Centuries. The Rise and Fall of the Turkish Empire, NewYork, 1977.

- L.L.Snyder, The New Nationalism, NewYork, 1968.
- L.Ziring, Iran Turkey and Afghanistan A Political Chronology, NewYork, 1981.
- Lord Eversley, The Turkish Empire from 1288 to 1914, NewYork, 1919.
- M.A.Dobb, Studies in the development of Capitalism, London, 1959.
- M.A.Ubicini, Letters on Turkey: An Account of the Religious Political Social and Commercial Condition of the Ottoman Empire, Part I, New Impression, NewYork, 1973.
- M.D.Rivkin, Area Development for nation growth the Turkish precedent, U.S.A, 1965.
- M.M.Knight, Economic History of Europe in Modern Times, U.S.A, 1928.
- M.Naim Turfan, Rise of the Young Turks Politics. The Military and Ottoman Collapse, NewYork, 2000.
- M.P. Price, A History of Turkey from Empire to Republic, London, 1956.
- M.S. Anderson, The Eastern Question 1774-1932. A Study in International Relations, Reprinted, HongKong, 1982.
- M.Şükrü Hanioğlu, Preparation for a Revolution. The Young Turks 1902-1908, New York, 2001.
- M.Şükrü Hanioğlu, The Young Turks in Opposition, NewYork, 1995.
- Mark Sykes, The Caliphs Last Heritage A Short History of The Turkish Empire, London, 1915.
- Nevile J. Mandel, The Arabs and Zionism before World War 1, Los Angeles, 1976.
- Nikshoy C. Chtterji, Muddle of The Middle East, Vol.1, NewDelhi, 1973.
- Niyazi Berkes, The Development of Secularism in Turkey, Montreal, 1964.
- Nuri Eren, Turkey Today and Tomorrow. An Experiment in Westernization, NewYork, 1963.
- O.Hammann, The World Policy 1840- 1912, Translated by M. H. Huttman, London, 1926, PP.239-234.
- P.Benedict and Others (ed.), Turkey Geographic and Social Perspectives, Leiden, 1974, P.23.

- P.M.Holt and Others (ed.), The Combridge History of Islam, Combridge University Press, 1979.
- Philip K. Hitti, Lebanon in History from the Earliest Time to the Present, NewYork, 1967.
- R. Hichens, The Near East. Dalmatia, Greece and Constantinople, London, 1913,
- R.Devereux, The First Ottoman Constitutional Period. A Study of the Midhat Constitution and Parliament, Baltimor, 1963.
- R.E.Ward and D.A.Rustow (ed.), Political Modernization in Japan and Turkey, New Jersey, 1964.
- R. Marriott, The Eastern Question An Historical Study, Fourth Edition, Oxford, 1969.
- R.N.Frye (ed.), Islam and the West, U.S.A, 1957.
- R.R.Trask, The United States Response to Turkish Nationalism and Reform 1914-1939, U.S.A, 1971.
- Richard D.Robinson, The First Turkish Republic A Case Study in National Development, Cambridge, 1963.
- Roger Owen, The Middle East in the World Economy 1800-1914, London, 1981.
- Roger Owen, The Middle East in the World Economy 1800-1914, New York, 1981.
- S.J.Shaw and E.K.Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol.II, NewYork, 1977.
- S.S.Cox, Diversions of Diplomat in Turkey, New York, 1887.
- Salahi Ramsdan Sonyel, The Ottoman Armenians. Victims of Great Power Diplomacy, London, 1987.
- Salahi Sonyel, The Great War and the Tragedy of Anatolia. Turks and Armenians in the Maelstorm of Major Powers, Ankara, 2000.
- Şerif Mardin, The Genesis of Young Ottoman Thought A Study in the Modernization of Turkish Political Ideas, NewJersey, 1962.
- Şevket Pamuk, A Monetary History of the Ottoman Empire, United Kingdam, 2000.

- Suraiya Faroqhi, Subjects of the Sultan. Culture and daily life in the Ottoman Empire, London, 2000.
- T.C.Young (ed.), Near Eastern Culture and Society. A Symposium on The Meeting of East and West, NewJersey, 1951.
- T.Little, Modern Egypt, London, 1967.
- Telford Waugh, Turkey Yasterday Today and Tomorrow, London, 1930.
- "Turkish Nationalism and Western Civilization. Selected essays of Ziya Gökalp", Ed. Niyazi Berkes, NewYourk, 1959.
- Uriel Heyd, Foundations of Turkish Nationalism. The Life and Teachings of Ziya Gökalp, London, 1950.
- Üstün Ergüder and Others, Perspectives on Democracy in Turkey, Ed. Ergun Özbudun, Ankara, 1988.
- W. D. David, European Diplomacy in the Near Eastern Question 1906- 1909, The University of Illinois Press, 1940.
- W. F. Weiker, Ottomans Turks and the Jewish Polity . A History of the Jews of Turkey, NewYork, 1992.
- W. Kirchner, A History of Russia, Fourth Printing, NewYork, 1955.
- W. Miller, The Ottoman Empire and its Successors 1801-1927, new impression, London, 1966.
- W. S. Davis, A Short History of the Near East from the Founding of Constantinople (330A.D. to 1922), NewYork, 1956.
- W. T. Waugh, A History of Europe from 1378 to 1494, Third Edition, London, 1949.
- W.Hale, The Political and Economic Development of Modern Turkey, London, 1924.
- W.L.Langer, The Diplomacy of Imperialism 1890-1902, Fifth Printing, NewYork, 1968.
- W.R.Polk and R.L.Chamber (ed.), Beginnings of Modernization in the Middle East the Nineteenth Century", U.S.A, 1968, P87.

- W.S.Monroe, Turkey and the Turks an account of the Lands the, Peoples and the Institutions of the Ottoman Empire, New Impression, London, 1985.
- W.S.Vucinich, The Ottoman Empire Its Record and Legacy, NewJersy, 1965.
- W.Yale, The Near East A Modern History, U.S.A, 1958.
- Y.Armajani, Middle East Past and Present, NewJersey, 1970.

- باللغة التركية (الحرف اللاتيني)

- Agâh Sırrı Levend, Şemsettin Sami, Ankara, 1969

اغا سري ليفند، شمس الدين سامي، انقرة، 1969.

- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve İttihad ve Terakki, İstanbul, 1948

أحمد بدوي كوران، تأريخ الثوة والاتحاد والترقي، اسطنبول، 1948.

- Ahmed Bedevi Kuran, İnkılâp Tarihimiz ve Jön Türkler, İstanbul, 1945

أحمد بدوي كوران، تأريخ الثورة والشبان الترك، اسطنبول،1945.

- Ahmet Hamdi Tanpinar, Edebiyat Üzerine Makaleler, İstanbul, 1969

أحمد حمدي تانبار، مقالات بشأن الأدب، اسطنبول، 1969.

- Ali Naci, Ya Hürrıyet Ya Ölüm!, İstanbul, 1934

علي ناجي، أما الحرية وأما الموت، اسطنبول، 1934.

- Altan Deliorman, Türklere Karşı Ermeni Komitecileri, İstanbul, 1397

الطان دلي اورمان، الجمعيات الأرمنية المعادية للأتراك، اسطنبول، 1937.

- Angelo Iacovella, Gönye ve Hilal. İttiihad- Terakki ve Masonluk, Çeviren Tülin Altınova, İstanbul, 1998

أنجلو اياكوفيللا، المثلث والهلال. الاتحاد والترقي والماسونية، ترجمة تولين ألتنوفا، اسطنبول، 1998.

- Bayram Kodaman, Abdülhamid Devri Eğitim Sistemi, İstanbul, 1980

بايرام كودمان، نظام التعليم في عصر عبد الحميد، اسطنبول، 1980.

- Bir Yazar Grulou, Uluslararası Midhat Paşa Semineri. Bildiriler ve Tartışmalar, Ankara, 1986

مجموعة مؤلفين، ندوة عن مدحت باشا. تقارير ومناقشات، انقرة، 1986.

- C.Kuotret, Ahmet Mithat, Ankara, 1962

س.كوترات، أحمد مدحت، انقرة، 1962.

- Cavit Orhan Tütenqil, İngiltere'de Türk Gazteciliği 1867-1967, İstanbul, 1969

جاويد أورهان توتنكيل، الصحافة التركية في انكلترا 1867-1967، اسطنبول، 1969.

- Cemal Kutay, Prens Sabahattin Bey Sultan II.Abdülhamit İttihad ve Terakki, İstanbul, 1964

جمال كوتاي، الأمير صباح الدين السلطان عبدالحميد الثاني وجمعية الاتحاد والترقي، اسطنبول، 1964.

- Cevat Rıfat Atilhan, İlim Işığında ve Tarih Önünde 31 Mart Faciası, İstanbul, 1956

جواد رفعت أتلخان، فاجعة 31 مارت في ضوء العلم وأمام التاريخ، اسطنبول، 1956

- Cevat Rifat Atilhan, İslâmı Saran Tehlike. Siyonizm ve Protokollar, İstanbul, 1955.

- Fazıl Nalbandğlu, Demokrasi ve Rejimler Politikası, Ankara, 1950

فاضل نلبنداوغلو، الديمقراطية وسياسة الأنظمة، انقرة، 1950.

- Fendun Cemal Erkin, Türk- Sovyet İlişkileri ve Boğazlar Meselesi, Ankara, 1968

فريدون جمال اركين، العلاقات التركية- السوفيتية وقضية المضائق، انقرة، 1968.

- Hamza Eroğlu, Türk İnkılâp Tarihi, İstanbul, 1982

حمزة اراوغلو، تاريخ الثورة التركية، اسطنبول، 1982.

- Hasan A. Koçer, Türkiye'De Modern Eğitim Doğuşu ve Gelişimi (1773-1923), İstanbul

حسن أ. كوجر، ولادة التعليم الحديث في تركيا وتطوره (-1773 1923)، اسطنبول.

- Hikmet Dizdaroğlu, Namık Kemal Hayatı Sanatl Eserleri, İstanbul, 1968

حكمت ديزدار اوغلو، حياة نامق كمال ومؤلفاته الشعرية، اسطنبول، 1968.

- Hılmi Kâmil Bayur, Sadrazam Kâmil Paşa- Siyasi Hayatı-, Ankara, 1954

حلمي كامل بايور، الصدر الأعظم كامل باشا - حياته السياسية-، أنقرة، 1954.

- Hilmi Yücebaş, Yedi Şairden Hatıralar, İstanbul, 1960, S.21

حلمي يوزباش، خواطر عن سبعة شعراء، اسطنبول، 1960، ص21.

- Hilmi Ziya Ülken, Türkiyede Çağdaş Düşünce Tarihi, I, İssanbul, 1966

حلمي ضياء اولكم، تاريخ الفكر المعاصر في تركيا، الجزء الأول، اسطنبول، 1966.

- Kâmil SU, Türk Eğitiminde Teftişin Yeri ve Önemi, İstanbul, 1947

كمال صو، موقع وأهمية التفتيش في التعليم التركي، اسطنبول، 1974.

- Kemal Köktürk, Atatürk Hayatı Devrimleri ve Anıları, İstanbul, 1981

كمال كوكترك، أتاتورك حياته ذكرياته وثوراته، اسطنبول، 1981.

- Laszlo Rasonyı, Tarihte Türklük, Ankara, 1971

لاسزلو راسوني، التريك في التاريخ، أنقرة، 1971.

- Metin And, Tanzımat ve İstibdat Döneminde Türk Tiyatrous 1839-1908, Ankra, 1972

متين اند، المسرح التركي في فترة التنظيمات والاستبداد 1839-1908، انقرة، 1972.

- Mithat Cemal Kuntay, Namık Kemal Devrinin İnsanları ve Olayları Arasında, II, İstanbul, 1941

مدحت جمال كونتاي، وسط الناس والأحداث في فترة نامق كمال، الجزء الثاني، اسطنبول، 1949.

- Murat Urazö, Şinasi Hayatı Şahsıyeti Eserlerinden Seçme Parçalar, İstanbul, 1955

مراد اوراز، حياة شناسي وشخصيته ومقاطع مختارة من شعره، اسطنبول، 1955.

- Mustafa Müftüoğlu, Tarihin Hükmü. Abdülhamıd Kızıl Sultan Mı?, Cild II, Ankara

مصطفى مفتي اوغلو، حكم التأريخ. هل كان عبدالحميد سلطانا أحمرا؟، المجلد الثاني، انقرة.

- Mustafa Nihat Özön, Namık Kemal ve İbret Gazetesi, Ankara, 1938

مصطفى نهاد اوزون، نامق كمال وجريدة عبرت، انقرة، 1938.

- Mustafa Turan, Taşkışla'Da 31 Mart Fâciasl, İstanbul, 1966

مصطفى طوران، فاجعة 31 آذار في طاش قشلة، اسطنبول، 1966.

- Mustafa Yazıcı, Tanzimattan Buyana Millı Eğitim Bakanları Başbakanlar ve Atatürk 1839-1973, Ankara

مصطفى يازيجي، وزراء التربية ورؤساء الوزارات من التنظيمات إلى الآن واتاتورك 1839-1973، انقرة.

- Namık Kemal, İntibah Ali Beyin Sergüzeşti, İstanbul

نامق كمال، انتباه. مغامرات علي بيك،استانبول.

- Nâmık Kemâl, Vatan Yâhut Silistre, Hazırlayan Kenan Akyüz, Ankara, 1990

نامق كمال، الوطن او سيلستره، اعداد كنعان اق يوز، انقرة، 1990.

- Necip Fazıl Kısakürek, Ulu Hâkan II Abdülhamid Hân, İstanbul, 1964

نجيب فاضل قصاكورك، الخاقان العظيم عبدالحميد الثاني، اسطنبول، 1964.

- Nihad Sâmi Banarlı, Resimlı Türk Edebiyâtı Târihi, II, İstanbul, 1998, S.862

نهاد سامي بانرلى، تاريخ الأدب التركي المصور، الجزء الثاني، اسطنبول، 1998، ص862.

- Nizamettin Nazif Tepedelenliağlu, Sultan İkinci Abdülhamid ve Osmanlı İmparatorıuğunda Komitacılar, İstanbul, 1964

نظام الدين نظيف تبةدلنلي اوغلو، السلطان عبدالحميد الثاني والثوريون في الإمبراطورية العثمانية، اسطنبول، 1964.

- Önder Göçgün, Zıya Paşanın. Hayatı Eserleri Edebi Şahsiyeti ve Bütün Şiirleri, Ankara, 1987

اوندر جوكجون، ضياء باشا. حياته آثاره شخصيته الأدبية وجميع أشعاره، أنقرة، 1987.

- Saad Borak, Atatürk. Gençlik ve Hürriyet, İstanbu, 1960

سعد بوراق، أتاتورك. الشبيبة والحرية، اسطنبول، 1960.

- Sadi Koçaş, Ermeniler ve Türk- Ermeni İlişkileri, İkinci Baskı, Ankara, 1967.

سعدي كوجاش، الأرمن والعلاقات التركية الأرمنية، الطبعة الثانية، انقرة، 1967.

- Şerif Mardin, Jön Türklerın Siyasi Fikirleri 1895- 1908, İstanbul, 1992

شريف ماردين، الأفكار السياسية لتركيا الفتاة 1895-1908، اسطنبول، 1992.

- Şevket Süreyya Aydemir, Makedonya'dan Ortaasya'ya Enver Paşa, Birinci Cilt 1860-1908, İstanbul, 1983

شوكت ثريا ايدمير، أنور باشا من مقدونيا إلى آسيا الوسطى، الجزء الأول 1860-1908، اسطنبول.

- Şvket Süreyya Aydemir, Makedonya"dan Ortaasya"ya Enver Paşa, İkinci Cilt 1908-1914, İstanbul, 1986

شوكت ثريا ايدمير، أنور باشا من مقدونيا إلى أسيا الوسطى،الجزء الثاني1908-1914، اسطنبول،1986.

- T.Yılmaz Öztuna, Türkiye Tarihi, Cilt 12, İstanbul, 1967

ت. يلماز أوزتونا، تاريخ تركيا، جزء 12، اسطنبول، 1967.

- Tarık Z. Tunaya, Hürriyetin İlânı. İkinci Meşrutiyetin Siyasi Hayatına Bakışlar, İstanbul, 1956, S.81.

طارق ز. تونايا، إعلان الحرية. نظرة على الحياة السياسية للمشروطية الثانية، اسطنبول، 1970.

- Tarık Z. Tunaya, Türkiyede Siyasi Partiler 1859-1957, İstanbul, 1958

طارق ز. تونايا، الأحزاب السياسية في تركيا 1859-1957، اسطنبول، 1958.

- Yakub Kenan Necefzade, 1908-1918 Sultan İkinci Abdülhamid ve İttihad-Ü- Terakk, İstanbul, 1967

يعقوب كنعان نجف زادة، السلطان عبدالحميد الثاني والاتحاد والترقي1908-1918، اسطنبول،1967.

- Yıldız Kuzgun, Üniversiteler Yülseköğretim Programları ve Meslekler Rehberi, Ankara, 2000

يلدز كوزكون، مناهج التعليم العالي في الجامعات ودليل المهن، انقرة، 2000

- Yusuf Hikmet Bayur, Türk İnkılâbı Tarihi, Cilt I, Kısım I, Ankara, 1963

يوسف حكمت بايار، تأريخ الثورة التركية، المجلد الأول، القسم الأول، أنقرة، 1963.

- Ziya Şakir, Yakın Tarihin Üç Büyük Adamı: Talat Anver Cemal Paşalar, İstanbul, 1944

ضياء شاكر، ثلاث رجال كبار في التاريخ الحديث: الباشوات طلعت وأنور وجمال، اسطنبول، 1944.

- Zahir Güvenli ve M. Râsim Özgen, Kaplan ve Pars. Mustava Kemal, Cilt 1, İstanbul, 1955

زاهر كوفنلي و م. راسم اوزغن، النمر والفهد مصطفى كمال، الجزء الأول، اسطنبول،1955.

- باللغة التركية (الحرف العربي)

- أحمد جودت، تاريخ جودت، جلد سادس، ايكنجى طبعى، درسعادت، 1309.
- أحمد حمدي، عالم اسلام وانكليز ميسيونه رى نصل يتشدير بليور، استانبول، 1343.
- أحمد مدحت، اسيس انقلاب، القسم الأول والقسم الثاني، استانبول، 1295.
- آورام غالانتى، توركلر ويهوديلر تاريخى سياسي تدقيق، استانبول، 1928.
- آي خان، سلطان عبدالعزيز ناصل خلع ايدلرى. ناصل انتحار ايتدى؟، استانبول، 1927.
- جلال نورى، تاريخ تدنيات عثمانية. مقدرات تاريخيه، استانبول، 1331.
- جلال نورى، تورك انقلابى، استانبول، 1926.
- «سعيد باشانك خاطرتي اوج جلددن مركبدر اوراق متهمه يه مخصوص جلد لردى شقه در»، استانبول، 1328.
- طونه لى حلمى، خطبة، جنوة، 1315.
- عبدالله جودت، دوقتور، قهريات، طبعه ثانيه، مصر، 1906.
- عثمان نورى، عبدالحميد ثاني ودور سلطنتي حيات خصوصيه وسياسيه سى، جلد ثاني، استانبول، 1327.
- مولان زاده رفعت، توركية انقلابنك تاريخ ايج يوزى، استانبول، 1929.

- باللغة الفرنسية

- Paul Fesch, Consantinole aus Derniers Jours D'Abdul-Hamid, Paris, 1907

بول فيش، القسطنطينية في الأيام الأخيرة لعبد الحميد، باريس، 1907.

- Victor Berard, La Mort De Stamboul. Considérations Sur Le Gouvernement des Jeunes-Turcs, Paris, 1913

فكتور بيرارد، موت اسطنبول. اعتبارات بشأن حكومة تركيا الفتاة، باريس، 1913.

- باللغة الروسية

- A.F. Miller, Ocherki Noveyshey Istorii Turtsii, Izd. Academii Nauk SSSR, Moskva-Leningrad, 1948

أ. ف. ميللر، موجز تاريخ تركيا المعاصر، منشورات أكاديمية العلوم السوفيتية، موسكو-لينغراد، 1948.

- V. I. Shpilkoval, Mladoturetskaya Revoliotsia 1908-1909 gg., Izdatelstvo Nauka, Moskva, 1977

ف. إي. شبيلكوفا، ثورة تركيا الفتاة، دار نشر العلم، موسكو، 1977.

- Y. A. Petrosian, Mladoturetskoe Dvijenie (vtovaya polovina XIX- nachalo XXv.), Izdatelstvo Nauka, Academia Nauk SSSR, Institut Vostokovedenia, Moskva, 1971

يوري اشوتوفيتش بيتروسيان، حركة تركيا الفتاة (النصف الثاني من القرن التاسع عشر- بداية القرن العشرين)، منشورات دار العلم، أكاديمية العلوم السوفيتية، معهد الاستشراق، موسكو، 1971.

- باللغة الكردية

«روزى كورد كوفارى جفاتي 'هيفى'ى قوتابياني كورد 1913 ئه سته موول»، ئاماده كردن وليكولينهوه عهبدوللا زه نكه نه، بيشه كه د.ئيسماعيل شوكر، سليماني، 2005.

فةرهاد بيربال، روزنامةكةرى كوردى به زمانى فةرةنسى، هةولير، 1998.

البحوث والدراسات

- باللغة العربية

- إبراهيم حلمي، الطباعة، «لغة العرب» (مجلة)، بغداد، العدد6، كانون الأول 1912.
- إبراهيم خليل أحمد العلاف، الدكتور، الجذور التاريخية للعثمانية في تركيا المعاصرة، «شؤون اجتماعية» (مجلة)، قطر، العدد 60، شتاء 1998.
- إبراهيم خليل العلاق، الدكتور، دور الماسونية في الحياة الاجتماعية والسياسية التركية المعاصرة، «دراسات اجتماعية،،(مجلة)، بغداد، العددان 3و4، 1999-2000.
- ايرين ماليكوف، الدكتور، النظام البكتاشي بعد سنة 1826، «المجلة التاريخية المغربية»، تونس، العدد31-12، ديسمبر1983.
- بوريس تويوليف، سكة حديد بغداد برلين وصراع النفوذ في الشرق الأوسط، ترجمة سعيد نفطجي، آفاق عربية» (مجلة)، بغداد، العدد11، تشرين الثاني 1992.
- بيتر جران، الدكتور، الخلفية العثمانية لظهور الواقعية في الفكر العربي المعاصر: إحياء الكلاسيكية الجديدة للقرن الثامن عشر في مصر وسورية وتركيا. أمثلة من بعض الكتابات الطبية، «العلاقات العربية التركية أعمال المؤتمر الثاني للعلاقات العربية التركية الذي عقد في طرابلس في ديسيمبر 1982»، تحرير الدكتور عقيل محمد عقيل البربار، الجزء الأول.
- خليل علي مراد، الدكتور، تغلغل الرأسمال الأجنبي في الدولة العثمانية 1854-1914، «دراسات تركية»(نشرة علمية)، الموصل، العدد2، كانون الأول 1991.
- دور اليهود والماسونيين في الانقلاب العثماني 1908 نص رسالة السفير البريطاني في القسطنطينية إلى وزير خارجية بريطانيا، ترجمة الدكتور محمد توفيق حسين، «آفاق عربية» (مجلة)، بغداد، العدد التاسع، آيار1978.
- رؤف الواعظ، الدكتور، أثر الدستور العثماني وخلع السلطان عبدالحميد في الشعر العراقي، «مجلة كلية الآداب-جامعة بغداد»، العدد15، 1972.
- زهير غزال، بعض ملاحظات حول مؤتمر ستراسبورغ عن اقتصاد ومجتمعات الإمبراطورية العثمانية من نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين، «دراسات تاريخية»(مجلة)، دمشق، العددان 15و16، 1984.

- زين ن. زين، التمثيل الشعبي وقوانين الانتخابات في المقاطعات العربية من الإمبراطورية العثمانية، «الأبحاث»(مجلة)، بيروت، السنة 14، الجزء2، اذار1916.
- سعيد الأفغاني، سبب خلع السلطان عبدالحميد. وثيقة بتوقيعه فريدة مجهولة تصرخ بالسبب، «العربي» (مجلة)، الكويت، العدد 169، كانون الأول 1972.
- سيار كوكب علي الجميل، الدكتور، تحديث الاقتصاديات العثمانية دراسة في فهم طبيعة المشاكل الاقتصادية التركية خلال القرن التاسع عشر، «دراسات تركية»(نشرة علمية)، الموصل، عدد2، 1991.
- شفيق جحا، التنظيمات أو حركة الإصلاح في الإمبراطورية العثمانية 1856-1876، الأبحاث» (مجلة)، بيروت، السنة 18، الجزء2، حزيران 1965.
- صالح محمد العابد، الدكتور، حركة الانبعاث الإيطالية Risorgimen to ، «المؤرخ العربي» (مجلة)، بغداد، العدد17، 1981.
- عبدالزهرة الجوراني، الدكتور، دور الماسونية في الإطاحة بحكم السلطان عبدالحميد الثاني، «دراسات في التاريخ والآثار» (مجلة)، بغداد، العدد الخامس، 2001.
- عبدالعزيز محمد عوض، الدكتور، التنظيمات العثمانية في الولايات العربية، «الدارة» (مجلة)، الرياض، العدد 3، سبتمبر 1977.
- عصمت برهان الدين عبدالقادر، الدكتور، تغلغل الماسونية في الدولة العثمانية 1839-1918، «مجلة المجمع العلمي»، بغداد، الجزء الأول، المجلد الثامن والأربعون، 2001.
- فريتس شتيبات، بدايات العصر الحديث في الشرق الأدنى آفاق جديدة أمام المؤرخين، «الأبحاث» (مجلة)، بيروت، السنة20، الجزء 1، آذار 1967.
- كرم رزق، ذكرى 24 نيسان صفحة من تاريخ الأرمن حتى الحرب العالمية الأولى، «مجلة البحوث والأنباء الاقتصادية»، بيروت، العدد54، 2000.
- كمال مظهر أحمد(عرض وتحليل)، نشوء حركة التحرر الوطني العربي في دراسة سوفيتية جديدة للدكتور ل. ن. كاتلوف، «آفاق عربية» (مجلة)، بغداد، العدد2، تشرين الاول1975.
- كمال مظهر أحمد، الدكتور، إحدى زويا تاريخ الصحافة الكردية، ترجمة صدرالدين عارف، «سردم» (مجلة)، السليمانية، العدد الأول، صيف 2003.

- كمال مظهر أحمد، الدكتور، الإطـار الزمني لتأريخ العراق الحديث والمعاصر، «الحكمة»(مجلة)، بغداد، العدد5، تشرين الثاني كانون الأول 1998.
- ل. ن. كتلوف، خصائص وأهمية الحركات الجماهيرية في المشرق العربي قبيل ثورة الاتحاديين، ترجمة الدكتور هاشم صالح التكريتي، «المؤرخ العربي» (مجلة)، بغداد، العدد8، 1978.
- لطفي المعوش، الدكتور، المسألة القومية في سياسة الدول البلقانية من مؤتمر برلين حتى الحروب البلقانية(1878-1913)، «تاريخ العرب والعالم» (مجلة)، بيروت، العدد 193، أيلول-تشرين الأول 2001.
- محمد موفاكو، البكتاشية... انتسبوا للإسلام واعفوا أنفسهم من كل التكاليف والعبادات، «العربي» (مجلة)، الكويت، العدد220، اذار1977.
- هاشم صالح التكريتي، الدكتور، التغلغل الألماني في المشرق العربي، «المؤرخ العربي»(مجلة)، بغداد، العدد27، 1986.
- هاشم صالح التكريتي، الدكتور، بريطانيا وانتفاضة الشعب الألباني 1910-1911، «المجلة التاريخية» (مجلة)، بغداد، العدد الثاني، 1972.
- هدايت كمال بدري، الدكتور، الأدب التركي في فترة التنظيمات 1860-1896، «آفاق عربية» (مجلة)، بغداد، العدد 4، نيسان 1986.
- وحيدالدين بهاءالدين ، نامق كمال شاعر الوطنية والحرية، «المعرفة»(مجلة)، بغداد، العددين 13و14، 1961.
- وليد العريض، تاريخ الامتيازات في الدولة العثمانية وآثارها، «دراسات» (مجلة)، الأردن، المجلد 24، العدد1، شباط1997.
- وليد عبود محمد و محمود عبدالواحد محمود، محاولات الإصلاح في الدولة العثمانية والتدخل الأوربي (1808-1876)، «الأستاذ» (مجلة)، بغداد، العدد الحادي عشر، كانون الثاني 1998.

- باللغة الكردية

- ئارام قەلادزەيى، منيش دەليم نەخير... روزنامەى كردستان (1898-1902) ئوركاى حزبى (ئيتحاد وتەرەقى) نەبووه بەلام عەبدولرەحمان بەدرخان لە ريزە كانى (ئيتحاد وتەرەقى) دا ئيشى كردوە، «روزنامەڤانى»، زمارە 8، نيسان 2002.

- جه بار قادر غه فوور، دوكتور، روونا كيبرى كورد دكتور عه بدورلا جه وده ت1869-1932، «كاروان»، به عداد، زماده37، 1985.
- فةيسةل دةباغ، نةخير روزنامةى كردستان (1898-1902) ئوركاى حزبى (ئيتحاد وتةرةرقى) نةبووه، «روزنامةفانى»، زماره 8، نيسان 2002.

- باللغة الإنكليزية

- Niyazi Berkes, Ziya Gökalp: His Contribution to Turkish Nationalism, “The Middle East Journal”, London, Vol. 8, No. 4, Autumn 1954.
- A.Perlmutter, The Arab Military Elite, “World Politics”, U.S.A, Vol.XXII, January 1970.
- Albert Hourani, Near eastern Nationalism Yesterday and Today, “Foreign Affair”, U.S.A, Vol.42, October 1963.
- B.Abu- Manneh, Sultan Abdulhamid II and Shaikh Abulhuda Al-Sayyadi, “Middle Eastern Studies”, Vol.15, May 1979.
- C.V.Findley, The Foundation of the Ottoman Foreign Ministry, “International Journal of Middle East Studies”, Great Britain, Vol.3, October 1972.
- Charles Issawi, The Tabriz- Trabzon trade 1830- 1900: Rise and Decline of a Route, “International Journal of Middle East Studies”, Great Britain, Vol.1, January 1970.
- D.Quatart, Dilemma of Development: The Agricultural Bank and Agricultural Reform in Ottoman Turkey 1888-1908, “International Journal of Middle East Studies”, Vol.6, Great Britain, April 1975.
- E. Kuran, Küçük Saıd Paşa (1840-1914) asa Turkish Modernist, “International Journal of Middle East Studies”, Great Britain, Vol. 1, April 1970.
- Elie Kedouri, Young Turks Freemasons and Jews, “Middle Eastern Studies”, London, Vol. 7, January 1971.
- Ernest E. Ramsaur, The Bektashi Dervishes and the Young Turks, “The Moslem World”, NewYork, Vol.XXXII, 1942.
- G.Baer, The Administrative Economic and Social Functions of Turkish Guilds in Memory of Uriel Heyd, “International Journal of Middle East Studies”, Great Britain, Vol.1, January 1970.

- George W. Gawrych, Tolerant Dimensions of Cultural Pluralism in The Ottoman Empire: The Albanian Community 1800-1912, "International Journal of Middle East Studies", U.S.A, Vol.15, November 1983.
- Halil İnalcık, Turkey Between Europe and The Middle East, "Perceptions", Turkey, Vol. III, March- May 1998.
- Halil Inlcik, Land Problems in Turkish History, "The Muslim World", New York, Vol. XLV, 1955.
- Hasan Ünal, Britain and Ottoman Domestic Politics: from the Young Turks Revolution to Counter- Revolution 1908-9, "Middle Eastern Studies", London, Vol.37, April 2001.
- I.I.Poroy, Expansion of Opium Production in Turkey and the State Monopoly of 1828-1839, "International Journal of Middle East Studies", Vol.13, Great Britain, May 1981.
- Isa Blumi, Publisher Hitmen Diplomats and Dreamers Switzerlan's Ottoman- Albanian Diaspora 1899-1920, "Schweizersche Zeitschrift Für Geschichte", Switzerland, 2002.
- J.K.Birge, The Printing of Book in Turkey in the Eighteenth Century, "The Moslem World", NewYork, Vol.XXXIII, October 1943.
- Jurist, Western Influences on Mohammedan Law, "The Moslem World", NewYork, Vol. III, 1913, PP.361-364.
- Kemal H. Karpat, Ottoman Population Records and the Census of 1881/82-1893, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.9, August 1978.
- Kemal H. Karpat, Recent Political Developments in Turkey and Their Social Background, "International Affairs", London, Vol.38, No.1, January 1962.
- Kemal H. Karpat, The Ottoman Emigration to America 1860-1914, "International Journal of Middle East Studies", U.S.A, Vol. 17, May1985.
- Kemal H. Karpat, The Syrian Emigration from the Ottoman State 1870-1914, "Revue D'Histoiry Magnrebine", Tunis, Numerous 31-32, December 1983.
- Kemal H. Karpat, The Transformation of the Ottoman State 1789-1908, "International Journal of Middle East Studies", Vol.3, Great Britain, 1972.

- Kemal H.Karpat, Social Themes in Contemporary Turkish Literature, Part I, "Middle East Journal", Washington, Vol.14, 1960.
- Kerimk K.Key, Trends in Modern Turkish Literature, "The Muslim World", NewYork, Vol.XLVII, April 1957.
- L.Andevson, Nineteenth- Century Reform in Ottoman Libya, "International Journal of Middle East Studies", U.S.A, Vol. 16, August 1984,
- L.Hirszwicz, The Sultan and the Khedive 1892-1908, "Middle Eastern Studies", London, Vol.8, October 1972.
- M. Şükrü Hanioğlu, Notes on the Young Turks and the Freemasons 1875-1908, "Middle Eastern Studies", London, Vol. 25, April 1989.
- M.Raccagni, The French Economic Interests in the Ottoman Empire, "International Journal of Middle East Studies", Vol.11, Great Britain, May 1980.
- Nermin Menemencioğlu, Namik Kemal Abroad. A Centenary, "Middle East Studies", London, Vol..4, October 1967.
- P.E.Schoenberg, The Evolution of Transport in Turkey (Eastern Thrace and Asia Minor) Under Ottoman Rule 1856-1918, "Middle Eastern Studies", Vol.30, No.3, London, 1977.
- R.H. Davison, Westernized Education in Ottoman Turkey, "Middle East", Washington, Vol.15, Summer 1961, P.297.
- R.H.Davison, The Question of Âli Paşa's Political Testament, "International Journal of Middle East Studies", U.S.A, Vol.II, 1980.
- R.P.Mitchell, Mutual Perceptions of Western and Islamic Civilization. Some Thoughts in the Context of Technological Change, "Seminar on Civilization Changes in the Middle East in Modern Times", Ain Shams University- Middle East Research Centre, 1979.
- R.W.Bulliet, First Names and Political Change in Modern Turkey, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.9, November 1978.
- S.J.Shaw, The Central Legislative Councils in the Nineteenth Century Ottoman Reform Movement Before 1879, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.1, January 1970.

- S.J.Shaw, The Ottoman Census System and Population 1831-1914, "International Journal of Middle East Studies", Great Britain, Vol.9, November 1978.
- Şerif Mardin, Historical Determinants of Stratification: Social Class and Class Consciousness in Turkey, "Ankara Üniversıtesi Siyasal Bilgiler Fakültesi Dergisi", Ancara, Cılt XXII, No.4, 1967.
- Şerif Mardin, Some Notes on An Early Phase in the Modernization of Communications in Turkey, "Comparative Studies in Society and History", U.S.A, Vol.III, April 1961.
- V. R. Swenson, The Military Rising in lstanbul 1909, "Journal Of Contemporary History", Vol. 5, Number3, 1970.

- باللغة التركية (الحرف اللتيني)

- Ali Canip Yöntem, Selanıkte 10 Temmuz Sebahı, "Yakın Tarihimiz", İstanbul, Cılt2, Sayı 22, Temmuz 1962

علي جانيب يونتم، صباح العاشر من تموز في سلانيك، «تاريخنا المعاصر»، اسطنبول، المجلد الثاني، العدد22، تموز 1962.

- Hüseyin Cahit Yalçın, 31 Marttan Sonra İdamlar Karşısında, "Yakın Tarihimiz", İstanbul, Cılt2, Sayı 5, Mart 1962

حسين جاهد يالجن، أمام الاعدامات التي جرت بعد حادثة 31 آذار، «تاريخنا المعاصر»، المجلد1، العدد 5، آذار 1962.

- باللغة الفرنسية

- F.Georgeon, Note Sur Le Budget D'une Famille Ottoman Au Debut du Xxéme Siecle, "Revue D'histoire Maghrebine", Tunis, Ioéme Année, December 1983.

ف جورجن، ملاحظة حول ميزانية عائلة عثمانية في القرن العشرين، «المجلة التاريخية المغربية»، تونس، السنة العاشرة، كانون الأول 1983.

- باللغة الألمانية

- Hans- Lukas Kieser, Osmanische Opposition in Genf 1868- 1908, "Schweizerische Zeitshritft Für Geschichte", Switzerland, Vol.52, Nr.3, 2002

هانس- لوكس قيصر، المعارضة العثمانية في جنيف 1868-1908، «المجلة السويسرية للدراسات التأريخية»، سويسرا، المجلد 52، العدد 3، 2002.

الصحف والمجلات

- باللغة التركية (الحرف العربي)

- «آذان» (جريدة)، جنيف، 1314.
- «اتحاد غزنةسى» (جريدة)، القاهرة، 1915.
- «استرداد» (جريدة)، جنيف، 1901.
- «استقبال» (جريدة)، جنوة، 1317.
- «اقدام،، (جريدة)، استانبول، 1908.
- «امد» (جريدة)، مصر، 1900.
- «انتقام» (جريدة)، جنيف، 1900 و1901.
- «به به روحى» (جريدة)، جنيف، 1898.
- «جرأت» (جريدة)، باريس، 1898 و1899.
- «طنين» (جريدة)، استانبول، 1334.
- «طوقماق» (جريدة)، جنيف، 1901.
- «عثمانلى» (جريدة)، جنيف ولندن وفلكستون، 1897 و1898 و1899 و1900 و1901 و1904.
- «كردستان» (جريدة)، جنيف وفلكستون، 1316 و1318 و1319.
- «ميزان» (جريدة)، باريس وجنيف، 1897.
- «وطن» (جريدة)، جنيف، 1901.

- باللغة العربية

«الضياء» (جريدة)، مصر، 1905.

«المدى» (جريدة)، بغداد، 2005.

«المشرق» (مجلة)، بغداد، 1908.

«المقتطف» (مجلة)، القاهرة، 1890 و1903 و1909.

«المنار» (جريدة)، بغداد، 1900 و1903 و1908.

«الهلال» (مجلة)، القاهرة، 1896 و1902 و1907 و1908 و1909.

«صدى بابل» (جريدة)، بغداد، 1911.

«لغة العرب» (مجلة)، بغداد، 1913.

- باللغة الفرنسية

- "Osmanli" (Supplement Français Mensuel Du) (Journal), Geneve, 1897 and 1899.

شبكة المعلومات العالمية (الانترنيت)

- باللغة الإنكليزية:

- A.Rodrigue, The Allance and the Emergence of Zionism in Turkey, "chapter 6 of his book French Jews, Turkish Jews: The Alliance Israelite Universelle and the Politics of Jewish Schooling in Turkey 1860-1925, Indiana University Press, 1990, PP.121-144", http:// coursesa. Matrix. Msu. Edu/ ~fisher/ hst373/ readings/ rodrigue. Html.
- Ayse Kadioglu, The Paradox of Turkish Nationalism and the Construction of Official Identity, "Middle Eastern Studies", Vol. 32, April 1996, http:// www. Aihgs. Com/ paradox. Htm.
- Ayse Kadioglu, The Paradox of Turkish Nationalism and the Construction of Official Identity, "Middle Eastern Studies", Vol. 32, April 1996, http:// www. Aihgs. Com/ paradox. Htm.
- B.Lewis, What Went Wrong?: Western Impact and Middle Eastern Response, http: // www. washington post . com/ wp-srv/ style/ longterm/ books/ chap 1/ what went wrong. Htm.
- Bahaeddin Yediyıldız, Place of the Waqf in Turkish Cultural System, translated by R.Acun and M.Oz, http:// www. History. Hacettepe. Edu. Tr/ archive/ waqfkultur. Html.

- Bahaeddin Yediyıldız, Place of the Waqf in Turkish Cultural System, translated by R.Acun and M.Oz, http:// www. History. Hacettepe. Edu. Tr/ archive/ waqfkultur. Html.
- C. M. Kortepeter, American Liberalism Establishes bases: Robert College and the American University of Beirut, "in his book The Ottoman Turks: Nomad Kingdom to World Empire, Istanbul, 1991, PP.229-246", http:// www. h-net. Msu. Edu/ ~fisher/ hst373/ readings/ kortepeter. Html.
- D.Kandiyoti, End of Empire: Islam Nationalism and Women in Turkey, www. amherst. edu/~ jjelias/ main- links/ classes/ Religion56/ rel56 syl. Html.
- David Fromkin, A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East, http:// coursesa. Matrix. Msu. Edu/ ~fisher/ hst 373/ readings/ Fromkin. html.
- Economic and Social Changes in Balkan Life, "Twenty- Five Lectures on Modern Balkan History", http: // www. Lib. msu. edu/ sowards/ balkan/ lect09. htm.
- Edwin Pears, An English Account of the Young Turks Revolution (1908), "From his book: Forty Years in Constantinople: The Recollections of Sir Edward Pears 1873-1915, NewYork, 1916", http:// www. shsu. edu/ ~his_ncp/ yturks.html.
- Emre Kongar, Turkeys Cultural Transformation, "The Transformation of Turkish Culture, Ed. G.Renda and C.Max Kortepeter, NewJersey, 1986, PP.19-68", http:// www. Kongar. Org/ aen_tr.php.
- Enes Kabakçı, Ahmed Riza Bey Interprets Positivism, http:// www. ifea- istanbul- net- noire- gerit. Html.
- Erik- Jan Zürcher, From Empire to Republic- Problems of Transition Continuity and Change, http: let. leidenuniv. nt/ tcimo/ tulp/ Research/ fromtirep. Html.
- Erik Jan Zürcher, The Ottoman Conscription System in Theory and Practice 1844-1918, http:// www. let. leidenuniv. nl/ tcimo/ tulp/ Research/ Armingzu. Html.
- Erik Jan Zürcher, The Young Turks- Children of the Boderlands?, October 2002, http:// www. Let.leidenuniv. nl/ tcimo/ tulp/ Research/ ejz 16. pdf.
- Flavien Brenier, Honest Masonry in Turkey, www. le-carrefour- de- lislam.com / occultare/ translation- Dccultus. Html.

- Geoffrey Miller, Straits: British Policy Towards the Ottoman Empire and the Dardanelles Campaign, Chapter two, http// www. mauovhouse. clara. net/ book2/ summary. Html.
- Gokhan Cetinsaya, Essential Friends and Natural Enemies: The Historic Roots of Turkish- Iranian Relation, "MERIA: Middle East Review of International Affairs", Vol.7, No.3, September 2003, http:// meria. idc. ac.il/ journal/ 2003/ issue 3/ cetinsaya. Pdf.
- Gustave LeBon, "The Columbia Encyclopedia, Sixth Edition, 2001-05", http:// www. bartleby. com/ 65/ le/ LeBon- Gu. Html.
- Haldun Gülalp, Using Islam as Political Ideology Turkey in Historical Perspective, http:// cdy. Sagepub. Com/ cgi/ reprint/ 14/1 /21. pdf.
- Harun Yahya, The Knights Tempiars, http:// theunjustmedia. Com.
- Henry Bogdan, From Warsaw to Sofia. A History of Eastern Europe, Ed. Istvan Fehervary, NewMexico, 1989, http: // www. hungary. Com/ corvinus/ lib/ bogdan.
- Hugh Poulton and Miranda Vickers, The Kosovo Albanians: Ethnic Confrontation with the Slav State, "in: Muslim Identity and the Balkan State, Ed. Hugh Poulton and Suha Taji- Farouki, NewYork, 1997, PP.139-169", http:// coursesa. matrix. msu. edu/ ~fisher/ bosnia/ redings/ poulton1.html.
- Ilbert Ortayli, Ottomanism and Zionism During the Second Constitutional Period 1908-1915, "in: Avigdor Levy (Ed.), The Jews of the Ottoman Empire, PP.527-536", http:// coursesa. matrix. msu. Edu/ ~fisher/ hst373/ readings/ ortaayli3. html.
- Iraj Bashiri, Enver Pasha, http:// www. angelfir. com/ rnb/ bashiri/ Enver.html.
- Islam and Revolution in Turkey 1900-1930, http: //www. Fsmitha. Com./ h2/ ch09tu. Html.
- Juan R.I. Cole, Iranian Millenarianism and Democratic Thought in the Nineteenth Century, "International Journal of Middle East Studies", Vol.24, February 1992, http: // www. personal. umich. edu/~jrcole/ bhconst. Htm.
- Kemal Çiçek, The Ottoman Armenians: The Question of Relocation and Immigration During WW1, http:// www. yunus. hacettepe. edu. tr/` mehmets/ libralizmindogusu. Htm.

- Kemal H.Karpat, The Formation of Turkish National and Territorial Identity in The Ottoman State, http:// empires. Ru/ docs/ karpat. Doc.
- L.T.Baruh, The Ottoman Bank Archives Research Centre during and after the Merger of 2001, www. banking history story.ed/ html/ Stockholm WS Paperes/ Tanatar Baruh.pdf.
- Leon Trotsky's, The Young Turks, Translated by Ted Crawford, http:// www. marxists. org/ archivel/ trotsky/ works/ 1909/ 1909- turks. Htm.
- Ludwig Büchner, "Wikipedia. The Encycopedia"; http:// en. Wikieedia. org/ Wiki/ Ludwig_ Buchner.
- M. Lutfullah Karaman, Tunali Hilmi: An Outstanding Figure in the Process of Ideological Change from Ottomanism to Turkism, "MERIA. Middle East Review of International Affairs", Vol. 1, No. 3, July 1997, http:// www. Ciaonet. Org\ olj\ meria\ meria 797- karaman. Html.
- M.Şükrü Hanioğlu, The Anniversary of a Century- Old Ideology, http:// www. zaman. com/?b1= commentary & alt= &hn= 23455.
- Mim Kemal Öke, Islamic Knowledge in the Information Age and Bediuzzaman, : http:// www. sozler. Com.tr/ symposium/ 3/ white/ sym3_ moke.htm.
- Necati Alkan, Süleyman Nazif's Nasiruddin Shah ve Babiler: an Ottoman Source on Babi- Baha'i History. With a translation of passages on Tahirih, http:// turkish-bahai. faithweb. com/ nazif. Htm.
- Necati Alkan, The Eternal Enemy of Islam: Abdullah Cevdet and the Bahai Religion, http:// journals. Cambridge.org/ download.pdf? file= %2FBSo68 -01%2 Fsoo 41977XO 5oooo17a pdf.
- Nora Fisher, Contesting Turkey in Europe: Discourses of Inclusion, Exclusion and Co-habitation 1529-1923, http:// www. ksq.harvard.edu/ kokkalis/ GSW %20 %208 %20 Papers/ Fisher Paper. Pdf.
- Osman Bilen, The Intellectual's Role in Social Change, http:// www. crvp. org/ book/ series 01/ 1- 6/ chapter- xiv. Htm.

- Ottoman Bank Archives and Research Centere, History of the Bank, http:// www. Obarchive. Com/ english/ history. Html.
- R.Miller, Ottoman decay led to offices abroad stamps, http// www. Linns. Com/ howto/ refersher/ officesabaroad_ 20030811/ refreshercourse. Asp.
- R.T.Melson, Armenians in the Ottoman Empire. The Massacres of 1894- 1896, "chapter 2 of his book Revolution and Genocide: on the Origins of the Armenian Genocide and the Holocaust, University of Chicago Press, 1992", http:// Coursesa. Matrix. Msu. Edu/~ fisher/ hst373/ readings/ melson. Html.
- Ryan Gingeras, A Break in the Storm: Reconsidering Sectarian Violence in Ottoman Macedonia during the Young Turks Revolution, "Electronic Journal of Middle East Studies", Vol.3, Spring 2003, http:// web. mit. edu/ cis/ www/ mitemes/.
- S. Kinzer, Crescent and Star. Turkey Between Two Worlds, http:// www. google. Com/ search? H1= ar&9= %22 turkey+ between Two+ world %22 & Ir.
- Şaban Çalş, The Origins of Modern Turkish Foreign Polıcy Ottoman Psychological Background, "dpe: Dış Politika- Foreign Policy, Ankara, Vol.XXVII, 2001", http:// www. Foreignpolicy. Org. tr.
- Selim Deringil, Long Live the Sultan! Symbolism and Power in the Hamidian Regime, "Chapter One of his book: The Well- Protected Domains: Ideology and the Legitimation of Power in the Ottoman Empire 1876-1909, London, 1998, PP.16-43", http:// coursesa. matrix. msu. edu/~ fisher/ hst373/ readings/ Deringil 1. html.
- Selim Deringil, The Ottoman Origins of Kemalist Nationalism: Namik Kemal to Mustafa Kemal, "European History Quarterly", 1993, PP.165-191, http:// www. Gencturkler. 8m. com/ TURKEY/ HISTORY/ deringi. Html.
- Theodule- Armand Ribot, http:// www. answers.com/ topic/ th-odule-ribot.
- Theodule Ribot (1839-1916), "Psychology Study Guide", htt:// www. Bookrags. Com/ other/ Psychology/ ribot-thodule-1839-1916-lmem-01/ html.
- Tim Jacoby, The Internal Dynamics of Turkish Militarism, http:// www. p.sa. ac. uk/ cps/ 2002/ jcoby. Pdf.

- Tolga Koker, Creating a Secular Public Sphere in the Early Repiblican Turkey 1922-1936, http:// academics – hamilton. Edu/ economics/ tkoker/ cr/cv. Html.
- Turkish Railway History, http:// www. Turkishtrains. Com/ his1. htm.
- Vuslat D. Altınöz, The Ottoman Women's Movemennt: Women's Press Journals Magazines and Newspapers from 1875 to 1923, Master thesis, Miami University, 2003, http:// www. Ohiolink, edu/ etd/ send- pdf. Egi? Acc_num= miami 1060799831.
- Zafer F. Yoruk, Great Liberator of the Empire or the Man Primarily Responsible for the Ottomans Catastrophic Collapse?, http:// maviboncuk. blogstop. com/ 2004/ 05/ mavi- boncuk- great- liberator- of- empire. Html.
- Zafer Toprak, From Debt to Global Offering, Istanbul, 1995, http:// www. ata.boun. edu.tr/ Department% webpages/AtA_ 517/from%20 Imprial%20to %20 Global%20 Offerings.doc.

- باللغة التركية

- Ana Sayfa, İttihat ve Teraki.Türkiye'de Kurulan İlk Siyâsi Parti, http:// www. dallog. com./ kurumlar/ itterak. htm-bas.
- Baki Öz, İttihatve Terakki ve BektaŞiler, http: // www. alewiten. Com/ ittihatterakki htm.

باقي أوز، الاتحاد والترقي والبكتاشية.

- Erik- Jon Zürcher, Kemalist Düsüncenin Osmanlı Kaynaları, "in: Modern Türkiye'de Siyasi Düşünce: Kemalizm, Cilt 2, İstanbul, 2001, S. 44- 55", http:// WWW. let. leidenuniv. nt/ tcimo/ tulp/ Reseavch/ ejz 13. htm.

اريك- جون زيورخر، المصادر العثمانية للفكر الكمالي، «في: الفكر السياسي في تركيا الحديثة: الكمالية، الجزء الثاني، اسطنبول، 2001».

- Kamil Çolak, Tarıh Sohbetleri II. Meşrtiyet, http:// www. dtsk. de/ tr/ kultur- gesellschaft- tr/ kg- 2003- 01- 15 kamil- tr. Html
- Mehmet Seyitdanlıoğlu, Türkiyede Liberal Düşüncenin Doğuşu ve Gelişimi, http:// www. yunus. hacettepe. edu. tr/` mehmets/ libralizmindogusu. Htm

محمد سيددانلياوغلو، ولادة الأفكار الليبرالية في تركيا الحديثة وتطورها.

- Orkun Konak, Jöntürkler ve Prens Sabahaddin, http:// www. Geocities. Com/ begunay/ z 42. html

اركون كوناك، تركيا الفتاة والأمير صباح الدين.

- Türkiye'de Yahudi Lobiciliği, Http: // www. vahdet. com. tr/ filistin/ doya 2/ 0399. html

اللوبي اليهودي في تركيا.

- باللغة الفرنسية

- Paul- Louis Courier De Mere, Pamphlet Des Pamphlets, http:// www. bmlisieux. Com/ litterature/ courier/ courie03.htm.

بول- لويس كورير دي مير، مقالة المقالات.

- E. Kabakçt, Ahmed Riza Bey Interprete du Positivisme, http:// www. ifea- istanbul. net/ noire/ gerit. Pdf.

ا. كباكجت، أحمد رضا ممثل الوضعية.

- "Modernisation de la Turquie et L'Influence du Positivisme (1895- 1908)", http:// www. augustecomte. org/ contenu/ fjoints/ 35- fjoint.rtf,

تحديث تركيا وتأثير الوضعية.

الموسوعات

- باللغة العربية

- آلان بالمر؛ موسوعة التاريخ الحديث، الجزء الأول، ترجمة سوسن فيصل السامر ويوسف أمين، بغداد، 1992.

- باللغة الانكليزية

- "The Encyclopedia Americana", Vol. 5, NewYork, 1948.

- باللغة التركية

- “Atatürk Ansiklopedisi”, Hazırlayan Ömer Sami Coşar, Cilt 1, İstanbul, 1981

«موسوعة اتاتورك»، اعداد عمر سامي كوشر، المجلد الأول، اسطنبول، 1981.

- “Meydan Larousse Büyük Lûgat ve Ansiklopedi”, Vol.12, İstanbul, 1973

«معجم وموسوعة ميدان لاروس الكبيرة»، المجلد 12، اسطنبول، 1973.

- Midhat Sertoğıu, Resimli Osmanlı Tarihi Ansiklopedisi, İstanbul, 1958

مدحت سرت اوغلو، موسوعة التاريخ العثماني المصورة، اسطنبول، 1958.

- “Türk Ansiklopedisi”, Cilt XXIV, Ankara, 1979

«الموسوعة التركية»، الجزء الرابع والعشرون، انقرة، 1979.

- باللغة الروسية

- “Bolshaya Sovetskaya Ecyclopedia”, Trete Izdanie, T. IV, Moskva, 1971.

«الموسوعة السوفيتية الكبرى»، الطبعة الثالثة، المجلد الرابع، موسكو، 1971.

- “Soretskaya Istoricheskaya Encyclopedia”, Vol. IV, Moscow, 1963

«الموسوعة التأريخية السوفيتية»، المجلد الرابع، موسكو، 1963.

من منشورات

دار ومكتبة

عدنان

2013 - 2014م

الرقم	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
.1	الأب القاتل رواية	غالب حسن الشابندر	2014
.2	الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لاعيان الأندلس في عهدي الامارة والخلافة	د. صباح خابط الحميداوي	2014
.3	أزمة التطور الحضاري في الوطن العربي	علاء صادق الأعرجي	2014
.4	الاستبداد الرمزي	شاكر شاهين	2014
.5	أقنعة واساطير مقاربات نقدية في سوسيولوجيا الثقافة العراقية	ثامر عباس	2014
.6	البنى الاسلوبية في الشعر العراقي المعاصر مرحلة الستينات	د. أنسام محمد راشد	2014
.7	تحت سماء الشيطان	قيس حسن	2014
.8	التحقيق الاداري وضمانات تحقيق الدفاع دراسة مقارنة	أحمد طلال عبد الحميد البكري	2014
.9	التربية والتعليم في الواقع العراقي – تحديات استراتيجيات	سامي عبد الهادي المظفر	2014
.10	التشكيل البصري واشتغال الاضاءة الرقمية في العرض المسرحي	ضياء محمد تقي الامارة	2014
.11	توظيف الخيال الصوري الموجه للطفل	د.شنى العاملي	2014
.12	حينما ماء القلب - شعر	خزعل الماجدي	2014
.13	سيكولوجية الصورة في المسرح والسينما والتلفزيون	د. شنى العاملي – ضياء الامارة	2014
.14	صائح العابد ذاكرة التاريخ الحاضر	أ.د.محمود عبد الواحد محمود	2014
.15	قدرات الدماغ البشري الفائقة	محمد جاسم عيسى	2014
.16	لغة النقد الحديث في العراق من المقالية إلى النسقية	د.عارف الساعدي	2014
.17	الماء وتشظيات الجمر شعر صلاح عبد الصبور	د. أنسام محمد راشد	2014
.18	مراكش خلال عصر الموحدين	د.مشتاق العياح	2014
.19	المسرح العراقي رؤية تراجيدية في وطن متغير	د.عبد الرحمن بن زيدان	2014
.20	مسلية الغريب في كل أمر عجيب دراسة تحليلية عن رحلة الإمام البغدادي	د.بلولو دانيال الياس فرح	2014
.21	نزيف – رواية	أميرة فيصل	2014
.22	نشوار القراءة الفلسفية - في الفلسفة اليونانية	محمد مبارك	2014
.23	نظرية المعنى عند الازهري في تهذيب اللغة	أ.د. لطيفة الضايفي	2014
.24	ابن الشارع – رواية	خضر فليح الزيدي	2013

الرقم	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
25.	الاتجاه الفوضوي في فلسفة سارتر	عبد الحي أرزقان	2013
26.	الاحتباس الحراري	جمال الاسدي	2013
27.	الاخراج المسرحي	عدنان منشد	2013
28.	أزمة الإسلام - الحرب الأقدس والإرهاب المدنس - رؤية المحافظين الجدد واليمين الأميركي للإسلام المعاصر	برنارد لويس – ترجمة: حازم مالك محسن	2013
29.	استعصاء الاصلاح في العقل العراقي	ثامر عباس	2013
30.	أسرة عمر نظمي دورها السياسي واتجاهاتها الفكرية في العراق المعاصر	حيدر علي طوبان	2013
31.	الاصنام والاوثان	كيلان خضير العزاوي	2013
32.	أعجاز القرآن في النبات والحيوان	حسام حميد الحديثي	2013
33.	الإعلام الإذاعي والتلفزيوني الدولي المفاهيم -الوسائل –المقاصد	أ . د . وسام فاضل راضي	2013
34.	الأعلم عند الشيعة دراسة في مؤسسة مرجعية التقليد	لندا س. والبرج - ترجمة: د. هناء خليف غني	2013
35.	الأعمال الشعرية الكاملة	فوزي الأتروشي	2013
36.	الألسنة العراقية	علي ثويني	2013
37.	ألف حكاية وحكاية للأطفال	د.شفيق مهدي	2013
38.	آلية لنتاج الفكر	رأفت امير أسماعيل	2013
39.	إمضاءات وقائع مهرجان المتنبي التاسع	شعراء عراقيون	2013
40.	انتظام المعرفة اللغوية	مجموعة باحثين	2013
41.	انتهاكات متأخرة	عبد النبي شايع	2013
42.	انستلنس الكرملي	كريم عبد الحسين الفراوي	2013
43.	أنطقة المحرم المثقف وشبكة علاقات السلطة	سعد محمد رحيم	2013
44.	انطولوجيا المعرفة	مجموعة باحثين	2013
45.	أوبرا كاوه الحداد – من الموروث الكردي	محمد علي الخفاجي	2013
46.	الباب الشرقي رواية الضحك بلا سبب	خضر فليح الزبيدي	2013
47.	بغداد تبوح بأسرارها	عباس عبود	2013
48.	بغداد والأمن وهموم أخرى	حسن البيضاني	2013
49.	بنسيلفا شكسبير يمكن العثور عليه ثانية	بيتر بروك مع دينس بابليه وجورج بانو – ترجمة: د.محمد سيف	2013
50.	بياض قاتم - نصوص	مهدي علي ازبين	2013
51.	تأسيس بغداد	زهير هواري	2013
52.	التحضر في المجتمع العراقي	منى العينجي	2013
53.	التحول في اداء الممثل	كريم خنجر 2013	2013
54.	التحولات الأسلوبية في بنية النص المسرحي المعاصر	د.منتهى المهناوي	2013
55.	التشكيل الجمالي	عقيل مهدي	2013

الرقم	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
56.	التطور الديمقراطي	جاسم الحلفي	2013
57.	تقويم العراق	رفاييل بطي	2013
58.	التيار الديمقراطي في العراق الواقع والافاق	جاسم الحلفي 2013	2013
59.	ثقافة الحرمان الجنسي	أحمد ابراهيم أحمد	2013
60.	جرأة اسئلة	عارف الساعدي	2013
61.	جماليات المكان في العرض المسرحي المعاصر	كريم رشيد	2013
62.	الجواهري بلسانه وقلمي	سليم البصون	2013
63.	حدث بين النهرين	عزيز الحاج	2013
64.	حفريات في الذاكرة العراقية	أ.د. أنعام السلمان	2013
65.	حكاية من بغداد	أثيل ديستيفانو	2013
66.	حلم ليلة غامضة – شعر	ليلى الخفاجي	2013
67.	الحياة في عطلتها – شعر	هنادي خليل	2013
68.	خريف الأميرات – شعر	أ.د.محمد ثامر السعدون	2013
69.	خصوصيات الاستعمار الجمهورية الفرنسية الثالثة	أ.د.يقظان سعدون العامر	2013
70.	الدراويش والمرايا	حمد الدوخي	2013
71.	الدكتور علي الوردي ودراسة المجتمعين العراقي والعربي	د.حميد الهاشمي	2013
72.	دليل خارطة بغداد	احمد سوسه	2013
73.	دوائر نقدية وجمالية	أ.د.عقيل مهدي يوسف 2013	2013
74.	دور الجواري والقَهرَمانات في دار الخلافة العباسية	سولاف فيض الله حسن	2013
75.	دون جوان الأزمنة عمر بن أبي ربيعة شاعر الحب والجمال	د. عبد المعطي الخفاف	2013
76.	الذات الجمالية	أ.د. عقيل مهدي يوسف	2013
77.	ذاكرة الطين	زهير صاحب	2013
78.	رجل في حقيبة - شعر	محمد الذهبي	2013
79.	رحلة الباخرة الى شمال العراق	جيمس فليكس	2013
80.	رواية سيده القمر	محمد ثامر	2013
81.	زوجة الظل – رواية	جون تولي – ترجمة: مها محمد حسن	2013
82.	زوجة الظل – رواية	جون تولي – ترجمة: مها محمد حسن	2013
83.	سوسيولوجيا تاريخ العراق المعاصر	د. ثناء محمد صالح	2013
84.	سيد أسود بلذنجان وقائع حياة الأخرس في كتاب الحصار	خضير فليح الزيدي	2013
85.	سيميولوجيا المُمثّل - المُمثّل بوصفه علامة وحامل للعلامات	أحمد شرجي	2013
86.	شارع الرشيد	سالم الالوسي	2013
87.	شذرات من العامي	حسين الاعرجي	2013

الرقم	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
88.	شوارد – شعر شعبي	رحيم العراقي	2013
89.	شواطئ أخرى لمحمود درويش	د.سهير أبو جلود	2013
90.	الصحائف البغدادية	فؤاد طه	2013
91.	صرخة في فراغ مزدحم	عبد النبي الشايع	2013
92.	صور ملونة لشاعر – شعر	علي عبد الزهرة	2013
93.	ضباب ليس أبيض – شعر	غرام الربيعي 2013	2013
94.	طرق المواصلات	أ.د. جميل موسى النجار	2013
95.	الطين والحجر	حميد الشمري	2013
96.	ظاهرة الغربة والحنين في الشعر العربي	د. صبح الجابر	2013
97.	العراق صور فوتوغرافية	علي أبو الطحين	2013
98.	العقلانية والتنوير في الفكر العربي المعاصر قراءة في مشروع ناصيف نصار	زروخي الشريف	2013
99.	علم التاريخ	أ.د. جميل موسى النجار	2013
100.	علم الفرائض المواريث بين الاختلاف المذهبي والتطبيق	المحامي طارق عزيز جبار العزي	2013
101.	العهد العارفي في العراق 1963-1968	د.علياء محمد حسين الزبيدي	2013
102.	عين السمك - رواية	صالح عبد المهدي العبودي	2013
103.	فائق حســـن	قاسم محسن	2013
104.	فلسفة التاريخ	جميل النجار	2013
105.	فن الاوبريت	أ.د.حسين علي هارف – كريم الرسام	2013
106.	فن المكياج	سيرج سترنكوفسكي –تر: أ.د.سامي عبد الحميد	2013
107.	فيصل ملك العراق	مستر هرسكل	2013
108.	قاعدة العقد شريعة المتعاقدين في مجال العقود الإدارية	أحمد طلال عبد الحميد البكري	2013
109.	كارت أحمر – مقالات ساخرة	مي أبي جلود	2013
110.	كرسي العازف - شعر	قاسم السعودي	2013
111.	الكرسي وتجلياته	جمال الاسدي	2013
112.	كيف نتسلق سفوح البحار – شعر	عبد النبي الشايع	2013
113.	لطائف 2012	طارق حرب	2013
114.	لعبة الظل والضوء دراسة في مسرح خيال الظل والمسرح الأسود	أ.د.حسين علي هارف – زينب عبد الأمير أحمد	2013
115.	لغة النقد الحديث في العراق مقاربات في نقد النقد	عارف الساعدي	2013
116.	للمعاناة وجه نبيل - قصص	الكساندر هوميمن – ترا مي أبو جلود	2013
117.	ليل علي بابا الحزين – رواية	عبد الخالق الركابي	2013
118.	المأساة والرواية	عبد الواحد بن ياسر	2013

الرقم	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
119.	ملوى الثعبان – رواية	حميد المختار	2013
120.	مبدعات من العراق	مجموعة باحثين	2013
121.	محمد صالح مكية	علي ثويني	2013
122.	مدخل إلى المنطق	د.فيصل غازي مجهول	2013
123.	مدرسة الحوليات الفرنسية وتجديد كتابة التاريخ	أ.د.محمود عبد الواحد محمود	2013
124.	مدونات الضميرأنا	سعدون محسن ضمد	2013
125.	مراقد البصرة لها قصص وحكايات	وليد محمد	2013
126.	مرقد الإمام حمزة الشرقي	زينب عبد الله هلال	2013
127.	مسارات المعرفة اللغوية	مجموعة باحثين	2013
128.	المسرح العربي من الاستعارة إلى التقليد طبعة مزيدة	أحمد شرجي	2013
129.	المسرحيات الرسالية : الموعود- وليد الكعبة – النبأ العظيم	منير راضي العبودي	2013
130.	مدرسة الحوليات الفرنسية وتجديد كتابة التاريخ	أ.د.محمود عبد الواحد محمود	2013
131.	مظفر النواب يفتح الأبواب – نصوص مسرحية	عباس لطيف	2013
132.	معايير الاداء التربوي	خالد كاظم	2013
133.	المعبث – قصص قصيرة	علي عبد الرحمن الحديثي	2013
134.	المعدان	وارد بدر السالم	2013
135.	مقامات اسماعيل الذبيح	عبد الخالق الركابي	2013
136.	من المسرح الشعبي الى المسرح الشامل	أ.د.سامي عبد الحميد	2013
137.	من ثمرات القراءة ج2	جمال الاسدي	2013
138.	من مراد إلى مراد	غرترود لوثيان بل –ترجمة:عبد الهادي فنجان الساعدي	2013
139.	موسوعة الأضرحة والمزارات	مازن لطيف	2013
140.	الموقف النقدي من الشعر المهجري	د. سهير صالح أبو جلود	2013
141.	موئل الخطاب ودرية الوظيفة دراسة إجرائية في أنظمة النقد الحديث	د. حمزة الخفاجي	2013
142.	نشوار تعليقات على وقائع 2011 الدستورية والقانونية والثقافية العراقية	طارق حرب	2013
143.	نصوص بغدادية نادرة	طارق الحمداني	2013
144.	النظام القانوني لخدمة موظفي الخدمة الجامعية	سري حارث الشادي	2013
145.	نقد للنقد الأدبي عبر مراحل التاريخ العربي	طالب الحركاني	2013
146.	نهايات مابعد الحداثة أرهاصات عهد جديد	أماني أبو رحمة	2013
147.	يهود العراق موسوعة شاملة لتاريخ يهود العراق طبعة3	مازن لطيف	2013
148.	استعادة ماركس	سعد محمد رحيم	2012
149.	أصول النقد والتحليل في الكتابة التاريخية (مجموعة مقالات)	أ.د. مرتضى حسن النقيب	2012

الرقم	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
150.	أوراق سيدة الشجر – شعر	عبد الزهرة علي	2012
151.	أيها الناس بايوس منهج حضارة السعادة BI OS رؤية المفكر ادريس طه حسن	أعداد:د.صالح السراي	2012
152.	البايولوجي الجزيئي	أ.د.عباس عبد الله الجنابي	2012
153.	البحث اللساني	حيدر جبر	2012
154.	بنت الأكراد	عباس كريول حسين	2012
155.	بين الإيمان والإلحاد رحلة لم تنته - دراسة نقدية وتحليلية في كتاب الشخصية المحمدية للشاعر العراقي معروف الرصافي	أ.د.أحمد ناجي الغريري	2012
156.	التحولات الدستورية في العراق (صفحات من تاريخ التطور الدستوري والسياسي في العراق)	مارينا سبرونفا -ترجمة : الدكتورفالح الحمراني	2012
157.	تراتيل بحضرة السدة انطولوجيا الشعر في واسط	شعراء واسطيون	2012
158.	تراتيم الروح لأحاديث المفكر إدريس طه حسن	د. كامل عبدالحسن - د.صالح السراي	2012
159.	التطور الوزاري في العراق من عهد الوزير أبي سلمة الخلال الوزير العباسي الأول حتى وزارة 2011م	طارق حرب	2012
160.	جدل الاستقلال الفلسفي في الفكر العربي المعاصر	طالب محمد كريم	2012
161.	جمهوريه الجولهري ومسرحيات أخرى	د عقيل مهدي	2012
162.	جورج واشنطن مؤسس الولايات المتحدة الأمريكية	عباس علوان الشويلي	2012
163.	حقائق ..ولكن!	إعداد وترجمة: صلاح عبد الكريم	2012
164.	حين يبتسم الضفدع نصوص سردية	مهدي علي ازبيَن	2012
165.	خارج دائرة الضوء	عبد النبي شايع	2012
166.	الدعاية والاعلام	جمال الأسدي	2012
167.	دوائر الهذيان - شعر	عبد النبي الشايع	2012
168.	دورالمجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق (1908-1932)	أ.د.عبد الرزاق أحمد النصيري	2012
169.	ديوان ست النساء	منار القيسي	2012
170.	ذاكرة الخلود – ديوان المراثي	سبتي الهيتي	2012
171.	سلالم التيه نص سردي	مهدي علي ازبيَن	2012
172.	سماء الأصوات (شعر)	محمد مدحت حسن	2012
173.	سنا الأصوات في تلاوة الآيات	إبراهيم السالم	2012
174.	سينما الواقع - دراسة تحليلية في السينما الوثائقية	كاظم مرشد السلوم	2012
175.	صحابة وتابعين نزلوا البصرة وأثروا فيها	وليد شريدة جاسم	2012
176.	الطاغية والطغيان في تاريخ العراق القديم والحديث	شامل عبد القادر	2012
177.	الطائر والنخلة	ريسان الخزعلي	2012
178.	العالم بين حربين من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب الباردة 1914-1991	أ.د موسى محمد آل طويرش	2012
179.	عبد الوهاب البياتي وعي العصر والبنية الشعرية الحديثة	محمد مبارك	2012
180.	عنتريات الأعرابي الأسمر – شعر	أنيس عطا	2012

الرقم	عنوان الكتاب	المؤلف	سنة النشر
212.	الإصلاح الديني والسياسي	مجموعه مؤلفين	2011
213.	الإعلان التجاري التلفزيوني في العراق وسبل تطوره	د. شذى حسين محمد العاملي	2011
214.	ترميم الأعمال الكاملة للشهيد حاكم محمد حسين	الشهيد حاكم محمد حسين	2011
215.	التفكر الدلالي	خالد خليل هويدي	2011
216.	ثقوب في الجدران	عبد الهادي فنجان الساعدي	2011
217.	دليل كلية الفنون الجميلة	جامعة بغداد	2011
218.	الطائفية السياسية ومشكله الحكم في العراق	عبد الخالق حسين	2011
219.	علم النفس التجريبي	علي عوده	2011
220.	عناقيد النار جدلية التأويل في السياسة العراقية	د.حميد حمد السعدون	2011
221.	من وراء الحجاب	عبد الناصر هاشم الهيتي	2011
222.	مناهج البحث في التربية وعلم النفس	د. علي عودة محمد	2011
223.	مناهج الدراسات الإنسانية	علي الأديب	2011
224.	نوافذ مغلقة بأحكام – قصص قصيرة	مهدي حسين جاسم	2011
225.	هتك الأسرار	سعدون محسن ضمد	2011
226.	الهجرة إلى السعدون (رواية)	موفق الشديدي	2011
227.	هواجس ملتبسة	عبد النبي الشايع	2011
228.	الهوية الملتبسة	ثامر عباس	2011
229.	الهوية والآخر	صالح زامل	2011
230.	مذكرات فخري الفخري		2010

دار ومكتبه عدنان

بغداد - شارع المتنبي - بناية المكتبة البغدادية

نشر- طبع- توزيع

yaserbook@yahoo.com

الهاتف المتحرك

07707900655 - 07901785386

*****

من إصدارات
دار صفحات

1) **الكتاب المقدس والقرآن الكريم والعلم، موريس بوكاي، مراجعة وتقديم د.منذر الحايك، 2015م.**

بفضل اتساع أفق الدكتور بوكاي العلمي وثقافته الدينية وإجادته العربية أغنى كتابه الأول، الذي عد فاصلاً في مجال كتب الأديان المقارنة، والذي اشتهر في طبعته العربية باسم: "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث،" والذي نشر لأول مرة عام 1976. ثم تعددت طبعاته بعد ذلك حتى لا تكاد تحصى، كما تُرجم لأكثر من خمسة عشرة لغة، وعد لسنوات كثيرة من أكثر الكتب رواجاً. ونحن نقدمه اليوم وقد اخترنا له العنوان الأدق ترجمة، وهو: "الكتاب المقدس والقرآن والعلم". بالرغم من الفصول المتعددة فقد ركز الدكتور بوكاي في كتابه هذا على موضوعين أساسيين، الأول: تناول فيه الروايات الدينية الكبرى مثل: خلق العالم وظهور الإنسان، وحادثة الطوفان، وبعض الروايات الأخرى حول مظاهر الطبيعة وغيرها، وقابل كل ذلك مع معطيات وحقائق العلم في زمانه الحاضر. أما الموضوع الثاني: فهو دراسة مقارنة بين رواية القرآن ورواية التوراة حول فرعون الخروج، وقد حدد نقاط الخلاف والاتفاق بين الروايتين، مركزاً على رواية القرآن حول نجاة بدن الفرعون بعد غرقه. وقد عرض آيات القرآن على نتائج الاكتشافات العلمية في عصره، دون زيادة أو نقصان، ولذلك سيظل عمله رائجاً، يعود إليه الباحثون والقراء ليجدوا فيه بعضاً من العلم الذي حضنا الإسلام الحنيف على طلبه.

2) **شوكا سابتاتي حكايات الببغاء السبعون المسمى ألف ليلة وليلة الهندية، مراجعة وتقديم د. منذر الحايك، 2015م.**

يضم كتاب شوكا سابتاتي مجموعة قصص وأساطير كتبت أصلاً باللغة السنسكريتية، حيث تتخذ أبطالها من البشر والجن، ثم تُنطق الحيوانات فتروي القصص والأمثال. وتتطاول حكاياته لتروي حياة الملوك ثم تتهاوى لتحكي عن قاع المجتمع. ومع أن بعضهم يحذرون منه لتضمنه ألفاظاً وقصصاً ماجنة، لكنه ظل واحداً من أكثر الأعمال الأدبية شهرة وشعبية في الهند. وبالمقابل يعتقد كثيرون بأن قراءة الكتاب كانت تجربة رائعة، لامتيازه بإيجاز العرض وفجائية تطور الحدث ودهشة النهايات، ولما يتضمنه من أحداث مشوقة امتزجت فيها الحقيقة بالخيال، مما يجعل المتلقي يعيش زمن المعجزات في حيز من اللازمان. كل ذلك جاء على لسان ببغاء فصيح يقص على سيدته حكاية في كل ليلة ليردعها عما تعتزمه من خيانة لزوجها الغائب، مما دعى لتسميته ألف ليلة الهندية. وبالرغم من أن الكتاب يطوف بنا خلال حكاياته متجولاً عبر بلدان الشرق الواسعة من الصين إلى اليمن والأناضول وما بينهما، فيوثق بعفوية للظروف الاجتماعية القديمة التي عاشتها تلك البلدان، لكننا في النهاية نجد أن رواياته هي ابنة حقيقية لبيئة الهند في العصور الوسطى، حيث كان الإسلام والثقافة الإسلامية من الجيران الأقربين لها.

3) **تاريـخ حـمـــص وتراثها الشعبي، د. منذر الحايك، 2015م.**

تتالت على مدينة حمص عبر تاريخها الطويل ثلاثة عهود شهدت فيها ازدهاراً خاصاً بها ونابعاً منها، حيث بدأت بعصر ذهبي مع أسرة شمس غرام ومعبد الشمس الذي تمكن كاهنه اليافع من تولي منصب الإمبراطور في روما. ثم تلاه عصر فضي عندما أصبحت مركزاً لجند الفتح المقدم، ومستقراً للعدد الأكبر من الصحابة، مما مكنها من تأسيس أولى مدارس الحديث الشريف في صدر الإسلام. ثم جاء عصر برونزي مع أسد الدين شيركوه الذي أقام فيها واحدة من أقوى الممالك الأيوبية التي وقفت في وجه الفرنج. ويستكمل التراث الذي هو تاريخ الشعب الحقيقي قصة حمص، فنجد المَصدّر الحمصي كاملاً بكل تفاصيله، مع المَعَنّا. والاحتفالات الشعبية بالمناسبات الدينية: رمضان، والأعياد، ورحلة الحج. ثم خمسانات حمص الفريدة والمشهورة: النبات، والحلاوة، والمشايخ. وتجد البيئة الطبيعية مكانها في التراث الشعبي في احتفالات الربيع: عيد الخضر وأربعة المرتعشي والسيران. ولا يكتمل التراث بدون الأساطير الشعبية التي كانت تنتشر في حمص. وينتهي الكتاب بجولة أثرية على أهم المواقع في المدينة القديمة.

4) **الاتصال اللغوي الشفهي (الصعوبات والتشخيص والعلاج)، د. عوض هاشم، 2015م.**

إذا كان الاتصال Communication هو عملية تفاعل تتم بغرض تبادل المعلومات والأفكار والحاجات والرغبات في عملية تفاعلية تتطلب وجود اللغة Language باعتبارها شفرة Code اجتماعية مشتركة ونسقًا لتمثيل المفاهيم باستخدام مجموعة من الرموز العفوية وترابطات مختلفة لتلك الرموز وفقًا لقواعد معينة، فإن عملية الاتصال تتضمن الانصات، والتحدث، والقراءة، والكتابة حيث يرتكز التعلم الأكاديمي على هذا الاتصال اللغوي المركب. و إذا كانت الدراسات تؤكد اقتران اللغة بالاستخدام الاجتماعي الذي يحققه الفرد عن طريق الاتصال الفعال في شئونه المختلفة، فإن اللغة هي التي تقوم بوظيفة التعبير عن الفكرة والاتصال والتواصل بين الناس، وهي بذلك ظاهرة اجتماعية تخلقها طبيعة الاجتماع وتنبعث من الحياة الاجتماعية ومقتضياتها. وتنبع أهمية هذا الكتاب من الدور الذي تقوم به

اللغة الشفهية في الموقف الاتصالية الحياتية، وأثر ذلك على النمو العام للفرد في النواحي النفسية، والاجتماعية، والتربوية، واللغوية وذلك من خلال الحد من صعوبات تعلم اللغة الشفهية في مواقف الاتصال المختلفة في مرحلة مبكرة، حيث تؤثر هذه الصعوبات بشكل مباشر أو غير مباشر على التحصيل الدراسي، والتكيف النفسي والاجتماعي للفرد.

5) **الأناجيل الأربعة - دراسة نقدية، سليماني حفيظ ، 2015م.**

التجربة التاريخية الإسلامية في العلاقة مع (الآخر) تضعنا أمام قاعدة ذهبية في تدبير الاجتماع الإنساني (البر قاعدة التعامل مع الآخرين)، لذلك فالإنكار لـ (الآخر) واحتقاره واضطهاده وتجريده من الإنسانية وحقوقها صنعته (الحضارة) في طورها الروماني، لقد أصبح الإسلام اليوم أكثر من أي وقت مضى عرضة للهجمات التنصيرية بشتى الطرق، وذلك وفق خطط ممنهجة قصد التأثير على المتلقي المسلم، الكتاب يطرح إشكالية كبرى، تتمحور حول كيفية حديث القرآن عن التوراة والإنجيل، ومدى صحة الكتاب المقدس أو تحريفه إسلاميا: لأن المسيحيين يحتجون بالقرآن الكريم كدليل على صدق كتابهم، بعدما أكدوا أنه - الكتاب المقدس- كتب بوحي من الروح القدس. - هذا الموضوع وسيلة للدفاع عن الإسلام وصد الهجمات الموجهة ضده.- بيان وفضح منهج احتجاج المسيحيين بالقرآن.- الوقوف على تفسير الآيات القرآنية الخاصة بالحديث عن التوراة والإنجيل.- التأكيد على أن الإنجيل قد تعرض للتحريف والتغيير.- تزويد المتلقي بمادة معرفية غنية بالحجج والأدلة من مختلف المصادر والمراجع كي يعرف الحقيقة.

6) **التجربة الجمالية في الفكر العربي، د. عبد القادر فيدوح، 2015م.**

إذا كان الكون أصل الوجود في جمالياته، فما موقع الرؤية الجمالية العربية منه؟ وإذا كان المنظور الفني العربي القديم - في نظر الكثير من الدارسين - مقصوراً على النزوع الحسي في تصوراته، فهل هناك أسس جمالية ضمن الجهود العربية في الدراسات الفنية وراء هذا النزوع؟ ثم هل بالإمكان تصور عمل فني قائم على الذوق الجمالي، أو أي مشروع جمالي في متصور الخطاب العربي؟ وأين تكمن البنية المعرفية في دراساتنا النقدية القديمة من الدراسات الجمالية؟ أو بصفة إجمالية: ما إسهامات الوعي العربي القديم في رؤيته للتفكير الجمالي؟

7) **النظام المعرفي للعلوم الإنساني لدى ميشال فوكو، رايس زواوي، 2015م.**

أنّ تنامي النزعة الإنسانية ليس حديث العهد، بل يمتدّ حتى مع الإغريق، إلاّ أنّ هذا العمل السابق لأوانه لم يكن مُقتحماً وفقاً لمنهجية تتخذ من الخطاب جوهراً لفهم الإنسان وعلومه، وباختصار شديد، شكّلت العلوم الإنسانية للقرنين السابع عشر والثامن عشر القاعدة الأساسية التي صنعت من الخطاب بداية لفهم الممارسات للقرن الحديث والمعاصر الكيان العلمي والفلسفي. يبدو أنّ سيرورة هذا العمل وخروجه من القوة إلى الفعل مع ميشال فوكو(1926-1984) (Michel Foucault)، شكّل بداية الاهتمام في أوساط علماء الاجتماع، والأنثروبولوجيا معًا..، حيث رافقته صيحات دوّت في الآفاق مُروِّجة بميلاد الإنسان وموته كموضوع وذات بعد أنّ تم تشييئه وتغييبه من الوجود والفكر. ولحسن الحظ، أنّ بروز علماء وفلاسفة أخذا على عاتقهم دراسة موضوع الإنسان وهمومه ومصيره، أحال عن الإحباط الذي كان يتخلل العلوم الإنسانية بفرضها للتحدّي، جعلها تُسقط لكل المحاولات الفوضوية، كلّ هذا كان باستنادها إلى استراتيجيات لفعل الممارسة الحقيقية للخطاب. غير أنّ هذه الصيحات لميلاد عهد جديد، لم يكتب لها البقاء والاستمرارية باعتبار أنّ الإنسان نموذج حديث العهد، وهو ما ينبئ بتشتتها كونها علوماً فهمية، ولاسيمّا أنّ موضوعها قريب من الدنّو من الاضمحلال.

8) **المؤامرة الأولى على الإسلام، الفتنة الكبرى وانعكاساتها سنة 35للهجرة، دحمور منصور، 2015م.**

الكل يسميها الفتنة والكثير يضيف إليها كلمة الكبرى لتكون في عرف العالم الإسلامي على أنها الفتنة الكبرى، وأغلبهم يحكّم فيها خلفياته الذهنية وينظر إليها بنظرة الدونية في تاريخ تكتبه يد الحكمة الإلهية، ومنها يبتدر السبّ واللعن وتحكيم العين الشيطانية، ولكن لا أحد يتعظ ولا أحد يعتبر ويرى بعين الحقيقة عين الواقع عين العقل، لماذا يصفق الكثيرون لما لا يرون، ويحيون من لا يعرفون ويهتفون لما لا يدركون ويتراكضون إلى ما يجهلون، يقولون أننا في عصر غريب عن عصر الراشدين وبعيد عن مواطن المهديين"، وصحيح أن كلامنا فيما جرى سنة 35 للهجرة هو منطلق دراسة الأحداث من خلال صاحب "المروج" وصاحب "العبر" ولكنه في أصله حديث إلى عصر قيل عنه عصر تقدّم، ولكنه تقدّم في الحروب والأعراض والشرف الإنساني، لا نكاد نسمع فيه إلا إراقة دماء المسلمين وتتويه ذهنية غيرنا من شعوب الأرض.

9) **التطورات السياسية الداخلية في الولايات المتحدة الأمريكية بعد حرب الاستقلال، د. نغم طالب عبد الله، 2015م.**

وضعت التطورات السياسية الداخلية التي شهدتها الولايات المتحدة عقب حرب الاستقلال، ومنذ عام 1783 حين أقر السلام بموجب معاهدة باريس ولغاية 1789 حجر الأساس لتشكيل حكومة قوية في إطار الدستور الفدرالي، الذي اعتمد على التجربة التي رافقت نمو الجمهورية الأمريكية. مُنح المؤتمر القاري سلطة رسمية للعمل بصفة حكومة عامة لتوجيه الحرب مع بريطانيا، ومع إعلان الاستقلال نظمت المستعمرات نفسها في ولايات، صاغت وتبنت دساتير خاصة بها، واتحدت عام 1781 في ظل بنود الائتلاف الكونفدرالي، التي أثبتت عدم فاعليتها و ملائمتها بل وقصورها في الواقع. يكتسب هذا الموضوع أهمية بالغة في معرفة

أبرز التحديات التي أعقبت حرب الاستقلال وعهد الكونفدرالية، التي كانت حاسمة وحرجة للغاية، في ظل حالة الانقسام والإحاطة بها، ولذا ارتأينا أن نتتبع التطورات التي أدار المؤتمر والولايات من خلالها الشؤون السياسية في تلك الحقبة .

10) سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في الفيليبين، د. رجاء الموسوي، 2015م.

نظراً لما تميزت به الفيليبين من أهمية جيوستراتيجية، فضلاً عن المميزات الأخرى. لذلك اتجهت الولايات المتحدة لاحتلالها، واتخاذها قاعدة أساسية لتحقيق طموحاتها الاستعمارية التوسعية في عموم القارة الأسيوية. ولاسيما أنها كانت تواجه منافسة يابانية حول الفيليبين بهدف الوصول إلى الصين مركز التجارة الدولية. لذلك اتبعت الولايات المتحدة سياسة استعمارية في الفيليبين تهدف إلى تثبيت وجودها هناك وأبعاد المنافسة اليابانية عنها، أن عرض تفاصيل السياسة الأمريكية في الفيليبين وتحليلها، وردود الأفعال الفيليبينية والأمريكية تجاه هذه السياسة لم يتم تناولها في الدراسات العربية الأكاديمية، كما أن هذا البحث سيكون قاعدة لفهم طبيعة العلاقات الأمريكية - الفيليبينية بعد الاستقلال في حال تناولها بفعل أية دراسة أكاديمية مستقبلية، وحدد اطار البحث بالمدة بين عامي 1898 و 1946، إذ أشّر التاريخ الأول بدء الاحتلال الأمريكي للفيليبين بعد انتصارها على القوات الإسبانية في الحرب الإسبانية - الأمريكية عام 1898، أما التاريخ الثاني فأشّر البداية لاستقلال الفيليبين.

11) نلسون مانديلا حياته ودوره السياسي، د. عفراء الريس، 2015م.

أن الاهتمام الذي أثاره تاريخ دول القارة الإفريقية لدى عدد كبير من الباحثين قد اثمر عن دراسات كثيرة اتسمت بالعلمية والرصانة ، وخصوصاً ما يتعلق منها بتاريخ دولة جنوب أفريقيا . لكن الملاحظ أن تلك الدراسات ، على جزالتها ورصانتها، لم تغوص، بعيداً، في عمق النضال الذي احترفه الشعب ، فبقيت تفاصيل كثيرة ، مرغوبة ومطلوبة ، بعيدة عن المنهج التاريخي التتبعي الذي يؤرخ لموقف الحركة الوطنية من سياسة التمييز العنصري التي طبعت حكم الأقلية البيضاء للأكثرية السوداء . ولما كانت السياسة المذكورة مفعمة بالتداعيات التي تستفز المشاعر الإنسانية في كل مكان ، ولما كان للرموز الوطنية أهمية وموقعاً فريدين في الذاكرة الشعبية في اغلب بلدان " العالم الثالث " ، هذه الذاكرة التي تختصر ، إلى اقصى حد ممكن ، المسافة بين الحقيقة والخيال لتضفي على رمزها هالة تمتزج فيها تفاصيل الواقع وسحر الأسطورة ، وتخلق منه انموذجاً يحتذى ومكانة تقدس ، فان التأريخ لحياة نلسون مانديلا بدا لنا هو الاختيار المنطقي ، بوصفه موضوعاً يستحق دراسة علمية أكاديمية ، ليس لقيمته التاريخية وحسب ، بل وكذلك لما انطوى عليه من دروس وعبر ، يختصرها القول أن الشعوب ولدت لتحيا حرة . وانصب اهتمام هذه الدراسة على شخص مانديلا ، المناضل والمكافح ، والرئيس لـ " حزب المؤتمر الوطني الإفريقي " ، والزعيم الذي قاد شعبه وأبناء جلدته في رحلة كفاح طويلة من اجل الحرية، رحلة كانت مفعمة بالآمال والطموحات ، كما كانت مترعة بالآلام والإخفاقات ، وهو ما اضفى على شخصية مانديلا زخماً واقعياً ميز الهالة الأسطورية .

12) المتيم - رواية، محمد شيخ تراب، 2015م.

تتناول رواية المتيم (أسطورة حب يحبو تحت جبروت القدر) للكاتب السوري محمد شيخ تراب حياة الملوك والفرسان في زمن افتراضي ومدن افتراضية تشبه العصور الوسطى وتدور قصص حب متعددة الأطراف يطغى عليها الحدث الوطني عندما تتعرض إحدى الممالك للغزو الخارجي والخيانة من الداخل، أبطال القصة أشخاص من الطبقة المالكة والنبلاء يسعون لاستعادة المملكة والحصول على الحب يتعرضون لأهوال ومصاعب ينتصرون بعدها على الشر الذي اسقط المدينة بيد الأعداء وفرق أفراد الأسرة بين مقتول ومخطوف وتكتمل القصة عندما يلتم شمل العائلة المالكة ويعود كل إلى مكانه الطبيعي ويقضون على العدو الخارجي ويصلحون أمر الحكم يتخلل القصة جرائم متتالية لقاتل مجهول يمعن القتل في طبقة النبلاء حيث يضطر الأمراء إلى هجر البلاد وتبرز فكرة الميثولوجيا التي تعيد كل الأفعال والأحداث إلى القدر المتحكم بجميع أبطال القصة.

13) يوماً ما - رواية، ريم الجرف، 2015م.

هي رواية عاشت معي منذ أكثر من ستة أشهر سكنتني شخصياتها فتملكتني بكل تفاصيلها ... لم أكن أفكر حين كنت أبعثر أوراقي بخواطر وأشعار أنني سأكتب رواية تحكي عن ألم يتعايش من أرواحنا ... و أناس تخلوا عن حياة كاملة كانت لهم ليغادروا باحثين في المجهول عما يرمم أحلامهم فيعيدون بناء حياتهم من جديد

14) نهاية الدولة العثمانية وتشكيل الشرق الأوسط، ديفيد فرومكين - قراءة وتقديم د. منذر الحايك. ترجمة، وسيم حسن عبده، 2015م.

قام تشرشل، الذي كان بوش يحتفظ له بتمثال في مكتبه البيضاوي، بالدور الأكبر لتأسيس معظم دول الشرق الأوسط، وقد تأتي لواحد من أنجب تلامذته في المدرسة الاستعمارية، أن يسعى لتقليده في إعادة تكوين شرق أوسط جديد، وذلك من خلال ما قام به بوش من مغامرات لم يصلحها ضعف وتردد وانسحابات أوباما، ربما لترافقها بمرحلة، سيطر عليها العنف بمقاييس غير مسبوقة ولم تنته حتى الآن، عرفت بالربيع العربي. كل ذلك أضعف قدرة أنظمة دول الشرق الأوسط على البقاء، وفضح عجزها في تسوية

شرعية وجودها. وبرؤية شمولية لتكوين الشرق الأوسط جمع هذا الكتاب لأول مرة إجابات كاملة عن أسئلة كانت ولا تزال رمز الحيرة والتعمية والتضليل، منها: كيف شكلت بريطانيا الكيانات الجغرافية والسياسية للشرق الأوسط؟ ولماذا كانت تلك الكيانات وتلك الشخصيات تحديداً؟ وماذا كانت تريد أن تحقق وهي تتخذ قرارات مصيرية لملايين الناس؟ ومن هم أولئك الرجال الذين صاغوا أخطر القرارات؟ ويبقى الجزء الأهم من الكتاب وضعه لحدود الواقع والخيال لما كنا نعرفه عن تلك المرحلة: الجمعيات العربية، ابن سعود، الشريف حسين، الملك فيصل والأمير عبد الله، وعد بلفور وغيرهم. حيث سيدرك القارئ معنى المصادفة في التاريخ، وسيعرف معنى التآمر لتمرير السياسات حتى ضمن الجهاز الواحد للدولة، وسيصعب عليه أن يصدق كثيراً مما ورد، ولذلك قد يخلق الكتاب أزمة ثقافية، فهو يقلب كل ما تعلمناه أو جله، ولكن الأخطر هو الأزمة الروحية التي سيخلفها بعد قراءته، مما يفسر لماذا عده كثيرون عملاً غير مسبوق.

15) اعترافات بهائي مرتد، د. منذر الحايك، 2015م.

ارتبطت البهائية بالإسلام بعلاقة فريدة، فقد ظهرت في صميم العالم الإسلامي، وكان أكثر أتباعها الأوائل من المسلمين. ورغم توجهها العالمي لم تتمكن البهائية من الفكاك من كونها خرجت من الإسلام الذي نلاحظ أثره الكبير في تعاليمها وطقوسها. فقد نبتت في الصوفية الإسلامية، وهناك من يعدها واحدة من شطحاتها، فمبدأ وحدة الأديان الذي هو صلب المعتقد البهائي يتماثل مع ما طرحه أعمدة الصوفية الذين سبقوا البهائية بمئات الأعوام. وفي سياق التجاذب والتنافر بين البهائية والإسلام، يأتي هذا الكتاب الذي يضعنا أمام حالة نادرة، لشخص مسلم اعتنق البهائية ثم ارتد عنها، وكتب عن تجربته معها عدة مجلدات، وعلى ما فيها من الحشو والتحامل، جاءت في بعض جوانبها بعمق الإيمان والعقيدة البهائية لتدلنا على أنه قطع شوطاً كبيراً بإيمانه البهائي، وقد أمدنا بكم هائل من المعلومات غير المسبوقة من الداخل المقدس للبهائية، ومن العمق المحرم لمعتقداتها. ومع ذلك لا ندعي أنها الحقيقة الكاملة، فمهما كان رأيه، تبقى البهائية فرقة دينية لها وجودها، وطالما هي تكتسب الأتباع فلديها إذن ما تقنع به الناس، ويستحق التفكير والقبول به أو رفضه، وخاصة أنها من أشد الفرق تأكيداً على حرية المعتقدات الدينية.

16) معجم ألفاظ العقيدة الإسلامية، إعداد: سائر بصمه جي، 2015م.

إن مفهوم العقيدة في اللغة مأخوذ من العقد والربط والشّدّ بقوة، ومنه الإحكام والإبرامُ، والتماسك والمراصة، والإثباتُ ؛ ومنه اليقين والجزم. أما مفهوم العقيدة اصطلاحاً فهو يطلق على الإيمان الجازم والحكم القاطع الذي لا يتطرق إليه شكٌ. وعليه فإن دراسة ألفاظ العقيدة، ومصطلحاتها، وتحديد معانيها على مذهب أهل السنة والجماعة، وبيان مراد الطوائف بها، كل ذلك ضرورته ماسة، وأهميته لا تخفى، يحوي هذا العمل على أكثر من 950 مصطلح ، والتي حاولنا أن نشمل فيها معظم مصطلحات العقيدة الإسلامية.

17) معجم مصطلحات ألفاظ الفقه الإسلامي، سائر بصمه جي، 2009م، ط2- 2015م.

يحتوي هذا العمل أكثر من (5000) لفظ من ألفاظ الفقه الإسلامي في كل من الأقسام التالية: الصلاة، الصيام، الحج والعمرة، الزكاة، الطهارة، الأحوال الشخصية، المعاملات، المواريث، الجنايات و العقوبات، الجهاد، الأقضية و الأحكام، الأطعمة و الأشربة، اللباس و الزينة، وفيه الشرح اللفظي للمصطلح من الناحيتين اللغوية و الشرعية، العمل مرتب على حروف المعجم العربي تسهيلاً لعملية البحث عن المفردة، كما أننا نعرض رأي جميع المذاهب في هذا اللفظ.

18) سيكولوجية الصورة في المسرح والسينما والتلفزيون، د. شذى العاملي ، ضياء محمد تقي الإمارة، 2015م.

تتبع الحركة البطيئة في الفيلم سلسلة من اللقطات الطبيعية وتتفرد بخصوصيتها النفسية والجمالية لدى المتفرج، لذا تمثلت مشكلة في محاولة للإجابة عن التساؤل الاتي : ماهية الدلالات السيكولوجية والجمالية للحركة البطيئة ؟ تتجلى الأمية والحاجة إليه في كونه يتصدى لموضوع الحركة البطيئة من خلال ارتكازها على أهم الأفكار والنظريات المنطلقة من ميدان علم النفس وعلم الجمال.

19) توظيف الخيال الصوري الموجه للطفل، د. شذى العاملي، 2015م.

الفيلم يمثل قلب ما يسمى بهرم الخيال، ومن خلال مقدرة وسائل الخطاب الصوري على خلق وهم الحقيقة، فلها القدرة على دفع المشاهد تدريجيا لان يلج عالما من الخيال، عابرا حدود الحقيقة إلى ذلك العالم. وتتطلب عملية الولوج هذه إمكانيات حرفية وجمالية توظف من أجل رؤية عالمها الوهمي ذي الأبعاد الزمانية والمكانية على جدار مسطح . أن الرؤية الحدثية المكتوبة للأطفال فيها هامش كبير من الانفلات الذي يؤدي إلى خرق الحقيقة، ويصبح ذلك ممكنا من خلال ما تمتلكه وسائل الخطاب الصوري من إمكانيات تقنية وفكرية، تتسم بقوة الأقناع لدى مخاطبة الطفل فالزمن الفيلمي في أفلام الأطفال هو فسحة يسرح فيها الطفل بمخيلته التي هي بالتأكيد تدرك الحدود الفاصلة ما بين الحقيقة والخيال، " فقلب الأشياء رأسا على عقب ليس خطيرا بل على العكس فهو مسل ومثير بشرط أن تبقى الحقيقة معروفة ، لكن توظيف الخيال في الخطاب الصوري وكيفية تعامله مع الطفل هي الحقيقة التي ترغب الكاتبة الوصول اليها . ولكن ماهي الكيفية التي يتم من خلالها توظيف الخيال في الخطاب الصوري الموجه

للطفل؟ وماهو دور الخيال في توسيع العملية الإدراكية للطفل ؟ وكيف يتم إنتاج الخيال على الشاشة سمعياً وبصرياً وبالآليات المتاحة ؟ هذا هو السؤال الذي يسعى هذا الكتاب للإجابة عنه.

20) التشكيل البصري واشتغال الإضاءة الرقمية في العرض المسرحي، ضياء محمد تقي الإمارة، 2015م.

أهمية الدراسة الحالية فيما يأتي: أ- إنه يمثل إسهاماً معرفياً في دائرة الحقل الجمالي البصري عن طريق التعرف على تحولات معرفية وفلسفية جديدة في التشكيل البصري لآلية اشتغال الإضاءة الرقمية في العرض المسرحي المعاصر ب- التأثير الإيجابي لهذا الإسهام المعرفي في إيصال المضمن ، وتربية وتنمية الشعور الذائقي والوجداني لدى الجماعة سيما أنهم يشتركون في بقعة واحدة للعيش لتثبيت الهوية العامة والتحاور مع الجماعات الأخرى لتفاعل الخطاب ومفاهيمه . ج- أنه يغني في التعبير عن المضامين الأخرى التي تخص مثالاً التربية والعلوم ، أو أي اتجاه فكري تربوي لمختلف الأجيال ، في إيصال المضمن عن طريق تشكيله بصرياً في آلية اشتغال الإضاءة الرقمية للعرض المسرحي ، وتبقى جماليات العرض للمتعة البصرية . أما الحاجة إليه فتكمن في الوقوف على صلاحية وإمكانية اشتغال الإضاءة الرقمية في العرض المسرحي عن طريق دخولها في تشكيل كيان الخطاب الجمالي في أنها قادرة على بث المضامين الجمالية والفكرية الفلسفية بالشكل الذي يجب ، أم أنها تعمل على تشويش الرسالة للمستهلك أو تؤثر على مسارها لعدة أسباب تتعلق بالدراية الآلية والحس الذاتي . وكيف يجب أن توثق الأعمال التي تعتمد على تلك العناصر لإبقائها وثيقة تاريخية جمالية معاصرة تتحدث عن الحقبة . وتهدف دراسة هذا الكتاب إلى الكشف عن: أ- المرجعيات الفكرية والفلسفية الجمالية حصراً في التشكيل البصري وتأثيرها على آلية اشتغال الإضاءة الرقمية في العرض المسرحي المعاصر أو ما بعد الحداثة . ب- المرجعيات الآلية والعلمية القائمة على صناعة التشكيل البصري في آلية اشتغال الإضاءة الرقمية في العرض المسرحي ما بعد الحداثة. ج- الوقوف على إمكانية التشكيل البصري وآلية اشتغال الإضاءة الرقمية في العرض المسرحي ما بعد الحداثة في المحافظة على الموروث والتاريخية للجماعة وخصائص وجودها في الخطاب الجمالي واستعاراته. د- الوقوف على إمكانية التفاعل والحوار مع الجماعات المختلفة في التشكيل البصري وآلية اشتغال الإضاءة الرقمية للعرض المسرحي ما بعد الحداثة .

21) نشوار القراءة الفلسفية - الفلسفة اليونانية، محمد المبارك، 2015م.

الفلسفة تفترق عن العلم وأساليبه ووسائله في أنها أولا ، تنظر إلى العالم من حيث هو وحدة مترابطة متماسكة وتتوفر عليه من حيث هو كذلك بحثاً ودراسة وتشخيصاً ؛ في حين يرى العلم العالم حقولاً وتخصصات معزولة عن بعضها مستقلة من بعضها ؛ وثانياً ، لا تسلم الفلسفة بصحة مبدأ أو فكرة أو فرض إلا اذا ثبت لديها ثبوتاً لا يدع مجالاً للشك ؛ في حين يعتمد العلم الفروض والأفكار نوافذ أو مداخل للدرس والإحاطة والفحص ولا يستبعد فرضاً أو فكرة حتى تأتي التجربة أو المعاينة المباشرة بما يستبعده وينفيه منفذاً أو قيمة نافعة في البحث أو الكشف ؛ وأخيرا ، تميل الفلسفة إلى التجريد أي أنها تحاول باستمرار إلا تربط فكرة معينة إلى جرم بالذات محدود بزمان ومكان حقيقيين، وإنما تعوّل على الفكرة مجردة غير مشدودة إلى وضع أو جرم بالذات وان تموضعت في مفردات لا نهاية لتعددها وتفرقها أعيانا وتحقيقات . والفلسفة بعد هذا وقبل هذا إنما نشأت في بلاد الإغريق حصراً لم تسبقها اليها بلاد غيرها في شرقي الأرض ولا في غربيها .

22) خديعة مخطوطات البحر الميت . مايكل بيجنت . ريتشارد لي - ترجمة وسيم حسن عبده - مراجعة وتقديم د. منذر الحايك، 2010م. طـ2 - 2014

جاء الكشف عن المخطوطات ليؤكد أن الدين اليهودي كان يشهد صراعاً حاداً مع بداية العهد المسيحي، يعكس المحاولة اليائسة لصياغته صياغة قومية، انتهت بالإخفاق، ومما لاشك فيه أن الصهيونية أدت دوراً كبيراً في تأخير نشر اللفائف، وحاولت إيهام الرأي العام بأن المخطوطات تحتوي على فخ يستهدف الأديان، وبالمقابل حاولت الصهيونية جاهدة التركيز على أن هذه المخطوطات جاءت لتؤكد أصالة اليهود في المنطقة من التوجه نحو فكرة أن اليهودية هي أصل الديانات السماوية، وهو ما تثبت الدراسة المتأنية للمخطوطات عكسه تماماً، ووضح الكتاب "بأن كشف لفائف البحر الميت جعلنا نتوقع إلقاء المزيد من الأضواء على التاريخ الإنجيلي، وعلى شخصيات الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وعلى جذور المسيحية وعلى نحو ما الإسلام. وبطبيعة الحال لا ينبغي التوقع من كشف، مهما بلغ حجمه، أن يسقط الكنيسة، وليس لنا أن نتوقع أي شيء مروع كهذا العمل، ويوضح الكتاب على نحو غير مسبوق أسرار تجارة الآثار غير المشروعة، وطرق تحرك القطع من مناطق اكتشافها في الشرق الأوسط نحو أوروبا، مع نماذج طريفة من طرق العرض وأساليب البيع قبل مهربي آثار مخضرمين، ومتورطين طامعين، والكثير من المدفوعين بسياسات وآيديولوجيات متناقضة، ونستطيع الآن أن نقول إن لفائف البحر الميت قدمت لنا رؤية جديدة عن الأديان السماوية، التي ولدت في الشرق العربي، فقد بينت مدى تداخل هذه الأديان وتشابهها، وأن كل الخلافات بينها لم تنجم عن اختلاف القيم الروحية أو سوء فهمها، بل نجمت عن حب السيطرة والتسلط، والجشع والأنانية وغطرسة سوء التفسير الوقحة، وأوضح أمثلتها في العصور الوسطى غزوات الفرنجة للأراضي المقدسة، وفي أيامنا الحركة الصهيونية التي دمرت

سكان تلك الأرض وقتلتهم وهجرتهم، ولاتزال ترتكب المجازر، مدفوعة بتهيؤات، رفضها اليهود أنفسهم منذ قرون طويلة، فسعت الصهيونية لإقامة دولة اليهود الدينية من بوساطة حركة انبعاث أصولية، تقوم على التعصب الأعمى، وعدم التسامح، والتشدد الذي ولّد صحوة أصوليات أخرى، كانت هاجعة منذ فترة طويلة.

23) أحمد مطر سيرة ـ شاعر انتحاري (الأعمال الشعرية)، أوس داوود يعقوب، ط4 -2015.

24) محمود درويش - مختارات شعرية ونثرية. أوس داوود يعقوب، ط4 -2015.

25) مظفر النواب شاعر الثورات والشجن (الأعمال الشعرية)، أوس داوود يعقوب، 2010م.

26) الجسد صورة سرد، د. علاء مشذوب، 2014م.

مرت الصورة بعدة مخاضات، مثلما مرت بعدة أطوار، ومن ثم فلسفات ومدارس ومناهج. ولم تستقر حتى اليوم على معين، وربما السبب من وراء ذلك هي بنيتها الطيعة التي تسمح لها في أن تتشكل حسب نوع الفن والأدب الذي يطوعها لوسيطه، كذلك حسب نوع المبدع ومادته الخام التي يستخدمها في مجاله الإبداعي. ورغم أن اشتغالنا على الجسد كصورة، إلا أنه لا مناص من استعراض بسيط لحياة الصورة وديمومتها وتشكلها في الفنون الأخرى تحسباً لخلق مرجعية يستطيع القارئ الاستناد عليها وهو يتدرج في تلقيه للجسد كصورة، ولذلك سنمر على الصورة، تاريخياً، فنياً، جمالياً. فالصورة تاريخياً كانت مرافقة للإنسان الأول في الكهوف، وهي تكاد تكون مرجعية لكل الفنون والآداب والآثار والعلوم الإنسانية جمعاء. لأننا نعتقد أن المكان هو أساس كل تلك العلوم التي يستند عليها كمرجعية في انطلاق بحوثها ودراستها الأكاديمية الرصينة.

27) جماليات الجسد بين الأداء والاستجابة، د. علاء مشذوب، 2014م.

الجسد هو المدونة الأولى التي حاول الإنسان أن يحولها منه إلى الجدار الأول الذي كان يختفي في كنهه، ثم بدأ يجسد أمامه نوازعه، وحيثما دارت عجلة التطور الإنساني لمحيطه ولنفسه، ضمن تسلسل زمني ليس بالقصير كان الجسد هو أحد الأشياء التي تطورت من كونها المدونة الثانية التي وشمت بأشكال وأسماء، وبين فترة وأخرى يتعرض مفهوم الجسد لاختلاف الآراء حوله، حتى جاء النقد الثقافي ليسلط الضوء على كل مهمش، بالرغم من أن الجسد كان حاضراً في كل المراحل الإنسانية، سواء على المستوى المعيشي أو الفني وغيرها من المستويات الأخرى الموازية لحياة الإنسان، إلا أنه لم يأخذ حظه من الدراسة والتنظير.

28) الشخصية النموذجية في الدراما التلفزيونية، د. صالح الصحن، 2014م.

يتناول المؤلف ثلاث شخصيات قدمتها الدراما العراقية والعربية تركت اثرها عند المشاهد العراقي بشكل خاص والعربي بشكل عام وتعلق بها، الكتاب تضمن أربعة فصول هي الشخصية الانموذجية بين المفهوم والمصطلح، وآلية بناء الشخصية النموذجية، والمعالجة الدرامية للشخصية النموذجية، والنماذج التحليلية للدراما التلفزيونية العربية. أن عملية المعالجة الدرامية التلفزيونية للشخصية النموذجية لا تخلو من الإشكالية، ويسعى المؤلف عبر دراسة متأنية إلى تأسيس مرتكزات للعاملين في الدراما ليفهموا قبل أن يتعلموا كيف تبنى الشخصية الدرامية في النص ويستل لنا من الدراما العربية ثلاث شخصيات درامية، هم (العمة نور) من مسلسل مصري كتبه محمد أبو زيد وأخرجه عادل الأعصر، وقامت بالدور النجمة نبيلة عبيد، وشخصية (عبود) أو (عبود الضامن)، والست وهيبة من مسلسل عراقي، هو (عالم الست وهيبة)،كتبه صباح عطوان، وأخرجه فاروق القيسي، وقد بنيت كل من الشخصيات (العمة نور) و(عبود) و(الست وهيبة) وفق أصول منهجية لبناء الشخصية الدرامية في واقع الدراما العربية، المنهجي العلمي، المعالجة.. وقد أعاد الشخصيات إلى جذورها الاجتماعية، ضمن بيئتين مختلفتين، في سلوكين مغايرين.. وحللهم تحليلاً (دراماتوركيا) سليماً، أن هذه الدراسة منهجاً تربوياً تعليمياً مهما للجيل الطالع كي يفهم الدراما وأصول بناء الشخصيات فيها.

29) أعلام أمراء البلاط المغولي دراسة في دورهم العسكري والسياسي والإداري والاقتصادي والعمراني (624-673 هـ/1227-1274م)، أ.د. سعاد هادي أرحيم الطائي، 2014م.

لقد أظهرت الأحداث التاريخية بمختلف جوانبها الدور المهم الذي مارسه عدد من المسلمين وبقومياتهم المختلفة لاسيما ممن عملوا في البلاط المغولي سواء في عهد جنكيز خان أو في عهد خلفائه، لاسيما أن معظم هؤلاء كانوا من سكان البلاد التي خضعت للاحتلال المغولي، ونظراً لما كان يتمتع به هؤلاء من فكر إداري وسياسي وعسكري ثاقب، لهذا سعى جنكيز خان وخلفاؤه إلى تقريبهم منهم وأولوهم اهتماماً كبيراً لغرض الإفادة من قدراتهم الإدارية والسياسية والعسكرية، وأعطوا اهتماماً اكبر لمن كان يتمتع منهم بمواهب علمية وفكر ثاقب وإلمام بعلوم شتى ، وبمن يتقن لغات عدة. ولهذا شهد البلاط المغولي تقدماً ملحوظاً في المجالات كافة، وهذا يعود بالتأكيد لجهود عدد من الموظفين ممن كانوا يعملون في أركان الدولة المختلفة، لهذا لا نستغرب كثيراً من القرارات التي كان يأمر بها جنكيز خان، أو خلفاؤه لتعيين ،أو تولية عدد من هؤلاء في اعلى وظائف الدولة ، مثل الوزارة أو الولاية، بل انه اتخذ عدداً منهم مستشارين له لإدراكه بقدراتهم ولثقته برأيهم وكان معظمهم من المسلمين.

30) أقضية خراسان حتى نهاية القرن الرابع الهجري، زينب مهدي رؤوف، 2014م.

أن الكتابة عن أقضية خراسان حتى نهاية القرن الرابع الهجري مسألة مهمة لان الدراسات القضائية المعروفة والشائعة عن خراسان بخاصة والمشرق بعامة لم تتناول موضوع الأقضية ، بل اقتصرت على دراسة القضاء بمدينة من مدن الإقليم فالقت الأضواء على سير العملية القضائية في تلك المدينة . أما موضوع الدراسة هذا فلم يتطرق اليه احد ، على حد علمنا - على الأقل في الجامعات العراقية ، بهذه الطريقة الشمولية المنطوية على شيء من الاختصار الذي لا يخل بسياق البحث والأحداث وبتركيز واضح على نوعية وطبيعة الأقضية التي حكم بها قضاة خراسان . والسبب في تحديد هذه المدة الزمنية يعود إلى أن الفتح العربي الإسلامي لخراسان قد أوجد نظما إدارية إلى جانب النظم القديمة ، والقضاء واحد من تلك النظم القديمة . فخلال القرون الأربعة الأولى تبلور ليصبح ذا خصوصية كبقية أنظمة القضاء في الدولة العربية الإسلامية .

31) مراكش خلال عصر الموحدين دارسة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، د. مشتاق كاظم المياح، 2014م.

تحتل مدينة مراكش مكانة متميزة في تاريخ العرب والمسلمين، ذلك لأنها كانت عاصمة لدولتين متراميتي الأطراف وهما دولة المرابطين، ومن بعدها دولة الموحدين اللتان أبلتا بلاءً حسناً في رفع راية الإسلام وتحملتا عبء الدفاع عن ممتلكات المسلمين. ولما كان الباحثون المحدثون المهتمون بدراسة تاريخ المغرب العربي قد ركزوا جُلَّ اهتمامهم على دراسة الظاهرة السياسية، وأهملوا دراسة الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ودورهما في الأحداث السياسية، أو أنهم أشاروا اليها إشارات عابره، فقد وجدت إن دراسة تأثير تلك الجوانب في مدن مهمة مثل مدينة مراكش، دراسة تستحق البحث. وقد اعتمدت هذه الدراسة على جملة من المصادر، كان بعضها ذا فائدة كبيرة لا غنى عنها ولبعضها فائدة ثانوية، وقد تنوعت اتجاهات تلك المصادر فمنها : الجغرافية، والتاريخية، وكتب التراجم والطبقات، فضلاً عن المراجع الحديثة. أرجو أن تحقق دراستي هذه الهدف الذي أعدت من أجله وهو تعريف الشباب العربي الواعي بجوانب مشرقة من سيرة أمتنا المجيدة من خلال تسليط الضوء على واحدة من المدن العربية المهمة الا وهي مدينة مراكش الحمراء التي أصبحت مركز إشعاع حضاري بعد أقل من سبعين عاماً على تأسيسها فأن أصبت فهو قصدي ومبتغاي وأن أخطأت فحسبي أن لي أجر المجتهد .

32) الأحوال الاجتماعية والاقتصادية لأعيان الأندلس في عهدي الإمارة والخلافة، صباح الحميداوي، 2014م.

تتطرق الدراسة إلى معرفة الأحوال الاجتماعية لتلك الطبقة، والجوانب المختلفة لأوضاعها الاقتصادية فضلاً عن عدم اقتصارها على سرد أو وصف للحدث وإنما تبع ذلك تحليل للروايات والنصوص ونقدها والموازنة بينها للخروج برأي سديد ومنطق قويم. والمتتبع لكتب السير والتراجم والطبقات يلحظ أن أعيان الأندلس لم يكونوا من الأغنياء والمتنفذين وأصحاب الجاه حسب بل انضم إليهم من ارتبطت أصوله بفقراء القوم ومساكينهم بعد أن علا نجمه بفعل علم رفعه، أو اجتهاد أوصله، أو حرفه برع فيها، وموهبه حباه الله بها، أو ضربة حظ جعلت منه قائدا أو حاجبا أو كاتبا أو شاعرا، فخرج من بؤسه الذي هو فيه واصطف إلى جانب مرتبة أعيانهم.

33) مبادئ الجيوبوليتيك، أ.د. نورا الخيري، 2014م.

تتفق الاستراتيجيات الدولية على اختلافها على أهمية ومحورية العامل الجغرافي - السياسي في تحقيق أهداف الدولة وطموحاتها وتثبيت مكانتها في سلم توزيع القوى الدولية وإظهار الدور الأكثر تميزاً ، بل والسعي إلى تحسين تلك المكانة وذلك الدور. فالعامل الجغرافي مرتبطاً مع سياسة الدولة ينتج السياسة الجغرافية أو الجيوبوليتيك التي تدفع أو تشجع الدول ذات الطموحات بل وذات الأطماع كذلك على الامتداد والتوسع على حساب غيرها من الدول . تعد السياسة الجغرافية أو الجيوبوليتيك مفهوم وسياسة ليست بالحديثة من حيث الطرح والتداول ، فقد تم طرحها وتداولها كمعنى ومضمون لسياسة دول حتى قبل أن يتم التوصل إلى اكتشاف مصطلح الجيوبوليتيك ، إذ تم تداول معناها الدقيق ضمن مصطلح وعلم الجغرافية السياسية . إن البحث في الجيوبوليتيك يستلزم تحديد المفردة أو المصطلح كمفهوم ومضمون وسياسة وتعيين الفروقات بينه وبين الجغرافية السياسية ، وبينه وبين غيره من المصطلحات التي من الممكن أن تقترب منه، تأتي أهمية دراسة الجيوبوليتيك كونه يشكل جزءاً مهماً وحيوياً من العلاقات الدولية والاستراتيجية ، فلا يكتمل البحث فيهما ودراستهما من دون دراسة الناحية الجيوبوليتيكية لهما وذلك من خلال معرفة الآثار السياسية على الجوانب الجغرافية أو على المكان أو الإقليم ، والتي توضح مكانة الدولة قوةً أو ضعفاً وبما يخدم سياسات الدول واستراتيجياتها وما تحمله من أهداف تسعى إلى تحقيقها .

34) قدرات الدماغ البشري الفائقة، محمد جاسم عيسى ، 2014م.

البارسيكولوجي علم عصري فريد يحاول اكتشاف طاقات وإمكانات الفكر الإنساني الخارقة وقدراته الفائقة وإيجاد التفسير العلمي المقبول لهذه الطاقات والقدرات العجيبة التي حيرت العلماء والمفكرين والباحثين.

في الكتاب الأثارة والكف من قدرات الدماغ البشري - إعادة توزان الاداء لمركز حسي معين - أساليب معالجة الاضطرابات الوظيفية - التحفيز والقدرات الفائقة - الحدس والاستشفاف الفكرة حالة حركية - التفكير ونظام الكلام - الفكرة والألم والخوف وقوانيين الكون - السرطان والعلاج باللمس والموجات الفكرية المشفرة - التنويم المغناطيسي واستخداماته.

35) الثورة العربية والمستقبل فلسفة الزمن والتاريخ في ثورة "الربيع العربي"، ميثم الجنابي،2014م.

العمل الذي أقدمه هو رؤية فلسفية لمسار الثورة العربية وغايتها. وكل ما فيه يتجه ويهدف إلى كشف طبيعة ونوعية مسار الثنائيات المتضادة لليأس والبأس، والقنوط والأمل وأشباهها المتنوعة في كل ميادين مستويات الوجود الفعلي للعرب المعاصرين، أي كل ما أضمه بمعايير الفكرة الفلسفية عن وحدة الزمن والتاريخ. وليست الثورة العربية الحالية سوى الصورة الأولية لهذه الحالة التي قلبت للمرة الأولى على امتداد مائة عام، وقبلها قرون من الغيبوبة والظلام، ميزان العلاقة الضرورية بين الزمن والتاريخ. ومن ثم وضع النفس أمام الامتحان الأعقد للمستقبل، أي العيش بمعاييره ومتطلباته. وبالتالي لا معجزة للعرب الآن سوى تذليل العجز القائم في سيطرة الزمن واضمحلال التاريخ عبر إعادة الاعتبار للكينونة الاجتماعية وتنشيطها صوب تكاملها الذاتي بوصفه مشروعا مستقبليا. بمعنى العيش بمعايير الحداثة ومنافسة الأمم في صنع البدائل الكبرى. وذلك لان العالم العربي لا يمكنه الآن الافتخار بأي شيء من هذا القبيل. وافتخاره الوحيد هو ظهور قدرة التحدي والمواجهة لأصلف الأنظمة الدكتاتورية الخربة في العصر الحديث! وبما أنها "دكتاتورياتنا"، أي جزء من خرابنا المادي والمعنوي، فان مهمة تذليلها من اجل الانطلاق في عوالم الحرية غير المتناهية هي خيارنا أو اختيارنا الوحيد للبرهنة على إننا أمة حية، وأن المستقبل الإنساني الحضاري الذي جرى وضع أسسه ومدارسه الأولية هنا قبل ألوف السنين هو ليس وهما بل حقيقة فعلية. بمعنى انه يلزمنا بما فيه! وهو الشيء الوحيد الذي لا خيار فيه بوصفه اختيارا واختبارا أبديا!

36) كثر الحديث - شعر ، كريم العراقي، 2013م. ط2 - 2014م.

كثر الحديث عن التي أهواها، كثر الحديث من التي أهواها، ماعمرها ماسرها ما اسمها، ما شكلها شقراء أم سمراء، عيناك أحلى أنت أم عيناها، جل الذي أخشاه أن تتأثري، فتماسكي وتهيأي وتحضري، فلغيرة النسوان فعل الخنجر، فلغيرة الحلوات فعل الخنجر.

37) محمد الماغوط وثورة الشعرية(بين شعرية النثر ونثرية الشعر) ومختارات شعرية، عصام شرتح، 2014م.

تمتاز قصائد محمد الماغوط بمناوشاتها التشكيلية المراوغة التي تخفي وراءها عبثاً في العقائد والشرائع والعادات ؛ مما يجعلها تضج بالشكوى والألم والسخرية اللاذعة بمعالم الوجود وحركة الأشياء ، وتمتاز بطابعها التجريدي رغم إيقاعها العاطفي البسيط ؛ من خلال الاستعارات المفاجئة التي تعتمد المزج بين المحسوسات أو المجردات ، لإثارة الحركة الذهنية صوب تداخل الموصوفات وغرابتها الإسنادية . تكتظ قصائد الماغوط بمعجم لغوي سياسي يشي بالواقع المعاصر والتطورات السياسية المعاصرة ؛ إذ نجده يستخدم مصطلحات مشتقة من حقل السياسة ، وتمتاز قصائده بتنوع حقولها الدلالية ، كحقل النبات والماء والاقتصاد والتجارة وحقل الزراعة وعلم الاجتماع والفلك والسياسة والطب والهندسة وبتراكم الصفات والمسميات المتباعدة ، لخلق تراكيب جديدة مثيرة تشي بالمراوغة التشكيلية والحنكة الاستعارية بالمزج بين الأوصاف الحسية والمجردة والأوصاف المجردة بالحسية، مما يجعل مفردات قصائده متنوعة مستقطبة من حقول مختلفة ؛ وكأن معجمه الشعري موسوعة علمية متكاملة شاملة للمفردات الحياتية كلها على المستويات كافة .

38) ممدوح عدوان مدونات الفن الشعري ومختارات شعرية، عصام شرتح، 2014م.

تكشف مدونة التجربة الشعرية - عند ممدوح عدوان - عن رؤى جمالية : تميزت بها أمداء هذه التجربة ؛ كحيازتها على مداليل التراث والتقنيات السردية الفاعلة في تحريك الحدث الشعري ؛ وتكثيف مدونات القصيدة - لديه - بما في ذلك تعزيز الطاقة الدلالية والإيحائية لقصائده ؛ من حيث الكثافة الشعورية والمد الانفعالي لهذه التجربة والقدرة التصويرية على مباغتة القارئ بالجديد والممتع على الدوام ؛ نظراً إلى ما تضمه هذه التجربة من فضاءات دلالية غاية في المكاشفة والموارية التصويرية والقفزات التخييلية القادرة على بث الحدث الشعري وتعميق فاعليته الدلالية ضمن المساق النصي العام .

39) مضمار الحقائق وسر الخلائق - قطعة منه -، المنصور محمد بن تقي الدين عمر الأيوبي - تحقيق د. منذر الحايك، 2014م.

كان المنصور آخر الملوك المقاتلين بحماة، وأول المهتمين بالعلم منهم، وفي بلاطه الذي كان أشبه بمنتدى علمي ظهر كتاب المضمار الذي يمتاز بتفاصيل تعطينا فكرة نادرة عن الواقع الحقيقي لعصره، من خلال ثلاث مواضيع: أولها الخلافة العباسية، وما كان يجري في قصورها، فقد أورد نصوص مراسلات الخليفة ومراسيمه، وما كان يدور بينه وبعض ندمائه من أحاديث في جلسات السمر. ووصف ملابسه وتحركات موكبه وصفاً يعجز عنه المشاهد العادي. وبعدها تأتي أخبار صلاح الدين وكأنها من قلب الحدث، وخاصة معركة بيت الأحزان حيث نلاحظ وصف شاهد عيان، مشارك في القتال. وآخرها حملة قراقوش على المغرب حيث لا توجد روايات أخرى بهذه الدقة والتفاصيل وخاصة حول بطون قبيلة سليم وقبائل البربر. وهناك مقارنة نلمحها في طيات الكتاب بين شخصية الخليفة الذي كان همه حسان الوجوه، وسماع المغنيات، والصيد ورمي البندق. وبين بساطة حياة صلاح الدين الأيوبي، وتقواه وجهاده عن الأمة والأرض والدين، وعظيم انتصاراته على جيوش أوروبا الغازية.

الاتحاديون

Union and Progress Committee and Progress

مثلت «جمعية الاتحاد والترقي» القوة الرئيسة التي حكمت الدولة العثمانية لنحو عقد من الزمان، امتد من العام ١٩٠٨ إلى العام ١٩١٨، التي وضعت أسسا، بل رفعت أعمدة المرحلة التي تلته. فكان مؤسسو دولة تركيا الحديثة، بضمنهم الرؤساء الثلاثة الأوائل للجمهورية التركية، الذين تزعموا الحكومة التركية منذ العام ١٩٢٣ إلى العام ١٩٦٠، أعضاء سابقين في جمعية الاتحاد والترقي. الأهم من هذا إن الفكر السياسي الحديث، لا لتركيا فقط وإنما لكل المنطقة الخاضعة للدولة العثمانية، حُددت ملامحه خلال المرحلة ١٨٨٩-١٩٠٨، واضطلع الاتحاديون بدور كبير في تلك العملية. كما كان لثورتهم دور متميز في إعادة تنظيم الشرق الأوسط والبلقان، وتعريف المنطقة بقيم وأفكار جديدة شكلا ومضمونا.

كل ذلك وغيره يعطي أهمية كبيرة لدراسة خلفية الاتحاديين ومنهجهم الفكري والسياسي، ويجعل منها أمرا ضروريا لأي محاولة لفهم التغيرات والتطورات التي حصلت في السنين الأخيرة من عمر الدولة العثمانية، والسنين الأولى للجمهورية التركية.


الامير صباح الدين


أنور




نيازي باشا

أحمد رضا


جمال باشا


ابراهيم تيمو


عبد الله جودت

طونالي حلمي


طلعت باشا



بغداد - شارع المتنبي - بناية المكتبة البغدادية

ISBN 978-993349542-8



تصميم الغلاف: م. جمال الأبطح